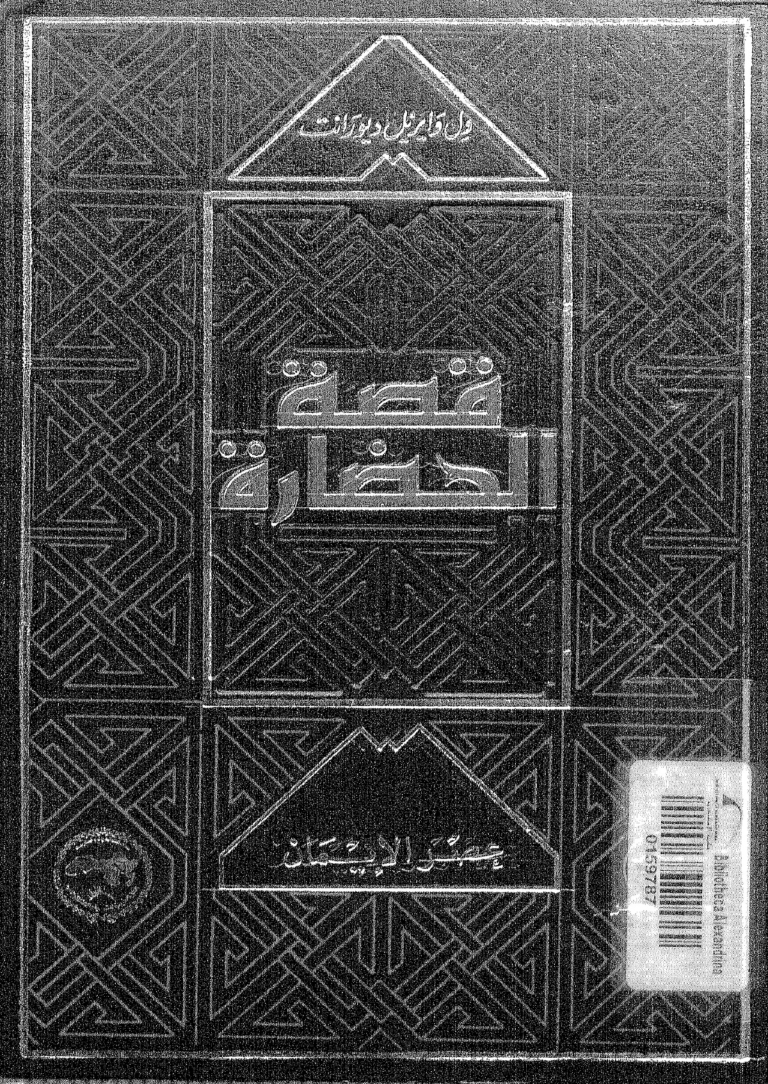
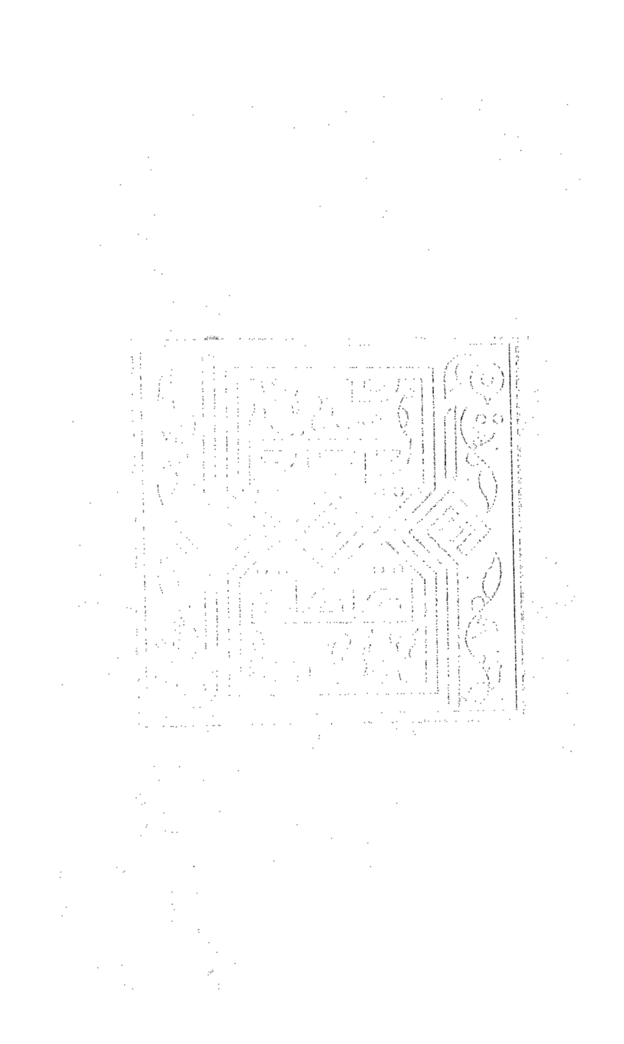
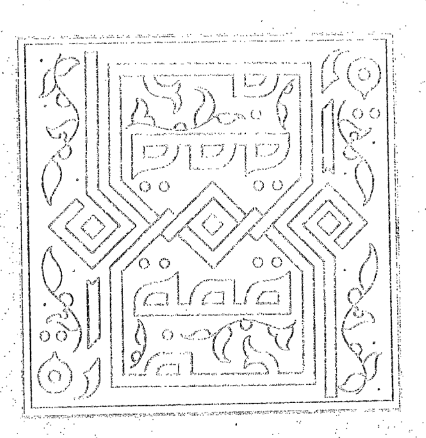

ول وايريل ديورانت
قصة الحضارة
عصر الإيمان





قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة

محمد بدران

الجزء الرابع من المجلد الرابع





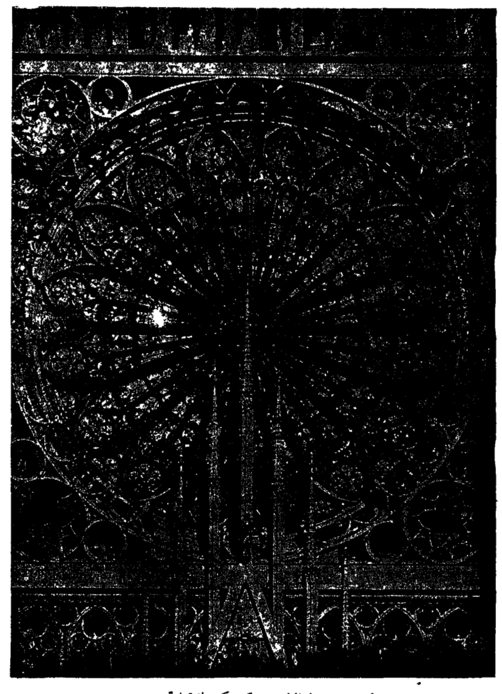
بيروت



تونس

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي : دار جيلاب - بيروت - لبنان



(صورة ١) نافذة وردية من كتدرائية استرسبرج.

الفهـــرس

الكتاب الخامس ـ المسيحية فى عنفوانها

موضــــوع الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الباب السادس والعشرون : إيطاليا قبل النهضة

فهرس الصـــور

الكتاب الخامس

المسيحية فى عنفوانها

١٠٩٥ — ١٣٠٠

ثبت مسلسل بالحوادث الواردة
فى الكتاب الخامس

---

٧٥٠ — ١١٠٠ : إدا الكبير .
٨٤٢ : يمين أسترسبورج تستخدم فيها اللغة الوطنية .
حوالى ١٠٠٠ : نشأة الموسيقى المتعددة النغم .
١٠٢٠ : العهد الاشتراكى الأول (لمدينة ليون) .
١٠٤٠ : التجسيد الموسيقى لجيدو الأرزووى .
١٠٥٠ — ١١٢٢ : روسلان ، الفيلسوف .
١٠٥٦ — ١١١٤ : نسطور والسجل الروسى .
١٠٥٦ — ١١٣٣ : هلد برت التورى ، الشاعر .
١٠٦٦ — ١٠٨٧ : وليم الأول ملك إنجلترا .
١٠٦٦ — ١٢٠٠ : هندسة النورمان المعمارية فى إنجلترا .
١٠٧٦ — ١١٨٥ : جلبرت ده لابريه ، الفيلسوف .
١٠٧٩ — ١١٤٢ : أبلار ، الفيلسوف
١٠٨٠ : القناصل فى لكا ؛ نشأة المدن ذات الحكومات الذاتية فى إيطاليا (القرمونات) .
١٠٨٠ — ١١٥٤ : وليم الكونشيسى ، الفيلسوف .
١٠٨١ — ١١٥١ : سوجر ، رئيس دير سانت دنوس .
١٠٨٣ — ١١٤٨ : أنا كومينا ، المؤرخة .
١٠٨٥ : كتاب يوم الحشر الإنجليزى .
١٠٨٦ — ١١٢٧ . وليم العاشر ، دوق أكتين ، أول من عرف من شعراء الفروسية الغزلين .
١٠٨٨ وما بعدها : إرنريوس والقانون الرومانى فى بولونيا .
١٠٨٨ — ١٠٩٩ : البابا إربان الثانى .
١٠٨٩ — ٢١٣١ : دير كلونى .
١٠٩٠ — ١١٥٣ : سان برنار .
١٠٩٣ — ١١٠٩ : أنسلم كبير أساقفة كنتربرى .
١٠٩٣ — ١١٧٥ : كنيسة دورهام الكبرى .
حوالى ١٠٩٥ : أغنية رولان .
١٠٩٥ : الدعوة إلى الحرب الصليبية الأولى .
١٠٩٥ — ١١٦٤ : روجر الثانى صاحب صقلية .

١٠٩٨ : تأسيس النظام السسترسى .
١٠٩٨ — ١١٢٥ : هنرى الخامس ملك ألمانيا .
١٠٩٩ : استيلاء الصليبيين على بيت المقدس .
١٠٩٩ — ١١١٨ : البابا باسكال الثانى .
١٠٩٩ — ١١٤٣ : مملكة أورشليم اللاتينية .
١٠٩٩ — ١١٧٩ : سانت هلد جارد .
حوالى ١١٠٠ : الأرقام الهندية (العربية) فى أوروبا ، الورق يصنع فى القسطنطينية .
١١٠٠ — ١١٣٥ : هنرى الأول ملك إنجلترا .
١١٠٠ — ١١٥٥ : أرنلد البرشيانى ، المصلح .
١١٠٤ — ١١٩٤ : النمط الانتقالى فى المعمار .
١١٠٥ : كتاب الأسئلة الطبيعية لأدلارد .
١١١٠ : جامعة باريس تتشكل .
١١١٣ : الأمير مونوماخ يهدئ الثورة فى كيف .
١١١٤ — ١١٥٨ : أتو الفريزنجى ، المؤرخ .
١١١٤ — ١١٨٧ : جرارد الكريمونى ، المترجم .
١١١٧ : أبلار يعلم هلوائيز .
١١١٧ — ١١٨٠ : يوحنا السلزبورى الفيلسوف .
حوالى ١١٢٠ : نشأة رهبان فرسان مالطة .
١١٢١ : الحكم على أبلار فى سواسون .
١١٢٢ : اتفاقية وورمز .
١١٢٢ — ١٢٠٤ : إليانور صاحبة أكتين .
١١٢٣ : مجلس لاتران الأول .
١١٢٤ — ١١٥٣ : داڤد الأول ملك اسكتلندة .
١١٢٧ : نشأة فرسان المعبد .
١١٣٣ وما بعدها : دير سانت‌دنيس يعاد بناؤه على الطراز القوطى .
١١٣٥ — ١١٥٤ : استيفن ملك إنجلترا .
١١٣٧ : الكورتيز الأول ؛ كتاب تاريخ بريتوموم لجفرى المنموثى .
١١٣٧ — ١١٩٦ : ولتر ماپ (س) الهجاء .
١١٣٨ : كنراد الثالث يؤسس أسرة هوهنستاوفن .
١١٣٩ — ١١٨٥ : ألفنسو الأول أنريكيز أول ملوك البرتغال .
١١٤٠ : أبلار يحكم عليه فى سان .
١١٤٠ — ١١٩١ : كريتين (المسيحى (ده ترويه) .
١١٤٠ — ١٢٢٧ : الشعراء الجلياريون .
١١٤٢ : نشأة حزبى الجولف والجبلين .
١١٤٢ : دكريتوم لجراتيان .

١١٤٠ – ١٢٠٢ : يواقيم الفلوراتى .
١١٤٦ – ١١٤٧ : ثورة أرنلد البرشيانى .
١١٤٧ – ١٢٢٣ : جرالدس كبرنسس الجغرافى .
حوالى ١١٥٠ : النيبلنجنليد .
١١٥٠ : السنتنتيا لبطرس لمبارد ، تماثيل مواساك ، الدنالة المتحركة تستخدم فى نوايون .
١١٥٠ – ١٢٥٠ : مجد الفرنسيين شعراء الفروسية الغزليين .
١١٥٢ – ١١٩٠ : فردريك الأول بربرسا إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .
١١٥٤ – ١١٥٩ : البابا هدريان الرابع .
١١٥٤ – ١١٨٩ : هنرى الثانى يؤسس أسرة بلانتجنت .
١١٥٤ – ١٢٥٦ : يورك منستر .
١١٥٦ : تأسيس مسكو .
١١٥٧ : مصرف البندقية يصدر صكوكا حكومية .
١١٥٧ – ١٢١٧ : اسكندر نكهام ، العالم الطبيعى .
١١٥٩ – ١١٨١ : البابا اسكندر الثالث .
حوالى ١١٦٠ : السيد .
١١٦٠ – ١٢١٣ : جوفرى ده ڤيلهاردون ، المؤرخ .
١١٦٣ – ١٢٣٥ : كنيسة نوتردام فى باريس .
١١٦٥ – ١٢٢٠ : ولفرام ڤون اشنباخ ، الشاعر .
١١٦٥؟ – ١٢٢٠ : ولتر ڤون در ڤوچلڤيد ، الشاعر .
١١٦٧ : تكوين العصبة اللمباردية ؛ نشأة جامعة أكسفورد .
١١٦٧ – ١٢١٥ : پيرڤيدال شاعر الفروسية الغزلى .
١١٧٠ : مقتل تومس آبكت ؛ استرنجبو ، ذو القوس القوى ، يبدأ فتح أيرلندة ؛ بطرس ولدو فى ليون .
١١٧٠ – ١٢٢١ : سانت دمنيك .
١١٧٠ – ١٢٤٥ : اسكندر الهاليسى الفيلسوف .
١١٧٢ وما بعدها : قصر الدوج .
١١٧٤ – ١٢٤٢ : كنيسة ولز الكبرى .
١١٧٥ – ١٢٣٤ : ميخائيل أسكت
١١٧٥ – ١٢٨٠ : الطراز الإنجليزى القوطى الأول .
١١٧٥ وما بعدها : كنيسة كنتربرى الكبرى .
١١٧٦ : إنشاء جماعة كارثوزيا ، هزيمة فردرك بربرسا فى لنيانو .
١١٧٨ وما بعدها : الملحدون الأليچنسيون ؛ كنيسة پيتربرو .
١١٧٨ – ١٢٤١ : استرى استرلسون ، المؤرخ .
١١٧٩ : مجلس لاتران الثالث .
١١٨٠؟ : إنشاء جامعة منبلييه ، مارى ده فرانس الشاعرة .

١١٨٠ — ١٢٢٥ : فليب الثانى أغسطس ملك فرنسا .
١١٨٠ — ١٢٥٠ : ليونارد وده فيبوناتشى ، العالم الرياضى .
١١٨٠؟—١٢٥٣ : وبرت جرسيتسى ، العالم الطبيعى .
١١٨٢ — ١٢١٦ : القديس فرانسس الأسيسى .
١١٨٥ — ١٢١٩ : أرمينية الصغرى تزدهر تحت حكم لبو الثالث .
١١٨٥ — ١٢٣٧ : كنيسة بامبرج .
١١٨٩ — ١١٩٢ : الحرب الصليبية الثالثة .
١١٨٩ — ١١٩٩ : رتشرد الأول قلب الأسد .
١١٩٠ : نشأة طبقة الفرسان التيوتون .
١١٩٠ — ١١٩٧ : هنرى السادس ملك ألمانيا .
١١٩٢ — ١٢٣٠ : أوتاكار الأول ملك بوهيميا .
١١٩٢ - ١٢٨٠ : لنكولن منستر .
١١٩٣ — ١٢٠٥ : أندريكو دندولو دوج البندقية .
١١٩٣ — ١٢٨٠ : ألبرتس ماجنس .
١١٩٤ — ١٢٤٠ : لويلين الأكبر ملك ويلز .
١١٩٤ — ١٢٥٠ : فردرك الثانى ملك صقلية .
١١٩٥ — ١٢٣١ : سانت أنتونى فى بدوا .
١١٩٥ — ١٣٩٠ : كنيسة بورج .
١١٩٨ — ١٢١٦ : البابا إنوسنت الثالث .
١١٩٩ — ١٢١٦ : جون ملك إنجلترا .
١٢٠٠؟ : داڤد الدينانتى الفيلسوف .
١٢٠٠ — ١٣٠٤ : بهو القماش فى إيبرس .
١٢٠٠ — ١٢٥٩ : ماثيو باريس المؤرخ .
١٢٠٠ — ١٢٦٤ : ڤنسنت عالم بوڤيه ، من رجال الموسوعات .
١٢٠١ : الألمان يفتحون ليڤونيا .
١٢٠١ — ١٥٠٠ : كنيسة رون .
١٢٠٢ — ١٢٠٤ : الحرب الصليبية الرابعة .
١٢٠٢ — ١٢٠٥ : فليب الثانى ملك فرنسا يستولى على نورمنديا ، وأنچو ، ومين ، وبريطانى من إنجلترا .
١٢٠٢ — ١٢٤١ : ڤلمدير الثانى ملك الدنمرقة .
١٢٠٤ — ١٢٢٩ : الحرب الصليبية الألبجنسية .
١٢٠٤ — ١٢٥٠ : معجزة جبل القديس ميخائيل .
١٢٠٤ — ١٢٦١ : مملكة القسطنطينية اللاتينية .
١٢٠٥ : أقدم إشارة مسيحية إلى البوصلة المغنطيسية ، مسرحية هارتمان فن أوى **Demarme Heinrich** .
١٢٠٥ — ١٣٠٣ : كنيسة ليون .

١٢٠٦ — ١٢٢٢ : ثيودور لسكاريس إمبراطور الشرق .
١٢٠٧ — ١٢٢٨ : استيفن لانجتون كبير أساقفة كنتربرى .
١٢٠٨ : القديس فرنسس يؤسس نظام الرهبان الصغار ؛ إنوسنت الثالث يصدر قرار الحرمان على إنجلترا .
١٢٠٩ : تأسيس جامعة كبردج .
١٢١٠ : تحريم كتب أرسطو فى باريس ؛ ترستران لجتفرايد الأستر سبورجى
١٢١١ — ١٤٢٧ : كنيسة رِمس .
١٢١٢ : حرب الأطفال الصليبية ، سانتا كلارا يؤسس نظام كلارا الفقيرات .
١٢١٣ — ١٢٧٦ : چيمس الأول ملك أرغونة .
١٢١٤ : فليب الثانى ينتصر فى بوفيه .
١٢١٤ — ١٢٩٢ : روچر بيكن .
١٢١٥ : العهد الأعظم ؛ مجلس لاتران الرابع ، تأسيس نظام الدومنيك .
١٢١٦ — ١٢٢٧ : البابا هونوريوس الثالث .
١٢١٦ — ١٢٧٢ : هنرى الثالث ملك إنجلترا .
١٢١٧ : الحرب الصليبية الخامسة .
١٢١٧ — ١٢٥٢ : فرديناند الثالث ملك قشتالة .
١٢١٧ — ١٢٦٢ : هاكون الرابع ملك النرويج .
١٢٢٠ — ١٢٤٥ : كنيسة سلزبرى .
١٢٢٠ — ١٢٨٨ : كنيسة أمين .
١٢٢١ — ١٢٧٤ : سانت بوناڤنتير .
١٢٢١ — ١٥٦٧ : كنيسة برجوس .
١٢٢٤ : إنشاء جامعة ناپلى .
١٢٢٤ — ١٣١٧ : چان ده چوانڤيل ، المؤرخ .
١٢٢٥ : قوانين الشاحسنسپيجل .
١٢٢٥ — ١٢٧٤ : القديس تومس أكويناس ، الفيلسوف .
١٢٢٥ — ١٢٧٨ : نيقولو پيزانو ، المثال .
١٢٢٦ — ١٢٣٥ : بلانش القشتالية نائبة الملك .
١٢٢٦ — ١٢٧٠ : لويس التاسع ملك فرنسا .
١٢٢٧ : تأسيس جامعة سلمنقة ، بداية محكمة التفتيش البابوية .
١٢٢٧ — ١٢٤١ : البابا جريجورى التاسع .
١٢٢٧ — ١٤٩٣ : كنيسة طليطلة .
١٢٢٧ — ١٥٥٢ : كنيسة بوفيه .
١٢٢٨ وما بعدها : كنيسة سان فرانسسكو فى أسيسى .
١٢٢٨ : الحرب الصليبية السادسة ، فردريك الثانى يسترد بيت المقدس .
١٢٢٩ — ١٣٤٨ : كنيسة سينا .

١٢٣٠ وما بعدها : كنيسة أستراسبورج .
١٢٣٠ — ١٢٧٥ : جيدو جنزلى .
١٢٣٢ — ١٣٠٠ : أرتلفودى كمبيو ، الفنان .
١٢٣٢ — ١٣١٥ : ريمندلى ، الفيلسوف .
١٢٣٥ — ١٢٨١ : سيجر البرابنتى ، الفيلسوف .
١٢٣٥ — ١٣١١ : آرنلد الفلانوفى ، الطبيب .
١٢٣٧ : المغول يغيرون على الروسيا ؛ رواية الوردة لوليم الوريس .
١٢٤٠ : انتصار اسكندر نفسكى على نهر النيفا .
١٢٣٠؟ : أوكسين ونيقولتى .
١٢٤٠ — ١٣٠٢ : سيمابيو .
١٢٤٠ — ١٣٢٠ : چيوفنى پيزانو ، الفنان .
١٢٤١ : المغول يهزمون الألمان عند ليجنتز ، ويفتحون كراكاو ويعيثون فساداً فى بلاد المجر .
١٢٤٣ — ١٢٥٤ : البابا إنوسنت الرابع .
١٢٤٤ : استيلاء المسلمين على بيت المقدس .
١٢٤٥ : مجلس ليون الأول يخلع فردريك الثانى .
١٢٤٥ : چيوفنى ده پيانو كربينى يزور بلاد المغول .
١٢٤٥ — ١٢٤٨ : سانتى شاپل .
١٢٤٥ — ١٢٧٢ : دير وستمنستر .
١٢٤٨ : القديس لويس يقود الحملة الصليبية السابعة .
١٢٤٨ — ١٣٥٤ : قصر الحمراء .
١٢٤٨ — ١٨٨٥ : كنيسة كولونى .
١٢٥٠ : أسر القديس لويس ، موت فردريك الثانى ، كتاب براكتن .
١٢٥٢ — ١٢٦٢ : تكوين عصبة مدن هانسيا .
١٢٥٢ — ١٢٨٢ : الفنسو العاشر الحكيم ملك قشتالة .
١٢٥٣ — ١٢٧٨ : أتوكار الثانى ملك بوهيميا .
١٢٥٤ — ١٢٦١ : البابا اسكندر الرابع .
١٢٥٥ — ١٣١٩ : دلتشيو السينائى ، المصور .
١٢٥٨ : هاكون الرابع ملك النرويج يفتح أيسلندة .
١٢٥٨ — ١٢٦٦ : مانفرد ملك صقلية .
١٢٥٨ — ١٣٠٠ : جيدو كفلكنتى .
١٢٦٠؟ : فلاجلنتس .
١٢٦٠ — ١٣٢٠ : هنرى ده مندڤيل ، الجراح .
١٢٦١ : ميخائيل الثامن باليكاجس يعيد الدولة الشرقية فى القسطنطينية .
١٢٦٥ : برلمان سيمون ده منتفورت .
١٢٦٥ — ١٣٠٨ : دنزاسكوتس ، الفيلسوف .

١٢٦٥ — ١٣٢١ : دانتى .
١٢٦٦ : كتاب روچر بيكن Opus Maius .
١٢٦٦ — ١٢٨٥ : تشارلس أمير أنچو ملك صقلية .
١٢٦٦ — ١٣٣٧ : چيتو .
١٢٦٨ : هزيمة كرارين ، ونهاية أسرة هوهنستوفن .
١٢٦٩ : الظاهر بيبرس يستولى على يافا وأنطاكية .
١٢٧٠ : لويس التاسع يقود الحملة الصليبية الثامنة .
١٢٧١ — ١٢٩٥ : ماركو پولو فى آسية .
١٢٧٢ — ١٣٠٧ : إدورد الأول ملك إنجلترا .
١٢٧٣ — ١٣٩١ : رودلف الهپسبرجى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .
١٢٧٤ : مجلس ليون الثانى .
١٢٧٩ — ١٣٢٥ : دنيز ملك البرتغال .
١٢٨٠ — ١٣٨٠ : الطراز القوطى الإنجليزى المزخرف .
١٢٨٢ : صلوات الغروب الصقلية ؛ بدرو الثالث صاحب أرغونة يستولى على صقلية .
١٢٨٣ : إدورد الثالث يعيد فتح ويلز .
١٢٨٤ : بلفرى صاحب بروچ .
١٢٨٥ — ١٣١٤ : فليب الرابع الجميل ملك فرنسا .
١٢٩٠؟ : القصة الذهبيـة تأليف يوقوبر ده ڤراچين ، رواية الوردة Roman de la Rose تأليف جان منج .
١٢٩٠ — ١٣٣٠ : كنيسة أورڤيتو .
١٢٩١ : استيلاء المماليك على عكا ، نهاية الحروب الصليبية ، عصبة المقاطعات السويسرية .
١٢٩٢ — ١٣١٥ : چون بليول ملك اسكتلندة .
١٢٩٤ : لانفرنى ينشئ فن الجراحة الفرنسى .
١٢٩٤ : كنيسة سانت كروس (الصليب المقدس) فى فلورنس .
١٢٩٤ — ١٣٠٣ : البابا بنيفاس الثامن .
١٢٩٤ — ١٤٣٦ : كنيسة سانتا ماريا ده فيورى فى فلورنس .
١٢٩٥ : البرلمان النموذجى الذى أنشأه إدورد الأول .
١٢٩٦ : القرار البابوى لبنيفاس .
١٢٩٨ : هزيمة ولاس فى فلكيرك ، قصر فيتشيو والتعميد فى فلورنس .
١٢٩٨ وما بعدها : كنيسة برشلونة .

١٣٠٢ : الفلمنكيون يهزمون الفرنسيين عند كورتراى ، القرار البابوى لبنيفاس ، فليب الرابع يدعو مجلس الولايات إلى الاجتماع .

١٣٠٥ — ١٣١٦ : البابا كلمنت الرابع .

١٣٠٨ — ١٣١٣ : هنرى السابع إمبراطور الغرب .

١٣٠٩ : البابا ينقل البابوية إلى أفنيون .

١٣١٠ — ١٣١٢ : حل نظام فرسان المعبد فى فرنسا .

١٣١٤ : اسكتلندة تحصل على استقلالها فى بنكبيرن .

١٣١٥ : السويسريون يهزمون جيش آل هبسبرج فى موجارتن ، وينشئون الاتحاد السويسرى .

الباب الثالث والعشرون

الحروب الصليبية

١٠٩٥ -- ١٣٩١

الفصل الأول

أسبابها

كانت الحروب الصليبية هي الفصل الأخير من مسرحية العصور الوسطى ؛ ولعلها أجدر الحوادث بالتصوير في تاريخ أوربا والشرق الأدنى ، ففيها عمد الدينان العظيمان – المسيحية والإسلام – ، آخر الأمر ، وبعد قرون من الجدل والنقاش ، إلى الفيصل الأخير فيما يشجر بين بني الإنسان من نزاع ، ونعني به محكمة الحرب العليا ؛ وفيها بلغ كل تطور في العصور الوسطى ، وكل توسع في الشئون التجارية والديانة المسيحية ، وكل تحمس في العقيدة الدينية ، وكل ما في الإقطاع من قوة ، وفي الفروسية من فتنة وبهجة ، وبلغ هذا كله غايته في حرب دامت مائتي عام في سبيل روح البشرية والأرباح التجارية .

وأول سبب مباشر للحروب الصليبية(*) هو زحف الأتراك السلاجقة . وكان العالم قبل زحفهم قد كيف نفسه لقبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى : وكان الفاطميون حكام مصر قد حكموا فلسطين حكماً سمحا رحيما ؛ استمتعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة في ممارسة شعائر دينها إذا استثنينا بعض فترات

(*) الاسم الإنجليزي Crusade مشتق من اللفظ الأسباني Cruzada أي عليه علامة الصليب :

قصيرة قليلة : نعم إن الحاكم بأمر الله ، الخليفة المجنون ، دمر كنيسة الضريح المقدس (١٠١٠) ؛ ولكن المسلمين أنفسهم قدموا المال الكثير لإعادة بنائها[١] . وقد وصفها الرحالة المسلم ناصري خسرو بأنها بناء واسع الجنبات تتسع لثمانية آلاف شخص ، بذل في بنائها أعظم ما يستطاع من الحذق والمهارة ، وزين كل مكان في داخلها بالنسيج الحريري البزنطي المطرز بخيوط الذهب ، ورسم فيها المسيح عليه السلام راكباً على ظهر حمار[٢] ؛ وكان في أورشليم كنائس أخرى كثيرة ؛ وكان في وسع الحجاج المسيحيين أن يدخلوا الأماكن المقدسة بكامل حريتهم ؛ وكان الحج إلى فلسطين قد أصبح من زمن بعيد إحدى شعائر العبادة أو التوبة من الذنوب ، فكان الإنسان أينما سار في أوربا يلتقي بحجاج يدلون على أنهم أدوا هذه الشعيرة بأن يضعوا على أثوابهم شارة في شكل الصليب من خوص النخل (*) جاءوا به من فلسطين ؛ ويوصف هؤلاء في كتاب بيرز بلاومان Piers Plowman بأنه « كان من حقهم أن يكذبوا ويخادعوا ما بقي من حياتهم[٣] » . لكن الأتراك انتزعوا بيت المقدس من الفاطميين في عام ١٠٧٠ ، وأخذ الحجاج المسيحيون بعد عودتهم إلى أوطانهم يتحدثون عما يلقونه فيها من ظلم وتحقير . وتقول قصة قديمة لا نجد ما يؤيدها ، إن أحد هؤلاء الحجاج وهو بطرس الناسك حمل إلى إربان الثاني Urban II من سمعان بطريق أورشليم رسالة تصف بالتفصيل ما يعانيه المسيحيون فيها من اضطهاد وتستغيث به لينقذهم (١٠٨٨) .

وكان السبب المباشر الثاني من أسباب الحرب الصليبية ما حاق بالإمبراطورية البزنطية من ضعف شديد الخطورة . لقد ظلت هذه الإمبراطورية سبعة قرون طوال تقف في ملتقى الطرق المارة بين أوربا وآسية ، تصد جيوش آسية وجحافل

(*) وكان هؤلاء يسمون Palmers من كلمة palm أي النخلة ومن معاني كلمة Palmer غشاش أو مخادع في اللعب . (المترجم)

السهوب . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فإن اضطراب شئونها الداخلية ، وشيعها الخارجة على الدين ، وانفصالها عن الغرب على أثر الانشقاق الذى حدث فى عام ١٠٥٤ ، كل هذا قد أوهنها وجعلها أضعف من أن تؤدى رسالتها التاريخية . وبينا كان البلغار ، والبشناق Patznaks ، والكومان Comans ، والروس يدقون أبوابها فى أوربا ، كان الأتراك يقطعون أوصال ولاياتها الآسيوية ، وكاد الجيش البيزنطى أن يقضى عليه عند ملازكرت فى عام ١٠٧١ ، واستولى السلاجقة على حمص وأنطاكية (١٠٨٥) ، وطرسوس ، ونيقية ذات الماضى التاريخى الدينى ، وأخذوا يتطلعون من وراء مضيق البسفور إلى القسطنطينية نفسها ، واستطاع الإمبراطور ألكسيوس الأول (١٠٨١ — ١١١٨) أن يحتفظ بجزء من آسية الصغرى بعقد صلح مذل ، ولكنه لم تكن لديه القدرة الحربية على صد الغارات التى توالت بعدئذ على أملاكه . ولو أن القسطنطينية سقطت وقتئذ فى أيدى الترك لأمكنهم الاستيلاء على شرق أوربا كله ، ولما بقى لمعركة تور (٧٣٢) أثر ما . وبعث ألكسيوس برسله إلى إربان الثانى وإلى مجلس بياسنزا Piacenza يستحث أوربا اللاتينية لتساعده على صد هجمات الترك ؛ وكان من أقواله « إن من الحكمة أن يحارب الأتراك فى أرض آسية بدل أن ننتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوربا الغربية .

وثالث الأسباب المباشرة للحروب الصليبية هو رغبة المدن الإيطالية — بيزا ، وجنوى ، والبندقية ، وأملفى Amalfi — فى توسيع ميدان سلطانها التجارى الآخذ فى الازدياد . ذلك أنه لما استولى النورمان على صقلية من المسلمين (١٠٦٠ — ١٠٩١) ، وانتزعت الجيوش المسيحية منهم جزءاً كبيراً من أسبانيا (١٠٨٥ ومابعدها) ، أصبح البحر المتوسط الغربى حراً للتجارة المسيحية ؛ وأثرت المدن الإيطالية وقويت لأنها هى الثغور التى تخرج منها غلات إيطاليا والبلاد الواقعة وراء الألب ، وأخذت هذه المدن تعمل للقضاء على تفوق المسلمين فى الجزء

الشرق من البحر المتوسط وتفتح أسواق الشرق الأدنى لبضائع غربى أوربا . ولسنا نعلم إلى أى حد كان هؤلاء التجار الإيطاليون قريبين من مسامع البابا .

وصدر القرار النهائى من إربان نفسه ، وإن كان غيره من البابوات قد طافت بعقولهم هذه الفكرة . فقد دعا جربرت Gerbert ، حينما أصبح البابا سلفستر الثانى Sylvester II ، العالم المسيحى لإنقاذ بيت المقدس ، ونزلت حملة مخفقة فى بلاد الشام (حوالى ١٠٠١) ؛ ولم يمنع النزاع المرير القائم بين جريجورى السابع وهنرى الرابع البابا من أن يقول بأعلى صوته : « إن تعريض حياتى للخطر فى سبيل تخليص الأماكن المقدسة لأفضل عندى من حكم العالم كله »[٤] . وكان هذا النزاع لا يزال على أشده حين رأس إربان مجلس بياسنزا فى مارس من عام ١٠٩٥ ؛ وأيد البابا فى هذا المجلس استغاثة ألكسيوس ، ولكنه أشار بتأجيل العمل حتى تعقد جمعية أكثر من هذا المجلس تمثيلا للعالم المسيحى ، وتبحث فى شن الحرب على المسلمين . ولعل الذى دعاه إلى طلب هذا التأجيل ما كان يعلمه من أن النصر فى مغامرة فى هذا الميدان البعيد غير مؤكد ؛ وما من شك فى أنه كان يدرك أن الهزيمة ستحط من كرامة العالم المسيحى والكنيسة المسيحية إلى أبعد حد ؛ وأكبر الظن أنه كان يتوق إلى توجيه ما فى طبائع أمراء الإقطاع والقراصنة النورمان من حب القتال إلى حرب مقدسة ، تصد جيوش المسلمين عن أوربا وبيزنطية . ولقد كان يحلم بإعادة الكنيسة الشرقية إلى حظيرة الحكم البابوى ، ويرى بعين الخيال عالماً مسيحيا عظيم القوة متحداً تحت حكم البابوات الدينى ، ورومة تعود حاضرة للعالم ؛ وكان هذا تفكيراً أملته رغبة فى الحكم لا تعلو عليها رغبة .

وظل البابا بعدئذ بين شهرى مارس وأكتوبر من عام ١٠٩٥ يطوف بشمالى إيطاليا وجنوبى فرنسا ، يستطلع طلع الزعماء ويضمن المعونة لما هو مقدم عليه . واجتمع المجلس التاريخى بمدينة كلير مونت Clermont فى مقاطعة أوفرنى ، وهرع

إليه آلاف الناس من مائة صقع وصقع لم يقف فى سبيلهم برد نوفبر القارس . ونصب القادمون خيامهم فى الأراضى المكشوفة ، وعقدوا اجتماعاً كبير لا يتسع له بهو ، وامتلأت قلوبهم حماسة حين وقف على منصة فى وسطهم مواطنهم إربان الفرنسى وألقى عليهم باللغة الفرنسية أقوى الخطب وأعظمها أثراً فى تاريخ العصور الوسطى :

يا شعب الفرنجة ! شعب الله المحبوب المختار ! . . . لقد جاءت من تخوم فلسطين ، ومن مدينة القسطنطينية ، أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله ، قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق ؛ ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع التعذيب . وهم يهدمون المذابح فى الكنائس ، بعد أن يدنسوها برجسهم ، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان ، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين .

على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ، إذا لم تقع عليكم أنتم — أنتم يا من حباكم الله أكثر من أى قوم آخرين بالمجد فى القتال ، وبالبسالة العظيمة ، وبالقدرة على إذلال رءوس من يقفون فى وجوهكم ؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم — أمجاد شارلمان وعظمته ، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم — فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا ، الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست ... لا تدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شئون أسركم . ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن ، والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام ، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً ، ويلتهم بعضكم بعضاً ، وتتحاربون ، ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الداخلية .

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على ما بينكم من نزاع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث ، وتملكوها أنتم . إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها ، هى فردوس المباهج . إن المدينة العظمى القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم ، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى فى ملكوت السموات(٥) » .

وعلت أصوات هذا الجمع الحاشد المتحمس قائلة : « تلك إرادة الله Dieu li volt » وردد إربان هذا النداء ودعاهم إلى أن يجعلوه نداءهم فى الحرب ، وأمر الذاهبين إلى الحرب الصليبية أن يضعوا علامة الصليب على جباههم أو صدورهم ويقول وليم مالمزبرى William Malmsbury : « وتقدم بعض النبلاء من فورهم ، وخروا راكعين بين يدى البابا ، ووهبوا أنفسهم وأموالهم لله »(٦) وحذا حذوهم آلاف من عامة الشعب ، وخرج الرهبان والنساك من صوامعهم ليكونوا جنود المسيح بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ لا بمعناه المجازى ، وانتقل البابا النشيط إلى مدن أخرى — إلى تور ، وبوردو ، وطولوز (طلوشة) ، ومنبلييه ، ونيمز Nimes ؛ وظل تسعة أشهر يخطب داعياً إلى الحرب الصليبية . ولما بلغ رومة بعد أن غاب عنها سنتين ، استقبلته بالترحاب أقدم مدن العالم المسيحى تقوى ، وأخذ على عاتقه أن يحل جميع الصليبيين من جميع القيود التى تعوقهم عن الانضمام إلى المقاتلين . ولم يلق فى عمله هذا مقاومة جدية ؛ فحرر رقيق الأرض ، وحرر التابع الإقطاعى طوال مدة الحرب مما عليه من الولاء لسيده ؛ ومنح جميع الصليبيين ميزة المحاكمة أمام المحاكم الكنسية لا أمام المحاكم الإقطاعية ، وضمن لهم مدة غيابهم حماية الكنيسة لأملاكهم : وأمر

بوقف جميع الحروب القائمة بين المسيحيين والمسيحيين — وإن لم يقو على تنفيذ أمره هذا ، ووضع مبدأ للطاعة يعلو على قانون الولاء الإقطاعى ؛ وهكذا توحدت أوربا كما لم تتوحد فى تاريخها كله ، ووجد إربان نفسه السيد المرتضى — من الوجهة النظرية على الأقل — لملوك أوربا على بكرة أبيهم . وسرت روح الحماسة فى أوربا كما لم تسر فيها من قبل فى أثناء هذا الاستعداد المحموم للحرب المقدسة .

الفصل الثانى

الحرب الصليبية الأولى

١٠٩٥ — ١٠٩٩

وانضوت جماعات لا عدد لها تحت لواء الحرب مدفوعة إلى هذا بمغريات جمة : منها أن كل من يخر صريعاً فى الحرب قد وعد بأن تغفر له جميع ذنوبه ، وأذن لأرقاء الأرض أن يغادروا الأراضى التى كانوا مرتبطين بها ، وأعفى سكان المدن من الضرائب ، وأجلت ديون المدينين على أن يؤدوا فائدة نظير هذا التأجيل ، وتوسع البابا فى سلطاته توسعاً جريئاً فأطلق سراح المسجونين ، وخفف أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم بها إذا خدموا طوال حياتهم فى فلسطين ، وانضم آلاف من المتشردين إلى القائمين بهذه الرحلة المقدسة ؛ وأقبل كثيرون من الأتقياء المخلصين ليخلصوا الأراضى التى ولد فيها المسيح ومات ، منهم رجال سئموا الفقر الذى كانوا يعانونه ، والذى ظنوا أن لانجاة لهم منه ، ومنهم المغامرون التواقون إلى الاندفاع فى مغامرات جريئة فى بلاد الشرق ، ومنهم الأبناء الصغار الذين يرجون أن تكون لهم إقطاعيات فى تلك البلاد ، ومنهم التجار الذين يبحثون عن أسواق لبضائعهم ، والفرسان الذين غادر أرضهم أرقاؤها فأصبحوا لا عمل لهم ، ومنهم ذوو النفوس الضعيفة الذين يخشون أن يرميهم الناس بالجبن وخور العزيمة . ونشطت الدعاوة المألوفة فى الحروب فأخذت تؤكد الاضطهاد الذى يلقاه المسيحيون فى فلسطين ، والمعاملات الوحشية التى يلقونها على أيدى المسلمين ، والأكاذيب عما فى العقيدة الإسلامية من زيغ وضلال ؛ فكان المسلمون يوصفون بأنهم يعبدون تمثالا للنبى محمد[٧] ؛ وأخذ الثرثارون « الأتقياء » يقولون : إن النبى قد

أصابته نوبة صرع التهمته فى أثنائها الخنازير البرية[٨] . ورويت قصص خرافية عن ثروة الشرق، وعن الغانيات السمر ينتظرن أن يأخذهن الرجال البواسل[٩].

وهذه البواعث المختلفة لا يمكن أن تجمتع من أجلها جموع متجانسة يستطاع إخضاعها لنظام عسكرى . وقد بلغ من أمر هذا الخليط أن النساء والأطفال أصروا فى كثير من الحالات على الانضمام إلى صفوف المجاهدين ليقوم النساء بخدمة أزواجهن، والأبناء بخدمة آبائهن ، ولعلهم كانوا على حق فى هذا الإصرار لأن العاهرات سرعان ما تطوعن لخدمة المحاربين. وكان إربان قد حدد لبدء الرحيل شهر أغسطس من عام ١٠٩٦ ، ولكن الفلاحين القلقين الذين كانوا أوائل المتطوعين لم يستطيعوا الانتظار إلى هذا الموعد ، فسار جحفل منهم عدته نحو اثنى عشر ألفا (لم يكن من بينهم إلا ثمانية من الفرسان) وبدأ رحلته من فرنسا فى شهر مارس بقيادة بطرس الناسك Peter the Hermit ، وولتر المفلس Walter the penniless (Gautar Sans-Avoir) ، وقام جحفل آخر — ربما كانت عدته ٥٠٠ من ألمانيا بقيادة القس جتسشوك Gattschalck ، وزحف ثالث من أرض الرين بقيادة الكونت إمكو الليننجينى Count Emico of Le iningen — . وكانت هذه الجموع غير النظامية هى التى قامت بأكثر الاعتداءات على يهود ألمانيا وبوهيميا ، وأبت أن تطيع نداء رجال الدين والمواطنين من أهل تلك البلاد ، وانحطت حتى استحالت إلى وقت ما وحوشا كاسرة تستر تعطشها للدماء بستار من عبارات التقى والصلاح . وكان المجندون قد جاءوا معهم ببعض المال ، لكنهم لم يجيئوا إلا بالقليل الذى لا يغنى من الطعام ، وكان قادتهم تعوزهم التجارب فلم يعدوا العدة لإطعامهم ؛ وقدر كثيرون من الزاحفين المسافة بأقل من قدرها الصحيح ، وكانوا وهم يسيرون على ضفاف الرين والدانوب كلما عرجوا على بلدة من البلدان يسألهم أبناؤهم فى لهفة — أليست هذه أورشليم ؟ ولما فرغت أموالهم ، وعضهم الجوع ، اضطروا إلى نهب ما فى طريقهم من الحقول والبيوت،

وسرعان ما أضافوا الفسق إلى السلب والنهب(١١) . وقاومهم أهل البلاد مقاومة عنيفة ، وأغلقت بعض المدن أبوابها فى وجوههم ، وأمرهم بعضها أن يرحلوا عنها بلا مهل ، ولما بلغوا آخر الأمر مدينة القسطنطينية ، بعد أن نفدت أموالهم ، وهلك منهم من هلك بفعل الجوع والطاعون ، والجذام ، والحمى ، والمعارك التى خاضوا غمارها فى الطريق ، رحب بهم ألكسيوس ؛ ولكنه لم يقدم لهم كفايتهم من الطعام . فانطلقوا فى أرباض المدينة ، ونهبوا الكنائس ، والمنازل ، والقصور . وأراد ألكسيوس أن ينقذ عاصمته من هذه الجموع الفتاكة التى أهلكت الحرث والنسل وكانت فيها كالجراد المنتشر . فأمدها بالسفن التى عبرت بها البسفور ، وأرسل إليها المؤن ، وأمرها بالانتظار حتى تصل إليها فرق أخرى أحسن منها سلاحاً وعتاداً . ولكن الصليبيين لم يستمعوا إلى هذه الأوامر ، سواء كان ذلك لجوعهم أو لقلقهم ونفاد صبرهم ، فزحفوا على نيقية . وخرجت عليهم قوة منظمة من الترك ، كلها من مهرة الرماة ، وأبادت هذه الطليعة من فرق الحرب الصليبية الأولى فلم تكد تبقى على أحد منها . وكان ولتر المفلس من بين القتلى ؛ وأما بطرس الناسك فكانت نفسه قد اشمأزت من هذه الجموع التى لا تخضع لقيادة ، وعاد قبل المعركة إلى القسطنطينية ، وأقام فيها سالماً حتى عام ١١١٥ .

وبينا كانت هذه الحوادث تجرى فى مجراها كان الزعماء والإقطاعيون الذين حملوا الصليب قد جمع كل منهم رجاله فى إقليمه . ولم يكن من بين هؤلاء الزعماء ملوك ، فقد كان فيليب الأول ملك فرنسا ، ووليم الثانى ملك إنجلترا ، وهنرى الرابع ملك ألمانيا ، كان هؤلاء جميعاً مطرودين من حظيرة الدين حين كان إربان الثانى يدعو إلى الحرب الصليبية ، ولكن كثيرين من الأشراف انضموا إلى صفوف المقاتلين ، وكانوا كلهم تقريبا من الفرنسيين أو الفرنجة . وبهذا كانت الحرب الصليبية الأولى فى الأغلب الأعم مغامرة فرنسية ، ومن أجل هذا ظل الشرق الأدنى إلى هذا اليوم إذا ذكر غربى أوربا سماه بلاد الفرنجة (الأفرنج) ، وكان

الدوق جدفرى Godfrey سيدبويون Bouillon (وهى مقاطعة صغيرة فى بلچيكا) يجمع بين صفات الجندى والراهب — كان شجاعاً محنكا فى الحرب ، ورعاً إلى حد التعصب فى الدين ؛ وكان الكونت بوهمند من سادة ترنتو Tarantô ابن روبرت جسكارد Robert Guiscard قد ورث عن أبيه كل شجاعته وبراعته ، وكان يحلم باقتطاع مملكة له ولجنوده النورمان من الأملاك البيزنطية السابقة فى الشرق الأدنى . وكان معه ابن أخيه تانكرد الهوتفيلى Tancred of Hauteville الذى شاءت الأقدار أن يكون بطل رواية أورشليم المنجاة Jeusalem Delivered لتاسو Tasso . وكان بهى الطلعة ، شجاعاً لا يهاب الردى ، شهماً ، كريماً ، يحب المجد والمال ، يعجب به الناس كافة ويرونه المثل الأعلى للفارس المسيحى . وكان ريموند Reymond كونت طولوز (طلوشة) قد حارب المسلمين من قبل فى أسپانيا فلما تقدمت به السن وهب نفسه وثروته العظيمة إلى حرب أكبر وأوسع ، ولكن غطرسته أفسدت عليه نبله ، ودنس بخله تقواه .

وسارت هذه الجموع إلى القسطنطينية من طرق مختلفة ؛ وعرض بوهمند على جدفرى أن يستوليا على المدينة ، فرفض جدفرى هذا العرض لأنه لم يأت ، على حد قوله ، إلا لقتال الكفرة[١٢] ، ولكن هذه الفكرة لم تمت . وكان فرسان الغرب الأشداء أنصاف الهمج يحتقرون سادة الشرق المثقفين المخادعين ، ويرون أنهم مارقون من الدين ، مخنثون ، مترفون . وكانوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى الكنوز المخزونة فى كنائس العاصمة البيزنطية ، وقصورها وأسواقها ، ويرون أن هذا الثراء العظيم يجب أن يكون من نصيب الشجعان البواسل . ولعل ألكسيوس قد ترامت إليه هذه الأفكار التى كانت تملأ صدور منقذيه ؛ وكان ما لاقاه فى قتال جحافل الفلاحين (وقد لامه الغرب على هزيمته إياهم) مما دعاه إلى اصطناع الحذر ، وإن شئت فقل إلى النفاق . نعم إنه استنجد بالغرب على الأتراك ، ولكنه لم يطلب أن تتجمع قوى أوربا المتحدة على أبواب عاصمته ، ولم

يكن واثقاً قط من أن أولئك المقاتلين يطمعون فى أورشليم بقدر ما يطمعون فى القسطنطينية ، أو من أنهم سيعيدون إلى ملكه أىّ إقليم ينتزعونه من الأتراك ، وكان من قبل من أملاك الدولة البيزنطية . ولهذا عرض على الصليبيين المؤن ، والأموال ، ووسائل النقل ، والمعونة الحربية ، وعرض على زعمائهم رشا سخية(١٣) ، وطلب إليهم فى نظير هذا أن يقسم النبلاء يمين الولاء له بوصفه سيدهم الإقطاعى ، وأن تكون كل الأراضى التى يستولون عليها إقطاعيات لهم منه . وأثرت الفضة فى نفوس النبلاء ورققت قلوبهم فأقسموا اليمين المطلوبة .

وعبرت هذه الجيوش البالغ عددها نحو ثلاثين ألفاً المضيقين فى عام ١٠٧٩ ، وكانت لا تزال موزعة القيادة . وكان من حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا أشد انقساما على أنفسهم من المسيحيين ، فقد أنهكت الحروب قوة المسلمين فى أسبانيا ، ومزقت المنازعات الدينية وحدتهم فى شمالى إفريقية ؛ وكان الخلفاء الفاطميون فى الشرق يمتلكون بلاد الشام الجنوبية ، بينما كان أعداؤهم السلاجقة يمتلكون جزءها الشمالى والقسم الأكبر من آسية الصغرى . وخرجت أرمينية على فاتحيها السلاجقة وتحالفت مع الفرنجة . وزحفت جيوش أوربا يؤيدها هذا العون كله وحاصرت نيقية . واستسلمت الحامية التركية فى المدينة بعد أن وعدها ألكسيوس بالمحافظة على حياتها (١٩ يونية سنة ١٠٩٧) ، ورفع إمبراطور الروم العلم الإمبراطورى على حصنها ، وحمى المدينة من النهب ، وأرضى الزعماء الإقطاعيين بالعطايا السخية ، ولكن الجنود المسيحيين اتهموا ألكسيوس بأنه ضالع مع الأترك . واستراح الصليبيون فى المدينة أسبوعاً زحفوا بعده على أنطاكية ، والتقوا عند دوريليوم بجيش تركى تحت قيادة قلج أرسلان ، وانتصروا عليه انتصاراً سفكوا فيه كثيراً من الدماء (أول يوليه سنة ١٠٩٧) ، واخترقوا آسية الصغرى دون أن يلقوا فيها عدوا غير قلة الماء والطعام ، والحر الشديد الذى لم تكن دماء الغربيين قادرة على احتماله . ومات الرجال والنساء ، والخيل

والكلاب ، من العطش فى أثناء هذا الزحف الشاق الذى اجتازوا فيه خمسمائة ميل ؛ فلما عبروا جبال طوروس انفصل بعض النبلاء بقواتهم عن الجيش الرئيسى ليفتحوا لأنفسهم فتوحا خاصة بهم — فسار ريمند ، وبوهمند ، وجدفرى إلى أرمينية ؛ وسار تنكرد وبولدوين (أخو جدفرى) إلى الرها حيث أسس بلدوين بالختل والغدر[١٤] أولى الإمارات اللاتينية فى الشرق (١٠٩٨) . وأخذت قوات الصليبيين الكبرى تشكو من هذا التأخير وتتوجس منه الشر المستطير ؛ فعاد النبلاء وواصلت القوة بأجمعها الزحف على أنطاكية .

ويصف المؤرخ الإخبارى صاحب چستا فرنكورم Gesta Francorum أنطاكية بأنها « مدينة ذات بهجة وجمال عظيم تمتاز عن سائر المدن »[١٥] . وقاومت المدينة الحصار ثمانية أشهر ، مات فى خلالها كثير من الصليبيين بسبب تعرضهم لأمطار الشتاء القارس والبرد والجوع ، وقد وجد بعضهم غذاء جديداً بامتصاص « أعواد حلوة سموها زكرا Zucra » (وهى كلمة مشتقة من لفظ السكر العربى) ، ففيها ذاق «الفرنجة» طعم السكر للمرة الأولى وعرفوا أنه يصنع من عصير أحد النباتات المزروعة[١٦] . وقدمت العاهرات للغزاة متعا أشد خطراً من السكر ، من ذلك أن رئيساً للشمامسة قتله الأتراك وهو مضطجع مع عاهر سورية[١٧] . وجاءت الأنباء فى شهر مايو من عام ١٠٩٨ أن جيشاً إسلامياً كبيراً يقوده كربوغة أمير الموصل يقترب من أنطاكية ، لكن هذه المدينة سقطت فى أيدى الصليبيين (٣ يونية ١٠٩٨) قبل أن يصل إليها هذا الجيش ببضعة أيام . وخشى كثيرون من الصليبيين عجزهم عن مقاومة جيش كربوغة ، فركبوا السفن فى نهر العاصى ، وفروا هاربين . وزحف ألكسيوس بقوة من جنود الروم ، ولكن جماعة من الفارين غرروا به ، فأدخلوا فى روعه أن المسيحيين هزموا ، فعاد أدراجه ليدافع عن آسية الصغرى ، ولم يغفر له الصليبيون هذه الفعلة . وأراد قسيس من مرسيلية يدعى بطرس بارثلميو Peter Bartholomew أن

يبعث الشجاعة من جديد فى قلوب الصليبيين ، فادعى أنه عثر على الحربة التى نفذت فى جنب المسيح ، ولما سار المسيحيون للقتال رفعت هذه الحربة أمامهم كأنها علم مقدس ، وخرج ثلاثة فرسان من بين التلال فى ثياب بيض حين ناداهم الرسول البابوى أدهمار وسماهم الشهداء القديسين موريس ، وثيودور ، وچورچ . وبعث ذلك فى قلوب الصليبيين روحا جديدة ، وتولى بوهمند القيادة الموحدة فانتصروا انتصاراً حاسماً . ثم اتهم بارثلميو بأنه ارتكب خدعة دينية ، وعرض أن يرضى بحكم الله فيجتاز ناراً مشتعلة ليثبت باجتيازها صدق دعواه . وأجيب إلى طلبه فاخترق ناراً مشتعلة فى حزم من الحطب ، وخرج سالما فى الظاهر ، ولكنه توفى فى اليوم الثانى من أثر الحروق أو من الإجهاد الذى لم يحتمله قلبه ، وأزيلت الحربة من بين أعلام الجيش الصليبى(١٨) .

وأصبح بوهمند من ذلك الحين أمير أنطاكية اعترافاً بفضله ، وكان يمتلك هذا الإقليم فى ظاهر الأمر بوصفه أميراً إقطاعيا خاضعاً لألكسيوس ، لكنه فى الواقع كان يحكمه بوصفه حاكما مستقلا ؛ وقال زعماء الصليبيين إن عجز ألكسيوس عن أن يخف لمعونتهم قد أحلهم من يمين الولاء التى أقسموها له . وقضى أولئك الزعماء ستة أشهر أعادوا فيها تنظيم قواهم وجددوا نشاطهم ، ثم زحفوا بجيوشهم على أورشليم . وبعد حروب دامت ثلاث سنين ، نقص فيها عددهم إلى ١٢٫٠٠٠ من المحاربين وقفوا فى اليوم السابع من شهر يونية عام ١٠٩٩ وهم مبتهجون متعبون أمام أسوار المدينة . وكان من سخريات التاريخ أن الأتراك الذين جاءوا ليقاتلوهم قد أخرجوا من المدينة قبل ذلك الوقت بعام ، وكان مخرجوهم هم الفاطميين . وعرض الخليفة الفاطمى على الصليبيين أن يعقد معهم الصلح مشترطا على نفسه أن يؤمن الحجاج المسيحيين القادمين إلى أورشليم والذين يأتونها للعبادة . ولكن بوهمند وجدفرى طلبا التسليم بغير قيد أو شرط ، وقاومت حامية الفاطميين

المكونة من ألف رجل الحصار مدة أربعين يوما ، فلما حل اليوم الخامس عشر من شهر يوليه قاد جدفرى وتانكرد رجالها وتسلقوا أسوار المدينة ، وتم للصليبيين الفوز بغرضهم بعد أن لاقوا فى سبيله الأمرين . وفى هذا يقول القس ريمند الإجيلى شاهد العيان :

وشاهدنا أشياء عجيبة ، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام ، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج ، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام ، ثم أحرقوا فى النار . وكنت ترى فى الشوارع أكوام الرؤوس والأيدى والأقدام ، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل(١٩) .

ويروى غيره من المعاصرين تفاصيل أدق من هذه وأوفى ؛ يقولون إن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب ، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم(٢٠) ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد ، وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا فى المدينة ، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم ، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء : واحتشد المنتصرون فى كنيسة الضريح المقدس ، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت فى يوم ما المسيح المصلوب . وفيها أخذ كل منهم يعانق الآخر ابتهاجا بالنصر ، وبتحرير المدينة ، ويحمدون الرحمن الرحيم على ما نالوا من فوز !

الفصل الثالث

مملكة أورشليم اللاتينية ١٠٩٩ – ١١٤٣

اختير جدفرى البويونى الذى اعترف له آخر الأمر بالصلاح ، والتقى المنقطعى النظير حاكما على دمشق على أن يلقب بهذا اللقب المتواضع وهو « حامى الضريح المقدس » ولم يدع الحاكم الجديد أنه خاضع لألكسيوس لأن الحكم البيزنطى لهذه المدينة كان قد انقضى منذ ٣٦٥ عاماً ، ولهذا أصبحت مملكة أورشليم اللاتينية من يوم إنشائها دولة مستقلة كاملة السيادة . وحرّم فيها المذهب الأورثوذكسى الشرقى ، وفرّ البطريق اليونانى إلى قبرص ، وقبلت أبرشيات المملكة الجديدة الشعائر اللاتينية ، والمطران الإيطالى والحكم البابوى .

وبعد فإن ثمن السيادة هو القدرة على الدفاع عنها . وهذا هو الثمن الذى كان على المحررين العظام أن يؤدوه ؛ فقد وصل إلى عسقلان بعد أسبوعين من هذا التحرير جيش مصرى يهدف إلى استعادة المدينة المقدسة فى أديان كثيرة وهزم جدفرى هذا الجيش القادم ، ولكنه مات بعد سنة واحدة من تلك المعركة (١١٠٠) وخلفه أخوه بولدوين وهو أقل منه كفاية (١١٠٠ — ١١١٨) ، واتخذ لنفسه لقباً أسمى من لقبه وهو لقب ملك . وشملت المملكة الجديدة فى عهد الملك فلك Fulk كونت أنجو (١١٣١ – ١١٤٣) الجزء الأكبر من فلسطين وسوريا ، ولكن المسلمين ظلوا مالكين حلب ، ودمشق ، وحمص . وقسمت المملكة أربع إمارات إقطاعية ، تتركز على التوالى حول أورشليم ، وأنطاكية والرها ، وطرابلس ؛ ثم جزئت كل إمارة إلى إقطاعيات تكاد كل منها تكون مستقلة عن الأخرى ، وكان سادتها المتحاسدون يشنون الحروب بعضهم على

بعض ، ويسكون العملة ، ويحاكون الملوك المستقلين فى هذه وغيرها من الشئون . وكان الأشراف هم الذين يختارون الملك ، وتقيده سلطة كنسية دينية لا سلطان عليها لغير البابا نفسه . وكان مما أضعف سلطان الملك غير هذا أنه أسلم عدة ثغور : يافا ، وصور ، وعكا ، وبيروت ، وعسقلان — إلى البندقية ، وبيزا ، وجنوى ، نظير ما تقدمه للمملكة الجديدة من معونة حربية وما تحمله لها بطريق البحر من موئن . أما تنظيم المملكة وقوانينها فكانت تضعهما المحاكم العليا فى أورشليم — وكان هذا إحدى النتائج المنطقية للحكم الإقطاعى من الوجهة القانونية . وادعى الأشراف ملكية الأرض جميعها ، وأنزلوا ملاكها السابقين — سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين — منزلة أرقاء الأرض ، وفرضوا عليهم واجبات إقطاعية أشد قسوة مما كان منها وقتئذ فى أوربا ، حتى أخذ سكان البلاد المسيحيون ينظرون بعين الحسرة إلى حكم المسلمين ويعدونه من العصور الذهبية التى مرت بالبلاد (٢١) .

وكان فى المملكة الناشئة كثير من أسباب الضعف ، ولكنها كانت تتلقى معونة فذة من نظام من الرهبان الحربيين . ذلك أن تجار أملفى Amalfi كانوا قد حصلوا من المسلمين منذ عام ١٠٤٨ على إذن ببناء مستشفى فى بيت المقدس لإيواء الفقراء أو المرضى من الحجاج . ثم نظم ريمند دو بى Raymond du Puy موظفى هذا المعهد تنظيما جديداً فجعلهم هيئة دينية تكرس حياتها للعفة ، والفقر ، والطاعة ، وحماية المسيحيين فى فلسطين بالدفاع عنهم دفاعا عسكريا ؛ ومن ثم أصبح هؤلاء الفرسان فرسان مستشفى القديس يوحنا من أنبل الهيئات الخيرية فى العالم المسيحى . وحدث حوالى ذلك الوقت نفسه (١١١٩) أن نذر هيوده پايان Hugh de Payans وثمانية آخرون من فرسان الصليبيين أنفسهم للرهبنة ، وخدمة المسيحيين العسكرية ، وأن حصلوا من بلدوين الثانى على مسكن لهم بالقرب من الموضع الذى كان فيه هيكل سليمان ، وسرعان ما أطلق عليهم اسم فرسان المعبد . ووضع

لهم القديس برنار نظاما صارما ، لم يطيعوه زمنا طويلا ؛ وكان مما أثنى عليهم به أنهم « أكثر الناس علما بفن الحرب » ، وأمرهم « ألا يغتسلوا إلا نادراً » وأن يقصوا شعر رءوسهم[٢٢] . وكتب برنار إلى فرسان المعبد يقول « إن على المسيحى الذى يقتل غير المؤمن فى الحرب المقدسة ، أن يثق بما سينال من ثواب ، وعليه أن يكون أشد وثوقا من هذا الثواب إذا قُتِل هو نفسه ، وإن المسيحى ليبتهج بموت الكافر لأن المسيح يبتهج بهذا الموت »[٢٣] ؛ ومن الواجب على الناس أن يقتلوا وهم مرتاحو الضمير إذا كانوا يريدون النصر فى الحروب . وكان الواحد من فرسان المستشفى يلبس مئزراً أسود اللون ، على كمه الأيسر صليب ، أما الواحد من فرسان المعبد فكان يلبس مئزراً أبيض على « حرملته » صليب أحمر . وكانت كلتا الطائفتين تكره الأخرى كرهاً مبعثه الدين . وانتقل فرسان المستشفى وفرسان المعبد من تمريض الحجاج إلى الهجوم على حصون المسلمين ؛ ومع أن فرسان المعبد لم يكونوا يزيدون على ثلثمائة ، وأن فرسان المستشفى كانوا حوالى ١١٨٠[٢٤] ، فقد كان لهم جميعاً شأن ظاهر فى معارك الحروب الصليبية ؛ وذاعت شهرتهم الحربية . وقامت الطائفتان بحملة واسعة لجمع المال ؛ فتوالت عليهما الإعانات من الكنيسة والدولة ، ومن الأغنياء والفقراء على السواء ؛ فلم يحل القرن الثالث عشر حتى كانت كلتاهما تمتلك فى أوربا ضياعاً واسعة تشمل أديرة ، وقرى ، وبلدانا . وأدهشت كلتاهما المسيحيين والمسلمين بما أنشأت من الحصون الواسعة فى بلاد الشام ، حيث كانوا يستمتعون بالترف مجتمعين ، وسط متاعب الحروب وكدحها ، مع أنهم قد نذروا أنفسهم فرادى للفقر[٢٥] . وفى عام ١١٩٠ أنشأ ألمان فلسطين طائفة الفرسان التيوتون بمعونة عدد قليل من الألمان فى بلادهم الأصلية ، وشادوا لهم مستشفى قرب عكا .

وعاد معظم الصليبيين إلى أوربا بعد الاستيلاء على بيت المقدس ، فنقص بذلك عدد الرجال الذين تعتمد عليهم الحكومة المزعزعة الأركان نقصاً يعرضها

للخطر الشديد . ووفد على البلاد كثيرون من الحجاج ولكن قلما بقى فيها عدد منهم للقتال . وكان الروم فى الشمال يترقبون فرصة تتاح لهم لاستعادة أنطاكية والرها وغيرهما من المدن التى كانوا يدعون أنها مدن بيزنطية ؛ وأخذ المسلمون فى الشرق ينشطون ويضمون صفوفهم بتأثير النداءات الإسلامية والغارات المسيحية . وكان اللاجئون المسلمون الفارون من فلسطين يقصون عليهم الحوادث المفصلة المحزنة التى أعقبت سقوط المدينة فى أيدى المسيحيين . واقتحمت هذه الجموع مسجد بغداد العظيم وأهابت بالجيوش الإسلامية أن تحرر بيت المقدس وقبة الصخرة المقدسة من أيدى الكفرة النجسة[٣٦] . وكان الخليفة عاجزاً لا يستطيع تلبية النداء ، ولكن عماد الدين زنكى أمير الموصل الذى ولد عبداً رقيقاً لبى الدعوة ، وزحف جيشه الحسن القيادة فى عام ١١٤٤ وانتزع من المسيحيين المعقل الخارجى الشرقى ، وبعد أشهر قليلة استعاد الرها وضمها إلى حظيرة الإسلام . واغتيل زنكى وخلفه ابنه نور الدين ، وكان يماثله فى شجاعته ، ويفوقه فى قدرته . وكانت أخبار هذه الحوادث هى التى أثارت أوربا ودفعتها إلى الحرب الصليبية الثانية .

الفصل الرابع

الحرب الصليبية الثانية : ١١٤٦ – ١١٤٨

واستغاث القديس برنار بالبابا يوجنيوس الثالث لينادى مرة أخرى بحمل السلاح . وكان يوجنيوس وقتئذ فى صراع مع الخارجين على الدين فى رومة نفسها ، فطلب إلى برنار أن يقوم هو نفسه بالدعوى . وكانت هذه فكرة سديدة لأن القديس كان أعظم شأناً من الرجل للذى نصبه هو بابا . فلما أن خرج من صومعته فى كليرڤو Clairvaux ليدعو الفرنسيين إلى الحرب خفتت أصوات الشك التى كانت مستكنة فى صدور المؤمنين ، وزالت المخاوف التى نشرتها القصص التى كانت تروى عن الحروب الصليبية الأولى . واتخذ برنار سبيله مباشرة إلى الملك لويس السابع وأقنعه بأن يحمل الصليب ، ثم وقف والملك إلى جانبه وأخذ يخطب الجمع الحاشد فى ڤيزلاى Vézelay (١١٤٦) ؛ ولم يكد يتم خطبته حتى تطوع الجمع كله لحمل السلاح ، وتبين أن ما كان معداً من الصلبان لا يكفيهم ؛ فزق برنار مئزره ليصنع منه ما يحتاجه من الشارات ، وكتب إلى البابا يقول إن « المدائن والحصون قد خلت من سكانها ، ولم يبق إلا رجل واحد لكل سبع نساء ، وترى فى كل مكان أرامل لأزواج لا يزالون أحياء » . ولما أن ضم إليه فرنسا على هذا النحو انتقل إلى ألمانيا ، واستطاع بحماسته وفصاحة لسانه أن يقنع الإمبراطور كنراد الثانى بأن الحرب الصليبية هى القضية الوحيدة التى يستطاع بها توحيد حزبى الجاف Guelf والههنستوفن Hohenstaufen اللذين كان نزاعهما يمزق الدولة تمزيقاً . وانضوى كثيرون من النبلاء تحت لواء كنراد ، من بينهم الشاب فردريك السوابى Frederick of Swabfa الذى

أصبح فيما بعد بربروسا Barbarossa والذى مات فى الحرب الصليبية الثالثة .

وبدأ كنراد والألمان سيرهما فى يوم عيد الفصح من عام ١١٤٧ ، وتبعهما الفرنسيون فى يوم عيد العنصرة ، وكانوا يسيرون فى حذر على مسافة منهم ، لأنهم لم يكونوا واثقين أيهما أشد عداء لهم : الألمان أو الأتراك . وكان الألمان أيضاً يشعرون بمثل هذه الحيرة بين الأتراك واليونان ؛ وبلغ من كثرة المدن البيزنطية التى نهبت فى طريق الزاحفين أن أغلقت كثير منها أبوابها فى وجوههم ، ولم تقدم لهم إلا قليلا من المؤن أنزلتها فى سلات من فوق الأسوار . وعرض عليهم مانول كمنينوس Manuel Comnenus إمبراطور الرومان فى ذلك الوقت فى رقة ولطف أن تعبر الجيوش النبيلة مضيق الهلسپنت عند ستسوس Sestos ، بدل أن تخترق القسطنطينية ، ولكن كنراد ولويس رفضا هذا العرض ، وقامت طائفة فى مجلس لويس تدعوه إلى الاستيلاء على القسطنطينية وضمها إلى فرنسا ، ولكنه لم يستجب لهذه الدعوة . على أنه لا يبعد أن تكون أنباؤها قد ترامت إلى اليونان ؛ هذا إلى أن هؤلاء قد توجسوا خيفة من قامة فرسان الغرب ودروعهم ، وإن سرتهم حاشيتهم النسائية . فقد كانت اليانور المتعبة تصاحب زوجها لويس ، وكان الشعراء يصحبون الملكة ، ونبلاء فلاندرز وطلوشة يصطحبون معهم أزواجهم ، وكانت وسائل النقل التى مع الفرنسيين مثقلة بالحقائب والصناديق الملأى بالثياب ، ومواد التجميل ، يراد بها المحافظة على جمال تلك السيدات فى الجواء المتقلبة وفى صروف الدهر والحرب . وعجل مانويل بنقل الجيشين فى مضيق البسفور ، وأمد اليونان بالنقود المخفضة القيمة ليتعاملوا بها مع الصليبيين . وكثيراً ما أدى نقص المؤن فى آسية ، وارتفاع الأثمان التى يطالب بها اليونان ، إلى النزاع بين المتقذين ومن يريدون إنقاذهم من أعدائهم ، وكان مما أحزن فردريك ذا اللحية الصهباء أنه اضطر إلى أن يسفك بسيفه دماء المسيحيين ليستطيع ملاقاة « الكفار » . وأصر كنراد على أن يسير فى الطريق الذى سارت فيه الحملة

الصليبية الأولى مخالفاً بذلك نصيحة مانويل . وتخبط الألمان فى سيرهم على الرغم من مرشديهم ، أو لعل ذلك كان يفعل مرشديهم ، فاجتازوا بطاحاً بعد بطاح خالية من موارد الطعام ، ووقعوا فى كمين بعد كمين نصبه لهم المسلمون ، ودب فى قلوبهم اليأس لكثرة من هلك منهم . والتقى جيش كنراد عند دورليوم ، حيث هزمت الحملة الأولى جيش قلج أرسلان ، بقوة المسلمين الرئيسية ، ومنى فيها بهزيمة ساحقة ، لم ينج فيها من جيش المسيحيين أكثر من واحد من كل عشرة . وخدع الجيش الفرنسى الذى كان متأخراً وراء الألمان بمسافة طويلة بما جاءه من أخبار عن انتصار الألمان ، فتقدم فى غير حذر ، وقضى على الكثيرين من رجاله الجوع وهجمات المسلمين . ولما وصل إلى أضاليا أخذ لويس يساوم رؤساء بحارة السفن اليونانية على نقل جيشه بطريق البحر إلى طرسوس أو أنطاكية المسيحيتين ، وطالب أولئك الرؤساء بأجور باهظة عن كل شخص تحمله السفن ، فقبل لويس وطائفة من النبلاء ، وإليانور ، وسرب من السيدات الانتقال ، وتركوا بقية الجيش الفرنسى فى أضاليا ، وانقضت جيوش المسلمين على المدينة وقتلوا كل من فيها تقريباً من الجنود الفرنسيين (١١٤٨) .

ووصل لويس إلى بيت المقدس ومعه النساء وليس معه جيش ، كما وصل إليها كنراد بفلول الجيش الذى غادر به راتسبون . وحشد الملكان من هذه الفلول وممن كان فى العاصمة من الجنود جيشاً مرتجلا ، وزحفا به على دمشق ؛ وكانت قيـــادته موزعة بين كنراد ، ولويس ، وبولدوين الثالث (١١٤٣ — ١١٦٢) . وشجر النزاع فى أثناء الحصار بين النبلاء على الطائفة التى تحكم المدينة بعد سقوطها ، وتسرب عمال المسلمين إلى الجيش المسيحى ، ورشوا بعض الزعماء بالمال فجعلوهم يقعدون بلا عمل أو ينسحبون من الميدان[٢٧] . ولما أن ترامت الأنباء بأن أميرى حلب والموصل يزحفان بجيش كبير لفك الحصار عن دمشق تغلب دعاة الانسحاب ، فانقسم الجيش المسيحى إلى جماعات قليلة فرت إلى أنطاكية أو عكا ، أو بيت

المقدس . . وهزم كنراد وأصيب بالمرض ورجع مسربلا بالعار إلى ألمانيا ، وعادت إليانور وعاد معظم الفرسان الفرنسيين إلى فرنسا ، أما لويس فقد بقى فى فلسطين عاما آخر يحج فيه إلى الأضرحة المقدسة .

وارتاعت أوربا لما أصيبت به الحملة الصليبية الثانية من إخفاق شنيع ، وأخذ الناس يتساءلون كيف يرضى الله جل جلاله أن يذل المدافعون عن دينه هذا الإذلال المنقطع النظير ، وشرع النقاد يهاجمون القديس برنار ويصفونه بأنه خيالى متهور ، يرسل الناس ليلاقوا حتفهم ، وقام فى أماكن متفرقة بعض المتشككة الجريئين يجادلون فى القواعد الأساسية للدين المسيحى . ورد عليهم برنار بقوله إن أساليب الله سبحانه لاتدركها عقول البشر ، وإن الوبال الذى حل بالمسيحيين ربما كان عقابا لهم على ما ارتكبوا من ذنوب . ولكن الشكوك الفلسفية التى أشاعها أبلار Abelard (المتوفى عام ١١٤٢) أخذت من ذلك الوقت تجد من يعبر عنها حتى بين جمهرة الشعب نفسه ، وسرعانما خبت جذوة التحمس للحرب الصليبية ، وتأهب عصر الإيمان للدفاع عن نفسه بالسيف والنار ضد الأديان الغربية أو عدم الإيمان بأديان على الإطلاق .

الفصل الخامس

صــــلاح الدين

وكانت حضارة جديدة عجيبة قد نشأت فى سوريا وفلسطين المسيحيتين . ذلك أن الأوربيين الذين استوطنوا هذين البلدين منذ عام ١٠٩٩ قد تزيوا شيئاً فشيئاً بالزى الشرقى ، فلبسوا العمامة والقفطان اللذين يوائمان مناخ تلك البلاد ذات الشمس والرمال ؛ وزاد اتصالهم بمن يعيشون فى تلك المملكة من المسلمين ، فقل بذلك ما بين الجنسين من تنافر وعداء ، فأخذ التجار المسلمون يدخلون بكامل حريتهم البلدان المسيحية ويبيعون أهلها بضاعتهم ، وكان المرضى من المسيحيين يفضلون الأطباء المسلمين واليهود على الأطباء المسيحيين(٢٨) ، وأجاز رجال الدين المسيحيون إلى المسلمين أن يؤموا المساجد للعبادة ، وأخذ المسلمون يعلمون أبناءهم القرآن فى المدارس الإسلامية القائمة فى أنطاكية وطرابلس المسيحيتين ، وتعهدت الدول المسيحية والإسلامية بأن تضمن سلامة التجار والمسافرين الذين ينتقلون من إحداهما إلى الأخرى . وإذ كان الصليبيون لم يأتوا معهم إلا بعدد قليل من زوجاتهم فقد اتخذ كثيرون ممن أقاموا منهم فى الدول المسيحية لهم زوجات سوريات ؛ وسرعان ما كوّن أبناء هذا الزواج المختلط عنصراً كبيراً من سكان الدول الجديدة ، وأصبحت اللغة العربية لغة التخاطب اليومى العامة للسكان ، وعقد الأمراء المسيحيون أحلافاً مع الأمراء المسلمين ضد منافسيهم من المسيحيين ، كما كان الأمراء المسلمون فى بعض الأحيان يستعينون « بالمشركين » فى شئون السياسة والحرب ؛ ونمت صلات المودة الشخصية بين المسيحيين والمسلمين . وقد وصف الرحالة ابن جبير الذى طاف بسوريا المسيحية فى عام ١١٨٣ بنى دينه المسلمين بأنهم ينعمون بالرخاء ويلقون معاملة حسنة على يد الفرنجة . وكان مما

ساءه أن يرى عكا غاصة بالخنازير والصلبان ، تفوح منها رائحة الأوربيين الكريهة ، ولكنه يأمل أن يتحضر المسيحيون بالحضارة التى وفدوا إليها والتى هى أرقى من حضارتهم[٢٩] .

وظلت مملكة أورشليم اللاتينية فى سنى السلم الأربعين التى أعقبت الحملة الصليبية الثانية تمزقها المنازعات الداخلية ، على حين أن أعداءها المسلمين كانوا يسيرون بخطى حثيثة نحو الوحدة . فقد مدّ نور الدين سلطانه من حلب إلى دمشق (١١٧٥) ، ولما مات أخضع صلاح الدين لسلطانه مصر وسوريا الإسلامية (١١٧٥) ؛ ونشر تجار جنوى ، والبندقية ، وبيزا الاضطراب فى الثغور الشرقية بمنافساتهم القاتلة . وفى أورشليم أخذ الفرسان يتنازعون للاستيلاء على العرش. ولما استطاع جاى ده لوزينان أن يشق إليه طريقه بالختل (١١٨٦) ، استاءت لذلك طبقة الأشراف ، حتى قال أخوه جوفرى : « إن يكن جاى هذا ملكا فأنا خليق بأن أكون إلهاً » . ونصب ريجلند أمير شاتيون Reginald of Chatillon نفسه أميراً مستقلا فى قلعة الكرك العظيمة وراء نهر الأردن ، على حدود بلاد العرب ، وكثيراً ما خرق اتفاق الهدنة المعقود بين الملك اللاتينى وصلاح الدين ، وأعلن عزمه على أن يغزو بلاد العرب ، ويهدم قبر النبى فى المدينة ، ويدك أبنية الكعبة فى مكة[٣٠] . وأبحرت قوته الصغيرة المؤلفة من الفرسان المغامرين فى البحر الأحمر ، واتجهت نحو المدينة ؛ ولكن سرية مصرية باغتتها ، وقتلتها عن آخرها إلا عدداً قليلا فروا مع ريجنلد ، وبعض الأسرى الذين سيقوا إلى مكة ، وذبحوا فى يوم عيد النحر (١١٨٣) .

وكان صلاح الدين فى هذه الأثناء قد قنع بشن بعض الغارات الصغيرة على فلسطين ؛ فلما رأى ما فعله ريجنلد ثارت حميته الدينية ، فأخذ ينظم من جديد جيشه الذى فتح به دمشق ، والتقى بقوات المملكة اللاتينية فى معركة غير حاسمة عند مرج ابن عامر ذى الشهرة التاريخية (١١٨٣) ، ثم هاجم ريجنلد عند

الكرك بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت ، ولكنه لم يستطع دخول القلعة الحصينة . وفى عام ١١٨٥ وقع مع المملكة اللاتينية هدنة تدوم أربع سنين ؛ ولكن ريچنلد مل فترة السلم الطويلة ، فاعترض فى عام ١١٨٦ قافلة للمسلمين ، ونهب كثيرا من متاعها وأسر عدداً من أفرادها ، ومنهم أخت صلاح الدين ، وقال ريچنلد : « إذا كانوا يثقون بمحمد فليأت محمد لينقذهم » . ولم يأت محمد ؛ ولكن صلاح الدين ثارت ثائرته ، فأعلن الجهاد على المسيحيين ، وأقسم ليقتلن ريچنلد بيده .

ونشبت المعركة الفاصلة فى الحروب الصليبية كلها عند حطين بالقرب من طبرية فى اليوم الرابع من شهر يوليه سنة ١١٨٧ . وكان صلاح الدين ملما بمعالم الأرض فاختار لجيوشه الأماكن المشرفة على آبار الماء ؛ ودخل المسيحيون ميدان المعركة يلهثون من الظمأ بعد أن اخترقوا السهول فى حر منتصف الصيف المحرق . وانتهز المسلمون فرصة هبوب الريح نحو معسكر الصليبيين ، فأشعلوا النار فى الأعشاب البرية ، وحملت الريح الدخان فزاد متاعب الصليبيين . وفى هذا الاضطراب الأعمى انفصل مشاة الفرنجة عن فرسانهم ، وقتلوا عن آخرهم ؛ وبعد أن ظل الفرسان يقاتلون قتال اليائسين ضد السلاح ، والدخان ، والظمأ خروا منهوكى القوى ، فقتل منهم من قتل وأسر الباقون . ولم تظهر جيوش المسلمين شيئاً من الرأفة بفرسان المعبد أو المستشفى ، وأمر صلاح الدين أن يؤتى له بالملك جاى والدوق ريچنلد ، فلما أقبلا عليه قدم الشراب إلى الملك دليلا على أنه قد عفا عنه ، أما ريچنلد فقد خيره بين الموت والإيمان برسالة النبى ، فلما رفض قتله . وكان مما غنمه المسلمون فى هذه المعركة الصليب الذى كان الصليبيون يتخذونه علماً لهم فى المعركة ، ويحمله فيها أحد القساوسة ، وقد أرسله صلاح الدين إلى الخليفة فى بغداد . ولما رأى صلاح الدين أنه لم يبق أمامه جيش يخشى بأسه ، زحف لتحرير عكا ، وأطلق فيها سراح أربعة آلاف أسير من المسلمين ، وكافأ جنوده بما غنمه

من ثروة هذا المرفأ الكثير المتاجر ، وخضعت فلسطين كلها تقريباً لصلاح الدين وبقيت فى قبضة يده بضعة أشهر .

ولما اقترب من بيت المقدس خرج إليه أعيانها يعرضون عليه الصلح ، فقال لهم إنه يعتقد كما يعتقدون هم أن هذه المدينة بيت الله ، وإنه لايرضيه أن يحاصرها أو يهاجمها . وعرض على أهلها أن تكون لهم الحرية الكاملة فى تحصينها ، وأن يزرعوا ما حولها من الأرض إلى ما بعد أسوارها بخمسة عشر ميلا دون أن يقف أحد فى سبيلهم ، ووعدهم بأن يسد كل ما ينقصهم من المال والطعام إلى يوم عيد العنصرة ، فإذا حل هذا اليوم ورأوا أن هناك أملا فى إنقاذهم ، كان لهم أن يحتفظوا بالمدينة ، ويقاوموا المحاصرين مقاومة شريفة ، أما إذا لم يكن لهم أمل فى هذه المعونة ، فإن عليهم أن يستسلموا من غير قتال ، وتعهد فى هذه الحال أن يحافظ على أرواح السكان المسيحيين وأموالهم(*) . ورفض المندوبون هذا العرض ، وقالوا إنهم لن يسلموا المدينة التى مات فيها المسيح منقذ الخلق[٣١] . ولم يطل حصار المدينة أكثر من اثنى عشر يوما ، ولما أن استسلمت بعدها فرض صلاح الدين على أهلها فدية قدرها عشر قطع من الذهب (٥٠ر٤٧ ؟ ريالا أمريكيا) عن كل رجل ، وخمس قطع عن كل امرأة ، وقطعة واحدة عن كل طفل ، أما فقراء أهلها البالغ عددهم سبعة آلاف فقد وعد بإطلاق سراحهم إذا أدوا إليه الثلاثين ألف بزانت (٠٠٠ر٢٧٠ ؟ ريال أمريكى) التى بعث بها هنرى الثانى ملك إنجلترا إلى فرسان المستشفى ؛ وقبلت المدينة هذه الشروط « بالشكر والنحيب » على حد قول أحد الإخباريين المسيحيين ، ولعل بعض العارفين من المسيحيين قد وازنوا بين هذه الحوادث وبين ما جرى فى عام ١٠٩٩ . وطلب العادل أخو صلاح الدين أن يهدى إليه ألف عبد من الفقراء الذين بقوا من غير فداء ، فلما أجيب إلى طلبه أعتقهم جميعاً ؛ وطلب بليان Balian زعيم المقاومين

(*) ألا ما أعظم هذا النبل ! (المترجم)

المسيحيين هدية مثلها ، وأجيب إلى ما طلب ، وأعتق ألفاً آخرين ، وحذا حذوه المطران المسيحى وفعل ما فعل صاحبه ، وقال صلاح الدين إن أخاه قد أدى الصدقة عن نفسه ، وإن المطران وباليان قد تصدقا عن نفسهما ، وإنه يفعل فعلهما ، ثم أعتنق كل من لم يستطع أداء الفدية من كبار السن ؛ ويلوح أن نحو خمسة عشر ألفا من الأسرى المسيحيين بقوا بعدئذ من غير فداء فكانوا أرقاء ؛ وكان ممن افتدوا زوجات وبنات النبلاء الذين قتلوا أو أسروا فى واقعة حطين ورق قلب صلاح الدين لدموع أولئك النساء والبنات فأطلق سراح من كان فى أسر المسلمين من أزواجهن وآبائهن (ومن بينهم جاى) أما « النساء والبنات اللاتى قتل أزواجهن وآباؤهن فقد وزع عليهن من ماله الخاص ما أطلق ألسنتهن بحمد الله ، وبالثناء على ما عاملهن به صلاح الدين من معاملة رحيمة نبيلة »[٣٢](*) ذلك ما يقوله إرنول Ernoul مولى باليان .

وأقسم الملك والنبلاء الذين أطلق سراحهم ألا يحملوا السلاح ضده مرة أخرى ، ولكنهم ما كادوا يشعرون بالأمن فى طرابلس وأنطاكية المسيحيتين حتى أحلهما حكم رجال الدين من يمينهما المغلظة ، وأخذا يدبران الخطط للثأر من صلاح الدين[٣٣] . وأجاز السلطان لليهود أن يعودوا إلى السكنى فى بيت المقدس ، وأعطى المسيحيين حق دخولها ، على أن يكونوا غير مسلحين ، وساعد حجاجهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم[٣٤] ؛ وطهرت قبة الصخرة التى حولها المسيحيون إلى كنيسة بأن رشت بماء الورد ، وأزيل منها الصليب الذهبى الذى كان يعلوها ، بين تهليل المسلمين وأنين المسيحيين ؛ وسار صلاح الدين على رأس جيشه لحصار عكا ، ولما وجدها أمنع من عقاب الجو سرح الجزء الأكبر من جنده والسحب وهو مريض متعب إلى دمشق (١١٨٨) فى الخمسين من عمره ؛

(*) يالها من شهامة منقطعة النظير . (المترجم)

الفصل السادس

الحملة الصليبية الثالثة

١١٨٩ — ١١٩٢

وكان احتفاظ المسيحيين بمدائن صور أنطاكية ، وطرابلس مما ترك فى قلوبهم أثارة من الأمل . وكانت الأساطيل الإيطالية لا تزال تسيطر على مياه البحر المتوسط ، متأهبة لنقل المحاربين الصليبيين إذا أدوا لها أجورها . وعاد وليم كبير أساقفة صور إلى أوربا ، وأخذ يروى فى الاجتماعات التى تعقد فى إيطاليا ، وفرنسا وألمانيا قصة سقوط بيت المقدس ، ولما قدم إلى ألمانيا تأثر بدعوته فردريك بربرسا إلى حد دفع الإمبراطور العظيم وهو فى سن السادسة والسبعين إلى الزحف بجيشه من فوره (١١٨٩) ، وحياه العالم المسيحى كله وخلع عليه اسم موسى الثانى الذى سيشق الطريق إلى الأرض الموعودة . ولما عبر الجيش الجديد مضيق الهلسپنت عند غاليبولى ، واتخذ إلى أرض فلسطين طريقاً جديداً ، كرر أخطاء الحملة الصليبية الأولى ومآسيها ؛ واقتفت أثره العصابات التركية وأزعجته ، وقطعت عنه المؤن ، فمات مئات من رجاله جوعاً ، ومات فردريك ميتة غير شريفة إذ غرق فى نهر سالف الصغير فى قليقية (١١٩٠) ، ولم ينج من جيشه إلا جزء قليل انضم إلى حصار عكا .

وكان رتشرد الأول (الأنكتار) الملقب « قلب الأسد » قد توج من زمن قريب ملكاً على إنجلترا وهو فى الحادية والثلاثين من عمره ، فصمم هذا الملك على أن يجرب حظه مع المسلمين . وإذ كان يخشى أن يغير الفرنسيون فى أثناء غيابه على الأملاك الإنجليزية فى فرنسا ، فقد أصر على أن يصحبه فليب أغسطس ، ووافق الملك الفرنسى ، وكان وقتئذ شاباً فى الحادية والعشرين

من عمره ، وتلقى الملكان الشابان الصليب من ولیم كبير أساقفة صور باحتفال مهيب فى فيزلاى ، وأبحر جيش رتشرد المؤنف من النورمان (لأن الإنجليز لم يشترك منهم فى الحروب الصليبية إلا القليل) من مرسيليا ، وأبحر جيش فليب من چنوى على أن يلتقى الجيشان فى صقلية (١١٩٠) ، فلما التقيا فيها شجر النزاع بينهما واستسلما للهو وقضيا فى نزاعهما ولهوهما نصف عام . وأغضب تانكرد ملك صقلية رتشرد ، فانتزع هذا منه مسينا « بأسرع مما يتطلبه من القس ترتيل صلاة السحر » ، ثم ردها إليه نظير أربعين ألف أوقية من الذهب ؛ فلما توفر له المال بهذه الطريقة أبحر بجيشه إلى فلسطين . وتحطمت بعض سفنه على ساحل جزيرة قبرص ، وقبض حاكمها اليونانى على بحارة السفن وزجهم فى السجون ، فوقف رتشرد عندها بعض الوقت ، وفتح الجزيرة ، وأعطاها إلى جاى ده لوزينان ملك بيت المقدس المشرد . وبلغ عكا فى يونيه من عام ١١٩١ بعد عام من مغادرته ڤيزلاى ، وكان فليب قد سبقه إليها . وكان حصار المسيحيين لعكا قد دام تسعة عشر شهراً ، وهلك فيه منهم عدة آلاف ، ثم استسلم المسلمون بعد أسابيع قليلة من وصول رتشرد ؛ وطلب المنتصرون من المغلوبين مائتى ألف قطعة لن الذهب (نحو ٩٥٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، وأن يسلموا إليهم ١٦٠٠ أسيراً من صفوة أهل المدينة ، وأن يردوا إليهم الصليب الحق . ووعدهم أهل المدينة أن يجيبوهم إلى ما طلبوا ؛ وأيد صلاح الدين هذا الاتفاق ، وسمح للمسلمين من سكان عكا ما عدا الألف والستمائة السالفى الذكر أن يغادروا المدينة ومعهم من المؤن ما يستطيعون حمله . ثم أصيب فليب أغسطس بالحمى فعاد إلى فرنسا وترك وراءه قوة فرنسية مؤلفة من ١٠٫٥٠٠ رجل ، وأصبح رتشرد القائد الوحيد للحملة الصليبية الثالثة .

وبدأت وقتئذ طائفة من الوقائع المشوشة الفذة ، تعاقبت فيها الضربات والمعارك مع التحيات والمجاملات ؛ وأظهر فيها الملك الإنجليزى والسلطان الكردى

بعض ما تتصف به حضارتاهما وديناهما من أنبل الصفات وأظرفها . وليس معنى هذا أن كلا الرجلين كان من أولياء الله الصالحين ، فقد كان فى وسع صلاح الدين أن يكيل بكل ما لديه من بأس الضربات المميتة لعدوه إذا بدا له أن أهدافه الحربية تتطلب هذا ؛ وكذلك سمح رتشرد ذو النزعة الروائية الشعرية لنفسه أن يفعل ما لا يتفق مع حياته النبيلة . من ذلك أنه لما تباطأ زعماء عكا المحاصرة فى تنفيذ شروط الاتفاق المعقود بينهم ، أمر رتشرد أن تضرب رءوس ٢٫٥٠٠ من الأسرى المسلمين أمام أسوار المدينة لينبه بذلك الأهلين إلى وجوب الإسراع فى تنفيذ الشروط[٣٥] ؛ فلما بلغ هذا النبأ صلاح الدين ، أمر بأن يعدم كل من يقع بعدئذ فى الأسر أثناء المعارك مع الملك الإنجليزى . ثم بدل رتشرد نغمته ، فعرض أن ينهى الحروب الصليبية بأن يزوج أخته جوان للعادل أخى صلاح الدين ، ولكن الكنيسة عارضت هذه الفكرة فتخلى رتشرد عنها .

وأيقن رتشرد أن صلاح الدين لن يصبر على الهزيمة ، فأعاد تنظيم قوته ، وتأهب للسير ستين ميلا نحو الجنوب بمحاذاة شاطئ البحر ليفك الحصار عن يافا التى كانت وقتئذ فى أيدى المسيحيين ويحاصرها المسلمون ، ورفض كثير من النبلاء أن يسيروا معه ، وفضلوا أن يتخلفوا فى عكا ، ويحيكوا الدسائس للاستيلاء على عرش فلسطين ، لأنهم كانوا واثقين من أن رتشرد سيستولى عليها . وعاد الجنود الألمان إلى بلادهم ، وكثيرا ما كان الجنود الفرنسيون يعصون أمر الملك الإنجليزى ويفسدون عليه خططه الحربية ؛ كذلك لم يكن العامة مستعدين لبذل جهود جديدة فى سبيل فلسطين . ويقول المؤرخ الإخبارى المسيحى لحملة رتشرد الصليبية إن المسيحيين المتصبرين بعد هذا الحصار الطويل :

استسلموا للخمول والترف ، وأبوا أن يغادروا المدينة المليئة بأسباب النعيم — أحسن أنواع الخمور ، وأجمل الغانيات . وأطلق الكثيرون منهم لشهواتهم العنان

فانحلت أخلاقهم ودنسوا المدينة بترفهم ، حتى أصبح العقلاء يتوارون خجلا من طيشهم ونهمهم[٣٦] .

وزاد الطين بلة أن رتشرد أمر ألا يصحب الجيش من النساء إلا الغسالات ممن لا يغرين الجند بالإثم . وعوض رتشرد عيوب جنوده بمقدرته الفذة على القيادة ، وحذقه فى الهندسة العسكرية ، وشجاعته الملهمة فى الميدان . وكان فى هذه الصفات كلها متفوقاً على صلاح الدين وعلى سائر قادة الحروب الصليبية المسيحيين .

والتقى جيشه بجيش صلاح الدين عند أرسوف وانتصر عليه انتصاراً غير حاسم (١١٩١) ، وطلب مواصلة القتال ، ولكن رتشرد سحب جنوده إلى داخل أسوار يافا ، ثم عرض عليه صلاح الدين الصلح ؛ وبينا كانت المفاوضات دائرة بين القائدين اتصل كنراد مركيز منفرات Conrad Marquis of Montferrat ، الذى كان يتولى أمر صور ، فى مفاوضات مستقلة مع صلاح الدين ، وعرض عليه أن يصبح حليفه ، وأن يستولى على عكا ويردها للمسلمين ، إذا وافق صلاح الدين على أن يتملك هو صيدا وبيروت . ولكن صلاح الدين أجاز لأخيه ، على الرغم من هذا العرض ، أن يعقد مع رتشرد صلحاً يترك للمسيحيين جميع ما كان بيدهم وقتئذ من المدن الساحلية ، ونصف بيت المقدس . وبلغ من سرور رتشرد بهذه الشروط أن خلع على ابن السفير المسلم لقب فارس (١١٩٢) ؛ لكنه حين سمع بعد قليل من الوقت أن صلاح الدين يواجه بعض المتاعب فى الشرق ، رفض شروطه ، وحاصر داروم واستولى عليها ، وتقدم حتى أصبح على بعد اثنى عشر ميلا من بيت المقدس . ودعا صلاح الدين جنوده إلى حمل السلاح ، وكان قد سرحهم ليستريحوا فى فصل الشتاء ، وحدث الشقاق فى هذه الأثناء فى معسكر المسيحيين ، وأبلغهم كشافتهم أن الآبار التى فى طريق بيت المقدس قد سممت ، وأن الجيش الزاحف عليها لن يجد ماء للشرب ،

وعقدوا مجلسا للنظر فيما يجب أن يفعلوه ، فقرر هذا المجلس أن يتخلوا عن بيت المقدس ويزحفوا على القاهرة البعيدة عنهم بنحو ٢٥٠ ميلا . وكان رتشرد قد سئمت نفسه هذه الفعال ، وعافها ، وملأ اليأس قلبه ، فانسحب إلى عكا وأخذ يفكر فى العودة إلى إنجلترا .

ولكنه لما سمع أن صلاح الدين عاود الهجوم على يافا ، وأنه استولى عليها بعد يومين لا أكثر ، أبى عليه كبرياؤه أن ينكص عن غرضه ، وبعث فى نفسه روحا جديدة ، وأقلع من فوره إلى يافا مع من استطاع أن يحشدهم من الجنود . ولما وصل إلى الميناء نادى بأعلى صوته « الويل للقاعد ! » وقفز إلى وسطه فى البحر ، وأخذ يلوح ببلطته الدنمرقية الشهيرة ويقتل كل من يقف فى سبيله ، ثم قاد جنوده إلى داخل المدينة ، وأخرج منها جميع الجنود المسلمين . كل هذا ولم يكد صلاح الدين يعرف ما حصل (١١٩٢) . فلما عرفه استدعى القسم الرئيسى من جيشه لإنقاذ المدينة ، وكان عدد رجاله يربو كثيراً على عدد جنود رتشرد الثلاثة الآلاف ، ولكن شجاعة الملك وجرأته أكسبتاه النصر . ولما رأى صلاح الدين أن رتشرد راجلا بعث إليه بجواد من عنده ، وقال إن من العار أن يقاتل هذا الرجل الشهم راجلا . وغضب جنود صلاح الدين من هذا العمل وأمثاله فلم يعودوا يطيقون صبراً عليه ؛ وأخذوا يلومونه على أن ترك جنود حامية يافا أحياء ليقاتلوه فيها مرة أخرى . ثم سار رتشرد آخر الأمر — إذا جاز لنا أن نصدق رواة القصة المسيحيين — أمام جيش المسلمين وحربته مدلاة إلى جانبه ، ولكن أحداً لم يجرؤ على مهاجمته(٣٧) .

ثم تبدلت الحال فى اليوم الثانى ، وجاءت الأمداد إلى صلاح الدين ، واستولى الملل مرة أخرى على رتشرد ، وحبس عنه فرسان عكا وصور معونتهم ، فأرسل يطلب الصلح من جديد . واشتدت عليه الحمى فطلب فاكهة وشرابا بارداً ،

فما كان من صلاح الدين إلا أن بعث إليه بالكمثرى والخوخ والثلج . وبطبيبه الخاص . وفى اليوم الثانى من سبتمبر ١١٩٢ وقع البطلان شروط صلح يدوم ثلاث سنين ، وقسمت فلسطين قسمين ؛ فاحتفظ رتشرد بجميع ما فتحه من المدن الممتدة على طول الساحل من عكا إلى يافا ؛ وسمح للمسلمين والمسيحيين بحرية الانتقال من أحد القسمين إلى الآخر ؛ وتعهد السلطان بحماية الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس على أن تبقى المدينة فى أيدى المسلمين (ولعل التجار الإيطاليين الذين يهمهم قبل كل شىء أن يسيطروا على الثغور البحرية ، قد أقنعوا رتشرد بالتخلى عن المدينة المقدسة نظير استيلائه على المدن الساحلية) .. وأقيمت المآدب والألعاب احتفالا بالصلح ؛ ويقول صاحب سيرة رتشرد فى هذا : « والله وحده يعلم مقدار السرور الذى ملأ قلوب الشعبين ، وهو سرور يجل عن الوصف »[٣٨] . وزالت إلى حين الأحقاد من الصدور ؛ ولما ركب سفينته إلى إنجلترا أرسل رسالته الأخيرة إلى صلاح الدين يتحداه ، ويتوعده بأنه سيعود بعد ثلاث سنين ويستولى على بيت المقدس . وأجابه صلاح الدين بأنه إذا كان لابد أن تقطع يده فإنه يفضل أن يقطعها رتشرد (الأنكتار) لا أى رجل سواه[٣٩] .

وبعد فإن اعتدال صلاح الدين ، وصبره ، وعدله قد غلبت بهاء رتشرد ، وشجاعته ، ومهارته الحربية ؛ كما غلب المسلمون بفضل إخلاص زعمائهم ووحدتهم الزعماء الإقطاعيين المنقسمين على أنفسهم ، والذين يعوزهم الولاء للغرض والإخلاص فى المقصد ؛ وكان قصر خط التموين من وراء المسلمين أعظم فائدة من سيطرة المسيحيين على البحار . وكانت الفضائل والأخطاء المسيحية أبرز فى السلطان منها فى الملك المسيحى ؛ فقد كان صلاح الدين مستمسكاً بدينه إلى أبعد حد ، وأجاز لنفسه أن يقسو أشد القسوة على فرسان المعبد والمستشفى ؛ ولكنه كان فى العادة شفيقاً على الضعفاء ، رحيما بالمغلوبين ، يسمو على أعدائه فى وفائه بوعده سموا

جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامى « الخاطئ » فى ظنهم رجلا يصل فى العظمة إلى هذا الحد . وكان يعامل خدمه أرق معاملة ، ويستمع بنفسه إلى مطالب الشعب جميعها ، وكانت قيمة المال عنده لا تزيد على قيمة التراب . ولم يترك فى خزائنه الخاصة بعد موته إلا دينارا واحدا[٤٠] ؛ وقد ترك لابنه الظاهر قبل موته بزمن قليل وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة مسيحية(*) :

« أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير ؛ وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك ؛ وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فإن الدم لا ينام ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم ، فأنت أمينى وأمين الله عليهم ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغتُ ما بلغتُ إلا بمداراة الناس ؛ ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبقى على أحد ؛ واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم(**) » .

ومات فى عام ١١٩٣ ولم يتجاوز سنه الخامسة والخمسين .

(*) الحق أن عظمة صلاح الدين منشؤها استمساكه بأوامر دينه واتصافه بفضائل هذا الدين . (المترجم)

(**) نقل المؤلف الترجمة الإنجليزية لهذه الوصية عن كتاب « صلاح الدين » لاستانلى لين پول ونقلناها نحن عن سيرة صلاح الدين المعروفة باسم « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » تأليف القاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ . (المترجم)

الفصل السابع

الحملة الصليبية الرابعة

١٢٠٢ — ١٢٠٤

أفلحت الحملة الصليبية الثالثة فى أخذ عكا ولكنها لم تفلح فى الاستيلاء على بيت المقدس ، وكانت هذه نتيجة ضئيلة ميئسة لحملة اشترك فيها أعظم ملوك أوربا . وكان غرق بربرسا ، وفرار فيليب أغسطس ، وإخفاق رتشرد ، ودسائس الفرسان المسيحيين فى الأرض المقدسة التى لم يرعوا فيها واجباً أو ضميراً ، أو النزاع الذى قام بين فرسان المستشفى وفرسان المعبد ، وتجدد الحروب بين إنجلترا وفرنسا ، كل هذا قد حطم كبرياء أوربا ، وأذلها ، وأضعف ثقة العالم المسيحى بها . ولكن موت صلاح الدين المبكر ، وانقسام دولته بعد وفاته ، بعث فى قلوب العالم المسيحى آمالا جديدة ، فلم يكد إنوسنت الثالث Innocent III يجلس على عرش البابوية (١١٩٨ — ١٢١٦) ، حتى أخذ يطالب العالم المسيحى ببذل مجهود جديد ، وقام فلك ده نويى Fnik de Neuilly ، وهو قس ساذج ، يدعو الملوك والسوقة إلى حرب صليبية رابعة . وكانت نتيجة الدعوة ميئسة ؛ فقد كان الإمبراطور فردريك الثانى طفلا فى سن الرابعة ؛ وكان فليب أغسطس يرى أن حملة صليبية واحدة تكفيه طوال حياته ، ونسى رتشرد كلماته الأخيرة لصلاح الدين فأخذ يسخر من دعوة فلك ، ويقول له : « إنك تدعونى إلى التخلى عن بناتى الثلاث — الكبرياء ، والبخل ، والانغماس فى الملاذ . فدونك هى لأجدر الناس بها : كبريائى لفرسان المعبد ، وبخلى لرهبان سيتو Citeaux ، وانغماسى فى الملاذ إلى المطارنة »[٤٢] . ولكن إنوسنت واصل دعوته ، وقال إن حملة توجه إلى مصر مقدر لها الفوز بفضل سيطرة الإيطاليين على البحر المتوسط ، ثم تتخذ مصر الغنية الخصبة قاعدة للزحف

على بيت المقدس ؛ ووافقت البندقية بعد مساومات طويلة على أن تعد ما يلزم لنقل ٤٥٠٠ من الفرسان والخيول ، و ٩٠٠٠ من أتباعهم ، وعشرين ألفاً من المشاة ، وما يكفى هذه القوة من المؤن تسعة شهور ، كل هذا فى نظير ٨٥٫٠٠٠ مارك من الفضة (نحو ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . ورضيت أيضاً أن تمدهم بخمسين سفينة حربية بشرط أن تختص جمهورية البندقية بنصف الغنائم الحربية(٤٣) . على أن البنادقة لم يكن فى عزمهم أن يهاجموا مصر ، فقد كانوا يكسبون منها الملايين فى كل عام : يصدرونه إليها من الخشب ، والحديد والسلاح ، وباستيراد العبيد ؛ ولم يكونوا يريدون أن يخاطروا بضياع هذه التجارة بالاشتراك فى الحرب ، أو باقتسامها مع پيزا وجنوى . ولهذا فإنهم وهم يفاوضون لجنة من الصليبيين عقدوا حلفا سريا مع سلطان مصر يضمنون بمقتضاه سلامة تلك البلاد من الغزو (١٢٠١)(٤٤) . ويقول إرنول Ernoul المؤرخ الإخبارى المعاصر إن البندقية حصلت على رشوة كبيرة نظير تحويل الحملة الصليبية عن فلسطين(٤٥) .

وتجمعت الجيوش الجديدة فى مدينة البندقية فى صيف ١٢٠٢ . وكان من أبرز رجالها المركيز بنغاس من منت فرات ، والكونت لويس من بلوا Bliois ، والكونت بلدوين من فلاندرز ، وسيمون ده منت‌فورت الذى يستمد شهرته من الألبجنسيين ، وكان من بين أعيانها الكثيرين چيوفروا ده ڤيلهاردون Geoffroi de Villehardouin (١١٦٠ — ١٢١٣) ، مارشال شمپانيا الذى لم يقتصر عمله على ما اضطلع به من دور رئيسى فى الأعمال السياسية والحربية المتصلة بالحرب الصليبية ، بل إنه سجل تاريخها المعيب فى مذكرات سترت معايبها ، وكانت بداية النثر الفرنسى الأدبى . وجاء معظم الصليبيين من فرنسا جرت بذلك عادتها ؛ وكان قد طلب إلى كل رجل أن يأتى معه بقدر من المال يتفق مع موارده حتى يتجمع للحملة مبلغ ال ٨٥٫٠٠٠ مارك التى لابد من أدائها للبندقية تنفيذاً للشروط المتفق عليها معها ؛ ونقص المبلغ المتجمع عن الواجب أداؤه

بأربعة وثلاثين ألف مارك ، وحينئذ عرض إنريكو دندولو Enrico Dandolo الدوج الذى لا يكاد يبصر « ذو القلب العظيم » ، مدفوعاً إلى ما عرضه بكل ما أمدته به من تقى وقداسة سنوه الأربع والتسعون ، عرض هذا الدوج أن ينزل عن المبلغ الباقى إذا ساعد الصليبيون مدينة البندقية على فتح مدينة زارا Zara ، وكانت هذه المدينة وقتئذ أهم ثغور البحر الأدرياوى بعد البندقية نفسها ؛ وكانت البندقية قد استولت عليها فى عام ٩٩٨ ، وكثيراً ما خرجت عليها وأخضعت لها ، وكانت فى الوقت الذى نتحدث عنه من أملاك المجر ، ومنفذها الوحيد إلى البحر . وكانت ثروتها وقوتها آخذتين فى النماء ، ولهذا كانت البندقية تخشى منافستها لها فى تجارة البحر الأدرياوى . ووصف إنوسنت الثالث هذا الاقتراح بأنه اقتراح دنىء ، وأنذر كل من يشترك فيه بالحرمان ، غير أن أعظم البابوات شأناً وأقواهم سلطاناً لم يستطع أن يجعل صوته أعلى من رنين الذهب ، وهاجم الأسطولان المتحدان زارا ، واستوليا عليها بعد خمسة أيام ، وقسم الفاتحون الغنائم فيما بينهم ؛ ثم أرسل الصليبيون بعثة إلى البابا يرجون منه المغفرة ، فغفر لهم ، ولكنه طلب إليهم أن يردوا الغنيمة ؛ فشكروا له غفران الخطيئة ، واحتفظوا بالغنيمة ؛ وتجاهل البنادقة أمر الحرمان ، وخطوا الخطوة التالية لتنفيذ القسم الثانى من مشروعهم وهو الاستيلاء على القسطنطينية .

ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد تعلمت شيئاً من الحملات الصليبية . ذلك أن هذه الإمبراطورية لم تقدم للصليبيين معونة تذكر ، ولكنها حصلت منهم على كسب عظيم ؛ فقد استردت الجزء الأكبر من آسية الصغرى ، وكانت تنظر بعين الرضا والاطمئنان إلى ماحل من الضعف بالغرب وبالإسلام فى كفاحهما للاستيلاء على فلسطين . وكان الإمبراطور مانيول Manuel قد ألقى القبض على آلاف من البنادقة من القسطنطينية وألغى إلى حين ما للبندقية فى تلك المدينة من امتيازات تجارية (١١٧١)(٤٦)؛ ولم يستنكف إيزاك أنجيلوس Isaac Angelus

أن يتحالف مع المسلمين(٤٧)؛ وفى عام ١١٩٥ خلعه أخوه ألكسيوس الثالث Alexius III وسجنه وفقأ عينيه ؛ وفر ابن إسحق واسمه أيضاً ألكسيوس إلى ألمانيا، ثم جاء إلى البندقية فى عام ١٢٠٢، واستغاث بمجلس شيوخها وبالصليبيين أن ينقذوا أباه ويعيدوه إلى عرشه ، ووعدهم فى نظير هذا العمل أن تساعدهم بيزنطية فى حربهم على الإسلام . وعقد دندولو والأشراف الفرنسيون مع الأمير الشاب اتفاقا عظيم الفائدة لهم : فقد أقنعوه أن يتعهد بأداء مائتى ألف مارك فضى إلى الصليبيين ، وأن يجهز جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل للخدمة فى فلسطين ، وأن يخضع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية للبابا فى رومة(٤٨) . ولكن البابا إنوسنت الثالث نهى الصليبيين على الرغم من هذه المنح السخية عن مهاجمة القسطنطينية وأنذرهم بالحرمان إذا فعلوا ؛ ورفض بعض الأشراف أن يشتركوا فى الحملة ، ورأى قسم من الجيش أنه فى حل من يمينه التى أقسمها بالاشتراك فى الحملة الصليبية وعاد إلى أوطانه ، ولكن فكرة الاستيلاء على أغنى مدينة فى أوربا ظلت مستحوذة على الكثيرين من الصليبيين يصعب عليهم مقاومتها ، ولهذا فإن الأسطول العظيم المكون من ٤٨٠ سفينة أقلع فى أول يوم من شهر أكتوبر عام ١٢٠٢ وسط مظاهر الابتهاج والتهليل بينا كان القساوسة الواقفون عند أبراج السفن الحربية ينشدون نشيد تعال أيها الخالق الروح Veni Creator Spiritus(٤٩) ؛ ووقف هذا الأسطول الضخم أمام القسطنطينية فى الرابع والعشرين من شهر يونيه عام ١٢٠٣ . ويقول فيلهاردون فى وصفها :

وأؤكد لكم أن أولئك الذين لم يروا القسطنطينية من قبل قد فتحوا عيونهم واسعة ، لأنهم لم يكونوا يعتقدون أن فى العالم كله مدينة فى مثل هذا الثراء ، حين أبصروا الأسوار الشامخة ، والأبراج الضخمة التى تتألف منها ، والقصور المنيفة ، والكنائس العالية التى لا يحصى عددها ، ولا يعتقد إنسان بوجودها إلا إذا كان قد رآها بعينيه ، وعرف ما بلغته هذه المدينة سيدة المدن

كلها من الطول والعرض . واعلموا أنه لم يكن بيننا رجل مهما بلغ من الشجاعة ، إلا اقشعر بدنه حين شاهدها ؛ وليس فى هذا شىء من العجب ، لأن أحداً من الناس لم يقم منذ بداية العالم بعمل يضارع فى جلاله هجومنا على تلك المدينة(٥٠) .

وأرسل المهاجمون بلاغاً نهائياً إلى ألكسيوس طلبوا فيه : أن يرد الإمبراطورية إلى الأخ الأعمى أو إلى ألكسيوس الصغير ، الذى كان يصحب الأسطول المغير ؛ فلما رفض ألكسيوس الثالث هذا الإنذار نزل الصليبيون إلى البر ، بعد مقاومة ضعيفة ، أمام أسوار المدينة ، وكان دندولو الشيخ المسن أول من وطئت قدماه الأرض . وفر ألكسيوس الثالث إلى تراقيا ، وأخرج الأشراف اليون إسحق أنجيلوس من سجنه وأجلسوه بأنفسهم على العرش ، وأرسلوا باسمه رسالة إلى الزعماء اللاتين يقول فيها إنه ينتظر ابنه ليحييه . وبعد أن استخلص الصليبيون وعداً من إسحق بارتباطه بما تعهد لهم به ولده دخل ندولو والأشراف المدينة ، وتوج ألكسيوس الصغير إمبراطوراً بالاشتراك مع أبيه . ولما عرف اليونان الثمن الذى اشترى به هذا النصر انقلبوا عليه غاضبين ساخرين ؛ فأما العامة فقد أخذوا يحسبون مقدار ما يجب عليهم أداؤه من الضرائب لجمع ما وعد به منقذيه من المال ، وأما الأشراف فقد ساءهم وجود أرستقراطية غريبة وقوة أجنبية فى المدينة ، وأما رجال الدين فقد رفضوا فى غضب وحنق أن يخضعوا لرومة . وحدث فى هذه الأثناء أن رأى بعض الجنود اللاتين جماعة من المسلمين يصلون فى مسجد مقام فى مدينة مسيحية ، فثارت ثائرتهم وأشعلوا النار فى المسجد ، وقتلوا المصلين . وظلت النار مشتعلة ثمانية أيام وامتدت إلى مسافة ثلاثة أميال ، وأحالت جزءاً كبيراً من القسطنطينية رماداً وأنقاضاً . وقام أمير من البيت المالك وتزعم ثورة من أهل المدينة وقتل ألكسيوس الرابع ، وأعاد إسحق إنجيلوس إلى السجن ، وجلس على العرش وتسمى باسم ألكسيوس الخامس دوكاس

Alexius V. Ducas ، وأخذ يعد جيشاً يطرد به اللاتين من معسكرهم فى غلطة . ولكن اليونان كانوا قد قضوا دهراً طويلا وهم آمنون وراء أسوارهم ، فلم يحتفظوا بشىء من الفضائل المتصلة باسمهم الرومانى ، فاستسلموا بعد شهر من الحصار ؛ وفر ألكسيوس الخامس ، وأخذ اللاتين الظافرون يعيثون فى العاصمة كأنهم جراد منتشر ملتهم (١٢٠٤) .

وازداد نهمهم لطول ما حرموا من فريستهم الموعودة ، فانقضوا على المدينة الغنية فى أسبوع عيد الفصح وأتوا فيها من ضروب السلب والنهب ما لم تشهده رومة نفسها على أيدى الوندال أو القوط . نعم إنه لم يقتل فى هذه الحوادث كثيرون من اليونان — فلعل عدد القتلى لم يتجاوز ألفين ، أما السلب والنهب فلم يقفا عند حد . ووزع الأشراف القصور فيما بينهم ، واستولوا على ما وجدوه فيها من الكنوز ؛ واقتحم الجنود البيوت ، والكنائس ، والحوانيت ، واستولوا على كل ما راقهم مما فيها ؛ ولم يكتفوا بتجريد الكنائس مما تجمع فيها خلال ألف عام من الذهب والفضة والجواهر ، بل جردوها فوق ذلك من المخلفات المقدسة ، ثم بيعت هذه المخلفات بعدئذ فى أوربا الغربية بأثمان عالية . وعانت كنيسة أياصوفيا من النهب ما لم تعانه فيما بعد على يد الأتراك عام ١٤٥٣[٥١] ، فقد قطع مذبحها العظيم تقطيعاً لتوزع فضته وذهبه[٥٢] . وكان البنادقة ، وهم الذين يألفون المدينة التى كثيراً ما رحبت بهم تجاراً ، يعرفون أين توجد أعظم كنوزها ، فاستعانوا بذكائهم الفائق على أعمال التلصص ، وامتدت أيديهم إلى التماثيل ، والأقمشة ، والأرقاء ، والجواهر ؛ ونقلت الأربعة الجياد البرنزية التى كانت تطل على المدينة اليونانية ، وجمل بها ميدان القديس مرقس Piazza di San Marco ؛ وكانت هذه السرقات المنظمة مصدر تسعة أعشار مجموعات الفنون والجواهر التى امتازت بها كنوز كنيسة القديس مرقس على سائر الكنائس[٥٣] . وبذلت محاولة ضئيلة للحد من اغتصاب النساء ، وقنع الكثيرون من الجنود بالعاهرات ، ولكن

إنوسنت الثالث أخذ يشكو من أن شهوات اللاتين المكبوتة لم ينج منها الكبار أو الصغار ، ولا الذكور أو الإناث ، ولا أهل الدنيا أو الدين ؛ فقد أرغمت الراهبات اليونانيات على احتضان الفلاحين أو السائسين البنادقة والفرنسيين(٨٤) . وبددت فى أثناء هذا السلب والنهب محتويات دور الكتب وأتلفت المخطوطات الثمينة أو فقدت ، واندلعت ألسنة النيران بعدئذ مرتين فى المدينة فالتهمت دور الكتب والمتاحف كما التهمت الكنائس والمنازل ، فضاعت مسرحيات سفكليز ويوربديز التى ظلت حتى ذلك الوقت باقية بأكملها ولم ينج منها إلا القليل ، وسرقت آلاف من روائع الفن أو شوهت أو أتلفت .

ولما خفت حدة الاضطراب والنهب اختار أعيان اللاتين بلدوين أمير فلاندرز ملكا لمملكة القسطنطينية اللاتينية (١٠٢٤) ، وجعلوا الفرنسية لغتها الرسمية . وقسمت الإمبراطورية البزنطية إلى أملاك إقطاعية يحكم كلا منها أمير نبيل إقطاعى . وكانت البندقية حريصة على السيطرة على طرق التجارة فاستولت على هدريانويل ، وإپيروس ، وأكارنانيا Acarnania ، والجزائر الأيونية ، وجزء من الپلوپونيز ، وجزيرة عوبية ، وجزائر الأرخبيل ، وغاليبولى ، وثلاثة أثمان القسطنطينية . وانتزعت من أهل جنوى « المصانع » البزنطية ، والمعاقل الخارجية ، واختار دندولو لنفسه ، وكان وقتئذ يترنح فى ثيابه الإمبراطورية ، لقب « دوج البندقية ، وسيد ربع الإمبراطورية الرومانية وثمنها »(٨٥) . ولم يطل عمره بعد هذا فقد مات فى زهو هذا النصر الذى ناله بفعال أثيمة لم يؤنبه عليها ضميره . واستبدل برجال الدين اليونان غيرهم من اللاتين ، رسم الكثيرون منهم قساوسة لهذه المناسبة دون أن يكون لهم تاريخ سابق فى شئون الدين ، ووافق إنوسنت الثالث على الاتحاد الرسمى بين الكنيستين اليونانية واللاتينية عن رضا

وطيب خاطر ، وإن ظل يحتج على الهجوم . وعاد معظم الصليبيين إلى أوطانهم مثقلين بالغنائم ، وأقام بعضهم فى الأملاك الجديدة ، ولم يصل منهم إلى فلسطين إلا حفنة قليلة ، لم تعمل فيها عملا ما . ولعل الصليبيين قد ظنوا أن القسطنطينية بعد استيلائهم عليها ، ستكون قاعدة ضد الأتراك أقوى مما كانت وهى بيزنطية ، ولكن النزاع بين اللاتين واليونان الذى دام أجيالا طوالا أنهك قوى العالم اليونانى ولم تفق الإمبراطورية البيزنطية من هذه الضربة القاصمة ، ومهد استيلاء اللاتين على القسطنطينية إلى استيلاء الأتراك عليها بعد مائتى عام من ذلك الوقت .

الفصل الثامن

إخفاق الحملات الصليبية

١٢١١ — ١٢٩١

لقد كانت فضائح الحملة الصليبية الرابعة ، مضافة فى نحو عشر سنين إلى إخفاق الحملة الثالثة ، مما لا يرتاح له الدين المسيحى الذى واجه بعد زمن قليل بعث فلسفة أرسطو ، وفلسفة ابن رشد الدقيقة القائمة على تحكيم العقل . وأخذ المفكرون يجهدون عقولهم ليفسروا للناس كيف رضى الله أن يهزم ناصروه فى تلك القضية المقدسة ، ولم يهب النصر إلا للبنادقة الأدنياء . ولاح لذوى النفوس الساذجة فى خلال هذه الشكوك أن لا سبيل إلى استرداد حصن المسيح الحصين إلا بالطهر والتجرد من الذنوب . ولهذا قام فى عام ١٢١٢ شاب ألمانى لايعرف التاريخ من ماضيه إلا أن اسمه نقولاس Nicholas ، وأعلن أن الله قد أمره أن يقود إلى الأرض المقدسة حملة صليبية مؤلفة من الأطفال . وعارضه فى ذلك رجال الدين وغير رجال الدين ، ولكن فكرته انتشرت انتشاراً سريعاً فى عصر تسوده أكثر مما تسود سائر العصور موجات الحماسة العاطفية . وحاول الآباء بكل ما وسعهم من الجهد أن يمنعوا أبناءهم من الاستجابة لدعوته ، ولكن آلافاً من الغلمان (وبعض البنات فى ثياب الغلمان) لا يزيد متوسط أعمارهم على الثانية عشرة تسللوا من بيوتهم وساروا وراء نقولاس ، ولعلهم قد سرهم أن ينجوا من استبداد البيت إلى حرية الطريق . وخرج القسم الأكبر من هذا الحشد المؤلف من ثلاثين ألف طفل ، من مدينة كولونى ، وساروا بإزاء نهر الرين ، وفوق جبال الألب . وأهلك الجوع عدداً كبيرا منهم وفتكت الذئاب ببعض المتخلفين ، واختلط اللصوص بالزاحفين وسرقوا ثيابهم وطعامهم ؛ ووصل من نجا منهم إلى

جنوى حيث سخر منهم الإيطاليون عبدة المصالح الدنيوية ؛ ولم يجدوا سفناً تقلهم إلى فلسطين ؛ فلما استغاثوا بإنوسنت الثالث أجابهم بلطف أن يعودوا إلى أوطانهم ، فنهم من سمعوا النصيحة وقفلوا راجعين وهم حزانى مكتئبون ، فعبروا جبال الألب ، ومنهم من استقروا فى جنوى ، وتعلموا فيها أساليب العالم التجارية .

هذا ما حدث فى ألمانيا ، أما فى فرنسا فقد قدم إلى فليب أغسطس فى ذلك العام نفسه راع فى الثانية عشرة من عمره يدعى استيفن ، وقال إن المسيح ظهر له وهو يرعى غنمه ، وأمره أن يقود حملة من الأطفال إلى فلسطين ، فأمره الملك أن يعود إلى غنمه ، ولكن عشرين ألفاً من الغلمان اجتمعوا رغم هذا وساروا وراء استيفن ؛ واجتازوا فرنسا إلى مرسيليا ، وكان استيفن قد وعدهم أن البحر سينشق عند هذه المدينة ليمكنهم من الوصول إلى فلسطين راجلين ، ولم ينشق لهم البحر ، ولكن اثنين من أصحاب السفن عرضا عليهم أن ينقلاهم إلى حيث يقصدون دون أن يتقاضوا منهم أجراً . فازدحم الأطفال فى سبع سفن أقلعت بهم وهم ينشدون أناشيد النصر . وتحطمت اثنتان من هذه السفن بالقرب من سردانية وغرق كل من كانوا فيها ، وجىء بالباقين من الأطفال إلى تونس أو مصر حيث بيعوا فى أسواق الرقيق ، وشنق صاحبا السفن التى أقلتهم بأمر فردريك الثانى (٥٦) .

وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت وجه إنوسنت الثالث فى أثناء انعقاد مجلس لاتران الرابع دعوة أخرى إلى أوربا لاستعادة الأراضى المقدسة ، وعاد إلى الخطة التى حالت البندقية دون تنفيذها - خطة الهجوم على مصر . وغادرت الحملة الصليبية الخامسة بلاد ألمانيا ، والنمسا ، والمجر فى عام ١٢١٧ بقيادة أندرو Andrew ملك المجر ، وأفلحت فى الوصول إلى دمياط الواقعة على مصب النيل الشرقى . وسقطت المدينة فى أيديهم بعد حصار دام عاماً كاملا ، وعرض عليهم الملك الكامل سلطان مصر وسوريا الجديد أن يصالحهم على أن يسلم لهم الجزء الأكبر من بيت المقدس ، ويطلق سراح الأسرى المسيحيين ، ويعيد الصليب الحق . وطلب

الصليبيون أن يتقاضوا بالإضافة إلى ذلك كله غرامة حربيه ، ولكن الكامل رفض هذا الطلب ، وبدأت الحرب من جديد ، ولكنها لم تجر كما يشتهى الصليبيون ، فلم يأتهم ما كانوا ينتظرون من المدد ؛ ثم عقدت هدنة تدوم ثمانى سنين رد إلى الصليبيين بمقتضاها الصليب الحق ، ولكن دمياط أعيدت إلى المسلمين ، وجلا جميع الجنود المسيحيين عن أرض مصر .

وعزا الصليبيون هذه المأساة إلى فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وإيطاليا الشاب ؛ ذلك أنه أقسم يمين الصليبيين فى عام ١٢١٥ ، ووعد أن ينضم إلى الجيوش المحاصرة لدمياط ، ولكن المشاكل السياسية القائمة وقتئذ فى إيطاليا ، مضافاً إليها فى أغلب الظن ضعف إيمانه ، لم يمكناه من أن يبر بقسمه ووعده . فلما كان عام ١٢٢٨ زحف فردريك ، وهو لا يزال مطروداً من حظيرة الدين ، على رأس الحملة الصليبية السادسة ، ولما وصل إلى فلسطين لم يلق أية معونة ممن فيها من المسيحيين الصالحين ، فقد أعرض هؤلاء عن رجل مطرود من الكنيسة المسيحية . فلما رأى الإمبراطور ما فعلوا أرسل رسله إلى الملك الكامل ، وكان يقود جيش المسلمين فى نابلس ، ورد عليه الكامل رداً جميلا ، وأعجب فخر الدين سفير السلطان بما رآه من معرفة الإمبراطور بلغة العرب ، وآدابهم ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وشرع الحاكمان يتبادلان المجاملات والآراء ، ولشد ما دهش المسيحيون والمسلمون على السواء حين وقعا فى عام ١٢٢٩ معاهدة أعطى الكامل بمقتضاها فردريك مدن عكا ، ويافا ، وصيدا ، والناصرة ، وبيت لحم ، وجميع مدينة بيت المقدس ما عدا الفضاء المحيط بقبة الصخرة المقدسة عند المسلمين . وأجيز فوق ذلك للحجاج المسيحيين أن يأتوا إلى هذا الفضاء ليؤدوا فيه صلواتهم فى موضع هيكل سليمان ، وسمح للمسلمين بمثل هذه الحقوق فى بيت لحم . ونصت المعاهدة فوق ذلك على إطلاق جميع الأسرى من الطرفين المتعاقدين ، وتعهد كلاهما أن يحافظ على السلم عشر سنين وعشرة شهور (٥٧). وهكذا أفلح الإمبراطور الطريد فيما عجز

عنه المسيحيون فى مائة عام كاملة ، والتقت الثقافتان المسيحية والإسلامية فترة من الزمان وهما متفاهمتان ، تحترم كلتاهما الأخرى ، ووجدتا أن فى وسعهما أن يعيشا معاً فى صفاء ووئام . واغتبط سكان الأرض المقدسة المسيحيون ، ولكن جريجورى التاسع نادى بأن تلك المعاهدة سبة للعالم المسيحى ، وأبى أن يقرها . ولما رجع فردريك إلى بلاده استولى النبلاء المسيحيون المقيمون فى فلسطين على بيت المقدس ، وعقدوا حلفا بين القوة المسيحية فى آسية ، وبين أمير دمشق المسلم ضد سلطان مصر المسلم (١٢٤٤) . واستنجد سلطان مصر بأتراك خوارزم ، فخف هؤلاء لنجدته واستولوا على بيت المقدس ونهبوها ، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها . وبعد شهرين من ذلك الوقت هزم بيبرس المسيحيين فى غزة ، وسقطت مدينة بيت المقدس مرة أخرى فى أيدى المسلمين (أكتوبر سنة ١٢٤٤) .

وبينا كان إنوسنت الرابع يدعو إلى حرب صليبية على فردريك الثانى ويعرض على كل من يقاتلون الإمبراطور فى إيطاليا نفس المنح والمزايا التى يمنحها من يخدمون فى الأراضى المقدسة ، نظم لويس التاسع أو القديس لويس ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة . ذلك أنه لبس شارة الصليب بعد زمن قليل من سقوط أورشليم ، وأقنع نبلاء بلاده أن يحذوا حذوه ؛ ولما حل عيد الميلاد أهدى إلى بعض المسيحيين الذين ظلوا ممتنعين عن الانضمام إلى الحملة أثوابا غالية الثمن نقشت عليها شارة الصليب . وبذل الملك جهده للتوفيق بين إنوسنت وفردريك حتى تلقى الحملة الصليبية تأييد أوربا متحدة . لكن إنوسنت رفض وساطته ، وزاد على هذا الرفض أن بعث راهبا يدعى چيوڤنى ده پيانو كرپينى Giovanni de Piano Carpini إلى خان المغول الأعظم يعرض عليه اتحاد المغول والمسيحيين على الأتراك . ورد عليه الخان بأن طلب خضوع البلاد المسيحية للمغول . فلما حل عام ١٢٤٨ سار لويس على رأس الفرسان الفرنسيين ومعهم چانسيد چوانڤيل الذى روى أعمال الملك فى تاريخه الذائع الصيت . ووصلت الحملة إلى دمياط ، واستولت عليها بعد

قليل من وصولها ، ولكن فيضان النيل السنوى الذى لم يحسب الصليبيون حسابه حين وضعوا خطة الحملة بدأ فى وقت وصول الصليبيين ، وغمر البلاد بالماء فأحاط بالصليبيين وحصرهم فى دمياط مدة نصف عام . على أنهم لم يندموا لما أصابهم لأن « الأشراف » كما يقول جوانفيل « أخذوا يولمون الولائم . . . كما أخذ العامة يصاحبون النساء الفاجرات »(٥٨) .
ولما واصل الجيش زحفه ، كان الجوع والمرض ، والفرار ، قد أنهكت قوته وأنقصت عدده ، وأضعفه اختلال نظامه ، فنى بهزيمة ساحقة عند المنصورة رغم استبساله فى الدفاع عن نفسه ، وتبدد شمله وولى الجنود الأدبار ، وأسر عشرة آلاف من المسيحيين من بينهم لويس نفسه ، وقد خارت قواه من وطأة الزحار (١٢٥٠) . وعالجه من مرضه طبيب عربى ، ثم أطلق سراحه بعد أن قضى فى الأسر شهراً بشرط أن يسلم دمياط ويفتدى نفسه بخمسمائة ألف جنيه فرنسى (٣٫٨٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . ولما أن قبل لويس هذه الفدية الباهظة أنقص منها السلطان خمسها ، وقبل نصف الباقى ووثق بعهد قطعه الملك على نفسه أن يؤدى إليه النصف الآخر(٥٩) .
وسار الملك على رأس فلول جيشه إلى عكا ، وأقام فيها أربع سنين ، يدعو فيها أوربا فى غير طائل إلى أن تكف عن الحروب فيما بينها وأن تنضم إليه فى حرب جديدة . وبعث فى هذه الأثناء وليم الربركوازى Wlliam of Rubruquois إلى خان المغول يعرض عليه للمرة الثانية دعوة إنوسنت — ولكنه لم يلق منه غير ما لقى فى الدعوة الأولى : ثم عاد فى عام ١٢٥٤ إلى فرنسا .

وكانت السنون التى قضاها فى الشرق قد هدأت ما كان بين المسيحيين فيه من شقاق ، فلما غادره عاد هذا الشقاق سيرته الأولى ؛ فقامت بين أهل البندقية وجنوى بين عامى ١٢٥٦و١٢٦٠ حرب داخلية فى ثغور الشام ، انضمت فيها

جميع الأحزاب المتنافرة إلى هذا الجانب أو ذاك ، وأنهكت قوى المسيحين في فلسطين . واغتنم بيبرس أحد السلاطين المماليك في مصر هذه الفرصة فزحف بجيشه على الساحل واستولى على المدن المسيحية مدينة في إثر مدينة : قيصرية (١٢٦٥) ، وصفد (١٢٦٦) ، ويافا (١٢٦٧) ، وأنطاكية (١٢٦٨) . وقتل من وقع في الأسر من المسيحيين أو استرقوا ، وقاست أنطاكية من النهب والحرق ما لم تفق منه قط فيما بعد .

وثارت حمية لويس من جديد في شيخوخته فلبس شارة الصليب مرة أخرى (١٢٦٧) ، وحذا حذوه أبناؤه الثلاثة ، ولكن النبلاء الفرنسيين لم يوافقوا على خطته وقالوا إنها مخافة بلهاء ، وأبوا أن ينضموا إليه ؛ وحتى چوانفيل نفسه رفض رفضاً باتاً أن يشترك في الحملة الصليبية التالية . ونزل الملك — الحصيف في حكمه ، الأخرق في حربه — بقواته القليلة في بلاد تونس ؛ وكان يرجو من وراء ذلك أن يحمل أميرها على اعتناق الدين المسيحي ، وأن يهاجم مصر من جهة الغرب . ولكنه لم تكد تطأ قدماه أرض إفريقية حتى « أصيب بنزلة معوية شديدة »(٦٠) ومات وهو يردد لفظ « بيت المقدس » (١٢٧٠) . وبعد عام من ذلك الوقت نزل الأمير إدورد ، ولي عهد إنجلترا في عكا ، وقاد بعض هجمات جريئة قامت بها حاميتها ، ثم عاد مسرعاً إلى إنجلترا ليضع على رأسه التاج الإنجليزي .

وحلت بالمسيحيين الكارثة الأخيرة حين نهب بعض المغامرين منهم قافلة للمسلمين في بلاد الشام ، وشنقوا تسعة عشر من التجار المسلمين ، ونهبوا بعض البلدان الإسلامية . وطلب السلطان الترضية الكافية عن هذا الاعتداء ؛ ولم يجب إلى طلبه ، فلم يسعه إلا أن يزحف على عكا أقوى المعاقل الأمامية المسيحية في فلسطين ، واستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوماً . فلما سقطت في

يده سمح لرجاله أن يقتلوا أو يسترقوا ستين ألفاً من الأسرى (١٢٩١) .
وسرعان ما سقطت بعدئذ فى أيدى المسلمين مدائن صور ، وصيدا ، وحيفا ، وبيروت . وبقى شبح مملكة أورشليم اللاتينية ماثلا إلى حين فى ألقاب بعض الزعماء ، وظل بعض المغامرين أو المتحمسين قرنين من الزمان يقدمون على محاولات متقطعة غير مجدية « ليواصلوا السجال العظيم » ، ولكن أوربا أدركت أن الحروب الصليبية قد انقضى أجلها .

الفصل التاسع

نتائج الحروب الصليبية

إذا نظرنا إلى الحروب الصليبية من حيث أغراضها المباشرة التى دارت رحاها من أجلها قلنا إنها أخفقت لا محالة . ذلك أنه بعد أن دامت هذه الحروب قرنين من الزمان بقيت بيت المقدس فى أيدى المماليك ، وقل عدد الحجاج المسيحيين إلى تلك المدينة وزادت مخاوفهم . يضاف إلى هذا أن الحكومات الإسلامية التى كانت من قبل تمتاز بالتسامح مع أصحاب الأديان الأخرى قد ذهب عنها تسامحها بسبب الهجمات المتكررة على بلادها ، ولم يبق فى أيدى المسيحيين ثغر واحد من ثغور فلسطين والشام التى انتزعوها من قبل لتستقبل التجارة الإيطالية ، وأثبتت الحضارة الإسلامية أنها أرقى من الحضارة المسيحية فى رقتها ، وأسباب راحتها ، وتعليمها وأساليبها الحربية . يضاف إلى هذا كله أن الجهود الكبيرة التى بذلها البابوات لنشر لواء السلم على ربوع أوربا بتوجيهها إلى غرض واحد قد تحطمت بفعل المطامع القومية ، وحروب البابوات « الصليبية » على الأباطرة .

ولم يفق الإقطاع مما أصابه من إخفاق فى الحروب الصليبية إلا بأشد الصعاب . ذلك أن الذى كان يوائم النظام الإقطاعى هو المغامرات والبطولة الفردية فى أضيق نطاق ، ولهذا لم تعرف كيف توفق بين أساليبها الخاصة وبين مناخ الشرق والحرب فى الميادين النائية ، وأخطأت خطأ لا يغتفر لها فى حل مشكلة التموين فى خط مواصلاتها الطويل ؛ ثم إنها قد استنفدت فى تلك الحروب ما لديها من عتاد ، وفقدت روحها المعنوية حين لم تقو على فتح بيت المقدس المسلمة بل فتحت بزنطية المسيحية . وكان كثيرون من الفرسان قد باعوا أملاكهم أو رهنوها للمرابين

أو الكنيسة أو الملوك ليحصلوا على المال اللازم للحروب ؛ وتخلوا من أجل المال عما كان لهم من حقوق فى كثير من المدن القائمة فى أملاكهم ، وأعفوا كثيرين من الفلاحين من الضرائب والالتزامات الإقطاعية المستقبلة بأثمان عاجلة ، وأفاد آلاف من أرقاء الأرض من الامتيازات التى هيأتها لهم الحروب الصليبية بأن تركوا الأراضى التى كانوا يعملون فيها ، ولم يرجع آلاف منهم إلى الضياع . وبينا كانت الثروة الإقطاعية والأسلحة الإقطاعية تتحول نحو الشرق ، كان سلطان الملوك الفرنسيين يقوى وثراؤهم يزداد ، فكانت هذه القوة والزيادة من أهم آثار الحروب الصليبية . وضعفت فى الوقت عينه قوة الإمبراطوريتين الرومانيتين الشرقية والغربية : فقد ضاعت هيبة أباطرة الغرب لعجزهم عن استرداد الأرض المقدسة ، ولنزاعهم مع البابوية التى أعلت شأنها الحروب الصليبية . أما الدولة الشرقية ، فلم تستعد قط ما كان لها فى سابق عهدها من قوة وشهرة ، رغم مولدها الجديد فى عام ١٢٦١ . لكن الحروب الصليبية قد أفادت العالم الغربى هذه الفائدة : وهى أنه لولاها لاستولى الأتراك على القسطنطينية قبل عام ١٤٥٣ بزمن طويل ، ذلك أنها أضعفت قوة المسلمين أنفسهم وجعلتهم أقل مقاومة لتيار المغول الجارف .

وحلت الكوارث ببعض المنظمات العسكرية . من هذا أن فرسان المعبد الذين نجوا من مذبحة عكا فروا إلى قبرص ، وانتزعوا فى عام ١٣١٠ رودس من المسلمين ، واستبدلوا باسمهم القديم اسم فرسان رودس ، وظلوا يحكمون الجزيرة حتى طردهم منها الأتراك فى عام ١٥٢٢ ، فانتقلوا منها إلى مالطة وأصبحوا فرسان مالطة ، وظلوا باقين حتى حل نظامهم فى عام ١٧٩٩ . أما الفرسان التيوتون فقد نقلوا مقرهم الرئيسى بعد سقوط عكا إلى مارينبورج Marienburg فى بروسيا التى انتزعوها من الصقالبة وضموها إلى ألمانيا . وأعاد فرسان المعبد تنظيم صفوفهم فى فرنسا بعد أن أخرجوا من آسية ؛ وإذ كانت لهم أملاك واسعة غنية فى جميع أنحاء

أوربا ، فقد أخذوا يستمتعون بما تدره عليهم هذه الأملاك ؛ وإذ كانت أملاكهم معفاة من الضرائب فقد كان فى وسعهم أن يقرضوا المال بفوائد أقل من التى يتقاضاها اللمبارد واليهود ، وجمعوا بعملهم هذا ثروة طائلة ، هذا إلى أنهم لم يكونوا كفرسان المعبد ينشئون المستشفيات والمدارس أو يقدمون المعونة للفقراء ؛ وأثارت أموالهم الطائلة المكنوزة ، ودولتهم المسلحة فى داخل الدولة ، وعدم خضوعهم لسلطان الملوك أثارت هذه كلها حسد فليب الرابع الجميل لهم وخوفه منهم وغضبه عليهم ؛ فقبض فى الثانى عشر من شهر أكتوبر عام ١٣١٠ على جميع من كان فى فرنسا من فرسان المعبد دون سابق إنذار لهم ووضع الخاتم الملكى على جميع ممتلكاتهم . واتهمهم فليب باللواط ، وبأنهم فقدوا إيمانهم بالدين المسيحى لطول اختلاطهم بالمسلمين ، وبأنهم ينكرون المسيح ويبصقون على الصليب ، ويعبدون الأوثان ، ويحالفون المسلمين سراً ، وأنهم طالما خانوا القضية المسيحية ؛ وحوكم السجناء أمام محكمة من المطارنة والرهبان الموالين للملك ، فأنكروا التهم الموجهة إليهم ، وعذبوا لكى يعترفوا ، فنهم من علقوا من معاصمهم وكانوا يرفعون وينزلون فجاءة ، ومنهم من وضعت أقدامهم عارية أمام النيران ومنهم من دقت شظايا حادة بين أظافر أيديهم ، ومنهم من كانت تقتلع لهم سن كل يوم ، ومنهم من علقت أوزان ثقيلة فى أعضائهم التناسلية ، ومنهم من ماتوا موتا بطيئاً من الجوع . وكانت جميع وسائل التعذيب السالفة الذكر تستخدم مع أولئك الفرسان فى كثير من الحالات ، فكانت النتيجة أن الكثيرين منهم حين جىء بهم ليعاد استجوابهم كانوا ضعافا موشكين على الموت . وأظهر واحـــد منهم العظام التى سقطت من قدميه المحروقتين ؛ واعترف الكثيرون منهم بجميع التهم التى وجهها لهم الملك ، وقال بعضهم إنهم قد تلقوا وعداً مختوما بخاتم الملك أن يؤمنوا على حياتهم وترد لهم أملاكهم إذا أقروا بارتكاب التهم التى توجهها لهم الحكومة ، ومات بعضهم فى السجون ، وانتحر البعض الآخر ؛ وشد تسعة وخمسون على

قوائم خشبية وأحرقوا بالنيران (١٣١٠) ، وظلوا إلى آخر لحظة من حياتهم يجهرون بأنهم بريئون . واعترف دوه مولاى Du Molay رئيس الطائفة الأكبر على نفسه نتيجة لهذا التعذيب ، فسبق إلى قائمة الإحراق ، فعاد إلى الإنكار ، واقترح محاكموه أن تعاد محاكمته ؛ ولكن فليب لم يرضه هذا التأخير ، وأمر بحرقه على الفور ، وشرف الملك بحضوره تنفيذ الحكم . وصادرت الدولة جميع ما كان لفرسان المعبد من أملاك فى فرنسا ، واحتج البابا كلمنت الخامس على هذه الأعمال ، ولكن رجال الدين الفرنسيين أيدوا الملك فى أعماله ، وامتنع البابا عن المقاومة وكان فى واقع الأمر سجينا فى أفنيون ، وأعلن بإيعاز فليب إلغاء نظام فرسان المعبد (١٣١٢) . وصادر إدورد الثانى هو الآخر أملاك فرسان المعبد فى إنجلترا ليسد بها حاجته إلى المال . وأعطى فليب وإدورد الكنيسة بعض هذه الأموال المصادرة ، ووهبا بعضها الآخر لأنصارهم وأحبائهم ، فأنشأوا بها ضياعا واسعة ، وأعانوا بها الملوك على الأشراف الإقطاعيين القدامى .

وربما كان بعض الصليبيين قد تعلموا فى الشرق أن يتغاضوا من جديد عن الشذوذ(*)؛ وفى وسعنا أن نضم هذا ، والعودة إلى إنشاء الحمامات العامة والمراحيض الخاصة فى الغرب ، إلى ما أسفرت عنه الحروب الصليبية من نتائج وأكبر الظن أن الأوربيين قد رجعوا إلى العادة الرومانية القديمة عادة حلق اللحى نتيجة لاتصالهم ببلاد الشرق الإسلامية(٦١) ، ودخلت ألف كلمة وكلمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية ، وانتشرت القصص الشرقية فى أوربا ، وتهيأ لها مظهر جديد فى اللغات القومية الناشئة . وتأثر الصليبيون بروعة الزجاج المنقوش المصنوع فى بلاد الإسلام ، وربما كان من نتائج تأثرهم بها أنهم نقلوا من بلاد الشرق الأسرار الفنية التى أدت إلى تحسين الزجاج الملون الذى نشاهده

(*) لقد وصف المؤلف فى المجلدات السابقة انتشار الشذوذ الجنسى فى بلاد أوربا ومنها بلاد اليونان والرومان ، وذكر فى هذا الفصل نفسه تهم الشذوذ الجنسى التى وجهت إلى الهيئات الصليبية المحاربة . (المترجم)

فى الكنائس القوطية[٦٢] . وكانت البوصلة ، والطباعة ، والبارود معروفة فى بلاد الشرق قبل انتهاء الحروب الصليبية ، ولعلها انتقلت إلى أوربا فى أعقاب تلك الحروب . ويلوح أن الأوربيين كانوا أشد جهلا من أن يعنوا بالشعر ، والعلوم ، والفلسفة « العربية » ؛ ولهذا فإن تأثر الغرب بهذه المؤثرات الإسلامية جاء عن طريق أسپانيا وصقلية لا عن طريق اتصالهم بالمسلمين أثناء هذه الحروب . كذلك تأثر الغرب بالثقافة اليونانية بعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية ، ومن دلائل هذا التأثر أن موربيك Moerbeke كبير أساقفة كورنثة الفلمنكى أمد تومس أكويناس بتراجم لكتب أرسطو عن أصولها اليونانية مباشرة . وفى وسعنا أن نقول بوجه عام إن ما عرفه الصليبيون من أن أتباع الدين المسيحى قد يكونون مثلهم خلائق متحضرين ، كريمين ، يوثق بهم ويعتمد عليهم ، أو يفوقونهم فى هذه الصفات ، إن ما عرفه الصليبيون من هذا قد بعث بلا ريب بعض العقول على التفكير ، وكان سبباً فى إضعاف العقائد الدينية المقررة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . ولقد تحدث بعض المؤرخين أمثال وليم كبير أساقفة صور عن الحضارة الإسلامية حديثاً ملؤه الإجلال بل والإعجاب فى بعض الأحيان ، لو سمعه المحاربون فى الحملة الصليبية الأولى لهزهم وصدم مشاعرهم وكبرياءهم[٦٣] .

وعظم سلطان الكنيسة الرومانية وعلت مكانتها إلى أبعد حد بسبب الحملة الصليبية الأولى ، ثم أخذت تضعف بالتدريج بسبب الحملات التى تلتها . وكان منظر الشعوب المختلفة ، والأشراف العظام ، والفرسان ذوى الكبرياء ، والأباطرة والملوك فى بعض الأحيان ، متحدين جميعاً للدفاع عن قضية دينية بزعامة الكنيسة ، كان هذا المنظر سبباً فى رفع مكانة البابوية وعلو شأنها . فقد كان مندوبو البابا يدخلون كل قطر وكل أبرشية ، يحثون الناس على التطوع للحروب الصليبية ويجمعون لها الأموال ، وكان سلطانهم يزاحم سلطان رجال الدين فى تلك الأقطار والأبرشيات ويطغى عليه فى بعض الأحيان ؛ وبفضلهم أصبح

المستمسكون بدينهم خاضعين مباشرة لسلطان البابا . وأضحى جمع المال على هذا النحو سنة متبعة ، وسرعان ما استخدمت الأموال المجموعة فى أغراض أخرى غير الحملات الصليبية ؛ وأصبح من حق البابا أن يفرض الضرائب على رعايا الملوك ، وأن يحول إلى رومة مبالغ كبيرة من المال ، لولا هذا لذهبت إلى خزائن الملوك واستخدمت فى الحاجات المحلية ؛ وأثار هذا بلا ريب غضب الملوك ومقاومتهم . وكان توزيع صكوك الغفران على من يقوم بالخدمة فى فلسطين أربعين يوما عملا مشروعا فى العرف العسكرى ، وكان منح هذه الصكوك الغفرانية نفسها لمن يتكفلون بنفقات محارب من الصليبيين يبدو كذلك من الأعمال التى يمكن التسامح فيها ، أما التوسع فى منح تلك الصكوك ، إلى الذين يؤدون الأموال ليستخدمها البابوات ، أو الذين يحاربون حروب البابا فى أوربا ضد فردريك ، ومانفرد Manfread وكنراد فقد كان مصدراً جديداً من مصادر غضب الملوك واستيائهم ، ومبعثاً لفكاهة الناقدين وسخريتهم . وحدث فى عام ١٢٤١ أن أمر جريجورى التاسع مندوبه فى بلاد المجر أن يعفى الذين أقسموا بالتطوع فى الحرب الصليبية من أيمانهم إذا أدوا إليه قدراً من المال ، ثم استخدم ما جمعه من الأموال بهذه الطريقة فى كفاحه المرير ضد فردريك الثانى(٦٤). وقام الشعراء الجوالون أهل پروڤنسال ينتقدون الكنيسة لتحويلها تيار الحرب الصليبية من فلسطين إلى فرنسا ، وذلك بعرضها صكوك الغفران نفسها على من يتطوعون لمحاربة المارقين الألبجنسيين فى فرنسا(٦٥) . ويقول ماثيو باريس Mathew Paris فى التعليق على هذا العمل : « ودهش المؤمنون من أن يعد البابوات بغفران جميع خطايا من يسفكون دماء المسيحيين كما تغفر جميع خطايا من يسفكون دماء الكفار »(٦٦) . وكان كثيرون من ملاك الأراضى قد باعوا أرضهم للكنائس أو الأديرة أو رهنوها لها ليحصلوا بذلك على ما يلزمهم من المال فى الحروب الصليبية ، وأصبح للأديرة بفضل هذا ضياع واسعة . ولما أن انحطت مكانة الكنيسة بسبب إخفاق الحروب

الصليبية أضحت ثروتها هدفا واضحاً لحسد الملوك ، وغضب الشعب وتأنيب النقاد . ومن الناس من كان يعزو الكوارث التى أصابت لويس التاسع فى عام ١٢٥٠ إلى الحرب التى شنها فى الوقت نفسه إنوسنت الرابع على فردريك الثانى . وقام المتشككون الجريئون يقولون إن إخفاق الحروب الصليبية يدحض ما يدعيه البابا من أنه نائب عن الله أو ممثله فى أرضه . ولما أن قام الرهبان بعد عام ١٢٥٠ يسألون الناس المال لإعداد حروب صليبية أخرى ، استدعى بعض من كانوا يستمعون خطبهم بعض المتسولين وتصدقوا عليهم باسم محمد من قبيل السخرية بالرهبان أو الحقد عليهم ، لأن محمداً فى رأيهم قد أظهر أنه أعظم قوة من المسيح[٦٧] .

وكان أثر الحروب الصليبية الذى يلى فى أهميته إضعاف العقيدة الدينية المسيحية هو بث روح النشاط فى الحياة المدنية الأوربية لمعرفة الأوربيين بأساليب المسلمين التجارية والصناعية . ذلك أن الحرب تسدى إلى الناس خيراً واحداً وهو أنها تعلمهم علم تقويم البلدان . فقد عرف التجار الإيطاليون الذين أثروا بفضل الحروب الصليبية كيف يرسمون خرائط للبحر المتوسط ، وتلقى المؤرخون الإخباريون الرهبان الذين رافقوا الفرسان آراء جديدة عن اتساع بلاد آسية واختلاف أصقاعها ونقلوا هذه الآراء إلى غيرهم من الناس ، وبهذا تحركت فى القلوب الرغبة فى الكشف والارتياد ، وظهرت كتب فى وصف الأقاليم والبلدان ترشد الحجاج إلى البلاد المقدسة وإلى داخل البلاد المقدسة ، وأخذ الأطباء المسيحيون العلم عن الأطباء اليهود والمسلمين ، وتقدم علم الجراحة بفضل الحروب الصليبية .

وسارت التجارة وراء الصليب ، أو لعل التجارة هى التى قادت الصليب . لقد خسر الفرسان فلسطين ، ولكن الأساطيل التجارية الإيطالية لم تنتزع السيطرة على البحر المتوسط من أيدى المسلمين وحدهم بل انتزعتها كذلك من أيدى البيزنطيين . نعم إن مدائن البندقية ، وجنوى ، وبيزا ، وأملفى ،

ومرسيليا ، وبرشلونة كانت قبل الحروب الصليبية تتجر مع بلاد الشرق الإسلامية ، وتخترق مضيق البسفور والبحر الأسود ، ولكن الحروب الصليبية قد وسعت نطاق هذه التجارة إلى أبعد حد . وكان لاستيلاء البنادقة على القسطنطينية ، ونقلهم الحجاج والمحاربين إلى فلسطين ، وتوريدهم المؤن إلى المسيحيين وغير المسيحيين فى بلاد الشرق ، واستيرادهم المحاصيل الشرقية إلى أوربا — كان لهذا كله أكبر الأثر فى انتعاش التجارة والنقل البحرى انتعاشاً لم يكن له نظير منذ أيام مجد رومة الإمبراطورية ، وجاءت إلى أوربا بكميات موفورة من الأقمشة الحريرية والسكر والتوابل كالفلفل ، والزنجبيل ، والقرنفل ، والقرفة — وكانت كلها من مواد الترف النادرة فى أوربا فى القرن الحادى عشر . وانتقلت من الشرق إلى الغرب بكميات كبيرة نباتات ومحاصيل وأشجار عرفتها أوربا من قبل من بلاد الأندلس الإسلامية . ومن هذه الذرة ، والأرز ، والسمسم ، والخروب ، والليمون ، والبطيخ ، والخوخ ، والمشمش ، والكرز ، والبلح . وسمى البصل الصغير المعروف باسم الشالوت والعسقلانى من اسم عسقلان الثغر الذى كان ينقل منه على ظهور السفن من الشرق إلى الغرب ، وظل المشمش يسمى « برقوق دمشق » زمناً طويلا[٦٨] . وجاء من بلاد الإسلام الدمقس ، والموصلين ، والساتان ، والمخمل ، والأقمشة المزركشة ، والطنافس ، والأصباغ ، والمساحيق ، والعطور ، والجواهر لتزدان بها بيوت أمراء الإقطاع وأهل الطبقات الوسطى ويتحلى بها رجالهم ونساؤهم[٦٩] . وحلت المرايا الزجاجية المطلية بغشاء معدنى محل المرايا المصنوعة من البرنز أو الصلب المصقول ، وأخذت أوربا عن الشرق صناعة تكرير السكر والزجاج « البندق » .

ونمت الصناعة الفلمنكية بوجود أسواق جديدة لها فى بلاد الشرق ، وساعد

هذا النماء على قيام البلدان ونشأة الطبقة الوسطى ، وأدخلت من بلاد بيزنطية والإسلام فنون للأعمال المصرفية أحسن مما كان موجوداً فيها قبل ، فظهرت أشكال ووسائل جديدة للائتمان ، وازداد تداول النقود والآراء كما ازداد عدد الرجال . لقد بدأت الحروب الصليبية بنظام إقطاعى زراعى ، نفخت فيه روح البربرية الألمانية الممتزجة بالعاطفة الدينية ؛ واختتمت بقيام الصناعة ، واتساع نطاق التجارة ، فى عهد ثورة اقتصادية مهدت السبيل لعصر النهضة وأمدته بالمال .

الباب الرابع والعشرون

الثورة الاقتصادية

١٠٦٦ – ١٣٠٠

الفصل الأول

انتعاش التجارة

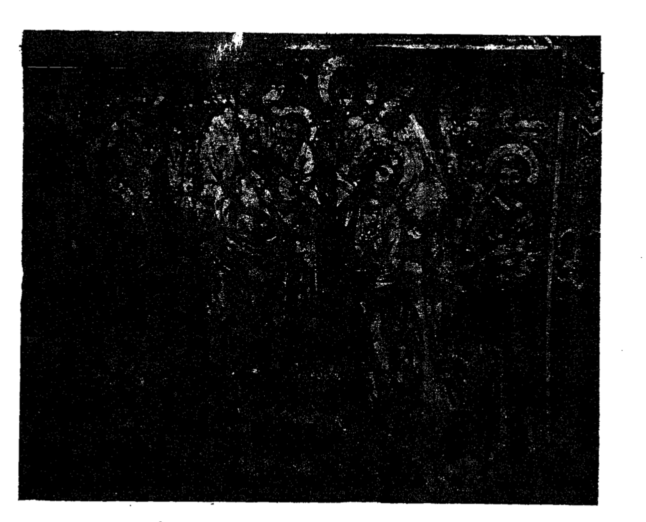
كل ازدهار التجارة يمد جذوره فى اتساع نطاق التجارة والصناعة ، ويستمد غذاءه من هذا الاتساع . وكان استيلاء المسلمين على ثغور البلاد الواقعة فى شرق البحر المتوسط وجنوبه ، وعلى تجارة هذين القسمين ، وغارات المسلمين وأهل الشمال والمجر على بلاد أوربا ، وما حل بها من الاضطراب أيام خلفاء شارلمان ، كان هذا كله سبباً فى انحطاط الحياة الأوربية الاقتصادية والعقلية فى القرنين التاسع والعاشر إلى الدرك الأسفل ؛ فلما أن حمى الإقطاع الزراعة وأعاد تنظيمها ، وروض قراصنة الشمال فأصبحوا الزراع والتجار النورمان ، وصد الهون واعتنقوا الدين المسيحى ، واستعادت التجارة الإيطالية معظم ثغور البحر المتوسط ، وأعاد الصليبيون فتح البلاد الواقعة فى شرق هذا البحر ، واستيقظ الغرب فى أثر اتصاله بحضارتين أرقى من حضارته هما حضارتا الإسلام وبيزنطية ، لما حدث هذا كله أتيحت الفرصة فى القرن الثانى عشر لانتعاش أوربا ، ووجد الحافز القوى لهذا الانتعاش ، والوسائل المادية لازدهار الثقافة فى القرن الثانى عشر ، وواصلت هذا الانتعاش حتى منتصف القرن الثالث عشر أى إلى بداية نهاية العصور الوسطى .

وكان شعار الفرد والمجتمع فى ذلك العهد هو : يجب أن يتقدم الطعام على الفلسفة والثراء على الفن Primum est edere, deinde philosophari .

وكانت الخطوة الأولى فى الانتعاش الاقتصادى هى إزالة القيود التى كانت تعطل التجارة الداخلية . ذلك أن الحكومات القصيرة النظر كانت تفرض مائة ضريبة وضريبة على نقل البضائع وبيعها — تفرضها على دخول الثغور ، وعبور القناطر ، واستخدام الطرق أو الأنهار ، أو القنوات ، وعرض البضائع على المشترين فى الأسواق والموالد . وكان سادة الإقطاع يرون أن من حقهم أن يجبوا الضرائب على البضائع المارة بأملاكهم كما تفعل الدول فى هذه الأيام ، وكان منهم من يبسط حماية حقة وخدمات صادقة للتجار إذ يمدونهم بالحراسة المسلحة وكرم الضيافة التى تيسر لهم القيام بأعمالهم(*) . ولكن تدخل الدول وسادة الإقطاع فى شئون التجارة أدى إلى وجود اثنتين وستين محطة لجباية المكوس على طول نهر الإلب ، وسبع وسبعين على نهر الدانوب . . ؛ وكان التاجر يؤدى ستين فى المائة من بضاعته نظير نقلها فى نهر الرين أو على شاطئيه(٢١) . وتعرض التجار والمسافرون لأشد الأخطار فى الطرق البرية والمسالك المائية الموبوءة بالحروب الإقطاعية ، والجنود غير النظاميين ، والأشراف اللصوص ، والقرصان المنتشرين فى الأنهار والبحار . غير أن « هدنة الله » و « سلم الله » يسرتا التجارة البرية بتحديدهما فترات للسفر آمنة أماناً نسبياً ؛ كما أن ازدياد قوة الملوك قلل بعض الشىء من السرقات ، وأوجد نظاما موحداً للمقاييس والموازين ، وحدد العوائد والمكوس ونظمها ؛ ومنعها منعاً باتاً من بعض الطرق والأسواق فى أيام الموالد الكبرى .

(*) كان بعض سادة الإقطاع يعلقون دروعهم ، أو يعلقون شعارهم الحربى ، عند مداخل قصورهم علامة على استعدادهم لاستضافة الغرباء . وهذا هو السبب فى قيام النزل على جانبى الطرق تحمل أسماء مثل : « النسر الأحمر » ، و « السبع الذهبى » ، و « الدب الأربد » .

وكانت هذه الموالد عصب الحياة التجارية فى العصور الوسطى . نعم إن البائعين الجوالين كانوا بطبيعة الحال يترددون ببضائعهم الصغيرة على الأبواب ، والصناع يبيعون مصنوعاتهم فى حوانيتهم ، والبائعين والمشترين يجتمعون فى المدن أيام الأسواق ، والأشراف يقيمون الأسواق قريبة من قصورهم ، والكنائس تسمح بإقامتها فى أفنيتها ، والملوك يديرونها فى مخازن فى عاصمة ملكهم . نعم إن هذا كله كان يحدث ، ولكن تجارة الجملة ، والتجارة الدولية كانتا تتركزان فى المواسم الإقليمية التى كانت تقام فى أوقات معينة فى لندن واستوربردج Stourbridge بإنجلترا ؛ وفى باريس ، وليون ، وريمس ، وإقليم شمبانيا بفرنسا ؛ وفى ليل ، وإيبر Ypres ودويه Douai ، وبروج Bruge بفلاندرز ، وفى كولونى ، وفرانكفورت ، وليبزج ، ولوبك Lübeck بألمانيا ، وچنيفا بسويسرا ؛ ونفجورود بروسيا . . . وكانت أشهر هذه الأسواق كلها وأحبها إلى الجماهير ماكان يقام منها بمقاطعة شمبانيا فى لانى Lagny ، إذا حل شهر يناير ، وفى بار — على — الأوب Bar-sur-Aube أيام عيد الفصح ، وفى پروڤن Provins فى شهرى مايو وسبتمبر ، وفى ترواى Troyes فى شهرى سبتمبر ونوفمبر . وكان كل موسم من هذه المواسم يدوم ستة أسابيع أو سبعة ، وكان تعاقبها على هذا النحو بمثابة سوق دولية تدوم معظم أيام السنة . وكانت أماكنها مما ييسر اجتماع المتاجر والتجار القادمين من فرنسا والأراضى الوطيئة ، ووادى نهر الرين ، بالقادمين من پروڤانس ، وأسپانيا ، وإيطاليا ، وأفريقية ، وبلاد الشرق ؛ وكانت هذه المواسم مصدراً كبيرا للثراء والسلطان لفرنسا فى القرن الثانى عشر . ونشأت هذه المواسم فى مدينة تروای فى القرن الخامس الميلادى ، ثم اضمحل شأنها حين انتزع فليب الرابع (١٢٨٥ — ١٣١٤) شمبانيا من أمرائها المستنيرين ففرض عليها من المكوس والنظم ما أفقرها ؛ فلما كان القرن الثالث عشر حلت محلها الثغور والتجارة البحرية .



(صورة ٢) العذراء مع الملائكة والقديس فرانسس فى كتدرائية أسيسى

وكان بناء السفن والملاحة قد تحسنا تحسناً بطيئاً منذ أيام الرومان ، فقد كان لمئات من المدن الساحلية منارات حسنة لإرشاد السفن . وكان لكثير منها — كالقسطنطينية ، والبندقية ، وجنوى ، ومرسيليا ، وبرشلونة — أحواض واسعة . وكانت السفن فى العادة ذات سطح واحد أو لا سطح لها على الإطلاق ، وكانت حمولتها حوالى ثلاثين طنا ؛ وكان فى مقدورها لصغر حجمها وقلة حمولتها أن تسير صعداً فى الأنهار مسافات بعيدة ؛ ولهذا كان فى مقدور سفن المحيطات أن تصل إلى أمثال مدائن نربونه Narbonne ، وبوردو ، ونانت Nantes ، وروون ، وبروج ، وبرمن ، وإن كانت بعيدة بعض البعد عن البحار ؛ ولهذا أضحت هذه المدن ثغوراً مزدهرة . وكانت بعض سفائن البحر المتوسط أكبر حجما من السفن السالفة الذكر ، تحمل ستمائة طن وتتسع لألف وخمسمائة راكب[٢] . وقد أهدت البندقية إلى لويس التاسع سفينة يبلغ طولها مائة قدم وثمانى أقدام ، وعدد بحارتها مائة وعشرة . وكان الطراز السائد لايزال هو الطراز القديم ذا الكوثل المزخرف ، والسارية أو الساريتين ، والشراع أو الشراعين ، والهيكل المنخفض ذى الصفين أو الثلاثة الصفوف من المجاذيف ، وقد يصل عددها إلى مائتى مجذاف . وكان معظم المجذفين رجالا أحراراً متطوعين لأن البحارة العبيد كانوا قليلى العدد فى العصور الوسطى[٣] . وتقدم فن إدارة الشراع إلى الريح الذى كان معروفاً فى القرن السادس تقدماً بطيئاً حتى القرن الثانى عشر حين أضيفت إلى الشراع المربع القديم أشرعة أمامية وخلفية[٤] ، ولكن القوة المحركة الرئيسية ظلت هى المجاذيف كما كانت قبل . وظهرت البوصلة البحرية ، التى لا تعرف بدايتها على وجه التحقيق(*) ، فى سفن المسيحيين حوالى عام ١٢٠٠ . وجعل الملاحون الصقليون استعمالها مستطاعاً فى المياه الهائجة بتثبيت

(*) ربما كانت نشأتها فى أوربا ؛ انظر مجلة اسيكيولوم Speculum عدد إبريل سنة ١٩٤٠ ص ١٤٦ .

الإبرة الممغطسة فوق قطب متحرك[٥] ، ومع هذا فقد مرت مائة عام بعد هذا الاختراع قبل أن يجرؤ الملاحون — عدا أهل الشمال — على الابتعاد عن الأرض وتسيير السفن وسط البحار الواسعة . وكانت الملاحة المحيطية من ١١ فبراير إلى ٢٢ نوفمبر عملا استثنائياً ، فقد كانت محرمة على سفن العصبة الهانسية Hansetic League ، وكانت سفائن البحرين المتوسط والأسود تقف فى هذه الفترة . وظلت الأسفار البحرية بطيئة كما كانت فى الزمن القديم ، فكان اجتياز المسافة من مرسيليا إلى عكا يتطلب خمسة عشر يوماً ، ولم تكن الأسفار البحرية توصف لشفاء الأمراض ، وكانت البحار موبوءة بالقرصان ، وكثيراً ما كانت السفن تتحطم أثناء سفرها ، ولم تكن أقوى البطون تنجو من الاضطراب ؛ ويحدثنا فروسار Froissart أن سير هرفيه ده ليون Sir Hervé de Léon ظل يتخبط على ظهر السفينة خمسة عشر يوماً بين سوثمبتن Southampton وهارفلير Harflur ، وأنه اعتل إلى حد لم يستطع بعده أن يستعيد صحته[٦] . وكان يعوض المسافرين عن هذه المتاعب بعض التعويض أن أجور السفر كانت قليلة ، فقد كان أجر عبور القناة الإنجليزية (بحر المانش) ستة بنسات فى القرن الرابع عشر ، وكانت أجور نقل البضائع والأسفار البعيدة تتناسب مع هذا الأجر القليل ، ولهذا امتاز النقل البحرى على البرى امتيازاً تبدلت بسببه خريطة أوربا السياسية فى القرن الثالث عشر .

ولما استرد الصليبيون سردانيه (١٠٢٢) وقورسقة (١٠٩١) من المسلمين فتح مضيق مسينا ، والبحر المتوسط للملاحة الأوربية ، كما استردت الحرب الصليبية الأولى جميع الثغور الجنوبية الواقعة على هذا البحر إلا القليل منها . فلما تحررت التجارة من هذه القيود ربطت أوربا بشبكة من الطرق التجارية لم تقتصر نتيجتها على اتصالها بالمسيحيين فى آسية ، بل شملت كذلك اتصالها ببلاد المسلمين فى أفريقية وآسية ، ثم امتدت إلى أبعد من هذا ، إلى بلاد الهند والشرق

الأقصى . فقد كانت المتاجر تحمل من الصين أو الهند ، وتجتاز التركستان ، وفارس ، والشام إلى موانى سوريا وفلسطين ؛ أو تخترق بلاد المغول إلى بحر الخزر ونهر الفلجا ؛ أو تنقلها إلى الخليج الفارسى ، ثم تسير صعدا فى نهر الفرات أو دجلة ، ثم تجتاز الجبال والصحراوات إلى البحر الأسود ، أو بحرر الخزر ، أو البحر المتوسط ؛ أو تسير السفن فى البحر الأحمر ثم تنقل بالقنوات أو القوافل إلى القاهرة أو الإسكندرية . وكانت التجارة — ومعظمها فى القرن الثالث عشر تجارة مسيحية — تنتشر من ثغور أفريقية الإسلامية إلى آسية الصغرى وبيزنطية ، أو إلى جزائر قبرص ، ورودس ، وكريت (إقريطش) ؛ أو إلى ثغور سلانيك ، وببرية ، وكورنثة ، وپتراس ؛ أو إلى صقلية ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وأسپانيا . وكانت القسطنطينية تضيف بضائعها الكمالية إلى هذا التيار الجارف ، وتغذى التجارة الصاعدة فى نهر الدانوب والدنيپر إلى أوربا الوسطى ، والروسيا ، ودول البحر البلطى . واستولت مدائن البندقية ، وپيزا ، وچنوى على التجارة الغربية البيزنطية ، وحاربت كما يحارب المتوحشون لكى تكون للمسيحيين السيادة على البحار .

وكان مركز إيطاليا بين الشرق والغرب ، موغلة فى البحر المتوسط ، وثغورها المتجهة إلى البحر فى ثلاث جهات مختلفة ، وبلدانها المشرفة على ممرات جبال الألب ، مما يسر لها الاستفادة أكثر من سائر الأقطار من تجارة أوربا مع بيزنطية ، وفلسطين ، وبلاد المسلمين . فقد كان لها على البحر الأدرياوى مدائن البندقية ، ورافنا ، وريمينى ، وأنكونا ، وبارى ، وبرنديزى ، وتارنتو ؛ وكان لها فى الجنوب كروتون (أقروطونة) ؛ وكان لها على الساحل الغربى رچيو ، وسلرنو ، وأملفى ، ونابلى ، وأستيا ، وپيزا ، ولوكا ، وكانت هذه تنقل تجارة غنية واسعة ؛ وكانت فلورنس المركز المصرفى لهذه التجارة تسيطر على شئونها المالية . وكان نهر الأرنو والپو ينقلان بعض هذه التجارة فى داخل البلاد إلى مدائن پدوا ،

وفرارا ، وكرمونا ، وپياسنزا ، وباڤيا . وكانت رومة تستولى على الإتاوات والعشور من سكان أوربا الأتقياء إلى كنائسها وأضرحتها ؛ وكانت سينا Siena ، وبولونيا تقعان عند ملتقى الطرق الداخلية الكبرى الكثيرة الإنتاج ؛ وكانت ميلان، وكومو ، وبريشيا ، وڤيرونا ، والبندقية تجمع فى أحجارها ثمار التجارة تنتقل فوق جبال الألب من حوضى الدانوب والرين ؛ وكانت جنوى تسيطر على البحر الترهينى ، كما كانت البندقية تتحكم فى البحر الأدرياوى . وكان أسطول جنوى التجارى يتألف من مائتى سفينة عليها عشرون ألفاً من البحارة ، وكانت ثغورها التجارية تمتد من قورسقه إلى طربزون . وكانت جنوى تتجر بكامل حريتها مع بلاد المسلمين كما تتجر معها البندقية وپيزا ؛ كانت البندقية تتجر مع مصر ، وپيزا مع بلاد تونس ، وجنوى مع أفريقية وأسپانيا الإسلاميتين ؛ وكانت كثير من هذه المدن الإيطالية تبيع الأسلحة للمسلمين فى أيام الحروب الصليبية ، وكان البابوات الأقوياء أمثال إنوسنت الثالث يندون بالتجارة أيا كانت مع المسلمين ؛ ولكن الذهب كان أقوى أثراً من الدين أو الدم المراق ، ولهذا ظلت « التجارة المحرمة » تجرى فى مجراها العادى(٧) .

واضمحلت جنوى من جراء حروبها مع البندقيـــة ، وتطلعت ثغور فرنسا الجنوبية وأسپانيا الغربية إلى نصيب من تجارة البحر المتوسط ؛ واستعادت مرسيليا إلى حين ما كان لها فى سابق أيامها من تفوق بعد أن كسدت تجارتها أيام سلطان المسلمين ، ولكن منبلييه أخذت فى خلال القرن الثانى عشر تنافسها فى أن تكون باب فرنسا الجنوبى مدفوعة فى هذه المنافسة بسكانها المختلفى الأجناس وثقافتها المتعددة الأصول — غالية ، وإسلامية ، ويهودية . وأفادت برشلونة من أهلها الذين ينتمى بعضهم إلى الأسر التجارية اليهودية القديمة التى بقيت فيها بعد أن استردت من المسلمين . وإذا كانت جبال البرانس تفصل أسپانيا المسيحية عن سائر أوربا فقد وجدت فى هذه المدينة وفى بلنسية وسيلة

للاتصال بعالم البحر المتوسط. وكانت ثغور قادس ، وبوردو ، ولاروشل ، ونانت ترسل سفنها لتسير بإزاء ساحل المحيط الأطلنطى إلى رون ، ولندن ، وبروج ؛ كما كانت چنوى فى القرن الثالث عشر ، والبندقية فى عام ١٣١٧ ترسلان سفنهما إلى هذه الثغور الأطلنطية كلها مخترقة مضيق جبل طارق ؛ وقبل أن يحل عام ١٣٠٠ كانت التجارة التى تعبر جبال الألب قد نقصت ، وأخذت تجارة المحيط الأطلنطى تسمو بأمم هذا المحيط إلى تلك الزعامة التى ضمنها لها كولمبس فيما بعد .

وأثرت فرنسا من أنهارها وهى الحبال السائلة التى تربط بها التجارة الأقاليم الواقعة على شطآنها وتوحدها . وبفضل هذه الأنهار — الرون ، والجارون ، واللوار ، والساؤون ، والسين ، والواز Oise ، والموزل ازدهرت تجارتها وأخصبت حقولها ، ولم يكن فى وسع بريطانيا وقتئذ أن تنافسها ، ولكن الثغور الخمسة الواقعة على القناة الإنجليزية كانت ترحب بالسفن والبضائع الأجنبية . وكان نهر التاميز عند لندن محاطاً منذ ذلك العهد البعيد بأحواض السفن المتجاورة الممتدة على شاطئيه ، وكانت تصدر منها المنسوجات ، والصوف ، والقصدير لتستورد بأثمانها التوابل من بلاد العرب ، والحرير من الصين ، والفراء من الروسيا ، والخمور من فرنسا . وكان أنشط من هذه كلها وأنشط من أى ثغر فى أوربا الشمالية مدينة بروج العاصمة التجارية والمنفذ الخارجى لبلاد فلاندرز بغلاتها الزراعية والصناعية . وعند هذه المدينة كان يتقاطع محورا التجارة الأوربية المحور الشرقى الغربى والمحور الشمالى الجنوبى ، كما كانا يتقاطعان عند البندقية وچنوى . وكان موقعها القريب من شاطئ بحر الشمال والمقابل لإنجلترا ، مما يسر لها استيراد الصوف الإنجليزى لينسج على الأنوال الفلمنكية والفرنسية . وكانت إلى هذا بعيدة فى الداخل بعداً يجعل ثغرها مأوى أميناً للسفن . ولهذا اجتذبت إليها أساطيل چنوى والبندقية وفرنسا القريبة ، وسمحت لهذه المدن بأن توزع بضائعها بمائة طريق وطريق على الثغور

الأصغر منها . ولما أن ازداد النقل البحرى أمناً ورخصاً ، اضمحلت التجارة البرية ، وحلت بروج محل المدن ذات المواسم التجارية ، فأضحت السوق التي تلتقى فيها التجارة الأوربية ؛ فكانت حركة النقل الثقيل على أنهار الموز Meuse ، والشلد Scheldt والرين تحمل إلى بروج بضائع ألمانيا الغربية وفرنسا الشرقية لتصدر منهما إلى الروسيا ، واسكنديناوة ، وإنجلترا ، وأسپانيا . وانتعشت بلدان أخرى بفضل هذه التجارة النهرية نذكر منها ڤلنسين Valencienne ، وكمبريه Cambrai ، وثورنيه Tónrai ، وغنت Gnent ، وأنتورب (أنفرس) Antwerp الواقعة على نهر الشلد ؛ ودينان Dinant ، ولييج Liége ، ومسترخت Maestricht على نهر الموز .

وكانت بروج أشهر مدائن القسم الغربى من العصبة الهانسية ، وكان منشأ هذه العصبة وأمثالها أن المدائن التجارية فى أوربا الشمالية ألفت من بينها فى القرن الثانى عشر أحلافاً مختلفة سماها الألمان هانسات Hanses أى اتحادات أو نقابات ، تهدف إلى تشجيع التعاون الدولى ضد المنافسة الخارجية ، وإقامة هيئات متجانسة من التجار البعيدين عن أوطانهم ، وحماية أنفسهم من القراصنة ، وقطاع الطرق ، وتقلب العملة ، والمدينين المماطلين ، وجباة الضرائب ، والمكوس الإقطاعية .

وكونت لندن ، وبروج ، وإيبر ، وترواى ، وعشرون مدينة أخرى « اتحاد لندن » ؛ وانضمت لوبك ، التى أسست فى عام ١١٥٨ لتكون مرقباً خارجيا للحرب والتجارة الألمانيتين مع اسكنديناوة ، إلى هامبرج (١٢١٠ ، وبروج (١٢٥٢)(*) فى اتحاد مشابه لهذا ، انضمت إليه فيما بعد دانزج ، وبرمن ، ونفجورود ، ودورپات Dorpat ، ومجدبرج ، وثورن Thorn ، وبرلين ، وڤزبى Visby ، واستوكهولم ، وبرجن Bergen ، ولندن ؛

(*) ربما كان هذا التاريخ هو بداية العصبة الهانسية ، وإن كان هذا الاسم لم يطلق عليها إلا فى عام ١٢٧٠ .

وبلغ هذا الاتحاد عنفوانه فى القرن الرابع عشر ، وكان يضم وقتئذ اثنتين وخمسين بلدة ، ويشرف على مصاب جميع الأنهار الكبرى — الرين ، والويزر Weser ، والإلب ، والأودر ، والفستيولا — التى تنقل غلات أوربا الوسطى إلى بحر الشمال والبحر البلطى ؛ وكان هذا الحلف يسيطر على تجارة أوربا الشمالية من رون إلى نفجورود ؛ وظل مدة طويلة يحتكر مصايد الرنجة فى البحر البلطى وتجارة القارة الأوربية مع إنجلترا . ولقد أنشأ الحلف محاكم للفصل فيما يشجر بين أعضائه من نزاع ، والدفاع عنهم فيما يقام عليهم من قضايا من البلدان الخارجة عنه ، وكان فى بعض الأحيان يحارب بوصفه سلطة مستقلة . وقد سن الحلف قوانين لتنظيم العمليات التجارية بل والسلوك الأخلاقى بين أعضائه مدناً كانوا أو رجالا ؛ وكان يحمى التجار المنظمين إليه من الشرائع الاستبدادية ، والضرائب والغرامات غير القانونية ؛ ويفرض على أعضائه مقاطعة المدن التى تسىء إليه ، ويعاقب المماطلين فى الدفع ، والمخلين بالأمانة ، والمشترين بضائع مسروقة . وأنشأ محطة تجارية فى كل مدينة منضمة إليه ، وجعل تجاره خاضعين لقوانينه الألمانية أينما ذهبوا ، وحرم عليهم الزواج من الأجنبيات .

وظلت العصبة الهانسية قرناً من الزمان عاملا من عوامل الحضارة ، فقد طهرت البحر البلطى وبحر الشمال من القراصنة ، ونظفت المجارى المائية ؛ وعدلتها فجعلتها مستقيمة ، ورسمت خرائط للتيارات البحرية والمد والجزر ، وأبانت عليها موضع القنوات ، وأنشأت المنارات البحرية ، والثغور ، والقنوات ، وسنت القوانين البحرية وجمعتها فى كتب ؛ وجملة القول أنها أحلت النظام مكان الفوضى فى تجارة أوربا الشمالية . ولقد ضمت هذه العصبة طبقة التجار ، وألفت منهم هيئة قوية فحمت بذلك الطبقة الوسطى من الأشراف ، وعملت على تحرير المدن من سادة الإقطاع ؛ وليس أدل على قوتها من أنها قاضت ملك فرنسا لأن جنوده أتلفوا بضائع العصبة ، وأرغمت ملك إنجلترا على أن يؤدى ما يلزم من النفقات

لإقامة الصلوات طلباً لنجاة أرواح تجار العصبة الهانسية الذين أغرقهم الإنجليز(٨) . وبفضل هذه العصبة انتشرت تجارة الألمان ولغتهم وثقافتهم نحو الشرق إلى بروسيا ، وليفونيا Livonia ، وإستونيا Estonia ، ورفعت بلدان كونجزبرج Königsburg ، وليباو Libau ، وميمل Memel ، وريجا Riga إلى مصاف المدن الكبرى . وكانت العصبة تتحكم في أثمان البضائع التي يتجر فيها أعضاؤها وأوصافها ، وبلغ اشتهار أعضائها بالاستقامة أن استخدم الإنجليز لفظ Easterlings أى (رجال الشرق) بمعنى « نقى أوصاف » وأن أضيف بهذا المعنى إلى لفظى فضة أو ذهب بمعنى موثوق به أو صادق .

ولكن العصبة الهانسية أضحت على مر الزمن عاملا من عوامل الاستبداد والحماية معاً ؛ فقد أسرفت فى فرض القيود الاستبدادية على استقلال أعضائها ، وأرغمت المدن على الانضمام إليها باستخدام سلاح المقاطعة تارة وبالعنف تارة أخرى ، وقاومت المدن والأحلاف المنافسة لها بجميع الوسائل الطيبة منها والخبيثة ، ولم تتورع عن استئجار القراصنة للإضرار بتجارة أولئك المنافسين ؛ وبلغ من أمرها أن نظمت لها جيوشاً خاصة ، وأقامت من نفسها دولة داخل كثير من الدول ؛ وبذلت كل ما فى وسعها للضغط على طبقة الصناع التى تستمد منها بضائعها وظلم هذه الطبقة ، ولهذا أصبح الكثيرون من العمال وغيرهم من الناس يخشونها ويحقدون عليها ، ويرون أنها أقوى وسيلة من وسائل الاحتكار قيدت بها التجارة فى أى وقت من الأوقات . ولما أن ثار العمال فى إنجلترا عام ١٣٨١ طاردوا كل المنضمين إلى العصبة الهانسية ، واقتفوا آثارهم فى أماكن العبادة داخل الكنائس ، وقتلوا كل من لم يستطيعوا النطق بلفظى Cheese Bread (الخبز والجبن) بلهجة إنجليزية(٩) .

واستولت العصبة فى عام ١١٦٠ على جزيرة جتلاند Gotland التابعة

للسويد واتخذت فزبى قاعدة وحصنا لتجارة البحر البلطى ، وأخذت بعدئذ عقداً بعد عقد ، تبسط سيطرتها على تجارة الدنمرقة ، وپولندا ، والنرويج ، والسويد ، وفنلندة ، والروسيا . وعلى سياسة تلك البلاد ، حتى قال آدم البرمنى Adam of Bremen : إن تجار العصبة الهانسية فى القرن الثالث عشر « بلغوا من الكثرة مبلغ روث البهائم . . . وكانوا يبذلون من الجهد للحصول على جلد طير الغطاس كأن فى هذا الجلد نجاتهم إلى أبد الدهر »[١٠] . واتخذ هؤلاء التجار مقرهم فى نفجورود القائمة على نهر ڤلخوف Volkhov ، وأقاموا فيها بوصفهم حامية تجارية مسلحة ، واتخذوا كنيسة القديس بطرس مخزناً لبضائعهم ، وأحاطوا مذبحها بدنان الخمر ، وأقاموا على هذه المخازن حراسة أشبه بحراسة الكلاب المتوحشة ، وعنوا فى أثناء ذلك بأداء جميع ما يتطلبه التقى والصلاح من الشعائر الدينية[١١] .

ولم تقنع العصبة بهذا بل وجهت أفكارها نحو السيطرة على تجارة نهر الرين ، وأرغمت كولونى على الخضوع لها مع أنها كانت صاحبة عصبة مستقلة . أما فى جنوب تلك المدينة فقد وقفت فى وجهها عصبة الرين المؤلفة فى عام ١٢٥٤ من كولونى ، وميتز ، واسپير Speyer ، وورمز ، واستراسبرج ، وبازل . وفى جنوب هذه المدائن كانت أجزبرج Augsburg ، وألم Ulm ، ونورمبرج Nuremberg تقوم بالتجارة الآتية من إيطاليا ؛ ولا نزال حتى اليوم نرى فى البندقية مستوع هذه التجارة المسمى Fondaco de Fedeschi القائم على القناة الكبرى . وقامت رجنزبرج Regensburg وڤينا على الطرف الغربى لنهر الدانوب ، ذلك الشريان العظيم الذى كان يحمل غلات الأجزاء الداخلية من ألمانيا إلى بحر إيجة عن طريق سلانيك ، أو إلى القسطنطينية والروسيا والبلاد الإسلامية وبلاد الشرق عن طريق البحر الأسود . وهكذا دارت التجارة الأوربية الداخلية دورة كاملة ، وعمت التجارة الخارجية فى العصور الوسطى كل مكان .

ترى أى صنف من الناس كان أولئك التجار الذين كانوا يرسلون بضائعهم فى هذه الطرق مجتازة أرضين كثيرة متباينة يسكنها أقوام ذوو وجوه مرتابة ولغات غريبة وعقائد متحاسدة متباغضة ؟ لقد كان أولئك التجار ينتمون إلى شعوب مختلفة ويأتون من بلاد كثيرة متباينة ، ولكن عدداً كبيراً منهم كان من الشوام ، واليهود ، والأرمن ، واليونان . وقلما كانوا من صنف رجال الأعمال الذين نعرفهم اليوم رجالا آمنين جالسين خلف مكاتبهم فى مدنهم ؛ بل كانوا فى العادة ينتقلون فى البلدان مع بضائعهم ؛ وكثيراً ما كانوا يقطعون مسافات طويلة ليبتاعوا بأرخص الأثمان ما يحتاجونه من البضائع من الأماكن التى تكثر فيها ، ثم يعودون ليبيعوها غالية فى البلدان التى يندر فيها وجودها . وكانوا فى العادة يشترون ويبيعون بالجملة en gross كما يقول الفرنسيون . وقد ترجم الإنجليز لفظ grosser إلى grocer ثم أطلقوا اللفظ بهذه الصيغة grocer على من يبيع التوابل بالجملة[١٢] . وكان التجار خلائق مغامرين ، ومرتادين ؛ وفرسانُ القوافل مسلحين بالخناجر والرشا ، متأهبين للقاء قطاع الطرق ، والقراصنة ، وآلاف مؤلفة من البلايا والمحن .

وربما كان أشد ما يضايقهم هو اختلاف الشرائع وتعدد جهات التقاضى ، وكان من أهم أعمالهم وضع قانون دولى للتجارة والملاحة يتقدم على مر الأيام . لقد كان التاجر إذا سافر برا يخضع إلى قضاء محكمة جديدة ، وربما خضع إلى قوانين مختلفة فى أملاك كل سيد إقطاعى ، وكان من حق هذا السيد أن يستولى على بضائعه إذا سقطت على الأرض فى الطريق ، وإذا جنحت سفينته أصبحت بمقتضى « قانون التحطيم » من حق السيد الذى جنحت عند ساحل أرضه ؛ وكان مما يفتخر به أحد السادة البريطانيين أن صخرة خطرة فى ساحل بلاده كانت أثمن درة فى تاجه[١٣] . وظل التجار يقاومون هذا الظلم الصارخ عدة قرون حتى بدءوا يلغونه تدريجا فى القرن الثانى عشر . وكان التجار اليهود

الدوليون قد جمعوا فى هذه الأثناء طائفة من القوانين التجارية يسيرون على هديها ؛ وأصبحت هذه النظم فيما بعد أساس القانون التجارى فى القرن الحادى عشر(١٤) . وأخذ هذا القانون التجارى ينمو عاماً بعد عام بما يضاف إليه من الأوامر التى يصدرها النبلاء أو الملوك لحماية التجار أو الزوار القادمين من الدول الأجنبية ؛ وأنشئت محاكم خاصة لتنفيذ القانون التجارى ؛ ومما هو خليق بالذكر أن هذه المحاكم قد أغفلت ضروب الإثبات والمحاكمات القديمة كالتعذيب ، والمبارزة ، والتحكيم الإلهى .

وكان التجار الأجانب قد حصلوا منذ القرن السادس الميلادى بمقتضى قوانين القوط الغربيين على حقهم فى أن يحاكموا فى المنازعات الخاصة بهم وحدهم أمام مندوبين من بلادهم ؛ وهكذا بدأ النظام القنصلى الذى تقيم الأمة التجارية حسب نصوصه « قناصل » لها فى خارج بلادها أى مستشارين لحماية مواطنيها ومساعدتهم . ولقد أنشأت جنوى قنصلية لها من هذا النوع فى عكا عام ١١٨٠ ، وحذت المدن الفرنسية حذوها فى هذا العمل فى أثناء القرن الثانى عشر ؛ وكان ما عقد من الاتفاقات لتبادل هذه الحقوق القنصلية من خير المصادر التى استمد منها القانون الدولى فى العصور الوسطى .

وكان قدر من القانون البحرى قد ظل قائماً من العهود القديمة ؛ فلم يمح هذا القانون قط بين تجار رودس المستنيرين ، بل كان من أقدم الشرائع البحرية « قانون أهل رودس » الصادر فى عام ١١٦٧ . وأصدرت قوانين أوليرون Lois d'Olèron فى أواخر القرن الثانى عشر جزيرة* فى البحر قرب ساحل بوردو لتنظيم تجارة الخمور ثم أخذتها عنها فرنسا وفلاندرز ، وإنجلترا . ونشرت العصبة الهانسية قانونا مفصلا فى القواعد والنظم البحرية يسير عليه أعضاؤها : وقد نص فيه على ما يجب اتخاذه من الاحتياطات لضمان سلامة الركاب والبضائع ، وعلى الحقوق التى يتمتع بها الناجون ومن ينجونهم وواجبات ربابنة السفن وملاحيها

وأجورهم ، والشروط التي يصح للسفينة التجارية أو يجب عليها بمقتضاها أن تتحول إلى سفينة حربية . وكانت العقوبات المقررة فى هذه القوانين صارمة ، ولكن يلوح أن هذه الصرامة كانت واجبة لتثبيت التقاليد والعادات الخاصة بالأنظمة البحرية ، وبث الثقة بها والاعتماد عليها فى قلوب الخاضعين لها : ذلك أن العصور الوسطى قد ظلت تؤدب الناس عشرة قرون ليظل أهل هذا الزمن الحديث أحراراً أربعمائة عام .

الفصل الثانى

تقدم الصناعة

تقدمت الصناعة بنفس الخطا التى اتسع بها نطاق التجارة ؛ ذلك أن اتساع الأسواق زاد الإنتاج ، وزيادة الإنتاج أنعشت التجارة .

غير أن وسائل النقل كانت أقل العوامل تقدما ، فقد كانت معظم الطرق الرئيسية فى العصور الوسطى مليئة بالأتربة ، والأقذار ، والأوحال ؛ ولم تكن هناك قنوات أو برابخ تنقل الماء من الطرق ، ولهذا كثرت فيها الحفر والبرك ؛ وكانت المخاضات كثيرة والقناطر قليلة ؛ وكانت الأحمال تنقل على ظهور البغال أو الخيل ولا تنقل فى العربات لأن العربات يصعب عليها تجنب الحفر كما تتجنبها دواب الحمل . وكانت عربات الركوب كبيرة سمجة عجلاتها ذات إطار من حديد غير ذات مرونة(١٥) ؛ ولهذا كانت هذه العربات غير مريحة مهما تكن زينتها ، ومن أجل ذلك فإن الناس رجالا كانوا أو نساء كانوا يفضلون ركوب الخيل منفرجة سيقانهم ذكوراً وإناثاً على الجانبين . وقد ظلت العناية بالطرق حتى القرن الثانى عشر موكولة إلى أصحاب الأملاك المجاورة لها ، ولم يكن هؤلاء الملاك يدركون كيف يطلب إليهم أن ينفقوا المال على إصلاح الطرق التى ينتفع المارون بها أكثر مما ينتفع بها سواهم . وحذا فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر حذو المسلمين والبيزنطيين فأمر بإصلاح طرق صقلية وجنوبى إيطاليا ، وأنشئت فى هذا الوقت عينه أولى « الطرق الكبرى الملكية » بتثبيت مكعبات حجرية فى الثرى المفكك أو الرمال ، وشرعت المدن فى هذا القرن نفسه ترصف شوارعها الرئيسية ، وأنشأت مدائن فلورنس ، وباريس ، ولندن ، والمدن الفلمنكية قناطر غاية فى الجودة ، كذلك نظمت الكنيسة فى القرن الثانى عشر هيئات أخوية دينية لإصلاح

القناطر وتشييدها ، وعرضت على من يشتركون فى هذا العمل الغفران من الذنوب . وكان إخوان الجسور Frères pontifs هم الذين أنشأوا جسر أفنيون الذى لا يزال محتفظا بأربع عقود من صنع أيديهم . وبذلت بعض طوائف الرهبان لا سيما الرهبان البندكتيين جهوداً كبيرة للمحافظة على الطرق والجسور ؛ وظل ملك إنجلترا ورجال الدين فيها ومواطنوها فيما بين عامى ١١٧٦ و ١٢٠٩ يقدمون أموالهم أو جهودهم الجسمية لإنشاء جسر لندن ، وقامت فوق هذا الجسر بيوت وكنيسة صغيرة ، وكان الجسر يقوم فوق عشرين عقداً من الحجر يعبر عليها نهر التامبز ؛ وأقيمت فى بداية القرن الثالث عشر أولى القناطر المعلقة المعروفة فوق خانق فى ممر سان جوثار St. Gothard بجبال الألب .

وكانت المسالك المائية أكثر ما يستخدمه الناس فى النقل ، فأصبحت لذلك ذات شأن عظيم فى نقل البضائع لأن الطرق البرية كانت كثيرة المتاعب ، فقد كانت السفينة الواحدة تحمل ما تحمله خمسمائة دابة ، وكانت إلى هذا أقل نفقة من الدواب ، ومن أجل ذلك كانت أنهار أوربا المنتشرة من نهر التاجه Tagus إلى الفلجا Volga من أهم مسالكها العامة ، وكان اتجاه هذه الأنهار ومصابها العامل الرئيسى فى انتشار السكان ، ونمو المدن ، بل والسياسة العسكرية للأمم فى كثير الأحيان . وكانت القنوات لا حصر لها وإن كانت الأحواض غير معروفة .

وكان السفر بالبر والبحر على السواء شاقا بطيئاً ، فكان انتقال الأسقف من كنتربرى إلى رومة يتطلب تسعة وعشرين يوماً . وكان فى وسع حملة الرسائل إذا استبدلوا الخيل فى مراحل الطريق أن يجتازوا مائة ميل فى اليوم الواحد ؛ ولكن الرسل الخصوصيين كانوا يكلفون كثيراً ، ولهذا كان البريد (الذى أعيد فى إيطاليا فى القرن الثانى عشر) مقصوراً فى العادة على الأعمال الحكومية ، وكانت عربات عامة حافلة تسير بانتظام فى أماكن متفرقة من القارة كالعربات التى كانت تسير بين لندن وونشستر . وكانت الأخبار بطيئة الانتقال شأنها فى هذا

شأن الرجال ؛ مثال ذلك أن نبأ موت بربرسا فى قليقية لم يصل إلى ألمانيا إلا بعد أربعة أشهر(١٦) . ولهذا كان فى وسع الرجل فى العصور الوسطى أن يتناول فطوره من غير أن تزعجه مصائب العالم التى يجد الناس فى جمعها ؛ وكان من حسن حظه أن ما يصله من أخبار هذه المصائب قد بلغ من قدم العهد حداً لا يستطاع معه علاجه .

وخطا الناس بعض خطوات فى تسخير القوى الطبيعية واستخدامها لمنفعتهم . وشاهد ذلك أن « كتاب يوم الحشر » يسجل وجود خمسة آلاف طاحونة مائية فى إنجلترا فى عام ١٠٨٦ ، وثمة رسم باق من عام ١١٦٩ يصوّر عجلة مائية يضاعف دوراتها البطيئة ويزيد سرعتها عدد من التروس المتعاقبة المدرجة فى الصغر(١٧) . وبفضل هذا الازدياد فى السرعة أضحت العجلة المائية أداة رئيسية من أدوات الصناعة ؛ وأخذت تنتشر فى بلاد أوربا المختلفة ، فظهرت فى ألمانيا عام ١٢٤٥ آلة مائية لنشر الخشب تدار بالماء(١٨) ؛ وكانت آلة أخرى فى دويه Douoi (١٣١٣) تستخدم لصنع الآلات الحادة ؛ وانتشرت الطواحين الهوائية ، التى عرفت لأول مرة فى أوربا الغربية عام ١١٠٥ ، انتشاراً سريعاً بعد أن شاهد المسيحيون سعة انتشارها فى بلاد الإسلام(١٩) ، فقد كان فى إبر Ypres وحدها مائة وعشرون من هذه الطواحين فى القرن الثالث عشر .

وكان تحسن أدوات العمل وازدياد حاجات الناس عاملا هاما فى تشجيع أعمال التعدين التى نهضت وقتئذ نهضة فجائية عظيمة . من ذلك أن حاجة التجارة إلى عملة ذهبية موثوق بها ، وقدرة الناس المتزايدة على إشباع شهوتهم فى لبس الحلى قد أديا إلى تجدد العمل فى استخراج التبر بغسل طين الأنهار ، ومن العروق المعدنيـــة فى إيطاليا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، والمجر ، ومن ألمانيا بنوع خاص . وكشف حوالى عام ١١٧٥ عروق غنية للنحاس الأحمر ، والفضة ، والذهب فى إرز جبيرج Erz Gebirge (أى جبال المعدن) ؛ وعلى أثر هذا الكشف هرع الناس

إلى فرايبرج Freiberg ، وجسلار Goslar ، وأنابرج Annaberg كما هرعوا إلى أمريكا بعد كشفها ؛ وأطلق اسم بلدة يواقيمثالر Joachimsthaler الصغيرة على النقود التي تسك فيها ، ثم اختصر هذا اللفظ اختصاراً تحتمه كثرة الاستعمال واشتق منه كلمة ثالر thaler الألمانية وكلمة دولار Dollar الإنجليزية[٢٠] ؛ وأضحت ألمانيا بعدئذ أكبر مورد للمعادن الثمنية إلى أوربا ، وكانت مناجمها هي الأساس الذي قامت عليه قوتها السياسية ، كما كانت تجارتها هي الإطار الذي حدد هذه القوة . فقد كان الحديد يستخرج من جبال هارز Harz ومن وستفاليا Westphalia ، والأراضي الوطيئة ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وأسپانيا ، وصقلية ، وعاد الناس مرة أخرى إلى استخراجه من جزيرة إلبا . وكان الرصاص يستخرج من دربي شير Derbyshire ، والقصدير من ديفون ، وكورنوول ، وبوهيميا ؛ والزئبق والفضة من أسپانيا ، والكبريت والشب من إيطاليا ، واشتق اسم سلزبرج Salzburg من طبقاتها الملحية العظيمة . وعاد الإنجليز في القرن الثاني عشر إلى استخراج الفحم الذي كان يستخدم في بلادهم أيام الرومان ثم أهمل — كما يلوح — في عهد السكسون ، ومما يدل على كثرة استخراجه أن الملكة إليانور غادرت قصر نتنجهام في عام ١٢٣٧ لكثرة الدخان المتصاعد من الفحم الذي يحرق في المدينة القائمة عند أسفله ، وأن لندن حرمت استعمال الفحم لأن الدخان كان يسمم المدينة — ذلك مثل من العصور الوسطى لإحدى المصائب التي يظن الناس أنها من مصائب العصر الحديث[٢١] .

وكان امتلاك الرواسب المعدنية منشأ كثير من الاضطراب في القوانين . فلما أن كانت يد الإقطاع قوية في البلاد كان السيد الإقطاعي يدعي أن المعادن الموجودة في أرضه من حقه وحده ، وكان يستخرج رواسبها بأيدي رقيق أرضه . وكانت الهيئات الكنسية تدعي لنفسها مثل هذه الدعوى ، وتستخدم أرقاء الأرض ، أو العمال المأجورين في استخراج الرواسب القيمة من أراضيها . وأصدر

فردريك بربرسا قراراً ينص على أن الملك وحده صاحب جميع المعادن التى فى بلاده ، وأن هذه المعادن لا يمكن استخراجها إلا على أيدى شركات تعمل تحت إشراف الدولة[٢٢] . فلما عاد هذا الحق الملكى الذى كان متبعاً أيام أباطرة الرومان أصبح هو القانون السائد فى ألمانيا فى العصور الوسطى ؛ وسار على هذه السنة نفسها ملوك إنجلترا فادعى الملك لنفسه ملكية جميع رواسب الفضة والذهب ، أما المعادن الدنيئة فكان فى استطاعة صاحب الأرض أن يستخرجها بشرط أن يدفع عن ذلك إتاوة للملك[٢٣] .

وكان فحم الخشب هو الذى يستعمل فى صهر المعادن ، وكان كثير من الخشب يستخدم فى أفران ظلت حتى ذلك الوقت بحالتها البدائية ؛ ولكن النحاسين كانوا على الرغم من هذا يخرجون أدوات جميلة من الشَّبَه ، كما كان صناع الأدوات الحديدية فى لييج ، ونورمبرج ، وميلان ، وبرشلونة ، وطليطلة يصنعون أسلحة وأدوات حديدية ممتازة . واشتهرت أشبيلية بصلبها الجيد ، وأخذ الحديد الزهر (المصهور فى درجة ١٥٣٥° مئوية) يحل محل الحديد المطاوع الملين فى درجة ٨٠٠ مئوية) . وكانت الأدوات الحديدية كلها تقريباً تصنع قبل هذا التغيير « بالطرق » — Smiting ومن هذا اللفظ اشتق لفظ اسمث smith السكسونى أى الطارق للحداد . وكان صب الأجراس من الصناعات الهامة لأن الكنائس الكبرى وأبراج المدن كانت تتنافس فى أوزان أجراسها ، وارتفاع أصواتها ، وحسن نغماتها . وكان النحاسون يصنعون أغطية النيران Curfews أى (Couvre feus) التى يضعها الناس على نيرانهم إذا دقت أجراس المساء Curfew . واشتهرت بلاد سكسونيا بما فيها من مصاهر البرنز ، كما اشتهرت إنجلترا « بالتنك » Pewter وهو مزيج من النحاس ، والبزموت ، والأنتيمون (الإثمد) والقصدير . وكان الحديد المطاوع يستخدم فى صنع قوائم حديدية رشيقة للنوافذ ، وأخرى من الحديد المشغول لأمكنة المرتلين فى الكنائس ،

والمفصلات الضخمة ذات الأشكال المختلفة التى كانت تنتشر على الأبواب اتقويها وتزينها . وكان الحدادون والصائغون كثيرى العدد ؛ وذلك لأن الذهب والفضة لم يكن يستخدمهما الناس للمباهات بمكانتهم أو لإخفائها فحسب ، بل كانا يستخدمان فوق ذلك لوقاية صاحبهما من العملة المنتقصة ، وإعطائه فى الأزمات نوعا من الثروة يستطيع تحويله إلى طعام أو سلع .

واتسع نطاق صناعة المنسوجات فى القرن الثالث عشر اتساعا عظيما فى فلاندرز وإيطاليا ، وكانت مؤسسات شبه رأسمالية ينتج فيها آلاف من الصناع سلعاً للسوق العامة ويجمعون المكاسب للمستثمرين الذين لا تقع عليهم أعينهم ؛ وكان لنقابة الصوف فى فلورنس مصانع كبيرة يشتغل فيها تحت سقف واحد غسالون ، وقصارون ، وقزازن ، وغزالون ، وناسجون ، ومفتشون وكتبة يعملون بأدوات ، وآلات ، وأنوال لا يمتلكونها وليست لهم أية سيطرة عليها(٢٤) .

وكان المتجرون بالجملة فى الأقمشة ينظمون المصانع ، ويقدمون ما يلزمها من الأدوات ، ويمدونها بالعمال ورؤوس الأموال ، ويحددون الأجور والأثمان ، وينظمون عمليتى التوزيع والبيع ، ويتحملون أخطار المغامرة ، وما ينتج عن الإخفاق من خسـائر ، ويجنون ما يثمره النجاح من مكاسب(٢٥) . وكان غيرهم من أصحاب الأعمال يفضلون أن يحصلوا على المواد الغفل التى يحتاجها الأفراد أو الأسر ، ثم توزعها تلك الأسر أو هؤلاء الأفراد على التجار نظير أجر أو ثمن ، وبهذه الطريقة انضم آلاف من الرجال والنساء فى إيطاليا ، وفلاندرز ، وفرنسا إلى المهن الصناعية(٢٦) ؛ ولهذا أصبحت مدائن أمين ، وبوفيه ، وليل ، ولاوُن ، وسان كنتان ، وپروڤن Provins ، وريمس ، وترواى ، وكمبريه ، وتورنيه ، ولييج ، ولوڤان Louvain مركزا عظيما لأعمال الوساطة السالفة الذكر — وفاقتها فى ذلك غنت ، وبروج ، وإيبر ، ودويه واشتهرت كلها بأذواقها الفنية وثوراتها ، وأعارت لاوُن اسمها إلى شاش البطانات Lawn كما أعارت كمبريه اسمها إلى التيل

الرفيع « الكمبريك » Cambric واشتق الطراز المضلع فى النسيج diaper من اسم مدينة إيبر[٢٧] . وكان فى غنت ٢٣٠٠ نساج يعملون على الأنوال ؛ وكان فى پروفن فى القرن الثالث عشر ثلاثة آلاف ومائتان[٢٨] . وكانت لأكثر من عشر مدائن فى إيطالية صناعاتها الخاصة فى النسيج . وتخصصت نقابة الصوف فى فلورنس فى القرن الثانى عشر فى إنتاج البضائع الصوفية المصبوغة ، كما نظمت نقابة الأقمشة فى بداية القرن الثالث عشر أعمالا واسعة النطاق لاستيراد الصوف وتصدير منسوجاته ، وقبل أن يحل عام ١٣٠٦ كان فى فلورنس ٣٠٠ مصنع للنسيج كما كان فيها قبل عام ١٣٣٦ ثلاثون ألف نساج[٢٩] . وكانت چنوى تنسج المخمل اللطيف والحرير ذا الخيوط الذهبية . وأخذت ڤينا فى أواخر القرن الثالث عشر تستورد النساجين الفلمنكيين ، وسرعان ما نشأت فيها صناعة للنسيج خاصة بها . وكادت إنجلترا تحتكر إنتاج الصوف فى شمالى أوربا ؛ وكانت ترسل معظم منسوجاتها منه إلى فلاندرز . ومن أجل هذا ارتبطت هذه البلاد بعجلتها فى شئون السياسة والحرب واشتقت من اسم وورستد Worstead أسماء لأنواع مختلفة من الأقمشة الصوفية . وكانت أسبانيا تنتج نوعاً جيداً من الصوف ، وكانت أغنام المرينو التى بها مصدراً من مصادر دخلها القومى .

وكان العرب قد أدخلوا إنتاج الحرير ونسجه فى أسپانيا فى القرن الثامن كما أدخلوها فى إيطاليا فى القرن التاسع ، وواصلت مدائن بلنسية ، وقرطاجنة ، وأشبيلية ، ولشبونة ، وپالرمة ، ذلك الفن بعد أن أضحت بلاداً مسيحية ، واستقدم روجر الثانى النساجين اليونان واليهود من كورنثة وطيبة اليونانيتين إلى پالرمه فى عام ١١٤٧ ، وأسكنها أحد قصورها ، وبفضل هؤلاء الرجال وأبنائهم انتشرت تربية دودة القز فى جميع أنحاء إيطاليا ؛ ونظمت لوكا صناعة الحرير على نطاق رأسمالى واسع ، كانت تنافسها فيها مدائن فلورنس ، وميلان ، وچنوى ، ومودينا ،

وبولونيا ، والبندقية ؛ وتخطت هذه الصناعة جبال الألب وأنتجت صناعاً مهرة فى زيورخ ، وباريس ، وكولونى .

وكان فى ميدان صناعات العصور الوسطى مئات من مختلف الحرف الأخرى منها حرفة طلاء الآنية الخزفية بطبقة زجاجية وذلك برش سطوحها وهى مبللة بالرصاص ثم حرقها فى نار غير شديدة ؛ فإذا أرادوا أن يكون لون سطحها الأملس البراق أخضر لا أصفر أضافوا النحاس أو البرنز إلى الرصاص. ولما أضحت المبانى والنيران كثيرة الأكلاف فى مدن القرن الثالث عشر المطردة النماء حلت قطع القرميد محل السقف المصنوعة من القش ، وفرضت مدينة لندن هذا التغيير على سكانها فى عام ١٢١٢ . وما من شك فى أن الحرف المتصلة بالبناء كانت متقدمة لأن طائفة من أمتن المبانى الباقية فى أوربا الآن يرجع تاريخها إلى هذا العهد . وكان الزجاج يصنع للمرايا ، والنوافذ ، والأوانى ، ولكنه كان يصنع فى نطاق ضيق إذا قيس إلى غيره من المصنوعات ، وكانت الكنائس تحتوى على أحسن ما صنع من أنواع الزجاج أما البيوت فلم يكن فيها شىء منه . وكانت صناعة الزجاج بالنفخ معروفة فى أوربا الغربية منذ القرن الحادى عشر إن لم يكن قبله ، ولعل هذا الفن لم يختف قط من إيطاليا منذ أن بلغ ذروة مجده فى أيام الدولة الرومانية . أما الورق فقد ظل حتّى القرن الثانى عشر يستورد من بلاد الشرق الإسلامية أو من أسبانيا ، ولكن مصنعاً للورق افتتح فى رافنزبرج Ravensburg بألمانيا فى عام ١١٩٠ ، وبدأت أوربا فى القرن الثالث عشر تصنع الورق من النيل ، وكانت الجلود من أهم السلع فى التجارة الدولية ، كما كان دبغها منتشراً فى كافة الأنحاء . وكان صناع القفازات والسروج ، وأكياس النقود ، والأحذية والأساكفة من أبرز الناس وأكثرهم تنافساً . وكانت الفراء تستورد إلى داخل أوربا من الشمال والشرق ، وكانت من ملابس الملوك والأشراف والطبقة الوسطى . وكانت الخمر والجعة تستخدمان بدل وسائل التدفئة المركزية ، وكانت

كثير من المدن تجنى أرباحا طائلة من احتكار البلديات لصناعة عصر الخمور ، وكانت ألمانيا فى ذلك العهد قد تزعمت العالم فى الصناعة القديمة .

ويرجع معظم رخاء مدينة همبورج فى القرن الرابع عشر إلى معاصرها الخمسمائة وإلى بيع منتجاتها ، وبقيت الصناعات بوجه عام ، إذا استثنينا منها صناعة النسيج ، فى مرحلة الصناعات اليدوية ، فكان الصناع الذين يعملون للسوق المحلية — كالخبازين ، والأساكفة ، والحدادين ، والنجارين ومن إليهم — هم المالكين لأدواتهم وثمار عملهم ، وظلوا أحرارا من الناحية الفردية . وكانت معظم الصناعات لا تزال تقوم فى بيوت العمال أو الحوانيت الملاصقة لبيوتهم ؛ وكانت كثير من الأسر تؤدى لنفسها كثيراً من الأعمال التى توكل الآن للحوانيت أو المصانع — كانت تصنع خبزها ، وتنسج ثيابها ، وتخصف نعالها ؛ وكانت خطى التقدم فى هذه الصناعة المنزلية بطيئة ؛ وكانت الأدوات ساذجة ، والآلات قليلة ، ولم تكن دوافع المنافسة والكسب مما يحفز الناس على الإنتاج أو على استبدال القوة الآلية بالمهارة البشرية ؛ ومع هذا فلربما كان هذا النظام هو أحسن صورة من التنظيم الصناعى فى التاريخ كله ؛ نعم إن إنتاجه كان بطيئاً ، ولكن أكبر الظن أن ما كان يبعثه فى نفوس الصناع من رضا وقناعة كان عاليا إذا قيس بغيره من العصور . فقد بقى العامل قريباً من أسرته ، وكان هو الذى يحدد ساعات عمله ويحدد بقدر ما ثمن ما يصنع ؛ وكان إعجابه بمهارته يسمو بخلقه ويبعث فيه الثقة بنفسه ؛ وكان فناناً وصانعاً معاً ؛ وكان يغتبط اغتباط الفنان حين يرى الشيء الكامل الذى يصنعه يتشكل شيئاً فشيئاً بين يديه ؛

الفصل الثالث

النقـــود

وأحدث هذا التوسع العظيم فى التجارة والصناعة انقلابا كبيراً فى الأعمال المالية ، فأما التجارة فلم يكن فى مقدورها أن تتقدم ما دامت قائمة على المبادلة ، بل أضحت تتطلب مستوى ثابتاً للقيم ، وواسطة للتبادل سهلة ، ووسيلة ميسرة مفتوحة لاستثمار الأموال .

وكان من حق سادة الإقطاع وكبار رجال الدين فى القارة الأوربية فى عهد الإقطاع أن يسكوا النقود ، ولهذا عانى الاقتصاد الأوربى الأمرين من جراء الفوضى النقدية التى كانت أسوأ من فوضى هذه الأيام ؛ وزادت هذه الفوضى بفعل مزيفى العملة وقارضيها ، وكان الملوك يأمرون بأن تقطع أطراف من يرتكبون هذه الأعمال أو أعضاؤهم التناسلية أو أن تقلى أجسامهم وهم أحياء(٣٠) ، ولكن الملوك أنفسهم كثيراً ما كانوا يخفضون قيمة نقدهم(*) . وقل وجود الذهب بعد غارات القبائل الهمجية ، واختفى اختفاء تاماً من أوربا الغربية بعد أن فتح المسلمون بلاد الشرق ، فكان النقد بأجمعه بين القرنين الثامن والثالث عشر يصنع من الفضة أو المعادن الخسيسة ، ذلك أن الذهب والحضارة يتلازمان كثرة وقلة(**) .

(*) جاء فى السجل الإنجليزى السكسونى عن سنة ١١٢٥ : « وأمر الملك هنرى أن تقطع من كل الذى يضرب العملة (يقصـــد من يزيفها) . . . يده اليمنى وخصيتاه من تحته »(٣١) .

(**) هذا حكم من المؤلف غريب لا نعتقد أنه يصدق فى كل الأزمنة أو فى كل البلاد . (المترجم)

على أن العملة الذهبية ظلت تضرب فى الإمبراطورية البيزنطية طوال العصور الوسطى ؛ ولما أن كثر الاتصال بين الغرب والشرق أخذت النقود البيزنطية الذهبية المعروفة بالبيزانط bezants فى بلاد الغرب ، أخذت هذه النقود يتعامل بها فى كافة أنحاء أوربا ، وكان لها من الاحترام فى العالم المسيحى أكثر ما لسائر النقود . ولما رأى فردريك الثانى ما للعملة الذهبية المستقرة فى بلاد الشرق الأدنى من أثر طيب فى تلك البلاد سك فى إيطاليا أولى العملات الذهبية فى أوربا الغربية . وسمى هذه العملة أوغسطالس Augustales مقلداً بهذا فى صراحة نقــد أغسطس ومكانته : والحق أنها كانت خليقة بهذه التسمية ، لأنها ، وإن كانت تقليداً لعملة الشرق ، كانت ذات طابع فخم . وسمت من فورها إلى أعلى مستوى فى فن المسكوكات فى العصور الوسطى ؛ وأصدرت جنوى وفلورنس فى عام ١٢٥٣ مسكوكات ذهبيــة ؛ وكان الفلورين الفلورنسى ، الذى تعادل قيمته زنة رطل من الفضة أجمل وأبقى هذه المسكوكات ، وكان يقبل فى جميع أنحاء أوربا ؛ ولم يحل عام ١٢٨٤ حتى كان لجميع دول أوربا الكبرى ، ما عدا إنجلترا ، عملة ذهبية يوثق بها — وذلك جهد عظيم مشكور ضحى به فى الفوضى الضاربة أطنابها فى القرن العشرين .

وقبل أن يختتم القرن الثالث عشر كان ملوك فرنسا قد ابتاعوا أو صادروا كل ما لسادة الإقطاع من حقوق تخول لهم سك العملة إلا القليل الذى لا يكاد يستحق الذكر من هذه الحقوق ، وظل نظام النقد الفرنسى حتى عام ١٧٨٩ محتفظا بالمصطلحات التى وضعها له شارلمان ، وإن لم يحافظ على قيمتها ؛ فكان فيه الليرا (Livra) أو الجنيه الفضى ، والصلدى (sou) وهو ١/٢ من الجنيه ، والدينار (denier) وهو ٢/١٢ من الصلدى . وأدخلت غارة الرومان هذا النظام النقدى فى إنجلترا ، وفيها أيضاً كان الجنيه الإنجليزى يقسم عشرين قسما يسمى واحدها

شلنا ، ويقسم كل منها اثنى عشر قسما — هى البنسات . وأخذ الإنجليز ألفاظ pound ، shilling ، penny من الأسماء الألمانية pfund ، schilling ، pfennig ولكنهم أخذوا الرموز الدالة عليها من اللغة اللاتينية L من لبرا Libra ، s من سليدس solidus ، d من ديناريوس denarius ، ولم يكن لإنجلترا عملة ذهبية إلا فى عام ١٣٤٣ ، غير أن عملتها الفضية التى قررها هنرى الثانى (١١٥٤ — ١١٨٩) ظلت أكثر العملات استقراراً فى أوربا . وضرب المارك الفضى فى ألمانيا فى القرن العاشر ، وجعلت قيمته نصف قيمة الجنيه الفرنسى أو البريطانى .

ولكن النقد فى العصور الوسطى ، رغم هذا التطور كله ، قد لاقى الأمرين من جزاء تقلب قيمته ، وعدم ثبات نسبة الفضة إلى الذهب ، وحق الملوك والمدن — والأشراف ورجال الدين فى بعض الأحيان — فى جمع النقود كلها فى أى وقت ، وتقاضى أجر على إعادة سكها ، وإصدار عملة جديدة مخفضة تزداد فيها نسبة المعدن الخسيس . وتأثر النقد الأوربى كله لما أصابه من انحطاط فى فترات غير منتظمة لعدم أمانة دور الضرب ، وازدياد مقدار الذهب أسرع من ازدياد مقدار السلع ، وسهولة أداء الديون الوطنية بالعملة المخفضة . ولنضرب لذلك مثلا الجنيه الفرنسى فلم تكن قيمته فى عام ١٧٨٩ تزيد على ١ر٢ فى المائة مما كانت عليه أيام شارلمان(٣٢) . وفى وسعنا أن نحكم على مقدار انخفاض قيمة النقد من ذكر أثمان بعض السلع التى تعد نموذجا لغيرها : من ذلك أن الاثنتى عشرة بيضة كان ثمنها فى راقنا عام ١٢٨٦ « بنسا » واحدا ؛ وكان ثمن الخنزير فى لندن عام ١٣٢٨ أربعة شلنات ، وثمن الثور خمسة عشر شلناً (٣٣) ؛ وكان رأس الضأن فى فرنسا فى القرن الثالث عشر يشترى بثلاثة فرنكات ، والخنزير

يشترى بستة(٣٤) ؛ فالنقد يزداد تضخما على مر العصور(*) .

بقى أن نعرف مصدر النقود اللازمة لتمويل التجارة والصناعة وتوسيع نطاقها . لقد كان أهم مصدر منفرد لهذا المال هو الكنيسة ، وذلك بفضل ما كان لها فى جمع المال من نظام لا يدانيه نظام سواه ، وكان لديها على الدوام رأس مال سائل تستطيع توجيهه فى جميع الأوقات لأى غرض تشاء . وكانت الكنيسة أعظم قوة مالية فى العالم المسيحى ، ويضاف إلى هذا أن كثيرين من الأفراد كانوا يودعون أموالهم أمانات فى الكنائس والأديرة . وكانت الكنيسة تقرض من أموالها الأفراد والهيئات فى أوقات الشدة ، وكان أكثر من يقترضون المال هم القرويين الذين يرغبون فى إصلاح ضياعهم ، وكانت الكنائس والأديرة بمثابة مصارف عقارية ، وكان لها فضل فى تكوين طبقة الزراع الأحرار(٣٦) ، وكانت منذ عام ١٠٧٠ تقرض المال للملاك المجاورين لها نظير حصة من ريع أملاكهم(٣٧) ، وقد أصبحت الأديرة بهذه القروض المضمونة برهون أولى هيئات الإقراض فى العصور الوسطى . وكان دير سانت أندريه St. André فى فرنسا يقوم بعمل مصرفى بلغ من اتساع نطاقه أن كان يستأجر المرابين اليهود ليؤدوا له عملياته المالية(٣٨) . وكان رهبان المعبد يقرضون المال بفوائد للملوك والأمراء ، والأشراف ، والفرسان ، والكنائس ، والمطارنة ؛ وربما كانت أعمال الرهن التى يقوم بها هؤلاء الفرسان أوسع الأعمال المالية التى من هذا النوع فى القرن الثالث عشر .

غير أن هذه القروض التى تقدمها الهيئات الكنسية كانت فى العادة تستخدم

(*) يقدر كولتن Coulton ، أكبر علماء العصور الوسطى من الإنجليز ، قيمة العملة الإنجليزية فى عام ١٢٠٥ بقدر قيمتها فى عام ١٩٣٠ أربعين مرة(٣٥) ؛ أما هذا المجلد فتقدر فيه قيمة النقود فى العصور الوسطى بقدر قيمة الوحدات المقابلة لها من النقود أو المعادن الثمينة فى عام ١٩٤٩ خمسين مرة ، ولقد صرفنا النظر فى هذا التقدير عما حدث فى النقد من تقلبات فى تلك العصور .

فى الاستهلاك أو فى الأغراض السياسية ، وقلما كانت تستخدم فى تمويل الصناعة أو التجارة . وبدأ الائتمان التجارى حينما كان الفرد أو الأسرة يستودع التاجر مالا أو يعهد إليه به يستخدمه فى رحلة بحرية معينة أو مشروع معين على أن ينال فى نظير هذا جزءاً من المكسب ، وكان هذا العمل يسمى فى العالم المسيحى إيداعا Commenda . وكان هذا النظام — نظام الشريك « الموصى » طريقة رومانية قديمة أكبر الظن أن العالم المسيحى الغربى عاد فتعلمها من الشرق البيزنطى . وكان من شأن هذه الطريقة النافعة — طريقة الاشتراك فى المكسب دون مخالفة أوامر الكنيسة التى تحرم الربا — أن تنتشر انتشاراً واسعاً ؛ وبذلك استحالت « الكمپانية » (Com-panis) أى الاشتراك فى الخبز ، أو الاستثمار فى داخل نطاق الأسرة شركة soietas تضم عدة أشخاص لا يتحتم أن يكونوا كلهم من ذوى القربى ويمولون طائفة أو سلسلة من الأعمال بدل أن يمولوا عملا واحداً ؛ وظهر هذا النوع من المنظمات المالية فى جنوى والبندقية فى أواخر القرن العاشر ، ووصل إلى درجة عليا من الرقى فى القرن الثامن عشر ، وكان من أكبر أسباب نمو التجارة الإيطالية السريع . وكثيراً ما كانت طوائف الاستثمار هذه توزع ما تتعرض له من الأخطار بأن تشترى « أجزاء » أى أسهماً فى عدد من السفن أو المشروعات فى وقت واحد ، ولما أن أصبحت هذه الأسهم (partes) فى القرن الرابع عشر قابلة للانتقال ، نشأت من هذا الشركة المحاصة joint stock company . وكان أعظم مصدر فردى لرأس المال — أى المال الذى تؤخذ منه نفقات مشروع ما قبل أن يدر دخلا — هو المالى المحترف . وقد بدأ هذا المالى عمله فى الزمن القديم بأن كان صرافا يبدل النقود ثم استحال من زمن بعيد إلى مراب يستثمر ماله ومال غيره فى المشروعات التجارية أو فى إقراضها إلى الكنائس ، أو الأديرة ، أو الأشراف أو الملوك . ومما يجدر التنبيه إليه فى هذا المقام أن الدور الذى كان يضطلع به اليهود فى إقراض المال قد بولغ فيه كثيراً . لقد كان اليهودى ذوى حول

وطول فى أسپانيا ، ولكنهم ظلوا زمناً ما ضعفاء فى ألمانيا ، وكان يفوقهم الماليون المسيحيون فى إيطاليا وفرنسا[٣٩] . وكان أكبر مقرض للملوك إنجلترا هو وليم كيد William Cade ؛ كما كان أكبر المقرضين فى فرنسا وفلاندرز فى القرن الثالث عشر أسرتى لوشار Louchard وكرسپان Crespin فى أراس[٤٠] ؛ وقد وصف وليم البريطونى William the Breton أراس فى ذلك الوقت بأنها « مكتظة بالمرابين »[٤١] . وكان من مراكز المال فى شمالى أوربا غير المراكز السالفة الذكر مصفق أو بورصة (من bussa أى كيس) أى سوق المال فى بروج . وكان من طوائف المرابين المسيحيين طائفة أكبر من هؤلاء جميعاً نشأت فى كاهور Cahors إحدى مدن فرنسا الجنوبية يقول ماثيو باريس فى وصفها :

وفى تلك الأيام (١٢٣٥) انتشر وباء الكهوريين Cohorisians البغيض انتشاراً مروعاً لم يكد يبقى معه إنسان فى إنجلترا كلها وبخاصة بين المطارنة إلا وقع فى شباكهم ، ولقد كان الملك نفسه مديناً لهم بمبالغ لا تحصى ، وكانوا يخادعون المعوزين ويحتالون عليهم فى حاجياتهم ، ويغشون ما يقومون به من أعمال الربا بستار الاتجار[٤٢] .

وعهدت البابوية شئونها المالية فى إنجلترا إلى رجال المصارف الكهوريين فترة من الزمان ، ولكن قسوتهم أثارت غضب الإنجليز إلى حد جعلهم يقتلون أحد أفراد تلك الطائفة فى أكسفورد ، ولعنهم روچر أسقف لندن ، ثم نفاهم هنرى الثالث من إنجلترا ، وندد ربرت جروستست Robert Grosseteste أسقف لنكلن وهو على فراش الموت بابتزاز « التجار والصيارفة من رجال مولانا البابا » الذين هم « أغلظ أكباداً من اليهود »[٤٣] .

وكان الإيطاليون هم الذين ارتقوا بالأعمال المصرفية فى القرن الثالث عشر إلى درجة لم يكن لها مثيل من قبل . فقد نشأت أسر مصرفية عظيمة لتمد التجارة

الإيطالية الواسعة النطاق بالمال وهو عصب حياتها : ومن هؤلاء أسرتا بونسنيورى Buonsignori وجلرانى Gallerani فى سينا Siena وأسر فرسكوبلدى Frescobaldi ، وباردى Bardi ، وپروزى Peruzzi فى فلورنس ، وأسرتا پيزانى Pisani ، وتيپولى Tiepoli فى البندقية . . . وقد مدت هذه الأسر أعمالها المالية إلى ما وراء جبال الألب ؛ وكانوا يقرضون ملوك إنجلترا وفرنسا الذين لا تنقطع حاجتهم إلى المال مبالغ طائلة ، كما كانوا يقرضون الأشراف ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، والمدن . وكان البابوات والملوك يستخدمون أولئك المرابين لتحصيل إيرادهم ، والإشراف على دور الضرب والشئون المالية ، والاستعانة بآرائهم فى السياسة . وكانوا يشترون الصوف ، والتوابل ، والحلى ، والحرير جملة ، ويمتلكون السفن والنزل فى أقصى أوربا وأدناها[٤٤] . وقبل أن ينتصف القرن الثالث عشر كان هؤلاء « اللمبارد » ، كما كان أهل الشمال يسمون جميع رجال المصارف الإيطاليين ، أعظم رجال المال فى العالم قوة ونشاطا . وكانوا قوما مكروهين فى داخل بلادهم وخارجها لشدتهم فى تحصيل المال ، يحسدهم الناس من أجل ثرائهم ؛ لأن الناس فى كل جيل يقترضون المال وينددون بمن يقرضونه . وكان قيام هذه الطائفة ضربة قاصمة وجهت إلى رجال المصارف الدوليين اليهود ، ولم يتورع أفرادها عن أن يشيروا بنفى منافسيهم ذوى الصبر والجلد[٤٥] . وكان أقوى « اللمبارد » جميعاً هم شركات المصارف الفلورنسية ، وفى وسعنا أن نعد منها ثمانين شركة بين عامى ١٢٦٠ و ١٣٤٧ . وكانت هذه الشركات تمول الحملات السياسية والحربية التى يقوم بها البابوات وتجنى من وراء عملها هذا أرباحا طائلة ، وكانت من حيث هى المصارف التى تمد البابوات بالمال ستاراً نافعاً لتلك العمليات التى قلما كانت تتفق مع آراء الكنيسة عن الربا . وكانت تجنى من الأرباح ما لا يكاد يقل عن أرباح المصارف فى هذه الأيام ؛ مثال ذلك أن شركة پروزى وزعت على المساهمين فيها أرباحا قدرها أربعون فى المائة فى عام ١٣٠٨[٤٦]

ولكن هذه الشركات الإيطالية كادت تكفر عن نهمها بما كانت تؤديه من الخدمات الحيوية للتجارة والصناعة . ولما أخذ نجمها فى الأفول خلفت وراءها فى جميع اللغات الأوربية تقريباً بعض مصطلحاتها وهى ألفاظ banco ، credito ، netto ، conto corrente ، disconto ، conto ، cassa ، debito ، banca rotta ، bilanza ومعناها على التوالى المصرف ، والدائن ، والمدين ، وصندوق النقد أى الخزانة ، والحساب ، والخصم ، والحساب الجارى ، والرصيد ، والميزان الحسابى ، والإفلاس(٤٨) .

وكانت الشركات المصرفية الكبرى فى البندقية وفلورنس ، وجنوى فى أثناء القرن الثالث عشر أو قبله تقوم بجميع الأعمال التى تقوم بها المصارف فى هذه الأيام كما تدل على ذلك الألفاظ السالفة الذكر . فكانت تقبل الودائع ، وتفتح الحسابات الجارية بين الجماعات التى تقوم بسلسلة من الأعمال المالية لم تصل بعد إلى نهايتها ، وكان مصرف البندقية منذ عام ١١٧١ ينظم تبادل الحسابات بين عملائه بعمليات مقصورة على عمليات إمساك الدفاتر(٤٩) ؛ وكانت تقرض المال ، وتقبل ضمانا له الحلى ، والدروع الغالية الثمن ، والقراطيس المالية الحكومية ، أو حق جباية الضرائب أو تدبير شئون الإيرادات ؛ وكانت تخزن البضائع المعدة للنقل إلى خارج البلاد . وكان فى مقدورها بفضل علاقاتها الدولية أن تصدر خطابات الاعتماد التى يستطاع بها تسليم المال المودع فى بلد ما إلى مودعه أو من ينيبه عنه فى بلد آخر — وهى وسيلة مصرفية كانت معروفة من زمن بعيد عند اليهود والمسلمين وفرسان المعبد(٥٠) . وكانت تقوم أيضاً بعكس هذه العملية فتكتب السفاتج . فكان التاجر إذا أخذ بضاعة أو قرضاً ، يكتب على نفسه صكا بأن يسدد ما عليه إلى الدائن قبل وقت معين فى إحدى الأسواق الموسمية الكبرى أو فى إحدى المصارف الدولية . وكانت هذه الصكوك تسوى بعضها مع بعض فى السوق الموسمية أو المصرف بحيث لا يؤدى نقداً إلا صافى

الحساب بعد التسوية . وبهذه الطريقة أصبحت مئات العمليات المالية والتجارية تسوى من غير أن يكلف المتعاملون أنفسهم مشقة حمل مبالغ طائلة وأثقال كبيرة من النقد أو تبادلها . ولما أصبحت المراكز المصرفية بيوت مقاصة ، وفر رجال المصارف على أنفسهم عناء الذهاب إلى الأسواق الموسميه ، فكان فى وسع التجار المقيمين فى سائر أنحاء أوربا أن يسحبوا الأموال من حساباتهم فى مصارف إيطاليا ثم تسوى حساباتهم بعمليات إمساك الدفاتر بين المصارف المختلفة . وبهذه الطريقة زادت فائدة النقود وزاد تداولها عشرة أضعاف ما كانت عليه قبل . ولم يكن « نظام الائتمان » — الذى قام على أساس الثقة المتبادلة أقل مظاهر الثورة الاقتصادية شأناً أو أقلها دلالة على الشرف والأمانة .

كذلك كانت بداية نظام التأمين فى القرن الثالث عشر ، فكانت نقابات التجار تؤمن أعضاءها من حوادث الحريق ، وغرق السفن ، وغيرهما من الكوارث والأضرار ، بل تعدت هذا النوع إلى تأمينهم من القضايا التى تقام عليهم لجرائم ارتكبوها — سواء كان هؤلاء الأعضاء مذنبين أو بريئين[٥١]. وكانت أديرة كثيرة تعطى المؤمن مرتباً سنوياً طوال حياته . فإذا قدم لها الشخص مبلغاً معيناً من المال تعهدت بأن تمده بالطعام ، والشراب ، وبالثياب ، والمسكن أحياناً ، طوال حياته الباقية[٥٣] . وقام أحد مصارف بروج منذ القرن الثانى عشر بالتأمين على البضائع ، ويبدو أن شركة قانونية للتأمين قد أسست فى هذا البلد عام ١٣١٠[٥٤] . وكان آل باردى فى فلورنس يؤمنون الأقمشة التى تنقل بطريق البر من الأخطار التى تتعرض لها فى الطريق .

وأصدرت مدينة البدقية أولى السندات الحكومية فى عام ١١٥٧ ، وكان سبب إصدارها أن مطالب الحرب اضطرت هذه الجمهورية أن تطلب قروضاً إجبارية من أهلها ، — وأنشئت إدارة خاصة لتسلم هذه القروض —، ثم تعطى من يقدمونها شهادات تكون بمثابة ضمان من الحكومة بسداد هذه القروض

مضافاً إليها فائدة . وأصبحت هذه السندات الحكومية بعد عام ١٢٠٦ قابلة للتحويل والانتقال من يد إلى يد ، وكان من المستطاع بيعها أو شراؤها أو اتخاذها ضماناً للديون . وكانت شهادات مثلها منصوص فيها على مديونية البلدية تقبل في كومو Como عام ١٢٥٠ على أنها مساوية لقدر معين من النقود المعدنية . وإذ لم تكن أوراق النقد إلا وعداً من الحكومة بالدفع ، فإن هذه الشهادات الذهبية القابلة للتحويل تعد بداية أوراق النقد في أوربا(٥٥) .

وتطلبت العمليات المعقدة الخاصة بأصحاب المصارف ، والبابوات ، والملوك ، نظاما دقيقاً لإمساك الدفاتر . ولذلك امتلأت المحفوظات ، ودفاتر الحسابات ، بسجلات الإيجار ، والضرائب ، والأموال الواردة والمنصرفة ، والديون التي لأصحابها أو عليهم . وقد بقيت طرق المحاسبة ، التي كانت متبعة في رومة في عهد الإمبراطورية ، متبعة في القسطنطينية بعد أن ضاعت منذ القرن السابع في أوربا الغربية ؛ ومن هذه المدينة أخذها العرب ، ثم عادت إلى الوجود في إيطاليا أثناء الحروب الصليبية : وإنا لنجد في الحسابات العامة لمدينة جنوى في عام ١٣٤٠ نظاما كاملا لطريقة الدوبيا — القيد المزدوج — وإن ضياع سجلات جنوى الخاصة بالأعوام المحصورة بين ١٢٧٨ و ٣١٤٠ ليترك لدينا مجالا للترجيح على أن هذا التقدم كان أيضاً من الأعمال المجيدة التي ظهرت في القرن الثالث عشر(٥٦) .

الفصل الرابع

الربا .

كانت العقيدة الدينية المسيحية فى الربا أكبر العقبات فى نمو النظام المصرفى وتقدمه . وكان لهذه العقيدة عند المسيحيين ثلاثة مصادر : طعن أرسطو على الربا وقوله إنه عمل غير طبيعى إذ هو توليد المال للمال[٥٧]، وطعن المسيح على الربا[٥٨] ، ومعارضة آباء الكنيسة للأعمال التجارية وللربا فى رومة . أما القانون الرومانى فقد شرع الربا وكان « رجال شرفاء »[*] أمثال بروتس يتقاضون رباً فاحشاً على أموالهم . وكان أمبروز Ambrose قد عارض النظرية القائلة إن من حق الإنسان أن يفعل بماله ما يشاء إذ قال :

أتقول « إنه ملكى » ؟ ألا فقل لى ماذا تملك ؟ أى ثروة جئت بها معك حين خرجت من بطن أمك ؟ إن ما تأخذه فوق كفايتك إنما تأخذه بالعنف . فهل الله ظالم إذ لم يوزع وسائل العيش بيننا بالتساوى فتنال أنت منها حظا موفورا ويبقى غيرك محتاجاً فقيراً ؟ أو هل الأصح من هذا أنه أراد أن يحبوك بدلائل حنوه عليك ، فى الوقت الذى وهب غيرك من الناس فضيلة الصبر؟ وإذن فهل تظن أنت يا من وهبك الله نعمته أنك لا ترتكب الظلم حين تحتفظ لنفسك أنت وحدك بما يمكن أن يكون مصدر الحياة لكثير من الناس ؟ إن الذى تقبض عليه بيدك هو خبز الجياع ، وإن ما تخزنه هو كساء العرايا ، وإن المال الذى تكتنزه هو الذى ينقذ الفقراء من بؤسهم[٥٩] .

(*) يشير المؤلف بهذه العبارة « رجال شرفاء » إلى خطبة ماركس أنطونيوس ووصفه بروتس وكاسيوس وقتلة قيصر بأنهم كلهم « رجال شرفاء » تهكماً منه عليهم واستهزاء بهم . انظر رواية يوليوس قيصر لشيكسبير . (المترجم)

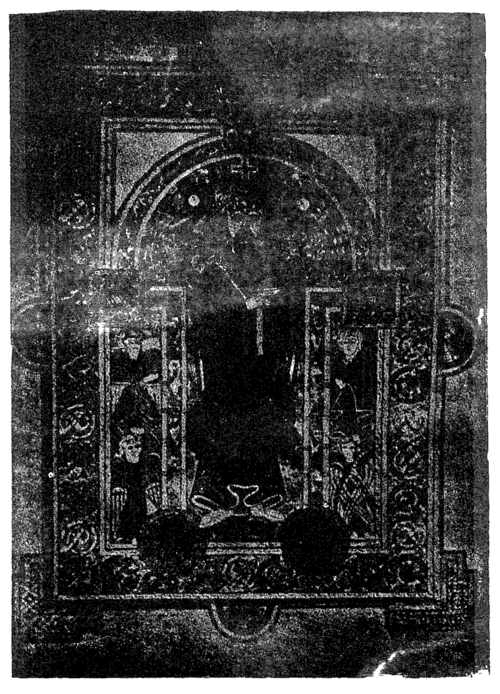
واقترب غير أمبروز من آباء الكنيسة من الشيوعية ؛ فها هو ذا كلمنت الإسكندرى يقول : « إن الانتفاع بكل ما فى العالم يجب أن يكون حقا مشاعا للناس جميعاً . ولكن الناس يظلم بعضهم بعضاً إذ يقول واحد منهم إن هذا الشىء ملكه ، ويقول الآخر إن ذاك له ، وهكذا حدث الانقسام بين الناس »(٦٠) . وكان جيروم يرى أن الكسب كله حرام ، كما كان أوغسطين يرى أن جميع « الأعمال » المالية إثم لأنها تصرف الناس عن السعى للراحة الحقة ، أعنى الله »(٦١) . وكان البابا ليو الأول قد رفض هذه العقائد المتطرفة ، ولكن الكنيسة ظلت لا تعطف على التجارة ، وترتاب فى جميع أنواع المضاربات والمكاسب ، وتعارض جميع صنوف « الاحتكار » و « الخبء » و « الربا » . وكان هذا اللفظ الأخير يطلق فى العصور الوسطى على فائدة المال أياً كان قدرها ، وفى ذلك يقول أمبروز : « الربا هو كل مال يضاف إلى رأس المال »(٦٢) ، وقد أدخل جراتيان Gratian هذا التعريف الجامد فى القانون الكهنوتى الذى تسير عليه الكنيسة .

وكانت مجامع نيقية (٣٢٥) ، وأورليان (٥٣٨) ، وماسون Maçon ، وكليشى (٦٢٦) قد حرمت على رجال الدين أن يقرضوا المال ليكسبوا بإقراضه ، وتوسعت قوانين شارلمان الصادرة فى عام ٧٨٩ ومجالس الكنيسة التى عقدت فى القرن التاسع ، فى هذا التحريم حتى شمل غير رجال الدين ؛ فلما أن عاد القانون الرومانى إلى الوجود فى القرن الثانى عشر شجعت عودته إرنريوس Irnerius و « الشراح » فى بولونيا على الدفاع عن الربا . وكان فى وسعهم أن يؤيدوا حججهم بما جاء فى قانون جستنيان ، ولكن مجلس لاتران الثالث (١١٧٩) جدد هذا التحريم وقرر « أن الذين يجهرون بالربا لا يقبلون فى العشاء الربانى ، وإذا ماتوا وهم على إثمهم لا يدفنون دفن المسيحيين ، وليس لقسيس أن يقبل صدقاتهم »(٦٣) . وما من شك فى أن إنوسنت الثالث كان يرى

رأياً أقل صرامة من هذا ، لأنه أشار فى عام ١٢٠٦ بأن « يعهد ببائنة الزوجة فى بعض الحالات إلى تاجر من التجار » لكى تحصل منها على دخل بطريق الكسب الشريف »(٦٤) . غير أن جريجورى التاسع عاد إلى القول بأن الربا هو كل ما يناله الإنسان من كسب نظير قرض(٦٥) ، وظل هذا الرأى قانون الكنيسة الرومانية حتى عام ١٩١٧ .

وكانت ثروة الكنيسة فى الأرض لا فى التجارة ، فقد كانت تزدرى التجار كما يزدريهم سادة الإقطاع ، أما الأرض والعمل (وتدخل فيه الإدارة) فكان يبدو لها أنهما وحدهما مصدر كل الثروة وكل القيم ، وكانت تنظر بعين السخط إلى سلطان طبقة التجار وثرائها المتزايدين لأن هذه الطبقة لم تكن تميل إلى الملاك الإقطاعين ولا إلى الكنيسة ؛ وقد ظلت قروناً طوالا تظن أن جميع المرابين يهود ، وترى من حقها أن تبدى سخطها على الشروط الصارمة التى يفرضها المرابون على الهيئات والمعاهد الدينية التى تحتاج إلى المال . ويمكن القول بوجه عام إن ما بذلته الكنيسة من جهود للإشراف على طرق الكسب كان عملا مقروناً بالشجاعة يهدف إلى تثبيت قواعد الأخلاق المسيحية ، ويسمو على ما كان يدنس الحياة والشرائع اليونانية والرومانية من سجن المدين أو استرقاقه ، ولسنا واثقين من أن الناس فى هذه الأيام أسعد حالا مما عساهم أن يكونوا لو عملوا برأى الكنيسة فى الربا .

وظل تشريع الحكومات زمناً طويلا يؤيد موقف الكنيسة فى هـــذه الناحية ، وكانت المحاكم المدنية نفسها تحرم الربا(٦٦) ، ولكن تبين أن حاجات التجارة أقوى أثراً من خشية السجن أو الجحيم . ذلك أن اتساع نطاق التجارة والصناعة تطلب استخدام المال المتعطل فى المشروعات النشيطة ، ووجدت الدول فى أثناء الحرب أو الأزمات الطارئة أن الاقتراض أيسر من فرض الضرائب ؛ وكانت النقابات تقرض المال وتقترضه بالربا ، وكان الملاك الذين يرغبون



(صورة ٣) صورة قاديس

فى توسيع أملاكهم ، أو يسافرون للاشتراك فى الحروب الصليبية يرحبون بالمرابى ، بل إن الكنائس نفسها والأديرة كانت تتغلب على أزماتها ، أو نفقاتها المتزايدة ، أو حاجتها للمال بالالتجاء إلى « اللمبارد » أو الكهوريين أو اليهود .

واستطاع الناس أن يجدوا بذكائهم منافذ لهم فى هذا القانون ، من ذلك أن المقترض كان يبيع الأرض رخيصة للمقرض ، ويترك له حق الانتفاع بريعها نظير فائدة ماله ، ثم يعود بعدئذ فيشترى الأرض منه (البيع الوفائى) . أو كان المالك يبيع للدائن جزءاً من ريع أرضه أو دخلها ، أو ريعها أو دخلها كلهما . مثال ذلك أنه إذا باع ا إلى ب ريع جزء من أرضه يغل عشر جنيهات بمبلغ مائة جنيه ، فإن ب فى واقع الأمر يقرض ا مائة جنيه بفائدة قدرها عشرة فى المائة . وكانت أديرة كثيرة تستثمر أموالها بهذه الطريقة — وبخاصة فى ألمانيا حيث اشتق اللفظ المقابل للفائدة Zins من اللفظ اللاتينى الذى كان يطلق فى العصور الوسطى على الريع Census (٦٧) . كذلك كانت المدن تقرض المال بأن تبيع المقرض جزءاً من دخلها(٦٨) ، وكان الأفراد والهيئات ومنها الأديرة تقرض المال نظير عطايا تنالها سراً أو بيوع صورية(٦٩) ، حتى لقد شكا البابا ألكسندر الثالث فى عام ١١٦٣ من أن « كثيرين من رجال الدين (وبخاصة فى الأديرة) » يقرضون المال لمن هم فى حاجة إليه ، ويرتهنون أملاكهم ضماناً له ، ثم يحصلون على ثمار هذه الأملاك المرتهنة مضافة إلى رأس المال المقرض ، وإن كانوا يحجمون عن الربا المألوف لأنه محرم تحريماً صريحاً » (٧٠) . وكان بعض المدينين يتعهدون بدفع « تعويضات » تزيد زيادة مطردة عن كل يوم أو شهر يتأخرون فيه عن أداء الدين ، وكان يوم السداد يحدد عمدا فى أجل قريب حتى تصبح هذه الفائدة الخفية محققة لا مفر من أدائها(٧١) . وكان الكهوريون يقرضون بعض الأديرة المال على هذا الأساس

بشروط ترفع سعر الفائدة إلى ستين فى المائة فى السنة(*) . وكانت بعض الشركات المصرفية تقرض المال جهرة بالربا وتدعى الحصانة من القانون ، لأنه فى رأيها لا ينطبق إلا على الأفراد ، ولم تكن مدن إيطاليا ترى أية غضاضة فى دفع فوائد عن سنداتها الحكومية ، وبلغ انتشار الربا حداً جعل إنوسنت الثالث يجهر فى عام ١٢٠٨ بأنه لو طرد جميع المرابين من الكنيسة كما يتطلب ذلك القانون الكنسى ، لوجب إغلاق الكنائس جميعها(٧٣) .

واضطرت الكنيسة على كره منها أن تكيف نفسها وفق الظروف الواقعية ، فتقدم القديس تومس أكويناس حوالى عام ١٢٥٠ بجرأة عظيمة بمبدإ كهنوتى جديد عن الربا قال فيه إن من يستثمر ماله فى مشروع تجارى يحق له شرعا أن ينال نصيبا من ربحه إذا شارك فعلا فى التعرض للخسارة(٧٤) ، وفسرت الخسارة بأنها تشمل التأخر فى أداء الدين عن تاريخ معين مشروط(٧٥) . وارتضى القديس بونافنتورا St. Bonaventura والبابا إنوسنت الرابع هذا المبدأ وتوسعا فيه حتى قالا بشرعية أداء عوض للدائن نظير ما يصيبه من الخسارة لعدم انتفاعه برأس ماله(٧٦) . وأقر بعض المشرعين من رجال الدين حق الدول فى إصدار سندات ذات فائدة ؛ وأقر البابا مارتن Martin الخامس فى عام ١٤٢٥ شرعية بيع الريع ، ثم ألغت معظم الدول الأوربية بعد عام ١٤٠٠ ما وضعته من القوانين لتحريم الربا ، ولم يكن تحريم الكنيسة إلا كلاما مهملا يتفق الناس جميعاً على

(*) لقد كانت هذه الحال وما هو أسوأ منها سائدة فى مصر إلى عهد قريب فقد ، كانت بعض المصارف تقرض المال بفائدة مركبة تؤدى إلى زيادة رأس المال إلى ضعفيه فى عشر سنين وإلى ثلاثة أضعاف فى عشرين . وكان بعض المرابين يقرض الجنيه الإنجليزى (٩٧,٥) بسبعة وعشرين قرشاً ونصف قرش فى ثلاثة أشهر ، ويحتالون على هذا العمل الإجرامى بإضافة الفائدة إلى رأس المال والادعاء بأن مجموعهما هو المال المقترض . ومن طرق الخداع الأخرى البيع الوفائى والرهون العقارية وغيرهما مما أدى إلى ضياع كثير من الأملاك وانتقالها إلى المرابين . (المترجم)

إغفاله . وحاولت الكنيسة أن تجد حلا للمسألة بتشجيعها القديس برنردينو الفلترى St. Bernardino of Feltre وغيره من رجال الدين على أن ينشئوا ابتداء من عام ١٢٥١ ما يسمى « تلال الحب » — montes pietattis — حيث كان فى وسع المحتاجين الموثوق بأمانتهم أن يحصلوا على قروض من غير فائدة إذا أودعوا شيئاً ضماناً لهذا القرض . ولكن هذه « التلال » التى كانت مقدمة لمحال الرهون الحاضرة لم تعالج إلا جانباً صغيراً من المشكلة ، وبقيت حاجات التجارة والصناعة كما كانت من قبل ، ووجدت رؤوس الأموال للوفاء بهذه الحاجات .

وكان المرابون المحترفون يتقاضون فوائد باهظة ، ولم يكن هذا لأنهم شياطين لا ضمير لهم ، بل كان سببه أنهم يتعرضون لخسارة مالهم وفقد حياتهم ؛ ذلك أنهم لم يكن فى مقدورهم على الدوام أن يلزموا مدينيهم بأن يوفوا بالتزاماتهم بالتجائهم إلى القانون ، وكانت مكاسبهم عرضة لأن يستولى عليها الملوك أو الأباطرة ، وكانوا معرضين فى أى وقت من الأوقات لخطر النفى من البلاد ، وكانوا فى كل حين مكروهين ملعونين . وما أكثر القروض التى لم ترد لأصحابها ؛ وما أكثر المدينين الذين ماتوا مفلسين ، أو انضموا إلى جيوش الصليبيين ، وأعفوا من أداء الفوائد ، ثم لم يعودوا منها أبداً . وإذا عجز المدينون عن الوفاء ، لم يكن فى وسع الدائنين إلا أن يرفعوا سعر الفائدة على الديون الأخرى ؛ إذ ينبغى أن تتحمل الديون الرابحة خسائر الديون الخاسرة كما تتحمل أثمان السلع التى تشترىها نفقات السلع التى تتلف قبل بيعها . وكان السعر فى فرنسا وإنجلترا فى القرن الثانى عشر يتراوح بين ٣٣ ⅓ ٪ و ٤٣ ⅓ ٪ (٧٧) ، وكان يبلغ فى بعض الأحيان ٨٦ ٪ ؛ وقد انخفض فى إيطاليا فى عهد الرخاء إلى ١٢٫٥ ٪ وإلى ٢٠ ٪ (٧٨) . وحاول فردريك الثانى حوالى عام ١٢٤٠ أن يخفض هذا السعر

إلى ١٠ ٪ ، ولكنه سرعان ما أدى سعراً أعلى من هذا لدائنيه المسيحيين ؛ وكانت حكومة نابلى تجيز أن يكون أعلى سعر قانونى للفائدة ٤٠ ٪[٧٩] ؛ وكان السعر ينخفض كلما زاد ضمان القروض ، وزادت المنافسة بين المقرضين ؛ وبعد أن تخبط الناس فى ألف من التجارب والأخطاء عرفوا كيف يستخدمون الأدوات المالية الجديدة ، أدوات الاقتصاد التقدمى ، وبدأ بذلك عصر المال فى أثناء عصر الإيمان .

الفصل الخامس

النقابات الطائفية

كان فى رومة عدد لا حصر له من الجماعات تطلق عليها أسماء مختلفة : طوائف ، وهيئات ، واتحادات ، ونقابات . كانت فيها جماعات للصناع ، والتجار والمقاولين ، والأندية السياسية ، والإخوة السرية ، والإخوة الدينية . ترى هل بقيت جماعة من هذه الجماعات فنشأت عنها النقابات الطائفية التى كانت قائمة فى العصور الوسطى ؟

لدينا رسالتان من رسائل جريجورى الأول (٥٩٠ — ٦٠٤) تشيران إلى وجود هيئة من صانعي الصابون فى نابولى ، وأخرى من الخبازين فى أترانتو ؛ ونقرأ فى كتاب قوانين الملك بوثارس Botharis اللمباردى (٦٣٦ — ٦٥٢) عن « الرؤساء الكوموسيين » ، ويلوح أن هؤلاء كانوا كبار البنائين من كومو Como ويسمى بعضهم بعضاً الزملاء Collegantes — أى الذين يزامل بعضهم بعضا فى جماعة واحدة[٨٠] . وقد ورد ذكر جماعات لعمال النقل كانت قائمة فى رومة فى القرن السابع وفى ورمز فى القرن العاشر[٨١] . وظلت النقابات القديمة قائمة فى الإمبراطورية البيزنطية . ونجد فى سجلات رافنا إشارات إلى كثير من الجماعات الاقتصادية — إلى جماعة الخبازين فى القرن السادس ، وإلى هيئات الموثقين والتجار فى القرن التاسع ، والسماكين فى القرن العاشر ، وإلى موردى الأطعمة فى القرن الحادى عشر . ونسمع عن جماعات الصناع فى البندقية فى القرن التاسع ، وبجماعة للبستانيين برومة فى القرن الحادى عشر[٨٢] . وما من شك فى أن الكثرة الغالبة من النقابات والاتحادات فى الغرب قد قضت عليها غارات القبائل المتبربرة ، وما أعقبها من فاقة ، ومن عودة العمال إلى الأعمال الزراعية

ولكن يبدو أن بعضها قد بقى فى لمباردى ؛ ولما أن عادت التجارة والصناعة إلى الانتعاش فى القرن الحادى عشر ، كانت الظروف التى أوجدت الجماعات القديمة هى التى بعثت النقابات الطائفية بعثاً جديداً .

ومن أجل هذا كانت النقابات الطائفية أقوى ما تكون فى إيطاليا ، حيث بقيت الهيئات والأنظمة الرومانية القديمة حافظة لكيانها على خير وجه . ففى فلورنس مثلا نجد فى القرن الثانى عشر اتحادات للحرف — كالموثقين ، وصناع الملابس ، وتجار الصدف ، وأصحاب المصارف ، والأطباء ، والصيادلة ، والبزازين ، وتجار الفراء ، والدابغين ، وصانعى الأسلحة ، وأصحاب النزل ...(٨٣) ويلوح أن هذه النقابات الطائفية قد أنشئت على غرار نظائرها فى القسطنطينية(٨٤) . ويبدو أن تدمير الاتحادات الطائفية القديمة كان فى شمال جبال الألب أتم منه فى إيطاليا ، ولكننا مع ذلك نجد لها ذكراً فى شرائع دجوبرت Dagobert الأول (٦٣٠) ، وشرائع شارلمان (٧٧٩ — ٧٨٩) ، وأوامر هنكمار كبير أساقفة ريمس (٨٥٢) . وعادت النقابات الطائفية إلى الظهور فى فرنسا وفلاندرز فى القرن الحادى عشر ، وسرعان ما تضاعف عددها وأطلق عليها اسم « المتصدقين » أو « الإخوة » أو « الشركات » . وتفرعت النقابات الطائفية (الهانز) فى ألمانيا من الجماعات القديمة markgenossenschaften — وهى هيئات محلية لتبادل المعونة ، وأداء الشعائر الدينية ، والاحتفال بالأعياد . واستحال كثير من هذه الجماعات قبل أن يحل القرن الثانى عشر إلى اتحادات للصناعات والحرف ، وقبل أن يحل القرن الثالث عشر بلغت هذه الاتحادات من القوة درجة أمكنها بها أن تنازع المجالس البلدية سلطتها السياسية والاقتصادية(٨٥) ، ولم تكن العصبة الهانسية إلا واحدة من هذه الاتحادات . وورد ذكر النقابات الطائفية الإنجليزية لأول مرة فى قوانين الملك أين Ine (٦٨٨ — ٧٢٦) ، فقد ذكر فيها لفظ « ججلدان » Gegildan — وهى جماعات كان يُساعد بعضها بعضاً

فيما يفرض عليهم من مال « الفداء » . وكانت كلمة جلد gild الإنجليسكسونية (التى اشتقت منها كلمة guild أى النقابة الطائفية فى العصور الوسطى وهى قريبة فى أصلها من كلمة geld الألمانية وكلمتى gold و yield الإنجليزيتين) تعنى فى أول الأمر الاشتراك فى مال عام ، ثم أصبحت تعنى فيما بعد الاشتراك فى الجماعة التى تشرف على هذا المال . ووردت أقدم إشارة إلى النقابات الطائفية الإنجليزية فى عام ١٠٩٣ ، ولم يحل القرن الثالث عشر حتى كان لكل مدينة مهمة فى إنجلترا تقريباً نقابة طائفية أو أكثر من نقابة ، وحتى كان نوع من « الاشتراكية النقابية » البلدية يسيطر على أحوال الناس فى إنجلترا وألمانيا .

وكانت نقابات القرن الحادى عشر الطائفية جميعها تقريباً نقابات للتجار ، ولم تكن تضم إلا التجار المستقلين ورؤساء العمال ، وكانت تحرم من الانضمام إليها جميع من يعتمدون على غيرهم ، وكانت هيئات تعمل صراحة لفرض قيود على التجارة ، فكانت عادة تحمل المدن التى توجد فيها على أن تمنع بالضرائب الجمركية الحامية المرتفعة أو بغيرها من الوسائل دخول السلع التى تنافس ما تصنعه هى ؛ وإذا ما سمح لهذه البضائع الأجنبية بدخول المدينة بيعت بأثمان تحددها النقابة التى يؤثر دخولها فى بضائعها هى . وكثيراً ما كانت إحدى نقابات التجار الطائفية تحصل من المقاطعة أو الملك على ترخيص باحتكار سلعة أو سلع فى الإقليم الذى تعمل فيه أو الدولة كلها . مثال ذلك أن الشركة الباريسية للنقل التجارى المائى كادت تملك نهر السين كله . وكانت النقابة الطائفية ترغم الصناع عادة بأوامر تصدرها المدينة أو بالضغط الاقتصادى على ألا تعمل إلا معها أو برضاها وألا تبيع ما تنتجه إلا للنقابة أو عن طريقها .

وأصبحت أكبر هذه النقابات على مر الزمن هيئات متحدة قوية ، تتجر فى أنواع مختلفة من البضائع ، وتشترى المواد الغفل جملة ، وتؤمن التجارة من الخسائر ، وتنظم توريد الطعام لمدنها ونقل فضلاتها ، وترصف الشوارع ، وتنشئ

الطرق والأحواض وتعمق المرافئ ، وتؤمن الطرق الرئيسية بتعيين الشرطة فيها ، وتشرف على الأسواق ، وتنظم الأجور ، وساعات العمل وظروفه ، وشروط التمرن على الصناعات ، وطرق الإنتاج والبيع ، وأثمان المواد الخام والمصنوعات[٨٧] . وكانت تحدد للسلع أربع مرات أو خمس فى كل عام ثمناً عادلا ، تراه حافزاً قوياً للانتاج ومجزياً لجميع المهتمين بها . وكانت تزن وتختبر وتعد جميع ما يشترى ويباع من الحاصلات المتصلة بحرفتها وفى الدائرة التى تعمل فيها ، وتبذل كل ما فى وسعها لتمنع البضائع المغشوشة أو المنحطة من دخول السوق[٨٨] . وكانت النقابات تتخذ لمقاومة اللصوص ، وسادة الإقطاع ، والمكوس ، والعمال المشاكسين ، والحكومات التى تفرض الضرائب الفادحة ؛ وكان لها شأن كبير فى السياسة ، وكانت تسيطر على كثير من المجالس البلدية ، وكثيراً ما أمدت الأقاليم بتأييد قوى فى كفاحها ضد الأشراف والأساقفة والملوك ، ثم تطورت هى آخر الأمر فأصبحت هيئة ألجركية من التجار والماليين .

وكان لكل نقابة طائفية فى العادة غرفتها الخاصة ، وكان بعض هذه الغرف فى العصور الوسطى صروحا مزخرفة أحسن زخرف . وكان لها طائفة من الموظفين الكبار ، ومسجلين ، وخزنة للأموال ، ومأمورين ، وشرطة . . . وكانت لها محاكمها الخاصة يحاكم فيها أعضاؤها ، وكانت تحتم على أعضائها أن يعرضوا منازعاتهم على محكمة النقابة الطائفية قبل أن يلجأوا إلى قانون الدولة . وكانت تفرض على أعضائها أن يمدوا بالمعونة زملاءهم النقابيين فى حالات المرض والكوارث ، وأن تنقذهم أو تفتديهم إذا هوجموا أو سجنوا[٨٩] وكانت تشرف على أخلاق أعضائها وآدابهم ، وثيابهم ، وتفرض عقوبة على كل من يحضر اجتماعاتها بغير جورب . وحدث أن اشتبك عضوان من نقابة التجار فى ليستر Leicester فى تلاكم فى سوق بسطن Boston فما كان من زملائهما إلا أن فرضوا عليهما غرامة قدرها برميل من الجعة ، يشربه أعضاء النقابة[٩٠] . وكان لكل نقابة

طائفية عيد سنوى تمجد فبه شفيعها القديس ، يبدأ بصلاة قصيرة يقضون بعدها اليوم كله يدمنون الشراب . وكانت النقابة تشترك فى تمويل كنائس المدينة صغيرها وكبيرها وتزيينها ، وفى إعداد التمثيليات الدينية التى نشأت منهـا المسرحيات الحديثة وفى تمثيلها . وكان كبار رجالها يمشون فى الاستعراضات البلدية بأثوابهم الزاهية ، رافعين أعلام حرفهم فى مواكب فخمة . وكانت تؤمن أعضاءها من الحريق ، والفيضان ، والسرقة ، والسجن ، والعجز ، والشيخوخة[٩١] . وكانت تنشئ المستشفيات ، وبيوت الصدقات ، وملاجئ الأيتام والمدارس ، وتتحمل نفقات جنازات الموتى والصلوات التى تنجى أرواحهم من العذاب فى المطهر ، وقلما كان الأغنياء من أعضائها ينسونها فى وصاياهم .

وكان أرباب الحرف فى كل صناعة ممنوعين عادة من الانضمام إلى نقابات التجار الطائفية ، وإن كانوا خاضعين لنظمها الاقتصادية وسلطانها السياسى ، ولهذا أخذوا فى القرن الثانى عشر يؤلفون فى كل بلدة نقابات طائفية خاصة بهم ، فنجد فى ١٠٩٩ نقابات لطوائف النساجين فى لندن ولنكلن ، وأكسفورد ، وحذا حذوهم بعد قليل من ذلك الوقت القصارون ودابغو الجلود ، والقصابون ، والصياغ . . . وانتشرت هذه النقابات الطائفية فى القرن الثالث عشر فى جميع أنحاء أوربا وسميت فيها بأسماء مختلفة كأرباب الحرف ، والجهات ، فكان فى مدينة البندقية منها ثمان وخمسون ، وفى جنوى ثلاث وثلاثون ، وفى فلورنس إحدى وعشرون ، وفى كولونى ست وعشرون ، وفى باريس مائة . وفى عام ١٢٤٥ أصدر إتين بوالو Etienne Boileau « شهبندر التجار » فى أيام لويس التاسع « كتاباً للحرف » رسمياً أثبت فيه القواعد والنظم الخاصة بمائة نقابة طائفية ونقابة قائمة فى باريس . ومما يثير الدهشة ما يحتويه هذا التثبت من تقسيم للعمل : فكانت فى صناعة الجلد مثلا اتحادات خاصة بعمال السلخ ، والدباغة ، والأساكفة ، وصناع عدد الخيل ، وصناع السروج ، وصناع الأدوات

الجلدية الدقيقة . وكان فى النجارة اتحادات خاصة بكل من عمال الصناديق ، والأثاث ، وبناء السفن ، وصناع العجلات ، والبراميل ، وفاتلى الحبال . كانت كل نقابة طائفية تحرص على أسرار حرفتها ، وتحيط ميدان عملها بسياج يصد عنه من لا ينتمى إليه ، وتشغل نفسها بكثير من المنازعات القضائية الخاصة بهذه الحرفة(٩٢) .

وكانت نقابة الحرف الطائفية تتخذ لها شكلا دينيا ، وقديساً شفيعاً ، وتنزع إلى الاحتكار ؛ وكانت فى هذا كله تساير روح العصر الذى تعيش فيه . ولم يكن فى وسع أحد عادة أن يشتغل بحرفة إلا إذا كان عضواً فى النقابة الخاصة بها(٩٣) وكان جميع المنتمين إلى الحرفة هم الذين يختارون زعماءها مرة فى كل عام ، ولكنهم كانوا كثيراً ما يختارون لأقدميتهم فى النقابة أو لثروتهم . وكانت أنظمة النقابة — بالقدر الذى تسمح به نقابات التجار ، وأوامر البلديات ، والقوانين الاقتصادية — تعين الأحوال التى يعمل فيها أعضاؤها ، والأجور التى يتقاضونها ، والأثمان التى يحددونها . وكانت قواعد النقابات تحدد عدد الرؤساء فى كل منطقة ، وعدد الصبيان الذين يدربون عند كل رئيس ، وتحرم استخدام نساء فى الصناعات عدا زوجة الرئيس ؛ كما كانت تحرم استخدام الرجال بعد الساعة السادسة مساء ، وتعاقب الأعضاء لما يطلبونه من أثمان عالية ، وما عساهم يقدمون عليه من معاملات غير شريفة أو يصنعونه من سلع يستخدمون فيها مواد بالية . وكانت النقابة فى كثير من الأحيان تدمغ منتجاتها بطابعها أو علامتها التجارية ليكون هذا شهادة منها بجودة نوعها ، وكان هذا العمل موضع فخر لها(٩٤) ؛ وقد أخرجت نقابة النسيج فى بروج من المدينة عضواً من أعضاء النقابة زور طابع مدينة بروج على بضاعة رديئة(٩٥) . وكانت النقابة تعارض فى قيام المناقشة بين الرؤساء فى زيادة مقدار الإنتاج أو خفض ثمنه ، خشية أن يتمكن أعظم الرؤساء مهارة أو أكثرهم جداً من أن يزيدوا ثروتهم على حساب غيرهم من الرؤساء ،

ولكنها كانت تشجع المنافسة التى تقوم بين الرؤساء أو بين المدن لتحسين نوع المنتجات . وكانت نقابات الحرف تقوم بما تقوم به نقابات التجار من بناء المستشفيات والمدارس ، وتقوم بالتأمين المختلف الأنواع ، وتقدم المعونة إلى الفقراء من أعضائها ، والبائنات إلى بناتهم ، وتدفن موتاهم ، وتعنى بأراملهم ، وتتبرع بالعمال والمال لبناء الكنائس الصغيرة والكبيرة ، وتصور العمليات التى تؤديها ، وتنقش شاراتها على زجاج الكنائس .

ولم تمنع النزعة الأخوية بين رؤساء نقابات الحرف أن يكون فيها درجات متفاوتة فى العضوية والسلطان ، فكان فى الدرجة السفلى منها صبى التمرين الذى يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة من العمر ، يرسله والداه ليعيش مع صانع متمرن مدة من الزمن تتراوح بين ثلاث سنين واثنتى عشرة سنة ، ويقوم بخدمته فى حانوته ومنزله . وكان يمنح فى نظير هذه الخدمة الطعام ، والكساء ، والمأوى ، وتعلم الحرفة ، ويعطى فى السنين الأخيرة من الخدمة أجراً وأدوات ؛ فإذا ما قضى مدة التمرين أعطى منحة من المال يبدأ بها عمله مستقلا ، فإذا هرب من معلمه أعيد إليه وعوقب على هربه ، فإذا داوم على الهرب حرم عليه الاشتغال بالحرفة . وإذا أتم خدمته عين عاملا بالمياومة ، يتنقل من رئيس إلى رئيس ويعمل بأجر يومى . فإذا مر عليه وهو بهذه الحال عامان أو ثلاثة أعوام ، وكان لديه من المال ما يستطيع به فتح حانوت مستقل امتحن لمعرفة كفايته الفنية أمام لجنة من أعضاء نقابته الطائفية ، فإذا اجتاز الامتحان أصبح رئيساً . وكان يطلب إلى الرئيس أحياناً — ولم يكن هذا إلا فى أواخر العصور الوسطى — أن يعرض على رؤساء النقابة عينة من صنعه يرضون عنها .

وكان الصانع الذى تخرج على هذا النحو — أو الرئيس كما كانوا يسمونه — يمتلك أدواته ، وكان فى العادة ينتج سلع الاستهلاك التى يطلبها المستهلك مباشرة ، وكان هذا المستهلك فى بعض الأحيان يقدم له المادة الغفل ، وكان يحق له أن يأتى

أى وقت ليراقب سير العمل . ولم يكن الوسيط فى هذا النظام هو الذى يسيطر على المسالك القائمة بين صانع السلعة والمنتفع بها . وكانت السوق التى ينتج لها الصانع هى التى تحدد ما ينتجه ، وكانت هذه السوق عادة هى البلدة التى يقيم فيها ، ولكنه لم يكن خاضعاً لتقلبات سوق عامة أو لأهواء المستثمرين أو المشترين البعيدين عنه ؛ ولم يكن يعرف ما يطرأ على السوق من تقلبات اقتصادية جنونية بين رخاء تارة وكساد تارة أخرى . وكانت ساعات عمله كثيرة تختلف من ثمان ساعات إلى ثلاث عشرة ساعة — ولكنه كان يختارها بنفسه ، ويعمل على مهل ، ويستمتع بكثير من الأعياد الدينية ، وكان يأكل الطعام المغذى المفيد ، ويبتاع الأثاث المتين ويلبس الثياب البسيطة الطويلة الأجل ، وكانت له حياة ثقافية لا تقل عن حياة الصانع فى هذه الأيام إن لم تكن خيراً منها . نعم إنه لم يقرأ كثيراً ، وكان لهذا ينجو من كثير من السخف الباطل المضل ، ولكنه كان يشترك اشتراكاً فعلياً فى المغانى ، والمراقص ، والتمثيليات ، والشعائر الدينيه التى تقام فى بيئته .

وظلت النقابات الطائفية طوال القرن الثالث عشر يزداد عددها ، ويعظم سلطانها ، وكانت قيداً دمقراطياً يحد من سلطان نقابات التجار الأبحركية . غير أن نقابات الصناع الطائفية أصبحت على مر الزمن أرستقراطية عمال ، تنزع إلى قصر رؤساء الصناع على أبناء الصناع أنفسهم ، وخفض أجور عمال المياومة الذين ثاروا عليها فى القرن الرابع عشر ثورات كثيرة أضعفت سلطانها ، وتضع العقبات المطردة الزيادة فى سبيل من يريدون الانضمام إليها ، أو الدخول فى البلدان التى تقوم فيها(٩٦) . على أنها كانت منظمات ممتازة لعصر صناعى ، كثيراً ما ضيقت صعاب النقل فيه الأسواق التى تصرف فيها السلع وجعلتها مقصورة على المشترين المحليين ، ولم تكن رؤوس الأموال المتجمعة من الكثرة والسيولة بحيث تكون

لتمويل الأعمال التجارية والصناعية الواسعة النطاق . فلما ظهرت الأموال المتجمعة فقدت النقابات ، سواء كانت نقابات تجار أو أرباب حرف ، ما كان لها من إشراف على السوق ، ومن ثم فقدت ما كان لها من إشراف على ظروف العمل . وقضت الثورة الصناعية على هذه النقابات فى إنجلترا بسبب ما حل بها من نكبات ناشئة من تغير الأحوال الاقتصادية ؛ ثم ألغتها الثورة الفرنسية إلغاء فجائياً تاماً ، لأنها كانت فى نظر القائمين بهذه الثورة لا تتفق مع حرية العمل وكرامته ، وهما الحرية والكرامة اللتان كفلتهما قبل فى ساعة من ألمع الساعات .

الفصل السادس

الحكومات المحلية (القومونات)(*)

أحدثت الثورة الاقتصادية التى تمخض عنها القرنان الثانى عشر والثالث عشر ثورة أخرى فى المجتمع ونظم الحكم ، شأنها فى هذا شأن الثورتين اللتين تمخض عنهما القرنان الثامن عشر والعشرون . ذلك أن طبقات جديدة نشأت فى عالم السلطتين الاقتصادية والسياسية ، وحققت للمدينة فى العصور الوسطى ذلك الاستقلال القوى الذى نشأ عنه كثير من النزاع والخصام ، والذى بلغ غايته فى عصر النهضة .

هذا وإن الجدل الثائر حول الوراثة والبيئة يمتد أثره إلى نشأة مدن أوربا كما يمتد إلى نشأة نقاباتها ؛ ترى هل نشأت هذه المدن من البلديات الرومانية ، أو أنها أثر من آثار التطور الاقتصادى الذى ظل يجرى فى مجراه زمناً طويلا ؟ الحق أن كثيراً من المدن الرومانية قد حافظت على وجودها المستمر خلال قرون الفوضى والفقر والانحلال ؛ ولكن عدداً قليلا منها فى إيطاليا وفرنسا الجنوبية الشرقية هى التى احتفظت بالنظم الرومانية القديمة ، ولم يحتفظ بالقانون الرومانى القديم إلا أقل من هذا العدد القليل . وأما فى شمال الألب فإن قوانين القبائل الهمجية طغت على التراث الرومانى ، وتسربت بعض العادات السياسية السائدة فى القبيلة والقرية الألمانية إلى البلديات القديمة . وكانت الكثرة الغالبة من المدن القائمة فى شمال جبال الألب تابعة للأملاك الإقطاعية يحكمها موظفون معينون من قبل سادة الإقطاع وتتحكم إرادتهم فى شئونها ، ذلك أن النظم البلدية كانت غريبة غير مألوفة عند الفاتحين التيوتون ، أما النظم الإقطاعية فكانت هى الطبيعية

(*) هكذا كان العرب يسمون هذه الحكومات والمدن المستقلة فى إيطاليا فى رسائلهم كما ترى ذلك فى صبح الأعشى . (المترجم)

المألوفة عندهم ، ولهذا نشأت مدنية العصور الوسطى خارج إيطاليا من تطور المراكز والطبقات والسلطات التجارية .

وقامت المدينة الإقطاعية عادة على ربوات عالية ، عند ملتقى الطرق ، أو على ضفاف المجارى المائية الحيوية ، أو عند الحدود . وكانت الصناعات والحرف المتواضعة التى يشتغل بها سكان المدن قد نشأت ببطء حول أسوار القصر الإقطاعى أو الدير المحصن ؛ ولما خفت وطأة غارات الشماليين والمجر اتسع نطاق هذا النشاط القائم خارج الأسوار ، وتكاثر عدد الحوانيت ، واستقر التجار والصناع الذين كانوا من قبل أشخاصاً عابرين وأصبحوا من أهل المدن المقيمين الدائمين . غير أن الخوف وعدم الأمان عادا فى أيام الحرب إلى ما كانا عليه من قبل ، فأنشأ الأهلون المقيمون خارج السور سوراً ثانيا أطول محيطا من الخندق الإقطاعى ليحتموا فى داخله هم وحوانيتهم وبضائعهم . وظل السيد الإقطاعى أو الأسقف يملك ويحكم هذه المدينة التى اتسعت رقعتها بوصفها جزءاً من أملاكه ، ولكن سكانها المتزايدين كان يزداد بينهم العنصر التجارى والدنيوى ، فأخذوا يتبرمون من الفروض والسيطرة الإقطاعية ، ويعملون سراً وعلناً ليستخلصوا للمدينة حريتها .

ونشأت من التقاليد السياسية القديمة والحاجات الإدارية الجديدة جمعية من المواطنين وطائفة من الموظفين ؛ وشرعت هذه الحكومة المحلية — الهيئة السياسية — تأخذ على عاتقها شيئاً فشيئاً تنظيم شئون المدينة — البقعة الجغرافية . واستخدم أفراد هذه الهيئة الذكاء الذى هو من طبيعتهم ليثيروا سيداً على سيد — الشريف على الأسقف ، والفارس على الشريف ، والملك على كل واحد من هؤلاء الثلاثة أو عليهم جميعاً . وسلك أهل المدن سبلا كثيرة مختلفة ليحصلوا بها على حريتهم : منها أن يقسموا أغلظ الأيمان أن يمتنعوا عن أداء المكوس والضرائب التى يفرضها عليهم الشريف أو الأسقف ، ويقاوموا من يريد جبايتها منهم ؛ ومنها أن يعرضوا على السيد الإقطاعى مبلغاً محدوداً من المال جملة واحدة

أو قسطا سنويا يشترون به ميثاقا ينص على حريتهم . ونال أهل المدن التى تدخل فى أملاك الملك الخاصة استقلالهم الذاتى بهبات من المال يؤدونها له أو خدمات يقومون بها فى الحرب . ومن المدن ما أعلنت استقلالها دون مبالاة ، وثارت ثورات عنيفة دفاعاً عن هذا الاستقلال . فقد حاربت مدينة تور مثلا اثنتى عشرة حرباً قبل أن تنال حريتها . وباع عدد من سادة الإقطاع المدينين أو المحتاجين ، وبخاصة من كان يستعد منهم للحروب الصليبية ، مواثيق بالحكم الذاتى للمدن التى يسيطرون عليها إقطاعياً ؛ وكانت هذه هى الطريقة التى نالت بها كثير من المدن الإنجليزية الحكم الذاتى من رتشرد الأول . ومن سادة الإقطاع ، وبخاصة فى فلاندرز ، من أعطوا مواثيق بالحرية الناقصة للمدن التى كان نماؤها الاقتصادى سبباً فى زيادة دخلهم . وقاوم رؤساء الأديرة والأساقفة هذه النزعة الاستقلالية أطول من غيرهم لأن يمينهم التى أقسموها حين تولوا مناصبهم كانت تحتم عليهم ألا ينقصوا موارد أديرتهم أو كراسيهم الأسقفية ، وهى الموارد التى كانوا يعتمدون عليها فى أداء واجباتهم الكثيرة ، ومن أجل هذا كان كفاح المدن ضد حاكميها من رجال الدين شاقاً مريراً إلى أقصى حد .

وكان ملوك أسپانيا يبسطون رعايتهم على الحكومات المحلية ليتخذوها معولا لتقويض سلطان الأشراف المشاكسين ، ولهذا كانت المواثيق التى منحوها للمدن كثيرة بعيدة المدى فى الحرية ، وعلى هذا الأساس نالت ليون Leon عهدها من ملك قشتالة فى عام ١٠٢٠ ونالته برغوس Burgos فى عام ١٠٧٣ ، وناچيرا Najera فى عام ١٠٧٦ ، وطليطلة فى ١٠٨٥ ، ونالته بعدها بزمن قليل ، كمپستيلا Compostela ، وقادس ، وبلنسية ، وبرشلونة . وأفاد الإقطاع فى ألمانيا ، وأفادت المدن فى إيطاليا ، من الضعف الذى حل بالإمبراطورية والبابوية كلتيهما أثناء الحروب التى شبت بينهما بسبب التنازع على المناصب والسلطان وغير ذلك من أسباب الخصام بين الكنيسة والدولة ، وكان للمدن القائمة فى شمالى

إيطاليا من السلطان السياسى ما لا يكاد يعرف له نظير قبل ذلك الوقت أو بعده ؛ وكما كانت المجارى المتدفقة من جبال الألب تمد بمائها الأنهار العظيمة فى لمبارديا وتسكانيا ، فتحمل المتاجر وتخصب السهول ، كذلك كانت تجارة أقاليم أوربا الواقعة فى شمال الألب وتجارة آسية الغربية اللتان تلتقيان فى شمالى إيطاليا سبباً فى نشأة طبقة تجارية وسطى استخدمت ثروتها فى تجديد المدن القديمة ، وتشييد مدن جديدة ، وتشجيع الآداب والفنون بالمال الوفير ، وبث روح العزة والإباء التى حطمت بها أغلال الإقطاع .

وأخذ الأشراف يشنون من قصورهم الحصينة فى الريف حربا خاسرة على حركة استقلال المدن والحكم الذاتى فيها ؛ فلما خضعوا لما لا بد من الخضوع له ، انتقلوا إلى الإقامة فى المدن الكبيرة وأقسموا يمين الولاء لحكوماتها المحلية . أما الأساقفة ، الذين ظلوا قروناً طوالا الحكام الحقيقيين والحكام القادرين الحازمين لبلدان لمبارديا ، فقد خضعوا لهذه الحكومات بمساعدة البابوات ، وكانوا قد تجاهلوا هذه السلطة من زمن بعيد . فأخذنا نسمع منذ عام ١٠٨٠ عن « قناصل » يحكمون لوقا Lucca ، ثم نجدهم فى عام ١٠٨٤ فى پيزا ، وفى عام ١٠٩٨ فى أرزو Arezzo ، وفى عام ١٠٩٩ فى جنوى ، وفى ١١٠٥ فى پاڤيا ، وفى ١١٣٨ فى فلورنس . وظلت مدائن شمالى إيطاليا حتى القرن الخامس عشر تعترف بسيادة الإمبراطورية الرسمية وتصدر أوراقها الحكومية باسمها[٩٧] ؛ ولكنها كانت من الوجهة العملية الواقعية حرة مستقلة ، وقد عاد إليها العهد القديم عهد المدينة — الدولة بكل ما فيه من فوضى ومن حافز .

وتطلب تحرير المدن فى فرنسا كفاحا طويلا عنيفا فى كثير من الأحيان ؛ فقد أفلح الأساقفة الحاكمون فى لەمان Le Mans (١٠٦٩) ، وكمبرية (١٠٧٦) وريمس (١١٣٩) ، بما كانوا يصدرونه من أحكام الحرمان تارة وبالقوة تارة أخرى ، أفلحوا فى القضاء على الحكومات المحلية التى أقامها الأهلون ؛ أما فى

نوايون Noyon فقد منح الأسقف البلدة عهداً بحريتها من تلقاء نفسه (١١٠٨) ؛ وحررت سان كنتن St. Quentin نفسها فى عام ١٠٨٠ ، وبوڤيه فى ١٠٩٩ ، ومرسيليا فى ١١٠٠ ، وأمين Amiens فى ١١١٣ ، واغتنم أهل لاؤن Laon غياب أسقفهم الفاسد فى عام ١١١٥ فأنشأوا فيها حكومة ذاتية ؛ فلما عاد رشوه بالمال حتى أقسم أن يحميها ، ثم أغرى الملك لويس السادس بعد عام من ذلك الوقت بأن يقضى عليها . ونرى فى وصف الراهب جويبرت النوچنتى Guibert of Nogent لما حدث بعدئذ مثلا من عنف ثورة المدن فى سبيل الحكم الذاتى :

فى اليوم الخامس من أسبوع عيد الفصح . . . علا صخب مضطرب فى جميع أنحاء المدينة ، وأخذ الناس ينادون بأعلى أصواتهم « الحكم الذاتى المحلى » ! ... ودخل أهل المدينة وقتئذ فناء الأسقف ، مشرعة سيوفهم ، وبلطهم الحربية الصغيرة والكبيرة ، وأقواسهم ، وعصيهم الضخمة ، وحرابهم ، وكانوا جماعة جد كبيرة . . . وهرع الأشراف من كل فج ليساعدوا الأسقف . . . فقاوم هو وبعض أعوانه الأهلين بالحجارة والسهام . . . وخبأ نفسه فى برميل . . . وأخذ يتوسل إليهم توسلا يبعث الرحمة والأسى فى النفوس ، ويعدهم بأنه لن يكون أسقفهم بعد ذلك اليوم ، وأنه سيهبهم ثروة لا حد لها ، ويغادر البلاد . وبينما كانوا هم يسخرون منه بقلوبهم المتحجرة ، إذ رفع رجل منهم يدعى برنار بلطته الحربية ، وأطار بها مخ ذلك الرأس المقدس الآثم ؛ وانفلت هو من الأيدى الممسكة به ، ومات قبل أن يصل إلى الأرض إذ عاجلته ضربة أخرى تحت وقب عينه وفوق أنفه . فلما قضى نحبه قطعت ساقاه ، وأثخن بالجراح ؛ وأبصر ثيبوت Thibaut فى إصبع الأسقف خاتماً لم يقو على انتزاعه منها ، فقطعها[٩٨] .

ودام هذا الكفاح مائة عام ؛ وقتل الأهلون فى ڤيزلاى Vézelay (١١٠٦) أرنود Arnaud رئيس الدير ، وأقاموا فيها حكومة محلية ؛ وثارت أورليان فى عام ١١٣٧ ، ولكن ثورتها لم تفلح . ومنح لويس السابع مدينة سان Sens عهداً

بحريتها فى عام ١١٤٦ ، ولكنه ألغى هذا العهد بعد ثلاث سنين بناء على طلب من رئيس الدير الذى كانت تلك البلدة ضمن أملاكه ؛ ثم قتل أهل المدينة رئيس الدير وابن أخيه ، ولكنهم عجزوا عن إعادة الحكومة المحلية . وواصل أسقف تورناى الحرب الأهلية ست سنين (١١٩٠ — ١١٩٦) ليقضى على حكومتها المحلية ، وأصدر البابا قرار بحرمان جميع أهل المدينة من الكنيسة ؛ وثار أهل رون فى يوم أحد الفصح من عام ١١٩٤ ونهبوا بيوت قساوسة كنيستها الكبرى ، وفى عام ١٢٠٧ أصدر البابا قرارا الحرمان على المدينة . وفى عام ١٢٣٥ استولى العامة على الحجارة التى جىء بها إلى المدينة لبناء كنيستها ، واتخذوها قذائف ومتاريس فى الثورة التى قاموا بها على أكبر رئيس دينى فى غالة ، وولى هو ومن معه من رجال الدين الأدبار ، ولم يعودوا إلا بعد عامين من ذلك الوقت ، لما أن حمل البابا لويس السابع على إلغاء الحكومة المحلية . وعجزت كثير من مدن فرنسا على نيل حريتها إلى أن قامت الثورة الكبرى ، ولكن الكثرة الغالبة من المدن الفرنسية نالت حريتها بين عامى ١٠٨٠ ، و ١٢٠٠ ، وبدأت أزهى عصورها بفضل ما بعثته فيها الحرية من روح دافعة قوية . وكانت الحكومات المحلية هى التى أنشأت الكنائس القوطية الكبرى .

وضم الملوك فى إنجلترا المدن إليهم فى كفاحهم ضد الأشراف بأن منحوا هذه المدن عهوداً تحقق لها قسطاً محدوداً من الحكم الذاتى . فقد منح وليم الفاتح مدينة لندن عهداً من هذه العهود ؛ ومنح هنرى الثانى مدائن لنكلن ، ودرهام ، وكارليل Carlisle ، وبرستل ، وأكسفورد ، وسلزبرى ، وسوثمبتن عهوداً شبيهة بهذا العهد ؛ وابتاعت كمبردج فى عام ١٢٠١ لنفسها حقوق الحكم المحلى من الملك يوحنا . ونزل الأشراف الحاكمون فى فلاندرز عن كثير من الحقوق لمدائن غنت ، وبروج ، ودويه ، وتورناى ، وليل . . . ولكنهم تغلبوا على جميع ما بذلته المدن من محاولات للحصول على الاستقلال البلدى التام . وحصلت مدائن ليدن Lyden

وهارلم Haarlem ، ورتردام ، ودرودرخت Drodrecht ، ودلفت Delft وغيرها من المدن الهولندية فى القرن الثالث عشر على عهود بالحكم الذاتى المحلى . أما فى ألمانيا فقد تطلب تحرير مدنها زمناً طويلا ، وكان هذا التحرير فى الغالب بطريق السلم ؛ فقد منح الأساقفة الذين ظلوا عدة قرون يحكمون المدن حكماً إقطاعياً من قبل الأباطرة ، إلى مدائن كولونى ، وترير Trier ، ومتز ، ومينز ، واسپير ، واسترسبورج ، وورمز ، منحوا هذه المدن حق اختيار موظفيها وسن قوانينها .

ولم تطو صحيفة القرن الثالث عشر حتى كانت الثورة القائمة فى سبيل الحكم المحلى قد تم لها النصر فى أوربا الغربية ، فقد خلعت المدن عن عاتقها نير سادتها الإقطاعيين ، وتخلصت من الضرائب والمكوس الإقطاعية أو خفضتها ، وحددت حقوق رجال الدين فى أضيق نطاق ، وإن كانت كثرتها الغالبة لم تنل حريتها كاملة . وحرمت المدن الفلمنكية إنشاء أديرة جديدة ، والإيصاء بالأرض إلى الكنائس ؛ وضيقت نطاق ما كان لرجال الدين من حق فى أن يحاكموا أمام المحاكم الكنسية ، ونازعتهم حقهم فى أن يشرفوا على المدارس الابتدائية(٩٩) . وكان رجال الطبقة الوسطى من التجار هم المسيطرين على الحياة البلدية والاقتصادية ، واعترف بنقابات التجار الطائفية فى كل الحكومات المحلية تقريباً بأنها هيئات ذات حكم ذاتى . وكانت الحكومة المحلية هى ونقابة التجار الطائفية فى بعض الأحيان هيئة واحدة ؛ ولكنهما كانتا فى العادة منفصلتين إحداهما عن الأخرى . غير أن الحكومة المحلية قلما كانت تعارض مصالح النقابات الطائفية ؛ وليس أدل على هذا من أن نقابات المدينة الطائفية هى التى كانت تختار عمدة Lord Mayor لندن ؛ ذلك أن امتلاك المال قد أصبح وقتئذ ولأول مرة فى مدى ألف عام ذا سلطان أقوى من سلطان امتلاك الأرض ، وأخذ سلطان المال الآخذ فى الازدياد يتحدى سلطان الأشراف ورجال الدين . ووجهت طبقة التجار الوسطى ثروتها ، ونشاطها ، وقدرتها للحصول على المنافع السياسية ووجهتها بدرجة أعظم مما كانت

توجه فى الزمن القديم ، وإن كان ذلك عظيما فى ذلك الوقت نفسه ؛ فقد حرمت الفقراء فى معظم المدن من المجالس والوظائف العامة ، واستبدت بالفلاح والصانع ، واحتكرت مكاسب التجارة ، وأرهقت الأهلين بالضرائب الفادحة ، وأنفقت معظم إيراد الحكومة المحلية فى المنازعات الداخلية أو الحروب الخارجية التى تبغى بها الاستحواذ على الأسواق والقضاء على المنافسين . وحاولت أن تقضى على هيئات الصناع ، وحرمت عليهم حق الإضراب ، وإلا تعرضوا للإعدام أو النفى ، وكان ما تضعه من القواعد لتحديد الأثمان والأجور يهدف إلى مصالحها هى ، وإلى إلحاق الأذى الشديد بالطبقة العاملة(١٠٠) . وحدث وقتئذ ما حدث فى أيام الثورة الفرنسية ، فكانت هزيمة سادة الإقطاع نصراً لطبقة رجال الأعمال أكثر مما كانت لسائر الطبقات .

غير أن الحكومات المحلية للمدن كانت على الرغم من هذه المساوئ تأكيداً جليلا للحرية الإنسانية ؛ فقد كان سكان المدينة إذا سمعوا دقات الجرس من برجها يسارعون إلى الاجتماع ليختاروا حكامها ، وكان للمدن جيشها الإقليمى الخاص بها ، تدافع به عن نفسها أقوى الدفاع ، حتى استطاعت أن تهزم به جيوش الإمبراطور المدربة فى لنيانو (١١٧٦) ، وحاربت به بعضها بعضها حتى أنهكت قواها جميعاً . نعم إن مجالسها الإدارية لم تلبث أن ضعف نظامها حتى أضحت أرستقراطية من التجار ، ولكن الجمعيات البلدية كانت أولى الحكومات النيابية منذ عهد تيبريوس ، وكانت هى لا العهد الإنجليزى الأعظم Magns Carta مبدأ الدمقراطية الحديثة (١٠١) ؛ وهى التى أحلت مناقشة الشهود مناقشة قانونية منظمة محل البقايا الرجعية للقوانين الإقطاعية والقبلية — الأيمان ، والمبارزة ، والتحكيم الإلهى — واستبدلت بالفداء أو ثمن الدم الغرامات أو السجن ، أو العقاب البدنى ، وهى التى قللت من المماطلة والتأجيل فى تطبيق القانون ، وأحلت التعاقد القانونى محل العلاقات الإقطاعية والولاء الإقطاعى ، ونشأت فيها

مجموعة كاملة جديدة من القوانين المنظمة لشئون المال والتجارة قامت على أساسها حياة جديدة فى أوربا .

وسرعان ما استحالت هذه الدمقراطية الفتية نظاما اقتصاديا شبه اشتراكى تحت إشراف الدولة . فكانت الحكومة المحلية للمدينة تسك عملتها ، وتنظم الأشغال العامة وتشرف عليها ، وتنشئ الطرق ، والقناطر ، وتشق القنوات ، وترصف بعض شوارع المدينة ، وتنظم توريد المؤن لها ، وتحرم الإجباء(*) ، والاحتكار ، وابتياع السلعة كلها من السوق ، وأوجدت الاتصال المباشر بين البائع والمشترى فى الأسواق والمواسم التجارية ؛ وفحصت عن المكاييل والمقاييس ، وفتشت السلع ، وعاقبت من يغش فيها ، وفرضت الرقابة على الصادرات والواردات ، وخزنت الحبوب للسنين العجاف ، وأمدت السكان بالحبوب بأثمان معتدلة فى أوقات الأزمات ، ونظمت أثمان الأطعمة الأساسية والجعة . وكانت إذا وجدت أن الثمن الذى حددته لسلعة مرغوب فيها منخفض انخفاضاً يقلل إنتاجها ، أجازت لبعض أثمان الجملة أن توازن نفسها بطريق المنافسة ، ولكنها أنشأت محاكم أو « جلسات » للخبز والجعة تعمل على بقاء أثمان الأشتات فى هاتين السلعتين متناسبة تناسبا دائما مع أثمان القمح أو الشعير[١٠٢] . وكانت بين الفينة والفينة تنشر قوائم بالأثمان المعتدلة ، مفترضة أنه لا بد أن يكون لكل سلعة « ثمناً عادلا » يتضمن ثمن المادة المصنوعة منها وأجر العمل اللازم لإنتاجها ، وقد أغفلت هذه النظرية عامل العرض والطلب وما يطرأ على قيمة النقد من تقلبات . واحتكرت بعض الحكومات المحلية — مثل حكومة بال Basel وجنوى تجارة الملح ، كما احتكرت غيرها مثل حكومة نورمبرج صنع خمورها ، ومنها ما كانت تخزن الحبوب فى مخازن البلدية[١٠٣] . وكانت الضرائب الجمركية الحامية التى

(*) أجبأ الزرع باعه قبل بدء صلاحه .   (المترجم)

تفرضها البلديات تحول دون تداول البضائع(١٠٤) ؛ كما كان يعطل هذا التداول أحياناً إرغام أصحاب التجارة العابرة على أن يعرضوا بضاعتهم للبيع فى المدينة قبل أن تخرج منها(١٠٥) . وكان يحدث فى تلك الأيام ما يحدث فى أيامنا هذه فيحتال بعض المواطنين المتمردين للخروج على هذه القواعد ؛ كما كانت الأسواق السوداء كثيرة العدد(١٠٦) ، وكانت الأضرار الناشئة من بعض هذه القيود أكثر من نفعها ، ولهذا أهملت بعد زمن قليل .

غير أننا يحق لنا أن نقول بوجه عام أن ما قامت بها الحكومات المحلية لمدائن العصور الوسطى من أعمال ينطق بمهارة رجال الأعمال الذين كانوا يشرفون عليها وبشجاعتهم . فقد استمتعت أوربا بفضل توجيههم الحكيم فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر برخاء لم تعرف له مثيلا منذ سقوط رومة . وتكاثر سكان أوروبا فى عهد هذا النظام تكاثراً لم يكن له نظير منذ ألف عام على الرغم من انتشار الأوبئة والمجاعات والحروب . وكان أولئك السكان قد أخذوا يتناقصون فى القرن الثانى ، وأكبر الظن أنهم وصلوا إلى الحد الأدنى فى القرن التاسع ؛ ثم أخذ عددهم يزداد مرة أخرى فى الفترة الواقعة بين القرن الحادى عشر والموت الأسواد (١٣٤٩) بفضل انتعاش التجارة والصناعة ؛ ويغلب على الظن أن أهل الإقليم المحصور بين الموزل والرين قد تضاعفوا عشرة أضعاف ، ولعلهم بلغوا فى فرنسا عشرين مليوناً ، أى أنهم لايكادون يقلون عما كانوا عليه فى القرن الثانى عشر(١٠٧) . وقد كان من آثار الثورة الاقتصادية أن أخذ السكان يهاجرون من القرى إلى المدن . نعم إن القسطنطينية البالغ عدد سكانها ٨٠٠٫٠٠٠ ، وقرطبة وبالرم البالغ عدد سكانهما نصف مليون كانتا مزدحمتين بالسكان من زمن بعيد ، ولكن عدداً قليلا من المدن القائمة فى شمال جبال الألب هى التى كان يسكنها قبل عام ١١٠٠ أكثر من ثلاثة آلاف نسمة(١٠٨)

وقبل أن يحل عام ١٢٠٠ كان فى باريس نحو مائة ألف ، وفى كل من دويه ، وليل ، وإبر ، وغنت ، وبروج نحو خمسين ألفاً ؛ وكان فى لندن عشرون ألفاً ؛ وقبل أن يحل عام ١٣٠٠ كان فى باريس ١٥٠٫٠٠٠ ألفاً ، وفى البندقية ، وميلان ، وفلورنس مائة ألف(١٠٩) ، وفى سينا Siena ومودينا ٣٠٫٠٠٠(١١٠) ، وفى لوبك ، ونورمبرج ، وكولونى ٢٠٫٠٠٠ ، وفى فرانكفورت ، وبال ، وهمبرج ، ونوروك ، ويورك ١٠٫٠٠٠ . وغنى عن البيان أن هذه الأرقام تقريبية وأنها عرضة إلى الخطأ الكبير .

وكان ازدياد السكان نتيجة من نتائج التطور الاقتصادى وسببا من أسبابه فى آن واحد : فأما أنه نتيجة من نتائج هذا التطور فلأن الناس أصبحوا يأمنون على أنفسهم وأموالهم أكثر من ذى قبل ، وأنهم صاروا أقدر مما كانوا على استغلال مصادر الثروة الطبيعية بفضل تقدم الصناعة ، وأن الأطعمة والسلع قد زاد انتشارها بفضل رواج التجارة وازدياد الثروة . وأما أنه كان سببا من أسبابه فلأنه أوجد أسواقاً مطردة الاتساع للتجارة والصناعة ، للأدب ، والتمثيل ، والموسيقى ، والفن ، وكان تنافس الحكومات المحلية وتفاخرها سبباً فى توجيه ثروتها إلى بناء الكنائس ، وأبهاء المدن ، وأبراج النواقيس ، والفساقى ، والمدارس ، والجامعات ؛ وعبرت الحضارة البحار والجبال فى إثر التجارة ؛ فانتقلت من بلاد الإسلام وبيزنطية إلى إيطاليا ، وأسبانيا ، وتخطت جبال الألب إلى ألمانيا ، وفرنسا ، وفلاندرز ، وبريطانيا . وأصبحت العصور المظلمة إحدى الذكريات الماضية ، وتمخضت أوربا مرة أخرى عن حياة فنية نشيطة .

وليس من حقنا أن ندعى أن مدينة العصور الوسطى هى المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه المدن . نعم إنها تبدو للناس فى هذه الأيام فى صورة جميلة ، يتوج تلاً فيها قصر منيع ، ويحيط بها سور ذو أبراج ، فيها بيوت وأكواخ ، وحوانيت ذات سقف من القش أو القرميد تزدحم حول الكنيسة أو القصر الحصين

أو الميدان العام . ولكننا يجب أن نضيف إلى هذه الصورة أن شوارعها كانت أزقة ضيقة ملتوية ، (وتلك أحسن وسيلة للدفاع ومنع وهج الشمس) يسير فيها الناس والماشية على وقع حوافر الدواب وطقطقة الأحذية الخشبية ، وأصوات المارة وهم سائرون فيها على مهل فى ذلك العصر الذى لم تكن فيه آلات تريح عضلاتهم وتبلى أعصابهم . وكانت تحيط بكثير من مساكن المدينة حدائق ، وأخنان الدجاج ، وحظائر الخنازير ، ومراعى البقر ، وأكوام الروث . وكانت لندن من المدن الشديدة على أهلها ، فأمرت «كل من يربى خنزيراً أن يحتفظ به فى بيته » ، أما فى غيرها فقد كانت الخنازير تجوس بملء حريتها خلال أكوام الفضلات المكشوفة(١١١) . وكانت الأمطار تملأ الأنهار من حين إلى حين فتطغى على الحقول والمدن ، حتى كان الناس يسيرون بالقوارب تدفعها المجاذيف إلى قصر وستمنستر(١١٢) . وكانت الشوارع تظل بعد المطر مليئة بالوحل عدة أيام ؛ وكان الرجال وقتئذ يحتذون أحذية طويلة ، وأما النساء فكن يحملن فى عربات وكراسى تتقلب من حفرة إلى حفرة . وقد رصفت بعض المدن شوارعها الرئيسية بالحجارة فى القرن الثالث عشر ، أما الكثرة الغالبة منها فقد ظلت شوارعها غير مرصوفة ، تتعثر فيها الأقدام وتنبعث منها الروائح الكريهة . وكانت للأديرة والقصور الحصينة وسائل صالحة لصرف الفضلات(١١٣) ، أما الأكواخ فلم يكن لها شىء من هذا ، وكانت فى أماكن متفرقة من المدينة ميادين كَلِئة ، بها مضخة يستقى منها الناس وحوض ترتوى منه الحيوانات المارة .

وكانت بيوت المدن القائمة فى شمالى الألب كلها تقريبا من الخشب ، ولم يكن فيها بيوت من الآجر أو الحجارة إلا بيوت أغنى الأشراف والتجار ، وكانت الحرائق كثيرة ، وإذا شبت انتشرت فى معظم الأحيان فى جميع المدينة لا يعوقها

عائق . ولنضرب لذلك مثلا مدائن رُوَن ، وبوفيه ، وأراس ، وتروای ، وپروفن ، وپواتيه ، ومواساك Moissac فقد دمرتها كلها الحرائق فى عام ١١٨٨ ، ودمرت رون النارست مرات بين عامى ١٢٠٠ ، ١٢٢٥[١١٤] ، ولم يعتد الناس صنع السقف من القرميد إلا فى القرن الرابع عشر ، وكانت النار تكافح بالدلاء تستخدمها فرق باسلة عاجزة ، وكان فى المدينة خفراء مسلحون بخطاطيف طويلة يهدمون بها البيت المحترق إذا كان وجوده خطراً على غيره من البيوت . وإذ كان الأهلون جميعاً يرغبون فى السكنى بجوار القصر الحصين ليأمنوا بذلك على أنفسهم وأموالهم ، فقد كانت المبانى ترتفع عدة أطباق تصل أحياناً إلى ستة ، وكانت الأطباق العليا تبرز فى الشارع بروزا يكسبها روعة ويجعلها خطراً يهدد المارة . وكانت المدن تصدر قرارات تحدد بها ارتفاع المبانى .

وكان فى وسع الأهلين أن يستمتعوا بالحياة فى مدينة العصور الوسطى على الرغم من هذه الصعاب التى قلما كان يحس بها الناس ، لأنها كانت تعمهم كلهم تقريباً ، فقد كانت الأسواق مزدحمة بالناس ، وكان حديثهم كثيراً ، وأثوابهم وبضائهم زاهية جذابة ، وكان البائعون الجائلون ينادون على سلعهم بأعلى أصواتهم ، والصناع لا ينقطعون عن الاشتغال بحرفهم . وربما كان بعض الممثلين الجائلين يقومون بتمثيل مسرحية دينية فى أحد الميادين ، أو موكب دينى يسير أحياناً فى أحد الشوارع يشترك فيه التجار المزهوون ، والصناع الأقوياء ، ورجال الدين بأثوابهم الوقورة ، ورجال الدنيا بثيابهم الزاهية ، وترتل فيها الأناشيد . أو تكون كنيسة فخمة تشاد فى المدينة ، أو تطل فتاة حسناء من شرفة منزل ، أو تدق نواقيس برج المدينة تدعو المواطنين إلى الاجتماع أو إلى امتشاق الحسام . وفى المساء تدق الأجراس تهيب بالأهلين أن يعودوا سراعاً إلى بيوتهم ،

لأن الشوارع كانت محرومة من الأضواء ، ما عدا ضوء الشموع يتراءى من نوافذ البيوت وضوء مصباح هنا وهنا أمام ضريح . فإذا أراد كبير من أهل المدينة أن يسير فيها ليلا سبقه خدمه يحملون المشاعل أو الفوانيس والسلاح لأن رجال الشرطة قلما كان لهم وجود . وكان المواطن الحكيم يبكر فى العودة إلى داره فراراً من ملل الليالى الظلماء ، وعلماً منه بأن الديكة سوف توقظه بصياحها فى مطلع الفجر ، وأن العمل فى انتظاره يطلب إليه أن ينجزه .

الفصل السابع

الثورة الزراعيـــة

وبدّل نمو الصناعة والتجارة ، وانتشار الاقتصاد النقدى ، وازدياد الطلب على العمال فى المدن ، بدّل هذا كله نظام الزراعة تبديلا كبيراً . ذلك أن البلديات لحرصها على أن تظفر بعمال جدد أعلنت أن أى شخص يقيم فى مدينة ٣٦٦ يوماً دون أن يطلبه سيد إقطاعى ، ويتحقق من شخصيته ، ويستولى عليه لأنه من أرقاء أرضه ، أى شخص تنطبق عليه هذه الشروط يصبح من تلقاء نفسه حراً ، يتمتع بحماية قوانين حكومة المدينة وسلطانها . وذهبت فلورنس إلى أبعد من هذا فدعت فى عام ١١٠٦ جميع الفلاحين المقيمين فى القرى المجاورة لها للمجىء إليها والإقامة فيها أحراراً ؛ ودفعت بولونيا Bologna وغيرها من المدن المال إلى سادة الإقطاع لكى يسمحوا لأرقاء أراضيهم بأن ينتقلوا إلى المدن . وفر عدد كبير من أرقاء الأرض أودعوا ليفلحوا أرضين جديدة فى شرق نهر الإلب ، وأصبحوا فيها أحراراً من تلقاء أنفسهم .

أما الذين بقوا فى ضياع سادة الإقطاع فقد أخذوا يعارضون فى أداء الضرائب والرسوم الإقطاعية التى أضحت لطول العهد بأدائها مقررة واجبة الأداء ؛ ونشأت من هذه المعارضة متاعب جمة . وحذا كثير من أرقاء الأرض حذو عمال المدن فأنشأوا لهم جمعيات ريفية ، وأقسموا أن يعملوا مجتمعين للامتناع عن أداء الرسوم والضرائب الإقطاعية ، ثم سرقوا أو أتلفوا ما عند سادتهم من وثائق تسجل استرقاقهم أو التزاماتهم ، وأحرقوا قصور المعاندين من أولئك السادة ، وأنذروهم بأنهم سيغادرون أملاكهم إذا لم يجيبوا مطالبهم . وفى عام ١١٠٠ أعلن أرقاء الأرض فى سانت ميشيل — ده — بوڤيه أنهم سيتزوجون من تلك الساعة

بأية امرأة يرغبون فى زواجها ، وسيزوجون بناتهم من أى شخص يرغبون فيه . وفى عام ١٢٠٢ رفض أرقاء الأرض فى سانت أرنول — ده — كربى St. Arnoul de- Crépy أن يؤدوا إلى سيدهم رئيس الدير ضريبة الأموات التقليدية أو الغرامة التى تفرض عليهم إذا زوجوا بناتهم خارج أملاك سيدهم . وشبت فتن أخرى من هذا النوع فى أكثر من عشر مدن منتشرة من فلاندرز إلى أسبانيا ، حتى وجد سادة الإقطاع أن من العسير عليهم أن يحصلوا على ربح من استخدام أرقاء الأرض ، وزادت هذه الصعوبة أمامهم على مر الأيام . ذلك أن ضروب المقاومة المتزايدة كانت تتطلب منهم إشرافاً مستمراً كثير النفقة فى كل مرحلة من مراحل العمل ؛ وكان عمل هؤلاء الأرقاء فى حوانيت الضيعة أكثر نفقة وأقل جودة من العمل الحر الذى يخرج السلع نفسها فى المدن .

وأراد سادة الإقطاع أن يستبقوا الفلاحين فى أرضهم ، ويجعلوا عملهم مربحاً لأولئك السادة ، فاستبدلوا بالفروض الإقطاعية القديمة مقادير من المال تؤدى دفعة واحدة ، وباعوا أرقاء الأرض حريتهم بأثمان يؤدونها من مدخراتهم ، وآجروا مساحات متزايدة من أرضهم إلى الفلاحين الأحرار بأجر نقدى ، واستأجروا عمالا أحراراً يعملون فى حوانيت ضياعهم . وحذت أوربا الغربية حذو بلاد الشرق الإسلامية والبيزنطية فشرعت من بداية القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر تنتقل انتقالا يزداد عاما بعد عام من الدفع عيناً فى أكثر الأحوال إلى الدفع نقداً فى معظمها . واشتدت رغبة ملاك الأراضى الإقطاعيين فى الحصول على السلع المصنوعة التى يعرضها التجار عليهم ، فزادت رغبتهم فى المال يبتاعون به هذه السلع ؛ ولما ساروا إلى قتال المسلمين فى الحروب الصليبية كانوا أحوج إلى المال منهم إلى الطعام والبضائع . كذلك كانت الحكومات تطالب بأداء الضرائب نقداً لا عيناً ؛ فلم ير الملاك بدأ من الخضوع إلى مقتضيات الظروف ، فباعوا محصولاتهم بالنقود العاجلة بدل أن يستهلكوها بالهجرة الشاقة

المتعبة من قصر ريفى إلى قصر آخر مثله . وكان هذا الانتقال إلى الاقتصاد النقدى كثير النفقة على الملاك الإقطاعيين . ذلك أن إيجار أرضهم والأموال التى كانوا يحصلون عليها من الزراع نظير الرسوم المفروضة عليهم قد أصبح لها من الثبات فى العصور الوسطى ما للعادات المألوفة ، ولم يكن فى مقدورهم أن يزيدوها بنفس السرعة التى تنخفض بها قيمة النقد ؛ ولذلك اضطر كثيرون من الأشراف إلى بيع أرضهم — وباعوها عادة إلى رجال الطبقة الوسطى الناشئة . وحسبنا دليلا على هذا أن بعض النبلاء قد ماتوا من زمن بعيد أى منذ عام ١٢٥٠ وهم لا يملكون أرضاً ، ومنهم من مات فقيراً معدما(١١٥) . وكان من نتيجة هذه الأحوال أن أعتق فليب الجميل ملك فرنسا جميع أرقاء الأراضى الملكية فى أوائل القرن الرابع عشر ، وأن أمر ابنه لويس العاشر فى عام ١٣١٥ بتحرير جميع أرقاء الأرض « بشروط عادلة صالحة »(١١٦) . وأخذ نظام رقيق الأرض يتلاشى شيئاً فشيئاً فى عدد من البلاد المختلفة الواقعة غرب نهر الإلب وذلك فى أوقات مختلفة من بداية القرن الثانى عشر إلى نهاية القرن السادس عشر ، وحلت محلها ملكية الفلاحين لأرضهم ، ونقسمت ضياع الإقطاع الكبرى إلى مزارع صغيرة ، وحصل الفلاحون فى القرن الثالث عشر على درجة من الحرية والرخاء لم يستمتعوا بمثلها مدى ألف عام . وفقدت المحاكم الإقطاعية ما كان لها من سلطان على الفلاحين ، وأخذ سكان القرى يختارون حكامهم ، ولم يكن هؤلاء يقسمون يمين الولاء لسيد الإقطاع المالك لأرضهم بل للملك نفسه . على أن تحرير رقيق الأرض فى أوربا الغربية لم يتم كله قبل عام ١٧٨٩ ، فقد ظل عدد كبير من سادة الإقطاع يطالبون بحقوقهم القديمة من الوجهة القانونية ، ولقد حاولوا فى القرن الرابع عشر أن يستعيدوها من الوجهة العملية ؛ غير أن الحركة التى تهدف إلى العمل الحر المتنقل لم يكن يستطاع وقفها طالما كانت التجارة والصناعة آخذتين فى النماء .

وكان الحافز الجديد للحرية ، مضافاً إلى اتساع الأسواق الزراعية ، من أسباب تحسن أساليب الزراعة ، وأدواتها ، ومحصولاتها ، كما كان تكاثر سكان المدن ، وازدياد الثراء ، والأساليب الجديدة التى يسرت الأعمال التجارية والمالية ، كل هذا كان سبباً فى اتساع نطاق الاقتصاد الريفى وزيادة غناه . وتطلبت الصناعات الجديدة محصولات صناعية غير التى كانت موجودة من قبل — قصب السكر ، وبذر اليانسون ، والكمون ، والكتان ، والعنب الهندى ، والزيوت النباتية والأصباغ . وكان قرب المدن المزدحمة بالسكان مشجعا على تربية الماشية ، وصناعة منتجات الألبان ، وغرس حدائق الخضر . وجرت السفن بالخمور فى الأنهار وفى البر والبحر من آلاف الكروم المنتشرة فى أودية التيبر ، والآرنو ، والپو ، والوادى الكبير ، والتاجه ، والإبرة ، والرون ، والجروند ، والجارون ، واللوار ، والسين ، والموزل ، والموز ، والرين ، والدانوب ، وجرت السفن بهذه الخمور لتفرج كرب العمال الكادحين فى حقول أوربا ، حوانيتها ، وغرف الحاسبين فيها ؛ وحتى إنجلترا نفسها كانت تعصر الخمر فى الفترة الممتدة من القرن الحادى عشر إلى القرن السادس عشر . وخرجت الأساطيل الضخمة فى البحر البلطى ، وبحر الشمال لتصيد منهما الرنكة وغيرها من أنواع السمك لتطعم المدن الجائعة التى تكثر فيها أيام الصوم ، ويرتفع فيها ثمن اللحم ؛ فكانت يارموث Yarmouth مدينة بحياتها إلى تجارة الرنكة ، وأقر تجار لوبك بفضلها عليهم بأن نقشوا الرنكة على مقاعدهم فى الكنيسة(١١٧) ، واعترف الهولنديون الشرفاء بأنهم « شادوا على الرنكة » مدينة أمستردام الشامخة(١١٨) .

وتحسنت أساليب الزراعة الفنية على مهل ، فلقد تعلم المسيحيون من العرب فى أسپانيا ، وصقلية ، وبلاد الشرق ، وأدخل الرهبان البندكتيون والسسترسيون Cistercians(*) الأساليب الرومانية القديمة والإيطالية الحديثة الخاصة بالزراعة ،

(*) فرع من الرهبان البندكتيين نشأ فى عام ١٠٩٨ فى غابة سستو Cisteaux بفرنسا .

وتربية الماشية ، والاحتفاظ بخصب التربة فى الأقطار الواقعة شمال جبال الألب ؛ وترك الزارع فى الضياع الجديدة يبتكرون ويغامرون كما يشاءون ولم يفرض عليهم تقسيم أراضيهم بين المزروعات المختلفة . وكان الزراع الذين يفلحون فى القرن الثالث عشر حقول فلاندرز المستصلحة من المستنقعات يتبعون الدورة الزراعية الثلاثية ، فكانت الأرض تزرع كل عام ولكن خصبها كان يجدد مرة كل ثلاث سنين بزرع الكلأ الذى يتخذ غذاء للحيوان أو البقول . وكان زوجان من الثيران القوية يجرّان المحاريث ذات السهام الحديدية تتعمق الأرض أكثر من ذى قبل : غير أن الكثرة الغالبة من المحاريث ظلت مع ذلك تصنع من الخشب (١٣٠٠) . ولم يكن يعرف التسميد إلا أصقاع قليلة ، وقلما كانت عجلات العربات تطوق بإطار من حديد . وكانت تربية الماشية من الأعمال الشاقة لطول فترات الجفاف ؛ ولكن القرن الثالث عشر شهد التجارب الأولى فى تهجين السلالات وأقلمتها . ولم تتقدم صناعة مستخرجات الألبان ، فلم تكن البقرة العادية فى القرن الثالث عشر تدرّ إلا قليلا من اللبن ، وقلما كان يصل إلى رطل واحد فى الأسبوع (مع أن البقرة الحسنة التربية تنتج الآن ما بين عشرة أرطال وثلاثين رطلا من الزبد فى الأسبوع الواحد) .

وبينما كان السادة فى أوربا يقاتل بعضهم بعضا ، كان فلاحوها يخوضون معارك أعظم شأناً ، وتتطلب من الشجاعة والبطولة ماسمو على المعارك الحربية ، ولا يتغنى بمديحهم إنسان ؛ تلك هى معارك الإنسان مع الطبيعة . فقد طغى البحر بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر خمساً وثلاثين مرة على الجسور ، وأغرق الأراضى الوطيئة ، وشق خلجاناً وأجواناً جديدة فى البقاع التى كانت من قبل أرضاً صلبة ، وأهلك مائة ألف من السكان فى مائة عام . ونقل الفلاحون أهل هذه الأقاليم فى خلال الفترة الممتدة من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر بإشراف أمرائهم ورؤساء أديرتهم جلاميد الصخر من اسكنديناوة وألمانيا

وشادوا بها « السور الذهبى » الذى أنشأ البلچيكيون والهولنديون وراءه دولتين من أعظم دول التاريخ كله حضارة ، وانتزعت بذلك آلاف الأفدنة من البحر ، ولم يستهل القرن الثالث عشر حتى كانت شبكة من القنوات تشق الأراضى الوطيئة . واحتفر الإيطاليون بين عامى ١١٧٩ و ١٢٥٧ القناة العظمى Naviglio Grande بين بحيرة مجيورى ونهر البو فأخصبوا بها ٨٦٫٤٨٥ فداناً ، وأحال المهاجرون القادمون من فلاندرز ، وفريزيا Frisia ، وسكسونيا ، وأرض الرين مناقع المورن Moore الواقعة بين نهر الإلب والأودر حقولا غنية . وقطعت غابات فرنسا الزائدة على الحاجة شيئاً فشيئاً وحلت مكانها الضياع التى ظلت تطعم فرنسا خلال الاضطراب السياسى الذى دام قروناً طوالا . ولعل هذه البطولة الجماعية التى بذلت فى تقطيع الغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وإرواء الأرض وزراعتها ، لا الانتصارات الحربية أو التجارية ، هى العامل الأساسى الذى أدى آخر الأمر إلى انتصار الحضارة الأوربية فى الأعوام السبعمائة الأخيرة .

الفصل الثامن

حرب الطبقات

لم يكن فى أوربا الغربية فى بداية العصور الوسطى إلا طبقتان : طبقة الألمان الغالبين وطبقة الأهلين المغلوبين . وكانت الكثرة الغالبة من الأشراف الذين وجدوا فيما بعد فى انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وشمالى إيطاليا من أبناء الفاتحين ، وظلوا يعتزون بهذه العلاقة العنصرية حتى فى أثناء حروبهم . وكانت الطبقات فى القرن الحادى عشر ثلاثا : هى الأشراف الذين يحاربون ، ورجال الدين الذين يصلون ، والفلاحون الذين يشتغلون . وأصبح هذا التقسيم تقليداً ثابتاً إلى حد ظن الناس معه أنه منزل من عند الله . وكان معظم الفلاحين ، كما كان معظم النبلاء ، يرون من واجب الإنسان أن يبقى فى الطبقة التى ولد فيها قانعاً بها البقاء صابراً عليه .

وأضافت الثورة الاقتصادية التى قامت فى القرن الثانى عشر طبقة جديدة إلى هذه الطبقات الثلاث — أهل المدن أو الطبقة الوسطى العاملة — وقوامها الخبازون والتجار ، ورؤساء أرباب الحرف من أهل المدن ؛ ولم تكن هذه الطبقة قد ضمنت وقتئذ أرباب المهن ، وكانت تسمى فى فرنسا الطبقة الثالثة . وقد سيطرت هذه الطبقة على الشئون البلدية ، واستطاعت أن تصل إلى مقاعد البرلمان الإنجليزى ، والديت Diet الألمانى ، والكورتز Cortes الأسبانى ، وإلى الجمعية العامة States General للطبقات وهى مجلس فرنسا القومى النيابى الذى لم يجتمع إلا نادراً ؛ ولكن هذه الطبقة الجديدة قلما كان لهـا أثر فى السياسة القومية قبل القرن الثامن عشر ، فقد ظل الأشراف يحكمون الدولة ويصرفون شئونها الإدارية ، وإن أصبحوا فى ذلك الوقت أقل من غيرهم سلطاناً فى المدن ؛ ذلك

أنهم كانوا يعيشون فى الريف (إلا فى إيطاليا) ، ويحتقرون سكان المدن ، ويخرجون من طبقتهم كل من تزوج من أفراد الطبقة الوسطى ، ولا يشكون فى أن حكم الأشراف لا بديل منه ، إلا حكم رجال الأعمال الأثرياء ، أو رجال الدين أصحاب الأساطير ، أو رجال الحرب الطغاة .

وكان التجار الأغنياء يبرمون من غطرسة الأشراف ، ويحتقرون ويستغلون طبقة الصناع ، ويقيمون فى بيوت مزخرفة ، ويبتاعون الأثاث الجميل ، ويتغذون بالأطعمة المجلوبة من خارج البلاد ، ويلبسون الثياب الغالية . وكانت نساؤهم يغطين أجسامهن الكبيرة بالحرير والفراء والمخمل والجواهر ؛ وكان مما آلم چين النافارية Jenne of Navarre ملكة فرنسا وحز فى نفسها أن وجدت ستمائة من نساء الطبقة الثالثة فى بروچ قد خرجن لاستقبالها فى ثياب لا تقل فخامة عن ثيابها هى . وشكا الأشراف من هذا وأخذوا يطالبون بأن تسن القوانين لوقف تيار هذا التظاهر الوقح ؛ وسنت من حين إلى حين قوانين لهذا الغرض ، ولكن الملوك كانوا فى حاجة إلى تأييد هذه الطبقة وإلى أموالها ، ولهذا لم تنفذ هذه القوانين إلا فى أوقات قليلة متفرقة .

وأفادت الطبقة الجديدة المالكة للعقار فى المدن فائدة كبيرة من زيادة عامرها ، ويسر لها التعطل الناشئ من هذه الزيادة السيطرة على طبقة العمال اليدويين . ذلك أن صعاليك المدن من الخدم ، وتلاميذ الصناعة ، وعمال المياومة لم يكن لهم إلا حظ قليل من التربية ، ولم يكن لهم شيء من القوة السياسية ، وكانوا يعيشون فى درجة من الفاقة أشد فى بعض الأحيان مما كان يعانيه أرقاء الأرض . فقد كان أجر عامل المياومة فى إنجلترا فى القرن الثالث عشر نحو بنسين اثنين فى اليوم — وتعادل القيمة الشرائية لهذا الأجر حوالى دولارين من نقد الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٤٨ ؛ وكان النجار يتقاضى أربعة بنسات وثمن بنس فى اليوم (١٢ر٤ دولارات) والبناء ٣$\frac{1}{8}$ دولارات ، والمهندس المعمارى اثنى عشر بنسا

يضاف إليها بدل انتقال وهبات فى بعض الأحيان[١١٩] . لكن الأثمان كانت منخفضة بهذه النسبة عينها : فقد كان الرطل من لحم البقر يباع فى إنجلترا بفارذنج ٢١/٢ من الدولار) ؛ وكانت الدجاجة تباع ببنس واحد (٨٤/٢ من الدولار) ، وكان ثمن الكوارتر(*) من القمح خمسة شلنات وتسعة شلنات ونصف بنس (٥٧،٩٠ دولاراً)[١٢٠] . وكان العامل يبدأ عمله فى مطلع الفجر وينتهى منه فى غسق الليل — إلا فى مساء السبت أو أيام الأعياد فكان ينتهى قبل ذلك . وكان فى السنة ما يقرب من ثلاثين يوما من أيام الأعياد ، لكن الأيام التى كان يستريح فيها العامل من الكدح فى إنجلترا لم تكن تزيد على ستة . وكانت ساعات العمل تزيد قليلا على مثيلاتها فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر أو التاسع عشر ، ولم تكن الأجور الحقيقية(**) أسوأ منها فى تلك الفترة ، بل إن بعضهم ليقول إنها كانت أعلى منها[١٢١] .

وتطور النزاع بين الطبقات فى أواخر القرن الثالث عشر فأصبح حرباً مسلحة بينها ؛ فكان كل جيل يشهد ثورة يقوم بها الفلاحون وبخاصة فى فرنسا ؛ ففى عام ١٢٥١ ثار الفلاحون فى فرنسا وفلاندرز على من كانوا يستبدون بهم من الملاك سواء كانوا من رجال الدين أو الدنيا . وأطلق هؤلاء على أنفسهم اسم الرعاة Pastoureux وشنوا حرباً ثورية شبيهة بالحروب الصليبية بقيادة واعظ غير مرخص معروف بلقب « سيد بلاد المجر » . وزحفوا من فلاندرز واخترقوا أمين إلى باريس ، وانضم إليهم فى طريقهم المتذمرون من الفلاحين وصعاليك المدن حتى بلغ عددهم مائة ألف رجل أو يزيدون ؛ وكانوا يحملون أعلاماً دينية ، وينادون بولائهم للويس التاسع ، وكان وقتئذ سجيناً عند المسلمين فى مصر ؛ ولكنهم كانوا مسلحين بالهراوات ، والخناجر ، والفؤوس ، والحراب ، والسيوف

(*) الكوارتر مكيال يعادل ٧،٩١٨ لتر . (المترجم)

(**) يقصد بالأجور الحقيقية قيمتها الشرائية . (المترجم)

فكانوا بذلك جمعاً خطراً يخشى بأسه . وكانوا يندون بفساد الحكم ، واستبداد الأغنياء بالفقراء ، ونفاق القساوسة والرهبان وشرههم ؛ وكان العامة يهتفون لهم حين يسمعون منهم هذه الأقوال . وانتحلوا لأنفسهم حق الوعظ الديني ، وأخذوا يغفرون للناس ذنوبهم ، ويعقدون عقود الزواج ، وبلغ من أمرهم أن ذبحوا بعض من عارضوهم من القساوسة . ولما وصلوا فى زحفهم إلى أورليان ذبحوا فيها عشرات من رجال الدين وطلبة الجامعة ، ولكن رجال الشرطة تغلبوا عليهم فى تلك المدينة وفى بوردو ، فقبض على زعمائهم وأعدموا ، ثم صيد الباثسون الباقون أحياء كما تصاد الكلاب فى هذا الزحف العديم النفع ، وشتتوا تشتيتاً أدى بهم إلى ضروب من البؤس مختلفة ؛ وفرّ بعضهم إلى انجلترا ، وقاموا فيها بفتنة صغرى أثارها الفلاحون قلمت أظفارها هى أيضاً .

وثارت نقابات الحرف فى المدن الصناعية الفرنسية فتكرر إضرابها عن العمل وقيامها بثورات مسلحة على احتكار طبقة التجار السياسى والاقتصادى ، وتحكمها فيهم . ففى بوفيه هاجم ١٥٠٠ من الغوغاء عمدة المدينة وبعض رجال المصارف وأساءوا معاملتهم (١٢٣٣) . وتمرد عمال النسيج فى رون على تجار الأقمشة وقتلوا عمدة المدينة حين تدخل فى النزاع (١٢٨١) ؛ وفى باريس حل الملك فيليب الجميل اتحادات العمال بحجة أنها تدبر الثورة (١٢٩٥ ، ١٣٠٧) ؛ غير أن نقابات الحرف الطائفية استطاعت مع ذلك أن تكسب حق الاشتراك فى الجمعيات البلدية وفى الوظائف العامة فى مدينة مرسيليا (١٢١٣) ، وأفنيون وآرل Arles (١٢٢٥) ، وأمين ، ومنبلييه ، ونيمز Nimes . . . وكان أحد رجال الدين ينحاز أحيانا إلى جانب الثائرين ، ويمدهم بالعبارات التى تلوكها ألسنتهم . ومن ذلك ما قاله أحد أساقفة القرن الثالث عشر : « كل الغنى مصدره السرقة ، وكل غنى لص أو وارث لص »[١٢٣] . وقامت فتن من هذا النوع اضطربت بها مدن فلاندرز ، فثار النحاسون فى ديننان Dinant عام ١٢٥٥ ، والنساجون فى تورناى عام ١٢٨١ ،

وفى غنت عام ١٢٧٤ ، وفى هينولت Hinault عام ١٢٩٢ ، على الرغم من أن الإعدام أو النفى كان هو العقوبة التى يحكم بها على زعماء حركة الإضراب . وقام عمال إيبر Ypres ، ودويه ، وغنت ، وليل ، وبروج ، بفتنة جامعة عام ١٣٠٢ ، وهزموا جيشاً فرنسياً عند كورتريه ، وحصلوا على حق قبول ممثليهم فى مجالس الحكومات البلدية ووظائفها ، وألغوا القوانين الاستبدادية التى كانت ألجركية التجار تضايق بها أرباب الحرف . ولما أن نال النساجون شيئاً من السلطة إلى حين ، حاولوا أن يحددوا أجور القصارين — بل أن ينقصوها — فانحاز هؤلاء إلى جانب التجار الأغنياء[١٢٤] .

وسيطرت نقابات التجار الطائفية على لندن فى عام ١١٩١ ، وسرعان ما عرضوا بعد ذلك على الملك يوحنا أن يمدوه بقدر من المال فى كل عام ؛ إذا ما ألغى نقابات النساجين ، ووافق الملك على هذا العرض (١٢٠٠)[١٢٥] . وفى عام ١١٩٤ قام رجل يدعى وليم فتزوبرت Fitzobert أو ذو اللحية الطويلة ، وأخذ يخطب فى الفقراء من أهل لندن منادياً بضرورة الثورة ، وأصغى آلاف من الناس إلى ندائه هذا ، وحاول اثنان من أثرياء المدن أن يقتلوه ، ففر منهم إلى إحدى الكنائس ، ولكنه أخرج منها بعد أن سلط عليه الدخان ، وانتحر بأن بقر بطنه بطريقة لا تكاد تفترق فى شىء عن الطريقة اليابانية . وعده أتباعه من القديسين الشهداء وعبدوه ، وقدسوا التراب الذى جرى عليه دمه ، واحتفظوا به[١٢٦] . وإن حب الناس لربن هود الذى يسرق أموال الأشراف ورجال الدين ولكنه يشفق على الفقراء ، وانتشار قصته ، ليوحيان إلينا بما كان عليه شعور الطبقات بعضها نحو بعض فى بريطانيا خلال القرن الثانى عشر .

وكان أشد المنازعات إثارة للأحقاد ما قام منها فى إيطاليا . فقد حدث فى أول الأمر أن انضم العمال إلى نقابات التجار الطائفية وقاموا معاً بسلسلة من الاضطرابات الدموية العنيفة الموجهة ضد الأشراف ؛ وتم النصر للمتحالفين فى هذا

الكفاح قبل أن يختتم القرن الثالث عشر ؛ واشترك عمال الصناعات فى حكم فلورنس إلى حين ، غير أن كبار التجار ورجال المشروعات سرعان ما أصبحت لهم السيطرة فى مجلس المدينة ، ففرضوا على الموظفين نظما استبدادية متعسفة ، أدت فى القرن الرابع عشر إلى دخول النزاع فى مرحلته الثانية — مرحلة الحروب المتقطعة المتباعدة بين رجال الصناعة الأغنياء وعمال المصانع . وكانت هذه المشاهد — مشاهد النزاع الداخلى — هى التى قام فيها القديس فرانسس ينادى بإنجيل الفقر ، ويذكر الأغنياء الأشرار بأن المسيح لم يكن له قط ملكا خاصاً (١٢٧) .

واضمحلت الحكومات المحلية كما اضمحلت النقابات الطائفية فى القرن الرابع عشر بسبب اتساع نطاق اقتصاد البلديات وتحوله إلى اقتصاد قومى وأسواق وفنت قواعدهما واحتكارهما حجر عثرة فى سبيل تقدم الاختراع ، والصناعة ، والتجارة . وكان من أسباب اضمحلالها فوق ذلك ما كان فيها من منازعات داخلية أشاعت فيها الفوضى ، واستغلال قاس شديد الوطأة للريف المحيط بها ، ووطنيتها الضيقة المقصورة على حدود المدينة ، وسياستها ، وعملتها المضطربة غير المستقرة ، وحروبها التافهة الحقيرة بعضها على بعض فى فلاندرز وإيطاليا ، وعجزها عن أن تنتظم فى اتحاد يشمل عدة مدائن ذات حكم ذاتى ، كان يمكن أن يبقى بعد أن قوى سلطان الملوك . وليس أدل على ضعف هذه الحكومات المحلية من أن عدداً منها فى فرنسا التمس من الملك فى عام ١٣٠٠ أن يتولى هو حكمها .

ومع هذا كله فإن الثورة الاقتصادية التى قامت فى القرن الثالث عشر هى التى خلقت أوربا الحديثة ، فهى التى قضت آخر الأمر على الإقطاع الذى أدى مهمة الحماية الزراعية والتنظيم الزراعى ، وأصبح حجر عثرة فى سبيل اتساع نطاق المشروعات الاقتصادية . وهى التى حولت ثروة الإقطاع الجامدة إلى موارد سائلة متداولة يستخدمها الاقتصاد العالمى . وهى التى أمدت الأعمال الصناعية والتجارية بالآلات اللازمة لتقدمها ، وما نشأ عن هذا التقدم من زيادة كبيرة فى سلطان

الرجل الأوربى ، ووسائل راحته ، وفى معلوماته . وبفضلها عم أوربا رخاء استطاعت به أن تبنى فى قرنين من الزمان مائة كنيسة كبرى تتطلب كل واحدة منها وفرة عجيبة من المهارات والأموال . وكان ما تنتجه للأسواق المطردة الاتساع هو الذى هيأ السبيل للنظم الاقتصادية القومية التى قامت عليها الدول الحديثة ، ولعل حرب الطبقات نفسها التى أطلقتها الثورة الاقتصادية من عقالها كانت هى الأخرى حافزاً إضافياً لعقول الناس ونشاطهم . ولما هدأت عاصفة الانتقال كان صرح أوربا الاقتصادى والسياسى قد تبدل ، وكان تيار الصناعة والتجارة الجارف قد اكتسح العقبات المتأصلة من طريق التطور البشرى ، ودفع الناس إلى الأمام من مجد الكنائس الكبرى المشتت إلى مرجل النهضة الشامل .

الباب الخامس والعشرون

أوربا تفيــق من رقدتها

١٠٩٥ – ١٣٠٠

الفصل الأول

بيزنطيــة

اختتم ألكسيوس الأول كمنينوس Alexius I Comnenus حكمه الطويل (١٠٨١ – ١١١٨) على أثر مؤامرة من طراز المؤامرات التى اختصت بها بيزنطية ، وذلك بعد أن قاد سفينة الإمبراطورية بنجاح فى حروب الترك والنورمان ، وفى الحرب الصليبية الأولى . وكانت ابنته الكبرى أنا كمنينا Anna Comnena مضرب المثــل فى العلم ، كما كانت ملمة بخلاصة الفلسفة ، وكانت شاعرة موهوبة ، وسياسية ذات دهاء ، ومؤرخة مهذبة تميل فى كتابتها إلى الكذب والاختلاق . ولما خطبت إلى ابن الإمبراطور ميخائيل السابع حسبت أنها بحكم مولدها وبفضل جمالها ومواهبها الذهنية قد اختارتها الأقدار للتربع على عرش الإمبراطورية ؛ ولم تكن تغفر قط لأخيها چون John أنه ولد وارث العرش ، فدبرت مؤامرة لاغتياله ، ولكن تدبيرها افتضح وعفى عنها ، وآوت إلى أحد الأديرة ، وكتبت سيرة أبيها فى قصة نثرية تدعى ألكسياد Alexiad . وأدهش چون كمنينوس (١١١٨ – ١١٤٣) أوربا بالتمسك بالفضائل الشخصية ، وبكفايته الإدارية ، وبانتصاره فى حروبه ضد أعدائه من الوثنيين والمسيحيين والمسلمين ، وخيل إلى الناس حيناً من الدهر أنه سيعيد الدولة إلى ما كانت عليه من مجد وسعة رقعة ، ولكن خدشا من سهم مسموم فى كنانته قضى على حياته وأحلامه .

وكان ابنه مانويل الأول Manuel I (١١٤٣ — ١١٨٠) إله الحرب مجسما ، وهب نفسه للحرب ومتعتها ؛ يسير على الدوام فى طليعة جنوده ؛ ويرحب بالمبارزة الفردية ، وقد انتصر فى كل واقعة خاض غمارها إلا الأخيرة من هذه المواقع . وكان فى ميدان القتال رواقيا فى مبادئه ، أما فى قصره فكان أبيقوريا ، مترفاً فى طعامه ولباسه ، سعيداً فى عشقه الحرام لابنة أخيه . وعادت الآداب والعلوم إلى سابق ازدهارها بفضل ترفه ومناصرته ؛ وكانت سيدات البلاط يشجعن المؤلفين ، وقد نزلن هن أيضا من عليائهن ليقرضن الشعر ؛ وجمع زناراس Zanaras فى أيامه كتابه الضخم الذى أسماه *موجز التاريخ* . وشاد مانويل لنفسه قصراً جـديداً هو قصر البلاشرنى Blachernae على شاطئ البحر عند طرف القرن الذهبى ؛ وكان أودم اللويلى Odom of Deuil يظنه « أجمل بناء فى العالم ، فقد كانت عمده وجدرانه مغطاة إلى نصفها بالذهب ، ومرصعة بالجواهر التى كانت تتلألأ حتى فى ظلام الليل »(١) . لقد كانت القسطنطينية فى القرن الثانى عشر صورة أخرى من النهضة الإيطالية .

وتطلبت فخامة العاصمة ، والحروب الكثيرة التى شنتها الإمبراطورية العجوز لتصد عنها الموت ، تطلبت هذه وتلك ضرائب فادحة ألقاها المترفون على المنتجين لضرورات الحياة . وكانت النتيجة إن زاد فقر الفلاحين ، واستسلموا للاسترقاق الأرضى ، وأن سكن عمال المدن اليدويون فى مساكن قذرة كثيرة الضجيج ، يُرتكب فى ظلماتها وأقذارها ما لا يحصى من الجرائم .

وكانت حركات ثورية شبه شيوعية تضطرم نارها فى قلوب صعاليك المدن(٢) ، ولكن هذه الحركات قد عفا ذكرها لكثرة ما حدث من أمثالها على مر الأيام . وكان استيلاء الصليبيين على فلسطين قد فتح ثغور الشام لتجارة اللاتين ، وخسرت القسطنطينية ثلث تجارتها البحرية التى استولت عليها المدن الناهضة فى إيطاليا . وكان من أعظم الآمال التى تداعب قلوب المسيحيين والمسلمين

على السواء أن يستولوا على ما فيها من الكنوز التى أنفقت فى جمعها ألف عام ؛ وحدث أن زار المدينة أحد المسلمين الصالحين فى أيام مانويل الزاهرة فدعا الله أن يمن على المسلمين بفضله وكرمه فيجعل القسطنطينية عاصمة بلاد الإسلام[٣] . وحتى البندقية نفسها ربيبة بيزنطية دعت فرسان أوربا لأن ينضموا إليها فى انتهاب ملكة البسفور .

ولم تعش المملكة اللاتينية التى أقامتها الحملة الصليبية الرابعة فى القسطنطينية إلا سبعاً وخمسين سنة (١٢٠٤ — ١٢٦١) ، ذلك أن المملكة الجديدة لم تقو على البقاء إلا ريثما كانت بيزنطية المتحفزة للثأر منها تعوزها الوحدة وقوة السلاح . أما هى فلم تكن لها أصول تقوم عليها من عنصرية الشعب أو دينه أو عاداته ، وكانت تكرهها الكنيسة اليونانية التى خضعت مكرهة لرومة ، ويضعضعها انقسامها إلى إمارات إقطاعية تدعى كل منها لنفسها السيادة الكاملة ، وتعوزها جميعاً التجربة التى لا غنى عنها لتنظيم اقتصادياتها الصناعية والتجارية ، وتهاجمها الجيوش البيزنطية من خارجها ، وتحرقها المؤامرات فى داخلها ، ولا تستطيع أن تستمد من سكانها المعادين لها ما تحتاجه من المال للدفاع العسكرى عن كيانها .

لكن الغزاة الفاتحين كان مصيرهم فى بلاد اليونان خيراً من مصيرهم فى القسطنطينية . ذلك أن الفرنجة ، والبنادقة ، وغيرهم من الأشراف الطليان عجلوا بتقسيم تلك البلاد التاريخية إلى أقسام إقطاعية ، وشادوا القصور الجميلة فوق التلال العالية تشرف على ما حولها من المواقع ، وشرعوا وأظهروا فى حكم السكان المتراخين المجدين حكما حازما جريئا . وحل مطارنة الكنيسة اللاتينية محل أساقفة المذهب الأرثوذكسى الذين نفوا من البلاد ، وأنشأ الرهبان القادمون من بلاد الغرب على التلال أديرة كانت من روائع الفن ومستودعاً لكنوزه . وقام رجل فخور من الفرنجة فلقب نفسه « دوق أثينة » ، وجاء شيكسپير فى غير منطق سليم وأخطأ خطأ يغتفر له ، ورجع به إلى الوراء ألفى عام ، وسماه ثيسيوس ، ولكن الروح

الحربية التى أقامت هذه الممالك الصغيرة كانت هى بعينها القاضية عليها لكثرة ما ثار بينها من المنازعات والأحقاد القاتلة ؛ فقد كانت الأحزاب المتنافسة يحارب بعضها بعضا على تلال المورة وسهول بوءوتيا حرباً طاحنة قضت عليها جميعا ؛ ولما أن غزت اليونان « الشركة القطلونية Catalian Company » الكبرى المؤلفة من جماعة المغامرين القادمين من قطلونيا (١٣١١) ذبحت زهرة فرسان الفرنجة فى المعركة التى دارت قرب نهر سفسوس Cephisus ، وأضحت المنهوكة القوى ألعوبة فى أيدى القراصنة الأسبان .

وبعد عامين من سقوط القسطنطينية أقام ثيودوز لسكاريس Theodoae Lescaris حمو ألكسيوس الثالث حكومة بيزنطية فى منفاه فى نيقية . ورحبت بحكمه جميع الأناضـــول بما فيها مدائن بورصة ، وفلدلفيا ، وأزمير ، وإفسوس الغنية ؛ وأفاءت إدارته الحازمة القديرة العادلة على هذه الأقاليم رخاء جديداً ، وبعثت فى الآداب اليونانية حياة جديدة ، وأحيت فى قلوب الوطنيين اليونان آمالا جديدة . وأنشأ ألكسيوس كمنينوس ابن مانويل فى شرق تلك البلاد وفى طربزون بالذات مملكة بيزنطية أخرى ، ونشأت مملكة ثالثة فى إپيروس برياسة ميخائيل أنجلوس ؛ وضم چون فتاتزيس John Vatatzes زوج ابنه لسكاريس وخليفته (١٢٢٢–١٢٥٤) جزءاً من إپيروس إلى مملكة نيقية ، واسترد سالونيك من الفرنجة (١٢٤٦) ، وكاد يستولى على القسطنطينية نفسها لولا أنه عاد إلى آسية الصغرى لأنه عرف أن البابا إنوسنت قد دعا المغول الزاحفين غربا إلى الإغارة على بلاده من جهة الشرق (١٢٤٨) . ورفض المغول مشروع البابا محتجين بتلك الحجة الساخرة وهى أنهم لا يريدون أن يعملوا على « إثارة الأحقاد بين المسيحيين بعضهم وبعض »(٤) . وكان حكم الملك چون الطويل الأمد من خير الأحكام فى التاريخ وأعظمها تشريفاً لصاحبها ، فقد استطاع أن يخفف الضرائب ، ويشجع الزراعة ، وينشئ المدارس ، ودور الكتب .

والكنائس ، والأديرة ، والمستشفيات وملاجئ لكبار السن والفقراء ، على الرغم من الحروب الكثيرة النفقات التى خاض غمارها ليعيد بها وحدة الإمبراطورية البيزنطية(٥) . وازدهرت الآداب والفنون فى عهده ، وأصبحت نيقية فى القرن الثالث عشر من أكثر مدن العالم ثروة وأعظمها جمالا .

وكان ابنه ثيودور لسكاريس الثانى (١٢٥٤ — ١٢٥٨) شغوفاً بالعلم معتل الجسم ، عالماً ومضطرب العقل ؛ مات بعد حكم قصير ، واغتصب العرش بعد موته ميخائيل پليولوجوس Michael Paleologus زعيم الأشراف المتذمرين (١٢٥٩ — ١٢٨٢) . وإذا جاز لنا أن نصدق المؤرخين قلنا إن ميخائيل كان متصفا بكل نقيصة — كان « أنانيا ، منافقاً . . . كذوباً بغريزته ، مغروراً ، قاسيا ، شرهاً »(٦) . ولكنه كان واسع الحيلة شديد الدهاء ، دبلوماسياً ، معقود لواء النصر ، استطاع بمعركة واحدة أن يثبت قدمه فى إپيروس ، كما استطاع بحلفه مع جنوى أن يفوز بمعونتها على البنادقة والفرنجة فى القسطنطينية ؛ وأمر قائده استراتيجوپولس Strategopulus أن يتظاهر بالهجوم على العاصمة من ناحية الغرب . وزحف استراتيجولس على المدينة ولم يكن معه أكثر من ألف رجل ، فلما وجد حاميتها خفيفة دخلها واستولى عليها دون عناء ، وفر الملك بلدوين الثانى هو وحاشيته ، وتبعه رجال الدين اللاتين الذين كانوا فى المدينة وقد استولى عليهم رعب كانوا خليقين به . وعبر ميخائيل البسفور وهو لا يكاد يصدق النبأ وتوج إمبراطوراً (١٢٦١) ، وهكذا بعثت الإمبراطورية البيزنطية من رقادها ، وكان الناس يظنونها قد قضت نحبها ، واستعادت الكنيسة اليونانية استقلالها ، وظلت الدولة البيزنطية الفاسدة قائمة تصرف شئونها قرنين آخرين احتفظت فيهما بالآداب القديمة ونقلتها إلى العالم الغربى ، وصدت رغم ضعفها جيوش المسلمين فى تلك الفترة من الزمان .

الفصل الثاني

الأرمن (١٠٦٠ - ١٣٠٠)

وحدث حوالى عام ١٠٨٠ أن غادرت أسر أرمنية كثيرة بلادها لعدم رضائها عن سيطرة السلاجقة عليها ، وعبرت جبال طوروس ، وأنشأت مملكة أرمينية الصغرى فى قليقية . وبينما كان الأتراك ، والكرد ، والمغول يحكمون أرمينية الحقيقية ، احتفظت الدولة باستقلالها مدى ثلاثة قرون ؛ واستطاع ليو الثانى Leo II فى حكمه الذى دام أربعة وثلاثين عاما (١١٨٥ ١٢١٩) أن يصد هجمات سلاطين حلب ودمشق ، ويستولى على إسوريا Isauria وينشئ عاصمة مملكته فى سيس Sis (وهى الآن فى تركيا) ، ويعقد حلفاً مع الصليبيين ، ويدخل الشرائع الأوربية فى بلاده ، ويشجع الصناعة والزراعة ، ويمنح تجار البندقية وجنوى عدداً من الامتيازات ، ويقيم الملاجئ للأيتام ، والمستشفيات للمرضى ، والمدارس لطلاب العلم . واستمتع رعاياه فى أيامه برخاء منقطع النظير ، وكسب بحق اسم ليو الأفخم ، وكان من أعظم ملوك العصور الوسطى حكمة وأكثرهم خيراً وصلاحا . ووجد صهره هثوم الأول HethumI (١٢٢٦ — ١٢٧٠) المسيحيين غير أهل لأن يعتمد عليهم ، فتحالف مع المغول ، وسره أن يطردوا السلاجقة من أرمينية (١٢٤٠) . فلما أن اعتنق المغول الإسلام حاربوا أرمينية الصغرى ودمروها تدميراً (١٣٠٣ ومابعدها) . وفتح المماليك المصريون أرمينية فى عام ١٣٣٥ ، وقسمت البلاد بعد الفتح بين سادة الإقطاع . وظل الأرمن خلال هذا الاضطراب يبدون ضروباً من المهارة الفنية فى العمارة ، وحذقاً عظيما فى النقش الدقيق ، يستمسكون بنوع من الكثلكة المستقلة عن سائر المذاهب ، استطاعوا به أن يصدروا كل المحاولات التى بذلتها القسطنطينية أو رومة للسيطرة على بلادهم .

الفصل الثالث

روسيا والمغول (١٠٥٤ - ١٣١٥)

كانت قبائل نصف همجية تسيطر فى القرن الحادى عشر على بلاد روسيا الجنوبية ، وهذه القبائل هى الكومان Cumans ، والبلغار ، والخزر Khazars ، والپلوڤتسى ، والپتزيناك Patzinaks . . . أما ما بقى من روسيا الأوربية فكان مقسما إلى أربع وستين إمارة - أهمها كيف Kiev ، وڤلهينيا Volhynia ، ونفجورود ، وسزداليا Suzdalia ، واسمولنسك Smolensk ، وريازان Ryazan ، وشرنيجوف Chernigov ، وپرياسلاڤل Pereyaslavl. وكانت معظم هذه الإمارات تعترف بسيادة كيف عليها ؛ ولما قربت منية يارسلاف Yaroslav أمير كيف الأكبر (١٠٥٤) وزع هذه الولايات بترتيب أهميتها بين أبنائه حسب سنهم ؛ فأعطى أكبرهم إمارة كيف ، ثم وضع نظاما دورياً فذاً يقضى بأنه إذا مات أمير ينتقل الباقون من الأمراء كل منهم إلى الولاية التى تلى ولايته فى الأهمية . وانقسمت طائفة من هذه الإمارات فى القرن الثالث عشر إلى عدد من الإقطاعيات وزعها الأمراء على أبنائهم ؛ ثم أصبحت هذه الإقطاعيات وراثية على مر الزمن ، فكانت أساساً للنظام الإقطاعى المعدل الذى تعاون فيما بعد هو وغارات المغول على إبقاء بلاد الروسيا بحالها التى كانت عليها فى العصور الوسطى بعد أن خرجت أوربا الغربية من هذه العصور . على أن بلاد الروسيا كان لها فى هذه الفترة صناعات يدوية نشيطة ، وتجارة أغنى مما أصبح لها فى كثير من القرون المتأخرة .

وكانت سلطة كل أمير وراثية فى العادة ، ولكنها كانت تحددها جمعية شعبية تسمى الڤيشى Veche ومجلس من أعليان البلاد يدعى بويارسكايا دوما

Boyarskaya duma . وتركت معظم الشئون الإدارية والقانونية فى أيدى رجال الدين ، وكادت معرفة القراءة والكتابة تقتصر على هؤلاء هم وعدد قليل من الأعيان ، والتجار ، والمرابين . وقد استعان هؤلاء بالنصوص أو النماذج البيزنطية ، فأنشأوا للروسيا آدابها ، وقوانينها ، ودينها ، وفنونها . وبفضل جهودهم هذبت وحددت الحقوق أو القوانين الروسية Russkaya Pravda التى وضعت أول مرة فى أيام يارسلاف ، وصيغت صياغة قانونية (حول ١١٦٠) . وجعلت للكنيسة الروسية الولاية النامة على شئون الدين ورجاله ، وشئون الزواج والأخلاق والوصايا ، وكان لها سلطان مطلق على الأرقاء وغيرهم من الموظفين الذين يعملون فى أملاكها الواسعة . وارتفعت بفضل جهودها منزلة العبيد فى الروسيا من الوجهة القانونية إلى حد ما ، ولكن تجارة الرقيق ظلت قائمة حتى بلغت ذروتها فى القرن الثانى عشر(٧) .

وشهد هذا القرن نفسه اضمحلال مملكة كيف وسقوطها ، فقد كان للفوضى الإقطاعية السائدة فى غرب أوربا ما يماثلها من الفوضى السائدة بين القبائل والأمراء ؛ وشبت بين عامى ١٠٥٤ ، ١٢٢٤ ثلاث وثمانون حرباً أهلية فى الرسيا ، وأغير عليها ست وأربعون مرة ، وشنت دول روسية ست عشرة حرباً على شعوب غير روسية ، وتنازع ٢٩٣ أميراً عرش أربع وستين إمارة(٨) . وحدثت فى عام ١١١٣ اضطرابات ثورية فى كيف كان سببها ما حل بالأهلين من فقر من جراء الحروب ، وارتفاع سعر الفائدة على الديون ، والاستغلال ، والتعطل . وهاجمت الجماهير الحانقة الثائرة بيوت رجال الأعمال والمرابين ونهبتها ، واحتلت دواوين الحكومة وبسطت سيادتها عليها لحظة من الزمان . واستدعت الجمعية البلدية مونوماخ Monomakh أمير بريا سلافل ليكون أمير كيف الأعظم ؛ وجاء الأمير وهو كاره ، وقام فيها بما قام به صولون فى أثينة عام ٥٩٤ ق . م ، فخفض سعر الفائدة على القروض ، وقيد بيع المدينين المفلسين أرقاء من تلقاء أنفسهم ، كما قيد سلطة أرباب الأعمال

على العمال والموظفين ؛ فاستطاع بفضل هذه الوسائل وأمثالها — التى لم يرض عنها الأغنياء ووصفوها بأنها بمثابة مصادرة لأموالهم ، وعابها الفقراء لأنها فى نظرهم غير كافية — أن ينجى المدينة من الثورة ويعيد تنظيم السلام فى ربوعها(٩) . وبذل جهوداً كبيرة للقضاء على نزاع الأمراء وحروبهم ، وتوحيد بلاد الروسيا من الوجهة السياسية . ولكن هذا العمل كان أكبر من أن يقوم به فى حكمه الذى لم يدم أكثر من اثنى عشر عاما .

وعاد النزاع بين الأمراء وبين الطبقات بعد موته إلى ما كان عليه من قبل . وفى هذه الأثناء كانت سيطرة القبائل الأجنبية سيطرة مستمرة على المجارى الدنيا لأنهار الدنيستر ، والدنيپر ، والدُّن ؛ وكان نمو التجارة الإيطالية فى القسطنطينية ، والبحر الأسود ، وموانى الشام ، قد حوّلا إلى خلجان البحر المتوسط كثيراً من التجارة التى كانت تنتقل قبل ذلك الوقت من بلاد الإسلام وبيزنطية إلى دويلات البحر البلطى مارة بأنهار الروسيا . ونقصت من جراء ذلك ثروة كيف وضعفت وسائلها المادية وروحها المعنوية ، وأخذ جيرانها الهمج منذ عام ١٠٩٦ يغيرون على ما وراءها من الأصقاع وما حولها من الضواحى ، ينهبون الأديرة ويبيعون من يأسرونهم من الفلاحين بيع الرقيق . وأضحت كيف مكاناً غير أمين ، فنقص سكانها ، وأدى هذا إلى نقص الأيدى العاملة فيها . وهاجم جيش أندرى بجوليوبسكى Andrey Bogolyubski كيف فى عام ١١٦٩ ، ونهبها وخربها تخريباً كاملا ، واسترق آلافاً من أهلها حتى كادت « أم المدائن الروسية » يعفو ذكرها من التاريخ مدى ثلاثة قرون . وأتم هذا الخراب الذى حل بكيف استيلاء البنادقة والفرنجة على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ ، وغارات المغول التى امتدت من عام ١٢٢٩ إلى عام ١٢٤٠ .

وانتقلت زعامة الروسيا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر من « الروس الصغار » أهل أكرنيا إلى « الروس الكبار » الأكثر منهم غلظة وأقدر منهم

على تحمل المشقة ، وهم أهل الإقليم المحيط بمسكو والممتد على ضفتى الفلجا الأعلى . وكانت مسكو قد أنشئت فى عام ١١٥٦ ، ولم تكن فى ذلك الوقت إلا قرية صغيرة تستخدمها سوزداليا Suzdalia (التى كانت تمتد فى الجهة الشمالية الشرقية من مسكو) مركزاً أماميا على حدودها على الطريق الذى يصل مدائن ڤلادمير Vladimir وسزدال Suzdal بكيف . وحارب أندرى بجوليوبسكى (١١٥٧ — ١١٧٤) ليجعل إمارة سوزداليا الجالس هو على عرشها صاحبة السيادة على الروسيا بأجمعها . ولكنه اغتيل وهو يقاتل ليخضع نفجورود لسلطانه كما أخضع كيف من قبل .

وكانت مدينة نفجورود واقعة فى الشمال الغربى من الروسيا على ضفتى نهر ڤلخوف Volkhav قرب مخرج هذا النهر من بحيرة إلمن Ilmen . وإذ كان نهر ڤلخوف يصب فى بحيرة لدوجا Ladoga فى الشمال ، وكانت أنهار أخرى تخرج من بحيرة إلمن متجهة نحو الجنوب والغرب وإلى البحر البلطى عن طريق بحيرة لدوجا ، فإن هذه المدينة لم تكن قريبة من الحدود قرباً يهدد أمنها ، ولا هى بعيدة عنها بعداً يضر بتجارتها ، ولهذا نشأت فيها تجارة داخلية وخارجية نشيطة ، وأضحت هى المركز الشرقى لتجارة مدن العصبة الهانسية . فكانت تتجر عن طريق نهر الدنيبر مع كيف وبيزنطية ، وعن طريق نهر الفلجا مع بلاد الإسلام . وكادت تحتكر تجارة الفراء الروسية لأن سلطانها كان يمتد من پسكوف Pskov فى الغرب إلى المحيط الجامد الشمالى ، ويكاد يصل إلى جبال أورال فى الشرق . وسيطر تجار نفجورود الأقوياء الأشراف بعد عام ١١٩٦ على الجمعية التى كانت تحكم الإمارة عن طريق أميرها المنتخب . فقد كانت هذه المدينة — الدولة جمهورية حرة تطلق على نفسها اسم « سيدى نفجورود الأكبر » . فإذا لم ينل أمير لها رضاء أهلها فإن « سكانها يقدمون له واجب الاحترام ويرشدونه إلى طريق الخروج » من المدينة ؛ فإذا قاومهم زجوه فى السجن ؛ ولما أراد

اسفياتوبولك Sviatopolk أمير كيف الأكبر أن ينصب ابنه أميراً عليهم رغم أنوفهم (١٠١٥) قال له أهل نفجورود : « ابعثه إلى هنا إن كان له رأس ليس هو فى حاجة إليه »(١٠) . ولكن الجمهورية لم تكن دمقراطية ، لأن العمال وصغار التجار لم يكن لهم صوت فى حكومتها ، ولم يكن فى وسعهم أن يؤثروا فى سياستها إلا بالعصيان المتكرر .

وبلغت نفجورود ذروة مجدها فى عهد الأمير ألكسندر نفسكى Alexander Nevsky (١٢٣٨ — ١٢٦٣) فقد أراد البابا جريجورى التاسع أن يخرج الروسيا من المذهب المسيحى اليونانى إلى المذهب اللاتينى ، ودعا إلى حرب صليبية على نفجورود ؛ وظهر جيش سويدى على نهر النيفا ، فهزمه ألكسندر بالقرب من مدينة لينغراد الحالية (١٢٤٠) واشتق لقبه من اسم هذا النهر . وكان نصره هذا أعظم من أن يبقيه رئيساً لجمهورية ، فنفى بسببه من المدينة ، فلما أن تولى الألمان الحرب الصليبية ، واستولوا على بسكوف وتقدموا حتى أصبحوا على بعد سبعة عشر ميلا من نفجورود ، توسلت الجمعية المرتاعة إلى ألكسندر أن يعود ، فعاد ، واسترد المدينة ، وهزم فرسان ليفونيا Livonie على جليد بحيرة پيپوس Peipus (١٢٤٢) وقضى سنيه الأخيرة ذليلا مهينا يتزعم أهل بلده تحت نير المغول .

ذلك أن المغول دخلوا الروسيا بقوات لا حصر لها . جاءوا من التركستان ، واخترقوا جبال القفقاس ، وأبادوا عندها جيشا من الكرج ، ونهبوا بلاد القرم : واستنجد القومان ، الذين ظلوا عدة قرون يحاربون كيف ، بالروس وقالوا لهم : « لقد امتلكوا اليوم ديارنا ، وسيملكون دياركم غداً »(١١) وعرف بعض الأمراء الروس صدق قولهم وقادوا عدة فرق يريدون أن ينضموا بها للدفاع عن القومان . وبعث المغول رسلا منهم يعرضون على الروس أن يحالفوهم ضد القومان ، فقتل الروس الرسل ودارت معركة على شاطئ نهر كلكا Kalka بالقرب من بحر آزاق Azov ، هزم فيها المغول جيش الروس والقومان ، وأسروا عدداً من قواد الروس

بالخيانة ، وكبلوهم بالأغلال ، وأقاموا فوقهم طواراً جلس عليه كبار رجال المغول ليطعموا وليمة النصر ، بينا كان الأسرى الأشراف يموتون اختناقا (١٢٢٣) .

ثم ارتد المغول إلى منغوليا ، وصرفوا جهودهم فى فتح الصين ، وعاد الأمراء الروس إلى الحرب فيما بينهم ، ولكن المغول عادوا فى عام ١٢٣٧ بقيادة باتو Batu ابن ابن أخى جنكيز خان ؛ وكانت عدتهم ٥٠٠ر٠٠٠ كلهم تقريباً من الفرسان ؛ وكان الطريق الذى جاءوا منه حول الطرف الشمالى من بحر الخزر ، وأعملوا السيف فى رقاب البلغار الضاربين على ضفتى نهر الفجا ، وخربوا مدينة بلغار Bolgar عاصمتهم : وبعث باتو برسالة إلى أمير ريازان يقول فيها : إن كنت تبغى السلم فأعطنا عشر ما عندك » ، فرد عليه بقوله : « إن فى وسعك أن تأخذ كل ما عندنا بعد أن نموت »[١٢] ، واستنجدت ريازان بالإمارات الروسية ، فأبت أن تنجدها ؛ فقاتلت وحدها قتال الأبطال ، وخسرت جميع ما تملكه ، فقد نهب المغول الذين لا يغلبون جميع مدن ريازان ، ودكوا أبنيتها ، واجتاحوا سورذاليا ، وبددوا جيشها ، وحرقوا مسكو ، وحاصروا ڤلدمير ؛ وقص النبلاء شعرهم واختبأوا فى الكنائس ولبسوا مسوح الرهبان ، فلما أحرقت الكنيسة والمدينة كلها قتلوا عن آخرهم ؛ ودمرت النيران سزوال ، ورستوف ، وعدداً كبيراً من قرى الإمارة (١٢٣٨) . وزحف المغول على نفجورود ، فلما وقفت فى سبيلهم الغابات الكثيفة ، والأنهار الغزيرة المياه ، خربوا شرنجوف Chernigov وبريسلاڤل ، وبلغوا فى زحفهم مدينة كيف وبعثوا برسلهم يطلبون إلى المدينة الاستسلام ؛ ولما قتل أهل كيف الرسل ، عبر المغول نهر الدنيبر ، وتغلبوا عليها بالقوة بعد مقاومة ضعيفة ، وخربوا المدينة ، وقتلوا آلافا مؤلفة من أهلها ؛ ولما أن رأى چيوڤنى ده پيانو كرپينى هذه المدينة بعد ست سنين من ذلك الوقت ، وصفها بأنها بلدة تحتوى على مائتى كوخ ، وأن الأرض التى حولها كانت تتناثر فيها الجماجم . ولم تكن الطبقات الوسطى والعليا

تجرؤ فى يوم من الأيام على أن تسلح الفلاحين أو العامة من سكان المدينة ، فلما أن جاء المغول كان الأهلون ضعافاً عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم . فأخذ الفاتحون يقتلونهم أو يسترقونهم كما يحلولهم .

وتقدم المغول إلى وسط أوربا يَغلبون ويُغلَبون ، ثم عادوا أدراجهم مخترقين الروسيا يعيثون فيها فسادا ، وأقاموا على أحد روافد الفلجا مدينة سراى Sarai واتخذوها عاصمة لعشائر مستقلة تعرف باسم الحشد الذهبى . وظل باتو وخلفاؤه يسيطرون على الجزء الأكبر من الروسيا مدة مائتى عام وأربعين عاما من ذلك الوقت ؛ وسمح للأمراء الروس بأن يحتفظوا بأرضهم على شرط أن يؤدوا عنها جزية سنوية لخان الحشد الذهبى ، أو للخان الأعظم لقرقورم المغولية ، وأن يقوموا من حين إلى حين بزيارة لهذا أو ذاك يقدمون لها فروض الولاء ، ويقطعون فيها مسافات طويلة . وكان الأمراء يجمعون هذا الخراج ويفرضونه على الأهلين بالمساواة القاسية ، يدفع الغنى منه بقدر ما يدفع الفقير ، ومن عجز عن الدفع بيع بيع الرقيق . واستسلم الأمراء وخضعوا لسيادة المغول لأنها حمتهم من الثورات الاجتماعية ، وانضموا إلى المغول فى هجومهم على الشعوب الأخرى ومن بينها الإمارات الروسية نفسها . وتزوج كثيرون من الروس مغوليات ، وار بما دخلت بعض ملامح الوجوه ، والأخلاق المغولية ، فى السلالات الروسية[١٣] . وأخذ بعض الروس عن المغول أساليبهم فى التحدث والملبس . ولما أصبحت الروسيا تابعة لدولة أسيوية انفصلت إلى حد كبير عن الحضارة الأوربية ، وتعاون استبداد الخان مع استبداد أباطرة بيزنطية على إيجاد « حاكم جميع الروس المطلق » فى الدولة المسكوفية المتأخرة .

وعرف زعماء المغول أنهم لايستطيعون إخضاع الروسيا بالقوة وحدها ،

فاصطلحوا مع الكنيسة الروسية ، وحموا لها ممتلكاتها ورجالها ، وأعفوا هذه الممتلكات وأولئك الرجال من الضرائب ، وجعلوا الإعدام عقابا لمن ينتهك حرماتها . وقابلت الكنيسة هذا الجميل بمثله — أو لعلها أرغمت على رده إرغاماً — فأوصت الروس بالخضوع للسادة المغول ، ودعت الله جهرة أن يهبهم السلامة(١٤) . وأراد آلاف من الروس أن يضمنوا لأنفسهم الأمن والسلام وسط عواصف الرعب فترهبوا ؛ وتوالت الهبات على المؤسسات الدينية ، حتى أثرت الكنيسة الروسية ثراء فاحشاً وسط الفقر السائد فى جميع البلاد . ونمت فى الشعوب روح الخضوع والاستسلام ، ومهدت السبيل إلى الاستبداد الذى سلط عليها قروناً طوالا . لكن الروسيا ظلت مع ذلك هى الروسيا وإن حنت رأسها لعاصفة المغول الهوجاء ، ووقفت سداً منيعاً تصد عن أوربا سيل الغزاة الأسيويين . فقد تحطمت قوة التيار البشرى الجارف على صخرة الأجناس الصقلبية — الروس ، والبوهيميين ، والموراڤيين ؛ والپولنديين — والمجرية ؛ وقضت أوربا الغربية فترة من الزمن ترتجف من الهول ولكنها لم تكد يمسها أذى . ولعل بقية أوربا استطاعت أن تسير فى طريقها نحو الحرية السياسة والعقلية ، ونحو الثروة ، والنعيم ، والفن ، لأن الروسيا ظلت مائتى عام مغلوبة ، ذليلة ، راكدة ، فقيرة .

الفصل الرابع

بحر البلقان المضطرب

يرى الناظر إلى بلاد البلقان عن بعد أنها خليط مضطرب من العواصف السياسية والدسائس ، ومن الخداع الجذاب والمهارة التجارية ، والحروب والاغتيال ، والمذابح المدمرة . أما البلغارى ، والرومانى ، والمجرى ، واليوغسلافى فيرى كل منهم أن أمته هى ثمرة ألف عام من الكفاح للظفر باستقلالها من الإمبراطوريات المحيطة بها ، والاحتفاظ بثقافة فذة باهرة ، والتعبير عن خصائصها القومية فى البناء ، واللباس ، والشعر ، والموسيقى والغناء دون أن يعوقها عن ذلك عائق .

وظلت بلغاريا ، التى كانت من قبل دولة قوية فى عهد كروم Krum وسميون Simeon ، ثمانية وستين عاما ومائة عام خاضعة لبيزنطية ، ووجد تذمر البلغار والفلاخ Vlach أهل ولاشيا Wallachia من يعبر عنه فى شخص أخوين هما يوحنا وبطرس آسن Asen كان لهما من الدهاء والشجاعة ما تتطلبه ظروف ذلك الوقت وما تحتاجه البلاد . ودعا الأخوان أهل ترنوفا Trnova إلى كنيسة القديس دمتريوس وأقنعاهم بأن هذا القديس غادر مدينة سلانيك اليونانية ليتخذ ترنوفا موطنا له ، وأن فى وسع بلغاريا إذا انضوت تحت لوائه أن تستعيد حريتها . وأفلحا فى بلوغ هدفهما ، وقسما الدولة الجديدة تقسيما وديا بينهما ، فاتخذ يوحنا ترنوفا مقراً لحكمه واتخذ بطرس برسلاف Preslav . وكان أعظم ملك من نسلهما ، وفى تاريخ بلغاريا كله ، هو يوحنا آسن الثانى (١٢١٨-١٢٤١) ؛ ذلك أن هذا الملك لم يضم إلى ملكه تراقيا ، ومقدونية ، وإپيروس ، وألبانيا فحسب ، بل حكم هذه البلاد حكماً عادلا أحبه من أجله رعاياه من اليونان أنفسهم . وكسب

رضاء البابوات بإظهار الولاء لهم ، وبإغداق الأموال على الأديرة ؛ وشجع التجارة ، والآداب والفنون بمناصرتها وبما سنه لها من القوانين المستنيرة ، وجعل ترنوفا من أكثر مدائن أوربا جمالا ، ورفع منزلة بلغاريا فى الثقافة والحضارة إلى مصاف معظم الأمم الراقية فى تلك الأيام . لكن خلفاءه على العرش لم يرثوا منه حكمته ؛ وأشاعت غزوات المغول الاضطراب فى الدولة وأضعفتها (١٢٩٢ - ١٢٩٥) ، وأدى ذلك إلى خضوعها فى القرن الرابع عشر إلى الصرب أولا ثم إلى الأتراك فيما بعد .

وأفلح الزهوبان Zhupan (الزعيم) استيفن نمانيا Stephen Nemanga فى عام ١١٥٩ فى إخضاع العشائر والأقاليم الصربية المختلفة لحكمه ، فكان هو المؤسس الحقيقى لمملكة الصرب ، التى ظلت خاضعة لحكم أسرته مائتى عام . وكان ابنه سافا Sava يؤدى للأمة أعمال كبير الأساقفة والحاكم السياسى فى وقت واحد ، فأصبح فيما بعد أعظم قديسيها منزلة فى نفوس الأهلين . وكانت البلاد لا تزال فقيرة ، حتى كانت القصور الملكية نفسها تقام من الخشب . وكانت لها فرضة بحرية مزدهرة هى مدينة راجوسا Ragusa (دبرفنيك Dubrovnik الحالية) ، ولكن هذه المدينة كانت دولة مستقلة مفردة ، أصبحت فى عام ١٢٢١ خاضعة لحماية البندقية . واتخذ الفن الصربى فى خلال هذين القرنين طرازاً خاصا به وبلغ درجة عظيمة من الإتقان فى هذا الطراز الخاص ، تتبينهما فى الصور والنقوش المرسومة على جدران كنيسة القديس بنتيليمون Panteleimon ذات الدير فى نريز Nerez (حوالى عام ١١٦٤) ، فهى تكشف عن واقعية مسرحية لم نعتدها فى التصوير البيزنطى ، وتسبق بقرن من الزمان بعض أساليب التصوير التى كانت فى ظن الناس من ابتكار دشيو Duccio وچيتو Giotto . وتظهر فى هذه الصور الجدارية وغيرها مما رسم فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر صور للملوك تنم عن فردية لا تضارعها فيها أية صورة بيزنطية قبل ذلك العهد(١٥)

وبينما كانت بلاد الصرب فى العصور الوسطى تسير نحو حضارة راقية ، حطمت الاضطهادات والمروق من الدين وحدة الأمة ، ولربما كان فى وسعها لولا هذا أن تقف زحف الأتراك . كذلك أضعفت المنازعات الدينية البوسنه Bosnia بعد أن بلغت ذروة مجدها فى العصور الوسطى تحت حكم البان Ban (أى الملك) كولين Kulin (١١٨٠ — ١٢٠٤) ، وما زالت كذلك حتى خضعت إلى المجر عام ١٢٥٤ .

وعم الاضطراب هنغاريا بعد موت استيفن الأول (١٠٣٨) من جراء الفتن التى أثارها المجر الوثنيون على الملوك الكاثوليك ، وما بذله هنرى الثالث من محاولات لضم هنغاريا إلى ألمانيا . وهزم اندرو الأول Andrew I هـ ى ، ولما جدد الإمبراطور هنرى الرابع هذه المحاولة فوّت الملك جيزا الأول Giza I عليه غرضه بأن أعطى هنغاريا إلى جريجورى السابع ، ثم استردها منه إقطاعية بابوية (١٠٧٦) . وأدى التنافس على العرش فى القرن الثانى عشر إلى تقوية الإقطاع فى البلاد ، فقد منح المتنافسون النبلاء إقطاعات واسعة نظير تأييدهم لهم ، حتى بلغ هؤلاء النبلاء من القوة فى عام ١٢٢٢ ما مكنهم من انتزاع « مرسوم ذهبى Golden Bull » شبيه شبهاً عجيباً بالعهد الأعظم (مجنا كارتا) الذى وقعه چون ملك إنجلترا فى عام ١٢١٥ . وقد أنكر هذا المرسوم وراثة الإقطاعيات ، ولكنه وعد أن يدعى مجلس كل عام ، وألا يسجن أى نبيل إلا بعد أن يحاكم أمام كونت من القصر الإمبراطورى ، وألا تفرض ضريبة ما على ضياع الأشراف أو رجال الدين . وظل هذا المرسوم الملكى المعروف باسم المرسوم الذهبى نسبة إلى غلافه أو خاتمه صك الحرية لأشراف هنغاريا ، وأضعف سلطة الملكية الهنغارية وقت أن كان المغول يستعدون لإيقاع أوربا فى أزمة من أشد الأزمات فى تاريخها كله .

وفى وسعنا أن ندرك ما بلغه المغول من سعة الملك وقوة السلطان إذا ذكرنا أن أجادى Ogadi الخان الأعظم سير فى عام ١٢٣٥ ثلاثة جيوش للزحف على كوريا والصين وأوربا . وعبر الجيش الثالث بقيادة باتو نهر الفلجا فى عام ١٢٣٧ ، وكانت عدته ثلثمائة ألف مقاتل . ولم يكن هذا الجيش حشداً غير نظامى ، بل كان قوة جيدة التدريب ، حسنة القيادة مجهزة بآلات قوية للحصار وبأسلحة نارية جديدة عرف المغول طريقة استعمالها من الصينيين . وخرب هؤلاء المحاربون فى مدى ثلاث سنين الروسيا الجنوبية كلها تقريباً . وكأنما كان باتو غير قادر على أن يفكر فى الهزيمة فقسم هذا الجيش قسمين ، زحف أحدهما على پولندة ، واستولى على كركوفيا Cracow ولبلين Lubiin وعبر نهر الأودر وهزم الألمان فى ليجنتز Leignitz (١٢٤١) ؛ وتسلق الجيش الثانى بقيادة باتو نفسه جبال الكرپات ، وهاجم هنغاريا ، والتقى بقوات هنغاريا والنمسا المتحدة عند موهى Mohi وأوقع بها هزيمة منكرة قدّر مؤرخو العصور الوسطى — الذين لا يراعون قط جانب الاعتدال فيما يذكرون من الأرقام — عدد القتلى من المسيحيين بمائة ألف ، وقدّر الإمبراطور فردريك الثانى خسائر الهنغاريين بما « لايكاد يقل عن جميع القوة الحربية للمملكة »[١٦] . ومن مخريات التاريخ أن الغالبين والمغلوبين فى هذه البلاد كانوا من دم واحد ؛ فقد كان القتلى من أشراف هنغاريا أبناء المجر المغول الذين اجتاحوا البلاد قبل ثلاثة قرون من ذلك الوقت . واستولى باتو على پست Pesth وإزترجوم Eztergom (١٢٤١) ؛ وعبرت قوة من المغول نهر الدانوب ، وأخذت تطارد الملك الهنغارى بيلا الرابع Bela IV حتى وصلت إلى شاطئ البحر الأدرياوى ، وكانت أينما حلت تنزل الخراب والدمار . وأخذ فردريك الثانى يهيب بأوربا

أن تتحد لتستطيع الوقوف فى وجه تيار الغزو الأسيوى الجارف ، ولكن نداءه كان صرخة فى واد . وحاول أنوسنت الثالث أن يدعو المغول إلى المسيحية وإلى السلام ، ولكن دعوته هو الآخر ذهبت أدراج الرياح ؛ وكان الذى أنجى المسيحية وأوربا هو موت أجادى وعودة باتو إلى قرقورم للاشتراك فى انتخاب خان جديد . ولم يحدث فى التاريخ كله تخريب أشمل من هذا التخريب أو أوسع فقد امتد من المحيط الهادى إلى البحرين الأدرياوى والبلطى .

وعاد بيلا الرابع إلى بست المخربة وعمرها بالألمان ، ونقل عاصمة ملكه إلى بودا Buda على الضفة الأخرى من الدانوب (١٢٤٧) ؛ وأعاد على مهل اقتصاديات بلاده المحطمة . وقامت طبقة جديدة من الأشراف فأعادت تنظيم المراعى والضياع الكبرى التى كان الرعاة الفلاحون الأذلاء ينتجون منها الطعام للأمة . وهبط عمال المناجم الألمان من أرزجبرج واستخرجوا المعادن الخام الغنية من ترنسلفانيا Transylvania . وكانت حياة الأهلين وعاداتهم لا تزال خشنة غليظة ، وأدوات العمل بدائية ، والبيوت أكواخاً من الأغصان والطين . وقام الرجال فى هذه البيئة التى تضطرب فيها الأجناس واللغات ، وينقسم فيها الأهلون إلى طبقات ومذاهب دينية متنابذة متعادية ، قام الرجال فى هذه البيئة يعملون لتحصيل أرزاقهم ومكاسبهم ، ووصل أسباب الاقتصاد الذى هو منبت الحضارة .

الفصل الخامس

دول التخوم

كما أن كل نقطة فى الكون اللانهائى يمكن أن تعد مركزاً له ، كذلك نرى كل أمة وكل نفس فى موكب الحضارات والدول تفسر مسرحية التاريخ والحياة تفسيراً يدور حول صفاتها هى والدور الذى قامت به فيه . وكان فى شمال جبال البلقان خليط آخر من الشعوب — من البوهيميين ، والبولنديين ، واللتوانيين ، والليفونيين ، والفنلنديين ، كل واحد منها يجعل تاريخه القومى المحور الذى يدور حوله العالم كله مستمسكاً فى ذلك بالعزة القومية التى تبعث الحياة فى نفوس الشعوب .

وكان الفنلنديون الذين تربطهم بالمجر والصرب صلات دم بعيدة ، يعيشون فى بداية العصور الوسطى على ضفتى نهر الفلجا الأعلى والأوكا Oka . وقبل أن يستهل القرن الثامن هاجر أولئك الأقوام إلى الأراضى الجدباء المسرحية المناظر المعروفة عند غيرهم باسم فنلندة وعندهم هم باسم السومى Suomi أو أرض المناقع ، ولما أخذوا يغيرون على سواحل اسكنديناوة اضطر إرك التاسع Eric IX ملك السويد إلى فتح بلادهم فى عام ١١٥٧ . وترك إرك أسقفاً عندهم فى أبسالا لينشر بينهم الحضارة ، فقتل الفنلنديون الأسقف هنرى ثم اتخذوه بعد قتله قديسهم الشفيع ، وأخذوا فى بسالة هادئة يزيلون الغابات ويجففون المناقع ، ويصرفون مياه العشرة « الآلاف بحيرة »[١٧] ويجمعون الفراء ، ويجاهدون ضد الثلوج .

وأخذت قبائل أخرى قريبة فى أصولها من الفنلنديين تعمل بالفاس والمجرف جنوب خليج فنلندة ، وهى قبائل البروسيين Borussians أو Prussians ، والإسث Esths (الإستونيين) ، واللف ، Livs (اللفونيين) ، واللتفا Litva

(اللثوانيين) واللت Letts واللتفيين . فكانوا يصيدون الحيوان من الغابات ، والسمك من مياه البحار والأنهار ، ويربون النحل ، ويفلحون الأرض ، ويتركون وراءهم تراثا من الآداب والفنون لمن هم أقل منهم قوة من خلفائهم الذين كانوا هم يكدحون من أجلهم . وظلت هذه القبائل كلها ما عدا الأستونيين وثنية حتى القرن الثانى عشر حين نشر الألمان بينهم المسيحية والحضارة بالنار والسيف . ولما وجد اللثونيون أن الألمان يتخذون الدين المسيحى وسيلة للتسلل إلى بلادهم والسيطرة عليهم قتلوا المبشرين ، ونزلوا إلى نهر الدفينا Dvina ليتطهروا فيه من دنس التعمد ، وعادوا إلى آلهتهم القدامى . ودعا إنوسنت الثالث إلى شن حرب صليبية عليهم ، ودخل الأسقف ألبرت Albert نهر الدفينا بثلاث وعشرين سفينة حربية ، وشاد مدينة ريجا Riga واتخذها عاصمة للبلاد وأخضع لفونيا لحكم الألمان ١٢٠١ م. وأتمت طائفتان من الفرسان الدينيين — العسكريين طائفتا الفرسان اللفونيين ، والفرسان التيوتون إخضاع دول البحر البلطى لألمانيا ، وامتلكوا فيها أرضين واسعة ، ونشروا الدين المسيحى بين أهلها ، واتخذوهم رقيق أرض(١٨) . وقويت قلوب الفرسان التيوتون بهذا النجاح ، فتقدموا نحو الروسيا يرجون أن يخضعوا فى القليل ولاياتها الغربية لألمانيا وللمسيحية اللاتينية ، ولكنهم هزموا عند بحيرة پيپوس (١٢٤٢) فى واقعة من مواقع التاريخ الحاسمة التى لا يحصى لها عدد .

وكان بحر آخر من الصقالبة يموج حول هذه الدول البلطية . وكان منهم طائفة تسمى نفسها البولانيين أى « شعب الحقول » — وكانت تفلح أودية أنهار الوارث Warthe والأودر Oder ، وطائفة أخرى تسمى المازور Mazurs ، تسكن على ضفتى نهر الفستيولا Vistula ، وطائفة ثالثة تدعى البومرزانى Pomerzani (أى « بجانب البحر ») هى التى اشتق منها اسم پمرانيا Pomerania . وأراد الأمير البولندى ميسزكو الأول Mieszko 1 أن يجنب بلاده فتح الألمان ، فوضع پولندة تحت حماية البابا پوات ، وأدارت پولندة من

ذلك الحين ظهرها نحو صقالبة الشرق نصف البيزنطيين ، وألقت بنفسها فى أحضان أوربا الغربية والمسيحية الرومانية . وفتح بلسلاف الأول Boleslav I (٩٩٢ — ١٠٢٥) ابن ميسزكو پومرانيا ، وضم إلى بلاده برسلو Breslau وكركوفيا Cracow ونصب نفسه أول ملك على پولندة . وقسم باسلاف الثالث Boleslav III (١١٠٢ — ١١٣٩) المملكة بين أبنائه الأربعة ، وضعفت الملكية بعد هذا التقسيم ، وقسم الأشراف الأرض إمارات إقطاعية ، وأخذت پولندة تتقلب بين الحرية تارة والخضوع لألمانيا وبوهيميا تارة أخرى . واندفع عليها تيار المغول الجارف فى عام ١٢٤١ ، واستولوا على كركوفيا عاصمة البلاد ، ودكوها دكا . ولما انحسر تيار الأسيويين طغت فى أثره موجة من المهاجرين الألمان على پولندة الغربية ، وخلقت فيها مزيجا قوياً من لغة الألمان وشرائعهم ، ودمائهم ، ورحب بلسلاف الخامس فى هذا الوقت عينه (١٢٤٦) باليهود الفارين من المذابح فى ألمانيا ، وشجعهم على تنمية الأعمال التجارية والمالية ، واختير ونسسلاس الثانى Wenceslas II ملك بوهيميا ملكا على پولندة فى عام ١٣١٠ ، وضم الأمتين تحت تاج واحد .

واستقر الصقالبة فى بوهيميا ومورافيا فى القرنين الخامس والسادس ، وقام زعيم صقلبى يدعى سامو فى عام ٦٢٣ وحرر بوهيميا من حكم الآفار وأسس فيها دولة ملكية مطلقة ماتت بموته فى عام ٦٥٨ . وغزا شارلمان أرضها فى عام ٨٠٥ ، وظلت بوهيميا ومورافيا جزأين من الدولة الكارولنجية زمنا لا نعرف مداه . حتى إذا كان عام ٨٩٤ أخضعت أسرة بريميزل Premysl كلا الإقليميين لسلطانها الدائم ، ولكن المجر حكموا مورافيا نصف قرن من الزمان (٩٠٧ — ٩٥٧) . وفى عام ٩٢٨ أخضع هنرى الأول بوهيميا للألمان . وعم الرخاء بوهيميا فى عهد الدوق ونسسلاس الأول Wenceslas I (٩٢٨—٩٣٥) على الرغم من خضوعها للألمان. هذا الخضوع المقطع ، وكانت أم هذا الدوق القديسة لدملا St. Ludmilla

قد ربته تربية مسيحية خالصة ، وظل بعد أن تولى الحكم مسيحياً مخلصاً يطعم الفقراء ويكسوهم ، ويحمى الأرامل والأيتام ، ويستضيف الغرباء ، ويحرر الأرقاء من ماله . وحاول أخوه أن يغتاله لأنه تعوزه الرذائل التى لابد من وجودها فى الملوك ، فضربه ونسسلاس بيده وعفا عنه ، ولكن غيره من المتآمرين اغتالوا الملك وهو فى طريقه لحضور القداس فى اليوم الخامس والعشرين من شهر سبتمبر عام ٩٣٥ ؛ ولا يزال أهل بوهيميا يحتفلون بهذا اليوم ويسمونه عيد ونسسلال قديس بوهيميا وحارسها .

وخلفه أدواق ذوو نزعة حربية ، وزحف بلسلاف الأول Boleslav I (٩٣٩ — ٩٦٧) والثانى (٩٦٧ — ٩٩٩) ، وبراتسلاف الأول Bratislav I (١٠٣٧ — ١٠٥٥) من عاصمتهم ذات الموقع الحربى المنيع وفتحوا مورافيا ، وسيلزيا ، وپولندة ؛ ولكن هنرى الثالث أرغم براتسلاف على الجلاء عن پولندة والعودة إلى أداء الجزية لألمانيا . ثم حرر أتوكار الأول Attokar I ١١٩٨ — ١٢٣٠ بوهيميا وصار أول ملوكها ، وأخضع أتوكار الثانى النمسا ، واستيريا Styria وكارنثيا ؛ وكان أتوكار هذا شديد الرغبة فى تنمية الصناعة وإيجاد طبقة وسطى فى البلاد يقاوم بها النبلاء المتمردين ، فشجع الألمان على أن يهاجروا إلى بلاده حتى أصبح العنصر الألمانى هو الكثرة الغالبية من سكان مدن بوهيميا ومورافيا كلها تقريباً(١٩) ، وأصبحت مناجم الفضة فى كتناهورا Kutna Hora أساس رخاء بوهيميا ومطمع غزاتها الكثيرين ؛ وأعلن الألمان الحرب على أتوكار فى عام ١٢٧٤ ، وأبى أشراف بلاده أن يساعدوه على الغزاة ، فتخلى لهم عن فتوحه ، واحتفظ بعرشه بوصفه أميراً إقطاعياً خاضعاً لألمانيا . ولما أن تدخل الإمبراطور رودلف هپسبرج Rudolf of Hapsburg فى شئون بوهيميا الداخلية عبأ أتوكار جيشاً جديداً

حارب به الألمان عند درنكروت Durnkrut ؛ وتخلى عنه النبلاء للمرة الثانية ، فألقى بنفسه فى وطيس المعمعة بين صفوف الأعداء المتراصة ، ومات وهو يقاتل قتال المستيئس ؛

وصالح ونسسلاس الثانى (١٢٨٧ — ١٣٠٥) الألمان على أن يعود أميراً إقطاعياً خاضعاً لهم ، وبذل جهوداً جبارة فى إعادة النظام والرخاء إلى البلاد . وانتهى بموته عهد الأسرة البريمسلية بعد أن حكمت البلاد خمسمائة عام كان البوهيميون ، والموراڤيون ، والپولنديون هم كل من بقى من المهاجرين لصقالبة الذين كانوا يملأون من قبل ألمانيا الشرقية إلى حدود نهر الإلب ، كانوا فى الوقت الذى نتحدث عنه خاضعين لسلطان الألمان .

الفصل السادس

ألمـــانيـــا

كان الذين كسبوا المعركة فى النزاع التاريخى القائم حول تولى غير رجال الدين المناصب الكهنوتية هم أشراف ألمانيا — الأدواق واللوردة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة . وقد سيطر هؤلاء على الملكية الضعيفة بعد هزيمة هنرى الرابع ؛ وأقاموا فى البلاد نظاماً إقطاعياً يعمل على تفكيكها وإضعاف سلطان حكومتها المركزية ، وأدى هذا النظام إلى حرمان ألمانيا فى القرن الثالث عشر من زعامة أوربا .

وخلع هنرى الخامس (١١٠٦ — ١١٢٦) أباه عن العرش ، وواصل كفاح أبيه ضد البارونات والبابوات . ولما رفض پسكال الثانى Paschael II أن يتوجه إمبراطوراً إلا إذا نزل عن حقه فى تولية غير رجال الدين المناصب الكهنوتية ، زج بالبابا والكرادلة فى السجن . ولما مات ألغى الأشراف نظام الملكية الوراثية ، وقضوا على الأسرة الفرنكونية Franconian ، وولوا لوثير الثالث Lothair III السكسونى ملكا على البلاد ، وبعد ثلاثة عشر عاما من ذلك الوقت أسس كنراد الثالث Conrad III أسرة هوهنستاوفن Hohenstaufen السوابية أقوى أسرة ملكية فى تاريخ ألمانيا كله .

ولم يوافق الدوق هنرى الباڤارى على من وقع عليه اختيار الناخبين ، وأيده فى هذا الرفض عمه ولف Welf أو جلف Guelf ؛ وشب النزاع من هذا الوقت بين جلف وغبلين "Ghibelline" وهو النزاع الذى اتخذ فى القرنين الثانى عشر

والثالث عشر صوراً كثيرة ، وكانت له نتائج متعددة(*) .

وحاصر جيش آل هوهنستاوفن العصاة البافاريين فى بلده ويزبرج Weisberg وقلعتها . وتقول إحدى الروايات القديمة إن المدينتين المتنازعتين ـ « هى ولف ! » و « هى ويبلنج ! » سجلتا اسم الطائفتين المقتتلتين ، وتقول القصص الظريفة إنه لما قبل السوابيون المنتصرون استسلام المدينة على أن يؤمن النساء وحدهن من القتل ، وأن يسمح لهن بمغادرتها ومعهن كل ما يستطعن حمله ، خرجت النساء القويات الأجسام يمشين وهن يحملن أزواجهن على ظهورهن(٢٠) . وعقدت هدنة فى عام ١١٤٢ حين خرج كنراد للحرب الصليبية ، ولكن كنراد أخفق فى غرضه وعاد يجلله العار . وخيل إلى الناس أن بيت هوهنستاوفن قد تلطخ اسمه بالعار حين جلس على العرش أعظم رجل من رجاله .

وكان فريدريخ Friedrich (سيد السلام) أو فردريك الأول (١١٥٢ — ١١٩٠) فى سن الثلاثين حين اختير ملكا . ولم يكن رجلا مهيب الطلعة — فقد كان قصير القامة ، أبيض البشرة ، أصفر الشعر ، ذا لحية حمراء أكسبته فى إيطاليا اسم بربرسا Barbarossa ، ولكنه كان ذا عقل صاف وعزيمة ماضية ؛ قضى حياته فى العمل لخير الدولة ، وأعاد ألمانيا إلى زعامة العالم المسيحى وإن كان قد منى بكثير من الهزائم . وإذ كان يجرى فى عروقه دم آل هوهنستاوفن وآل ولف جميعاً ، فقد نادى بسلم فى البلاد Landfried ، وصالح أعداءه ، وهدأ أصدقاءه ، وقضى بشدة على المنازعات ، والاضطرابات ، والجرائم . ويصفه معاصروه بدماثة الخلق ، وباستعداده الدائم للابتسام ابتسامة رقيقة جذابة ، وإن كان « شديد الوطأة على الأشرار » حتى كانت قسوة قوانينه الجنائية ، وهمجيتها عاملا فى تقدم الحضارة فى ألمانيا . وكان الناس يثنون بحق على حياته

(*) كانت غبلين أو فبلنجن Waiblingen قرية من أملاك أسرة هوهنستاوفن . ومعنى هذا اللفظ هو « استاوفن العالية » وهو مشتق من اسم حصن جبل وقرية فى سوابيا .

الخاصة لما عرف عنه من تمسكه بأهداب العفة والفضيلة ، وإن كان قد طلق زوجته الأولى لقربها إليه من ناحية العصب ، وتزوج بوريئة كونت برغندية فنال بهذا الزواج مع عروسة مملكة .

وإذ كان يتوق لأن يتوّجه البابا إمبراطوراً ، فقد وعد يوجنيوس الثالث Eugenius III أن يساعده على الرومان المتمردين ، والنورمان المشاكسين ، إذا حقق البابا رغبته ، وقدم الملك الشاب الفخور إلى نيبي Nepi القريبة من رومة حيث التقى بهدريان الرابع البابا الجديد ، وأغفل الشعيرة المعتادة القاضية بأن يمسك الحاكم الزمنى زمام جواد البابا وركابه ويساعده على النزول . وبذلك نزل هدريان إلى الأرض من غير معونة ، وأبى على فردريك « قبلة السلام » وتاج الإمبراطورية إلا إذا أدى فردريك هذه الشعيرة . وظل أعوان البابا والملك يومين كاملين يتناقشون فى هذه المسألة ويجعلون تاج الإمبراطورية معلقاً على أداء المراسم الشكلية ، حتى خضع فردريك آخر الأمر ، فانسحب البابا وعاد إلى المدينة ممتطياً صهوة جواده ، وأمسك فردريك بزمام فرس البابا وركابه ، وظل من ذلك الحين يتحدث عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، يرجو من وراء هذا أن يعترف العالم بأن الإمبراطور هو والبابا النائبان عن الله فى الأرض .

وجعله لقبه الإمبراطورى ملكا على لمبارديا أيضاً ؛ ولم يكن حاكم ألمانى بعد هنرى الرابع يستمسك بحرفية هذا اللقب ، ولكن فردريك سرعان ما بعث إلى كل بلد من بلدان إيطاليا الشمالية حاكما يصرف أمورها باسمه . وقبلت بعض المدن أولئك السادة الأجانب ولم يقبلهم بعضها . وإذ كان فردريك يحب النظام أكثر من الحرية ، ولعله أيضاً كان يرغب فى السيطرة على المنافذ الإيطالية لتجارة ألمانيا مع بلاد الشرق ، فقد خرج فى عام ۱۱٥۸ ليخضع البلاد الثائرة التى تعشق الحرية أكثر من النظام . واستدعى إلى بلاطه فى رنكاجليا Roncaglia فقهاء القانون الذين كانوا يحيون الشريعة الرومانية فى بولونيا ؛ وسره أن يعرف

منهم أن هذه الشريعة تجعل الإمبراطور صاحب السلطة المطلقة على جميع أجزاء الإمبراطورية والمالك لكل ما فيها ، وتخوله حق تعديل الحقوق الشخصية أو إلغائها إذا رأى فى تعديلها أو إلغائها مصلحة للدولة . ورفض البابا اسكندر الثالث هذه الادعاءات لخوفه منها على حقوق البابوية الزمنية ، وأيد هذا الرفض بإعلانه أن هذه الحقوق هبات من پيپن وشارلمان ؛ ولما أصر فردريك على الاستمساك بمطالبه حرمه البابا من الكنيسة (١١٦٠) ؛ وانتقلت وقتئذ صيحات مدينتى جلف وغبلين لتمثل أولاهما مؤيدى البابا والثانية مؤيدى الإمبراطور . وحاصر فردريك مدينة ميلان العنيدة عامين كاملين ، حتى إذا استولى عليها آخر الأمر حرقها عن آخرها (١١٦٢) . وأغضبت هذه القسوة مدائن ڤيرونا ، وڤيسنزا ، وپدوا ، وترڤيزو ، وفرارا ، ومانتوا ، وبرشيا ، وبرجامو ، وكرمونا ، وپياسنزا ، وپارما ، ومودينا ، وبولونيا ، وميلان ، فعقدت فيما بينهما حلف جامعة المدن اللمباردية (١١٦٧) وهزمت جيوش تلك الجامعة جيش فردريك الألمانى عند لنيانو فى عام ١١٧٦ ، وأرغمته على أن يعقد هدنة تدوم ست سنين . واصطلح الإمبراطور والبابا بعد عام من ذلك الوقت ، ووقع فردريك معاهدة صلح فى كنستانس (١١٨٣) أعاد بها الحكم الذاتى إلى المدن الإيطالية . وأقرت هذه المدن فى نظير هذا بالسيادة الاسمية للإمبراطورية عليها ، ووافقت كرما منها وشهامة على أن تمد فردريك وحاشيته بما يلزمه من الزاد فى زياراته للمبارديا .

وهكذا هزم فردريك فى إيطاليا ولكنه انتصر فى جميع البلاد الأخرى ، وأفلح فى تثبيت دعائم السلطة الإمبراطورية على بولندة ، وبوهيميا ، وهنغاريا . وفرض من جديد على رجال الدين الألمان ، بالفعل إن لم يكن بالقول ، جميع حقوق تولى المناصب التى كان يطالب بها هنرى الرابع ، وكسب معونة هؤلاء الرجال حتى على البابوات أنفسهم[٢١] . ونعمت ألمانيا بما ناله من مجد ، وسرها أن تستدعيه من إيطاليا ، واغتبطت بمواكب الفرسان التى كانت تسير فى حفلات

تتويجه ، وزيجاته ، وأعياده . وخرج الإمبراطور الشيخ فى عام ١١٨٩ على رأس مائة ألف من الرجال إلى الحرب الصليبية الثالثة ، ولعله كان يرغب فى أن يؤلف من الشرق والغرب إمبراطورية رومانية تعود إلى رقعتها القديمة ، ومات الإمبراطور غريقاً فى قليقية بعد عام من ذلك الوقت .

وكان فردريك كما كان شارلمان مشبعاً إلى أقصى حد بالتقاليد الرومانية ، وقد أنهك قواه بما بذله من الجهد لإحياء ماضيها الميت . وحزن أنصار الملكية المطلقة المعجبون بها لما منى به من الهزائم، وعدوها انتصاراً للفوضى ، أما عشاق الدمقراطية فيسرون بها ويرونها مراحل فى طريق الحرية . وإذا ما نظرنا إلى أعماله بعينه هو رأيناه على حق فيما فعل ؛ فقد كانت ألمانيا وإيطاليا تسيران مسرعتين فى طريق الفساد واختلال النظام ، ولم تكن سلطة غير سلطة الإمبراطورية القوية تستطيع القضاء على المنازعات والاضطرابات الإقطاعية والحروب القائمة بين المدن المختلفة ، وكان لابد أن يستتب النظام ليمهد السبيل إلى نشأة الحرية القومية . ونسجت حول فردريك الأول فى عهود الضعف الألمانية المقبلة أقاصيص دالة على حب الشعب له ، وخلع على بربرسا بعد حين من الصفات ما كان القرن الثالث عشر يتصور وجوده فى حفيده : فقيل إنه لم يمت بحق بل كل ما فى الأمر أنه كان نائماً فى جبال كيفهوزر Kyffhauser بثورنجيا Thuringia ، وكان فى مقدور الناس أن يروا لحيته الطويلة تنمو مخترقة ما يغطيه من الرخام ؛ وسوف يستيقظ من نومه فى يوم من الأيام ، وينفض الثرى عن كتفيه ، ويعيد إلى ألمانيا النظام والقوة . ولما أنشأ بسمارك دولة ألمانيا الموحدة قال هذا الشعب الفخور إنه هو بربرسا نهض ظافراً من قبره[٢٢] .

وكاد هنرى السادس (١١٩٠ — ١١٩٧) يحقق حلم أبيه ، فقد انتزع فى عام ١١٩٤ جنوبى إيطاليا وصقلية من النورمان بمعونة جنوى وبيزا ، وخضعت له إيطاليا كلها عدا الولايات البابوية . وضمت بروڤانس، ودوفينيه Cauphiné ،

وبرغندية ، وألساس ، ولورين ، وسويسرا ، وهولندة ، وألمانيا ، والنمسا ، وبوهيميا ، ومورافيا ، وبولندة ضمت هذه كلها إلى أملاك هنرى ، واعترفت إنجلترا بسيادته عليها ، وأدى له المسلمون الموحدون الجزية ، وطلبت أنطاكية ، وقليقية ، وقبرص أن تضم إلى الإمبراطورية ، وكان هنرى ينظر بنهم إلى فرنسا وأسپانيا ، وقد وضع الخطط للاستيلاء على بيزنطية ، وكانت الفرق الأولى من جيشه قد أبحرت إلى بلاد الشرق حين أصيب بزخار البطن وقضى نحبه فى صقلية وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره .

ولم يكن هنرى قد حسب حساب مناخ هذه البلاد التى فتحها وأعد العدة لاتقاء ثأرها منه . ولم يكن له إلا ولد واحد هو طفل فى الثالثة من عمره ، وأعقبت موته فترة من الفوضى دامت نحو عشر سنين أخذ المطالبون بالعرش فيها يقتتلون فيما بينهم . ولما أن بلغ فردريك الثانى سن الرشد تجددت الحرب بين الإمبراطورية والبابوية ، تجددت فى إيطاليا على يد ملك ألمانى — نورمانى أصبح إيطاليا ، سنتحدث عنه فيما بعد حين نتكلم على إيطاليا . وأعقبت موت فردريك الثانى (١٢٥٠) نحو ثلاثين عاماً أخرى من الفوضى يسميها شلر : « العهد المرعب الذى لا سادة فيه » ، باع فيه الأمراء الناخبون عرش ألمانيا لكل مستضعف يتركهم أحراراً فى أن يوطدوا أركان سلطانهم المستقل . وتكشف عهد الفوضى عن نهاية أسرة هوهنستاوفن ، وأنشأ رودلف الهپسبرجى فى عام ١٢٧٣ أسرة جديدة واتخذ ڤينا عاصمة له . وأراد رودلف أن يكسب تاج الإمبراطورية ، فوقع فى عام ١٢٧٩ إعلانا يعترف فيه بخضوع السلطة الملكية للسلطة البابوية خضوعاً تاماً ، ويتخلى فيه عن جميع مطالبه فى إيطاليا الجنوبية وصقلية . ولم يصبح رودلف إمبراطوراً قط ، ولكنه استطاع بشجاعته ، وإخلاصه ، ونشاطه أن يعيد النظام والرخاء إلى ألمانيا ، وأن ينشئ أسرة قوية ظلت تحكم النمسا وهنغاريا حتى عام ١٩١٨ .

وبذل هنرى السابع (١٣٠٨–١٣١٣) آخر الجهود لتوحيد ألمانيا وإيطاليا

فعبر جبال الألب (١٣١٠) بمعونة ضئيلة من الأشراف الألمان وقوة صغيرة من فرسان الوالون Walloon ، ورحبت به كثير من مدن لمبارديا ، وكانت قد سئمت حرب الطبقات ونزاع المدن بعضها مع بعض ، وتاقت نفسها إلى التحرر من سلطان الكنيسة عليها . ورحب دانتى بالغزاة برسالة عن الملكية ، أعلن فيها بشجاعة تحرر السلطة الزمنية من السلطة الروحية ، وطلب فيها إلى هنرى أن ينقذ إيطاليا من سيطرة البابوية ، ولكن الجلف من أهل فلورنس أصبحت لهم الغلبة فى البلاد ، وسحبت المدن المشاكسة تأييدها ، ومات هنرى ، وهو محوط بالأعداء ، بحمى الملاريا وهى الداء الذى تجزى به إيطاليا بين الفينة والفينة عاشقيها المملقين .

وصدت ألمانيا فى الجنوب حواجز من طبيعة الأرض ، واختلاف العنصر ، واللغة ، فوجدت لها مخرجا وتعويضاً فى جهة الشرق ، فاستردت الهجرات والفتح والاستعمار الألمانى والهولندى ثلاثة أخماس ألمانيا من الصقالبة ؛ وانتشر الألمان الكثيرو النسل على ضفتى الدانوب ووصلوا إلى هنغاريا ورومانيا ؛ وأقام التجار الألمان أسواقا وثغوراً فى فرانكفورت على الأودر ، وفى برسلاو ، وبراج ، ودانترج وريجا ودوربات Dorpt وريفال Reval ، ومراكز تجارية فى كل مكان فى الرقعة الممتدة من بحر الشمال والبحر البلطى إلى جبال الألب والبحر الأسود . لقد كانت فتوحهم وحشية ، ولكن النتائج أدت إلى رقى لا يستطاع تقديره فى حياة سكان الحدود الاقتصادية والثقافية .

وكان انهماك الأباطرة فى هذه الفترة السالفة الذكر فى شئون إيطاليا ، وحاجتهم المتكررة إلى ضمان تأييد الأشراف والفرسان ، أو مكافأتهم على هذا التأييد بهبات الأرض أو السلطان ، وما طرأ على سلطة الملوك الألمان من الضعف بسبب مقاومة البابا لهم وخروج المبارد عليهم ، كان هذا كله قد ترك الأشراف أحراراً يتملكون الأرض فى الريف ، وينزلون الفلاحين منزلة الرقيق ؛ فعلا بذلك شأن الإقطاع فى القرن الثالث عشر فى ألمانيا بينما كان سلطان الملوك يقضى عليه

فى فرنسا : وأصبح الأساقفة الذين قربهم الأباطرة الأولون ليكونوا شوكة فى ظهر الأشراف، أصبح هؤلاء طبقة ثانية من النبلاء ، لايقلون ثروة وقوة واستقلالا عن الأشراف الدنيويين . ولم يحل عام ١٢٦٣ حتى عهد الإقطاعيون إلى سبعة من الأشراف — هم كبراء أساقفة مينز وترير ، وكولونى ، ودوقا سكسونيا وباڤاريا ، وكونت پلاتين ومارجريف(*) برندنبرج حق اختيار الملك : وحد هؤلاء الناخبون من سلطان الحاكم ، واغتصبوا الامتيازات الملكية ، واستولوا على أراضى التاج . ولقد كان يسعهم أن يعملوا عمل الحكومة المركزية ويهيئوا للأمة وحدتها ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل كانوا فيما بين الانتخابين يسيرون كما يحلو لهم ؛ ولم تكن أمة ألمانية قد وجدت بعد ، وكل ما كان موجوداً هم السكسون والسوابيون ، والباڤاريون ، والفرنجة . . وكذلك لم يكن هناك برلمان قومى ، بل كانت فى البلاد المختلفة مجالس إقليمية تسمى لاندتاج Landtage . ولما قام مجلس ريشستاغ Reichstag أو مجلس لمجموعة البلاد الألمانية فى عام ١٢٤٧ ، اضمحل فيما بين عهدى الانتخاب ، ولم يعل شأنه إلا فى عام ١٣٣٨ ، وكانت طائفة من الموظفين — من رقيق الأرض أو الأحرار المعينين من قبل الملوك . يؤلفون بيروقراطية مفككة ويكسبون نظام الحكم نوعا من الاستمرار غير المترابط . ولم يكن للبلاد عاصمة موحدة يتركز فيها ولاء الشعب واهتمامه ؛ ولم تكن هناك مجموعة موحدة من القوانين تحكم بها البلاد كلها ، فقد احتفظ كل إقليم بعاداته وقوانينه رغم ما بذله بربرسا من الجهد لفرض القانون الرومانى على ألمانيا كلها . وحدث فى عام ١٢٢٥ أن صيغت قوانين سكسونيا فى كتاب واحد سمى المرآة السكسونية Sachsenspiegel ، وفى عام ١٢٧٥ صيغت قوانين سوابيا وعاداتها فى « المرآة السوابية Schwabenspiegel ؛ وأيد هذان القانونان ما كان للشعب من حق

(*) مارجريف Margrave لقب من ألقاب الأشراف فى ألمانيا يعادل لقب مركيز فى فرنسا (المترجم) .

قديم فى اختيار ملوكه ، وما كان للفلاحين من حق الاحتفاظ بحريتهم وأرضهم ، وقالت المرآة السكسونية فى هذا الصدد إن رق الأرض والاستعباد يتعارضان مع الطبيعة البشرية ومع إرادة الله ، وأن أصلهما يرجع إلى القوة أو الغش (٢٣) ، لكن رق الأرض أخذ مع ذلك ينمو ويزداد :

وكان عهد آل هوهنستاوفن (١١٨٣ — ١٢٥٤) أعظم العهود الألمانية قبل بسمارك . نعم إن عادات الشعب وآدابه كانت لا تزال خشنة غليظة ، وكانت قوانينه مضطربة هى والفوضى سواء ، وأخلاقه خليطاً من الأخلاق المسيحية والوثنية ، ومسيحيته نصف ستار لانتهاب الأراضى واغتصابها من أصحابها . كذلك لم تكن ثروة الشعب أو وسائل نعيمه تضارع ثروة شعب إيطاليا أو فلاندرز إذا وازنا مدينة فى ألمانيا بمدينة مثلها فى ذينك البلدين الأخيرين . ولكن الفلاحين الألمان كانوا مجدين كثيرى النسل ، وكان التجار الألمان مغامرين ذوى إقدام ، والأشراف أكثر سكان أوربا ثقافة وقوة ، والملوك هم الرؤساء الزمنيين للعالم الغربى يحكمون بلاداً تمتد من نهر الرين إلى نهر الفستيولا ، ومن نهر الرون إلى جبال البلقان ، ومن البحر البلطى إلى الدانوب ، ومن بحر الشمال إلى صقلية : ونشأت وترعرعت مائة مدينة ومدينة بفضل حياتها الاقتصادية الناشطة ، وكان لكثير منها صكوك ومواثيق تؤيد حكمها الذاتى ؛ وأخذت على مر السنين تزداد ثروتها وتزدهر فنونها حتى كانت فى عصر النهضة فخر ألمانيا وشاهداً على عظمتها ومجدها ، وإنا ليعترينا الآن الأسى والحزن على ما كان لها من جمال زال ولم يبق له وجود : .

الفصل السابع

اسكنـــدينـاوة

عادت الدنمرقة إلى الظهور فى التاريخ مرة أخرى فى عهد ولدمار الأول Waldemar I (١١٥٧ — ١١٨٢) بعد أن ظلت مائة عام تنعم بالاختفاء عنه ، فقد استعان هذا الملك بوزيره أبسالون Absalon كبير أساقفة لند Lund على إقامة حكومة قوية ، طهرت البحار من القراصنة . واعتنت الدنمرقة بحماية التجارة وتشجيعها ، وأسس أبسالون فى عام ١١٦٧ مدينة كوبنهاجن Copenhagen أى « مرفأ السوق » — Kjoebenhaven . وردّ ولدمار الثانى (١٢٠٢ — ١٢٤١) على الاعتداءات الألمانية بالاستيلاء على هولستين Holstein ، وهمبرج ، وعلى البلاد الألمانية الواقعة فى الشمال الشرقى من نهر الإلب . ثم قام بثلاث حروب « صليبية » ضد صقالبة البحر البطلطى « تكريماً للعذراء المباركة » واستولى على إستونيا الشمالية ، وأسّس مدينة ريفال Reval . وهوجم فى إحدى هذه الحروب وهو فى معسكره ؛ ويقول الرواة إنه نجا من الموت بسببين أولها شجاعته وثانيهما أنه نزلت من السماء فى وقت الهجوم عليه راية حمراء عليها صليب أبيض . وأصبحت هذه الراية المعروفة باسم الدنبرج Dannebrog أى القماش الدنمرقى علم القتال الدنمرقى ؛ وأسره الكونت هنرى الشويرينى Count Henry of Schwerin فى عام ١٢٢٣ ، ولم يطلق سراحه بعد أن قضى فى الأسر عامين ونصف عام إلا بعد أن نزل للألمان على جميع فتوحه الألمانية والصقلبية ما عدا روجن Rügen . وقضى هذا الملك بقية حياته العجيبة النافعة فى الإصلاحات الداخلية وتقنين جميع شرائع الدنمرقة . وكانت مساحة الدنمرقة حين وفاته ضعفى مساحتها فى هذه الأيام ، وكانت تشمل الجزء الجنوبى من بلاد السويد ، وكان عدد سكانها مساويا لعدد سكان السويد (٣٠٠,٠٠٠) والنرويج (٢٠٠,٠٠٠)

مجتمعين . ثم ضعفت سلطة الملوك بعد وفاة ولدمار الثانى ، حتى إذا كان عام ١٢٨٢ حصل الأشراف من إرك جلبنج Eric Glipping على عهد يعترف فيه بأن جمعيتهم « الدنهف Danehof » برلمان قومى .

وليس فى مقدور كائن من كان أن يجعلنا نتصور أعمال أهل اسكنديناوة فى هذه الأيام الأولى اللهم إلا إن كان قـصَّاصاً واسع الخيال ، وحسبنا أن نقول عنها إنها جهود جبارة تبذل فى سبيل الاستيلاء على هذه الشبه الجزيرة الوعرة الخطرة يوماً بعد يوم وقدماً بعد قدم . لقد كانت الحياة لا تزال فيها بدائية ؛ وكانت موارد الغذاء الأولية فيها هى صيد الحيوان والسمك والزراعة . وكان لا بد من تقطيع أشجار الغابات المترامية الأطراف ، وتأنيس الحيوان البرى ، وجر الماء إلى مجار تمكن الأهلين من الإنتاج ، وإنشاء المرافئ البحرية ؛ وكان لا بد من أن يعتاد الرجال الجلد وتحمل المشاق لمغالبة الطبيعة التى بدت وكأنها تغضب من تطفل الإنسان عليها وتدخله فى شئونها . وكان للرهبان السسترسيين Cistercian شأن عظيم فى هذا الكفاح الذى قضوا فيه حياتهم جيلا بعد جيل ، فكانوا يقطعون الأشجار ، ويفلحون الأرض ، ويعلمون الفلاحين أساليب الزرع الراقية . وكان من أبطال هذا الكفاح إيرل برجر Earl Birger رئيس وزراء السويد من ١٢٤٨ إلى ١٢٦٦ . فهو الذى ألغى رق الأرض ، وأقام حكم القانون ، وأسس مدينة استكهولم Stokholm (حوالى عام ١٢٥٥) ، وأنشأ أسرة فوالكنج Folkung (١٢٥٠ — ١٣٦٣) بأن أجلس ابنه ولدمار على العرش . وأثرت مدينة برجن لأنها كانت منفذ تجارة النرويج ، وأضحت مدينة فزبى Visby القائمة على جزيرة جتلند Gotland مركز الاتصال بين بلاد السويد والعصبة الهانسية . وشيدت كنائس فخمة ممتازة ، وتضاعف عدد الكنائس الكبرى والمدارس ، وأخذ الشعراء يغنون قصائدهم ؛ وفى القرن الثالث عشر أضحت جزيرة أيسلندة Iceland القائمة بعيداً عن البلاد فى ضباب المحيط الجامد الشمالى أكثر المراكز الاسكنديناوية فى العالم نشاطاً فى الأدب .

الفصل الثامن

إنجلـــترا

١ – وليم الفاتح

حكم وليم الفاتح إنجلترا حكما جمع فيه بمهارة عظيمة بين الشدة ، والقانون ، والتقوى ، والدهاء ، والخداع . فلما أن رفعه إلى العرش الويتان Witan تحت تأثير الخوف والإرهاب ، أقسم أن يطيع القوانين الإنجليزية المعمول بها وقتئذ . وانتهز بعض الأعيان فى غربى إنجلترا وشمالها فرصة غيابه فى نورمندى وحاولوا إيقاد نار الثورة فى البلاد (١٠٦٧) ، فعاد إليهم واندفع فى البلاد ينتقم من أهلها أشد الانتقام ، فأطلق لنفسه فيه العنان يقتل الأهلين ، ويهلك الحرث والنسل ، ويدمر البيوت بأساليب منظمة محكمة لم تنج إنجلترا من آثارها كلها حتى القرن التاسع عشر(٢٤) . وقسم أخصب أراضى المملكة إلى ضياع واسعة وزعها على أعوانه النورمان ، وشجعهم على بناء قصور حصينة يتخذونها قلاعاً يدافعون بها عن أنفسهم ضد السكان المعادين(*) . واحتفظ هو بمساحات من الأرض واسعة لتكون ملكاً للتاج ، واتخذ قطعة من هذه الأرض طولها ثلاثون ميلا ؛ مسارح للملك يصيد فيها الوحوش . ودمر كل ما كان فى هذه البقعة من منازل ، وكنائس ، ومدارس ليفسح الطريق للخيل والكلاب ، وكان يعاقب كل من يقتل أيلا أو أيلة فى الغابة الجديدة بفقء عينه(٢٥) .

(*) وربما كان ربن هود Robin Hood ، الشهير فى القصص والغامض فى التاريخ الصحيح ، أحد الإنجليز السكسون الذين ظلوا أكثر من مائة عام يحاربون الفاتحين النورمان حرب العصابات . وكان الفقراء الإنجليز يحيون ذكراه ، بوصفه ثائراً لم يغلب يعيش فى غابة شروود Sherwood ، ولا يعترف بالقانون النورمانى وينهب مال الأعيان ، ويساعد أرقاء الأرض ، ويعبد القديسين .

وهكذا نشأت فى إنجلترا طبقة الأشراف الجدد الذين لا يزال أبناؤهم من حين إلى حين يسمون بأسماء فرنسية ، وانتشر الإقطاع الذى كان من قبل ضعيفاً نسبياً فى طول البلاد وعرضها ، وحول الشعب أرقاء أرض . وجعلت الأرض كلها ملكا للملك ، ولكنه سمح للإنجليز الذين استطاعوا أن يبرهنوا على أنهم لم يقفوا فى وجه الفاتحين بأن يعودوا إلى شراء أرضهم من الدولة . وأراد وليم أن يسجل مغانمه ويعرفها ، فأرسل عماله فى عام ١٠٨٣ ليسجلوا اسم مالك كل قطعة من الأرض فى إنجلترا ، وحالها ، ومحتوياتها ؛ وقد ورد فى هذا السجل أن الملك « شدد عليهم فى أوامره تشديداً لم تبق معه ياردة واحدة من الأرض ، لا . . . بل ولا ثور أو بقرة ، أو خنزير ، لم يكتب فى سجله »(٣٦) . وكانت نتيجة هذا العمل هو **كتاب الأعظام** وهو اسم ينذر بما سيكون له من شأن خطير إذ أصبح هو « الحكم » الأخير فى جميع المنازعات العقارية . وأراد وليم أن يضمن لنفسه معونة البلاد الحربية ، ويحد من سلطان أتباعه العظام ، فاستقدم إليه جميع كبار الملاك فى إنجلترا — وكان عددهم ستين ألفاً — إلى اجتماع عقـد فى سلزبرى Salisbury (١٠٨٦) ، وجعل كل واحد منهم يقسم يمين الإخلاص التام للملك . وكان عمله هذا احتياطاً حكيماً ضد الإقطاعية الفردية التى كانت وقتئذ تقطع أوصال فرنسا .

وبعد فلابد للإنسان أن يتوقع قيام حكومة قوية بعد الفتح . وهذا ما حدث فى إنجلترا وقتئذ ، فقد أقام وليم أو خلع فرساناً ونبلاء ، وأساقفة ورؤساء أساقفة وأديرة ؛ ولم يتردد لحظة فى أن يزج فى السجن لوردة عظماء ؛ وأن يتمسك بما له من حق تعيين رجال الدين فى مناصبهم . ويقاربه فى هذه الناحية جريجورى السابع الذى كان مثله ذا حول وطول ، والذى كان فى هذا الوقت عينه يستقدم الإمبراطور هنرى الرابع إلى كنوسا Canossa(*) . وأراد الملك أن يمنع الحرائق

(*) يشير المؤلف هنا إلى مذله كنوسا وسيرد ذكرها فيما بعد (المترجم) .

فأمر سكان إنجلترا بإطفاء نار المدافئ أو تغطيتها(*) قبل الساعة الثامنة مساء ، ومعنى هذا أن يأوى الأهلون إلى فراشهم فى فصل الشتاء فى هذا الوقت(٢٧) . واشتدت حاجته إلى المال للإنفاق منه على حكومته الآخذة فى الاتساع ، وعلى فتوحه المترامية الأطراف ، ففرض ضرائب باهظة على جميع البيوع ، والواردات ، والصادرات ، واستخدام القناطر ، والطرق . وأعاد جميع الضرائب التى ألغاها من قبل إدورد المعترف . ولما علم أن بعض الإنجليز أودعوا أموالهم فى سراديب الأديرة ليخفوها عنه ، أمر بتفتيش جميع الأديرة وبنقل كل ما هو مخبأ فيها إلى بيت ماله ، ولم يكن بلاطه الملكى يتورع عن قبول الرشا ، وتسجيلها بأمانة فى السجل العام(٢٨) . لقد كانت حكومته فى صراحة تامة حكومة فاتحين يعتزمون أن يجعلوا مكاسب مغامرتهم تتناسب مع ما تعرضوا له من الأخطار .

وكان لرجال الدين النورمان نصيبهم من النصر ، فقد جيء بلافرانك Lafranc القدير المرن من كائن Caen ونصب كبيراً لأساقفة كنتربرى وكبيراً لوزراء الملك . فلما جاء وجد رجال الدين الأنجليسكسون مولعين بالصيد ، ولعب النرد ، والزواج(٢٩) ، فاستبدل بهم قساوسة وأساقفة ، ورؤساء أديرة من النورمان ؛ ووضع دستوراً جديداً للأديرة هو المعروف بعادات كنتربرى ، ورفع مستوى رجال الدين الإنجليز من الناحيتين العقلية والخلقية ؛ وأصدر وليم — بإيحاء منه فى أغلب الظن — قراراً بفصل المحاكم الكنسية عن المحاكم المدنية ، وأمر بأن ينظر فى جميع المسائل الروحية بمقتضى قانون الكنيسة ، وتعهد بأن تنفذ الدولة كل ما تحكم به المحاكم الكنسية من عقوبات . وأمر بأن تجبى العشور من الشعب لمعونة الكنيسة ، ولكنه طلب ألا يذاع أو ينفذ قرار بابوى أو رسالة بابوية فى إنجلترا بغير موافقته ، وألا يدخل إنجلترا مبعوث من قبل البابا إلا بإذن ملكى . وفصلت من ذلك الحين جمعية الأساقفة الوطنية عن الويتان وكانت من قبل جزءاً منه ، وأصبحت

(*) وتسمى هذه العملية باللغة الإنجليزية Curfew . (المترجم)

هيئة مستقلة ، لا تنفذ قراراتها إلا إذا صادق عليها الملك(٣٠) .

ووجد وليم أن حكم مملكته أيسر عليه من حكم أسرته ، شأنه فى هذا شأن الكثرة الغالبة من عظماء الرجال . فقد كانت الإحدى عشرة السنة الأخيرة من حياته مليئة بالنزاع بينه وبين زوجته الملكة ماتلدا Matilda ، وطلب ابنه ربرت أن يكون له السلطان الكامل على نورماندى ، فلما رفض طلبه هذا خرج على أبيه ، وحاربه وليم حرباً غير حاسمة ، ثم صالحه على أن يوصى له بهذه الدوقية بعد وفاته . وزاد جسم الملك زيادة صعب عليه معها أن يركب الخيل ؛ وحارب فليب الأول ملك فرنسا لخلاف على الحدود ؛ ولما طال مكثه فى رون ، وكاد يعجز عن الحركة لبدانته ، سخر منه فليب — على حد قول بعضهم — بأن قال إن ملك إنجلترا « ملازم الفراش للنفاس » ، وأن الشموع ستوقد فى الاحتفال العظيم الذى سيقام فى الكنيسة بعد أن يلد . وأمر وليم جيشه أن يحرق مانت Mantes عن آخرها هى وما جاورها ، وأن تتلف كل المحصولات والفاكهة ، ونفذ أمره بحذافيره . وبينما كان وليم يسير فوق جواده وسط مظاهر التخريب والتدمير وهو ثمل بخمرة النصر إذ عثر به الجواد فسقط فوق قربوس السرج الحديدى ، فحمل إلى صومعة القديس جرڤاس Gervase القريبة من رون ، حيث اعترف بذنوبه اعترافاً كاملا ، وأدلى بوصيته ، وكفر عن هذه الذنوب بأن وزع ثروته على الفقراء والكنيسة ، ووهب المال لإعادة بناء مانت . وترك أبناؤه جميعاً ، عدا ، هنرى ، فراش موته ليقتتلوا من أجل وراثة العرش ، وفر ضباطه وخدمه بما استطاعوا أن يستولوا عليه من المغانم ؛ وحمل جثته قروى من أتباعه إلى « دير الرجال » Abbay aux Hommes فى كائن (١٠٨٧) . ووجد أن التابوت الذى صنع له لا يتسع لجثته ؛ فلما أراد الخدم أن يحشروا جسمه الضخم فى هذا التابوت الضيق ، انفجر الجسم ؛ وملأ الكنيسة كلها برائحة الملك الكريهة(٣١) .

وكانت نتائج الفتح النورمانى كثيرة يخطئها الحصر ، فقد فرض شعب جديد

وفرضت طبقة جديدة على الدنمرقيين الذين حلوا محل الإنجليز والسكسون ، الذين غلبوا البريطانيين الرومان ، الذين فرضوا سيادتهم على الكلت(*) ؛ وكان لابد أن تمر عدة قرون قبل أن يثبت الأنجليسكسون والكلت وجودهم فى الدم البريطانى واللغة البريطانية ؛ وكان بين النورمان والدنمرقيين أواشج قربى ، ولكنهم فى المائة السنين التى جاءت بعد رولو Rollo أصبحوا فرنسيين ، فلما نزلوا بإنجلترا أصبحت عاداتها الرسمية ولغتها الرسمية عادات ولغة فرنسية ، وظلت كذلك ثلاثة قرون . وجاء مع الفاتحين من فرنسا إلى إنجلترا نظام الإقطاع بكل ما فيه من زينة الخيول ، وفروسية ، وعلامات الدروع ونقوشها ، والمفردات التى تعبر عنها . وفرض رق الأرض على إنجلترا فرضاً كاملا قاسياً إلى حد لم تعرفه من قبل فى تاريخها[٣٢] ، وكان المرابون اليهود الذين جاءوا مع وليم حافزاً جديداً للتجارة والصناعة ؛ ونشأت من الاتصال الوثيق بين إنجلترا والقارة الأوربية أفكار جديدة فى الأدب والفن ، وبلغ فن العمارة النورمانى ذروة مجده فى بريطانيا ؛ وجاء الأشراف الجدد بعادات جديدة وأخلاق جديدة ، وحيوية جديدة ، وبنظام زراعى خير مما كان فى البلاد من قبل . وحسن الأشراف والأساقفة النورمان النظام الإدارى للدولة تحسيناً كبيراً فقد أصبح الحكم مركزياً ، ووحدت الدولة وإن يكن هذا التوحيد قد تم عن طريق الحكم المطلق ، وأصبحت الحياة والأموال أكثر أمناً من ذى قبل ، وأقبلت إنجلترا على عهد طويل من السلام الداخلى لم تغز بعده أبداً غزواً ناجحاً .

(*) أبقينا هذا التكرار فى اسم الموصول وصلته مجاراة للأصل الإنجليزى لأنه مقصود بذاته . (المترجم)

٢ – تومس أبكت

من الأقوال المأثورة فى إنجلترا أن يتوسط ملك ضعيف بين كل ملكين قويين ، ولكن الحقيقة أن الملوك الضعاف الذين يتوسطون ملكين قويين لا حد لعددهم . ومصداقاً لهذا نقول إنه لما مات وليم الفاتح استولى ابنه ربرت على نورمندى وجعلها مملكة مستقلة ، وتوج ابنه الأصغر منه وليم روفس (الأحمر ١٠٨٧ – ١١٠٠) ملكا على إنجلترا بعد أن قطع على نفسه عهداً بأن يسلك مسلكا حسناً مع لانفكرانك متوّجه ووزيره . وحكم هذا الملك حكما استبداديا حتى عام ١٠٩٣ ، ثم مرض ووعد بأن يكون حسن السلوك ، فلما شفى من مرضه ، عاد إلى استبداده وظل كذلك حتى اغتالته يد مجهولة فى أثناء صيده . وظل الرجل التقى أنسلم الذى أصبح بعد لانفكرانك كبير أساقفة كنتربرى يقاوم مقاومة طويلة ، أعيد بسببها إلى فرنسا .

ودعا ابن ثالث من أبناء وليم الفاتح يدعى هنرى (١١٠٠ – ١١٣٥) أنسلم إلى العودة ، فطلب المطران – الفيلسوف أن يمتنع الملك عن اختيار الأساقفة ، فلما رفض الملك هذا الطلب نشب بينهما نزاع طويل اتفق بعده على أن تختار جمعيات رجال الكنائس والرهبان بحضور الملك نفسه الأساقفة الإنجليز ورؤساء الأديرة ، وأن يقدموا له مراسم الولاء بوصفه مصدر أملاكهم وسلطاتهم الإقطاعية . وكان هنرى يحب المال ويكره التبذير ؛ ولهذا فرض الضرائب الفادحة ولكنه راعى جانب الاقتصاد والعدالة فى حكمه ؛ وحافظ على السلم والنظام فى إنجلترا ، عدا معركة واحدة – فى تنشبريه عام ١١٠٦ – استرد فيها نورمندى إلى التاج البريطانى . وأمر النبلاء أن « يضبطوا أنفسهم فى معاملاتهم لزوجاتهم وأبنائهم وبنات رجالهم »[٣٣] . وكان له هو أبناء غير شرعيين وبنات غير شرعيات من عشيقاته المتعددات[٣٤] ، ولكنه أوتى من الكياسة والحكمة

ا جعله يتزوج مود Maud سليلة الملوك الاسكتلنديين والإنجليز السابقين على عهد النورمان ، فطعم بذلك الأسرة المالكة الجديدة بالدم الإنجليزى القديم .

وأرغم هنرى الأشراف والقساوسة على أن يقسموا يمين الولاء لابنته ما تلدا وابنها الشاب الذى أصبح فيما بعد هنرى الثانى . فلما مات الملك غتصب العرش استيفن أمير بلوا Blois وحفيد وليم ، وظلت إنجلترا أربعة عشر عاما تعانى كوارث الموت والضرائب الفادحة فى حرب داخلية امتازت بأشد ضروب القسوة والإرهاب(٣٥) . وكبر هنرى الثانى فى هذه الأثناء ، وتزوج اليانور الأكتانية Eleanor of Aquitaine واستولى على دوقيتها ، وغزا إنجلترا ، وأرغم استيفن على الاعتراف به وارثاً للعرش . ولما توفى استيفن صار ملكا على انجلترا (١١٥٤) ؛ وبذلك انتهى عهد أسرة النورمان وبدأ عهد أسرة البلانتجنت(*) . وكان هنرى رجلا حاد الطبع ، كثير المطامع ، قوى الذهن ، يميل بعض الميل إلى الكفر بالله(٣٦) . وكانت له السيادة الاسمية على مملكة تمتد من اسكتلندة إلى جبال البرانس ، وتشمل نصف فرنسا ، ولكنه ألفى نفسه بادىء العجز فى مجتمع إقطاعى ، مزق فيه كبار الأشراف بجنودهم المرتزقة وحصونهم المنيعة الدولة إلى إقطاعيات يحكمونها بأنفسهم ، ولهذا شرع الملك بنشاط رهيب يجمع المال والرجال ، ويحارب الأشراف ويخضعهم سيداً بعد سيد ، ويدمر القصور الاقطاعية الحصينة ، ويوطد أركان النظام والأمن والعدالة والسلم . وأخضع لحكم إنجلترا أيرلندة التى غلبها ونهبها قراصنة ويلز ؛ وكان فى إخضاعها حكيما مقتصداً فى ماله وفى جنده . ولكن هذا الرجل القوى ، الذى يعد من أعظم الرجال فى تاريخ إنجلترا كله ، قد ذل وتحطم حين التقى بتومس أبكت Thomas à Becket ، وهو رجل

(*) كان جوفرى الأنجوى Jeoffrey of Anjou والد هنرى الثانى قد لبس عسلوجاً من نبات الرتم (المسمى planta genêt بالفرنسيه) فى قبعته .

ذو إرادة لا تقل مضاء عن إرادته ودين أعظم قوة من أية دولة قائمة فى ذلك الوقت .

ولد تومس فى لندن عام ١١١٨ من أبوين نورمانيين من أبناء الطبقة الوسطى . واسترعى الغلام انتباه ثيوبولد Theobald كبير أساقفة كنتربرى، بذكائه الناضج قبل الأوان ، فأرسله إلى بولونيا Bologna وأكسير Auxerre ليدرس الشرائع المدنية والكنسية . ولما عاد إلى إنجلترا انتظم فى سلك رجال الدين ، وما لبث أن ارتقى فى المناصب الدينية حتى صار كبير شمامسة كنتربرى . ولكنه كان مثل كثيرين غيره من رجال الدين فى تلك القرون الماضية ، رجل عمل أكثر مما كان رجل دين ؛ فكانت الشئون الإدارية والدبلوماسية أكثر ما تظهر فيها مهارته ؛ وأظهر فى هذين الميدانين مقدرة فائقة رفعته إلى مقام الوزارة ولم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره . وساد الوئام بينه وبين هنرى إلى حين ، فكان المستشار الوسيم موضع ثقة الملك فى أخص شئونه ، يشاركه ألعاب الفروسية ، ويكاد يشاركه فى ثروته وسلطانه . وكانت مائدته أفخم الموائد فى إنجلترا كلها ، وكانت صدقاته للفقراء تضارع كرم ضيافته لأصدقائه . وكان فى الحرب يقود بنفسه سبعمائة من الفرسان ، ويبارز الأعداء فرداً لفرد ، ويضع الخطط الحربية ؛ ولما أرسل فى بعثة إلى باريس ارتاع الفرنسيون حين رأوا حاشيته الفخمة المؤلفة من ثمان مركبات ، وأربعين جواداً ، ومائتين من الأتباع ؛ وقالوا فى أنفسهم ترى ماذا يكون الملك الذى له مثل هذا الوزير !

وعين كبيراً لأساقفة كنتربرى فى عام ١١٦٢ ، فلم يكد يتولى منصبه حتى تبدلت أساليبه تبدلا تاماً فجائياً كاملا كأنما حدث ذلك بسحر ساحر ، فتخلى عن قصره الفخم ، وثيابه الملكية ، وأصدقائه من الأشراف ، وبعث إلى الملك باستقالته من الوزارة وارتدى الثياب الخشنة ، فلبس شعاراً من الصوف ، وعاش على الخضر ، والحبوب ، والماء ، وكان فى كل ليلة يغسل قدمى ثلاثة عشر

متسولا وأضحى من ذلك الوقت مدافعاً عن جميع حقوق الكنيسة ، وامتيازاتها ، ومصادر إيرادها . وكان من بين هذه الامتيازات عدم محاكمة رجال الدين أمام المحاكم المدنية . وثارت ثائرة هنرى ، وهو الذى كان يطمع فى أن يبسط سلطانه على كافة الطبقات ، حين وجد أن المحاكم الكنسية كثيراً ما تترك رجال الدين دون أن تعاقبهم على ما يرتكبونه من الجرائم ، ولهذا دعا فرسان إنجلترا وأساقفتها إلى اجتماع عقده فى كلارندن Clarendon (١١٦٤) ، وحملهم على أن يوقعوا دستور كلارندن الذى قضى على كثير من الحصانات التى كان يتمتع بها رجال الدين . ولكن بكت رفض أن يختم الوثائق بخاتم أسقفيته الكبرى ، فما كان من هنرى إلا أن أذاع القوانين الجديدة غير عابئ بهذا الرفض ، وقدم الرئيس الدينى المريض للمحاكمة أمام المحكمة الملكية . وجاء بكت ، وعارض فى هدوء أساقفته الذين أعلنوا مع الملك أنه مذنب لخروجه على قوانين سيده الإقطاعى ملك البلاد . ولما أمرت المحكمة بالقبض عليه أعلن أنه سيستأنف القضية أمام البابا ، ثم خرج سالماً من القاعة بثيابه الأسقفية التى لم يجرؤ أحد على لمسها . وأطعم فى ذلك المساء عدداً كبيراً من الفقراء فى بيته بلندن ، ثم فر فى أثناء الليل متخفياً سالكاً طرقاً ملتوية إلى القناة الإنجليزية ، وعبر المضيق المضطرب الماء فى قارب ضعيف ، ووجد ملجأ له فى دير قائم فى سانت أومر St Omer فى بلاد ملك فرنسا ، ثم قدم استقالته من منصب كبير الأساقفة إلى البابا اسكندر الثالث . وأيده البابا فى موقفه ، وأعاد تعيينه فى كرسيه ، ولكنه أرسله ليعيش مؤقتاً معيشة راهب سسترسى فى دير پنتنبى Pontigny .

ونفى هنرى من إنجلترا جميع أقارب بكت ذكوراً وإناثاً ، صغاراً كانوا أو كباراً . ولما جاء هنرى إلى نورمندى خرج تومس من صومعته وصعد منبراً فى ڤيزلاى Vezelay ، وأعلن حرمان جميع رجال الدين الإنجليز الذين أيدوا دستور كلارندن (١١٦٦) . وكان جواب هنرى أن هدد بمصادرة أملاك جميع الأديرة

والصوامع القائمة فى إنجلترا ، ونورمندى ، وأنجو ، وأكتين ، والمنتسبة إلى دير بنتني إذا استمر هذا الدير على إيواء بكت . وتوسل الرئيس المرتاع إلى بكت أن يغادر الدير ، وعاش الرجل المتمرد المريض من الصدقات فى نزل قذر ببلدة سان Sens . وأغرى لويس السابع ملك فرنسا البابا اسكندر الثالث ، فأمر هنرى أن يعيد كبير الأساقفة إلى كرسيه ، وأنذره إذا رفض بأنه سيحرم إقامة جميع الصلوات والخدمات الدينية فى الأقاليم الخاضعة لحكم إنجلترا (١١٦٩) . فاضطر هنرى إلى الخضوع ، وجاء إلى أفرانش Avranches ، والتقى ببكت ، ووعده بأن يصلح كل ما يشكو منه ، وأمسك بركاب كبير الأساقفة المنتصر وهو يهم بالركوب عائداً إلى إنجلترا (١١٦٩) . فلما عاد تومس إلى كنتربرى كرر قرار الحرمان على الأساقفة الذين قاوموه . فذهب بعضهم إلى هنرى فى نورمندى وأثاروا غضبه ، ولعلهم بالغوا فى وصف مسلك بكت . فصاح هنرى قائلا : « عجباً ! . . . أيجرؤ رجل يُطعم خبزى . . . على أن يهين الملك والمملكة جميعها ، ولا يأخذ بحقى واحد من أولئك الخدم الكسالى الذين يُطعمون على مائدتى فيغسل تلك الإهانة ؟ » . وذهب إلى إنجلترا أربعة من الفرسان الذين سمعوه ، من غير علم الملك على ما يظهر ؛ ووجدوا كبير الأساقفة عند مذبح كنيسة كنتربرى فى يوم ٣٠ من ديسمبر سنة ١١٧٠ ، فقطعوا جسمه بسيوفهم وهو واقف فى مكانه .

ورو‌عت المسيحية كلها وثار ثائرها على هنرى ودمغته من تلقاء نفسها بطابع الحرمان العام . فاعتزل الملك العالم فى حجرته ثلاثة أيام لا يذوق فيها الطعام ؛ أصدر بعدها أمره بالقبض على القتلة ، وبعث بالرسل إلى البابا يعلنون براءته من الجريمة ، ووعد بأن يكفّر عن ذنبه بالطريقة التى يرتضيها الإسكندر . ثم ألغى دستور كلارندن ، وردّ إلى الكنيسة جميع مالها فى بلاده من حقوق وأملاك . وقام الناس فى هذه الأثناء يقدسون بكت ويعلنون أن معجزات كثيرة حدثت عند قبره ، وأعلنت الكنيسة قداسته رسميا (١١٧٢) ، وسرعان ما أخذت الآلاف

المؤلفة تحج إلى ضريحه . وجاء هنرى أخيراً إلى كنتربرى حاجا نادماً ؛ ومشى الثلاثة الأميال الأخيرة من الطريق على الحجارة الصوان حافى القدمين ينزف الدم منهما ؛ ثم استلقى على الأرض أمام قبر عدوه الميت ، وطلب إلى الرهبان أن يضربوه بالسياط ، وتقبل ضرباتهم ؛ وهكذا تحطمت إرادته القوية أمام السخط العام عليه والمتاعب المتزايدة فى بلاده . وأخذت زوجته إليانور ، التى طردها الملك الزانى وسجنها ، تأتمر به مع أبنائه لتخلعه عن العرش ؛ وتزعم هنرى أكبر أبنائه فتنتين إقطاعيتين قامتا عليه فى عامى ١١٧٣ و ١١٨٣ ، ومات وهو خارج على أبيه . ثم تحالف ولداه رتشرد وچون ، بعد أن طال انتظارهما موته ، مع فليب أغسطس ملك فرنسا وانضما يه فى حرب ضد أبيهما ، ولما طرد من لمان Le Mans جهر بالطعن على الإله الذى حرمه من البلدة التى ولد فيها وأحبها ، ومات فى شينون Chinon (١١٨٩) ؛ وكان آخر ما نطق به أن سب أولاده الذين غدروا به ، والحياة التى وهبته المجد والسلطان ، والغنى ، والعاشقات ، والأعداء ، والعار ، والغدر ، والهزيمة .

لكنه لم يخفق الإخفاق كله . نعم إنه قد سلم لبكت الميت بما لم يسلم به لبكت الحى ، لكن حجة هنرى هى التى كسبت المعركة على توالى الأيام : ذلك أن المحاكم المدنية هى التى وسعت اختصاصها وبسطت سلطانها فى عهد كل ملك جاء بعده على رعايا الملك سواء كانوا من رجال الدين أو رجال الدنيا(٣٧) . ولقد حرر القانون الإنجليزى من القيود الكنسية والإقطاعية ، ومهد السبيل لنمائه ذلك النماء الذى جعله من أجل الأعمال التشريعية التى ظهرت منذ عهد رومة الإمبراطورية . ولقد حذا حذو جده العظيم وليم الفاتح فقوّى حكومة إنجلترا ووحّدها بإخضاع الأشراف المتمردين الذين أشاعوا الفوضى فى البلاد إلى القانون والنظام . وكان نجاحه فى هذه الناحية أكثر مما يجب أن يكون : ذلك أن الحكومة المركزية قويت حتى كادت تصبح حكومة مطلقة غير مسئولة إلى أقصى حد ، وحتى

كانت الجولة الثانية فى المعركة التاريخية بين النظام والحرية هى التى قام بها الأشراف المناضلون عن الحرية .

٣ – العهد الأعظم أو مجنا كارتا

لقد ورث رتشرد الأول الملقب بلقب الأسد عرش أبيه دون أن ينازعه منازع ، وكان رتشرد ابن اليانور المغامرة المتهورة التى لا تغلب ، ولقد تتبع خطاها ولم يتبع خطا هنرى القدير النكد . وولد رتشرد فى أكسفورد ١١٥٧ وانتدبته أمه ليصرف شئون أملاكها فى أكتين ، وفيها أشربت نفسه بثقافة پروڤانس المتشككة ، و« بعلوم » الشعراء الغزليين « المرحة » ولم يعد قط رجلا إنجليزيا . وكان حبه للمغامرات والغناء أكثر من حبه للسياسة والإدارة ، وامتلأت الاثنتان والأربعون سنة التى عاشها بحوادث روائية تكفى لأن تملأ مائة عام ، وكان لشعراء زمانه مثالا يحتذونه ونصيرا يلقون منه التشجيع . وقد قضى الخمسة الشهور الأولى من حكمه فى جمع المال اللازم لحرب صليبية ؛ فخص بهذا الغرض جميع الأموال التى خلفها وراءه هنرى الثانى ، وأقصى آلافاً من الموظفين ثم أعاد تعيينهم نظير جعل يتقاضاه منهم ، وباع صكوكاً بالحرية للمدن التى تستطيع أداء ثمنها ، واعترف باستقلال اسكتلندة نظير ١٥٫٠٠٠ مارك ، ولم يقبل هذا الثمن القليل لأنه يزهد فى المال بل لأنه شديد الحب للمغامرات . ولم يمض على اعتلائه العرش نصف عام حتى أبحر إلى فلسطين ، ولم يكن حرصه على سلامته أكثر من حرصه على حقوق غيره ؛ وقد أثقل كاهل البلاد بالضرائب إلى أقصى طاقتها ، وبدد ما جمعه من المال فى الترف ، والولائم ، والمظاهر الكاذبة ، واندفع فى العمل خلال العقد الأخير من القرن الثانى عشر بجرأة وتهور جعلا زملاءه الشعراء يضعونه فى صف الإسكندر ، وآرثر ، وشارلمان .

وحارب صلاح الدين وأحبه ، وعجز عن هزيمته وأقسم أن يهزمه ، وقفل

راجعا إلى بلاده وأسره فى طريق عودته (١١٩٢) ليوپولد دوق النمسا ، وكان قد أساء إليه فى آسية ، وأسلمه ليوپولد فى بدء عام ١١٩٣ إلى الإمبراطور هنرى السادس . وكان لهنرى هذا ثأر قديم عند هنرى الثانى ورتشرد ، واحتفظ هنرى السادس بملك إنجلترا سجيناً فى حصن ببلدة درنشتين Dürnstein على نهر الدانوب على الرغم من القانون الذى كان معترفا به فى أوربا بوجه عام والذى يحرم اعتقال رجال الحروب الصليبية ؛ وطلب إلى إنجلترا فدية قدرها ١٥٠٫٠٠٠ مارك (١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) أى نصف الإيراد السنوى لأملاك التاج البريطانى . وكان چون أخو رتشرد وقتئذ يحاول اغتصاب العرش ، فلما لقى مقاومة فر إلى فرنسا وانضم إلى فليب أغسطس فى هجومه على إنجلترا . ونكث فليب بعهد قطعه على نفسه بالمحافظة على السلم ، فهاجم الأملاك الإنجليزية فى فرنسا واستولى عليها ، وعرض رشا كبيرة على هنرى السادس ليبقى رتشرد أسيراً . وضاقت نفس رتشرد بسجنه المريح ، وكتب قصيدة من الشعر الممتاز(٣٨) ، يطلب فيها إلى بلاده أن تفتديه من الأسر . وكانت إليانور فى أثناء هذه الأحداث المضطربة تحكم البلاد حكماً ناجحاً بوصفها نائبة عن الملك معتمدة على النصائح الحكيمة التى يقدمها لها القاضى الأكبر هيوبرت ولتر Hubert Walter كبير أساقفة كنتربرى ، ولكنهما وجدا من العسير عليهما جمع الفدية المطلوبة . ولما أطلق سراح رتشرد آخر الأمر (١١٩٤) أسرع إلى إنجلترا ، وجبى الضرائب وجمع الجند وقاد بنفسه جيشاً عبر به القناة الإنجليزية ليثأر لنفسه ولإنجلترا من فليب . وتقول الرواية المأثورة إنه ظل عدة سنين يرفض القداس لئلا يطلب إليه أن يصفح عن عدوه الغادر . فلما تم له استعادة جميع الأملاك التى استولى عليها فليب ركن إلى السلم التى أمكنت فليب من أن يعيش . وتنازع فى هذه الأثناء مع أحد أتباعه الإقطاعيين وهو أدهمار Adhemar ڤيكونت مدينة ليموج Limoges ، وكان قد وجد كنزاً من الذهب مخبوءاً فى أرضه ، وعرض على رتشرد جزءاً منه ، لكن رتشرد أبى إلا أن

يأخذه كله ، وحاصر أدهمار . وأصاب رتشرد سهم منطلق من قصر أدهمار الحصين فمات رتشرد « قلب الأسد » فى الثالثة والأربعين من عمره إثر نزاع قام على كومة من الذهب .

وخلفه على العرش أخوه چون (١١٩٩ — ١٢١٦) بعد أن لقى بعض المقاومة وعدم الثقة ، وبعد أن اضطره ولتر كبير الأساقفة أن يقسم حين تتويجه أنه قد نال عرشه منتخبا من الأمة (أى الأعيان والمطارنة) وبنعمة الله . ولكن چون الذى خان أباه ، وأخاه ، وزوجه ، لم تكن تقف فى وجهه يمين أخرى بعد أيمانه الماضية أو يهتم كثيراً بهذه اليمين ، ولم يكن يبدو عليه شيء من التمسك بالعقائد الدينية شأنه فى هذا شأن هنرى الثانى ورتشرد الأول ، حتى ليقال إنه لم يتناول قط القربان المقدس بعد أن بلغ سن الرشد ، بل لم يتناوله أيضاً فى يوم تتويجه[٣٩] . واتهمه الرهبان بالكفر وقالوا إنه اقتنص مرة وعلاً سميناً وقال : « ما أسمن هذا الحيوان وما أحسن طعامه ! ولكنى أقسم أنه لم يسمع قط بالقداس » وغضب الرهبان من قوله هذا لأنه رأوا فيه سخرية ببدانتهم[٤٠] . وكان چون رجلا حاد الذهن مجرداً من الضمير ، وكان إدارياً حازماً ممتازاً « ولم يكن صديقاً حميماً لرجال الدين » ، ولهذا افترى عليه بعض الافتراء المؤرخون الإخباريون من رجال الأديرة كما يقول هولنشد Holinshed[٤١] ؛ ولم يكن مخطئاً على الدوام ، ولكنه كثيراً ما أغضب الناس بمزاجه الحاد ، وملحه ، وفكاهاته البذيئة الشائنة ، واستبداده وغطرسته ، وما فرضه من الضرائب الفادحة التى يحس أنه مضطر إليها للدفاع عن الأملاك الإنجليزية فى القارة ضد فليب أغسطس .

ونال چون فى عام ١١٩٩ على إذن من البابا إنوسنت الثالث بتطليق إزبل Isabel أميرة جلوسستر Gloucester بحجة أنها تمت إليه بصلة القرابة ، ولم يلبث

(*) ويسمى من قبيل السخرية باللى لا أرض له Laekland لأنه لم ينل من أبيه إقطاعية فى أرض القارة كما نال أخوه .

بعد طلاقها أن تزوج بإزبلا أميرة أنجوليم Isabella of Angoulême رغم أنها كانت مخطوبة لكونت لوزنيان Lusignan . وغضب الأشراف فى كلا البلدين لهذا العمل واستنجد الكونت بفليب ليأخذ له بحقه . واحتج فى الوقت نفسه بارونات أنجو ، وتورين ، وپواتو Poitou ، ومين لدى فيليب قائلين إن جون يستبد بأقاليمهم . وكانت فروض الطاعة الإقطاعية التى ترجع إلى عهد تسليم نورمندية إلى رولو تقضى بأن يعترف الأعيان الإقطاعيون فى فرنسا ، حتى فى المقاطعات التى تملكها إنجلترا ، بملك فرنسا سيداً إقطاعياً عليهم ؛ وكان چون حسب قانون الإقطاع ، بوصفه دوق نورمندية ، تابعاً لملك فرنسا ، وأمر فليب تابعة الملكى بالقدوم إلى باريس ، ليبرئ نفسه من عدة تهم وادعاءات ، وأبى چون أن يطيع الأمر ، فقضت محكمة الإقطاع الفرنسية بمصادرة أملاكه فى فرنسا ، ومنحت نورمندية ، وأنچو ، وپواتو لآرثر كونت بريطانى Briltany وحفيد هنرى الثانى . وطالب آرثر بعرش إنجلترا ، وحشد لذلك جيشاً ، وحاصر الملكة إليانور فى ميرابو Mirabeau ، فقادت الملكة بنفسها ، وهى فى الثمانين من عمرها ، قوة للدفاع عن ولدها المشاكس . وأنقذها چون من عدوها ، وقبض على آرثر ، ويبدو أنه أمر بقتله ، فما كان من فليب إلا أن غزا نورمندية ، وكان جون وقتئذ يقضى شهر العسل فى رون وفى شغل شاغل عن قيادة جنده ، فمنوا بالهزيمة . وفرچون إلى إنجلترا ، وانتقلت نورمندية ، ومين ، وأنچو ، وتورين إلى التاج الفرنسى .

وبذل البابا إنوسنت الثالث ، ولم يكن على وئام مع فليب ، كل ما فى وسعه لمساعدة چون ، ثم دب النزاع بينه بين چون . وكان سبب هذا النزاع أنه على أثر وفاة هيوبرت ولتر (١٢٠٥) حمل الملك كبار الرهبان فى كنتربرى على أن يختاروا چون ده جراى John de Gray ، أسقف نورِوك Norwich للمنصب الشاغر ، ولكن طائفة من الرهبان الشبان اختارت رچنلد Reginald نائب رئيس ديرهم ليكون كبيراً للأساقفة . وأسرع المرشحان المتنافسان إلى رومة

يطلب كل منهما تأييد البابا ؛ ولكن إنوسنت رفض أن يؤيدهما جميعاً ، وعين فى المنصب الشاغر استيفن لانجتن Stephen Langton ، وهو مطران إنجليزى قضى الخمس والعشرين سنة الأخيرة مقيماً فى باريس ، وكان وقت اختياره أستاذاً للاهوت فى جامعتها . واحتج چون على هذا الاختيار وقال إن لانجتن لم يكن لديه ما يؤهله لأن يشغل أكبر منصب دينى فى إنجلترا ، وهو منصب يجمع بين الوظائف السياسية والدينية . وتجاهل إنوسنت احتجاج چون ، ودشن استيفن كبيراً لأساقفة كنتربرى (١٢٠٧) فى ڤيتربو Viterpo من أعمال إيطاليا . وتحدى چون لانجتن بأن يطأ بقدمه أرض إنجلترا ، وأنذر رهبان كنتربرى العصاة بحرق الأديرة فوق رؤوسهم ، وأقسم « بأسنان الله » بأن ينفى كل قس كاثوليكى من إنجلترا إذا أصدر البابا قراراً بحرمانها ، ويسمل أعين بعضهم ويجدع أنوفهم جزاء وفاقاً لهم على فعل رئيسهم . وأصدر البابا قرار الحرمان (١٢٠٨) ، وامتنعت كل الخدمات الدينية فى إنجلترا ما عدا التعميد والمسح وقت الوفاة . وأغلق القساوسة الكنائس ، وسكنت الأجراس ، ودفن الموتى فى أرض لم تدشن ؛ ورد چون على هذه الأعمال بمصادرة جميع أملاك الكنائس والأديرة وأعطاها لغير رجال الدين ؛ وحرم إنوسنت الملك من حظيرة المسيحية ، ولكن چون لم يعبأ بقرار الحرمان ، وانتصر فى عدة وقائع حربية ' أيرلندة ، واسكتلندة وويلز . ووجفت قلوب الشعب هلعاً من قرار الحرمان ، ولكن الأشراف رضوا بانتهاب أملاك الكنيسة لأن ذلك الانتهاب يحول نهم الملك إلى حين عن أملاكهم هم .

واختال چون عجباً بانتصاره المؤقت ، وأساء إلى الكثيرين بتطرفه ' عنته ؛ فقد هجر زوجته الثانية ليلد أطفالا غير شرعيين من عشيقات مستهترات ؛ وزج اليهود فى السجن لينتزع منهم أموالهم ، وترك بعض المطارنة السجناء

يموتون من فرط المشقة ، وأغضب الأشراف بأن أضاف الإهانات إلى الضرائب الفادحة ، وتشدد فى تنفيذ قانون الغابات البغيض . ولجأ إنوسنت فى عام ١٢١٣ إلى آخر ملجأ له ، فأصدر مرسوماً بخلع الملك الإنجليزى عن العرش ، وأعفى رعايا چون من يمين الطاعة التى أقسموها له ، وأعلن أن أملاك الملك أضحت غنيمة مشروعة لكل من يستطيع انتزاعها من يديه النجستين . وقبل فليب أغسطس الدعوة ، وحشد جيشاً رهيباً ، وزحف به على شاطئ القناة الإنجليزية . واستعد چون لصد الغزو ، ولكنه تبين وقتئذ أن أعيان البلاد لن يساعدوه فى حرب ضد بابا مسلح بقوة مادية ودينية معاً . واستشاط الملك غضباً من فعلتهم ، ورأى فى الوقت نفسه خطر الهزيمة محدقاً به . فعقد اتفاقا مع پندلف Pandulf ، مبعوث البابا مضمونه أنه إذا ألغى إنوسنت قرار الحرمان الصادر على الملك وعلى إنجلترا ، وقرار الخلع ، واستحال من عدو إلى صديق ، فإن چون يتعهد بأن يرد إلى الكنيسة كل ما صادره من أملاكها ، وأن يضع تاجه ومملكته تحت سيادة البابا الإقطاعية . واتفق الطرفان على هذا ، وأسلم چون إنجلترا كلها للبابا ، ثم استعادها منه بعد خمسة أيام بوصفها إقطاعية بابوية تدين للبابا بالولاء وتؤتى الجزية عن يد وهى صاغرة (١٢١٣) .

وأقلع چون إلى بواتو ليهاجم فليب ، وأمر بارونات إنجلترا أن يتبعوه بالسلاح والرجال ، ولكنهم لم يطيعوا أمره . وأدت هزيمة چون عند بوڤين Bouvines إلى حرمانه من الألمان وغيرهم من أحلافه الذين كان يتطلع إلى معونتهم ضد توسع فرنسا ، فعاد إلى إنجلترا ليواجه الأشراف الحانقين . واستاء النبلاء من فدح الضرائب المفروضة عليهم لتمويل حروبه المخربة ، ومن خروجه على السوابق القديمة والقوانين المرعية ، وتسليمه إنجلترا ليشترى به عفو البابا وتأييده . وأرد چون أن يحسم الأمر فيما بينه وبينهم فطلب إليهم أن يؤدوا له قدراً من المال بدل الخدمة العسكرية ، ولكنهم بعثوا إليه بدلا من هـــذا المال بوفد يطلب إليه العودة إلى

قوانين هنرى الأول ، التى حمت حقوق الأشراف وحددت سلطات الملك . فلما لم يتلق الأشراف جواباً مرضياً حشدوا قواتهم المسلحة عند استامفورد Stamford ، وبينا كان جون يتلكأ فى أكسفورد بعثوا برسلهم إلى لندن ، فنالوا تأييد حكومة المدينة وحاشية الملك . وعسكرت قوات الأشراف مقابل مؤيدى الملك القلائل عند رنيميد Runnymede على نهر التامز . وهنا استسلم جون استسلامه الثانى الكبير ، ووقع (١٢١٥) العهد الأعظم أشهر وثيقة فى التاريخ الإنجليزى كله :

من چون ملك إنجلترا بعناية الله تعالى . . . إلى كبار أساقفته ، وأساقفته ، ورؤساء أديرته ، وحملة ألقاب إيرل وبارون . . . وجميع رعاياه الأوفياء . تحية . اعلموا أننا بهذا العهد الحاضر نؤكد عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر :

١ — أن ستكون كنيسة إنجلترا حرة لا يعتدى على شىء من حقوقها وحرياتها . . . .

٢ — أننا نمنح جميع الأحرار فى مملكتنا ، عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر ، جميع الحريات المدونة فيما بعد . . . .

١٢ — ألا يفرض بدل خدمة أو معونة . . . إلا المجلس العام لمملكتنا .

١٤ — لكى يجتمع المجلس العام المختص بتقدير المعونات وبدل الخدمات . . . سنأمر باستدعاء كبار الأساقفة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، وحملة ألقاب إيرل ، وكبار البارونات فى البلاد(*) . . . وغيرهم ممن هم تحت رياستنا . . .

١٥ — لن نجيز فى المستقبل لكائن من كان أن يأخذ معونة من مستأجريه الأحرار (غير الأرقاء) ، إلا إذا كان ذلك لافتدائه ، أو تنصيب ابنه الأكبر فارساً ، أو مرة واحدة لزواج ابنته الكبرى ؛ ولن تكون المعونة فى هذه الحالة إلا معونة معقولة . . .

(*) أصبحت هذه الطوائف الخمس المذكورة هنا مجلس اللوردات الإنجليزى فيما بعد .

١٧ — لن تعرض الشكاوى العادية على محكمتنا ، بل ينظر فيها فى مكان محدد ؛

٣٦ — لن يعطى أو يؤخذ بعد الآن شىء نظير أمر يطلبه شخص ببحث حاله . . . بل يجب أن يعطى هذا الأمر بغير مقابل (أى أنه يجب ألا يطول حبس إنسان من غير محاكمة) .

٣٩ — لا يقبض على رجل حر ، أو يسجن ، أو ينزع ملكه ، أو يخرج من حماية القانون ، أو ينفى ، أو يؤذى بأى نوع من الإيذاء . . . إلا بناء على محاكمة قانونية أمام أقرانه (أى المساوين له فى المدينة) أو بمقتضى قانون البلاد ؛

٤٠ — لن نبيع العدالة أو حقاً من الحقوق لإنسان ما ولن نحرم منها إنساناً ما .

٤١ — يتمتع جميع التجار بحق الدخول فى إنجلترا والإقامة فيها والمرور بها براً أو بحراً سالمين مؤَمَّنين للشراء والبيع . . . دون أن تفرض عليهم ضرائب غير عادلة ؛

٦٠ — كل العادات والحريات السالفة الذكر . . . يجب أن يراعيها أهل مملكتنا كلهم ، سواء منهم رجال الدين وغير رجال الدين ، كل فيما يخصه ، نحو أتباعهم .

وقعناه بيدنا بحضور الشهود ، فى المرج المعروف باسم رينميد فى اليوم الخامس عشر من شهر يونية من السنة السابعة عشرة من حكمنا[٤٢] .

والعهد الأعظم أساس الحريات التى يتمتع بها العالم الناطق باللغة الإنجليزية فى هذه الأيام ، والحق أنه خليق بهذه الشهرة . نعم إنه مقيد ببعض القيود ، فهو ينص على حقوق النبلاء ورجال الدين أكثر مما ينص على حقوق الشعب كله ، ولم تبين فيه الوسائل الكفيلة بتنفيذ الإشارة الدالة على التقى والصلاح الواردة فى المادة رقم ٦٠ من العهد ؛ ولقد كان العهد انتصاراً للإقطاع لا للدمقراطية .

كل هذا صحيح ولكنه نص على الحقوق الأساسية وحماها ، وقرر عدم إطالة حبس إنسان بلا محاكمة ، كما أقر نظام المحلفين ، وأعطى البرلمان الناشئ سلطة على المال اتخذتها الأمة فيما بعد سلاحا لمقاومة الاستبداد ، وبدل الملكية المطلقة ملكية دستورية مقيدة .

بيد أن چون لم يفكر قط فى أنه قد خلد اسمه بالنزول عن سلطاته ومطالبه الاستبدادية ، فقد وقع العهد وهو مرغم ، وأخذ غداة توقيعه يأتمر لإلغائه . فقد لجأ إلى البابا ، وكانت سياسة إنوسنت الثالث وقتئذ تهدف إلى استعانة إنجلترا على فرنسا ، فخف لمعونة تابعه الذليل المهان بأن أعلن أن العهد باطل لا قيمة له ، وأمر چون ألا يخضع لشروطه ، كما أمر الأشراف ألا ينفذوها ، فلما رفض البارونات إطاعة أمره ، أصدر قراراً بحرمانهم هم وأهل لندن والثغور الخمسة ؛ غير أن استيفن لانجتن الذى كانت له اليد الطولى فى صياغة العهد أبى أن ينشر قرار الحرمان ؛ وقرر مبعوثو البابا فى إنجلترا وقف لانجتن عن العمل ، وأذاعوا قرار البابا ، وجندوا جيشاً من المرتزقة فى فلاندرز وفرنسا ، وهاجموا النبلاء الإنجليز ، وأعملوا فيهم النار والسيف ، والسلب والقتل والفسق . ويبدو أن الأشراف لم يلقوا من الشعب معونة خليقة بأن يعتمدوا عليها ؛ ولهذا فإنهم بدل أن يقاوموا الغزاة بقواهم الإقطاعية ، دعوا لويس ابن ملك فرنسا ليغزو إنجلترا ، ويدافع عنهم ، ويستولى على عرش البلاد جزاء له على عمله ؛ ولو نجحت هذه الخطة لأصبحت إنجلترا جزءاً من فرنسا . وحذر مبعوثو البابا لويس من عبور القناة ، فلما خالف أمرهم حرموه هو وجميع أتباعه من حظيرة الدين . ووصل لويس إلى لندن ، وتقبل ولاء البارونات وخضوعهم ، ولكن چون انتصر فى كل مكان خارج عن مدينة لندن التجارية ، وكان حين ينتصر ناسياً مجرداً من الرحمة ، ولكنه وهو فى عنفوان نشاطه ونصره أصيب بزحار البطن ، واتخذ طريقه وهو فى شدة

الألم إلى أحد الأديرة ، ومات فى نيوارك Newark فى التاسعة والأربعين من عمره .

وتوج قاصد رسولى ابنا لجون لا يتجاوز السادسة من عمره ملكا على إنجلترا باسم هنرى الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢) ؛ وعين له مجلس وصاية برياسة إيرل بمبروك Pembroke . وشجع الأشراف ارتقاء واحد منهم إلى هذا المنصب ، فانحازوا إلى هنرى وأرجعوا لويس إلى فرنسا . وشب هنرى وكان ملكا فنانا ، خبيراً بالجمال ، وكان هو الموحى ببناء دير وستمنستر وواهب المال لهذا البناء . وحسب العهد قوة تعمل على التفكك وحاول إلغاءه ولكنه عجز . وفرض الضرائب على النبلاء وأرهقهم إرهاقا أوشكوا من أجله أن يثوروا عليه ، وكان كلما فرض ضريبة أقسم أنها ستكون آخر الضرائب . وكان البابوات أيضاً فى حاجة إلى المال ، وأخذوا يجبون العشور من الأبرشيات الإنجليزية برضاء الملك ليمدوا البابوية بالمال فى حربها مع فردريك الثانى . وكانت ذكرى هذا الابتزاز هى التى مهدت السبيل لثورة ويكلف Wycliffe وهنرى الثامن .

وكان إدورد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧) أقل شغفا بالعلم وأكثر عناية بشئون الملك من أبيه . كان رجلا طموحا ، قوى الإرادة ، صبوراً فى الحرب . داهية فى السياسة ، خبيراً بالفنون العسكرية وجر المغانم ، ولكنه يستطيع إذا شاء أن يكون معتدلا حذراً ، بعيد النظر فى أهدافه ؛ ولهذا كان حكمه من أكثر الأحكام نجاحا فى التاريخ الإنجليزى كله . فقد أعاد تنظيم الجيش ، وذرب قوة كبيرة من الرماة على استخدام القوس السمحة ، وأنشأ قوة من الجيش المرابط بأن أمر كل إنجليزى قادر على حمل السلاح أن يكون لديه سلاح وأن يتعلم طريقة استخدامه . ولقد وضع بهذا العمل على غير علم منه أساسا عسكريا للدمقراطية . ولما تمت له هذه القوة فتح بها بلاد ويلز ، وكسب اسكتلندة ثم فقدها ، ورفض أداء الجزية التى تعهد جون بأدائها للبابوات ، وألغى سيادة البابا على إنجلترا .

ولكن أهم ما حدث فى حكمه هو نمو البرلمان ، ولعل إدورد قد صار بغير رضاه أهم شخصية فى أعظم ما حدث فى إنجلترا من أعمال جليلة — وهو التوفيق ، فى الحكم وفى الأخلاق ، بين الحرية والقانون .

٤ — نشأة القانون

وهذه الفترة — من فتح النورمان إلى إدورد الثانى — هى التى اتخذ فيها قانون إنجلترا واتخذت فيها حكومتها الصورتين اللتين احتفظتا بهما حتى القرن التاسع عشر . فقد أصبح القانون الإنجليزى قومياً للمرة الأولى بعد أن بسط القانون الإقطاعى النورمانى سلطانه على القانون الإنجليسكسونى المحلى . فلم يعد القانون الإنجليزى بعدئذ هو قانون إسكس Essex أو مرسيا Mercia أو القانون الدنمرقى بل أصبح « قانون البلاد وعاداتها » ، وإن من العسير علينا أن ندرك الآن ما تنطوى عليه هذه العبارة السالفة الذكر حين نطق بهما رانلف ده جلانفيل Ranulf de Glanville (المتوفى عام ١١٩٠)[٤٣] . ولقد اشتهر القانون الإنجليزى والمحاكم الإنجليزية بفضل الدفعة القوية التى دفعها بها هنرى الثانى وبفضل قيادة جلانفيل كبير القضاة ، اشتهرا بالإنصاف وسرعة الفصل فى المنازعات (مع شىء من الفساد والرشوة) شهرة حملت ملوك أسبانيا المتخاصمين على أن يعرضوا منازعاتهم على محاكم إنجلترا[٤٤] . ولربما كان جلانفيل هو مؤلف « **رسالة فى القانون** » Tractatus de Legibus التى تعزوها إليه الرواية المأثورة ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإن هذه الرسالة هى أقدم ما لدينا من الكتب فى القانون الإنجليزى . وبعد نصف قرن من ذلك الوقت (١٢٥٠ — ١٢٥٦) أخرج هنرى ده براكتن Henry de Bracton أول خلاصة منظمة للقانون الإنجليزى فى كتابه « **فى قوانين إنجلترا وعاداتها** » Delegibus et Consuetudinibus Anglise وهو كتاب فى خمسة مجلدات ومرجع من أهم المراجع فى القانون الإنجليزى .

وكانت حاجة الملك المتزايدة إلى المال والجند هى التى أدت إلى اتساع الوتنجموت Witengemot الإنجليسكسونى حتى أصبح هو البرلمان الإنجليزى. ذلك أن هنرى الثالث أراد أن يحصل على المال أكثر مما يرغب الأعيان فى أن يمدوه به ، وألا يصبر حتى يوافقوا على طلباته ، فاستدعى فارسين من كل مقاطعة لينضموا إلى البارونات والمطارنة فى المجلس العظيم الذى عقد فى عام ١٢٥٤ . ولما تزعم سيمون ده منت فورت Simon de Montfort ، وهو ابن محارب صليبى من الأسرة الألبجنسية ، ثورة قام بها النبلاء على هنرى الثالث فى عام ١٢٦٤ ، أراد أن يضم الطبقات الوسطى إلى قضيته ، فلم يكتف بدعوة فارسين من كل مقاطعة بل دعا أيضاً اثنين من المواطنين البارزين من كل قصبة مقاطعة أو كل بلدة لينضموا إلى البارونات فى جمعية وطنية . وكان خليقاً بهؤلاء الرجال أن يستشاروا هل يؤدون المال أو يكتفون بالكلام ، وذلك لأن البلدان كانت آخذة فى النماء ، وكان التجار ذوى مال . وأفاد إدورد الأول من المثل الذى ضربه له سيمون ، فلما أن تورط فى الحرب مع اسكتلندة ، وويلز ، وفرنسا فى وقت واحد ، اضطر أن يطلب المال من جميع طبقات الأمة ، فدعا لهذا الغرض « البرلمان النموذجى » فى عام ١٢٩٥ وهو أول برلمان كامل فى تاريخ إنجلترا . وقال فى مرسوم الدعوة إن « ما يمس الناس جميعاً يجب أن يوافقوا جميعاً عليه ، وإن الأخطار العامة يجب أن تقابل بوسائل يتفقون عليها جميعاً »[٤٥] . ولهذا دعا إدورد اثنين من أهل « كل مدينة ، وقصبة مقاطعة ، وبلدة كبيرة » للحضور فى المجلس الأكبر الذى سيعقد فى وستمنستر ، ونص على أن يختار أولئك الرجال ذوو المكانة من المواطنين فى كل منطقة ، ذلك أنه لم يكن أحد يحلم وقتئذ بحق الانتخاب العام فى مجتمع لا تعرف القراءة فيه إلا أقلية صغيرة ، بل إن « العامة » فى « البرلمان النموذجى » نفسه لم يكن لهم من السلطان ما للأشراف . ولم يكن قد وجد بعد برلمان سنوى يجتمع بمحض

إرادته ويكون هو المصدر الوحيد للتشريع . ولكن اتفق فى عام ١١٩٥ على المبدإ القائل بأن القانون الذى يقره البرلمان لا يمكن أن يلغيه إلا البرلمان ، ثم اتفق فى عام ١٢٩٧ على ألا تجبى الضرائب إلا بعد موافقة البرلمان ؛ هذه هى المبادئ البسيطة التى قامت عليها أكثر الحكومات دمقراطية فى تاريخ العالم .

ولم يحضر رجال هذا البرلمان الواسع إلا وهم كارهون . وكانوا يجلسون فيه منفصلين عن سائر الطبقات ، ويأبون أن يقترعوا على الأموال المطلوبة إلا فى جمعياتهم الإقليمية ، وظلت المحاكم الكنسية تنظر فى جميع القضايا التى للقانون الكنسى شأن فيها ، وفى معظم القضايا التى يكون أحد رجال الدين طرفاً فيها . وكان فى الاستطاعة محاكمة رجال الدين إذا ارتكبوا جناية كبرى أمام السلطات الزمنية ؛ أما من يحكم عليهم فى جرائم أقل من جريمة الخيانة العظمى فكانوا حسب « ميزات رجال الدين » يسلمون إلى محكمة كنسية من حقها وحدها أن تعاقبهم على جرائمهم . يضاف إلى هذا أن الكثرة الغالبة من القضاة كانت من رجال الكنيسة ، لأن دراسة القانون كانت مقصورة فى الغالب على رجال الدين . ثم أصبحت المحاكم المدنية فى عهد إدورد الأول أكثر مدنية مما كانت قبله ، ولما امتنع رجال الدين عن أن ينضموا إلى غيرهم من الطبقات فى الاقتراع على الأموال المطلوبة ، قال إدورد الأول إن على الذين يتمتعون بحماية الدولة أن يتحملوا نصيبهم من أعبائها ، ثم أمر محاكمه ألا تنظر فى القضايا التى يكون المدعى فيها أحد رجال الكنيسة ، وأن تنظر فى كل قضية يكون أحد رجال الكنيسة هو المدعى عليه فيها[٤٦] . وزاد مجلس إدورد المنعقد فى سنة ١٢٧٩ على هذا بأن حرم بمقتضى قانون مورتمين Mortmain أن تمنح الهيئات الكنيسية أرضاً بغير موافقة الملك .

ونما القانون الإنجليزى نمواً سريعاً فى أيام وليم الأول ، وهنرى الثانى ، وچون ، وإدورد الأول على الرغم من تعدد جهات الاختصاص على النحو

السالف الذكر . وكان هذا القانون إقطاعياً محضاً شديد الوطأة على رقيق الأرض ، فقد كانت الجرائم التي يرتكبها الأحرار على أرقاء الأرض يعاقب عليها بالغرامة ، وكان القانون يجيز للنساء أن يمتلكن المال ويورثنه ويتصرفن فيه بالوصية ، كما أجاز لهن أن يتعاقدن ، ويقاضين غيرهن ويُقَاضين ، وجعل من حق المرأة أن ترث ثلث أملاك زوجها العقارية بعد وفاته ، ولكن جميع المنقولات التي جاءت بها إلى البيت وقت زواجها ، أو حصلت عليها في أثناء الزواج ، تصبح ملكا للزوج[٤٧] . وكانت الأرض كلها من الناحية القانونية ملكا للملك ينالها أصحابها منه إقطاعاً . وكانت ضيعة السيد الإقطاعي كلها في العادة يوصي بها لابنه الأكبر ، ولم يكن يقصد بهذا أن تبقى الأملاك غير مجزأة ، بل كان يقصد به فوق ذلك حماية السيد الإقطاعي الأعلى من تجزئة التبعة الإقطاعية في جباية المكوس وأداء التزامات الحرب ؛ أما الفلاحون الأحرار فلم يمكن ثمة قانون يلزمهم بأن يورثوا أملاكهم أكبر أبنائهم .

وظل قانون التعاقد غير ناضج في هذا التشريع الإقطاعي . وكانت محكمة للمقاييس والموازين تحدد مستوى الموازين ، والمقاييس ، والنقود ؛ وتفرض رقابة الدولة على استعمالها . وبدأ التشريع التجاري المستنير في إنجلترا « بقانون التجار » (١٢٨٣) و « عهد التجار » Carta Mercatoria (١٢٠٣) — وهما عملان جليلان آخران من الأعمال التي تمت في عهد إدورد الأول .

وتحسنت طرق الإجراءات القانونية تحسناً بطيئاً ، واتبعت لتنفيذ القوانين عدة وسائل ، فجعل لكل حي « رقيب » ولكل حاضرة إقليم شرطي (كنستبل Constable) ولكل إقليم حاكم . وكان القانون يفرض على جميع الرجال أن يرفعوا عقيرتهم «بصرخة وزعقة» إذا شهدوا اعتداء على القانون، وأن يشتركوا في مطاردة المعتدي ، وأجيزت الكفالة . ومن فضائل القانون الإنجليزي أن التعذيب لم يكن يلجأ إليه في مناقشة المتهمين أو الشهود . من ذلك أنه لما أغرى

فليب الرابع ملك فرنسا إدورد الثانى بأن يقبض على فرسان المعبد الإنجليز ، ولم يجد هذا الملك دليلا يأخذهم به ، كتب البابا كلمنت الخامس ، بتحريض فليب بلا ريب ، إلى إدورد يقول : « ترامى إلينا أنك تحرم التعذيب لأنه مخالف لقانون بلدك ، ولكن ما من قانون للدولة يمكن أن يسمو على القانون الكنسى ، قانوننا . ولهذا آمرك أن تعذب هؤلاء الرجال »[٤٨] . وخضع إدورد لأمر البابا ، ولكن التعذيب لم يلجأ إليه مرة أخرى فى الإجراءات القانونية الإنجليزية إلا فى عهد ميرى « اللعينة » (١٥٥٣–١٥٥٨) .

وأدخل النورمان إلى إنجلترا نظام الفرنجة القديم ، نظام التحقيق القضائى أمام المحلفين ، وهم طائفة من المواطنين المحليين ، وذلك فى شئون الأقاليم المالية والقانونية . وارتقت محكمة كلارندن (حوالى عام ١١٦٦) بنظام « المحلفين » بأن أجازت للمتقاضين ألا يقرروا صدقهم أو كذبهم عن طريق القتال ، بل أمام لجنة محكمين أى محلفين مؤلفة من اثنى عشر فارساً يختارهم من بين المواطنين فى الإقليم أمام المحكمة نفسها أربعة من الفرسان يعينهم حاكم الإقليم . وكانت هذه هى الدورة القضائية الكبرى ، أما فى الدورة الصغرى التى كانت تعقد للنظر فى القضايا العادية فكان حاكم الإقليم نفسه يختار اثنى عشر من أحرار الإقليم المجاور للمحكمة . وكان الناس وقتئذ يعارضون فى نظام المحلفين كما يعارضونه الآن ، ولم يكن يدور بخلدهم قط أن هذا النظام سيصبح أساساً من أسس الدمقراطية . ولم ينته القرن الثالث عشر حتى كان حكم المحلفين قد حل فى إنجلترا كلها تقريباً محل أنظمة التحقيق القديمة التى كانت تجرى حسب الشريعة الهمجية :

٥ – البلاد الإنجليزية

كانت تسعة أعشار إنجلترا فى عام ١٣٠٠ ريفا ، وكان بها مائة بلدة تعد فى نظر المدائن التى خلفتها فى هذه الأيام قرى صغيرة ، وكان بها مدينة واحدة هى لندن

تزهو على غيرها بسكانها البالغين أربعين ألفاً(٤٩) — أى أربعة أضعاف أية مدينة أخرى فى ذلك الوقت ، ولكنها كانت أقل كثيراً فى ثروتها وجمالها من باريس ، أو بروج ، أو البندقية ، أو ميلان ، دع عنك القسطنطينية أو پالرم ، أو رومة . وكانت بيوتها من الخشب ، تعلو طبقتين أو ثلاث طبقات ، ذات سقف هرمية ، وكثيراً ما كانت الطبقات العليا تبرز عن الطبقات التى تحتها . وكانت قوانين المدن تحرم إلقاء فضلات المطابخ ، أو حجر النوم ، أو الحمامات من النوافذ ، ولكن سكان الطبقات العليا كثيراً ما كانوا يلجأون إلى هذه الوسيلة الهينة للتخلص من فضلاتهم . وكانت مياه المنازل القذرة تتخذ طريقها إلى مياه المطر التى تجرى عند حافة الإفريز ، وكان إلقاء البراز فى هذه المياه الجارية محرماً أما البول فكان إلقاؤه فيه مسموحا به(٥٠) . وكانت المجالس البلدية تبذل جهدها لتحسين وسائل الصحة العامة — فكانت تأمر أهل المدن بتنظيف الشوارع أمام بيوتهم ، وتفرض الغرامات على من يهملون منهم أمرها هذا ، وتستأجر عمالا يجمعون الفضلات والأقذار ويحملونها فى عربات إلى قوارب الفضلات فى نهر التاميز : وكان كثيرون من السكان يربون الخيل ، والماشية ، والخنازير ، والدجاج ، ولكن هذا العمل لم يكن كثير الضرر ، لأن الأماكن الخالية كانت كثيرة ، ولأن كل بيت تقريباً كانت له حديقة . وكانت تقوم فى أماكن متفرقة أبنية من الحجارة ، مثل كنيسة المعبد Temple Church ، ودير وستمنستر ، وبرج لندن الذى بناه وليم الفاتح ليحمى عاصمته ويضع فيه المسجونين الممتازين . وكان أهل لندن من ذلك الوقت البعيد يفخرون بمدينتهم ، وسرعان ما قال عنهم فرواسار Froissart « إنهم أعظم خطراً من جميع سكان بقية إنجلترا ، لأنهم أقوى أهل البلاد مالا ورجالا » ، ووصفهم الراهب تومس الولسنجهامى Thomas of Walsingham بأنهم « يكادون يكونون أكثر الناس كبرياء ، وغطرسة ، وشرها ، وأقلهم استمساكاً بالعادات القديمة وإيماناً بالله »(٥١)

وأنتج امتزاج سلالات النورمان ، والأنجليسكسون ، والدنمرقيين ، والكلت ، ولغاتهم ، وأساليبهم فى الحياة ، أنتج هذا الامتزاج الأمة الإنجليزية ، واللغة الإنجليزية ، والأخلاق الإنجليزية . ولما انفصلت نورمندية عن إنجلترا ، نسيت أسر النورمان المقيمة فى إنجلترا بلاد نورمندية ، وتعلمت حب بلادها الجديدة . وظلت صفات الكلت الصوفية الشعرية باقية ، وبخاصة عند الطبقات الوسطى ، ولكنها قد خفف منها بأس النورمان ودنيويتهم ، وظل فى مقدور البريطانى الناشئ من هذا المزيج ، وسط نزاع الأمم ، والطبقات ، وكوارث القحط والوباء ، ظل فى مقدور البريطانى أن يجعل من « إنجلترا المرحة » ، كما يسميها هنرى الهنتنجدونى Henry of Huntingdon (١٠٨٤ — ١١٥٥) أمة جمة النشاط ، والفكاهة النابية ، والألعاب الصاخبة ، والرفقة الطيبة ، والمحبة للرقص والأغانى الشعرية ، والجعة . ومن هذه الأصلاب والأجيال القوية نشأت شهوانية حجاج تشوسر Chaucer العارمة ، والعبارات الطنانة المزوّقة التى كان ينطق بها رجال العصر الإلزبيثى المتفاخرون .

الفصل التاسع

إنجلترا - اسكتلندة - ويلز

(١٠٦٦ - ١٣١٨)

جلس هنرى الثانى على عرش إنجلترا فى عام ١١٥٤ وتولى البابوية فى العام نفسه إنجليزى يدعى نقولاس بريكسپير Nicholas Breakspear وسمى باسم هدريان الرابع ؛ وبعد عام من ذلك الوقت بعث هنرى جون السلزبرى إلى رومة برسالة تنم عن كثير من الدهاء قال فيها إن أيرلندة فى حال يرثى لها من الفوضى السياسية ، والاضمحلال الأدبى ، والانحطاط الخلقى ، وعدم الاستقلال الدينى والانحلال ؛ وسأل البابا هل يسمح له بالاستيلاء على هذه الجزيرة التى تسودها النزعة الفردية ، ويعيد إليها النظام الاجتماعى ، ويرغمها على طاعة البابا ؟ وأجاب البابا هنرى إلى طلبه ، إذا جاز لنا أن نصدق جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis وأصدر مرسوماً بابويا منح فيه هنرى أيرلندة ، مشترطاً عليه أن يعيد إليها الحكومة النظامية ، وأن يجعل رجال الدين الأيرلنديين أكثر تعاوناً مع رومة ، وأن يُفرض بنس واحد ، أى ما يعادل الآن ($\frac{33}{100}$ من الدولار الأمريكى) فى كل عام على كل بيت فى أيرلندة يؤدى إلى كرسى القديس بطرس[٥٢] . ولم تكن مشاغل هنرى وقتئذ تمكنه من أن يفيد من حالة الفوضى السائدة فى أيرلندة ، ولكنه ظل متحفزاً للإفادة منها .

وحدث فى عام ١١٦٦ أن هزم تيرنان أورورك Tiernan O'Rourke ، ملك بوفنى Bnefni درموت ماك مرو Dermot Mac Murrough ملك لينستر فى حرب قامت بين الملكين لأن ثانيهما أغوى زوجة الأول . ولما طرد رعايا درموت مليكهم من البلاد فرَّ هو وابنته الحسناء إيفا Eva إلى إنجلترا وفرنسا ، وحصل على خطاب من هنرى الثانى يؤكد فيه عطفه على فرد من رعاياه

يساعد درموت على استرداد عرش لينستر . وكانت نتيجة هذا التأكيد أن تلقى درموت من رتشرد فتز جلبرت Richdrd Fitz Gilbert إيرل بمبروك يويلز الملقب « بالقوس السمحة » وعداً بالمساعدة العسكرية إذا تعهد له بأن يزوجه بإيفا وأن يخلفه على عرش مملكة درموت . وزحف رتشرد فى عام ١١٦٩ على رأس قوة صغيرة من أهل ويلز إلى أيرلندة ، وأعاد درموت إلى عرشه بمساعدة قساوسة لينستر ، ولما توفى درموت (١١٧١) ورث مملكته . فما كان من رورى أوكنور Rory O,Connor ملك أيرلندة الأعلى وقتئذ إلا أن سار على رأس جيش لقتال الغزاة من أهل ويلز ، وحاصرهم فى دبلن وسد عليهم جميع المسالك . وهجم المحاصَرون هجمة صادقة على الأيرلنديين وفكوا الحصار ، وفرّ الإيرلنديون السيئو التدريب الناقصو العتاد . واستدعى هنرى الثانى رتشرد فعبر البحر إلى ويلز ، وقابل الملك ، ووافق على أن يسلمه دبلن وغيرها من الثغور الأيرلندية ، وأن يتولى ما بقى من لينستر إقطاعية من التاج البريطانى . ونزل هنرى إلى البر قرب ووترفورد Waterford (١١٧١) على رأس قوة تبلغ أربعة آلاف رجل ، وتلقى معونة رجال الدين الأيرلنديين ، وقدمت له أيرلندة كلها عدا كونوت Connought وألستر Ulster فروض الولاء ، وتبدل فتح ويلز لأيرلندة فتحاً نورمانيا — إنجليزيا دون إراقة دماء . وعقد المطارنة الأيرلنديون مجلسا دينيا أعلنوا فيه خضوعهم للبابا خضوعاً تاماً ، وقرروا أن تكون شعائر الكنيسة الأيرلندية من ذلك الحين متفقة مع شعائر كنيستى إنجلترا ورومة . وسمح للكثرة الغالبة من ملوك أيرلندة أن يحتفظوا بعروشهم ، على شريطة أن يعلنوا ولاءهم الإقطاعى للملك إنجلترا ، وأن يؤدوا إليه جزية سنوية .

ونال هنرى بغيته بمهارة فائقة واقتصاد فى المال والأرواح ، ولكنه أخطأ إذ ظن أن القوة التى تركها وراءه تستطيع المحافظة على السلم والنظام . يضاف إلى هذا أن عماله أخذوا يقتتلون لاقتسام الغنائم ، كما شرع أعوانهم وجنودهم ينهبون

البلاد دون أن تفرض عليهم إلا أقل رقابة ، وسخر الفاتحون جهودهم لتحويل أهل أيرلنده إلى أرقاء أرض . وعمد الأيرلنديون إلى حرب العصابات يقاومون بها الفاتحين ، وكانت نتيجة هذا أن هوت البلاد فى وهدة الفوضى والدمار ، وظلت كذلك قرناً من الزمان ، حتى عرض بعض الزعماء الأيرلنديين بلادهم على اسكتلندة فى عام ١٣١٥ . وكان ربرت بروس Robert Bruce الاسكتلندى قد هزم الإنجليز توا عند بنكبرن Bannockbnrn قبل ذلك . ونزل إدورد أخو ربرت فى أيرلندة ومعه ستة آلاف رجل ؛ وأصدر البابا يوحنا الثانى عشر قراراً بحرمان كل من يساعد الأسكتلنديين ، ولكن لأيرلنديين جميعهم تقريباً ثاروا إجابة لنداء إدورد ، وتوجوه ملكاً على البلاد فى عام ١٣١٦ . ولكنه هزم وقتل بعد عامين من ذلك الوقت ، وأخفقت الثورة وسط مظاهر الفقر واليأس .

ويقول رانلف هجدن Ranulf Higden ، وهو رجل بريطانى عاش فى القرن الرابع عشر ، إن الاسكتلنديين شعب « مرح » ، رجاله أقوياء ، غلاظ إلى حد كبير ، ولكنهم إذا امتزجوا بالإنجليز صلحت حالهم كثيراً . وهم قساة على أعدائهم ، يكرهون القيود أكثر من كراهيتهم كل شىء آخر ، ويرون أن العار كل العار أن يموت منهم رجل فى فراشه ، والفخر كل الفخر أن يموت فى ميدان القتال(٥٣) .

وبقيت أيرلندة أيرلندية ولكنها فقدت حريتها ، وأصبحت اسكتلندة بريطانية ولكنها بقيت حرة ؛ وتضاعف عدد الإنجليز ، والسكسون ، والنورمان فى الأراضى المنخفضة ، وأعادوا تنظيم الحياة الزراعية حسب الأساليب الإقطاعية . وكان ملكولم الثالث Malcolm III (١٠٥٨ — ١٠٩٣) رجلا محارباً غزا إنجلترا عدة مرات ، ولكن زوجته الملكة مرجريت كانت أميرة أنجليسكسونية نشرت اللغة الإنجليزية فى البلاط الاسكتلندى ، وجاءت إلى البلاد برجال الدين الذين يتكلمون اللغة الإنجليزية ، وربت أبناءها على أسس التربية الإنجليزية واتخذ داقد الأول David I ، (١١٢٦ — ١١٥٣) آخر هؤلاء الأبناء وأقواهم

الكنيسة أداته المختارة لحكم البلاد ، وأنشأ فى كلسو Kelso ، ودراى بيرج Dryburgh ، وملروز Melrose ، وهولى رود Holyrood أديرة يتكلم رهبانها اللغة الإنجليزية ، وجبى العشور (للمرة الأولى فى اسكتلندة) لمعونة الكنيسة ، وأغدق المال على الأساقفة ورؤساء الأديرة إغداقا جعل الناس يحسبونه من القديسين وإن لم يكن منهم ؛ وأضحت اسكتلندة فى عهد داڤد الأول كلها عدا مرتفعاتها ولاية إنجليزية[٥٤] .

لكنها لم تكن أقل استقلالا مما كانت قبل ، فقد استحال المهاجرون الإنجليز اسكتلنديين محبين لوطنهم الجديد ، وخرج من بينهم آل استيورت Stuart وآل بروس Bruce . وغزا داڤد الأول نورثمبرلند وافتتحها ، ثم فقدها ملكولم الرابع (١١٥٣ — ١١٦٥) ؛ وحاول وليم الأسد William the Lion (١١٦٥ — ١٢١٤) أن يستردها ، فأسره هنرى الثانى ولم يطلقه إلا بعد أن تعهد بإخضاع التاج الاسكتلندى لملك إنجلترا (١١٧٤) . وبعد خمسة عشر عاما من ذلك الوقت استطاع أن يتحلل من هذا العهد بأن ساعد رتشرد الأول بالمال فى الحرب الصليبية الثالثة ، ولكن الملوك الإنجليز ظلوا يطالبون بسيادتهم الإقطاعية على اسكتلندة . واسترد اسكندر الثالث (١٢٤٩ — ١٢٨٦) جزائر هبريدة Hebrides من النرويج ، واحتفظ بصلات الود والصداقة مع إنجلترا ، ووهب اسكتلندة عصراً ذهبيا يسوده السلم والرخاء .

وتنازع ربرت بروس ، وچون بليول John Balliol ولدا داڤد الأول على العرش بعد وفاة اسكندر . وانتهز إدورد الأول ملك إنجلترا هذه الفرصة وتدخل فى النزاع وأصبح بليول ملكا على اسكتلندة بفضل تأييده له ، واعترف بليول بسيادة إنجلترا العليا على بلاده (١٢٩٢) . فلما أمر إدورد بليول أن يجهز جيشاً ليقاتل مع إنجلترا فى فرنسا ، تمرد النبلاء والأساقفة الاسكتلنديون ، وأمروا بليول أن يعقد حلفاً مع فرنسا على إنجلترا (١٢٩٥) ، وهزم إدورد الاسكتلنديين عند

ودنبار (١٢٩٦) ، وتقبل خضوع أشراف البلاد ، وخلع بليول عن العرش ، وعين ثلاثة من الإنجليز ليحكموا اسكتلندة بالنيابة عنه ، وعاد بعد ذلك إلى إنجلترا .

وكان كثيرون من النبلاء الاسكتلنديين يملكون أرضاً فى إنجلترا ، فكان عليهم لهذا السبب واجب الطاعة لمليكها . ولكن قدماء الغالين الاسكتلنديين ساءهم هذا الاستسلام أشد الاستياء ، فأعد واحد منهم يدعى وليم ولاس William Wallace جيشاً من عامة الاسكتلنديين» ، وبدد شمل الحامية الإنجليزية ، وظل عاما كاملا يحكم إنجلترا نائبا عن بليول . ثم عاد إدورد وهزم ولاس فى فولكيرك Falkirk (١٢٩٨) ، وقبض عليه فى ١٣٠٥ ، وأمر به فبقرت بطنه وقطعت أطرافه عملا بقانون الخيانة الإنجليزى .

وأرغم مدافع آخر عن استقلال أيرلندة على الخروج إلى الميدان بعد عام من ذلك الوقت . ذلك أن ربرت بروس حفيد بروس الذى كان يطالب بالعرش فى عام ١٢٨٦ تنازع مع چون كومين John Comn ، من كبار ممثلى إدورد الأول فى اسكتلندة ، وقتله . ولم يكن أمام بروس بعد هذا العمل إلا العصيان ، فتوّج نفسه ملكا على اسكتلندة ، وإن لم يؤيده إلا نفر قليل من أعيان البلاد ، وإن كان البابا قد حرمه جزاء له على جريمته . وزحف إدورد مرة أخرى صوب الشمال ولكنه مات فى الطريق (١٣٠٧) . وكان عجز إد د الثانى نعمة على بروس وبركة ، فقد انضوى رجال اسكتلندة ورجال الدين فيها تحت لواء طريد القانون ، واستولت جيوشه يقودها أخوه إدورد وسير جيمس دجلاس Sri James Douglas ببسالة عظيمة على إدنبرة ، وغزت نورثمبرلند ، وانتزعت درهام من الاسكتلنديين . وزحف إدورد الثانى فى عام ١٣٠٤ على اسكتلندة بأكبر جيش شهدته البلاد فى تاريخها الماضى كله ، والتقى بالاسكتلنديين عند بنكبرن Bannockburn . وكان بروس قد أمر رجاله بأن يحفروا أمام موقعه

حفراً يخفونها عن الأعين ، فلما هجم عليه الإنجليز سقط الكثيرون منهم فى هذه الحفر ، وهلك الجيش الإنجليزى حتى لم يكد يبقى منه أحد . واشتبك الأوصياء على إدورد الثالث فى حرب مع فرنسا فى عام ١٣٢٨ ، ووقعوا معاهدة نورثمبتون Northampton ، وتحررت اسكتلندة مرة أخرى .

وقام فى هذه الأثناء نزاع آخر فى ويلز أسفر عن نتيجة تختلف عن النتيجة السابقة . ذلك أن وليم الأول طالب بالسيادة عليها بوصف كونها جزءاً من مملكة هرولد Harold المنهزم . ولم يتسع له الوقت لضمها إلى فتوحه ، ولكنه أقام على حدودها الشرقية ثلاث مقاطعات على رأس كل منها إيرل Earl ، وشجع رؤساء هذه المقاطعات على أن يوسعوا حدودها فى ويلز . وكان القراصنة النورمان يجتاحون وقتئذ ويلز الجنوبية ، وهم الذين تركوا فتز Fitz (أى ابن) فى بعض أسماء أهل تلك البلاد . ثم أخضع كدرجان آب بلدين Cadwgan ap Blepyn أولئك النورمان فى عام ١٠٩٤ ؛ وهزم أهل ويلز الإنجليز عند كروين Corwen فى عام ١١٦٥ ؛ وشغل هنرى الثانى بالنزاع مع بكت ، فاعترف باستقلال ويلز الجنوبية تحت حكم مليكها المستنير رايس آب جرفيد Rhys ap Graffyd (١١٧١) ، وبسط لويلين الأكبر Llywelyn the Great حكمه على جميع البلاد بفضل مقدرته العظيمة فى الحرب والسياسة ؛ ثم تنازع أبناؤه فيما بينهم وأشاعوا الاضطراب فى أنحاء البلاد ، ولكن حفيده لويلين آب جرفيد (المتوفى عام ١٢٨٢) رد إلى البلاد وحدتها ، وعقد الصلح مع هنرى الثالث ، وأنشأ لنفسه لقب أمير ويلز . وعقد إدورد الأول عزمه على أن يضم ويلز واسكتلندة إلى إنجلترا ، فغزا ويلز بجيش ضخم وعمارة بحرية قوية (١٢٨٢) ؛ وقتل لويلين حين التقى مصادفة بقوة صغيرة على الحدود ، وقبض إدورد على أخيه داڤد ، وعلق رأسه بعد أن فصل عن جسمه هو ورأس لويلين من برج لندن ، وتركهما حتى تحلت شعرهما الشمس والرياح والأمطار . وأضحت ويلز جزءاً من إنجلترا (١٢٨٤) ،

وخلع إدورد فى عام ١٣٠١ لقب أمير ويلز على ولى عهد إنجلترا .

واحتفظ أهل ويلز فى أثناء هذا الارتفاع والهبوط بلغتهم وعاداتهم ، وظلوا يفلحون أرضهم الصلبة بشجاعة وجلد ، ويسلون أنفسهم فى الليل والنهار بالأقاصيص ، والشعر ، والموسيقى ، والغناء . وصاغ شعراؤهم فى ذلك الوقت قصص مابينوجيون Mabinogion ، ومزجوا الأدب مزجاً فذاً مقطوع النظير بالحنان الصوفى ذى النغم الجميل . وكان الشعراء والمغنون الجائلون يجتمعون فى كل عام فى مجلس وطنى نستطيع أن نرجع بتاريخه إلى عام ١١٧٦ ، تعقد فيه المباريات فى الخطابة ، والشعر ، والغناء ، والعزف على الآلات الموسيقية ؛ وكان أهل ويلز مقاتلين بواسل ، ولكنهم لم يكونوا يصبرون على الحرب الطويلة الأمد ، وكانوا يتوقون إلى العودة إلى أوطانهم يحمون بأنفسهم نساءهم وأطفالهم وبيوتهم ، وكان من أمثالهم مثل يتمنون فيه أن يكون « كل شعاع من أشعة الشمس خنجراً يطعن صدور المحبين للحرب »(٥٥).

الفصل العاشر

بلاد نهر الرين (١٠٦٦ - ١٣١٥)

كانت الأقاليم المحتشدة حول حوض الرين الأدنى ومصابه الكثيرة من أغنى أقاليم العالم فى العصور الوسطى . فقد كان فى جنوب الرين إقليم فلاندرز الممتد من كاليه Calais مخترقاً بلچيكا الحالية إلى نهر الشلد Sheldt . وكان هذا الإقليم من الوجهة الرسمية إقطاعية من ملك فرنسا ، ولكنه كان من الوجهة الفعلية تحت حكم أسرة مالكة من النبلاء المستنيرين لا يحد من سلطتهم إلا ما كان للمدن من استقلال ذاتى تفخر به . وكان الأهلون القريبون من الرين ينتمون إلى العنصر الفلمنكى ، وأصلهم من عنصر ألمانى يسكن البلاد المنخفضة ويتكلمون لهجة ألمانية ؛ أما من كانوا يقطنون فى غرب نهر ليس Lys فكانوا من الولون Walloons — وهم خليط من الألمان والفرنسيين امتزجوا بأصل كلتى — ويتكلمون لهجة فرنسية . وأثرت غنث وأودنارد Audenaarde ، وكورتربه ، وإيبرس ، وكاسل Kassel فى الإقليم الشمالى الشرقى الفلمنكى ؛ وبروچ ، وليل ، ودويه فى الإقليم الجنوبى الغربى الولونى ، أثرت هذه البلدان من تجارتها وصناعتها وإن كانتا قد سببتا لها الاضطراب . وكانت كثافة السكان فى هذه المدن أكثر منها فى سائر المدن الأوربية القائمة فى شمال جبال الألب ، وكانت هذه المدن تسيطر على حكامها الأشراف فى عام ١٣٠٠ ؛ فقد كان قضاة المقاطعات الكبرى يؤلفون من بينهم محكمة عليا للبلاد ويتفاوضون مستقلين مع المدن والحكومات الأجنبية[٥٦] . وكان أولئك الحكام الأشراف فى العادة يتعاونون مع المدن ، ويشجعون التجارة والصناعة ، وكانت لهم عملة مستقرة ،

ووضعوا منذ عام ١١٠٠ — أى قبل إنجلترا بمائتى عام — نظاماً عاماً للمقاييس والموازين يعمل به فى جميع المدن .

لكن حرب الطبقات قضت فى آخر الأمر على حرية المدن وحرية حكامها الأشراف . والسبب فى ذلك أن صعاليك المدن زاد عديدهم ، واشتد غضبهم وسلطانهم ، وأن الحكام الأشراف انضموا إليهم ليناهضوا بهم الطبقة الوسطى الغنية المغترة بنفسها ؛ فلجأ التجار إلى فليب أغسطس يطلبون إليه المعونة ، فوعدهم بها يرجو بذلك أن يخضع فلاندرز إلى التاج الفرنسى خضوعاً أتم من ذى قبل . وكانت إنجلترا تحرص على أن تبقى أهم سوق تصرف فيها صوفها بعيدة عن سيطرة ملك فرنسا ، فعقدت حلفاً مع حكام فلاندرز ، مع هينولت Hainault دوق برابانت Brabant وأتو الرابع Otto IV إمبراطور ألمانيا . وهزم فليب جيوش هذا الحلف عند بوفين (١٢١٤) ، وأخضع حكام فلاندرز ، وحمى النظام الأبجركى للتجار . ولم ينقطع نزاع السلطات والطبقات بعد هذه الهزيمة ؛ حتى إذا كان عام ١٢٩٧ تحالف الكونت جى ده دمبيير Guy de Dampierre مرة أخرى مع فلاندرز وإنجلترا ؛ فما كان من فليب الجميل إلا أن غزا فلاندرز ، وزج جى فى السجن ، وأرغمه على تسليم البلاد إلى فرنسا . فلما أن زحف الجيش الفرنسى لاحتلال بروج ، ثار العامة عليه ، وهزموا الجنود ، وذبحوا أغنياء التجار ، واستولوا على المدينة . وبعث فليب بجيش قوى ليغسل هذه الإهانة التى لحقته ؛ وألف عمال المدن من أنفسهم جيشاً مرتجلا عاجلا هزموا به الفرسان والجنود المرتزقة التى بعثت بها فرنسا فى معركة كورتريه (١٣٠٢) ؛ وأخرج جى ده دمبيير الشيخ من سجنه وأعيد إلى منصبه ، واستمتع الحلف العجيب بين الحكام الأشراف والصعاليك الثوار بالنصر عشر سنين .

وظلت البلاد المعروفة لنا الآن باسم هولندة جزءاً من مملكة الفرنجة من القرن الثالث حتى القرن التاسع ؛ ثم أصبحت فى عام ٨٤٣ هى الطرف الشمالى

لدولة لورين الحاجزة(*) التي أنشأتها معاهدة فردون Verdun . وقسمت تلك البلاد في القرنين التاسع والعاشر إقطاعيات كي تستطيع صد غارات الشماليين. وقطع الألمان الأشجار من الإقليم الكثيف الغابات الواقع في شمال نهر الرين ، واستقروا فيه ، وأطلقوا عليه اسم هولندة ، أي أرض الغابات . وكان معظم أهله أرقاء أرض ، منهمكين في كدحهم لانتزاع القوت من أرضين لا بد لهم أن يقيموا الحواجز حولها لوقايتها من ماء البحر أو لتجفيفها بعد أن تطغى المياه عليها . غير أنها كانت تضم أيضاً مدناً ليست كالمدن الفلمنكية ثروة أو اضطراباً ، بل تعتمد اعتماداً سليماً على الصناعة المستقرة والتجارة المنتظمة . وكانت دوردرخت Dordrecht أكثر هذه المدن رخاء ؛ كما كانت أوترخت Utrecht مركزاً للعلوم ، وهارلم مقر كونت هولندة ؛ وأضحت دلفت Delft عاصمة البلاد إلى حين ، ثم انتقلت العاصمة حوالي عام ١٢٥٠ إلى لاهاي The Hague(**) . وكان أول ظهور أمستردام في عام ١٢٠٤ حين شاد أحد الأعيان الإقطاعيين قصراً حصيناً عند مصب نهر أمستل Amstel ؛ واجتذب هذا الموقع الأمين على الزيدرزي Zuider Zee والقنوات الكثيرة التي تخترقه في كل مكان — اجتذب هذا الموقع التجارة ، ثم جعلت المدينة في عام ١٢٩٧ ثغراً حراً تفرغ فيه المتاجر ويعاد شحنها دون أن تؤدي ضرائب جمركية ؛ وأضحى لهولندة الصغيرة من ذلك الحين شأن عظيم في شئون العالم الاقتصادية ، وفيها غذت التجارة الثقافة كما يحدث في غيرها من البلدان ، فنحن نسمع في القرن الثالث عشر عن شاعر هولنـــدي يدعى مارلانت Maerlant ، يهجو حياة رجال الدين المترفين هجاء لاذعاً . وبدأ الفن

(*) الدولة الحاجزة هي الدولة المحايدة القائمة بين دولتين ليست علاقتهما في العادة ودية أو قد تصير غير ودية buffer state لمنع الصدام بينهما . (المترجم)

(**) وكان الكونت قد اتخذ هذا المكان ليلتقي فيه برفاق الصيد ، وسميت لذلك جرافن هاج s'Graven Haag أي مأوى الكونت وتسمى الآن دن هاج den Haag

الهولندى حياته الفذة العجيبة فى الأديرة ، وكان يشمل النحت ، وصناعة الخزف ، والتصوير ، وتزيين الكتب .

وكانت دوقية برابانت تقوم إلى جنوب هولندة ، وكانت تشمل وقتئذ مدائن أنفرس Antwerp ، وبركسل ولوفن Louvain . أما لييج فكان يحكمها أساقفتها حكماً مستقلا ، وكانوا يتركون لها قسطا كبيراً من الحكم الذاتى ؛ وكان إلى جنوب برابانت مقاطعات هينولت ، ونامور Namur ، ولمبرج Limburg ، ولكسمبرج ؛ ثم دوقية لورين ومدائنها ترير Trier ، ونانسى Nancy ، ومتز ؛ ثم عدة إمارات أخرى خاضعة خضوعاً اسميا لإمبراطور ألمانيا ، ولكنها كانت متروكة فى الأغلب الأعم لأشرافها الحكام . وكان لكل من هذه الأقاليم تاريخه الحافل بأحداث السياسة ، والحب ، والحرب ؛ فلنودعها ولننتقل إلى غيرها . وكان فى جنوبها وغربها إقليم برغندية التى تكون الآن الجزء الشرقى من وسط فرنسا ؛ وكانت حدودها تتبدل على الدوام تبدلا لا يشجعنا على تعيينها ، أما أحداثها السياسية فإنها كفيلة بأن تملأ مجلدات ضخمة عديمة الفائدة . وحسبنا أن نقول عنها إن رودلف الأول جعلها مملكة مستقلة فى عام ٨٨٨ ؛ وإن رودلف الثالث أوصى فى عام ١٠٣٢ بضمها إلى ألمانيا : ولكن جزءاً منها ضم إلى فرنسا فى هذا العام نفسه وأصبح دوقية تابعة لها . وكان أدواق برغندية ، كما كان ملوكها السابقون يحكمونها ، حكما يدل على الحكمة والذكاء ، وكانت الكثرة الغالبة منهم تحرص على السلم . ويقع أزهى عصورهم فى القرن الخامس عشر .

وكانت سويسرا فى العصور القديمة موطن عدد من القبائل المختلفة — الهلفيتى Helvetii ، والرئيتى Raeti ، والليپنتى Lepouti — وهم خليط من الأصول الكلتية ، والتيوتونية ، والإيطالية . واحتلت قبائل الألمانى Alemani الهضبة الشمالية وصبغتها بالصبغة الألمانية ؛ ثم قسمت البلاد بعد انهيار الدولة

الكارولنجية إلى إقطاعات خضعت للدولة الرومانية المقدسة . غير أن استعباد سكان الجبال من أشق الأعمال ، ولذلك فإن أهل سويسرا سرعان ما حرروا أنفسهم من الاسترقاق الإقطاعى وإن ظلوا يؤدون بعض الالتزامات الإقطاعية . وكان أهل القرى المجتمعون فى جمعيات دمقراطية يختارون موظفيهم ، ويحكمون أنفسهم بمقتضى الشرائع الألمانية القديمة شرائع الألمانى Alemanni والبرغنديين . وألف الفلاحون المجاورون لبحيرة لوسرن Lucerne « مقاطعات غابية » (Waldstälte) للدفاع المتبادل — وهذه المدن هى : أورى Uri ، وندولدن Nidewalden ، وشويز Schwyz . ومن هذه المدينة الأخيرة اشتق اسم دولة سويسرا . وكان الأهلون الأشداء سكان المدن التى نشأت عند ممرات الألب — چنيف ، وكنستانس ، وفريبورج ، وبرن ، وبازل — ينتخبون موظفيهم ، وينفذون قوانينهم الخاصة بهم ، ولم يكن سادتهم الإقطاعيون يعترضون على هذا الأسلوب من الحكم ، ما دامت الضرائب الإقطاعية الأساسية تؤدى إليهم .

غير أن كونتات آل هبسبرج الذين كانوا يسيطرون على الأقاليم الشمالية منذ عام ١١٧٣ لم يكونوا يسيرون على هذه القاعدة ، ولما أن حاولوا فرض الالتزامات الإقطاعية بأشد ضروب القسوة ، أغضبوا أهل شويز ، فألفت الثلاث المقاطعات الغابية فى عام ١٢٩١ « حلفاً أبدياً » وأقسم أهلها أن يتعاونوا على صد الغارات الأجنبية ، والقضاء على الفتن الداخلية ، وأن يفضوا كل منازعاتهم بالتحكيم ، وألا يعترفوا بقاض ينصب عليهم إذا كان من غير أهل واديهم ، أو كان قد ابتاع منصبه . وسرعان ما انضمت مدائن لوسرن ، وزيورخ ، وكنستانس إلى هذه الجامعة . وسيّر أدواق هبسبرج فى عام ١٣١٥ جيشين على سويسرا ليرغموا أهلها على أداء جميع الالتزامات الإقطاعية ، ولكن مشاة شويز وأورى المسلحين بالرماح ذات البلط فى رؤوسها هزموا الفرسان النمساويين فى

« مراثون سويسرا » ، هزيمة انسحبت على أثرها القوات النمساوية ، وجددت المقاطعات الثلاث يمين المساعدة المتبادلة (٩ ديسمبر سنة ١٣١٥) ، وأنشأت الاتحاد السويسرى . ولم تكن سويسرا قد أصبحت بعد دولة مستقلة ، فقد كان المواطنون الأحرار يعترفون ببعض الالتزامات الإقطاعية ، وبسيادة إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولكن السادة الإقطاعيين والأباطرة المقدسين عرفوا كيف يحترمون أسلحة المقاطعات والمدن السويسرية وحرياتها ، ومهد انتصار مورجارتن السبيل لقيام أكثر الدمقراطيات استقراراً وأعظمها تمسكاً بالعقل والاتزان فى التاريخ كله(*) .

(*) يبدو أنه ليس ثمة سند تاريخى دال على وجود وليم تل William Tell (٥٨)

الفصل الحادى عشر

فرنسا (١٠٦٠ - ١٣٢٨)

١ - فليب أغسطس

كانت فرنسا حينما جلس على عرشها فليب الثانى أغسطس (١١٨٠) دولة صغرى تكتنفها الصعاب ، ولا يكاد أحد يرجو لها عظمة فى مستقبل الأيام . فكانت إنجلترا تمتلك نورمندية ، وبريطانى ، وأنجو ، وتورين ، وأكتين - وهى أملاك تعادل مساحتها ثلاثة أضعاف الممتلكات التى يسيطر عليها ملك فرنسا سيطرة مباشرة . وكان الشطر الأكبر من برغندية فى حوزة ألمانيا ، وكانت مقاطعة فلاندرز المزدهرة إمارة مستقلة فى واقع الأمر ، شأنها فى هذا شأن مقاطعات ليون Lyons ، وسافوى Savoy ، وشامبرى Cnambery . وكانت هذه أيضاً حال پروڤانس - الجنوب الشرق من فرنسا - الغنية بالخمر والزيت ، والفاكهة ، والشعراء ؛ ومدائن أرل Arles ، وأفنيون ، وإيكس ، ومارسيليا ؛ وكان إقليم الدوفنيه المحيط بڤينا قد ترك لألمانيا بوصف كونه جزءاً من برغندية ، وكان فى هذا الوقت إقليما مستقلا يحكمه دوفن dauphin اشتق لقبه من الدلفين dolphin (الدخس) الذى كان شعار أسرته .

وكانت فرنسا الأصلية مقسمة إلى مقاطعات تحمل أسماء مختلفة - دوقيات ، وكنتيات ، وسنيوريات ، وسنسكلتيات sensechalties ، وبيلياجات (مأموريات) Bailliages يحكمها بترتيب أهميتها أدواق ، وكونتون counts ، وسنيورون (سادة) وسنسكالون sensechal (رؤساء خدم الملوك) . ومأمورون bailiffs وكان هذا الحشد المفكك ، الذى كان يسمى فرنسيا Francia منذ القرن التاسع ، خاضعاً لملك فرنسا خضوعاً متفاوت الدرجات ،

مقيداً بقيود كثيرة . وكانت باريس عاصمة الملك فى عام ١١٨٠ مدينة ذات مبان من الخشب ، وشوارع كثيرة الأوحال ، وكان معنى لوتيتيا Lutetia اسمها الرومانى « بلدة الوحل » ، واشمأزت نفس فليب أغسطس من الروائح الكريهة المنبعثة من الشوارع المارة بجوار نهر السين ، فأمر أن ترصف شوارع باريس كلها بالحجارة الصلدة(٥٩) .

وكان فليب أول ملوك ثلاثة رفعوا فرنسا فى ذلك الوقت إلى مكان الزعامة الذهنية ، والأدبية ، والسياسية فى أوربا ، ولكن ملوكاً أقوياء قد سبقوه فى فرنسا ، منهم فليب الأول (١٠٦٠ — ١١٠٨) الذى خلد اسمه فى التاريخ بأنه طلق امرأته وهو فى سن الأربعين وأرغم فولك Fulk كونت أنجو بأن يسلم له الكونتة برتراد Bertrade . ووجد القس الذى يبارك هذا الزنى ويعده زواجاً ، ولكن إربان الثانى حين جاء إلى فرنسا داعياً إلى الحرب الصليبية الأولى حرم الملك . وأصر فليب على إثمه اثنتى عشرة سنة ، ثم طرد بعدها برتراد ورفع عنه الحرمان ، ولكنه لم يلبث أن تاب من توبته ، واسترد ملكته ، وسافرت معه إلى أنجو ، وعلمت زوجها أن يتصافيا ، ويخيل إلينا أنهما متعت كل منهما بكل ما فيها من مفاتن(٦٠) .

وتضخم جسم فليب وهو فى سن الأربعين ، فترك شئون الدولة الخطيرة لابنه لويس السادس (١١٠٨ — ١١٣٧) ، المعروف باسم لويس البدين . لكنه كان خليقاً بخير من هذا الاسم ، فقد ظل يحارب أربعاً وعشرين سنة ، يحارب البارونات الذين كانوا يسلبون المسافرين وانتصر عليهم آخر الأمر ؛ وقوى الملكية بأن نظم لها جيشاً قوياً ، وبذل كل ما فى وسعه لحماية الفلاحين ، والصناع ، والحكومات المحلية للمدن ، وأوتى من الحكمة ما جعله يتخذ سوجر Suger رئيس الدير وزيراً له وصديقاً . وكان سوجر رئيس دير القديس دنيس Denis (١٠٨١ — ١١٥٠) ريشليو القرن الثانى عشر ، دبر شئون فرنسا بحكمة

وعدالة وبعد نظر ؛ وشجع التجارة وأصلح أحوالها ، وخطط وشاد إحدى روائع المبانى القوطية التى تعد أجمل مبانى ذلك الطراز وأقدمها عهداً ؛ وكتب وصفاً ممتعاً للسنين التى قضاها فى الوزارة ولأعماله فيها ؛ وكان فى الواقع خير ما أورثه لويس البدين ولده الذى ظل سوجر يخدمه إلى وقت مماته .

وكان لويس السابع (١١٣٧ — ١١٨٠) هو الرجل الذى قالت عنه إليانور الأكتانية إنها تزوجت ملكا فلم تجده إلا راهباً . لقد كان يعمل جادا فى أداء واجباته الملكية ، ولكن فضائله قضت عليه ، فقد بدا لإليانور أن انهماكه فى شئون الحكم إهمال منه للواجبات الزوجية ، وأضاف بصبره على علاقتها بعشاقها الإهانة إلى هذا الإهمال ، فما كان منها إلا أن طلقته ، وأسلمت يدها ودوقية أكتين التى تمتلكها إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا . وخابت آمال لويس فى الحياة فوجه همه إلى الدين وإلى الصلاح ، وترك العمل لبناء فرنسا القوية إلى ولده .

وكان فليب الثانى أغسطس شبيها بفليب الآخر(*) الذى كان سميدعا من الطبقة الوسطى : كان رجلا ذكياً عملياً يلطف ذكاءه نبلُ عواطفه ، كان يناصر العلوم ولا يتذوقها ، يجمع بين الحذر والدهاء وبين الشجاعة والحزم ، حاد الطبع سريع المغفرة ، لايتردد فى أن يسلك أى سبيل تؤدى به إلى التملك ، ولكنه لم يكن شرها فى هذه الناحية ، وكان معتدلا فى تقواه يستطيع أن يكون سخياً للكنيسة دون أن يسمح لسلطان الدين أن يطغى على شئون السياسية ، ذا صبر ومثابرة نال بهما ما لم يكن يستطيع أن يناله بالمغامرة الجريئة . وكان هذا الرجل عادياً وعظيما (أوجست August)(**) معا ، عنيداً فى لطف ، قاسياً فى حكمة ؛ وبهذا كان هو الرجل الذى تحتاجه بلاده فى وقت أحاطت بها إنجلترا أيام

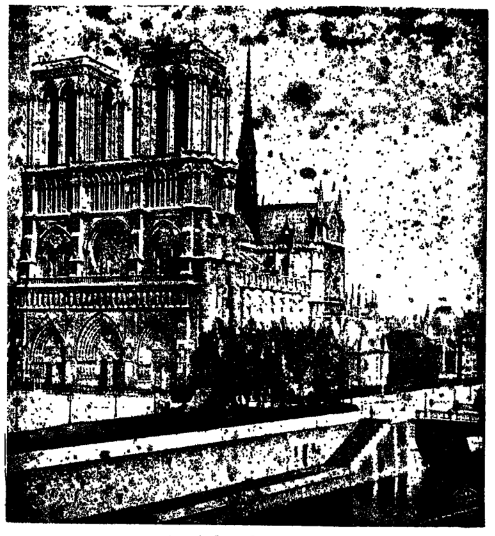
(*) يقصد لوى فليب ملك فرنسا فى القرن التاسع عشر . (المترجم)

(**) هذا هو اللقب الذى منحه إياه راعى كنيسته ولم يشتهر به فى العصور الوسطى غير أن المؤرخين الفرنسيين قد لقبوه به .

هنرى الثانى وألمانيا فى عهد بربرسا ، ولعل الأقدار قد ساقته إلى فرنسا فى هذا الوقت العصيب ، ولولاه لكان من الجائز ألا يبقى لها وجود .

وارتاعت أوربا لزيجاته ؛ فقد ماتت إزبلا زوجه الأولى فى عام ١١٨٩ ، وبعد أربع سنين من وفاتها تزوج إنجبورج Ingeborg الأميرة الدنمرقية . وكان زواجه هذا وذاك زواجاً سياسياً ، فيه من التملك أكثر مما فيه من الغرام . ولم ترق إنجبورج فى عين فليب ، فهجرها بعد يوم واحد ، ولم يمض على زواجه بها أكثر من عام حتى أقنع مجلساً من الأساقفة الفرنسيين أن يجيز له طلاقها ، ولكن البابا سلستين الثالث Celestine III أبى أن يوافق على هذا القرار . غير أن فليب تحدى البابا وتزوج فى عام ١١٦٩ بأنى الميرانية Agnes of Meran ؛ فحرمه سلستين ، ولكن فليب ظل على عناده وقال فى ساعة من ساعات حنانه : « خير لى أن أفقد نصف أملاكى من أن أفارق أنى » . وأمره إنوسنت الثالث أن يرجع إنجبورج ، فلما عصى فليب الأمر حرم البابا الصلب العنيد جميع الخدمات الدينية فى أملاك فليب . وثارت ثائرة فليب فخلع جميع الأساقفة الذين أطاعوا أمر الحرمان ، وقال فى حسرة : « ما أسعد صلاح الدين الذى ليس له من فوقه بابا » ، وهدد بأن يعتنق الإسلام(٦١) . وواصل حربه الدينية أربع سنين بدأ الشعب بعدها يتذمر خوفاً من عذاب النار ، فطرد فليب محبوبته أنى (١٢٠٢) ولكنه أبقى إنجبورج محبوسة فى إيتامب Etampes حتى عام ١٢١٣ حين ردها إلى عصمته .

وبين هذه الأفراح والاضطرابات فتح فليب نورمندية واسترد هامن إنجلترا (١٢٠٤) ، وضم فى السنتين التاليتين بريطانى ، وأنجو ، ومين ، وتورين ، وبواتو ، إلى أملاكه التى تحت سلطانه المباشر ؛ وأصبح له وقتئذ من القوة ما يستطيع به أن يسيطر على الأدواق ، والكونتة ، والسادة فى جميع أنحاء مملكته . وكان مأموروه وعماله يشرفون على الحكومات المحلية ، وصارت



(صورة ٤) كِنيسة نتر دام ، باريس

مملكته قوة دُوَلية كبرى ، ولم تعد رقعة من الأرض ممتدة على ضفتى نهر السين . ولم يسكت چون ملك إنجلترا على ما أصابه من ضياع ملكه ، فأقنع أتو الرابع إمبراطور ألمانيا ، وكونتى بولونى وفلاندرز أن ينضما إليه فى الوقوف فى وجه هذا التوسع الفرنسى ، واتفقوا على أن يهاجم چون فرنسا من أكتين (وكانت لا تزال ملكا لإنجلترا) وأن يهاجمها حلفاؤه من الشمال الشرقى . ولم يوزع فليب قوّته لملاقاة هذه الهجمات المتفرقة ، بل سار على رأس جيشه الرئيسى لقتال حلفاء چون ، وهزمه عند بوڤين ، بالقرب من ليل Lille (١٢١٤) . وأسفرت هذه المعركة عن كثير من النتائج الهامة ، أسفرت عن خلع أوتو ، وتولى فردريك الثانى عرش ألمانيا ، وقضت على زعامة ألمانيا للقارة الأوربية ، وعجلت اضمحلال الدولة الرومانية الشرقية ، وأخضعت كونت فلاندرز وخلفاءه لطاعة ملوك فرنسا ، وضمت أمين ، ودويه ، وليل ، وسان كنتن إلى أملاك التاج الفرنسى ، ووسعت رقعة فرنسا الشمالية الشرقية بالفعل حتّى وصلت إلى نهر الرين ، وتركت چون عديم الحول والطول أمام باروناته ، وأرغمته على توقيع العهد الأعظم ، وأضعفت الملَكية وقوّت الإقطاع فى إنجلترا وألمانيا ، على حين أنها قوّت الملكية وأضعفت الإقطاع فى فرنسا ، ويسرت قيام حكومات المدن المحلية والطبقات الوسطى التى عاونت فليب أعظم معاونة فى السلم والحرب .

ولما أن ضاعف فليب أملاكه ثلاثة أضعاف ما كانت عليه من قبل شرع يحكمها حكما طابعه المهارة والإخلاص . وقضى الرجل نصف وقته فى نزاع مع الكنيسة واستبدل برجال الدين فى مجلسه وفى الوظائف الإدارية رجالا من طبقة المحامين الناشئة . ومنح كثيراً من المدن عهوداً بالحكم الذاتى ، وشجع التجارة بما منح التجار من امتيازات ، وحمى اليهود تارة ، ونهبهم تارة أخرى ، وملأ خزائنه بالمال بأن استبدل بالخدمات الإقطاعية إتاوات نقدية ، وزاد إيراد الملك من ٦٠٠ جنيه فرنسى إلى ١٢٠٠ (نحو ٢٤٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) فى اليوم

وتمت فى أيامه واجهة كنيسة نوتردام Notre Dame ، وبنى اللوفر ليكون حصناً يحرس نهر السين[٦٢] . ولم يمت فليب حـ كانت فرنسة هذه الأيام قد ولدت .

٢ — القديس لويس

ولم يتمكن ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ — ١٢٢٦) فى حكمه القصير من أن يفعل الشىء الكثير . وأهم ما يذكره به التاريخ أنه تزوج بلانش القشتالية Blanche of Castille ، وأنه أنجب منها الرجل الوحيد فى العصور الوسطى الذى أفلح كما أفلح أشوكا فى الهند القديمة فى أن يكون فى واقع الأمر قديساً وملكا جميعاً . وكان لويس التاسع فى الثانية عشرة من عمره ، وكانت والدته فى الثانية والثلاثين حين توفى لويس الثامن . وحافظت بلانش على ما يجرى فى عروقها من دم ملكى ؛ فقد كانت ابنة ألفنسو التاسع Alfonso IX ملك قشتالة ، وحفيدة هنرى الثانى وإليانور الأكتانية ، وكانت ذات جمال ، وفتنة ، ونشاط ، وأخلاق قويمة ، ومهارة فائقة . وكانت فى الوقت عينه ذات أثر كبير فى عصرها لما اتصفت به من الفضائل بوصفها زوجة وأرملة ، وإخلاص لبنيها الأحد عشر . ولم تكن فرنسا تكرمها لأنها بلانش الملكة الصالحة Blanche la bonne reine فحسب ، بل كانت تكرمها أيضاً لأنها بلانش الأم الصالحة: Blanche la bonne mère . وقد أعتقت فى حياتها كثيرين من أرقاء الأرض الذين يعملون فى الضياع الملكية ، وتصدقت بالأموال الكثيرة ، وأدت من مالها البائنات لكثير من البنات التى يحول فقرهن دون تشجيع الشبان على حبهن . وأعانت بالمال بناء كنيسة شارتر Chartres الكبيرة . وبفضل نفوذها أظهر زجاج الكنيسة الملوّن العذراء مريم فى صورة الملكة لا فى صورة العذراء[٦٣] . وكانت مفرطة فى حب ابنها لويس ، ولم تكن كريمة فى معاملتها زوجته . وقد عكفت

على تربيته على الفضائل المسيحية ، وكانت تقول له إنها تفضل أن تراه ميتاً عن أن تراه يرتكب أحد الذنوب البشرية(٦٤) . على أن أعمالها هذه لم تكن هي التي جعلت لويس رجلا متديناً مخلصاً لدينه ؛ وذلك أنها هي نفسها قلما كانت تضحي بالسياسة في سبيل العاطفة ؛ فقد انضمت إلى الحرب الألبجنسية الدينية ، لكي تبسط سلطان التاج على فرنسا الجنوبية . وظلت تحكم المملكة تسع سنين (١٢٢٦ — ١٢٣٥) كبر في أثنائها لويس ، وقلما استمتعت فرنسا بحكم خير من حكمها . وثار البارونات في بداية حكمها نائبة عن ولدها ، ظنا منهم أن في مقدورهم أن يستعيدوا من امرأة ما انتزعه فيليب الثاني منهم من سلطات ؛ ولكنها تغلبت عليهم بحكمتها وسياستها وطول أناتها ؛ وقاومت إنجلترا مقاومة شديدة ؛ ثم وقعت معها هدنة بشروط عادلة . ولما بلغ لويس التاسع سن الرشد ، وتولى شئون الحكم ، ورث مملكة قوية ، مستمتعة بالسلم والرخاء .

وكان لويس شاباً وسيماً ، أطول من معظم الفرسان بمقدار طول رأسه ، حسن الملامح دقيقها ، أبيض لون البشرة ، ذا شعر أشقر غزير ، وكان ذا ذوق راق ، مغرماً بالأثاث الفخم المترف ، والثياب الملونة ؛ ولم يكن مكباً على مطالعة الكتب ، بل كان يميل إلى اقتناص الحيوان وصيد الطير ، وضروب التسلية والألعاب الرياضية ؛ ولم يكن قد أصبح بعد قديساً ، وشاهد ذلك أن راهباً شكا بلانش من مغازلة ولدها للفتيات ، فبحثت له عن زوجة ، وعاش معها عيشة الهدوء والاستقرار ، وأصبح مضرب المثل في وفاء الأزواج ونشاط الآباء . وكان له أحد عشر ولداً كان له هو نصيب موفور في تربيتهم ؛ فتخلى على الترف شيئاً فشيئاً ، واعتاد بالتدريج عيشة البساطة المتزايدة ، وصرف همه في شئون الحكم ، والصدقات ، والتقوى . وكان يرى أن الملكية أداة للوحدة القومية واتصالها ، وحماية الفقراء والضعفاء من الأقلية العليا المحظوظة .

وكان يحترم حقوق النبلاء ، ويشجعهم على الوفاء بالتزاماتهم لأرقاء الأرض ،

والأتباع ، والسادة ؛ ولكنه لا يطيق الاعتداء على سلطة الملك الحديثة العهد ؛ ويمنع بعزيمته الماضية أن يقع ظلم من سيد على تابع . وكثيراً ما أنزل أشد العقاب بالبارونات الذين قتلوا أتباعهم من غير محاكمة . ولما أن شنق إنجران ده كوسى Enguerrand de Coucy ثلاثة طلاب فلمنكيين لقتلهم بضعة أرانب برية فى ضيعته ، أمر لويس بسجنه فى برج اللوفر ، وهدده بالشنق ، ولم يطلقه إلا بعد أن اشترط عليه أن يبنى ثلاث كنائس صغيرة تتلى فيها الصلوات كل يوم لأرواح ضحاياه ، وأن يهب الغابة التى صاد فيها الطلبة الشبان الأرانب لدير القديس نقولاس ، وأن يفقد فى مزرعته حق الصيد والحقوق القضائية ، وأن يخدم ثلاث سنين فى فلسطين ، ويؤدى إلى الملك غرامة قدرها ١٢,٥٠٠ جنيه[٦٥] . وحرم لويس الثأر الإقطاعى والحروب الإقطاعية بين الأمراء ، ونهى عن المبارزة بوصفها وسيلة من الوسائل القضائية . . . ولما حلت المحاكمة عن طريق الأدلة والبراهين محل القتال ، تخلت محاكم البارونات عن مكانها شيئاً فشيئاً للمحاكم الملكية التى نظمها فى كل مقاطعة مأمورو الملك ، وتقرر حق استئناف أحكام القضاة البارونات إلى محكمة الملك المركزية ؛ وشهد القرن الثالث عشر فى فرنسا ، كما شهد إنجلترا استبدال قانون الدولة العام بالقانون الإقطاعى . وقصارى القول أن فرنسا لم تنعم منذ أيام الرومان بما نعمت به فى عهد لويس التاسع من أمن ورخاء ؛ وحسبنا دليلا على هذا أن ثروة فرنسا فى أيامه بلغت من الوفرة درجة ارتفعت بها العمارة القوطية إلى أقصى حدود الكثرة والكمال .

وكان يعتقد أن فى مقدور الحكومة أن تكون عادلة كريمة فى علاقاتها الخارجية دون أن تفقد بذلك هيبتها وقوتها . وكان يتجنب الحرب أطول أمد مستطاع ؛ فإذا لاح خطر الاعتداء عليه نظم جيوشه أحسن تنظيم ، ووضع خططه الحربية ، وقادها — فى أوربا — بجد ومهارة نال بهما سلماً كريمة لم تترك فى نفوس أعدائه رغبة فى الانتقام . وما كادت فرنسا تتأكد من سلامتها ، حتى

عهد الملك إلى سياسة المصالحة التى قبل بمقتضاها التوفيق بين الحقوق المتعارضة ورفض التهدئة الناشئة من إجابة المطالب غير العادلة . وقد رد إلى إنجلترا وأسبانيا أقاليم اغتصبها منهما أسلافه ، وأسف لذلك مستشاروه ، ولكنه ضمن بعمله هذا استتباب السلام ، ونجت فرنسا من الهجوم حتى فى أثناء غياب لويس فى الحروب الصليبية . ويقول عنه وليم الشارتريسى William of Chartres إن « الناس كانوا يخشونه لأنهم موقنون بعدله »[٦٦] . ولم تشتبك فرنسا من ١٢٤٣ إلى ١٢٧٠ فى حرب مع عدو لها مسيحى ؛ ولما أن أخذ جيرانها يحارب بعضهم بعضاً بذل لويس ما يستطيع من جهد للتوفيق بينهم ، وسخر من قول مجلسه إن من الواجب إثارة هذا النزاع لكى تضعف بذلك قوة من قد يصبحون أعداءه فى مستقبل الأيام[٦٧] . وكان الملوك الأجانب يحكمونه فيما يشجر بينهم من نزاع ، وكان الناس يعجبون كيف يستطيع هذا الرجل الصالح أن يكون ملكا صالحاً .

ولم يكن لويس « ذلك الوحش الكامل الذى لم يعرفه العالم قط » — أى الرجل المبرأ من جميع العيوب . فقد كان يغضب أحياناً ، ولعل سوء صحته هو سبب غضبه . وكانت سذاجته تصل فى بعض الأحيان إلى حد الجهالة أو السذاجة اللتين يستحق عليهما أشد اللوم ، ودليلنا على ذلك ما ارتكبه من خطأ شنيع إذ تورط فى الحروب الصليبية والمعارك الخاسرة فى مصر وتونس ، حيث ضاعت أرواح كثيرة فضلا عن روحه هو ؛ ومع أنه راعى واجب الشرف والأمانة فى معاملته أعداءه المسلمين ، فإنه لم تطاوعه نفسه على أن يطبق فى معاملته إياهم روح التفاهم الكريم الذى نجح به أيما نجاح مع أعدائه المسيحيين . وقد دفعه إيمانه الدينى القوى الشبيه بإيمان الأطفال إلى درجة من عدم التسامح الدينى ساعدت على إنشاء محكمة التفتيش فى فرنسا ؛ وهدأت ما تنطوى عليه نفسه من رحمة نحو ضحايا الحرب الصليبية الألبجنسية . وقد امتلأت خزائنه بالبضائع

والأموال التى صادرها من المارقين الذين حكم بإدانتهم(٦٨) ، وقد خانته روحه المرحة وفكاهته فى معاملته اليهود الفرنسيين .

فإذا أسقطنا من صحيفته هذه العيوب رأينا أنه قد اقترب قربا يشرفه من المثل المسيحى الأعلى ، انظر إلى ما يقوله عنه چوانفيل Joinville « لم أسمعه قط فى يوم من أيام حياتى يقول قالة السوء عن أى إنسان(٦٩) » . ولما أن قبل آسروه المسلمون خطأ منهم عشرة آلاف جنيه فرنسى (أى نحو ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) أقل من الفدية المتفق عليها ، أرسل لويس بعد أن أطلق سراحه جميع القدر الناقص من مال الفداء ، وأغضب بذلك مستشاريه(٧٠) . وقبل أن يغادر البلاد للقتال فى حربه الصليبية الأولى ، أمر موظفيه فى جميع أنحاء مملكته « أن يتلقوا كتابة ، وأن يحققوا ، كل ما عساه أن يقدم فينا أو فى أسلافنا من الشكاوى . وكذلك جميع ما يقام على مأمورينا أو محافظينا أو حراس غاباتنا ، أو رؤساء جنودنا أو مرءوسيهم من دعاوى خاصة بمظالم ارتكبوها أو اغتصاب للأموال »(٧١) . ويقول جوانفيل « وكثيراً ما كان يخرج بعد الصلاة ، ويجلس مستنداً إلى شجرة فى غابة ڤنسن Vincenne ويأمرنا بالجلوس حوله . ويقبل عليه كل من له مظلمة ويتحدث إليه دون أن يحول بينه حائل أو يقدمه حاجب » . ثم يفصل فى بعض القضايا بنفسه ، ويحيل بعضها إلى مستشاريه الجالسين حوله ، ولكنه كان يعطى كل شاك حق استئناف الحكم للملك نفسه(٧٢) . وقد أنشأ المستشفيات والملاجئ ، والأديرة ، والمضايف للغرباء ، وبيتاً للمكفوفين ، وآخر للعاهرات التائبات « بنات الله » ؛ وأمر عماله فى كل مقاطعة أن يبحثوا عن العجزة والفقراء ، وينفقوا عليهم من الأموال العامة . وكان أينما سار يجعل من مبادئه المقررة أن يطعم مائة وعشرين فقيراً فى كل يوم ، وكان يأمر بأن يجلس معه على مائدته ثلاثة منهم ، يتولى هو تقديم الطعام لهم ويغسل بنفسه أقدامهم(٧٣) . وكان يفعل ما يفعله هنرى الثالث ملك إنجلترا فيقف على المائدة فى خدمة المجذومين ، ويطعمهم بيديه . ولما حل القحط

بنورمندية ، أنفق الأموال الطائلة فى توفير الطعام للمحتاجين من أهلها . وكان يقدم الصدقات كل يوم للمرضى ، والفقراء ، والأرامل ، والنساء اللاتى فى حالات النفاس ، والعاهرات ، والعاجزين من العمال « حتى ليتعذر علينا أن نحصى صدقاته »(٧٤) . ولم يكن ليفسد هذه الصدقات بإذاعتها بين الناس . وكان الفقراء الذين يغسل أقدامهم يختارون من بين المكفوفين ، وكان يعمل عمله هذا خفية ، و يقال لهؤلاء إن الملك هو الذى يخدمهم ؛ ولم يكن أحد من الناس يعرف زهده وتعذيبه نفسه حتى شوهدت آثارهما على جسمه بعد وفاته(٧٥) .

وأصيب أثناء حروبه فى عام ١٢٤٢ بالملاريا فى مناقع سانتونج Saintonge ؛ وأسفر هذا المرض عن إصابته بفقر دم خبيث ، وأوشك على الموت فى عام ١٢٤٤ . ولعل هذه المصائب قد زادت روحه الدينية تدريجاً ، فإنه ما كاد يشفى من مرضه حتى أقسم أن يشن الحرب الصليبية ، وأضعف صحته بانهماكه فى زهده وتعذيب نفسه . ولما عاد من حربه الصليبية الأولى ولما يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره كان قد انحنى جسمه وأصابه الصلع ، ولم يبق من نضرة شبابه وجماله إلا ما يخلعه عليه إيمانه الساذج من خلق جميل وإرادة طيبة . وكان يرتدى قميصاً من الشعر ، تحت مئزر الرهبان الرمادى ، ويأمر بأن يُضرب بسلاسل صغيرة من الحديد ، ويحب طائفتى الرهبان الجديدتين — الفرنسسكان والدمنيكان ، ويهبهم المال بلا حساب ، ولم يمتنع عن أن يكون هو راهباً فرنسسكانياً إلا بعد جهد جهيد . وكان يحضر الصلوات مرتين كل يوم ، ويتلو الأدعية المقررة أدعية الساعات الثالثة والسادسة والتاسعة ودعاء المساء ، ويتلو صلاة العذراء(*) خمسين مرة قبل أن يأوى إلى فراشه ، ويصحو فى منتصف الليل لينضم إلى قساوسته فى صلاة السحر فى كنيسة قصره(٧٦) . وكان يمتنع من مباشرة زوجه فى صيام الميلاد

(*) AveMaria ومطلعها « السلام لك يا مريم » . (المترجم)

والصوم الكبير : وبلغ من تمسكه بشعائر الدين أن كان معظم رعاياه يبتسمون من تقواه ويلقبونه « الأخ لويس » . وقالت له امرأة جريئة : « إن من الخير أن يكون فى مكانك ملك غيرك ، فلست أنت إلا ملك الفرنسسكان والدمنيكان » . إن من العار أن تكون أنت ملك فرنسا ، ومن أعجب العجائب ألا يخلعوك » : فأجابها لويس بقوله : « لقد قلت حقاً . . . فلست خليقاً بأن أكون ملكاً . . ولو أراد منقذنا لوضع فى مكانى رجلا غيرى يعرف خيراً منى كيف يحكم المملكة »[٧٧] .

وكان شديد التحمس لخرافات أهل زمانه ويشاركهم فيها . من ذلك أن دير القديس دنيس كان يدعى أن لديه مسماراً من الصليب الحق ، وحدث أن وُضع المسمار فى غير موضعه بعد احتفال عُرض فيه على الشعب ؛ فثارت لهذا الحادث ضجة كبيرة ، ثم وُجد المسمار وارتاح الملك كثيراً لوجوده ، حتى قال : « لقد كان خيراً لى من هذا أن تبتلع الأرض أحسن مدينة فى ملكى »[٧٨] . وفى عام ١٢٣٦ احتاج بولدون الثانى إمبراطور القسطنطينية إلى المال لينقذ دولته المتداعية ، فباع للويس تاج الأشواك الذى لبسه المسيح فى آلامه بأحد عشر ألف جنيه فرنسى (٢,٢٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) . واشترى لويس من الدلاّل نفسه بعد خمس سنين من ذلك الوقت قطعة من الصليب الحقيقى ، ولربما كان المقصود بهذا الشراء وذاك أن يكون المال هبة من لويس لدولة مسيحية تفرج به أزمتها . وأمر لويس بطرس المنتربلى Peter of Montreuil ليبنى سينت شابل Sainte Chapelle ليُودع فيها هذان الأثران .

ولم يكن لويس رغم صلاحه هذا أداة طيعة فى أيدى رجال الدين ، فقد كان يدرك ما فى طبيعتهم البشرية من عيوب ، ويعاقبهم عليها بالقدوة الطيبة والتقريع العلنى[٧٩] . وقد قيد سلطات المحاكم الكنسية ، وبسط سلطة القانون على جميع المواطنين ، سواء كانوا من رجال الدنيا أو من رجال الدين ، وأصدر فى عام



(صورة ٥) عذراء العمود
من كنيسة نردام ، باريس



(صورة ٦) جارجويل
نتردام ، باريس

١٢٦٨. أول الأوامر العالية التى قيد بها حق البابا فى تعيين أصحاب المناصب الدينية وجباية الضرائب فى فرنسا : « تقرر أنه لا يجوز لأحد أن يفرض أو يجبى بأية طريقة كانت فروضاً أو ضرائب مالية فرضتها محكمة رومة . . . إلا إذا كانت القضية معقولة ، متفقة مع أصول الدين ، وعاجلة جداً . . . ونالت موافقتنا الصريحة من تلقاء أنفسنا ، وبموافقة كنيسة مملكتنا »(*) .

وقد بقى لويس الملك على الدوام رغم زهده وميوله الدينية ؛ ولقد حافظ على جلال الملك حتى ساعة أن ظهر واقفاً على قدميه ، مرتدياً ثياب الحاج ، وبيده عصا الحاج ليبدأ حربه الصليبية الأولى (١٢٤٨) . وهو صاحب « الجسم الرفيع » النحيل ، والوجه الشبيه بوجوه الملائكة الأطهار ، والمحيا الملىء بشراً وسماحة »(٨١) كما يصفه فراسلمبين Fra Salimbene . وقد بكت الملكة بلانش وهو يفارقها بعد أن أتاها عنه فى البلاد وإن كانت فى سن الستين وقالت : « يا أحب الأبناء وأجملهم ، يا أجمل الأبناء وأرقهم قلباً ، إنى لن أراك بعد اليوم »(٨٢). وأسر لويس فى مصر ، وظل فى الأسر حتى افتدى بمبلغ من المال جمعته بلانش بعد عناء كبير ، ولكنه لما عاد إلى فرنسا مهزوماً ذليلا وجد أن أمه قد توفيت . ثم أقدم فى عام ١٢٧٠ رغم ضعفه ومرضه على حرب صليبية أخرى ونزل هذه المرة فى تونس . ولم تكن هذه مغامرة جنونية سخيفة كما بدت للناس بسبب خيبتها . ذلك أن لويس قد سمح لأخيه شارل دوق أنجو أن يقود جيشاً فرنسياً إلى إيطاليا ، وكان يبغى من وراء هذا أن يضعف سيطرة الألمان عليها ، ويرجو أن يتخذ صقلية قاعدة تغزو بها فرنسا بلاد تونس ، وبعد أن وصل المحارب العظيم المحطم الجسم الصغير السن إلى أرض تونس ، مات بزحار البطن . وسلكته

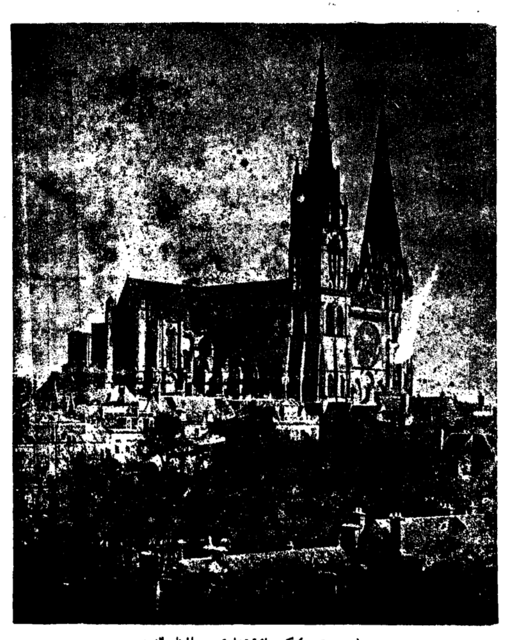
(*) ملمان Milman فى ص ١١٩ من المجلد السادس من كتاب « تاريخ المسيحية اللاتينية History of Latin Christianity » . والرأى السائد أن هذا القرار صحيح من الوجهة التاريخية(٨٠) ، ولكن ربما كان المدافعون عن فليب الرابع قد اخترعوه من عندهم ليكون سلاحا يشهرونه فى وجه بنيفاس الثامن . انظر دائرة المعارف الكاثوليكية فى اسم لويس التاسع .

الكنيسة بعد سبع وعشرين سنة من موته فى عداد القديسين . وظل الناس بعد وفاته أجيالا وقروناً يرون أن حكمه هو العصر الذهبى فى تاريخ فرنسا ، ويعجبون كيف لا تتيح الأقدار التى لا يفقهون تصريفها لأمور البشر ملكاً آخر لفرنسا يماثله . ذلك أنه كان ملكاً مسيحاً بحق .

٣ — فليپ الجميل

زادت الحروب الصليبية من قوة فرنسا ، وكان لها فيها شأن كبير . وأكسبها طول حكم فليب أغسطس ولويس التاسع استقراراً واتصالا فى الحكم فى الوقت الذى كانت فيه إنجلترا تعانى الأمرين من إهمال رتشرد الأول ، واستهتار چون ، وعجز هنرى الثالث ، وكانت فيه ألمانيا مفككة الأوصال من أثر الحروب الناشبة بين الأباطرة والبابوات ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كانت فرنسا أقوى دول أوربا كلها .

وكان فليب الرابع يلقب بالجميل le Bel لجمال جسمه ووجهه ، لا لدهائه السياسى وجرأته وقسوة قلبه . وكان ذا آمال واسعة : كان يأمل أن يخضع كل الطبقات — الأشراف ، ورجال الدين ، وأهل المدن ، وأرقاء الأرض — لحكم القانون وسيطرة الملك مباشرة ، وأن يقيم نماء فرنسا وتقدمها على أساس التجارة والصناعة لا الزراعة ، وأن يمد حدودها إلى المحيط الأطلنطى ، وجبال البرانس ، والبحر المتوسط ، وجبال الألب ، ونهر الرين . ولم يختر أعوانه ومستشاريه من كبار رجال الدين والأشراف الذين ظلوا يخدمون ملوك فرنسا طوال الأربعة القرون الماضية ، بل اختارهم من طبقة المحامين الذين أقبلوا عليه وعقولهم مفعمة بالأفكار الاستعمارية التى أوحى إليهم بها القانون الرومانى . فكان پيير فلت Pierre Flotte وجيوم ده نوجاريه Guilluame de Nogaret من ذوى العقول النابهة الذين لا يبالون بالمبادئ الأخلاقية أو السوابق ؛ وشاد فليب بفضل توجيههم صرح القانون الفرنسى ، وأحلّ الشريعة الملكية محل



(صورة ٢) كتدرائية تشارتر – المنظر الغربي

الشريعة الإقطاعية ، وانتصر على أعدائه بسياسته الحصيفة ، وحطم فى نهاية الأمر سلطان البابوية ، وجعل البابا فى الواقع سجيناً فى فرنسا ؛ وحاول أن يفصل جوين Guienne عن إنجلترا ، ولكنه وجد إدورد الأول قوياً لا يُغلب ، وحصل على شمبانيا Champagne ، وبرى Brie ، وتبرة بطريق الزواج ، وابتاع بالمال شارتر ، وفرانش كمتيه Franch - Comté ، وإقليم ليون وجزءاً من اللورين .

وكان دائم الحاجة إلى المال ، ولهذا وجّه نصف ذكائه ونصف وقته إلى اختراع الضرائب وجمع الأموال ، واستبدل المال بالقروض الإقطاعية الواجب أداؤها للتاج ؛ وكم من مرة خفض قيمة النقد ، وأصر على أن تؤدى الضرائب سبائك أو بالنقد الصحيح القيمة ، ونفى اليهود واللمبارد وقضى على فرسان المعبد ليصادر أملاكهم ، وحرم إصدار المعادن النفيسة من بلاده ، وفرض رسوماً باهظة على الصادرات والواردات ، والمبيعات ، وضريبة حربية مقدارها بنس على كل جنيه فرنسى فى ثروة الأفراد فى فرنسا . ثم فرض أخيراً ضريبة على الكنيسة دون أن يستشير البابا ، وكانت الكنيسة وقتئذ تمتلك ربع أرض فرنسا . وسنروى قصة هذا الصراع عند الكلام على بنيفاس الثامن . ولما مات البابا الطاعن فى السن بعد أن حطمه الكفاح ، استخدم فيليب ماله وأعوانه فى اختيار رجل فرنسى لقب كلمنت الخامس فى مكانه ، كما استطاع أن ينقل مقر البابا إلى أفنيون ، وهكذا انتصر فيليب على البابوية انتصاراً لم يظفر به من قبل على الكنيسة رجل من غير أهلها ، وأصبح رجال القانون فى فرنسا من هذا الوقت هم الذين يحكمون رجال الدين .

وتنبأ الرئيس الأكبر لفرسان المعبد وهو سائر إلى الخشبة التى يشد عليها من يراد إحراقهم بأن فليب سيتبعه فى خلال عام واحد . وقد صدقت النبوءة ، ولم يمت فيليب وحده فى عام ١٣١٤ بل مات فيها كلمنت أيضاً — ولم يكن الملك

المنتصر قد تجاوز وقتئذ السادسة والأربعين من عمره . وكان الشعب الفرنسى يعجب بشجاعته وصلابة رأيه . وأيده فى صراعه مع بنيفاس ، ولكنه يصب اللعنات على ذكراه ويراه أشد الملوك استبداداً فى تاريخه كله . وكادت انتصاراته تحطم كيان فرنسا . وقد كان تخفيضه قيمة النقد سبباً فى اضطراب الاقتصاد القومى . وكانت الأجور العالية للأراضى الزراعية والأثمان المرتفعة سبباً فى فقر الشعب ، وأضرت الضرائب الفادحة بالصناعة ، كما كان نفى اليهود واللمبارد سبباً فى شل حركة التجارة وفى خراب الأسواق وتعطيل المواسم التجارية . وجملة القول أن الرخاء الذى ازداد فى عهد القديس لويس قد نقص واضمحل فى عهد فليب الذى يتقن جميع ما فى القانون والسياسة من ألاعيب(٨٣) .

وجلس على العرش ثلاثة أبناء لفليب ووراءهم الثرى فى خلال الأربعة عشر عاماً التى أعقبت وفاته ، ولم ينجب واحد منهم أبناء يرثون ملكه ، بل ترك شارل الرابع (المتوفى عام ١٣٢٨) بنات ، اتخذ القانون السالى القديم ذريعة لحرمانهم من التاج . وكان أقرب وريث من الذكور للأسرة المالكة هو فليب الفالوازى Philip of Valois ابن أخى فليب الجميل ، فلما تولى الملك انتهت بموته الأسرة المالكة التى تناسلت من الملوك الكابيتيين مباشرة وبدأ عهد أسرة ڤالوَا .

وإذا ألقينا نظرة عامة عاجلة على أحوال فرنسا فى ذلك الوقت رأينا أنها تقدمت تقدماً عجيباً فى النواحى الاقتصادية ، والتشريعية ، والتعليمية ، والأدبية ، والفنية . فقد كان نظام رقيق الأرض يختفى من البلاد بخطى سريعة ، لأن نمو الصناعات فى المدن كان يغرى الناس بالنزوع إليها من المزارع ، حتى بلغ سكان باريس مائتى ألف فى عام ١٣١٤ ، وبلغ سكان فرنسا ٢٢,٠٠٠,٠٠٠(٨٤) ؛ ولما قدم برونتولاتينى إلى فرنسا فاراً من الاضطهاد السياسى فى فلورنس دهش مما كان يسود شوارع باريس فى عهد لويس التاسع من أمن وطمأنينة ، وما كان فى

المدن من تجارة وصناعة ، وما كان فى الريف الجميل المحيط بالعاصمة من حقول وكروم مثمرة (٨٥) .

وأوشكت الطبقتان الناشئتان ، طبقتا الموظفين ورجال الأعمال ، أن تضارعا فى الثراء طبقة رجال الأعمال ، فاضطرت الدولة إلى تمثيل هاتين الطبقتين فى مجلس الطبقات Etats Generaux الذى دعاه فليب الرابع إلى الانعقاد فى باريس عام ١٣٠٢ ليقدم له المعونة الأدبية والمالية فى نزاعه مع بنيفاس . ولم تكن هذه المجالس العامة التى تمثل فيها الطبقات — الأعيان ، ورجال الدين ، والعامة — لم تكن هذه المجالس تدعى إلى الانعقاد إلا فى الضرورات القصوى (١٣٠٢ ، ١٣٠٨ ، ١٣١٤ . . .) وكان المحامون الذين يخدمون الملك بوصفهم مجلسا للدولة Conseil d'etat يوجهونها توجيهاً ماهراً نحو الهدف الذى يريدونه . أما برلمان باريس الذى اتخذ شكله المعروف به فى عهد لويس التاسع فلم يكن جمعية نيابية ، بل كان هيئة مؤلفة من أربعة وتسعين من المحامين ورجال الدين يعينهم الملك ويجتمع مرة أو مرتين فى العام ليكون محكمة عليا . وقد نشأت من أحكامه مجموعه من التشريعات القومية تعتمد على القانون الرومانى لا على شرائع الفرنجة ، وتهب الملكية المعونه الكاملة المستمدة من التقاليد القانونية القديمة .

وقد بقيت الفورة العقلية التى سادت عهد فليب الرابع محفوظة لأهل هذا الجيل فى الرسائل السياسية التى كتبها أحد أنصاره — بيير دوبوا Pierre Dubois (١٢٥٥ — ١٣١٢) ، وهو محام مثل كوتانس Coutances فى مجلس الطبقات الذى عقد فى عام ١٣٠٢ . فقد عرض دوبوا فى رسالتين من رسائله « ملتمس مقدم من شعب فرنسا إلى الملك ضد البابا بنيفاس Supplication de peuple de France Contre le pape Boniface (١٣٩٤) » ، وفى نبذة عن

« استرداد الأرض المقدسة » (١٣٠٦) آراء تكشف لنا عن الثغرة الواسعة التي كانت تفصل في ذلك الوقت عقلية رجال القانون عن عقلية رجال الكنيسة في فرنسا . من ذلك ما قاله دوبوا من أن الكنيسة يجب ألا تحبس عليها الأموال ، وأن تجرى عليها من الآن معونة مالية من الدولة ؛ ويجب أن تفصل الكنيسة الفرنسية عن رومة ؛ وأن تجرد البابوية من جميع السلطات الزمنية ، وأن تكون الدولة صاحبة السلطة العليا . وقال أيضاً إن فليب يجب أن يعين إمبراطوراً لدولة أوربا الموحدة ، وأن تكون القسطنطينية عاصمته ؛ وأن تؤلف محكمة دولية لتفصل فيما يشجر بين الأمم من نزاع ، وأن تعلن المقاطعة الاقتصادية على أية أمة مسيحية تحارب أمة مسيحية أخرى ؛ وأن تنشأ في رومة مدرسة للدراسات الشرقية ؛ وأن يتاح للنساء جميع ما يتاح للرجال من فرص تعليمية ، وأن يتساوين مع الرجال في جميع الحقوق السياسية(٨٦) .

وكان هذا العصر عصر شعراء الفروسية الذين يتغنون بالحب العذرى في پروڤانس ؛ وعصر قصاصي الملاحم في شمالي فرنسا ، وعصر أغنية رولان Chanson de Roland ، وغيرها من الأغاني الرمزية : وأغنية أوكسان ونيقولت Aucassin et Nicolette ، وقصة الوردة Roman de la Rose ؛ والعصر الذي ظهر فيه المؤرخان اللذان يعدان طليعتي المؤرخين الفرنسيين البارزين وهما ڤلاردوين Villardhouin وچوانڤيل . ونظمت في هذا العهد الجامعات الكبرى في باريس وأورليان ، وأنچير Angers ، وطولوز (طلوشة) ، ومنپلييه . بدأ هذا العصر بروسلن Roscelin وأبلار Abélare وانتهى بأعلى ما وصلت إليه الفلسفة المدرسية Scholastic Philosophy . وكان عصر النشوة القوطية — التي ظهرت في الكنائس الفخمه الكبرى في سان دنيس ، وتشارتر ، ونوتردام ، وأمين ،



(صورة ٨) « الزيارة » من كنيسة تشارتر



(صورة ٩) « التواضع » من كنيسة تشارتر

وريمس ، وفى النحت القوطى فى أكمل مظاهره الروحية . وكان الفرنسيون وقتئذ يفخرون فخراً لا نلومهم عليه بوطنهم ، وعاصمتهم ، وثقافتهم ؛ وكانت وطنية قومية تعمل لوحدة البلاد تحل تدريجاً محل النعرة الإقليمية التى كانت تسود عصر الإقطاع ؛ وأخذ الناس ذلك الحين يتحدثون حديث الحب والإعزاز عن « فرنسا الحلوة » ، كما نرى ذلك فى أغنية رولان .
وملاك القول أن الحضارة المسيحية قد بلغت عظمتها فى فرنسا وإيطاليا .

الفصل الثانى عشر

أسپانيا : ١٠٩٦ – ١٢٨٥

سار المسيحيون فى فتح أسپانيا بالسرعة التى أمكنتهم منها الفوضى الناشئة من تطاحن الملوك الأسپان ، ومنح البابوات من عاونوا على إخراج المسلمين من أسپانيا لقب المحاربين الصليبيين وامتيازاتهم ؛ وأقبل بعض فرسان المعبد من فرنسا للانضمام إلى أهل البلاد المسيحيين ؛ وتكونت فى القرن الثانى عشر ثلاث جماعات دينية حربية – فرسان كلاترافا Calarrava ، وفرسان سنتياجو ، وفرسان القنطرة ؛ واستولى ألفنسو الأول (الأذفنش) فى عام ١١١٨ ملك أرغونة على مدينة سرقسطة ؛ وفى عام ١١٩٥ هزم المسيحيون ، ولكنهم كادوا يبيدون جيش الموحدين الأكبر فى واقعـــة العقاب Las Navkas de Tolosa فى عام ١٢١٢ . وكان نصرهم فى هذه الواقعة نصراً حاسماً ، تحطمت على أثره مقاومة المسلمين وسقطت قلاعهم واحدة بعد واحدة فى أيدى المسيحيين : قرطبة (١٢٣٦) ، وبلنسية (١٢٣٨) ، وإشبيلية (١٢٤٨) ، وقادس (١٢٥٠) ، ثم وقف فتح المسيحيين نحو قرنين ليفسح الوقت إلى حروب الملوك .

ولما هزم ألفنسو (الأذفنش) الثامن ملك قشتالة هجم على مملكته ملكا ليون ونبرة وكانا قد وعداه من قبل بأن يخفا لمساعدته ، واضطر ألفنسو إلى عقد الصلح مع المسلمين ليحمى نفسه من غدر المسيحيين(٨٧) . وأعاد فرنندو الثالث Fernando III (١٢١٧ – ١٢٥٢) توحيد ليون Leon وقشتالة ، ووسع حدود المملكة الكاثوليكية إلى غرناطة ، واتخذ إشبيلية عاصمة لملكه ، وحول مسجدها العظيم إلى كنيسة ، واتخذ القصر Alcazar مسكناً له ، وكانت الكنيسة تعده وقت مولده ابناً غير شرعى ، ولكنه عدته قدسياً بعد

وفاته . وكان ابنه ألفنسو (الأذفنش) العاشر (١٢٥٢ — ١٢٨٤) عالماً ممتازاً ، ضعيف العزيمة ؛ وأعجب الأذفنش الحكيم (el Sabio) بما وجده فى إشبيلية من علوم المسلمين ، فتحدى المتعصبين من أهل ملته باستخدام العلماء من العرب واليهود والمسيحيين على السواء لترجمة كتب المسلمين إلى اللغة اللاتينية كى تستطيع أوربا أن تفيد من هذه العلوم . وقد أنشأ هذا الملك مدرسة لعلم الهيئة هى صاحبة « الأزياج الأذفنشية » الخاصة بالأجرام السماوية وحركاتها التى أضحت المرجع الذى يعتمد عليه علماء الهيئة المسيحيون . ونظم هذا الملك هيئة من المؤرخين ، وضعت كتاباً سمته باسمه جمعت فيه تاريخ أسپانيا ، وتاريخاً عاماً واسعاً للعالم كله ، ونظم نحو ٤٥٠ قصيدة ، بعضها بلغة قشتالة ، وبعضها باللغة الجليقية — البرتغالية ؛ ولُحِّن الكثير منها ، ولا تزال هذه القصائد باقية حتى اليوم ، أثراً خالداً لأغا العصور الوسطى . وفاضت حماسته الأدبية فى عدة كتب ألفها هو أو أمر بتأليفها ، فى ألعاب الداما ، والشطرنج ، والنرد ، والموسيقى ، والملاحة ، والكيمياء ، والفلسفة . ولعله أيضاً قد أمر بترجمة الكتاب المقدس من اللغة العبرية إلى القشتالية مباشرة . وقد رفع اللغة القشتالية إلى المرتبة العليا التى أمكنتها من أن تسيطر من ذلك الوقت إلى يومنا هذا على الحياة الأدبية فى أسپانيا ؛ ولقد كان هو فى واقع الأمر منشئ الأدب الأسپانى والبرتغالى ، وعلم التاريخ الأسپانى ، والمصطلحات العلمية الأسپانية . ولكنه لوث تاريخه الوضّاء بما حاكه من الدسائس للاستيلاء على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأنفق فى هذه المحاولة كثيراً من أموال أسپانيا ، وعمل على ملء خزائنه بزيادة الضرائب وتخفيض قيمة النقد ، ثم خُلع ورُفع ابنه إلى العرش ، وعاش بعد سقوطه عامين ، ثم مات محطما كسير القلب .

وارتفع شأن أرغونة بزواج ملكتها پترونلا Petronella من الكونت رامون برنجر Ramon Barenger صاحب برشلونة (١١٣٧) ؛ وحصلت أرغونة

بفضل هذا الزواج على قطلونية المشتملة على أعظم الثغور الأسپانية . وعم الرخاء هذه المملكة الجديدة على يد پدرو الثانى Pedro II (١١٩٦ — ١٢١٣) ، بتأمين الموانى ، والأسواق ، والطرق ، وبصرامته فى تنفيذ القانون على من يعبث بهذه المرافق ، وجعل بلاطه فى برشلونة مركز الفروسية والأسپانية والشعراء الغزليين ، وزاد من بهجته أن كان ملتقى المحبين ، ثم تقرب إلى الله — وضمن لنفسه لقبه — بأن قدم أرغونة إلى إنوسنت الثالث على أن يأخذها منه إقطاعية . وكان ابنه چيم Jaime أوچيمس James الأول (١٢١٣ — ١٢٧٦) فى الخامسة من عمره حين قتلى پدرو فى ميدان القتال ؛ واغتنم أشراف أرغونة هذه الفرصة السانحة ليستعيدوا استقلالهم الإقطاعى ؛ ولكن چيمس تولى زمام الأمور وهو فى العاشرة ، وسرعان ما أخضع الأشراف لسلطان الملك . وكان لا يزال شابا فى سن العشرين حين استولى على جزائر البليار ذات الموقع الحربى المنيع من المسلمين (١٢٢٩ — ١٢٣٥) ، واسترد منهم بلنسية وأليقانط . وقام فى عام ١٢٦٥ بحركة من محركات الفروسية التى هيأتها له الوحدة الأسپانية ، فاستولى على مرسية من المسلمين وأهداها إلى ملك قشتالة . وكان أكثر حكمة من الفنسو الحكيم ، حتى أصبح بفضل هذه الحكمة أقوى ملوك أسپانيا فى ذلك القرن ، لا يقل فى ذلك عن فردريك الثانى ولويس التاسع ، فقد كان يشبه أولهما فى ذكائه ودهائه ، وبسالته المجردة من الضمير . لكن تحلله من قيود الأخلاق . وكثرة طلاقه نساءه ، وحروبه العوان ، وما كان يلجأ إليه من الأعمال الوحشية فى بعض الأحيان تجعل الفرق بينه وبين القديس لويس كبيراً من هذه الناحية .

وقد دبر المؤامرات للاستيلاء على الجزء الجنوبى الغربى من فرنسا ، ولكن لويس استطاع أن يتغلب عليه بقوة صبره وإن كان قد نزل له عن منبلييه . ودبر فى أخريات أيامه مؤامرة أخرى للاستيلاء على صقلية ليتخذها قاعدة حربية ، ومركزا تجارياً ، وليجعل البحر المتوسط الغربى بحيرة أسپانية . ولكن هذا

الحلم لم يتحقق إلا فى عهد ولده . ذلك أن پدرو الثالث (١٢٧٦ — ١٢٨٥) ، تزوج ابنة مانفرد ملك صقلية ابن فردريك ، وظن أن هذه الجزيرة من حقه هو حين استولى عليها شارل كونت أنجو ؛ وبارك البابا استيلاءه عليها ، فما كان من پدرو إلا أن ألغى سيادة البابا على أرغونة ، وارتضى الحرمان البابوى ، وركب البحر إلى صقلية .

وشهدت هذه الفترة فى أسپانيا ما شهدته فى إنجلترا وفرنسا من قيام الإقطاع واضمحلاله . بدأه الأشراف بأن تجاهلوا أو كادوا يتجاهلون السلطة المركزية ، فقد كانوا هم ورجال الدين معفين من الضرائب التى كان عبؤها الباهظ واقعاً على عاتق المدن والتجارة ، ثم انتهوا بأن خضعوا للملوك المسلحين بجيوشهم هم ، تؤيدهم موارد المدن وحاجياتها ، ويعلى من مكانتهم إحياؤهم القانونى الرومانى ، الذى كان يفترض أن الحكم الملكى المطلق من بدائه نظام الحكم . ولم يكن ثمة قانون أسپانى فى بداية تلك الفترة ، بل كانت هناك قوانين متفرقة لكل دولة من دول أسپانيا ، ولكل طبقة من طبقات كل دولة . ثم شرع فردريك الثالث يضع نظاماً جديداً لقانون قشتالة ، وأتم ألفنسو العاشر هذا النظام الذى عرف باسم قانون السبعة الأقسام (Siete Partidas) لأنه كان مقسما سبعة أقسام (١٢٦٠ — ١٢٦٥) ، وهو من أتم القوانين وأعظمها شأناً فى تاريخ التشريع . وقد أسس قانون السبعة الأقسام على قوانين القوط الغربيين الأسپان ولكنه عدل لكى يتفق مع قوانين چستنيان ، وكان أرقى من العصر الذى وُضع فيه ، ولهذا ظل مهملا إلى حد كبير ؛ ولكنه أصبح فى عام ١٣٣٨ قانون قشتالة النافذ ، ثم صار فى عام ١٤٩٢ قانون أسپانيا كلها . ثم أدخل چيمس الأول قانوناً مثله فى أرغونة ، فقد نشرت أرغونة فى عام ١٢٨٣ قانوناً تجاريا وبحريا نافذاً ، وأقامت فى بلنسية ثم فى برشلونة وميورقة بعدئذ محاكم تدعى محاكم « قنصلية البحر » .

وتزعمت أسپانيا بلاد العالم فى العصور الوسطى فى إقامة المدن الحرة والأنظمة

النيابية . ذلك أن الملوك أرادوا أن يحصلوا على تأييد المدن فى صراعهم مع الأشراف ، فمنحوا كثيراً من البلدان عهوداً بالحكم الذاتى . وأصبح استقلال المدن بشئونها شهوة جامحة فى أسبانيا كلها ، فأخذت البلدان الصغرى تطالب بتحررها من البلدان الكبرى أو من الأشراف أو الكنيسة ، أو الملك ؛ فلما أفلحت فى نيل هذه الحرية أقامت مشانقها فى السوق العامة رمزاً لحريتها . وكان يحكم برشلونة فى عام ١٢٥٨ مجلس مؤلف من مائتى عضو ، تمثل كثرتهم الغالبة شئون الصناعة والتجارة[٨٨] . وبلغت سيادة المدن زمنا ما حد الاستقلال ، وأخذت تشن الحرب على المسلمين أو بعضها على بعض ؛ ولكنها بالإضافة إلى هذا الاستقلال ألفت من نفسها أخوة hermandades للتعاون على العمل أو للمحافظة على أمنها وسلامتها . ولما أن حاول الأشراف فى عام ١٢٩٥ أن يخضعوا حكومات المدن المحلية ألفت ثلاث وأربعون مدينة « أخوة قشتالة » ، وتعهدت كلها بالاشتراك فى الدفاع عن استقلالها ، وأنشأت لها جيشاً مشتركا . ولما أن هزمت هذه « الأخوة » الأشراف ، فرضت رقابتها على موظفى الملك وكبحت جماحهم ، وسنت قوانين تراعيها المدن المنضمة إلى هذا الحلف التى بلغ عددها مائة مدينة فى بعض الأحيان .

ولقد جرت عادة الملوك الأسبان من زمن بعيد أن يعقدوا من حين إلى حين جمعية من الأشراف ورجال الدين ؛ وأطلق اسم كورتز Cortes أى المحاكم لأول مرة على إحدى هـــذه الجمعيات التى عقدت فى عام ١١٣٧ . وضم كورتز ليون الذى اجتمع فى عام ١١٨٨ بعض رجال الأعمال يمثلون المدن . وأكبر الظن أن هذا هو أقدم مثل من أمثلة النظم النيابية السياسية فى أوربا المسيحية . ووعد الملك فى هذا المجلس التاريخى ألا يعلن الحرب أو يعقد الصلح ، أو يصدر قراراً إلا بعد موافقة الكورتز[٨٩] . واجتمع فى قشتالة أول مجلس من هذا النوع مؤلف من الأعيان ، ورجال الدين ، ورجال المال من الطبقة الوسطى فى عام ١٢٥٠

أى قبل اجتماع « برلمان » إدورد الأول « النموذجى » بخمس وأربعين سنة . ولم يكن الكورتز هو الذى يضع القوانين بنفسه ، ولكنه كان يصوغ « الملتمسات » ويعرضها على الملك ، وكثيراً ما كان لهذا المجلس سلطان على المال يحمل الملك على أن يوافق على هذه « الملتمسات » . وأصدر كورتز قطلونية فى عام ١٢٨٣ قراراً صادق عليه ملك أرغونة بألا يصدر بعد ذلك الوقت أىّ تشريع قومى بغير رضاء المواطنين (cives) ، ثم صدر قرار آخر يطلب إلى الملك أن يدعو الكورتز إلى الاجتماع كل عام ، وسبقت هذين القرارين مثلهما من القرارات التى أصدرها البرلمـــان الإنجليزى (١٣١١ ، ١٣٢٢) بأكثر من ربع قرن من الزمان . هذا إلى أن الكورتز عيّن أعضاء يختارهم من كل طبقة من الطبقات الاجتماعية يؤلفون جنتا (Junta) أى اتحاداً ليشرف فى أثناء الفترات التى تقع بين أدوار انعقاد الكورتز على تنفيذ القوانين وإنفاق الأموال التى وافق عليها[٩٠] .

وكان من العوامل التى عقدت مشكلة الحكم فى أسپانيا قيام الجبال التى قسمتها أقساماً منفصلة ، وعرقلت تنفيذ قانون عام موحد فى جميع ربوعها . يضاف إلى هذا أن عدم استواء أرضها ، وجفاف هضبتها ، وما كان يحل بها من الدمار حيناً بعد حين بسبب الحروب ، كل هذا قد عطل الزراعة ، وجعل أسپانيا فى معظم أجزائها مراعى للماشية والضأن ؛ وكانت قطعان الضأن الجميلة الصوف تغذى آلاف الأنوال فى البلدان ؛ ولقد حافظت أسپانيا على شهرتها العالمية القديمة بجمال أصوافها . وكانت التجارة الداخلية تقف فى سبيلها صعاب النقل ، واختلاف الموازين والمقاييس والنقد ، غير أن التجارة الخارجية تمت فى موانئ برشلونة ، وطرقونة ، وبلنسية ، وإشبيلية ، وقادس ؛ وكان تجار قطلونية يجوبون جميع الأقطار ؛ وكان لتجار قشتالة فى عام ١٢٨٢ مركز فى بروج لا يضارعه إلا مركز العصبة الهانسية[٩١] . وأصبح التجار والصناع أعظم من يمدون التاج بالمعونة

المالية ، ونظم صعاليك المدن لهم نقابات طوائف Gremios ، ولكن الملوك كانوا يسيطرون سيطرة قوية على هذه النقابات ، وكانت الطبقات العامة تعانى مساوئ الاستغلال الاقتصادى دون أن تستمتع بحق التمثيل النيابى السياسى .

وكانت كثرة الصناع إما من اليهود أو المسلمين المقيمين فى أسپانيا المسيحية . فأما اليهود فقد أثروا فى أرغونة ، وقشتالة ؛ وأسهموا بحظ موفور فى حياة المملكتين العقلية ؛ وكان عدد كبير منهم تجاراً أغنياء ، ولكن قيوداً متزايدة فى شدتها فرضت عليهم فى نهاية هذه الفترة . وأما المسلمون المقيمون فى أسپانيا المسيحية فقد ترك لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وقسط كبير من الاستقلال بحكم أنفسهم ؛ وكان منهم أيضاً تجار أغنياء ، ودخل عدد قليل منهم فى بلاط الملوك ، كما كان لأرباب الحرف منهم أثر قوى فى العمارة الأسبانية ، وأعمال النجارة الدقيقة ، وأشغال المعادن ، ونتج من أثرهم هذا طراز أسبانى إسلامى أدى إلى استخدام الموضوعات والأشكال الإسلامية فى الفن المسيحى . وقد سمّى ألفنسو السادس نفسه فى إحدى نشواته الدينية « إمبراطور العقيدتين Emperador de los Dos Cultos[٩٢] . ولكن المسلمين فى أسبانيا المسيحية كانوا يرغمون فى العادة على لبس زى خاص ، وعلى أن تكون منازلهم فى كل مدينة فى حى منعزل عن سائر أحيائها ، وكانت تفرض عليهم ضريبة فادحة أكثر مما تفرض على غيرهم ؛ وأخيراً أشعلت الثروة التى جمعوها بفضل مهارتهم فى الأعمال الصناعية والتجارية نار الحسد فى قلوب الأغلبية المسيحية ؛ فأصدر چيمس الأول عام ١٢٤٧ أمراً بطردهم من أرغونة ، فغادرها أكثر من مائة ألف يحملون معهم حذقهم الفنى ، وتدهورت الصناعة فى أرغونة من ذلك الحين .

وبعث امتزاج الحضارة الأسبانية بجزء غير قليل من الثقافة الإسلامية ، والقوة الناشئة من الانتصار على عدو قديم ، وتقدم الصناعة وازدياد الثروة ، وارتقاء العادات والأذواق ، بعث هذا كله فى الحياة العقلية بأسبانيا نشاطا عظيما ؛

فشهد القرن الثالث عشر نشأة ست جامعات فى أسبانيا ، وكان ألفنسو الثانى ملك أرغونة (١١٦٢ — ١١٩٦) أول الشعراء الغزلين الأسبان ، وسرعان ما أصبح هؤلاء الشعراء يعدون بالمئات ؛ ولم يكن هؤلاء يقرضون الشعر فحسب ، بل صاغوا من احتفالات الكنيسة مسرحيات زمنية ، ومهدوا بذلك السبيل إلى روائع لوبى ده ڤيجا Lope de Vega وكلدرون Calderon . وكان من روائع ذلك العصر أيضاً ملحمة السيد Cid ملحمة أسبانيا القومية . وكان خيراً من هذا كله فنون الموسيقى ، والغناء ، والرقص التى كانت تفيض من قلوب الشعب فى المنازل والشوارع ، والتى كانت مصدر العظمة والفخامة فى قصور الملوك . وكانت أول مصارعة للثيران على الطراز الحديث سجلت فى تاريخ أسبانيا هى المصارعة التى أقيمت فى أبيلا عام ١١٠٧ فى حفلة عرش ؛ وقبل أن يحل عام ١٣٠٠ كانت تلك المصارعة من الألعاب العامة فى المدن الأسبانية . وجاء الفرسان الفرنسيون الذين أقبلوا على أسبانيا ليساعدوا أهلها فى حروبهم مع المسلمين ، جاءوا معهم فى الوقت عينه بمبادئ الفروسية واحتفالاتها ، فأصبح احترام النساء ، أو احترام ملكية الرجل دون غيره لامرأة بعينها من مسائل الشرف لا تقل فى هذا عن افتخار الرجل بشجاعته أو استقامته ، وأضحت المبارزة للاحتفاظ بالشرف عاملا أساسيا فى الحياة الأسبانية . وكان امتزاج الدم الأوربى بالدم الأفريقى والسامى ، والثقافة الغربية بالثقافة الشرقية ، والأساليب السورية والفارسية بأصول الفن القوطى ، والخشونة الرومانية بالعواطف الشرقية ؛ كان هذا الامتزاج هو الذى تولد منه الخلق الأسبانى ، والذى جعل الحضارة الأسبانية فى القرن الثالث عشر عنصراً فذاً بارزاً فى موكب الحياة الأوربية .

الفصل الثالث عشر

البرتغال ١٠٩٥

سُرَّ ألفنسو السادس ملك قشتالة وليون فى عام ١٠٩٥ من الكونت هنرى البرغندى أحد الفرسان الصليبيين الأسبان سروراً جعله يزوجه بابنته تريزا ، وأن يجعل من بائنتها مقاطعة من مقاطعات ليون تدعى البرتغال(*) أعطاه إياها إمارة إقطاعية . ولم يكن هذا الإقليم قد استرد من المسلمين إلا قبل ذلك الوقت بإحدى وثلاثين سنة ، وكان المسلمون لا يزالون يحكمون جزأه الواقع جنوب نهر منديجو Mondego . وساء الكونت هنرى أن يكون أقل من ملك ، فأخذ هو وزوجته منذ قرانهما يأتمران ليجعلا من إقطاعياتهما دولة مستقلة ؛ ولما مات هنرى (١١١٢) واصلت تريزا سعيها لنيل الاستقلال ، وعلمت أعيان بلادها وأتباعها أن يفكروا على الدوام فى حريتهم القومية ، وشجعت مدنها على أن تحصن نفسها وتدرس فنون الحرب وأساليبها ، وقادت بنفسها جنودها فى حرب إثر حرب ؛ وكانت فى فترات السلم تحيط نفسها بالموسيقيين ، والشعراء ، والعشاق(٩٣) . وهُزمت ، وأُسرت ، ثم أُطلق سراحها ، وأعيدت إلى إقطاعياتها ؛ وأنفقت المال جزافاً فى حب محرَّم ، وخُلعت عن عرشها ، ونُفيت مع حبيبها ، وماتت فقيرة معدمة (١١٣٠) .

وكان إلهامها واستعدادها هما اللذين أمكنا ولدها أفنسو الأول هنريك (١١٢٨ — ١١٨٥) Affonsol Henriqnes أن يحقق أغراضه : ذلك أن ألفنسو السابع صاحب قشتالة وعده بأن يعترف به حاكماً مستقلا تام السيادة على جميع البلاد التى ينتزعها من المسلمين جنوبى نهر الدوو . فهاجم هنرى المسلمين

(*) هذا الاسم مشتق من ثغرها المسمى پورتس كالى Portus Cale عند الرومان والمسمى اليوم أپرتو Oporto (الثغر) .

بكل ما ورثه عن أبيه من شجاعة وتهور ، وعن أمه من روح عالية وصلابة ، وهزمهم فى أوتريلك Outrique (١١٣٩) ، وتادى بنفسه ملكا على البرتغال . وأقنع رجال الدين الملكين بأن يعرضا الأمر على البابا إنوسنت الثالث ، فكان حكمه لصالح قشتالة ، فما كان من أفنسو هنريك إلا أن نقض هذا الحكم بأن عرض مملكته الجديدة على البابا إقطاعياً له . وقبل إسكندر الثالث هذا العرض واعترف به ملكاً على البرتغال (١١٤٣) على شريطة أن يؤدى جزية سنوية إلى كرسى رومة(٩٤) . وواصل أفنسو هنريك حروبه مع المسلمين ، واستولى على سنترية Santarem ولشبونة ، ومد رقعة مملكته إلى نهر التاجه Tagus . ووصلت البرتغال فى عهد أفنسو الثالث (١٢٤٨ – ١٢٧٩) إلى حدودها الأرضية التى لها فى الوقت الحاضر ، وأصبحت لشبونة ثغرها وعاصمتها لموقعها الحربى على مصب نهر التاجه (١٢٦٣) . وتقول إحدى الأساطير القديمة إن يولسيز – أوديسيوس Ulysses - Odysseus ، هو الذى أنشأ المدينة وسماها باسمها القديم يولسپو Ulissipo الذى حرفه الناس فيما بعد بإهمالهم فكان أولسپو Olisipo أو لشبونة Lisbon .

ونغصت سنى أفنسو الثانى الأخيرة الحربُ الأهلية التى شبت نارها بينه وبين ابنه دنيز Diniiz الذى كان يأخذه العجب من أن والده قد طال عمره أكثر مما يجب . وانتقل دنيز من هذه البداية المريبة إلى حكم صالح طويل (١٢٧٩ – ١٣٢٥) عقد فيه الصلح بين ليون وقشتالة بحلف بينهما سببه الزواج ، وامتنع النزاع بينه وبين وارث آخر للعرش بفضل توسط إزبل Isabel ، زوجة دنيز الصالحة ، وترك دنيز مجد الحروب ووجه جهوده إلى إصلاح حال بلاده من الناحيتين الثقافية والاقتصادية ، فأنشأ مدارس زراعية وعلم الأهلين طرقاً للزراعة خيراً من الطرق التى كانوا يجرون عليها ، وغرس الأشجار لتمنع تعرية التربة ، وشجع التجارة ، وأنشأ السفن والمدن ، ونظم للبرتغال أسطولا حربياً ، وعقد

معاهدة تجارية مع إنجلترا ، فاستحق بذلك اللقب الذى أطلقه عليه شعبه حباً فيه وهو Re Lavrador أى الملك العامل . والحق أنه كان إدارياً مجدًّا ، وقاضياً عادلا ، يعين الشعراء والعلماء ، وقد كتب هو أحسن ما كتب من الشعر فى زمنه وبلاده ، وبفضله ارتقت اللغة البرتغالية ، فلم تعد كما كانت من قبل لهجة جليقية بل أضحت لغة أدبية ؛ وقد صاغ فى أغانيه الرعوية pastorellas أغانى شعبه صياغة أدبية ، وشجع الشعراء الغزلين فى بلاطه على أن يتغنوا بمباهج الحب وآلامه . وكان دنيز نفسه عليما بأحوال النساء ، وكان يفضل أبناءه غير الشرعيين على ابنه الشرعى الوحيد . ولما أن خرج هذا الابن على أبيه ؛ وحشد جيشاً ليخلع به أباه عن عرشه ، ركبت إزبل ، وكانت تعيش بعيدة عن مرح بلاط الملك ومباهجه ، ووقفت بين القوتين المتحاربتين ، وعرضت أن تكون أولى ضحايا نزاعهما وعنفهما . فاستحى زوجها وابنها من فعلهما وامتنعا عن القتال (١٣٢٣) ؛

الباب السادس والعشرون

إيطاليا قبل النهضة

١٠٥٧ — ١٣٠٨

الفصل الأول

صقلية فى عهد النورمان

من أعجب الأشياء أن النورمان قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم بما يتفق مع البيئات الكثيرة المختلفة التى حلوا بها من اسكتلندة إلى صقلية ، وأنهم أيقظوا بنشاطهم القوى العنيف الأقاليم والشعوب الراقدة ، وأن رعاياهم قد امتصوهم امتصاصاً كاملا فى عدد قليل من القرون حتى اختفوا من التاريخ .

لقد ظلوا مائة عام مفعمة بالاضطرابات يحكمون جنوبى إيطاليا التى كانوا فيها خلفاء للبيزنطيين ، وصقلية التى ورثوها عن المسلمين . فقد شرع روچر جسكارد Roger Guescard يغير على هذه الجزيرة بجماعة قليلة العدد من القراصنة فى عام ١٠٦٠ ، فلم يحل عام ١٠٩١ حتى تم له الاستيلاء عليها ، واعترفت إيطاليا بحكمه فيها عام ١٠٨٥ ، فلما مات (١٠١١) كانت « الصقليتان » — الجزيرة وجنوبى إيطاليا — قد أصبحتا ذواتى شأن فى السياسة الأوربية . وكانت سيطرة مضيق مسينا والخمسين ميلا الفاصلة بين صقلية وأفريقية ، قد أكسبت النورمان ميزات تجارية وحربية عظيمة ، وأضحت مدائن أملفى ، وسلرنو ، وبالرم مراكز للتجارة الناشـــطة مع ثغور البحر المتوسط بما فيها

مراكز التجارة الإسلامية فى بلاد تونس وأسبانيا . وأضحت صقليه وقتئذ إقطاعية بابوية فحولت المساجد الإسلامية كنائس فخمة زاهية ، وحل القساوسة الروم الكاثوليك محل المطارنة اليونان فى إيطاليا الجنوبية .

واتخذ روجر الثانى (١١٠١ — ١١٥٤) مدينة بالرم عاصمة لملكه ووسع أملاكه فى إيطاليا حتى ضمت نابلى وكبوا ، ورفع لقبه فى عام ١١٣٠ من كونت إلى ملك . وكان له من الطموح والشجاعة ، والدهاء وسعة الحيلة ما لعمه ربرت جسكارد ؛ فقد كان نابها يقظاً فى تفكيره ، نشيطاً فى عمله إلى حد جعل الإدريسى المسلم كاتب سيرته يقول عنه إنه قد أنجز وهو نائم ما لم ينجزه غيره من الرجال وهم أيقاظ . وكان يقاومه البابوات لأنهم يخشون اعتداءه على الولايات البابوية ، ويقاومه الأباطرة الألمان الذين ساءهم استيلاؤه على أبرزى Abruzzi ، والبزنطيون الذين كانوا يحلمون باسترجاع إيطاليا الجنوبية ، ومسلمو أفريقية الذين كانوا يتوقون إلى استرجاع صقلية . وقد حارب هؤلاء جميعاً ، وكان فى بعض الأحيان يحارب عدة طوائف منهم فى وقت واحد ، وخرج من حربهم ومملكته أعظم مما كانت حين جلس على عرشها ، وقد ضم إليها أملاكاً جديدة هى مدائن تونس ، وصفاقس ، ووهران ، وطرابلس . واستعان بمن فى صقلية من النابهين المسلمين ، واليونان ، واليهود ، لتنظيم أداة حكومية مدنية وبيرقراطية إدارية أفضل مما كان لأية أمة أخرى فى أوربا وقتئذ . وأبقى على نظام الزراعة الإقطاعى فى صقلية ، ولكنه كبح جماح البارونات بفضل المحكمة الملكية التى كانت قوانينها تفرض على جميع الطبقات . وقد أصلح نظام صقلية الاقتصادى بأن جاء إليها بناسجى الحرير من بلاد اليونان ، ووسع نطاق التجارة بتأمين الناس على حياتهم فى حلهم وترحالهم وعلى أملاكهم . ومنح المسلمين واليهود ، واليونان ، والكاثوليك حريتهم الدينية واستقلالهم الثقافى ، وفتح أبواب المناصب العليا لذوى المواهب على اختلاف أديانهم وطبقاتهم ، ولبس هو الثياب الإسلامية التى يلبسها رجال الدين

المسلمون ، وعاش معيشة ملك لا تيني فى بلاط شرقى . وظلت مملكته جيلا من الزمان « أغنى دول أوربا وأعظمها حضارة(٢) » ، وكان هو أكثر ملوك زمانه استنارة(٣) ، ولولاه لما وجد فردريك الثانى ، وهو ملك أعظم منه .

وفى وسعنا أن نعرف ما كانت عليه صقلية فى عهد النورمان باطلاعنا على كتاب رجارى (*) للإدريسى . فقد كان فيها فلاحون أقوياء مجدون يفلحون أرضها الخصبة ويخرجون الزرع ويمونون المدن . نعم إنهم كانوا يعيشون فى أكواخ حقيرة ويعانون ما يعانيه النافعون على أيدى الماهرين من استغلال ، ولكن تقواهم المشرقة كانت تكسب حياتهم كرامة ، وأعيادهم وحفلاتهم وأغانيهم كانت تملأ هذه الحياة بهجة وبهاء . فقد كان لكل موسم من مواسم السنة الزراعية رقصه وأغانيه ، وكان يصحب موسم جنى الكروم أعياد خمرية تجمع بين الساترناليا Saturnalia القديمة وحفلات التنكر الحديثة ، وحتى الفقراء أنفسهم بقى لهم الحب ، والأغانى الشعبية التى تختلف من الفحش والهجاء إلى الأناشيد الشعرية الموفية على الغاية القصوى من الحنان والعفة . ويقول الإدريسى عن بلدة « شنت ماركو »(**) (إن لها بادية ومزارع واسعة ومياه نابعة) وينبت بها من جميع جهاتها البنفسج الزكى الرائحة العطر الفائحة .

وعادت مسينا ، وقطانيا ، وسرقوسة إلى الازدهار كعهدها أيام القرطاجنيين واليونان ، والرومان ؛ وخيل إلى الإدريسى أن پالرم «هى المدينة السنية العظمى والمحلة البهية الكبرى ، والمنبر الأعلى فى بلاد الدنيا ، وإليها فى المفاخر النهائية

(*) هكذا يسميه المستشرقون أما اسمه الحقيقى فهو « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » لأبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، وتوجد منه فى دار الكتب المصرية نسخة مطبوعة فى إيطاليا ومعها ترجمتها باللغة الإيطالية ، وهى التى نقلنا عنها النصوص الوارة هنا . (المترجم)

(**) هكذا يكتبها الإدريسى فى نزهة المشتاق والجزء المحصور بين قوسين غير موجود فى الأصل الإنجليزى ولكنا نقلناه للفائدة . (المترجم) .

القصوى ذات المحاسن الشرائف ودار الملك فى الزمان المؤتنف والسالف »(*)
وقال عنها « ولها حسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها فى بناءاتها ،
ودقائق صناعاتها ، وبدائع مخترعاتها » وقال عن شارعها الأوسط : « فالسماط
الأوسط يشتمل على قصور منيفة ، ومنازل شامخة شريفة ، (وكثير من
المساجد) والفنادق ، والحمامات ، وحوانيت التجار الكبار . . . وشيدت
بنيانها ونمقت بأعجب المغتربات ، وأودعت بدائع الصفات ، فشهد لها
بالفضل المسافرون ، وعلّى فى وصفها المتجولون ، وقطعوا قطعا ألا مبانى
أشرف من مغانيها ، وأن قصورها مشارف القصور ، وأن دورها مفازة
الدور » . « ومبانيها ومتنزهاتها حسنة تعجز الواصفين ، وتبهر عقول
العارفين ، وهى بالجملة فتنة للناظرين »(**) .

ولما شاهد ابن جبير الرحالة المسلم مدينة بالرمة فى عام ١١٨٤ صاح
قائلا : إنها أم الحضارة والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة . . . تروق
الأبصار بحسن منظرها البارع ، عجيبة الشأن . . . قد زخرفت فيها لملكها
دنياه . تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود فى نحور الكواعب »(†) .

وكان من يزورون بالرم يدهشون من كثرة اللغات المختلفة التى يتكلمها
أهلها ، ومن اختلاط الأجناس والأديان اختلاطاً لا يعكر صفوه ما بينهم من
اختلاف ، ومن تجاور الكنائس المسيحية ، والمعابد الإسرائيلية ، والمساجد

(*) هذا الوصف هو المقابل لقول المؤلف إن الإدريسى يصف بالرم بأنها أجمل مدينة فى العالم . (المترجم)

(**) أضاف مؤلفنا هذا الجزء الأخير من وصف الإدريسى لبالرم فى آخر ما نقله عنه ، ولكن موضعه الصحيح من وصف الإدريسى قبل الجزء السابق . (المترجم)

(†) نقلنا هذا النص من كتاب رحلة ابن جبير المعروفة باسم « رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك » تأليف أبى الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى البلنسى وهو يسميها بالرمة ، وتشتهر باسم المدينة ، ولكن الإدريسى يكتبها بالرم من غير تاء . (المترجم)

الإسلامية واختلاطها بعضها ببعض ، من ثياب أهلها الرشيقة ، وشوارعها الكثيرة النشاط والحركة ، وحدائقها الهادئة ، وبيوتها المريحة .

وكانت فنون الشرق تستخدم فى تزيين القصور والبيوت التى يقيم بها الفاتحون من أهل الغرب . كذلك كانت أنوال بالرم تنسج الأقمشة الحريرية الفخمة والثياب المطرزة بالذهب ، وكان صناع العاج يصنعون أقداحاً صغيرة مشكلة أو محفورة ذات صور خيالية غريبة أو فنية دقيقة . كما كان صناع الفسيفساء يغطون أرض البيوت ، وجدرانها ، وسقفها بالرسوم التى تمثل موضوعات شرقية . وكان المهندسون والصناع اليونان والمسلمون يشيدون الكنائس ، والأديرة ، والقصور ، فلا يظهر فى هندستها أو فى زخرفها أثر للطراز النورمانى بل تجمع بين ما تركه الطراز البيزنطى أو العربى من آثار الألف العام السابقة . وشاد الفنانون اليونان فى عام ١١٤٣ ديراً للراهبات اليونانيات بأموال وهبها چورچ أمير بحرية روچر وأهداه إلى سانتا ماريا دل أمرجليو Santa Maria dell Ammiraglio ولكنه يعرف الآن بالمرتورانا Martorana نسبة إلى مؤسسه . ولقد جدد بناء هذا الدير مراراً كثيرة حتى لم تبق إلا القليل من عناصره التى كان عليها فى القرن الثانى عشر . ويحيط بقبته الداخلية نقش عربى من ترنيمة مسيحية يونانية . وأرض الدير من الرخام البراق المختلف الألوان ، وبه ثمانية عمد من الحجر السماقى الملون تحيط بأقباء ثلاث ؛ وتيجان الأعمدة منحوتة نحتاً جميلا ؛ أما الجدران ، والأجزاء المثلثة التى بين العقود ، والقباب فتتلألأ فيها الفسيفساء الذهبية المشتملة على صورة شهيرة للملك المكور فى قبة المحراب . وأجمل من هذا الدير نفسه كنيسة القصر الخاصة Capella palatina التى بدأها روچر الثانى فى عام ١١٣٢ ، فكل ما فى هذه الكنيسة غاية فى الرونق والجمال : من رسوم الأرضية الرخامية البسيطة ، إلى العمد الرفيعة الدقيقة البالغة حد الكمال ، وتيجانها المختلفة الأشكال ، وقطع الفسيفساء البالغ عددها ٢٨٢ قطعة والتى تملأ كل فراغ ، وصورة المسيح الرهيبة

القائمة فوق المذبح والتي تعد من أروع ما فى العالم من نقوش الفسيفساء ، يعلو هذا كله سقف من الخشب على شكل قرص العسل ، منحوت أو مذهب ، أو مرسوم عليه بالألوان صور فيلة ، وريم ، وغزلان ، و « ملائكة » ، أكبر الظن أنها كانت صوراً مما يحلم به المسلمون فى جنات النعيم . وليس فى فنون العصور الوسطى أو الحديثة كنيسة ملكية تضارع هذه التحفة الفنية التى هى أثمن جوهرة فى صقلية النورمانية .

ومات رچار (روچر) فى عام ١١٥٤ وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره . واستحق ابنه وليم الأول (١١٥٤ — ١١٦٦) لقب « الخبيث » ؛ ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أن سيرته قد كتبها أعداؤه ، وبعضه الآخر إلى أنه ترك مقاليد الحكم لغيره وعاش هو مترفاً منعما بين الخصيان والحاظى . وثار فى أيامه المسلمون فى تونس على المسيحيين ، وقضوا على سلطان النورمان فى أفريقية . وعاش وليم الثانى (١١٦٦ — ١١٨٩) عيشة أشبه ما تكون بعيشة وليم « الخبيث » ، ولكن كاتبى سيرته لقبوه وليم « الطيب » ، ولعلهم لم يكن لهم غرض من وراء هذه التسمية إلا أن يحولوا دون اختلاط الأسماء . وأراد أن يكفّر عن انحلال أخلاقه بما أنفق من المال فى عام ١١٧٦ على دير منريل Monreale — « الجبـــل الملكى » — وكنيسته وهما على بعد خمسة أميال فى خارج پالرم . ويتألف بناء هذا الدير وتلك الكنيسة من خليط مشوّه من القواعد والعمد المتشابكة ؛ أما الأروقة فذات قوة وجلال ، وجمال ، ونقوش الفسيفساء ذائعة الصيت رغم فجاجتها ؛ وتيجان العمد غنية بالنقوش المحفورة التى تمثّل الحياة الواقعية — فيها نوح ثَمِل ونائم ، وراعى خنازير يعنى بخنزير ، وبهلوان واقف على رأسه .

ولعل ما انغمس فيه ملوك صقلية النورمان من النعيم قد أوهن بنيتهم وقصر آجالهم ، فقد ماتت أسرة روچر الثانى ميتة غير شريفة بعد أربعين عاماً من موته ،

ولم يعقب وليم الثانى أبناء فاختير للجلوس على العرش ابن غير شرعى لأحد أبناء روچر الثانى يدعى تانكرد Tancaed (١١٨٩) . وكان هنرى السادس إمبراطور ألمانيا قد تزوج فى هذه الأثناء من كنستانس Constance ابنة عمه وليم الثانى . وكان يتوق إلى توحيد إيطاليا كلها تحت تاج الإمبراطور ، فطالب بعرش الصقليتين ؛ وعقد حلفاً مع پيزا وجنوى اللتين كانت تجارتهما ترزح تحت سيطرة النورمان على وسط البحر المتوسط ؛ وفى عام ١١٩٤ وقف أمام پالرم بقوة عظيمة تفهر ، وأقنع أهلها بأن يفتحوا له أبوابها ، وتوّج فيها ملكا على صقلية . ولما مات (١١٩٧) ترك عروشه لابنه فردريك البالغ من العمر ثلاث سنين ، والذى صار فيما بعد أقوى الملوك المستبدين وأعظمهم استنارة فى القرن الثالث عشر الغنى بملوكه الأقوياء .

الاقتصادية ، كانت الولايات البابوية لاتزال تتلكأ متوانية فى النظام الزراعى الساذج ؛ فكانت حدائق الخضر ، والكروم ، وحظائر الماشية تختلط بالبيوت والخربات داخل أسوار أوريليا . وكانت الطبقات الدنيا من أهل العاصمة تعيش إما من صناعاتها اليدوية أو من الصدقات الكنسية ؛ أما الطبقات الوسطى فكانت خليطاً من التجار ، والمحامين ، والمدرسين ، ورجال المصارف ، وطلاب العلم والقساوسة المقيمين فيها أو الذين يأتون لزيارتها ؛ وأما الطبقة العليا فكانت من كبار رجال الدين وكبار الملاك الزراعيين . وكانت العادة الرومانية القديمة ، عادة امتلاك الأرض فى الريف والإقامة فى المدن ، لا تزال سائدة . وكان أشراف الرومان قد تجردوا من زمن بعيد من النزعة الوطنية العامة التى تؤلف بين قلوبهم وتدعوهم إلى الدفاع عن أنفسهم ، فانقسموا لهذا السبب شيعاً وأحزاباً تتزعمها الأسر الغنية القوية — الفرنجيبانى Frangipani ، والأرسينى Orsini ، والكولنا Colonna ، والبيرليونى Pierleoni ، والكيتانى Caetani ، والسافلى Savilli ، والكرسى Carsi ، والكنتى Conti ، والأنيبلدى Annibaldi . وجعلت كل أسرة مسكنها قلعة حصينة ، وسلحت أفرادها وأتباعها ، وكثيراً ما كانت تشتبك هى وغيرها من الأسر فى شجار فى الشوارع ، وتشتبك من حين إلى حين فى حروب أهلية . أما البابوات فلم تكن لهم إلا أسلحة روحية قلما يخشاها أحد فى رومة ، وأخذوا يكافحون عبثاً ليحفظوا النظام فى المدينة . وكثيراً ما كانوا يتلقون فيها الإهانات ، ويعتدى عليهم فى بعض الأحيان . وفر كثير منهم إلى أنانى ، أو فيتربو Viterbo أو بروچيا بل إن منهم من فروا إلى ليون وأخيراً إلى أفنيون لينجوا من الموت أو يعيشوا فى هدوء وسلام .

وكان البابوات يحلمون بأن يقيموا حكماً دينياً تكفى أن تكون فيه كلمة الله ، كما يفسرونها هم ، هى القانون ؛ ولكنهم وجدوا أنفسهم لاحول لهم ولا طول بين استبداد الأباطرة وأرستقراطية الأشراف ، وديمقراطية الشعب . وحافظت بقايا السوق

الكبرى والكبتول بين الرومان على ذكرى جمهوريتهم القديمة ، وكانت جهود تبذل من حين إلى حين لإعادة نظم الحكم الذاتى وأشكاله القديمة . وظل الأشراف القدماء يسمون الشيوخ وإن كان مجلس الشيوخ قد اختفى من الوجود . وكان القناصل ينتخبون أو يعينون ، وإن لم يكن بيدهم شىء من السلطان ، وكانت بعض مخطوطات قديمة ، نسيت أو كادت تنسى ، تحفظ للبلاد الشرائع الرومانية . وبعث قيام المدن الحرة فى شمالى إيطاليا فى أهل رومة روحاً جديدة ، فأخذوا يطالبون بالعودة إلى الحكم الذاتى المدنى لا الدينى ، واختاروا فى عام ١١٤٣ مجلس شيوخ مؤلف من ستة وخمسين عضواً ، وظلوا عدة سنين بعد هذا التاريخ يختارون له أعضاء جدداً فى كل عام . وكانت أحوال ذلك الوقت تتطلب صوتاً يرتفع بتغييرها ، ووجدت هذا الصوت فى رجل من أهل بريشيا Brescia يدعى أرنولد Arnold . وتقول الرواية المتواترة إنه درس على أبيلار Abelard فى فرنسا ثم عاد إلى بريشيا راهبا ، وبلغ من زهده وتقشفه أن وصفه برنار بأنه رجل « لا يأكل ولا يشرب » . وكان شديد التمسك بالدين القويم ، ولكنه ينكر صحة العشاء الربانى إذا قدمه القساوسة المذنبون . وكان يرى أن مما يجافى القانون الأخلاقى أن يكون للقس أملاك ، ويطالب بأن يعود رجال الدين إلى الفقر الذى كان يتصف به الحواريون ، وأشار على الكنيسة بأن تنزل للدولة عن جميع أملاكها المادية وسلطانها السياسى . وأدانه إنوسنت الثانى فى مجلس لاتران عام ١١٣٩ وأمره أن يلزم الصمت ، ولكن البابا أوجنيوس الثالث Eugenius III عفا عنه على شريطة أن يحج إلى عدد من الكنائس فى رومة . وكان هذا خطأً كريماً من البابا ؛ لأن منظر معالم الجمهورية القديمة ألهب خيال آرنلد ، فأهاب بالرومان وهو واقف وسط خرائب المدينة بأن ينبذوا حكم رجال الدين ، ويعيدوا الجمهورية الرومانية (١١٤٥) . وافتتن الشعب بحماسته فاختار قناصل وتربيونين ليكونوا هم حكامه الحقيقيين ، وأقام طائفة من هيئة من الفرسان ليكونوا قادة

فى جيش إقليمى للدفاع . وسكر أتباع آرنلد بخمرة هذا النصر الهين فلم يكتفوا بنبذ سلطة البابوات الزمنية بل نبذوا أيضاً سلطة أباطرة الدولة الرومانية الشرقية الألمان فى إيطاليا . ثم ذهبوا إلى أبعد من هذا فقالوا إن الجمهورية الرومانية يجب ألا تحكم إيطاليا وحدها بل أن تحكم « العالم » كما كانت تحكمه فى الزمن القديم(٥) . وأعادوا بناء الكبتول ، واستولوا على كنيسة القديس بطرس ، وأحالوها قلعة ، واستولوا على الفاتيكان ، وفرضوا الضرائب على الحجاج ؛ وفر أوجنيوس الثالث إلى ڤيتربو وپيزا (١١٤٦) بينا كان القديس برنار يصب اللعنات من كليرڤو Clairvaux على شعب رومة ، ويذكرهم بأن كيانهم موقوف على وجود البابوية ، وظلت حكومة رومة الذاتية عشر سنين تحكم مدينة القياصرة والبابوات .

واستجمع أوجنيوس الثالث شجاعته وعاد إلى رومة فى عام ١١٤٨ ، وقصر واجباته وقتاً ما على الواجبات الروحية ، وأخذ يهب الصدقات ، وكسب بذلك قلوب الشعب . وغضب خليفته هدريان الرابع أشد الغضب من مقتل كردينال فى شجار عام ، فأصدر قراراً بحرمان العاصمة (١١٥٥)، وخشى مجلس الشيوخ أن تقوم فى المدينة ثورة لا يستطيع الأشراف تحمل آثارها ، فألغى الجمهورية واستسلم إلى البابا . واختبأ آرنلد المطرود من حظيرة الكنسية فى كمپانيا ؛ ولما أن اقترب فردريك بربرسا من رومة طلب إليه هدريان أن يقبض على هذا الرجل المتمرد ؛ وكشف مخبأ آرنلد وقبض عليه ، وأسلمه الإمبراطور إلى صاحب شرطة البابا فى رومة ، وشنقه (١١٥٥) . ثم حرقت جثته ، وألقى برماده فى نهر التيبر « خشية أن يجمعها الناس ويكرموها بوصفها رماد شهيد » كما يقول أحد معاصريه(٦) . وعاشت آراؤه بعد موته ، وعادت إلى الظهور عند زنادقة لمباردى الپاترين Paterine والوالدنسيين Waldensian ، وعند الألبجنسيين فى فرنسا ، وفى مرسليوس Marsilius من أهل پدوا ، وفى زعماء حركة الإصلاح . وظل مجلس الشيوخ قائماً حتى عام ١٢١٦ حين أفلح إنوسنت الثالث فى أن

يستبدل به شيخاً أو شيخين من المناصرين لقضية البابا . وظلت سلطة البابوات الزمنية قائمة حتى عام ١٨٧٠ .

وكانت الولايات البابوية فى أوقات مختلفة تشمل أمبريا Umbria بما فيها اسپليتوا Spoleto وپروچيا ؛ وأرض التخوم المشتملة على أنكوتا الواقعة على البحر الأدرياوى ، ورومانيا Romagna ، أو الإقليم الخاضع لحكم رومة والمشتمل على مدائن رمينى Rimini ، وإمولا Imola ، وراڤنا Ravenna ، وبولونيا Bologna ، وفرارا ferrare . وظلت راڤنا فى هذا الوقت آخذة فى الانحطاط ، بينا أخذت فرارا تزداد شهرة بحكمة زعمائها من آل إست Este . وقامت فى بولونيا حياة ناشطة قوية فى ظل حكومتها الذاتية بزعامة رجالها القانونيين العظام خريجى جامعاتها . وكانت من أولى المدائن التى اختارت لها حاكماً ذا سلطان Podesta يتولى الشئون الداخلية فى حكومتها الذاتاة ، ورئيساً Capitano ليشرف على شئونها الخارجية . وكانت تشترط فيمن يتولى الشئون الداخلية صفات خاصة : كان يجب أن يكون من الأشراف ، وأن يكون من غير أهل المدينة ، وأن تزيد سنه على ستة وثلاثين عاما ؛ وألا تكون له أملاك فى داخل نطاق البلدة ذات الحكم الذاتى ، وألا يكون له أقارب بين الناخبين ، وألا يكون من أقارب الحاكم السابق أو من موطنه . وكانت هذه القواعد الغريبة التى وضعت لتضمن النزاهة فى إدارة شئون المدينة هى المتبعة فى كثير من المدن الإيطالية ذات الحكم الذاتى . أما « رئيس الشعب (قبطانه) » فلم يكن يختاره مجلس المدينة ، بل يختاره حزب الشعب الذى تسيطر عليه نقابات التجار الطائفية ؛ ولم يكن يمثل الفقراء بل كان يمثل طبقة رجال الأعمال . وقد بسط سلطانه فى القرون التالية بإضعاف سلطان اليودستا ، وذلك بعد أن تفوق رجال الطبقة الوسطى الرأسمالية على الأشراف فى الثروة والنفوذ .

الفصل الثالث

البندقية تنتصر : ١٠٩٦ – ١٣١١

كان إقليم ڤنيتو Veneto يقع إلى شمال كرارا ونهر البو ، وكان هذا الإقليم يفخر بمدائنه الهامة – البندقية ، وترڤيزو ، وپدوا ، وڤيسنزا ، وڤيرونا .

وفى هذا العصر بالذات عظمت قوة البندقية ، فأمكنها حلفها مع بيزنطية من أن تصل إلى ثغور بحر إيجه والبحر الأسود ، حتى ليقال إن بنيها الذين كانوا فى القسطنطينية فى القرن الثانى عشر زادوا على مائة ألف ، وإنهم كانوا يشيعون الرعب فى أحد أحياء المدينة بوقاحتهم ومشاحناتهم . ثم انقلب مانيول Manuel إمبراطور الروم فجاءة على البنادقة المقيمين فى عاصمته ، وألقى القبض على عدد كبير منهم ، وأمر بأن تصادر بضائعهم كلها (١١٧١) ، وكان أهل چنوى هم الذين حرضوه على هذا العمل غيرة منهم وحسداً . وأعلنت البندقية الحرب ، وأخذ أهلها يعملون ليلا ونهاراً لإنشاء أسطول ، فلما كان عام ١١٧١ قاد الدوچ ڤيتالى ميشيلى الثانى Doge Vitale Michieli II عمارة بحرية مؤلفة من ١٣٠ سفينة لقتال جزيرة عوبية Euboea ليتخذها قاعدة بحرية لأعماله المقبلة ضد المضيقين . ولكن جنوده أصيبوا وهم على سواحل عوبية بمرض يقال إن سببه تسمم اليونان موارد الماء فى الجزيرة ! وهلك منهم آلاف مؤلفة بلغ من كثرتها أن السفن لم تجد بعد ذلك من يحاربون على ظهرها . وقاد الدوچ عمارته عائداً إلى البندقية ، وفشا الطاعون فيها وأهلك عدداً كبيراً من أهلها ؛ ولما أن اجتمعت الجمعية وجهت اللوم إلى الدوچ على هذه الكوارث ، وأصيب بطعنة قاتلة (١١٧٢)[٧] . ومن واجبنا ألا نغفل عن هذه الحوادث حين ندرس ما حدث فى الحملة الصليبية الرابعة ، والثورة الألجركية التى غيرت دستور البندقية .

وخشى كبار التجار أن تنهار إمبراطوريتهم التجارية إذا دامت هذه الهزائم، فعقدوا النية على أن ينتزعوا من الجمعية العمومية حق انتخاب الدوج، وأن ينشئوا مجلساً من صفوة الأهلين يكون أقدر على بحث شئون الدولة وتصريفها ، وعلى الوقوف فى وجه أهواء الشعب واستبداد الدوج ، ثم أقنعوا أكابر قضاة الجمهورية الثلاثة بأن يعينوا لجنة تضع للبلاد دستوراً جديداً . وأوصت هذه اللجنة فى تقريرها أن يختار كل حى من أحياء دولة المدينة الستة اثنين من كبار الأهلين يختار كل منهم أربعين من خيرة الرجال ، وأن يتألف من الأربعمائة والثمانين عضواً الذين يختارون على هذا النحو مجلس أعظم Maggior Consceglio يكون هو الهيئة التشريعية العامة للأمة ثم يختار المجلس الأعظم ستين عضواً من أعضائه يكونون مجلس الشيوخ الذى يشرف على الشئون التجارية والمالية والعلاقات الخارجية . وكان من هذه التوصيات ألا تجتمع الأرنجو Arrengo أى الجمعية الشعبية إلا للتصديق على اقتراحات الحرب والسلم أو رفضها ، وأن يختار رجل من كل حى من الأحياء الستة يتألف منهم جميعاً مجلس خاص يحكم الدولة إذا ما أصبح عرش الدوج شاغراً ، وكان لا بد من أن يقر هذا المجلس كل عمل حكومى يقوم به الدوج لكى يصبح هذا العمل مشروعاً . واختار أول مجلس أعظم انتخب بالطريقة السالفة الذكر أربعة وثلاثين من أعضائه ، اختاروا من بينهم أحد عشر عضواً ؛ عقدوا اجتماعاً علنياً فى كنيسة سان ماركو اختاروا فيه الدوج (١١٧٣) . ورفع الشعب عقيرته باحتجاج لحرمانه من حق اختيار رئيس الدولة ، ولكن الدوج الجديد وجه الاضطراب وجهة أخرى بأن نثر النقود على الجموع المحتشدة[٨]، ولما اختار المجلس الأعظم أنريكو دندولو Enrico Dandolo دوجاً فى عام ١١٩٢ طلب إليه أن يقسم فى يمين تتويجه أن يطيع جميع قوانين الدولة ، وبهذا أضحت الحركية التجارة صاحبة السلطة العليا فى البلاد .

وأثبت دندولو، وكان وقت اختياره فى الرابعة والثمانين من عمره ، أنه من أقدر الزعماء فى تاريخ البندقية ؛ فقد استطاعت البندقية فى أيامه ، وبفضل سياسته المكيفلية ، وبسالته الشخصية ، أن تثأر لنفسها من الكارثة التى حلت بها عام ١١٧١ ، فتستولى على القسطنطينية وتنهبها فى عام ١٢٠٤ ، وبهذا أصبحت البندقية القوة المسيطرة على الجزء الشرقى من البحر المتوسط ، والبحر الأسود ؛ وانتقلت الزعامة التجارية فى أوربا من بيزنطية إلى إيطاليا . وساعد أهل جنوى فى عام ١٢٦١ اليونان على استعادة القسطنطينية ، وكوفئوا على عملهم هذا بأن منحوا فيها ميزات تجارية ؛ ولكن أسطول البندقية هزم أسطول جنوى بالقرب من صقلية بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت ، وأرغم إمبراطور الروم على أن يرد إلى البندقية مركزها الممتاز فى عاصمة ملكه .

وتوجت الأجركية الظافرة هذه الانتصارات الخارجية بضربة دستورية جديدة . فقد عرض الدوج پيترو جرادنجو Pietro Gradenigo فى عام ١٢٩٧ على المجلس الأعظم اقتراحاً ، حمله على الموافقة عليه ، يقضى بألا يختار لعضوية هذا المجلس إلا من كان من أعضائه منذ عام ١٢٩٣ أو كان من أبنائهم الذكور(٩) . وكان من أثر « إغلاق المجلس » فى وجه المواطنين أن حرمت الكثرة الغالبة من الشعب من الوظائف العامة ، وأن وجدت طبقة مغلقة لايستطيع الانتماء إليها إلا أبناء أعضائها . وأنشئ « كتاب ذهبى » Libro d'oro لتسجيل عقود الزواج والوفيات بين أفراد هذه الطبقة الأرستقراطية ليضمن به نقاءها واحتكارها للسلطان ، وبهذا جعلت الأجركية التجارية نفسها أجركية المولد . ولما أن دبر الشعب ثورة على هذا الدستور الجديد ، سمح لزعمائه بأن يدخلوا قاعة المجلس ثم شنقوا من فورهم (١٣٠٠) .

ولا يسعنا إلا أن نقر بأن هذه الأجركية السافرة القاسية قد أحسنت الحكم ، فقد كانت فى محافظتها على الأمن والنظام ، وفى حسن توجيهها للسياسة العامة ،

وفى العمل على استقرار القانون وبسط سلطانه ، تفضل غيرها من المجتمعات الإيطالية فى العصور الوسطى . وسبقت القوانين التى سنتها البندقية لتنظيم أعمال الأطباء والصيادلة أمثالها فى فلورنس بنصف قرن من الزمان ؛ وحرمت القوانين فى عام ١٣٠١ قيام الصناعات المضرة بالصحة بين المساكن ، وأخرجت من البندقية جميع الصناعات التى تنفث الدخان المؤذى فى الهواء . وكانت قوانين الملاحة شديدة مفصلة ، كما كانت جميع الواردات والصادرات خاضعة لرقابة الدولة وسيطرتها ، وكانت التقارير الدبلوماسية تعنى بأحوال التجارة أكثر من عنايتها بالشئون السياسية ، وأصبحت الإحصاءات الاقتصادية للمرة الأولى جزءاً من الحكم فى هذه المدينة(١٠) .

وكادت الزراعة تكون غير معروفة فى البندقية ، أما الصناعات اليدوية فكانت متقدمة لأن هذه المدينة استوردت من مدن البحر المتوسط القديمة فنوناً وحرفاً كادت تقضى عليها الاضطرابات السياسية فى الغرب ، واشتهرت مصنوعات الحديد ، والشبه ، والزجاج ، والأقمشة المنسوجة من خيوط الذهب والحرير ، واشتهرت كلها فى القارات الثلاث ، وأكبر الظن أن بناء القوارب للتنزه ، أو الاتجار ، أو الحرب كان أعظم صناعات البندقية . وقد وصلت هذه الصناعة إلى مرحلة الإنتاج الرأسمالى بالجملة ، والتمويل الجماعى ، وكادت تصل إلى المرحلة الاشتراكية لسيطرة أكبر عميل لهذه الصناعة وهو الدولة . وكانت سفائن جميلة المنظر عالية الجؤجؤ ، منقوشة الأشرعة ، فى بعضها مائة وثمانون مجذافاً تربط البندقية بالقسطنطينية ، وصور ، والإسكندرية ، ولشبونة ، ولندن ، وعشرات من المدن الأخرى بسلسلة ذهبية من المرافئ والمتاجر . وكانت بضائع من وادى البو تصل إلى البندقية كى يعاد شحنها منها إلى الخارج ؛ وكانت بضائع مدن نهر الرين تأتيها بعد أن تجتاز جبال الألب لتنتشر من موانيها فى عالم البحر المتوسط ؛ وكان مصفق المدينة Rialto أكثر الأماكن حركة فى سائر أنحاء أوربا ،

يزدحم بالتجار ، والملاحين ورجال المصارف القادمين من مائة قطر ، ولم تكن ثروة شمالى أوربا تضارع غناء هذه المدينة التى يرتبط كل شىء فيها بعجلة التجارة والمال ، والتى كانت السفينة الواحدة من سفنها التى ترسل إلى الإسكندرية تعود منها بربح يعادل ألفاً فى المائة من المال المستثمر فى بضائعها — إذا لم تلاق عدواً ، أو قرصاناً ، أو عاصفة مدمرة(١١) . وقصارى القول أن البندقية كانت أغنى المدن الأوربية فى العصور الوسطى ، ولعلها لم يكن يضارعها فى ثرائها إلا المدائن الصينية التى وصفها ماركو پولو ابن البندقية وصفاً لا نستطيع تصديقه .

إلا أن العقيدة تضمحل كلما زادت الثروة . ولقد كان البنادقة يكثرون من استخدام الدين فى الحكم ، ويواسون من لا أصوات لهم فى إدارة الشئون العامة بالمواكب ويمنونهم بجنة النعيم ؛ غير أن الطبقات الحاكمة قلما كانت تسمح للمسيحية أو للحرمان من حظيرة الكنيسة بأن يعترض سبيل الحرب أو الأعمال المالية ، فقد كان شعارها « نحن بنادقة ، ونحن بعد ذلك مسيحيون Siamo Veneziani poi Cristiani »(١٢) . وتطبيقاً لهذا الشعار لم يكن لرجال الدين نصيب ما فى الحكم(١٣) ، وكان التجار البنادقة يبيعون السلاح والرقيق ، ويمدون المسلمين الذين يقاتلون المسيحيين بالمعلومات الحربية(١٤) . وكان شىء من التسامح يصحب هذا الحرص على الكسب المتميز بسعة الأفق ؛ فقد كان فى وسع المسلمين أن يأتوا إلى البندقية وهم آمنون ، وكان اليهود — وخاصة فى الجيودكا Giudecca جزيرة أسپنالنجا Spinalunga يقيمون شعائر دينهم فى معابدهم وهم آمنون .

وقد ندد دانتى بـ « فجور البنادقة الطليق »(١٥) ، ولكن ليس من حقنا أن نصدق ما يوجهه من نقد رجل يصب اللعنات ذات اليمين وذات الشمال . وأكثر من أقوال دانتى دلالة على أخلاق البنادقة تلك العقوبات الصارمة الواردة

فى الشرائع البندقية لتوقع على الآباء الذين يحرضون أبناءهم على الفسق ، وتلك القوانين التى تكرر وضعها بلا جدوى لمنع الارتشاء فى الانتخابات(١٦) .
والصورة التى تنطبع فى أذهاننا منها هى صورة أرستقراطية صارمة ساطعة اعتادت منظر بؤس الجماهير فلم تعد تتأثر به ؛ وسوقة تخفف من حدة الفقر بمباهج الحب الطليق . ونحن نسمع منذ عام ١٠٩٤ عن مواكب « الكرنفال » وذكرت « المساخر » لأول مرة فى عام ١٢٢٨ ؛ وفى عام ١٢٩٦ جعل مجلس الشيوخ اليوم السابق للصوم الكبير عيداً شعبياً . يزدان فيه السكان — رجالا ونساء — بأغلى أثوابهم وأبهى زينتهم ، فكانت النساء ذوات الثراء يتوجن أنفسهن ، بتيجان أو قلانس أو عمائم منسوجة بخيوط الذهب ، وتتلألأ عيونهن تحت أقنعة من نسيج الذهب أو الفضة ، وفى أعناقهن عقود من اللؤلؤ ، وفى أيديهن قفازات من جلد الشموا Chamois أو نسج الحرير ، وفى أقدامهن أخفاف أو أحذية من الجلد ، أو الخشب ، أو الفلين ، حمراء اللون أو ذهبية ؛ وأثوابهن من نسيج التيل الرفيع أو الحرير العادى أو المشجر أو المطرز ، والمنثورة ، عليه الجواهر ، يكشف عن أعناقهن وما تحت أعناقهن ، فكن بذلك فتنة لأهل زمانهن وشاهداً على ما فيه من فضائح وآثام . وكن يضعن على رؤوسهن شعراً مستعاراً ، ويستعملن الأدهان الملونة والمساحيق ، ويصمن لكى تصبح أجسامهن نحيلة رشيقة(١٧) . وكن يسرن بكامل حريتهن وسط الجماهير فى أى وقت يردن ، ويشتركن فى غواية وخفر فى حفلات اللهو والتنزه فى القوارب ، ويستمعن فى سرور إلى الشعراء الغزلين الذين أدخلوا أساليب الغناء البروفنسية فى موضوعات الحب الأبدية .

ولم يكن البنادقة يميلون فى هذا الوقت إلى الثقافة . نعم إنهم كانت لهم مكتبة عامة طيبة ، ولكن يبدو أنهم قلما كانوا يفيدون منها ، ولم يسهموا بنصيب فى العلوم ، ولم يخلفوا وراءهم شعراً خالداً ظهر فى وسط هذا الثراء المنقطع النظير .

وكانت المدارس كثيرة عندهم فى القرن الثالث عشر ، ولدينا ما يدل على أنهم كانوا يعطون الطلاب الفقراء منحاً تمكنهم من مواصلة الدرس ، ولكننا نعرف أنه كان لديهم فى القرن الرابع عشر قضاة لا يعرفون القراءة[١٨] . وكانوا يقدرون الموسيقى أعظم تقدير ، أما الفن فلم يكن قد وصل إلى الدرجة العالية التى بلغها فيما بعد ؛ غير أن الثراء كان يأتى إلى البندقية بالفن من بلاد كثيرة ، وكان ذوق الأهلين آخذاً فى الارتقاء ؛ وكانت أسسه توضع فى هذه الفترة وبخاصة فن الزجاج ، وقد بقى لهم بعض ما كان للرومان الآخرين من حذق فيه .

وليس من حقنا أن نصور البندقية فى ذلك العصر بتلك الصورة الجميلة التى وجدها عليها ڤاجنر Wagner أو نتشه فى القرن التاسع عشر . فقد كانت بيوتها مقامة من الخشب ، وشوارعها من الأرض العادية ؛ وإن كان طريق سان ماركو قد رصف بالآجر فى عام ١١٧٢ ؛ وكان الحمّام موجوداً فى المدينة منذ عام ١٢٥٦ . وبدأ البنادقة يقيمون الجسور على القنوات وكان أصحاب القوارب ينقلون الناس فى القناة العظمى . أما القنوات الجانبية الصغرى فالراجح أنها كانت أقل بهجة مما هى عليه الآن ؛ ذلك أن النضوج الكامل فى كل شىء يتطلب بعض الوقت . غير أن ما فى الشوارع والقنوات من عيوب لايمكن أن يحجب عن العين عظمة مدينة ترتفع جيلا بعد جيل من مناقع البحر الضحل وضبابه ، أو يحول بين الإنسان وبين الدهشة من شعب يدفع هامته من الخراب والعزلة ليغطى سطح البحر بسفنه ويجبى المال ويستورد الجمّال من نصف العالم .

وكانت مدينة ترڤيزو Treviso وتخومها تقع بين البندقية وجبال الألب ، ولن نقول عن هذه المدينة إلا أن أهلها كانوا يحبون الحياة حباً جماً ، ويسمونها بلد الحب ويقولون إن المدينة احتفلت فى عام ١٢١٤ بعيد

قصر الحب ، فأقيم قصر من الخشب علقت فيه الطنافس والأقمشة المزركشة ، وتيجان الزهر ، وجاءت نساء المدينة فأمسكن بالقصر وهن مسلحات بالماء المعطر ، والفاكهة ، والأزهار ، ثم أقبل الفرسان الشبان من أهل البندقية ينافسون شباب پدوا المرح الجرىء فى حصار السيدات ، ويمطرونهن وابلا مماثلا لقذائفهن ؛ ويقال إن البنادقة كسبوا المعركة بأن خلطوا الأزهار بقطع النقود الذهبية . ومهما يكن سبب هذا النصر فقد سقط الحصن وحامياته الحسان فى أيديهم[١٩] .

الفصل الرابع

من منتوا إلى چنيوى

كانت المدائن الشهيرة فى لمباردية تحكم السهول الواقعة فى غرب ڤنيتو والمحصورة بين نهر الپو وجبال الألب وهى : منتوا ، وكرمونا ، وبريشيا ، وبرجامو ، وكومو ، وميلان ، وپاڤيا . وكانت فى جنوب نهر الپو ، فى المقاطعة المعروفة باسم إميليا Emilia فى هذه الأيام ، مدائن مودينا ، ورجيو ، وپارما ، وپياسنزا ، ولسنا نعتقد أن من يحبون إيطاليا سيملون من تكرار هذه الأسماء على مسامعهم . وكانت ولاية بيدمونت Piedmont المحصورة بين لمباردية وفرنسا تضم فرسلى Vercelli وتورين ، وفى جنوبى هاتين البلدتين كانت تنحنى حول خليج چنوى ومدينة چنوى نفسها . وثروة هذا الإقليم هدية من نهر الپو الذى يخترق شبه الجزيرة من الغرب إلى الشرق ، يحمل المتاجر ، ويملأ القنوات ويروى الحقول . وكان نشاط الصناعة والتجارة فى هذه المدن هو الذى حباها بالثروة والعزة اللتين جعلتاها تغض الطرف فى معظم الأوقات عما كان للإمبراطور الألمانى من سيادة اسمية عليها وأمكنتاها من أن تخضع الأشراف شبه الإقطاعيين المقيمين خلفها .

وكانت كنيسة كبرى تقوم عادة فى وسط كل بلدة من هذه البلدان الإيطالية ، لكى تخلع البهجة والسرور على الحياة بمواكب التقى وقوة الأمل . وكان إلى جانبها مكان التعميد الدال على تمتع الطفل بمزايا المواطنية المسيحية وتبعاتها ، وبرج الأجراس التى تدعو الناس إلى العبادة أو الاجتماع أو حمل السلاح . وفى الميدان العام المجاور للكنيسة الكبرى كان الفلاحون والصناع يعرضون

بضاعتهم ، والممثلون ، واللاعبون على الحبال ونحوها ، والشعراء الجائلون يمثلون أدوارهم ، والمنادون يعلنون ما يريدون ، والمواطنين يثرثرون بعد قداس أيام الآحاد ، والشبان أو الفرسان يتبارون فى الألعاب الرياضية أو البرجاس . وكانت قاعة عامة للمدينة ، وبضعة حوانيت وبيوت ومساكن مشتركة يتكون منها سياج من الآجر حول الميدان . ومن هذا المكان الوسط تمتد الشوارع المتعرجة الملتوية التى يبلغ من ضيقها أنه إذا سار فيها راكب فرس أو مرت بها عربة اضطر الراجلون إلى الانزواء فى مدخل بيت أو الالتصاق بجدار . ولما تقدم القرن الثالث عشر وازدادت ثروة الأهلين استخدمت قطع القرميد فى تسقيف البيوت المطلية جدرانها بالمصيص فراق منظرها فى أعين من يستطيعون نسيان الوحل والروائح الكريهة . وكان الميدان والشوارع الكبرى دون غيرها هى المرصوفة ، وكان يحيط بالمدينة سور ذو أبراج وشرفات لأن الحروب كانت كثيرة فى تلك الأيام ، وكان من واجب الإنسان أن يعرف كيف يقاتل إذا لم يشأ أن يكون راهباً .

وكانت ميلان وچنوى أكبر هذه المدن كلها . وكانت چنوى — الفخمة كما كان يسميها أحباؤها — ذات موقع ممتاز للعمل والمتعة . فقد كانت تقوم على تل مواجه للبحر الذى يغرى بالاتجار ، وتستمتع بجو الرڤييرا الدافئ الذى يمتد إلى رابلو Rapallo فى الشرق وسان ريمو San Remo فى الغرب . وكانت چنوى منذ أيام الرومان ثغرا نشيط الحركة ، ولهذا كان سكانها تجاراً ، وصناعاً ، ورجال مصارف ، وصناع سفن ، وبحارة ، وجنوداً ، وساسة . ونقل مهندسو چنوى الماء النقى إليها من الألب الليجورية Ligurian Alps فى قناة مسقفة لاتقل عن قنوات رومة القديمة ، وأقاموا حاجزاً ضخماً فى الخليج المسمى باسمها ليجعلوا مرفأها العظيم آمناً فى أثناء العواصف والحروب . وقلما كان أهل چنوى يعنون بالآداب أو الفنون فى تلك الأيام ؛ شأنهم فى هذا شأن البنادقة المعاصرين لهم ؛ فقد كانوا يصرفون جهودهم كلها فى التغلب على منافسيهم وارتياد سبل جديدة

للكسب . وكاد مصرف جنوى يكون هو الدولة ، فقد كان يقرض المدينة المال بشرط أن يحصل هو إيراداتها ، وكان بفضل سلطانه هذا يسيطر على الحكومة ، وكان كل حزب يتولى السلطة يتعهد بأن يكون وفياً مخلصاً للمصرف ؛ ولكن أهل جنوى كان لهم من الشجاعة بقدر ما لهم من حب الكسب ، فقد تعاونوا مع أهل بيزا على إخراج المسلمين من غربى البحر المتوسط (١٠١٥ — ١١١٣) ، ثم حاربوا بيزا حروبا منقطعة حتى قضوا على القوة المنافسة لهم فى واقعة ملوريا Meloria البحرية (١٢٨٤) . وجندت بيزا فى هذه الحرب الأخيرة كل من كان فيها من الرجال بين العشرين والستين من العمر ، كما جندت جنوى كل من كان فيها بين الثامنة عشرة والسبعين . وتلك حقيقة فى وسعنا أن نعرف منها روح ذلك العصر وحالته النفسية . وكتب الراهب سلمبينى Salimbene فى ذلك يقول « بين أهل بيزا وأهل جنوى ، وكذلك بين أهل بيزا وأهل لوكا Lucca ، من الحقد والاشمئزاز الطبيعى بقدر ما بين الآدميين والأفاعى[٢١] » . وظل الرجال يقتتلون يدا بيد فى هذه الواقعة الأخيرة التى حدثت فى البحر قرب ساحل قورسقة حتى هلك نصف المحاربين « وارتفعت فى جنوى وبيزا أصوات الحزن والعويل كما لم ترتفع فى هاتين المدينتين من يوم أنشئتا إلى أيامنا هذه »[٢٢] . ولما علم أهل لوكا وفلورنس الأخيار بالكارثة التى حلت ببيزا وفلورنس ظنوا أنهم قد لاحت لهم أحسن فرصة لإرسال حملة لقتال تلك المدينة البائسة ، ولكن البابا مارتن الرابع أمرهم أن يكفوا عن القتال ، واندفع أهل جنوى فى هذه الأثناء نحو الشرق وتضاربت مصالحهم مع مصالح البنادقة ، فنشأت بينهم أشد الأحقاد ، وتنازع أهل المدينتين فى عام ١٢٥٥ على امتلاك عكا ، وانحاز فرسان المستشفى فى المعركة إلى جانب أهل جنوى ، كما انضم فرسان المعبد إلى البنادقة ؛ وسقط فى هذه المعركة وحدها عشرون ألف رجل[٢٣] ، وكانت سبباً فى تحطيم وحدة المسيحيين فى بلاد الشام ، ولعلها هى التى قررت

إخفاق الحروب الصليبية . وظل النزاع قائماً بين جنوى والبندقية حتى عام ١٣٧٩ ، حين منيت جنوى بهزيمة ساحقة لا تقل فى ذلك عما لحق ببيزا على يديها قبل ذلك بمائة عام .

وكانت ميلان أغنى مدائن لمباردية وأقواها ؛ وكانت من قبل إحدى العواصم الرومانية ، ولهذا كانت تفخر بقدم عهدها وتقاليدها . ذلك أن قناصل جمهوريتها قد تحدوا الأباطرة ، وأساقفتها تحدوا البابوات ، وآوى أهلُها الملحدين الذين تحدوا المسيحية نفسها أو اشتركوا معهم فى إلحادهم . وكان فيها فى القرن الثالث عشر مائة ألف من الأهلين ، وثلاثة عشر ألف بيت وألف حانة(٢٤) . وكانت هى مولعة بالحرية حريصة عليها ، فلم تتخل عنها راضية إلى غيرها ، وكان جنودها يطوفون بالطرق ليرغموا القوافل ، أيا كانت وجهتها ، على أن تعرج على ميلان أولا . وقد دمرت كومو ولودى Lodi ، وحاولت أن تخضع بيزا ، وكرمونا ، وبافيا ، ولم تركن إلى السكون حتى سيطرت على جميع تجارة نهر البو(٢٥) . ووقف رجلان من أهل لودى أمام مجمع كنستانس عام ١١٥٤ وتوسلوا إلى فردريك بربرسا أن يحمى مدينتهم ؛ وبعث الإمبراطور إلى ميلان يحذرها من مواصلة العدوان على لودى ؛ فرفضت المدينة رسالته فى سخرية ووطئتها بالأقدام . واغتنم فردريك هذه الفرصة ليحقق رغبته التى طالما تاقت نفسه إليها وهى تدمير ميلان (١١٦٢) ، ولم تمض خمس سنين على هذا التدمير حتى أعاد الباقون من أهلها هم وأصدقاؤهم بناء المدينة ، وابتهجت لمباردية جميعها ببعثها ، ورأت فيه رمزاً لتصميم إيطاليا على ألا يحكمها قط ملك ألمانى . وخضع فردريك ، ولكنه قبل أن يموت زوج ابنه هنرى السادس من كنستانس ابنة روچر الثانى ملك صقلية ؛ ووجدت العصبة اللمباردية فى ابن هنرى رجلا أشد رهبة من فردريك .

الفصل الخامس

فردريك الثانى ١١٩٤ - ١٢٥٠

ا - الصليبى المحروم

كانت كنستانس فى سن الثلاثين حين تزوجت هنرى ، وكانت فى الثانية والأربعين حين ولدت ابنها الوحيد . وخشيت أن يرتاب الناس فى حملها وفى شرعية طفلها فأمرت بأن تنصب خيمة فى السوق العامة أيزى lesi (القريبة من أنكونا) ؛ وفيها وعلى مرأى من الحاضرين جميعاً ولدت الغلام الذى أصبح فيما بعد أكثر الناس فتنة فى القرن الأخير من العصور الوسطى . وكان يجرى فى عروق الوليد دم ملوك النورمان الإيطاليين ممتزجا بدماء أباطرة هوهنستاوفن الألمان .

وكان فى الرابعة من عمره حين توج فى پالرم ملكا على صقلية (١١٩٨) ؛ وذلك لأن والده مات قبل عام من ذلك الوقت ثم ماتت والدته بعد عام من تتويجه . وأوصت قبل موتها أن يكون البابا وصيا على ابنها ، وأن يتولى تعليمه وحمايته السياسية ، وعرضت عليه فى نظير ذلك راتباً مجزيا ، وأن ينوب عنه فى الحكم ، وأن تعاد له السيادة على صقلية . وقبل البابا هذا العرض مسروراً ، واستخدم مركزه فى إنهاء ذلك الاتحاد بين صقلية وألمانيا الذى أقامه والد فردريك ؛ ذلك أن البابوات كانوا يخشون بحق قيام دولة كبرى تحيط بولايات البابا من جميع الجهات ، وتكون فى الواقع سجنا للبابوية وصاحبة السلطان عليها . وأعد إنوسنت العدة لتعليم فردريك ، ولكنه أيد أتو الرابع فى أن يتولى عرش ألمانيا . وشب فردريك محوطا بالإهمال وبالفقر فى بعض الأحيان ؛ حتى كان ذوو القلوب

الرحيمة من أهل پالرم يأتون الطعام لهذا الغلام الملكى البائس[٢٦] . وكان يسمح له بأن يجرى فى شوارع العاصمة المتعددة الأجناس واللغات وفى أسواقها كما يشاء ، وأن يختار أصدقاءه كما يشتهى . ولم يتلق الغلام تعليما منتظما ، ولكن عقله المتعطش للمعرفة كان يتعلم من كل ما يرى ويسمع ، حتى لقد دهش العالم فيما بعد من اتساع معلوماته ودقتها . فقد تعلم فى تلك الأيام وبالطريقة السالفة الذكر اللغتين العربية واليونانية ، وبعض معارف اليهود ، وعرف فى أيام شبابه خلقا من شعوب مختلفة ، ذوى ملابس ، وعادات ، وعقائد متباينة ، ولم يتخل قط عن عادة التسامح التى ألفها فى صغر سنه . وقرأ كثيراً من كتب التاريخ ، وأصبح كاتبا بليغا ومثاقفا ماهراً ، ومغرما بالخيل والصيد . وكان قصير القامة ، قوى البنية ، « ذا وجه جميل جذاب »[٢٧] ، وشعر متلو أحمر طويل ، نشيطا ، فخوراً ، سريع البت فى الأمور . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره ، فصل الرجل الذى انتدبه البابا لينوب عنه فى الوصاية عليه وتولى زمام الأمور بنفسه . وبلغ الحلم فى الرابعة عشرة وتزوج فى الخامسة عشرة من كنستانس الأرغونية Constance of Aragon ، وشرع يعمل ليسترد عرش الإمبراطورية .

وواتاه الحظ فنال بغيته ، ولكن ذلك لم يكن من غير ثمن . وتفصيل ذلك أن أتو الرابع نقض العهد الذى قطعه على نفسه بأن يحترم سيادة البابا فى الولايات البابوية ، فحرمه البابا من الكنيسة ، وأمر بارونات الإمبراطورية وأساقفتها أن يختاروا لعرشها فردريك الشاب الذى تحت وصايته « لأن له حكمة الشيوخ وإن كان لا يزال فى سن الشباب »[٢٨] . ولكن إنوسنت ، وقد مال فجأة إلى فردريك ، لم يتحول عن غرضه الأول وهو حماية البابوية من كل عدوان عليها . ولهذا طلب إلى فردريك نظير تأييده إياه (١٢١٢) أن يتعهد له أن تظل صقلية إقطاعية للبابوات تؤدى لهم الجزية ، وأن يحمى الولايات البابوية من كل عدوان ؛ وأن تظل « الصقليتان » — وهما إيطاليا الجنوبية النورمانية والجزيرة — منفصلتين

انفصالا دائماً عن الإمبراطورية ؛ وأن يقيم فى ألمانيا بوصفة إمبراطوراً عليها ، ويترك الصقليتين لابنه الطفل هنرى ليكون مكاً على صقلية ، وأن ينوب عنه فى حكمها نائب يعينه إنوسنت ؛ وتعهد فردريك فضلا عن هذا كله أن يحافظ على جميع حقوق رجال الدين وسلطانهم فى دولته ، وأن يعاقب المارقين ، وأن يحمل الصليب ويخرج إلى الحرب الصليبية . ودخل فردريك ألمانيا بعد أن أمده البابا بالمال اللازم لرحلته ورحلة حاشيته . وكانت لا تزال تحت سلطان جيوش أتو . لكن هذه الجيوش منيت بالهزيمة فى بوفين على يدى ڤليب أغسطس ؛ فانهارت مقاومة أتو ، وتوج فردريك إمبراطوراً باحتفال فخم مهيب فى آخن (١٢١٥) . وفيها جدد الوعد الذى قطعه على نفسه من قبل بأن يشن حرباً صليبية . وتأثر كثير من الأمراء بحماسة النصر الذى ناله الشاب فأقسموا يميناً مثل يمينه . وخيل إلى ألمانيا حيناً من الدهر أنه داود ثان بعثه الله لينقذ أورشليم بلد داود من ورثة صلاح الدين .

لكن الأمور لم تسر بالسرعة المطلوبة ، فقد حشد هنرى أخو أتو جيشاً ليخلع به فردريك ، ووافق هونوريوس الثالث Honorius III البابا الجديد على أن يدافع الإمبراطور الشاب عن عرشه . وانتصر فردريك على هنرى ، ولكنه تورط وقتئذ فى الشئون السياسية للإمبراطوارية ، ويلوح أنه كان يحن إلى موطنه الأول فى إيطاليا ، فقد كان دم الجنوب وحرارة الجنوب ممتزجين بطبعه ، وكانت ألمانيا تضايقه ، فلم يقض فيها من سنيه الست والخمسين إلا ثمانية أعوام لا أكثر . وقد أعطى البارونات سلطات إقطاعية واسعة ، ومنح عدداً من المدن عهوداً بالحكم الذاتى ، وعهد بحكم ألمانيا إلى إنجلبرت كبير أساقفة كولونى ، وهرمان السالزى Herman of Salza الرجل الحازم القدير كبير الفرسان التيوتون . وتمتعت ألمانيا بالسلم والرخاء فى السنين الخمس والثلاثين التى تولى فيها العرش على الرغم من إهماله الظاهرى لشئونها . وبلغ من رضاء البارونات

والأساقفة عن سيدهم الغائب أن توّجوا مرضاة له ابنه هنرى البالغ من العمر سبع سنين « ملكاً على الرومان » — أى وارثاً لعرش الإمبراطورية (١٢٢٠) . وعيّن فردريك نفسه فى الوقت عينه نائباً فى صقلية عن هنرى الذى بقى وقتئذ فى ألمانيا . وبدّل هذا العمل خطط إنوسنت تبديلا تاماً ، ولكن إنوسنت كان قد فارق هذا العالم . وخضع هونوريوس للأمر الواقع ، ولم يكتف بالخضوع له بل توّج فردريك إمبراطوراً فى رومة ، لأنه كان شديد الرغبة فى أن يرحل فردريك من فوره لإنقاذ الصليبيين فى مصر . لكن بارونات إيطاليا الجنوبية ومسلمى صقلية خرجوا عليه وقتئذ ، وقال فردريك إنه لا بد له أن يعيد النظام فى مملكته الإيطالية قبل أن يخاطر بالغياب عنها زمناً طويلا . يضاف إلى هذا أن زوجته ماتت فى ذلك الوقت (١٢٢٢) . وأراد هونوريوس أن يغريه بأن يبرّ بقسمه فأقنعه بأن يتزوج إزابلا Isabella ، وارثة عرش أورشليم الضائعة ، ووافق فردريك على هذا الزواج وأضاف لقب « ملك أورشليم » إلى لقبيه الآخرين وهما ملك صقلية وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ثم أخرت سفره مرة أخرى متاعب قامت فى المدن اللمباردية . ومات هونوريوس فى عام ١٢٢٧ واعتلى عرش البابوية جريجورى التاسع الرجل الصارم القوى الشكيمة . وأخذ فردريك وقتئذ يعد العدة فى جد ، فأنشأ أسطولا عظيما ، وحشد أربعين ألفاً من المحاربين الصليبيين فى برنديزى ، لكن وباء مروعاً فشا فى جيشه ، مات منه آلاف ، وفرّت منه آلاف أكثر منها . وأصيب بهذا الوباء الإمبراطور نفسه ، وكبير قوّاده لويس الثورنچيانى Louis of Thuringia . ومع هذا فقد أصدر فردريك أمره بالرحيل ، ومات لويس ، وساءت حال فردريك ، وأشار عليه أطباؤه ومن كان معه من كبار رجال الدين بأن يعود إلى إيطاليا ، فعمل بمشورتهم ، وطلب العلاج من مرضه فى پزيولى Pozzuoli . ونفد صبر البابا جريجورى ؛ فلم يستمع إلى أقوال رسل فردريك وأعلن فى العالم حرمان الإمبراطور .

وبعد سبعة أشهر من ذلك الوقت أبحر فردريك إلى فلسطين (١٢٢٨) وهو لا يزال مطرودا من حظيرة الدين . فلما سمع جريجورى بوصوله بلاد الشام أحل رعايا فردريك وابنه هنرى من يمينى الولاء لهما ، وأخذ يعمل لخلع الإمبراطور . وعد نائب فردريك فى إيطاليا هذه الأعمال إعلانا للحرب من جانب البابا ، فهاجم الولايات البابوية . ورد جريجورى على هذا العمل بأن أرسل جيشاً لغزو صقلية ، وأشاع الرهبان أن فردريك قد مات ؛ وما لبث جزء كبير من صقلية وإيطاليا الجنوبية أن سقط فى يدى البابا . ووصل مندوبان عن البابا من رهبان الفرنسسكان مدينة عكا بعد أن وصلها فردريك بزمن قليل ، وحرما على كل رجل فى صفوف المسيحيين أن يطيع أمر الرجل الطريد . ودهش الكامل قائد جيوش المسلمين إذ وجد حاكما أوربيا يعرف اللغة العربية ، ويقدر الآداب والعلوم والفلسفة العربية أعظم التقدير ، فعقد صلحا مواتيا مع فردريك ، دخل على أثره الإمبراطور بيت المقدس فاتحا دون أن يريق فى هذا الفتح قطرة دماء . ولم يجد فردريك من رجال الدين من يرضى بتتويجه ملكا على بيت المقدس فما كان منه إلا أن توج نفسه فى كنيسه الضريح المقدس . وأعلن أساقفة قيصرية أن وجود فردريك فى الضريح والمدينة قد دنسهما ، فحرما إقامة الخدمات الدينية فى بيت المقدس وعكا . وترامى إلى بعض فرسان المعبد أن فردريك يعتزم زيارة المكان الذى يقال إن المسيح قد عمد فيه فى نهر الأردن ؛ فبعث برسالة سرية إلى الكامل يقول فيها إن الفرصة قد واتته لأسر فردريك . فما كان من القائد المسلم إلا أن بعث بالرسالة إلى فردريك . وأراد الإمبراطور أن ترفع اللعنة عن بيت المقدس فغادرها فى اليوم الثالث بعد التتويج وسافر إلى عكا ، وفيها أخذ عامة المسيحيين يلقون عليه الأقذار وهو خارج منها إلى سفينته(٢٩) .

ولما وصل فردريك برنديزى جيش فيها من فوره جيشا جديداً . وزحف

به ليسترد المدن التى استسلمت للبابا . وفرجيش البابا أمامه وفتحت له المدن أبوابها ، ولم يقاوم منها إلا سورا Sora فضرب عليها الحصار حتى استولى عليها عنوة وأشعل فيها النار فدمرتها تدميرا . ووقف فردريك عند حدود الولايات البابوية ، وأرسل إلى البابا يدعوه إلى الصلح ، فأجاب البابا دعوته ووقعا معاهدة سان جرمانو San Germano (١٢٣٠) ، وألغى قرار الحرمان ورفرف لواء السلم إلى حين .

٢ — أعجوبة العالم

ثم وجه فردريك عنايته للشئون الإدارية ،. فأخذ يعالج من مقره فى فجيا Foggia من أعمال أپوليا Apulia مشاكل دولته التى اتسعت فوق ما ينبغى أن تتسع . وزار ألمانيا فى عام ١٢٣١ وأيد فى « قانون لمصلحة الأمراء » ما كان هو وولده قد منحه من سلطان البارونات ؛ وذلك بأنه كان يرضى أن يسلم ألمانيا للإقطاع إذا كان تسليمه يتيح له السلم التى تمكنه من أن ينفذ ما يريده لإيطاليا ، ولعله أدرك أن معركة بوڤين قد أنهت زعامة ألمانيا لأوربا ، وأن القرن الثالث عشر هو عصر فرنسا وإيطاليا ؛ وقد جوزى على إهماله شئون ألمانيا بتمرد ابنه وانتحاره .

واستطاع أن يؤلف بين عواطف الصقليين المتعددة وينشئ منها صرحا من النظام والرخاء يعيد إلى الأذهان مجدها فى أيام روجر الثانى . فقد ألقى القبض على المسلمين الثائرين المعتصمين بالجبال ، ونقلهم إلى إيطاليا ، ودربهم ليجعل منهم جنوداً مرتزقة ، فأصبحوا خير من يعتمد عليهم فى جيش فردريك . وفى وسعنا أن نتصور غضب البابوات حين يرون الجنود المسلمين يقودهم الإمبراطور ويحارب بهم جنده . وظلت پالرم حتى ذلك الوقت عاصمة الصقليتين من الوجهة القانونية ، ولكن فجيا كانت هى العاصمة الحقيقية . وكان فردريك يحب إيطاليا حبا لا يعادله حب معظم الإيطاليين ، وكان يعجب كيف يقدر يهوه فلسطين هذا التقدير العظيم وإيطاليا على ظهر الأرض ؛ وكان يسمى إيطاليا الجنوبية « قرة عينه وملجأ وسط السيول ،

وجنة وسط برية من الأشواك »(٣٠) ، وشرع فى عام ١٢٢٣ يشيد فى فجيا القصر الحصين الهائل الذى لم يبق منه اليوم إلا مدخله ؛ وسرعان ما قامت حول بيته مدينة من القصور يسكنها أعوانه ، ودعا أشراف مملكته الإيطالية ليكونوا وصفاء فى بلاطه ، وما زالوا يرقون فى خدمته حتى كان منهم عماله الذين تولوا شئون الحكومة الإدارية . وكان على رأس هؤلاء جميعاً پيرو دلى ڤجنى Piero delle Vigne خريخ مدرسة الحقوق فى بولونيا . وقد عينه فردريك أميناً على بيت المال وأحبه كحبه ابنه أو أخاه ، وحل رجال القانون محل رجال الدين فى دولاب الحكم فى باريس بعد سبعين عاما من ذلك الوقت ؛ فهنا فى أقرب الدول إلى كرسى القديس بطرس انتقل الحكم انتقالا تاما من أيدى رجال الدين إلى أيدى رجال الدنيا .

وإذ كان فردريك قد نشأ فى عصر الفوضى ، وتشبع بالآراء الشرقية ، فإنه لم يخطر بباله قط أن النظام المعروف باسم الدولة يستطاع المحافظة عليه بغير سلطان الملوك . ويبدو أنه كان يعتقد مخلصاً أنه إذا انعدمت السلطة المركزية القوية أهلك الناس أنفسهم ، أو افتقروا المرة بعد المرة بسبب الإجرام والجهل ، والحرب ؛ وكان مثل بربرسا يرى أن نظام المجتمع أعظم قيمة من حرية الشعب ، ويحس أن الحاكم الحازم الذى يستطيع المحافظة على النظام يستمتع بكل ما فى ملكه من نعيم . وكان يسمح للشعب بقدر من التمثيل فى حكومته : فقد أنشأ جمعيات تنعقد مرتين كل عام فى خمسة مواضع من مملكته ، لتعالج المشاكل ، والشكاوى والجرائم المحلية . ولم يدع إلى هذه الجمعيات أشراف الإقليم ومطارنته فحسب ، بل كان يدعو إليها بالإضافة إليهم أربعة مندوبين عن كل مدينة كبيرة ، ومندوبين اثنين عن كل بلدة . أما فيما عدا هذا فقد كان فردريك ملكا مطلق السلطان ، يرى أن القاعدة الأساسية التى يقوم عليها القانون الرومانى — وهى أن الأهلين قد عهدوا إلى الإمبراطور دون غيره الحق المطلق فى التشريع —

يرى أن هذه القاعدة من البداهة التي لا تقبل الجدل . وأصدر للدولة من ملفي Melfi عام ١٢٣١ الكتاب الأعظم وهو أول مجموعة منظمة للقوانين بعد جستنيان ، وأتم كتاب في فقه التشريع في تاريخ القانون كله . ويرجع أكبر الفضل في صدوره إلى مهارة پيرودلي ڤجني وحسن مشورته . وكان هذا القانون رجعياً من بعض الوجوه ؛ فقد أقر ما في النظام الإقطاعي من فروق بين الطبقات . وأيد ما كان للسيد الإقطاعي من حقوق قديمة على أرقاء أرضه ، لكنه كان في كثير من النواحي قانونا تقدمياً : فقد حرم الأشراف من سلطاتهم التشريعية والقضائية ، وحقهم في سك العملة ، وركز هذه الحقوق كلها في الدولة ؛ وألغى نظام التقاضي بالقتال أو التحكيم الإلهي ، وأنشأ نظام المدعين العموميين المعينين من قبل الدولة لتعقب الجرائم التي ظلت حتى ذلك الوقت تفلت من العقاب إذا لم يتقدم مواطن ما بعرضها على القضاء . وندد الكتاب بالتباطؤ في إصدار الأحكام ، ونصح القضاة بتقصير خطب المحامين ، وحتم على محاكم الدولة أن تعقد جلساتها في كل يوم ما عدا أيام العطلة الرسمية .

وعني فردريك كما عني معظم الحكام في العصور الوسطى بتنظيم شئون الاقتصاد القومي ، فحدد « ثمناً عادلا » لعدد من مختلف الخدمات والسلع . وأممت الدولة إنتاج الملح ، والحديد ، والصلب ، والقنب ، والقار ، والمنسوجات المصبوغة ، والأقمشة الحريرية[٣١] ؛ وأقامت الدولة مصانع للنسيج تعمل فيها إماء مسلمات على أعين رؤساء من الخصيان[٣٢] ؛ وكانت تمتلك وتدير مذابح الحيوانات والحمامات العامة ؛ وأنشأت مزارع نموذجية ، وشجعت زراعة القطن وقصب السكر ، وطهرت الغابات والحقول من الحيوانات الضارة ، وشقت الطرق وأقامت القناطر ، وحفرت الآبار لتزيد موارد المياه[٣٣] . وكان الجزء الأكبر من التجارة الخارجية في يد الدولة تنقله سفن تمتلكها الحكومة ، كان في واحدة منها ثلثمائة من الملاحين[٣٤] . وخفضت المكوس المفروضة على التجارة الداخلية إلى الحد

الأدنى ، ولكن العوائد المفروضة على الصادرات والواردات كانت أكبر مورد من موارد الدولة . وكان ثمة ضرائب أخرى كثيرة ، لأن هذه الحكومة كانت تستطيع أن تجد على الدوام ، كما تجد سائر الحكومات ، منافع للمال . ومن بين الأعمال التي تعلى من قدر فردريك أنه وضع نظاماً سليماً للنقد روعيت فيه واجبات الشرف والأمانة .

وكان فردريك وحده سيد هذه الدولة والمدير لجميع شئونها ، وأراد أن يجعلها ذات جلال وقداسة دون أن يعتمد على المسيحية التي كانت في العادة مغاضبة له ، فبذل غاية في جهده في أن يخلع على نفسه كل ما كان يحيط بالإمبراطور الروماني من رهبة وجلال . فلم يطبع على نقوده الجميلة الشكل شعاراً أو لفظاً مسيحياً ، بل طبع حول أحد وجهيها تلك الأقصوصة Aug Cesar Rom Imp (الإمبراطور الروماني قيصر أغسطس) وطبع على الوجه الآخر النسر الروماني يحيط به اسم Fredericus (فردريكوس) . ولقن الناس أن الإمبراطور كان بمعنى ما ابن الله ، وأن شرائعه هي العدالة الإلهية مقننة ، وكانوا يشيرون إليه بلفظ Iustitia وهي كلمة تكاد تكون صيغة الغائب الثالوث جديد . وكان فردريك يحرص على أن يوضع إلى جانب أباطرة الرومان في التاريخ ومعارض الفن ، فأمر المثالين بأن ينحتوا له تماثيل من الحجارة ، وزينت رأس قنطرة في ڤلتورنو Volturno ، وفتحة باب في كپوا ، بنقوش من الطراز القديم تمثله هو وأعوانه ؛ ولم يبق من هذا كله إلا رأس أنثى ذو جمال بارع [٣٥] . لكن هذه المحاولة التي بذلت قبل عصر النهضة لإحياء الفن القديم أخفقت لأن تيار الفن القوطي قد اكتسحها أمامه .

واستطاع فردريك ، رغم اقترابه من الألوهية ، وجده المتواصل في شئون الملك أن يستمتع بالحياة بمختلف نواحيها في بلاطه بفجيا . فقد كان لديه جيش من الأرقاء ، كثرتهم من المسلمين ، يقومون على خدمته ، ويشرفون على

دولاب حكومته وموظفيه . ولما توفيت زوجته الثانية تزوج بإزبلا الإنجليزية عام ١٢٣٥ ؛ ولكن إزبلا الإنجليزية لم يكن فى مقدورها أن تفهم عقليته أو أخلاقه ، فآثرت الانزواء وتركت فردريك يستمتع بعشيقاته حتى ولد له ابن غير شرعى . وكان أعداؤه يتهمونه بأنه أنشأ لنفسه « حريماً » ، كما اتهمه جريجورى التاسع باللواط(٣٦) ؛ ورد فردريك على ذلك بقوله إنه يحتفظ بجميع أولئك النساء البيض والسود ، والغلمان لبراعتهم فى الغناء ، والرقص ، والألعاب البهلوانية ، أو غيرها من ضروب التسلية المعتادة فى بلاط الملوك . وكان يحتفظ فضلا عن هذا كله بحديقة للحيوان البرى ، وكان يسافر أحياناً وفى صحبته عدد من الفهود ، والوشق ، والآساد ، والنمورة الرقطاء ، والقردة ، والدببة ، مسلوكة فى السلاسل يقودها عبيد من المسلمين . وكان فردريك مولعاً باقتناص الحيوان وصيد الحيوان بالصقورة ، وجمع الطيور الغريبة ، وقد كتب لابنه مانفرد Manfred رسالة علمية فى الصيد بالبزاة جديرة بالإعجاب .

وكان أعظم ما يستمتع به بعد الصيد هو الحديث الظريف المهذب — delico parlare ، فكان يفضل التقاء العقول الحصيفة على المبارزة بالسلاح ، وكان هو نفسه أعظم المحدثين ثقافة فى أيامه ، وقد اشتهر بفكاهته وسرعة بديهته ، وكان هو ڤلتير نفسه(٣٧) . وكان يتحدث بتسع لغات ويكتب سبعاً منها ، ويراسل الكامل باللغة العربية ، ويقول له فى رسائله إنه أعز أصدقائه بعد أولاده ، ويكتب باللغة اليونانية إلى چون ڤاتتزس John Vatatzes زوج ابنته وإمبراطور الروم ؛ وباللغة اللاتينية إلى العالم الغربى . وكان رفاقه — وبخاصة پيرو دلى ڤجنى — يصوغون أسلوبهم اللاتينى البليغ على نمط الكتب الرومانية القديمة ؛ لأنهم كانوا يحسون بروح الكتاب الرومان الأقدمين تسرى فى نفوسهم ويعملون على محاكاة هؤلاء الكتاب ، وكادوا يكونون هم الرواد السابقين لكتاب عصر النهضة ذوى النزعة الإنسانية . وكان فردريك نفسه شاعراً ، أثنى دانتى

على شعره اللاتيني ، وقد أدخل غزل پروڤانس والشعراء المسلمين الغزليين في بلاطه ، وتعلق به ، وقلده النبلاء الشبان الذين كانوا في خدمة المليك . وكان الإمبراطور نفسه يحب أن يستريح من العناء بعد أن يقضي يوماً في تصريف شئون الملك أو الصيد أو الحرب ومن حوله النساء الحسان والشعراء يتغنون بأمجاده ومفاتن نسائه ، كما كان يفعل بعض الأمراء في بغداد .

وكان فردريك كلما تقدمت به السن يوجه قسطاً متزايداً من اهتمامه إلى العلوم والفلسفة . وكان أكبر ما يبعث فيه هذه الرغبة العلمية هو التراث الذي خلفه المسلمون في صقلية . وقد قرأ بنفسه كثيراً من روائع الكتب العربية الخالدة ، واستدعى إلى بلاطه كثيرين من العلماء والفلاسفة المسلمين واليهود ، وأجاز العلماء على ترجمة المراجع الهامة اليونانية والإسلامية إلى اللغة اللاتينية . وقد بلغ من ولعه بالعلوم الرياضية أن أقنع سلطان مصر بأن يبعث له بأحد الرياضيين الذا " كما كان على صلة ودية وثيقة بليوناردو فيبوناتشي Leonards Fibonacci أعظم علماء الرياضة المسيحيين في أيامه . لكنه كان يشارك أهل زمانه في بعض خرافاتهم ، واشتغل بالتنجيم والكيمياء الكاذبة ، وأغرى ميخائيل اسكت Michael Scot الذي كان واسع المعرفة في علوم مختلفة بأن يجيء إلى بلاطه ، وأخذ يدرس معه بعض العلوم الخفية بالإضافة إلى الكيمياء ، والتعدين ، والفلسفة . وكان شغوفاً بالإطلاع في جميع العلوم ، فكان يبعث بالأسئلة العلمية والفلسفية إلى العلماء المقيمين في بلاطه وإلى غيرهم في البلاد النائية كمصر ، وبلاد العرب ، والشام والعراق . وكانت لديه حديقة للحيوان يتخذها للدرس لا للهو ، ونظم تجارب علمية في تربية الدجاج ، والحمام ، والخيل ، والجمال ، والكلاب ، ووضع قوانين لتحريم الصيد في مواسم معينة قائمة على أساس سجلات دقيقة خاصة بمواسم التزاوج والتوالد عند الحيوان حتى قيل إن حيوانات أپوليا كتبت إليه تشكره على حسن صنيعه . وقد تضمنت شرائعه تنظيما مستنيراً لمهنة الطب ، والجراحات

الطبية وبيع العقاقير . ولم يكن يرى حرجاً فى تشريح جثث الموتى ، وكان الأطباء المسلمون يعجبون من سعة علمه بالتشريح . أما الفلسفة فحسبنا دليلا على واسع علمه بها أنه طلب إلى بعض علماء المسلمين أن يفسروا ما بين آراء أرسطو والإسكندر الأفروديسى من تناقض فى خلود العالم . ولقد حياه ميخائيل اسكت بقوله : « أيها العاهل المحظوظ ، إنى لقوى الاعتقاد بأنه لو كان فى مقدور رجل ما أن يفر من الموت بعلمه لكنت أنت ذلك الرجل »[٣٨] .

وكان فردريك يخشى أن تضيع بحوث العلماء الذين جمعهم عنده بعد موتهم ، فأنشأ فى عام ١٢٢٤ جامعة نابلى — وهى أنموذج نادر من جامعات العصور الوسطى ، أقيمت من غير حاجة إلى موافقة السلطات الدينية على إنشائها . وقد استدعى إليها علماء متبحرين فى جميع الفنون والعلوم ، ومنحهم مرتبات عالية ، ورتّب إعانات مالية ليمكن النابهين من الطلاب الفقراء من الدرس . وحرّم على شباب مملكته أن يخرجوا منها فى طلب التعليم العالى ؛ وكان يأمل أن تنافس نابلى بعد وقت قصير مدينة بولونيا فتصبح مدرسة كبرى للقانون وتدرّب الناس على أعمال الإدارة العامة .

وبعد فهل كان فردريك ممن ينكرون وجود الله ؟ لقد كان فى شبابه من الأتقياء الصالحين ، ولعله ظل مستمسكا بالعقائد الأساسـية فى الديانة المسيحية إلى أيام حربه الصليبية . ثم يبدو أن اتصاله الوثيق بزعماء المسلمين ومفكريهم قضى على عقيدته المسيحية . وقد افتتن بعلوم المسلمين ورآها أسمى قدراً من أفكار المسيحيين ومعارفهم أيامه . ومما يدل على ذلك أنه لما عقد مجمع الأمراء الألمان فى فريولى Friuli (١٢٣٢) استقبل وفداً من المسلمين أحسن استقبال ، ثم اشترك على مرأى من الأساقفة والأمراء مع هؤلاء المسلمين فى وليمة أقيت للاحتفال بأحد الأعياد الدينية الإسلامية[٣٩] . ويقول عنه ماثيوپاريس Matthew Paris : « ويقول أعــداء الإمبراطور إنه يوافق على شريعة محمد

ويؤمن بها أكثر من إيمانه بشريعة المسيح عيسى . . . وإن صداقته للمسلمين أقوى من صداقته للمسيحيين »[٤٠] . وشاعت عنه شائعة صدقها جريجورى التاسع تتهمه بأن قال إن « ثلاثة من المشعوذين ساقوا بدهائهم أهل زمانهم ليسودوا بهم العالم — موسى ، وعيسى ، ومحمداً ! » . ودوى هذا السباب والكفران فى جميع أنحاء أوربا ، وأنكر فردريك التهمة ، ولكنها ساعدت على نفور الرأى العام منه فى آخر أزمات حياته . وما من شك فى أنه كان حر الفكر إلى حد ما ، فقد كانت لديه شكوكه فى العقيدة القائلة بأن العالم خلق دفعة واحدة فى زمن معين ، وفى خلود الفرد ، وفى ولادة العذراء ، وفى أمثالها من العقائد الواردة فى الدين المسيحى[٤٢] . وقال حين رفض مبدأ التحكيم الإلهى : « منذا الذى يصدق أن الحرارة الطبيعية الكامنة فى فى الحديد المتوهج تبرد من غير سبب كاف ، أو أن عنصر الماء يرفض قبول (غمر) المتهم لأنه ميت الضمير »[٤٣] . ولم ينشئ فى حياته كلها إلا كنيسة واحدة .

وقد منح جميع أصحاب العقائد المختلفة فى مملكته حرية العبادة ببعض القيود ، فقد كان الروم الكاثوليك ، والمسلمون ، واليهود يمارسون شعائر دينهم دون أن يصيبهم أذى ، ولكنهم لم يكن فى مقدورهم (إلا فى حالة واحدة) أن يدرّسوا فى الجامعة ، أو أن يرقوا إلى منصب رسمى فى الدولة . وكان يحتم على جميع المسلمين والعبرانيين أن يرتدوا ثيابا تميزهم عن المسيحيين ، وألزم المسلمين واليهود بأن يؤدوا نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية ضريبة الفرضة التى كان الحكام المسلمون يفرضونها على المسيحيين واليهود ؛ وكانت شرائع فردريك تعاقب من يعتنق الدين اليهودى أو الإسلامى من المسيحيين أشد العقاب ، غير أنه لما اتهم يهود فلدا Fulda فى عام ١٢٣٥ بأنهم يقتلون طفلا مسيحياً ليستخدموا دمه فى عيد فصحهم هب فردريك لإنقاذهم ، وكذب القصة وقال إنها خرافة اخترعها غلاظ القلوب ، وكان عنده فى بلاطه عدد من العلماء اليهود[٤٤] .

وأشد ما يلاحظ من تناقض فى حكم هذا المليك الذى يجرى على سنن العقل هو اضطهاده الإلحاد والملحدين . ذلك أن فردريك لم يكن يسمح فى بلاده بحرية التفكير أو القول لإنسان ما حتى أساتذة جامعته ، بل اختص نفسه ورفاقه دون غيرهم بهذه الميزة ، فقد كان كمعظم الحكام يرى أن الدين ضرورى لا غنى عنه للنظام الاجتماعى ، ولم يكن يقبل أن يقوض علماؤه دعائمه ؛ يضاف إلى هذا أن القضاء على الإلحاد ييسر قيام السلام المتقطع مع البابوات ؛ وجرياً على هذه السياسة أيد فردريك محكمة التفتيش كل التأييد على حين أن بعض الملوك فى القرن الثالث عشر ترددوا فى معاونتها ، وبذلك اتفق البابوات هم وعدوهم الألد فى هذه المسألة وحدها .

٣ – النزاع بين الإمبراطورية والبابوية

وأخذت أهداف فردريك البعيدة الواسعة المدى تزداد وضوحاً كلما تقادم حكمه فى فوجيا : كان يبغى أن يبسط سلطانه على إيطاليا بأجمعها ؛ وأن يوحد إيطاليا وألمانيا تحت سلطان الإمبراطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود ، ولعله كان يبغى أيضاً أن يجعل رومة كما كانت قبل عاصمة العالم الغربى السياسية والدينية معاً . ولما أن دعا الأعيان الإيطاليين والمدن الإيطالية إلى مجمع فى كرمونا Cremona عام ١٢٢٦ كشف عن أغراضه بأن أرسل الدعوة أيضاً إلى دوقية اسپليتو ، وكانت وقتئذ ولاية بابوية ، وبأن سير جنوده فى أراضى البابوات . وأمر البابا أعيان اسبليتو ألا يحضروا الاجتماع . وارتابت مدن لمباردية فى الدعوة فرأت فيها وسيلة يبغى بها فردريك أن يخضعها للإمبراطور خضوعاً حقيقياً لاخضوعاً اسمياً فحسب ، فأبت أن ترسل مندوبين عنها إلى الاجتماع ؛ ولم تكتف بهذا بل ردت على هذه الدعوة بأن ألفت العصبة اللمباردية الثانية التى تعهدت فيها مدائن ميلان ، وتورين ، وبرجامو ، وبرشيا ، ومانتوا ، وبولونيا ، وفيسنزا ،

وڤيرونا ، وبدوا ، وترڤيزو أن تعقد فيما بينها حلفا دفاعيا هجوميا يدوم خمساً وعشرين سنة ؛ وبهذا لم يجتمع الجمع قط .

وخرج هنرى على أبيه فردريك فى عام ١٢٣٤ ، وتحالف مع العصبة اللمباردية ، فركب فردريك من جنوبى إيطاليا إلى ڤرمز Worms وليس معه جنود ، بل كان معه بدلا منهم مال كثير ؛ وخمدت الفتنة حين ترامت إلى القائمين بها أخبار قدومه أو حين مست أيديهم ذهبه ؛ وزج هنرى فى السجن ، وظل يكتوى بناره سبع سنين ؛ وبينا كان ينقل من مكان آخر يحبس فيه ، عدا بجواده فوق جرف عال وهوى إلى أسفله جثة هامدة . وواصل فردريك سيره إلى مينز ، ورأس فيها مجمعاً ، أقنع فيه كثيرين من النبلاء الحاضرين أن ينضموا إليه فى حملة يعيد بها سلطة الإمبراطورية على لمباردية . واستطاع بفضل هذه المعونة أن يهزم جيش العصبة اللمباردية (١٢٣٧) ؛ واستسلمت له جميع مدنها ما عدا ميلان وبريشيا ، وعرض جريجورى التاسع وساطته بين الطرفين ، غير أنه لم يكن من المستطاع التوفيق بين آمال فردريك فى الوحدة وحب الإيطاليين الحرية .

وقرر جريجورى فى هذه الساعة الفاصلة أن ينضم إلى جانب العصبة ، وأن يجعل مصير سلطة البابوات الزمنية موقوفة على نتيجة هذه الحرب ، مع أنه كان وقتئذ رجلا مريضاً فى سن التسعين . ولم يكن جريجورى، مولعاً بحب المدن اللمباردية ، فقد كان مثل فردريك يرى أن حريتها هى الطريق المؤدى إلى النزاع والفوضى ، ويعرف أنها تأوى الملحدين الذين يعارضون جهرة فى ثروة الكنيسة وسلطته الزمنية . وفى هذا الوقت بالذات كان الملحدون من أهل ميلان المحاصرة يدنسون مذابح الكنائس ويقلبون الصلبان التى تحمل صورة المسيح(٤٥) . ولكن جريجورى كان يعتقد أنه إذا تغلب فردريك على هذه المدن ، ابتعلت إيطاليا الموحدة الولايات البابوية ، وتألفت منها كلها إمبراطورية موحدة يسيطر عليها عدو المسيحية والكنيسة . ولهذا أقنع جريجورى مدينتى البندقية وجنوى

بالانضمام إليه هو والعصبة فى حرب يشنها على فردريك ؛ ثم أصدر منشوراً عاماً شديد اللهجة ، اتهم فيه فردريك بالكفر ، والتجديف ، والاستبداد ، وبالرغبة فى القضاء على سلطة الكنيسة ، ثم حرمه فى عام ١٢٣٩ ، وأمر كل مطران من مطارنة الروم الكاثوليك أن يعلن أنه خارج على القانون ، وأعفى رعاياه من يمين الولاء التى أقسموها له . ورد فردريك على هذا برسالة دورية بعث بها إلى ملوك أوربا ينفى فيها تهمة الكفر ، ويتهم البابا بأنه يريد أن يخضع جميع الملوك لسلطان البابوية ، وأخذ النزاع الأخير بين الإمبراطورية والبابوية يجرى فى مجراه .

وأظهر ملوك أوربا عطفهم على فردريك ، ولكنهم لم يهتموا بما طلبه إليهم من معونة . كذلك انحاز أعيان ألمانيا وإيطاليا إلى جانبه ، لأنهم كانوا يرجون أن يعيدوا مدنهما إلى طاعتهم الإقطاعية ؛ أما فى المدن نفسها فقد انحازت الطبقتان الوسطى والدنيا بوجه عام إلى جانب البابا ، وعادت إلى الوجود عبارتا ويبلنج وولف **Waibling and Welf** بعد أن تحولتا إلى لفظى جيلين وجلف **Ghibelline and Gulf** ليدل أول اللفظين على أنصار الإمبراطورية ، والثانى على المؤيدين للبابوية . ولم تخل رومة نفسها من هذا الانقسام ، فقد كان فيها كثيرون من المؤيدين لفردريك ؛ ولما أن اقترب من رومة بجيش صغير أخذت المدن واحدة بعد واحدة تفتح له أبوابها لأنها رأت فيه قيصراً ثانياً . وتوقع فردريك أن يلقى القبض عليه ، فاخترق العاصمة على رأس موكب حزين من رجال الدين . وتأثرت قلوب الرومان بشجاعة البابا الشيخ وضعفه ، وعمد الكثيرون منهم إلى أسلحتهم للدفاع عنه . ولم يشأ فردريك أن يحسم الموقف فى ذلك الوقت فمر برومة دون أن يعرج عليها وقضى الشتاء فى فجيا .

وكان قبل ذلك قد أقنع الأمراء الألمان بأن يتوجوا ابنه كنراد ملك الرومان (١٢٣٧) ، ووضع زوج ابنته على رأس حكومة ڤيسنزا ، وبدوا ،

وتريفيزو ، كما وضع على رأس حكومة المدن الأخرى التى استسلمت له انزيو أحب أبنائه إليه وهو « صورة منا فى وجهه وقوامه » ، فقد كان وسيما ، فخوراً ، مرحاً ، شجاعاً فى الحرب ، بارعاً فى قول الشعر . واستولى الإمبراطور على راڤنا وفائنزا فى عام ١٢٤٠ ، وخرب فى عام ١٢٤١ بنفنتو مركز القوات البابوية . واعترض أسطوله قافلة بحرية من جنوى تنقل إلى رومة طائفة من الكرادلة ، والمطارنة ، ورؤساء الأديرة ، والقساوسة الفرنسيين والأسبان والإيطاليين ، وحجزهم فردريك فى أپوليا ليتخذهم رهائن يساوم بهم ؛ وما لبث أن أطلق الفرنسيين منهم ، ولكنه أطال احتجاز الباقين ، ومات عدد منهم فى السجن ، فارتاعت أوربا التى طالما رأت أن رجال الدين محصنون يجب ألا يعتدى عليهم ، وكثر وتشتد عدد الذين يعتقدون أن فردريك هو المسيح الدجال الذى تنبأ بظهوره يواقيم الفلورى Joochim of Flora الصوفى منذ بضع سنين . وعرض فردريك أن يطلق رجال الدين إذا رضى جريجورى أن يعقد معه الصلح ولكن البابا لم يتزحزح عن موقفه إلى يوم مماته (١٢٤١) .

وكان إنوسنت الرابع أكثر مسالمة من سلفه ، فقد وافق بتحريض القديس لويس على شروط للصلح (١٢٤٤) ، ولكن مدن لمبارديا امتنعت عن التصديق على الاتفاق ، وذكرت إنوسنت بأن جريجورى قد تعهد بألا تعقد البابوية صلحاً منفردا مع فردريك . وغادر إنوسنت رومة سراً ، وهرب إلى ليون Lyons ، وواصل فردريك الحرب ، وبدا أن ليس ثمة قوة تستطيع منعه من فتح الولايات البابوية وضمها إلى دولته وإقامة سلطانه فى رومة . ودعا إنوسنت رجال الدين إلى مجلس عقد فى ليون ، وكرر هذا المجلس حرمان الإمبراطور وخلعه لأنه رجل فاسد الأخلاق ، عاق ، وتابع عديم الولاء لسيده البابا الذى يقر بسيادته عليه (١٢٤٥) . واختار النبلاء الألمان ، بتحريض البابا ، هنرى رابس Henry Rapse إمبراطوراً بدل فردريك ، فلما مات نادوا بوليم الهولندى William of Holland

خلفاً له . وأصدر البابا قراراً بحرمان كل من يساعد فردريك ، وحرمت الخدمات الدينية فى كل الأقاليم الموالية له ؛ وأعلنت عليه هو وانزيو حربا صليبية ، ومنح الذين حملوا الصليب للقتال فى فلسطين إذا اشتركوا فى قتال الإمبراطور الكافر جميع المزايا التى تمنح الصليبيين .

وأطلق فردريك العنان لحقده وشهوة انتقامه ، وأقدم على أعمال قطعت عليه خط الرجعة . فأصدر « منشوراً للإصلاح » يعلن فيه أن رجال الدين « عبيد للدنيا منهمكون فى ملذاتهم ، لم تبق ثروتهم المتزايدة على شيء من تقواهم »(٤٦) . ثم صادر ما للكنيسة من أملاك فى الصقليتين ليستخدم ثمنها فى حربه ، ولما أن تزعمت بلدة فى أبوليا مؤامرة للقبض عليه ، أمر برؤساء المتآمرين فاقتلعت عيونهم وبترت أعضاؤهم ثم قتلوا . ولما أن استنجد به ابنه كنراد ، اتخذ سبيله إلى ألمانيا ، ولكنه علم وهو فى تورين أن پارما قد انتقضت على حاميته التى بها ، وأن الخطر محدق بإنزيو ، وأن الثورة قد اندلع لهيبها فى إيطاليا الشمالية كلها وصقلية نفسها ، فأخذ يقلم أظفار فتنة بعد فتنة فى مدينة تلو مدينة ، ويأخذ الرهائن من كل واحدة منها ، ويقتل أولئك الرهائن حين تثور عليه مدنهم . وإذا وجد فى الأسرى رسلا للبابا أمر بقطع أيديهم وأرجلهم(٤٧) .

وبينا كان الحصار مضروباً على پارما سئم فردريك طول البطالة فخرج هو وإنزيو وخمسين من الفرسان لصيد طيور الماء فى المستنقعات المجاورة للمدينة . وبينا هم فى صيدهم خرج رجال پارما ونساؤها على المحاصرين وهجموا عليهم هجوم اليائسين ، فتغلبوا على قوات الإمبراطور المختلة النظام المعدومة القيادة ، واستولوا على أموال الإمبراطور وحريمه ووحوشه ، فما كان منه إلا أن فرض ضرائب فادحة ، وجهز جيشاً جديداً ، وواصل القتال . وجاءته الأنباء بأن پيرو دلى ڤجنى وزيره الأول وموضع ثقته قد غدر به وأخذ يدبر المؤامرات ضده ؛ فأمر بالقبض عليه وفقء عينيه ، فما كان من پيرو بعد أن فعل به هذا إلا أن أخذ يضرب

برأسه جدران سجنه حتى مات (١٢٤٩) . وجاءته الأنباء فى تلك السنة نفسها أن سكان بولونيا قد أسروا إنزيو فى المعركة التى قامت عند لافسالتا La Fossaalta ، وحدث فى الوقت عينه أن حاول طبيب فردريك أن يقتله بالسم ؛ وحطمت هذه الضربات المتوالية السريعة روح الإمبراطور ، فارتد إلى أبوليا ولم يشترك بعدئذ فى الحرب القائمة . وانتصر قواده فى عدة معارك عام ١٢٥٠ ، ولاح أن الحظ قد عاد يواتيه . فقد طلب القديس لويس وهو فى أسر المسلمين فى مصر إلى إنوسنت الرابع أن يضع حداً للقتال حتى يستطيع فردريك أن يخف لنجدة الصليبيين . ولكن صحة الإمبراطور أخذت فى الوهن ولم تفدها هذه الآمال المنعشة ، فقد حطم الزحار — وهو البلية التى طالما أذلت ملوك العصور الوسطى — ، جسم الإمبراطور المتغطرس . وطلب أن تغفر له ذنوبه ، فأجيب إلى طلبه ، ولبس الإمبراطور الملحد مسوح الرهبان السسترسيين ، ومات فى فلورنتينو فى الثالث عشر من ديسمبر سنة ١٢٥٠ . وتهامس الناس بأن روحه قد حملتها الشياطين واخترقت بها فوهة بركان إتنا إلى الجحيم .

ولم يظهر بعد موته ما له من نفوذ ، فسرعان ما انهارت إمبراطوريته ، وتفشت فيها الفوضى أشد مما كانت عليه حين جلس على عرشها ؛ واختفت الوحدة التى قضى حياته يحارب من أجلها حتى من ألمانيا نفسها ، وسارت المدن الإيطالية فى ركب الحرية وقوتها الناشطة المبدعة ، وسلكت طريق الفوضى ، فأدى بها إلى استبداد الأدواق والزعماء اللصوص الذين ورثوا ، وهم لايكادون يدركون ، فساد فردريك الخلقى ، وحريته الفكرية ، ومناصرته الآداب والفنون . والحق أن ما كان يتصف به طغاة عصر النهضة من ذكاء قوى مجرد من الضمير كان صدى لخلق فردريك وعقله خالياً من ظرفه وفتنته . وإنا لنستبين فى تفكير فردريك وفى حاشيته حلول الكتب اليونانية والرومانية القديمة محل الكتاب المقدس ، والعقل محل الإيمان ، والطبيعة محل الله ، والضرورة محل العناية الإلهية ،

ثم استولت هذه النزعة بعد فترة من الاستمساك بالدين على عقول فلاسفة النهضة وكتابها الإنسانيين . وملاك القول أن فردريك كان « رجل النهضة » قبل أن يحل عهد النهضة بمائة عام . نعم إن مكيفلى كان يتحدث فى كتاب الأمير وفى عقله سيزارى بورجيا Coesar Borgis ولكن فردريك هو الذى مهد السبيل لفلسفة كتاب الأمير . وكذلك كان نتشة ينظر بعين فكره إلى بسمارك ونابليون ، ولكنه لم يكن ينكر أثر فردريك — « أول من يوافق هواى من الأوربيين »(٤٨) . وقد ارتاعت الأجيال التى جاءت بعده بأخلاقه ، وافتتنت بعقله ، وقدرت بعض التقـــدير عظمة مطامعه الإمبراطورية ، فوصفته المرة بعد المرة بالصفات التى ابتدعها ماثيو باريس حين قال عنه إنه الرجل « العجيب الذى بدل العالم وأثار عجبه super mundi et immutator mirabilis » .

الفصل السادس

تمزق إيطاليا

أوصى فردريك لابنه كنراد بعرش الإمبراطورية ، وعين مانفرد Manfred ابنه غير الشرعى نائباً عن الإمبراطور فى إيطاليا ، وشبت نار الفتنة فى كل مكان تقريباً فى إيطاليا ، وخضعت نابلى ، واسپليتو ، وأنكونا ، وفلورنس لمبعوثى البابا ، ونادى إنوسنت الرابع : « فلتبتهج السماء ولتفرح الأرض ! » وعاد البابا منتصراً إلى إيطاليا ، واتخذ نابلى مقر قيادته الحربية ، وزحف منها ليضم الصقليتين إلى الولايات البابوية ، ووضع الخطط ليفرض على مدن إيطاليا الشمالية سيادة أقل سفوراً من سيادته على تلك الولايات . ولكن هذه المدن عقدت العزم على أن تحمى استقلالها من البابوات والأباطرة على السواء ، وإن رضيت أن تشترك مع البابا فى الصلوات . وكان إزلينو Ezzlino وأبرتر پلاڤيسينو Uberto Pallavicino يسيطران على عدد من المدن ويدينا فيها بالولاء لكنراد . ولم يكن فى قلب كلا الرجلين شىء من الاحترام للدين ؛ فنشأ الإلحاد فى أيامهما ، وكان يخشى أن تفقد الكنيسة شمالى إيطاليا كله . وهبط كنراد الشاب فجاءة بجيش جديد من جبال الألب ، وأعاد فتح البلدان الإيطالية المتذمرة ، ودخل مملكة الصقليتين منتصراً ، ولكنه لم يدخلها إلا ليموت بالملاريا (مايو سنة ١٢٥٤) . وتولى مانفرد قيادة قوات الإمبراطور ، وبدد شمل جيش بابوى بالقرب من فُجيا (٢ ديسمبر) . وبلغت هذه الهزيمة مسامع البابا وهو على فراش الموت فمات بائساً مغموماً (٧ ديسمبر) يقول بصوت خافت : « رباه لقد أفسدت الإنسان عقاباً له على ظلمه » .

أما ما بقى من القصة فهو الفوضى السافرة ، فقد شن البابا إسكندر الرابع (١٢٥٤ — ١٢٥٦) حرباً صليبية على إزلينو ، جرح فيها هذا الطاغية ووقع فى الأسر ، وأبى أن يعوده الأطباء أو القساوسة أو أن يتناول الطعام، وأمات نفسه جوعا ، دون أن يتوب أو يقبل منه الاعتراف(١٢٥٩) . وأسر أيضا أخوه ألبريجو Alberigo ، وكان مثله فى وحشيته وجرائمه ، وأرغم على أن يشهد بعينيه تعذيب أسرته ؛ ثم انتزع لحمه من جسمه بالكلاليب ، وشد وهو لا يزال حيا إلى جواد ؛ وجر على الأرض حتى مات(٤٩) . واندفع المسيحيون والكافرون وفتنئذ فى الأعمال الوحشية ما خلا مانفرد المرح النَّغل ، وبقى مانفرد طوال الست السنين التالية سيد إيطاليا الجنوبية بعد أن أوقع بالجيوش البابوية هزيمة أخرى عند منتابرتو Montaperto (١٢٦٠) . وكان يجد متسعاً من الوقت للغناء وكتابة الشعر « ولم يكن له مثيل على ظهر الأرض » على حد قول دانتى « فى العزف على الآلات الوترية »(٥٠) . ولما يئس إربان الرابع (١٢٦١ — ١٢٦٤) من أن يجد فى إيطاليا من يرد مانفرد عن غيه ، وأدرك أن البابوية يجب أن تعتمد من ذلك الوقت على حماية فرنسا إياها ، طلب إلى لويس التاسع أن يقبل ملك الصقليتين إقطاعية من البابا . ورفض لويس هذا العرض ، ولكنه أجاز لأخيه شارل دوق أنجو أن يقبل من إربان « مملكة نابلى وصقلية » (١٢٦٤) . واخترق شارل إيطاليا على رأس ثلاثين ألفا من الجنود الفرنسيين وبدد شمل جيش مانفرد الذى كان أقل من جيشه عددا وقفز مانفرد فى وسط أعدائه ومات ميتة أشرف من ميتة أبيه . ونزل فى العام الثانى صبى فى الخامسة عشرة من عمره وهو كنرادين Conradin من ألمانيا ليتحدى شارل ، ولكنه هزم عند تجلياكزو Tagliacozzo وضرب رأسه علنا فى ميدان السوق بنابلى عام ١٢٦٨ . وانتهى بمقتله وموت إنزيو الذى طال سجنه بعد أربع سنين من ذلك الحين أجل بيت هوهنستاوفن نهاية محزنة ، وأصبحت الدولة الرومانية المقدسة شيئاً لا وجود

له إلا فى المظاهر والحفلات ، وانتقلت زعامة أوربا إلى فرنسا .

واتخذ شارل نابلى عاصمة له ، وأوجد فى الصقليتين أرستقراطية وبيرقراطية فرنسيتين ، وأقام فيها جيشاً فرنسيا ، ورهباناً وقساوسة فرنسيين ، وحكم البلاد وجبى الضرائب بوسائل استبدادية جعلت أهلها يتمنون لو بعث فردريك حيا ، كما جعلت البابا كلمنت الرابع يتمنى لو أن البابوية لم تنتصر . وبينا كان شارل يستعد لقيادة أسطوله لفتح القسطنطينية إذ ثار العامة فى بالرم يوم الاثنين التالى لعيد القيامة من عام ١٢٨٢ بعد أن انطلق حقدهم الكامن فى صدورهم لأن جنديا فرنسيا أساء الأدب مع عروس صقلية ، وقتل الغوغاء كل فرنسى فى المدينة . وليس أدل على الحقد الدفين الذى كان يغلى فى صدور الصقليين من الوحشية التى كانت تدفع رجالهم لأن يشقوا بسيوفهم أرحام النساء اللاتى حملن من الجنود أو الموظفين الفرنسيين ثم يطأون الأجنة الأجنبية حتى تموت تحت أقدامهم(٥١) . وحذت مدن أخرى حذو بالرم حتى قتل ثلاثة آلاف من الفرنسيين فى مذبحة تعرف باسم « مذبحة صلاة المساء » لأنها بدأت فى ساعة تلك الصلاة . ولم ينج من القتل رجال الدين فى الجزيرة ؛ فقد هاجم الصقليون المعروفون بالتقى والصلاح الكنائس والأديرة وذبحوا الرهبان والقساوسة دون أن يعبأوا بكرامة رجال الدين . وأقسم شارل دوق أنجو أن ينتقم من الجزيرة انتقاما لا تنمحى آثاره مدى ألف عام ، وتوعدها بأن يتركها « صخرة صماء جرداء خالية من السكان »(٥٢) . وحرم البابا مارتن Martin الرابع العصاة من حظيرة الدين وأعلن حربا صليبية على صقلية . ولما عجز الصقليون عن حماية أنفسهم عرضوا الجزيرة على بدرو الثالث صاحب أرغونة . وجاء بدرو إلى الجزيرة بجيش وأسطول وثبت أسرة أرغونة ملوكا على صقلية (١٢٨٢) . وبذل شارل كل ما فى وسعه ليسترد الجزيرة ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، فقد دمر أسطوله ، ومات وهو منهوك القوى مغموماً حزيناً

فى فجيا (١٢٨٥) . واكتفى خلفاؤه بعد سبعة عشر عاما من الكفاح غير المجدى بمملكة نابلى .

أما المدن الإيطالية القائمة فى شمال رومة فقد أخذت تثير الخصام بين الإمبراطورية والبابوية ، واستطاعت بذلك أن تحتفظ بنوع من الحرية الطائشة الجموحة . وظلت أسرة دلا تورى Della Torre تحكم ميلان عشرين عاماً حكما ارتضاه سائر أهلها ، ثم استولت على زمام الأمور عصبة من النبلاء بزعامة أتوفسكنتى Otto Visconti عام ١٢٧٧ ، وأنشأ آل فسكنتى الملقبين بالكبتانى (الرؤساء) أو الدوتشى duci حكومة أبلحركية حازمة قديرة حكمت المدينة مائة وسبعين عاماً . وكانت الكونتة ماتلدا قد أوصت للبابوية بإقليم تسكانيا بما فيه مدائن أرزو Arezzo ، وفلورنس ، وسينا Siena ، وپيزا ، ولوكا (١١٠٧) ؛ ولكن هذه السيادة البابوية الصورية قلما كانت تنقص من حق مدائن الإقليم فى أن تحكم نفسها أو تولى عليها من تختارهم من الطغاة .

وكان لسينا كما كان لكثير غيرها من المدن التسكانية ماض تعتز به ، يرجع إلى أيام التسكانيين الأقدمين . وكانت غارات البرابرة قد خربت تلك المقاطعة ، ولكنها انتعشت فى القرن الثامن لأنها أضحت محطة وسطى فى طريق الحج والتجارة بين فلورنس وروما . ونحن نسمع عن وجود نقابات طائفية للتجار بتلك المدينة فى عام ١١٩٢ ثم بمثلها للصناع ثم لأصحاب المصارف ، حتى أصبح بيت بونسنيورى Buonsignori الذى أنشئ فيها عام ١٢٠٩ من أشهر المؤسسات التجارية والمالية فى أوربا كلها ، وكان له وكلاء فى جميع أنحائها ، وبلغت القروض التى أمد بها التجار ، والمدن ، والملوك ، والبابوات مبلغاً لا يكاد يصدقه العقل . وكانت فلورنس وسينا تتنازعان السيطرة على طريق فرنسيسا Via Francesa الذى يصل كلتيهما بالأخرى ، وظلت المدينتان التجاريتان تحارب كلتاهما الأخرى حروبا منقطعة منهكة من عام ١٢٠٧ إلى عام ١٢٧٠ ؛ وانضمت سينا إلى الأباطرة فى الكفاح

القائم بين البابوية والإمبراطورية لأن فلورنس انحازت إلى جانب البابوية ، وكان انتصار مانفرد عند منتابرتو Montaperto (١٢٦٠) فى واقع الأمر نصراً لسينا على فلورنس . ومع أن أهل سينا كانوا يقاتلون البابا ، فإنهم كانوا يعزون ما نالوه من نصر فى تلك الواقعة إلى قديستهم الشفيعة العذراء أم الإله . ووهبوا مدينتهم لمريم إقطاعية لها ، وطبعوا على نقدهم تلك العبارة الدالة على الزهو والخيلاء وهى دولة العذراء ، وضعوا مفاتيح المدينة تحت قدمى العذراء فى الكنيسة الكبرى التى سموها باسمها . وكانوا فى كل عام يحتفلون بذكرى انتقالها إلى السماء ويقيمون لذلك احتفالا رهيباً مثيراً . فقد كان جميع المواطنين من سن الثامنة عشرة إلى سن السبعين يسيرون إلى الكنيسة (duomo) فى ليلة العيد وبيد كل منهم شمعة مضاءة فى موكب فخم وراء قساوستهم وكبار موظفيهم ، فإذا أتوا الكنيسة جددوا يمين الولاء والطاعة إلى العذراء . وكان موكب آخر يسير فى يوم العيد نفسه ويتألف من ممثلين للمدن والقرى والأديرة المفتوحة أو التابعة لسينا ، وكان هؤلاء المندوبون يسيرون أيضاً إلى الكنيسة يحملون الهدايا ، ويجددون يمين الطاعة والخضوع لحكومة مدينة سينا وللملكتها . وكانت سوق عامة تقام فى ميدان المدينة فى هذا اليوم ، ويستطيع الأهلون أن يشتروا فيها بضائع آتية من مائة مدينة ، ويقوم فيها البهلوان والمغنى والموسيقى بأدوارهم ، ولم يكن يزيد عن عدد الذين يؤمون وكر الميسر فى المدينة إلا من يؤمون ضريح مريم نفسها .

وكانت الأعوام المائة التى بين ١٢٦٠ ، ١٣٦٠ هى التى بلغت فيها ذروة عظمتها ، ففى هذه السنين المائة شادت كنيستها (١٢٤٥ — ١٣٣٩) ، وأنشأت قصرها العام الذائع الصيت (١٣١٠ — ١٣٢٠) ؛ وبرج الأجراس الجميل (١٣٢٥— ١٣٤٤) . ونحت نقولو بيزانو Nccolo Pisano فسقية فخمة للكنيسة فى عام ١٢٦٦ ؛ ولم يحل عام ١٣١١ حتى كان دوتشيو دى بيوننسنيا Duccio di Buoninsegna قد شرع يزين كنائس المدينة بعدد من أقدم روائع صور النهضة

الزيتية . بيد أن هذه المدينة الفخورة كانت تقوم بأعمال لا تحتملها مواردها ، وكان نصر منتابرتو ضربة قاضية على سينا ، فقد أصدر البابا المهزوم قرار الحرمان على المدينة ، وحرم دخول البضائع فيها أو أداء الديون لها ، وأفلس عدد كبير من مصارفها ، حتى إذا كان عام ١٢٧٠ ضم شارل دوق أنجو المدينة المعذبة إلى عصبة الحلف (أو العصبة البابوية) . وظلت سينا من ذلك الحين تسيطر عليها وتفوقها منافستها القوية الفاتحة في الشمال والتي لا تشعر نحوها بشيء من الرحمة .

الفصل السابع

نهضة فلورنس : ١٠٩٥ - ١٣٠٨

سميت فلورنس بهذا الاسم لكثرة أزهارها ، وقد نشأت قبل المسيح بمائتى عام لتكون محطة تجارية على نهر الآرنو حيث يلتقى برافده المنيون Magnon ، وخربتها غارات البرابرة ، ولكنها استفاقت فى القرن الثامن وصارت ملتقى الطرق على ڤيا فرنسيسا Via Francesa بين فرنسا وروما . وكانت سهولة اتصالها بالبحر المتوسط عاملا فى تشجيع تجارتها البحرية . وأنشأت فلورنس أسطولا تجارياً كبيراً يحمل إليها الأصباغ والحرير من آسية ، والصوف من إنجلترا وأسپانيا ، ويحمل منها المنسوجات إلى نصف بلاد العالم . واحتفظت فلورنس ببعض الأسرار الصناعية التى أمكنت صباغيها من أن يلونوا الأقمشة الحريرية والصوفية بظلال من الألوان الجميلة ، لا تعلو عليها ألوان أخرى حتى فى بلاد الشرق التى برعت فى هذه الصناعة من زمن بعيد . وكانت نقابتا الصوف الشهيرتان - وهما **نقابة الصوف ونقابة الحارة الخبيثة**(*) . تستوردان حاجتهما من الصوف وتجنيان مكاسب طائلة من نسجه وتحويله بضائع جاهزة . وكان الجزء الأكبر من العمل يجرى فى مصانع صغيرة بعضها فى بيوت المدن أو الريف . وكان التجار هم الذين يوردون إليها المواد الغفل ، ويجمعون البضائع التى تباع فى الأسواق ، ويدفعون أثمانها قطعة قطعة . وكانت المنافسة القائمة بين الصناع الذين يعملون فى منازلهم - وخاصة السيدات العاملات - سبباً فى بقاء مستوى الأجور منخفضاً فى هذه

(*) وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مركز المعروضات فيها المسمى بهذا الاسم والذى كان من قبل مكاناً مخصصاً للعاهرات .

المصانع ، ولم يكن يسمح للنساجين بأن يقوموا بعمل إجماعى لرفع أجورهم أو تحسين أحوال أعمالهم ، وكانت الهجرة محرمة عليهم . وأراد أصحاب هذه المصانع أن يزيدوا من تأديب الصناع وإرغامهم على حفظ النظام ، فأقنعوا الأساقفة بأن يصدروا رسائل دينية تتلى من فوق المنابر أربع مرات فى العام وتنذر العامل الذى يعتاد إتلاف الصوف بغضب الكنيسة وبالحرمان نفسه(٥٣) .

وكانت هذه الصناعة والتجارة تحتاجان إلى رءوس الأموال لتستثمر فيهما ، وسرعان ما أدى هذا إلى قيام التنافس بين التجار وأصحاب المصارف للسيطرة على الحياة فى فلورنس . واستطاع أصحاب المصارف أن يمتلكوا ضياعا واسعة باستيلائهم على الأراضى المرهونة التى يعجز أصحابها عن فك رهونها ، كما أصبحوا ممن لا غنى عنهم للبابوات لسيطرتهم المالية على أملاك الكنائس المرهونة لهم ، وكادوا فى القرن الثالث عشر يحتكرون شئون البابوات المالية ؛ إيطاليا(٥٤) . ولهذا فإن تحالف فلورنس مع البابوات بصفة عامة فى نزاعهم مع الأباطرة كان الباعث عليه هذه العلاقة المالية من جهة وخشية الفلورنسيين من اعتداء الأباطرة والأشراف على حرية البلد والتجار من جهة أخرى . ومن أجل هذا كان رجال المصارف أكبر المؤيدين لحزب البابا فى فلورنس ، فهم الذين قدموا المال اللازم لحملة شارل دوق أنجو على إيطاليا إذ أقرضوا البابا إربان الرابع ١٤٨٫٠٠٠ جنيه فرنسى (أى ٢٩٫٦٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . ولما استولى شارل على نابلى سمح لأصحاب المصارف الفلورنسيين أن يسكوا النقود ويجبوا الضرائب فى المملكة الجديدة ، وأن يحتكروا تجارة الأسلحة ، والحرير ، والشمع ، والزيت ، والحبوب ، وتوريد الأسلحة والمؤن للجنود ، كل ذلك ليضمنوا تحصيل قرضهم السالف الذكر(٥٥) . وإذا جاز لنا أن نصدق دانتى ، فإن هؤلاء الماليين الفلورنسيين لم يكن لهم ما لأمثالهم فى هذه الأيام من ظرف وكياسة ، بل كانوا قناصة للمال ، غلاظا شرهين ، يجنون الأرباح الطائلة بالاستيلاء على الأراضى التى يغلق رهنها ، ويتقاضون فوائد باهظة

عن القروض دون أن يكون لهم وازع من دين أو ضمير — وما أشبههم بفلكو بوتنارى Folco Potinari متبنى بيتريس Beatrice فى ملهاة دانتى[٥٦] .
وكانوا يقومون بأعمالهم فى إقليم واسع الرقعة ، فنحن نجد مصرفين فلورنسيين — مصرف برونلسشى Brunelleschi ومصرف ميديشى Medici يسيطران على الأعمال المالية فى نيمر Nimes ، وأمديت فرانزيسى Franzesi الفلورنسى فليب الرابع بما يحتاجه من المال لحروبه ودسائسه ، وظل الماليون الإيطاليون من بداية حكمه يسيطرون على الشئون المالية الفرنسية حتى القرن السابع عشر . كذلك استدان إدورد الأول ملك إنجلترا ٢٠٠,٠٠٠ فلورين ذهبى (٢,١٦٠,٠٠٠ ريال أمريكى) من بيت فرسكوبلدى Frescobaldi الفلورنسى عام ١٢٩٥ . وكانت هذه القروض معرضة للخطر ، كما كانت تخضع الحياة الاقتصادية فى فلورنس إلى الحوادث النائية التى ليست لها فى ظاهر الأمر أية صلة بها . وعقدت عدة صفقات استثمار سياسية ، وعجزت بعض الحكومات عن الوفاء بالتزاماتها المالية ، ثم سقط بنيفاس الثامن وانتقل مقر البابوية إلى أفنيون (١٣٠٧) فأدى هذا إلى إفلاس عدد من المصارف فى إيطاليا وإلى حلول كساد عام وحرب عوان بين الطبقات .

وكانت ثلاث طبقات تقتسم الحياة المدنية غير الدينية فى فلورنس : « الشعب الصغير popolo minuto — ويشمل أصحاب الحوانيت ، والشعب السمين popolo grasso ويشمل أصحاب الأعمال ورجال الصناعة والتجارة ، والعظماء grandi أى النبلاء . وكان الصناع يؤلفون النقابات الصغرى ويستغلهم فى الأعمال السياسية أصحاب الأعمال والتجار ورجال المال الذين يملأون النقابات الطائفية الكبرى . وكان « الشعب الصغير » و « الشعب السمين » يأتلفان وقتاً ما للوقوف فى وجه الأعيان فى التنافس القائم للسيطرة على الحكومة . وكان هؤلاء الأعيان يطالبون لأنفسهم بمكوس إقطاعية من المدينـــة ، وقد أيدوا فى أول الأمر الأباطرة ثم أيدوا البابوات ضد حركات المدينة . ونظمت هاتان الطبقتان

المؤتلفتان جيشاً إقليمياً كان على جميع الصحيحى الأجسام من أهل المدينة أن ينضموا إليه وأن يتعلموا فيه فنون الحرب . فلما تهيأت أسباب القوة بهذا الاستعداد استولوا على قصور الأشراف الحصينة القائمة فى الريف ، ودمروها وأرغموا أصحابها على السكنى داخل أسوار المدينة والخضوع للقوانين البلدية . وكان النبلاء لا يزالون أغنياء بما يحصلون عليه من ريع أملاكهم فى الريف ، فشادوا لهم قصوراً حصينة فى المدن ، وانقسموا أحزاباً ، وأخذوا يتقاتلون فى الشوارع ، ويتنافسون ليروا أى حزب يسبق الآخر لقلب الدمقراطية الضيقة المدى القائمة فى فلورنس وإحلال دستور أرستقراطى محلها . وتزعم حزب الأوبرتى Uberti ثورة قام بها الغبليون ليقيموا فى فلورنس حكومة موالية لفردريك ، واستبسلت الطبقتان المؤتلفتان فى المقاومة ، ولكن كتيبة من الفرسان الألمان أوقعت بهما هزيمة ساحقة ، وسقطت الدمقراطية الفلورنسية ، وفر زعماء الحلف من المدينة ، وهدمت بيوتهم انتقاماً لما قاموا به من تدمير قصور رجال الإقطاع منذ مائة عام ؛ وجرى الأهلون من ذلك الوقت عقب كل انتصار فى حروب الطبقات والأحزاب على أن يحتفلوا بالنصر بنفى زعماء الطبقة المغلوبة ومصادرة أملاكهم أو تخريبها(٥٧) . وظل أشراف الغبليين ثلاث سنين يحكمون المدينة تؤيدهم حامية من جنود الألمان ، فلما مات فردريك قامت ثورة جلفية من الطبقتين الوسطى والدنيا واستولى الثوار على زمام الحكم (١٢٥٠) وعينوا زعيما للشعب ليراقب أعمال البودستا كما كان التربيونون فى رومة القديمة يراقبون أعمال القناصل . واستدعى زعماء الحلف المنفيون ، وأيدت الطبقات الوسطى المنتصرة ما نالته من نصر داخلى بحروب شنتها على بيزا وسينا للسيطرة على طريق تجارة فلورنس إلى البحر وإلى رومة ، وأصبح أغنى أغنياء التجار نبلاء جدداً ، وعملوا على احتكار وظائف الدولة لأنفسهم .

ولما هزم مانفرد وسينا مدينة فلورنس فى منتابرتو أعقب ذلك فرار زعماء

الحلف مرة أخرى ،وظلت فلورنس بعد فرارهم ست سنين يحكمها مندوبون عن مانفرد . فلما خسرت الإمبراطورية قضيتها فى عام ١٢٦٨ عادت السلطة مرة أخرى إلى أيدى الحلف الخاضعين خضوعا اسميا لشارل دوق أنجو . وأرادوا أن يقيدوا سلطان البودستا المعين من قبل شارل فأقاموا إلى جانبه هيئة مؤلفة من اثنى عشر من الأنزيانى anziani (أى « الأقدمين » أو الكبراء) ليسدوا النصح إلى ذلك الموظف ، ومجلساً مكونا من مائة عضو « لا ينفذ عمل من الأعمال العامة ولا ينفق أى اعتماد مالى إلا إذا وافق عليه أولا »(٥٨) . واغتنمت الطبقات الوسطى الرأسمالية فرصة انشغال شارل « بالمذبحة المسائية » فقاموا فى عام ١٢٨٢ بانقلاب دستورى أصبحت بمقتضاه هيئة مؤلفة من الرؤساء ومختارة من النقابات الطائفية الكبرى هى المسيطرة بالفعل على حكومة المدينة . وظل منصب البورستا باقيا فى خلال هذه التقلبات ، ولكنه كان مجردا من السلطان ، لأن السلطة العليا انتقلت إلى أيدى التجار وأصحاب المصارف .

وأعاد حزب الأشراف القدامى المغلوب تنظيم نفسه برياسة كرسو دونارى الرجل الوسيم المتغطرس ، وأطلق عليهم لسبب غير معروف اسم « النرى Neri » أى السود ، وسمى النبلاء الجدد أصحاب المصارف والتجار الذين تزعمتهم أسرة شرشى Cherchi باسم البيض Blanchi . ويئس النبلاء القدامى من معونة الإمبراطورية المحطمة فولوا وجههم شطر البابا يستعينونه على الطبقة الوسطى الرأسمالية . ودبر دوناتى Donati ، بوساطة آل سپنى Spini وكلائه فى فلورنس ، تدبيره مع بنيفاس الثامن للاستيلاء على فلورنس ؛ وكانت الأحزاب التسكانية قد امتد نفوذها إلى الولايات البابوية فلم تترك لبنيفاس أملا فى إعادة النظام إليها إلا إذا كان له صوت مسموع فى حكومات تسكانيا البلدية(٥٩) . وعرف أحد رجال القانون الفلورنسيين خبر هذه المفاوضات فاتهم ثلاثة وكلاء من أسرة سپنى فى رومة بخيانة فلورنس ، وأدانت الهيئة الحاكمة المؤلفة من مندوبى النقابات

الطائفية الكبرى ثلاثتهم (إبريل ١٣٠٠) فهدد البابا من اتهموهم بالحرمان ؛ وهاجمت جماعة من النبلاء المسلحين من حزب دوناتى عدداً من كبار رجال النقابات ، فقررت هيئة المندوبين السالفي الذكر ، وكان دانتى وقتئذ من أعضائها ، نفى عدد من النبلاء متحدية بذلك البابا (يونية ١٣٠٠) : واستنجد بنيفياس بشارل دوق ڤالوا Valois وطلب إليه أن يدخل إيطاليا ، ويخضع فلورنس ، ويسترد صقلية من أرغونة .

ووصل شارل فلورنس فى نوفمبر من عام ١٣١٠ ، وأعلن أنه لم يأت إليها إلا لإعادة النظام والسلم فى ربوعها ، ولكن كرسو دوناتى دخل المدينة بعد قليل من ذلك الوقت على رأس جماعة مسلحة ، ونهب بيوت المندوبين الذين نفوه ، وفتح أبواب السجون ، ولم يطلق أصدقاءه وحدهم ، بل أطلق كل من أراد الخروج منها . وساد الهرج والمرج المدينة ، واشترك النبلاء والمجرمون فى السرقة ، وخطف الآدميين ، وقتلهم ؛ ونهبت مخازن التجارة ، وأرغمت الوارثات على الزواج من خطاب مفاجئين ، واضطر الآباء إلى إمضاء وثائق ببائنات كبيرة . وأخرج كرسو آخر الأمر هيئة مندوبى النقابات والپودستا من وظائفهم ، واختار السود مندوبين جدداً يعرضون جميع اقتراحاتهم على زعماء السود ، وظل كرسو سبع سنين حاكما بأمره لا معقب لحكمه فى فلورنس . وحوكم المندوبون المعزولون وأدينوا ، وحكم عليهم بالنفى ومنهم دانتى نفسه (١٣٠٢) ، وحكم على ٣٥٩ من البيض بالإعدام ، ولكن أجيز لمعظمهم النجاة من الموت بالنفى من البلاد .. وقبل شارل ڤالوا هذه الحوادث راضيا ، وقبل معها ٤٤٫٠٠٠ فلورين (٤٫٨٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) مكافأة له على ما عانى من مشقة ، وغادر فلورنس إلى الجنوب . وفى عام ١٣٠٤ أحرق السود الذين أفلت زمامهم بيوت أعدائهم ، فدمر فى هذه الحرائق ١٤٠٠ بيت ، وأصبح وسط فلورنس رماداً وخرائب . ثم تفرق السود

أحزاباً جدداً ، وحدثت أعمال من العنف لاحصر لها طعن فيها دوناتى طعنة أردته قتيلا (١٣٠٥) .

* * *

وبعد فإن علينا أن نذكر مرة أخرى آن المؤرخ كالصحفى ينزع على الدوام إلى أن يضحى بما هو طبيعى وعادى فى سبيل ما هو مسرحى مثير ؛ وأنه لا يرسم أبدا صورة وافية لأى عصر من العصور . لكن من واجبنا أن نسجل فى ختام هذا الفصل أن إيطاليا كانت تستند فى أثناء هذا النزاع بين البابوات والأباطرة ، وبين الجلف والغبليين ، وبين السود والبيض ، إلى الفلاحين الكادحين ، ولربما كانت حقول إيطاليا فى ذلك الوقت كما هى الآن ميداناً للعمل الزراعى الفنى والجدى ، وأنها كانت مقسمة ومنظمة تسر العين وتطعم الفم . فقد كانت التلال والصخور والجبال تحفر وتدرج لتزرع فيها الكروم ، وأشجار الفاكهة ، وبساتين الجوز واللوز ، وأشجار الزيتون ؛ وكانت الحدائق تسور لمنع عوامل التعرية من اكتساح تربتها والاحتفاظ بالمطر الثمين . وكان فى الحواضر عدد لا يحصى من الصناعات يستوعب الكثرة الغالبة من الرجال ، ولايترك إلا القليل من الوقت يصرف فى الخطب والانتخابات ، والمدى ، والسيوف . كذلك لم يكن التجار وأصحاب المصارف كلهم رجالا شرهين قساة القلوب ، وكانوا هم أيضاً ممن جعلوا المدينة تعج بالأعمال وتنمو وتتسع رقعتها لما يضطرم فيها من حمى الكسب إن لم يكن لشىء سواها ؛ وكان فى وسع النبلاء أمثال كورسو دوناتى ، وجيدو كفلكنتى Guido Covalcanti ، وكان جراندى‌دلا اسكالا Can Grandi della Scala أن يكونوا رجال ثقافة ، وإن عمدوا إلى سيوفهم من حين إلى حين ليحسموا أمراً من الأمور . وكانت النساء ينخطرن بكامل حريتهن فى هذا المجتمع المرح ؛ ولم يكن الحب فيه لفظاً أجوف يردده الشعراء الغزلون أو يتمشدق به الفلاحون الكادحون ، أو خدمات يؤديها فارس لمعبودته الضنينة ؛ بل كان

هياماً سامياً حماسياً ينتهى بالاتصال الكامل بين الرجل والمرأة ، وبالأمومة غير المتعمدة . وكان المدرسون فى أماكن متفرقة من هذا البحر العجاج يجاهدون صابرين ليلقنوا المعارف إلى الشباب المحجم عن معارفهم ،والعاهرات يخففن من شبق الرجال الواسعى الخيال ؛ والشعراء يستعيضون عن آمالهم الخائبة بقرض الشعر ، والفنانون يعيشون على الطوى وهم يسعون وراء الكمال ، والقسيسون ينهمكون فى السياسة ويواسون الفقراء والمنكوبين ، والفلاسفة يجاهدون ليخرجوا من متاهة الأساطير إلى سراب الحقيقة البراق . وكان فى هذا المجتمع دوافع للعمل ، وأسباب لإثارة النفوس ، وللتنافس ، تقوى أذهان الرجال وألسنتهم ، وتستثير ما لديهم من قوى مختزنة لم يكن أحد يتوقع وجودها فيهم ، وتغريهم بتمهيد السبيل للنهضة وتهيئة أسبابها . وهكذا جاء البعث الجديد بعد أن عانت المجتمعات فى أوربا كثيراً من الآلام ، وأريقت فى سبيله أنهار من الدماء .

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة فى الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER XXIII

1. Thompson *Middle Ages*, I, 565'
2. Le Strange, *Palestine under the Moslems*, 202.
3. Coulton, *Panorama*, 327.
4. Lacroix, *Military aud Religious Life*, 108.
5. Ogg. 282-8.
6. William of Malmesbury, 358.
7. *Chanson de Roland*, II. 848f. in French Classics, Paris, n.d.Lib. Hatier.
8. Munro, D. C., in *N. Y. Herald Tribnne*, Apr. 26, 1931.
9. Thompson, *Social and Ecouomic History*, 389.
10. Guizot, *France*, I, 384.
11. Lacroix P. *History of Prostitution*, 904.
12. Guizot, *France*, 338.
13. *Cambridge Medieval History*, IV.
14. Gibbon, VI. 334.
15. *Gesta Francorum*, app.
16 Thompson, *Social and Economic History* , 396.
17. Gibbon, VI, 75.
18. William of Tyre, *Sieg. of Jerussalem*, ch. clxi,
19. In Taylor, *Medieval Mind*, I,551.
20. Alberius Aquens in Milman, IV, 38n.
21. Thompson, *Economic History*, 397.
22. Archer and Kingsford, *Crusades* 171.
23. Milman, IV, 251.
24. William of Tyre, xxi, 7.
25. Archer 176.
26. Muir *Caliphate*, 587.
27. Guizot, *France*, 427 f; *Cambridge Medieval History*, V. 307.
28. Adams, B. *Law of Civilization and Decay*, 94.
29. In Munro and Sellery, 275f.
30. Lane-Poole, *Saladin*, 175.
31. Ibid., 205f.
32. 232.
33. 236.
34. De Vaux, Carra, *Pensears d'Islam* I, 26.
35. Guizot, *France*, 439f ; Gibbon, VI, 119.
36. Lane-Poole. *Saladin*, 307.
37. Ibid., 351f.
38. 357.
39. Ibid.
40. De Vau, I, 27.
41. Lane-Poole, *Saladin*, 367.
42. Giraldus Cambrensis, *Itinerary through Wales*, i, 3.
43. Adms, *Civilization and Decoy*,
44. Gibbon, ed. Bury, VI. 528.
45. Villehardouin, Introd., xvii.
46. Adams. *Civilzation and Decay*, 130.
47. Gibbon, VI. 100.

48. Oman, C. W. C, *Byzantine Empire*, 280-2.
49. Robert of Clari in Villehardouin, Introd., xxiv.
50. Villehardouin, 31.
51. Jackson, Sir T. C., *Byzantine and Romanesque Architecture*, I I, 101.
52. Diehl, *Manuel*, 636.
53. Dalton, *Byzantine Art*, 538.
54. Gibbon VI. 171.
55. Beard Miriam, *History of the Business Man*, 109.
56. Encyclopaedia Britannica, VI. 788; MacLaurin,C., *Mere Mortals*, II, 215f.
57. Kantorowicz, E. *Frederick II* 185f.
58. Villehardouin, 177
59. Ibid., 220.
60. 320.
61. Day, Clive, *History of Commerce*, 88.
62. Hitti 346.
63. Guizot, *Civilization*, I, 534.
64. Lea, *Auricular Confession*, III, 152.
65. *Speculum*, Oct. 1938, 391.
66. In Gibbon., VI. I, 26n.
67. *Speculum*, Oct. 1938, 403.
68. Hitti, 665.
69 Arnold, *Legacy of Islam*, 60.

CHAPTER XXIV

1. Day, *Commerce*, 57 ; Pirenne, *Medieval Cities*, 87.
2. Boissonnade, 173.
3. Thompson, *Economic History*, 577.
4. *Speculum*, Apr. 1940.
5. Boissonnade, 173.
6. Coultron, *Panorama*, 325.
7. Ibid , 322. *History*, VI. 491.
8. Beard, 79.
9. Zimmern, J. W., *The Hansa Towns*, 183.
10. Ibid., 95.
11. Ibid., 152, 200.
12. Thompson, J. W, *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 451.
13. Id. *Economic and Social History, of the Middl Ages*, 581.
14. *Cambridge Medieval History*, VI, 478.
15. Gest, A. P. *Roman Engineering*, 142.
16. Haskins C. H., *Studies in Medieval Culture*, 101.
17. Usher *History of Inventions*, 135,
18. Thompson, *Later Middle Ages*,
20. Rickard, *Man and Metals*, II,
21. Salzman, L.F.,*English Industries of the Middle Ages*, 1.
22, Rickard, II. 595.
23. Ibid., 615.
24. *Cambridge Medieval History*, VI, 500.
25. Renard, G.,*Guilds in the Middle Ages*, 24.
26. Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*, 211.
27. Thompson, J. W., *Later Middle Ages*, 5.
28. Boissonnade. 187.
29. Ibid., 186.
30. Pirenne, H., *Economic History*, 118.
31. *Anglo - Saxon Chronicle*, 198.
32. Schoenchof, J. *History of Money and Prices*, 98.
33. Jusserand, J. J. *English Wayfaring Life, in the middle Ages*. 192.
34. Boissonnade, 221.

35. Coulton, *Panorama*, 285.
36. Id., *Five Centuries of Religion*, V, 282.
37. Pirenne, *Economic History*, 120
38. Coulton, *Panorama*, 343.
39. Boissonnade, 167.
40. Pirenne, 128.
41. Pirenne, *Cities*, 223.
42. Mathew Paris, *Historia maior*, 1235, I p. 2.
43 Ashely, *English Economic History and Theory*, I, 201.
44. Pirenne, *Economic History*, 130.
45. Ibid., 135.
46. Thompson, *Economic History, of the Middle Ages*, 15.
47. Ibid.
48. Id., *Later Middle Ages*, 449; Day, 93.
49. Schoenhof, 63.
50. Ibid., 57; Thompson, *Later Middle Ages*, 432.
51. Adams, *Law of Civilization*, 167.
52. Lacroix, *Manners, Customs, and Dress*. 272.
53. Davis, *Medieval England*, 376.
54. Zimmern, *Hansa*, 165; Thompson. *Later Middle Ages*, 449.
55. Molmenti, *Venice*, Part I, Vol. I. Vol. I, 149; Thompson, C.O., *Legacy of the Middle Ages*, 441.
56. Thompson, *Economic History of Middle Ages*, 449-50.
57. Aristotle, *Politics*, I, 10.
58. Luke vi, 34.
59. In Ashely. *Economic History and Theory*, I, 126.
60. Ibid., 128.
61. Ibid.
62. 158.
63. 149.
64. 411.
65. Coulton, O.O., *Medieval Scene*, 146.
66. Ashley, I, 149, 157.
67. Ibid., II, 405.
68. Pirenne *Economic, History*, 137.
69. Thompson *Economic History of the Middle Ages*, 638.
70. Coulton, *Medieval Village*, 284.
71. Pirenne *Economic History*,
72. Ashely, I, 198.
73 *Cambridge Medieval History*, VI 491.
74 Thomas Apuinas *Summa Theologica*, II IIae, lyxviii, 2.
75. Ashley, I, 196; Coulton, *Panorama*, 336.
76. Boissonnade, 166.
77. Ashely, I, 203.
78. Abbott, G. F., *Israel in Egypt*, 112.
79. Baron, S. *Social and Religious of the Jews* II, 16.
80. Rivoira, G., *Lombardic Architecture*, I, 108.
81. Dopsch, 333.
82. *Cambridge Medieval History*, VI, 484.
83. Thompson *Economic History of the Middle Ages*, 792.
84. Lethaby, W., *Medieval Art*, 145.
85. Richard, E., *History of German Civilization*, 195; Lacrox, *Manners* 271.
86. Saunders, O.E., *History of English. Art in the Middle Ages*, 85.
87. Thompson. *Economic History of the Middle Ages*, 493.
88. Id., *Later Middle Ages*, 196.
89. Day, 47.
90. Coulton, *Medieval Scene*, 92.
91. Walsh, J. J., *Thirteenth the Greatest of Centuries*, 437..
92. Barnes, *Economic History*, 184; Renard, *Guilds*, 37.

93. Ashley, I, 81.
94. Addison J., *Arte and Crafts*, 2.
95. Power Eileen, and Power, R., *Cities and Their Stories*, 74
96. Bebel, 59.
97. Villari, P , *Two First Centuries of Florentine History*, 85.
98. Guibert of Nogent, *Autobiography*, 6-bis, 7-9.
99. Pirenne, H., *History of Europe*, 276.
100. Boissonnade, 207 ; Renard, *Guelds*, 92;Coulton, *Panorama*, 293; Schevill, *Siena*, 68.
101. Barnes. *Economic History*, 162-3.
102. Gay, 51.
103. Headlam. C., *Story of Nuremberg*, 152.
104. Salzman, 335.
105. Pirenne, *Economic History*, 213.
106. Coulton, *Chaucer*, 128 ; *Medieval Village*, 329.
107. Boissonnade 237.
108. Pirenne, *Cities*, 75.
109. Barnce, *Economic History*, 168.
110. Clapham and Power, 337.
111. Ibid.
112. Matthew aris. I, 11, 42, 48, 156, 164, etc.
113. Coulton, *Panorama*, 456.
114. Porte, *Medieval Architecture*, II, 149.
115. Thompson, *Economic History of the Middle Age*, 801.
116. Guizot, *France*, I, 614.
117. Beard , 85,
118. In Zimmern, *Hansa*, 49.
119. Coulton, *Social Life in Britain*, 11 ; Schoehof, 125.
120. Rogers J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 92 ; Jusserand, 99; Schoenhof 119.
121. Rogers, 73; Renard 16.
122. Matthew Paris, 1251 : *Middle Ages*, I, 270.
123. Munro and Sellery, 498.
124 Pirenne.*Economic History*, 203.
125. Ashley, I. 82.
126. Ralph Higben's *Chronicle*, viii, 145, in Coulton, *Social Life*, 356.
127. Beard, 145,

CHAPTER XYV

1. Benjamin of Tudela in Konroff, *Contemporaries*, 265; Diehl.*Manuel*, 390.
2. *Cambridge Medieval History*, IV, 760.
3. Vasiliev, A, A., *History of the Byzantine Empire*, II, 151.
4. Matt. Paris *Chronica, maiora* 88.
   Historia minor, vii, 38-9, in *Cambridge Medieval History*, IV, 493.
5. Vasiliev, II, 237, 241.
6, Finlay, G., *History of Greece* III, 372.
7. Kluchevsky, I, 185 ; Pokrovsky, 78.
8. Ramband, I, 96.
9. Vernadsky, G., *Kievan Russia*, 93-5.
10. Ramband, I, 129; Kluchevsky, I 323.
11. Vasiliev, II, 237.
12. Ramband, I, 154.
13. Affirmed by Karamsin, denied by Soloviev cf. Rambaud. I, 169
14. Ramband I, 172.
15. Morey, *Medieval Art*. 158f.
16. *Cambridge Medieval History*, VI, 468.
17. Lönnrot, E., *Kalevala*, I, vii.
18. Rambaud, I. 144.
19. Lützow, *Bohemia*. 44

20. *Cambridge Medieval History*, V, 348.
21. Richard, *Germna Civilization*, 186; Thompson *Feudal Germany* 161,
22. Richard, 186.
23. Carlyle, R. W *Medieval Political Theory*, V. 88 ; III, 86.
24. Freeman, *Norman Conquest*, II, 181.
25. *Anglo-Saxon Chronicle*, 168.
26. Ibid., 163.
27. Voitaire, *Works* XIII, 274.
28. Hume, D., *History of England*, I, 504.
29. Davis, *Medieval England*, 355 ; IV, 298, 302.
30. Stubbs, *Constitional History*, I, 303; Ereemau, *Norman Conqnset*, IV, 430.
31. Ibid., 714.
32. Vinogradoff, P., *English Society in the Eleventh Centary*, 472, Coulton, *Medieval Village*, 11.
33. Stubs, I, 330.
34. Encyciopaedia Britannica, XI, 432.
35. Cf. *Anglo - Saxon Chronicle*, 206-8.
36. Coulton, *Life* III, 5-7 *Panorama*, 229.
37. Ppllock and Maitland, I, 104 ; Freemau, *Historical Essays*, 2d. Series, 114.
38. Text in Rowbotbam. 62.
39. Coulton, *Panorama*, 231.
40. Hume D., *I*, 478.
41. Holinshed, *Chrouicle*, 18.
42. Ogg., 304-10.
43. Jenks. 85.
44. Poilock and Maitland, I, 138.
45. Encyclopedia, Britannica, VIII, 9a.
46. Draper, *Intellectual Development of Europe*, II, 81.
47. Pollock and Malt'and, I, 465.
48. Coulton, *Panorama*, 379.
49 Home, *Roma London*, 118.
50. *Specnlam* Jan 1937, 20.
51. Coulton, *Panorama*, 297.
52. Joyce *Irland* 246-8 ; Hnme, I, 356. Cardinal Gapıquet *(Monoslic Life in the M. Ages 169)* argnes unconvincingly against the authenticity of this bull.
53. In Colton, *Panorama*, 66.
54. Brown, P.H. *History of Scotland* I, 88.
55 Thierry, A , *Conqaest of England by the Normans*, I. 21.
56. Blok, P. J. *History of . . . the Netherlands*, I, 230.
57. May, Sir T., *Democracy iu Encope*, I, 338-9.
58. Encyclopaedia Britannica, XXI, 912 c.
59. Guizot, *France*, I, 524.
60. Ibid. 312.
61. 522.
62. Belloc, *Paris*, 164.
63. Adams, H. *Mont St. Michel and Chartres*, 177.
64. Joninville, *Chronicle*, 158.
65. Lacroix, *Manners*, 32.
66. In Mnnro and Sellery, 520.
67. Joiniville 308.
68. *Cambridge Modievul History*, VI; 347.
69. Joinville, 139.
70. Taylor, H. O. *Medieval Mind*, I, 365.
71. *Cambridge Medieval History*, VI, 349.
79. Joinville, 149.

قصة الحضارة

دائرة معارف كبرى فى حضارة العالم من أقصى طرفه الشرقى فى اليابان والصين إلى أقصى طرفه الغربى فى أمريكا ومن أقدم الأزمنة إلى وقتنا الحاضر . وهى أهم مؤلفات الكاتب الأمريكى الكبير ول ديورانت الذى خصها بالجزء الأكبر من حياته ، وطاف من أجلها العالم كله أكثر من مرة . وستتألف بعد تمامها من سبعة مجلدات .

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة

محمد بدران

الجزء الخامس من المجلد الرابع

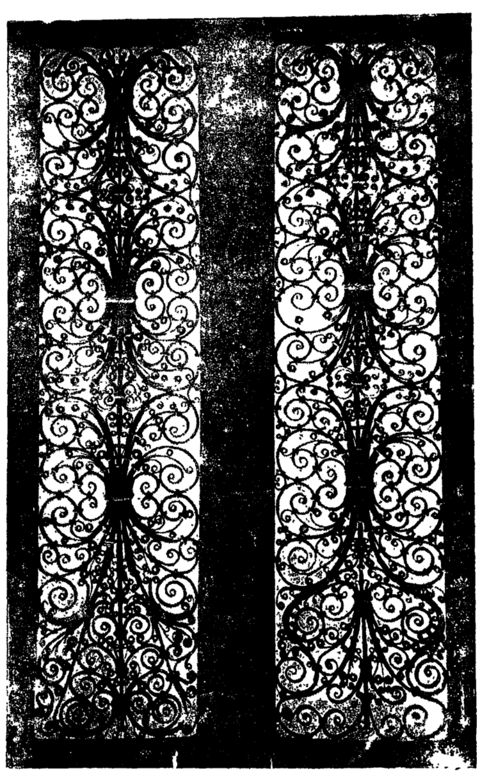




تونس



بيروت



(الصورة رقم ١) الدريئة المشبكة من الحديد المشغول فى دير أورسكامپ

الفهـــرس

الموضــــوع | الصفحة

الباب السابع والعشرون : مذهب الروم الكاثوليك

الباب الثامن والعشرون : محاكم التفتيش فى بداية عهدها

الباب التاسع والعشرون : الرهبان والإخوان

الباب الثلاثون : الأخلاق والآداب فى العالم المسيحى

الموضـــوع الصفحة

الباب الحادى والثلاثون : بعث الفنون

الباب الثانى والثلاثون : ازدهار الفن القوطى

الباب الثالث والثلاثون : موسيقى العصور الوسطى

فهرس الصـــور

الباب السابع والعشرون

مذهب الروم الكاثوليك

١٠٩٥ – ١٢٩٤

الفصل الأول

عقيدة الشعب

يعدّ الدين من كثير من الوجوه أكثر أساليب الإنسان طرافة لأنه آخر ما تفسر به الحياة ، وهو سبيله الوحيدة لاتقاء الموت . وليس فى تاريخ العصور الوسطى كله ما هو أعظم أثراً فى النفس من الدين . فإنك تراه فى كل مكان ، ويكاد يكون أعظم القوى فى تلك العصور . وليس من السهل على من يعيشون الآن منعمين تتوافر لهم جميع حاجاتهم أن يدركوا حق الإدراك ، ما كان فى تلك العصور من فوضى وعوزهما اللذان شكلا عقائد الناس فى خلالها . ولكن من واجبنا أن ننظر إلى ما كان عند المسيحيين واليهود من خرافات ، وأسرار خفية ، ووثنية ، وسذاجة ، وسلامة طوية . نقول إن من واجبنا أن ننظر إلى هـذا كله بنفس العطف الذى يجب أن ننظر به إلى عنائهم ، وفقرهم ، وأحزانهم . وإن فرار الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء من « الدنيا ، واللحم ، والشيطان » إلى أديرة الرجال والنساء ليوحى إلينا بما كان يسود ذلك الوقت من اضطراب ، واختلال أمن ، وعنف أوفت على الغاية أكثر مما يوحى بجبن أولئك الفارين وخور عزيمتهم . ويبدو أن من البداهة أن لاسبيل إلى السيطرة على الدوافع البشرية

الوحشية إلا بقانون أخلاقى تؤيده قوة تعلو على القوى البشرية . وكان أكبر ما يحتاجه العالم وقتئذ هو عقيدة توازن المحن بالآمال ، وتخفف من وقع الحرمان بالسلوى والعزاء ، وتزيل من ملل الكدح بخيال العقيدة ، وتمحو قصر الأجل بعقيدة الخلود ، وتضفى على المسرحية الكونية معنى ملهما يشرفها ويرفع من قدرها ، لولاه لكانت موكبا لا معنى له ولا يمكن احتماله ، موكبا من الأنفس ، والأجناس ، والنجوم ، تهوى واحدة بعد واحدة إلى الفناء الذى ليس منه محيص .

وسعت المسيحية إلى الوفاء بهذه الحاجات بفكرة حماسية رائعة عن الخلق والخطيئة الآدمية ، والأم العذراء ، والإله المعذب ، والنفس الخالدة التى قُدّر عليها أن تواجه يوم الحساب فيقضى عليها بالتردى فى الجحيم إلى أبد الآبدين ، أو أن تنجو وتنال النعيم السرمدى على يد كنيسة توفر لها بأسرارها المقدسة البركة الإلهية التى حلت على العالم بموت منقذه . وكانت حياة الكثرة الغالبة من المسيحيين تجول وتجد معناها فى هذه النظرة الشاملة إلى العالم . وكان أعظم ما أهدته العقيدة الدينية إلى العالم فى العصور الوسطى هو ثقته بأن الحق سيعلو آخر الأمر ، وأن كل نصر ظاهرى للشر سيفنى آخر العهد حين يظفر الخير بالشر فى العالم كله ، وتلك ثقة تعلى من قدر البشرية وتدعم كيانها .

وكانت عقيدة يوم الحساب أساس العقيدة المسيحية واليهودية والإسلامية . وبقى الاعتقاد بعودة المسيح إلى الأرض ، ونهاية العالم لتكون هذه العودة وتلك النهاية تمهيداً ليوم الحساب الأخير ، بقى هذا الاعتقاد بعد حبوط مسعى الرسل ، ومرور العام المتمم للألف بعد المسيح ، ومخاوف أربعين قرناً وآمالها . نعم إن هذا الاعتقاد أضحى أقل وضوحاً وأضيق انتشاراً مما كان قبل ، ولكنه لم ينمح من النفوس ، فقد قال روچر بيكن Roger Bacon فى عام ١٢٧١ : إن « العقلاء من الناس » يرون أن نهاية العالم قد قربت(١) ، وكان كل وباء شامل ، وكل

كارثة مدلهمة ، وكل زلزال مروع ، وكل مذنّب يظهر فى السماء ، وكل حادثة غير عادية ، كان كل شىء من هذا القبيل يعد نذيراً بنهاية العالم ، وحتى إذا ظل العالم باقيا فإن أرواح الموتى وأجسامهم ستبعث من فورها(*) بعد وفاتها لتحاسب على ما قدّمت من خير وشر .

وكانت تجيش فى صدور الناس آمال غامضة بدخول الجنة ، ولكنهم كانوا يخافون النار خوفا واضحاً صريحاً لا غموض فيه ، وكان فى الدين المسيحى فى العصور الوسطى كثير من الرفة والرأفة ، ولكن رجال الدين والوعاظ الكاثوليك ، والبروتستنت الأولين ، كانوا يشعرون بأن من الواجب عليهم أن يزوعوا الناس بأهوال الجحيم(**) . ولم يكن المسيح فى هذا العهد هو « عيسى الوديع الرقيق » ، بل كان هو المنتقم الجبار لكل ما يرتكبه البشر من آثام . وكان فى الكنائس كلها تقريباً رمز من يمثل المسيح فى صورة قاض . وكان فى الكثير منها صور ليوم الحساب ، تمثل ضروب التعذيب التى يلقاها الملعونون تمثيلا أشد وضوحاً من النعيم الذى يتمتع به السعداء المقربون . ويقال إن القديس مثوديوس استطاع أن يقنع بوريس Bôris ملك بلغاريا باعتناق الدين المسيحى بأن رسم له صورة الجحيم على جدار القصر الملكى(٤) . وكان كثيرون من المتصوفة يدعون أنهم رأوا فى أحلامهم صوراً للنار ، وقد وصفوها وصفاً جغرافياً ، وصوروا ما فيها من عذاب(٥) ، ونقل إلينا الراهب تنديل Tundale من رهبان القرن الثانى عشر تفاصيل لها دقيقة : فقال إن فى وسط الجحيم يرى الشيطان مشدوداً إلى مشواة ملتهبة من الحديد بسلاسل حمراء من شدة الحرارة ، لا ينقطع له صراخ من فرط

(*) وكانت النظرية المسيحية القائلة بأن حساب الموتى سيؤجل إلى « يوم الحشر » الذى سيفنى فيه العالم ، كانت هذه النظرية قد استبدلت بها العقيدة القائلة إن كل إنسان سيحاسب بعد موته مباشرة(٢) .

(**) قارن هذا بقول القائد وليم بوث William Booth (١٨٢٩ — ١٩١٢) عن أساليب وعاظ جيش النجاة : « لا شىء يؤثر فى قلوب الناس كما تؤثر فيه الأشياء الرهيبة المروعة . فهم لا يتأثرون إلا إذا تصاعد أمام أعينهم لهيب الجحيم »(٣) .

الألم ، ويداه طليقتان يمدهما ليقبض بهما على العصاة المذنبين ، يحطمهم بأسنانه كما يحطم العنب ، وأنفاسه النارية تجذبهم إلى حلقه الملتهب . ويقذف أعوانه من الشياطين أجسام المذنبين بخطاطيف من الحديد في النار مرة وفي الماء الزمهرير مرة أخرى . أو يعلقونهم من ألسنتهم ، أو ينشرون أجسامهم بالمناشير أو يطرقونها بالمقاطع على سندان ، أو يقلونها في النار ، أو يعصرونها حتى تصفى من قطعة من النسيج . وكان الكبريت يمزج بالنار حتى تزيد رائحته الكريهة من عذاب الآثمين . وليس للنار ضوء ، ولهذا فإن الظلمة المروعة تغشى هــذه الآلام المختلفة التي لا يحصى لها عد[٦] . أما الكنيسة نفسها فلم يصدر عنها رسمياً قول يحدد مكان النار أو يصفها ، ولكنها كانت تعلن سخطها على أمثال أرجن Origen الذين يرتابون في حقيقة نيرانها المادية[٧] . ولو أن أهوال هذه العقيدة قد نالها بعض التخفيف لأخفقت في تحقيق غرضها . ولهذا فإن القديس تومس أكويناس كان يؤمن بأن « النار التي ستعذب فيها أجسام المجرمين نار مادية » وحدد مكان الجحيم « في أسفل الأرض »[٨] .

ولم يكن الشيطان في خيال العامة من أهل العصور الوسطى . وفي خيال رجال من أمثال جريجوري الأكبر ، رمزاً أو كناية أو تشبيهاً . بل كان جسماً حقيقياً حياً من لحم ودم . يغشى كل مكان في العالم . يغوى الناس ضروب من المغريات ويخلق كل أنواع الشر . وكان من المستطاع عادة أن طرد بقضه وقضيضه بقدر من الماء المقدس أو بعلامة الصليب ، ولكنه في هــذه الحال يخلف وراءه رائحة خبيثة هي رائحة الكبريت المحترق . والشيطان شديد الإعجاب بالنساء ، ويتخذ بسماتهن ومفاتنهن أدوات يغوي بها ضحاياه ، وينال رضاءهن في بعض الأحيان — إذا كان لنا أن نصدق النساء أنفسهن . فقد اعترفت امرأة من طلوشة (طولوز Toulouse) أنها كثيراً ما ضاجعت الشيطان ، وأنها وهي في الثالثة والخمسين من عمرها والدت منــه هولة لها رأس ذئب . وذنب أفعى[٩] . والشيطان في رأى

أقوام العصور الوسطى عدد لا يحصى من أعوانه الأبالسة ، يحومون حول كل نفس ، ويعملون دائبين على جرها إلى ارتكاب الإثم . وهؤلاء أيضاً يحبون أن يضاجعوا النساء اللاتى يهملن أنفسهن ، أو ينمن وحدهن ، أو ينقطعن للدين والعبادة[١٠] . وقد وصف الراهب ريكالم Richalm أولئك الأبالسة بأنهم « يملأون العالم كله ، وأن الهواء كله ليس إلا كتلة سميكة منهم يترصدوننا فى كل زمان ومكان . . . ومن أعجب العجائب أن يبقى واحد منا حيا يرزق ، ولولا رحمة الله لما نجا أحد من شرهم »[١١] . وكان الناس كلهم تقريباً بما فيهم الفلاسفة أنفسهم يؤمنون بهذا العدد الجم من الأبالسة والشياطين ، ولكن روح الفكاهة المنجية كانت تخفف من رهبة هذا الإيمان بهم ، وكان كثير من الرجال ذوى العقول المتزنة ينظرون إلى أولئك الأبالسة الصغار على أنهم جماعة من الخبثاء أكثر منهم خلائق مروعين . وكان من العقائد الشائعة أن أولئك الأبالسة يتدخلون تدخلا مسموعاً ، ولكنه غير منظور ، فى أحاديث الناس ، ويخرقون أثوابهم ، ويلقون بالأقذار على عابرى السبل . ويقال إن شيطاناً متعباً جلس مرة على خَسَّة فأكلتها راهبة وهى لا تدرى ما تفعل[١٢] .

وأكثر رهبة من العقيدة السالفة الذكر الاعتقاد بأن « كثيرين يُدعون وقليلين ينتخبون » (الآية ١٤ من الإصحاح ٢٢ من إنجيل متى) . وكان المؤمنون المستمسكون بدينهم يعتقدون أن الكثرة الغالبة من الجنس البشرى ستتردى فى الجحيم[١٣] ، وكان كثيرون من رجال الدين المسيحيين يؤمنون بحرفية القول المعزو إلى المسيح : « من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدن » (مرقس إصحاح ١٦ الآية ١٦) . ووصل القديس أوغسطين على الرغم منه إلى النتيجة القائلة إن من مات من الأطفال قبل التعميد مآله النار[١٤]، وكان القديس أنسلم يظن أن ليس فى عذاب الأطفال غير المعمدين (الآثمين لأن آدم وحواء قد ارتكبوا الإثم) من المخالفة للعقل والمنطق أكثر مما فى فرض الرق على

أبناء الأرقاء — وهو لا يرى أن فى هذا بعداً ما عن المعقول(١٥) . وقد خففت الكنيسة من هول هذه العقيدة بأن علمت الناس أن الأطفال غير المعمدين لايلقون فى الجحيم بل يلقون فى ... Jnfernus puerorum حيث لا يكون عذابهم إلا ما يشعرون به من ألم لأنهم حرموا من الجنة(١٦) . وكانت الكثرة الغالبة من المسيحيين تعتقد أن المسلمين جميعاً كما كانت الكثرة الغالبة من المسلمين ما عدا النبى محمداً تعتقد أن المسيحيين جميعا سيلقون فى النار ، وكان الاعتقاد السائد أن « غير المؤمنين سيعذبون(١٧) . وذهب مجلس لاتران الرابع إلى أبعد من هذا فأعلن (١٢١٥) أن لا نجاة لأحد من النار إذا لم يكن من أتباع الكنيسة الجامعة(١٨) . وقرر البابا جريجورى التاسع أن ما كان يأمله ريمند للى Raymond Lully من أن « الله يحب شعبه حباً يؤدى إلى نجاة الناس جميعاً تقريباً ، لأنه لو كان المعذبون أكثر من الناجين لكانت رحمة المسيح خالية من كثير الحب »(١٩) ، وليس ثمة رجل آخر من رجال الدين البارزين أجاز لنفسه أن يعتقد — أو أن يقول — إن الناجين سيزيدون على المعذبين(٢٠) . وقدر برثلد الرجنزبرجى Bertshold of Regensburg ، وهو من أشهر وعاظ القرن الثالث عشر وأحبهم إلى الناس ، نسبة المعذبين إلى الناجين بمائة ألف إلى واحد(٢١) . ويرى القديس تومس أكويناس أن « فى هذا أيضاً تظهر رحمة الله أكثر مما تظهر فى شىء سواه ، لأنه يرفع القليلين إلى معارج النجاة ، التى يعجز عن إدراكها الكثيرون »(٢٢) . وكان كثيرون من الناس يعتقدون أن البراكين هى أفواه جهنم ، وأن قعقعتها ليست إلا صدى خافتاً لأنين المعذبين(٢٣) ، وكان جريجورى الأكبر يقول إن فوهة بركان إتنا تزيد اتساعا فى كل يوم لتبتلع العدد الذى لا يحصى من الأرواح التى كتب عليها العذاب(٢٤) . وكانت أحشاء الأرض المزدحمة تضم ثناياها الحارة الكثرة الغالبة من جميع من ولدوا من بنى الإنسان ، ولا يستطيع أحد أن يستريح أو يفر من النار إلى أبد الدهر ؛ وفى

ذلك يقول برئلد : أحص رمال شواطىء البحار ، أو الشعر الذى ينبت على أجسام البشر والحيوان من يوم أن خلق آدم ، وقدر سنة من العذاب لكل حبة رمل أو شعرة ، ثم اعلم أن هذه الحقبة من الزمن التى تصل إليها لا تكاد تمثل بداية آلام المعذبين(٢٥) . وكانت اللحظة الأخيرة فى حياة الإنسان هى اللحظة فى الأبدية كلها ، وكان خوف الناس من أن يكون الإنسان فى هذه اللحظة الأخيرة آثماً لم تغفر له ذنوبه ، كان هذا الخوف عبئاً ثقيلا ترزح تحته النفوس البشرية .

وكانت عقيدة المطهر أو الأعراف تخفف من هذه الأهوال تخفيفاً غير قليل . وكانت الصلوات من أجل أرواح الموتى عادة قديمة قدم الكنيسة نفسها ، وفى وسعنا أن نرجع طقوس التكفير عن الذنوب والصلاة على أرواح الموتى إلى عام ٢٥٠ م(٢٦) . وقد تحدث أوغسطين عن وجود موضع يتطهر فيه الموتى من ذنوب غفرت لهم ولكنها لم يكفر عنها تكفيراً كافياً بعد موتهم ، وقبل جريجورى الأول هذه الفكرة . وقال إن ما تعانيه الأرواح فى المطهر من آلام قد يخفف ويقصر مداه بفضل دعاء الأحياء من أصدقائهم وصلواتهم(٢٧) . غير أن هذه النظرية لم تصبح من العقائد الواسعة الانتشار حتى نفخ فيها بطرس دميان Peter Damian حوالى عام ١٠٧٠ من روحه الحماسية وأذاعها ببلاغته . وزاد انتشار هذه الفكرة فى القرن الثانى عشر حين ذاعت قصة تقول إن القديس بترك St. Patrick أراد أن يقنع بعض المتشككين فأجاز حفر حفرة فى أيرلندة نزل إليها بعض الرهبان ، ثم عاد بعضهم . كما تقول القصة . ووصفوا المطر والنار وصفاً واضحة ثبط عزيمة من يريدون أن يحذوا حذوه ، وادعى أوين Owen الفارسى الأيرلندى أنه نزل من هذه الحفرة إلى الجحيم فى عام ١١٥٣ . ووصف ما لاقاه فى العالم السفلى وصفاً لاقى نجاحاً منقطع النظير(٢٨) . فقد

أقبل الناس من بعيد لزيارة هذه الحفرة ، ونشأت من ذلك شرور ومساوئ مالية اضطرت البابا اسكندر السادس أن يأمر فى عام ١٤٩٧ بردمها لأنها من الادعاءات الباطلة[٢٩] .

ترى كم من الناس فى العالم المسيحى أثناء العصـــور الوسطى كانوا يصدقون العقائد المسيحية ، إننا نسمع عن وجود ملحدين كثيرين ، ولكن الكثرة الغالبة من أولئك الملحدين كانت تتمسك بالمبادئ الأساسية للعقائد المسيحية ، وقد حدث بمدينة أورليان Orleans فى عام ١٠١٧ أن « رجلين من أكرم الناس أبا وأوسعهم علماً » أنكرا عقائد خلق العالم ، والتثليث ، والجنة ، والنار ، وقالا إنها كلها مجرد هذيان »[٣٠] . ويقول چون السلزبرى John of Salisbury فى القرن الثانى عشر إنه سمـــع كثيرين من الناس يتحدثون « أحاديث لا يقبلها الدين »[٣١] ، ويقول ڤلانى Villani إنه كان بمدينة فلورنس فى ذلك القرن نفسه جماعة من الأبيقوريين ، يسخرون من الله والقديسين ، ويطلقون العنان لشواتهم الجسمية[٣٢] . ويحدثنا جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis (١١٤٦ ؟ — ١٢٢٠) عن قس ، لا يذكر اسمه ، لامه قس آخر على عدم عنايته بالاحتفال بالقداس . فكان رده أن سأل ناقده هل يؤمن هو حقاً باستحالة مادة القربان إلى لحم المسيح ودمه . وبعقيدة التجسد . وبمولد المسيح من مريم العذراء ، وبالبعث — وزاد على ذلك أن قال هذا كله قد اخترعه القدماء الماكرون ليرهبوا الناس ويسيطروا عليهم(*) . وإن طائفة من المنافقين يحذون الآن حذوهم[٣٣] . وينقل جرلد الويلزى نفسه قول العالم سيمون التورناى Simon of Tournai (حوالى ١٢٠١) فى حسرة وألم : « رباه ياذا الجلال !

(*) يذكرنا هذا بقول أبى العلاء المعرى :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما ... دياناتكم مكر من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأفلحوا ... وبادوا فبادت سنة اللؤماء

وبغير هذين البيتين من أقواله وقد ورد بعضها فى الجزء الثانى من هذا المجلد . (المترجم)

إلى متى تبقى هذه الشيعة المخرفة من المسيحيين ، وتدوم هذه البدعة التى لا أصل لها ؟»(٣٤) . وتقول إحدى القصص المتداولة عن سيمون هذا إنه أثبت فى محاضرة له عقيدة التثليث بالحجج القوية البارعة ، فلما رأى إعجاب مستمعيه به تاه بنفسه عجباً فقال إن فى وسعه أن يثبت عكس هذه العقيدة بحجج أخرى أقوى من حججه الأولى ، فلما نطق بهذا – كما تقول القصة – أصيب من فوره بالشلل والعته(٣٥) . وفى عام ١٢٠٠ كتب بطرس رئيس دير الثالوث المقدس Holy Jrinity فى ألدجيت Aldgate بلندن يقول : « من الناس من لا يعتقدون بوجود الله ، ويقولون إن العالم تسيره الصدفة . . . ومنهم كثيرون لا يؤمنون بالملائكة الأخيار أو الأشرار . ولا بالحياة بعد الموت أو بأى شىء روحى لا تراه العين »(٣٦) . وقد أثار شجن ڤنسنت من أهل بوقيه Vincent of Beauvais (١٢٠٠؟ – ١٢٦٤) أن كثيرين يسخرون من الرؤى ومن القصص (قصص القديسين) » ويقولون « إنها من خرافات العوام أو إنها بدع كاذبة . ويضيف إلى ذلك قوله : « وليس لنا أن نعجب من أن هذه القصص لا تقبلها عقول الذين لا يعتقدون بوجود النار »(٣٧) . ولقد كانت عقيدة الجحيم من العقائد التى لا يستسيغها الكثيرون . وكانت بعض النفوس الساذجة تتساءل : « لم خلق الله الشيطان إذا كان قد سبقت فى علمه خطيئته وسقوطه ؟ »(٣٨) . وقال بعض المتشككين إن الله لا يمكن أن تصل قسوته إلى الحد الذى يجعله يعاقب على الذنب المحدد بالألم الغير المحدود ، ويجيب رجال الدين عن هذا الاعتراض بقولهم إن الذنب الذى يرتكبه الآدمى إجرام فى حق الله . وإنه لهذا يعد إثماً لا نهاية له . ولم يقنع هذا القول ناسجا كان يعيش فى طولوز عام ١٢٤٧ فقال : « لو أننى استطعت أن أقبض على هذا الإله الذى لا ينجى من كل ألف من خلقه إلا واحداً ثم يعذب الباقين . لانتزعت أسنانه وأظافره كما يُفعل بالخونة المارقين . ولبصقت فى وجهه »(٣٩) . ولبعض المتشككين أقوال لا تبلغ من

العنف هذا المبلغ كله ، فيقولون مثلا إن نار الجحيم لا بد أن تُكَكْلِّس الروح والجسم حتى يصبحا عديمى الإحساس بها ويصير « من اعتاد الجحيم مستريحا فيها راحته فى أى مكان سواها »(٤٠) . وتبدو فى نشيد أوكاسين ونيقولت Oueassin et Nieolette (حوالى عام ١٢٣٠) الفكاهة القديمة القائلة بأن الإنسان يلقى فى الجحيم صحابا أظرف ممن يلقاهم فى الجنة(٤١) . ويشكو القسيسون من أن معظم الناس يؤجلون التفكير فى النار إلى آخر لحظة فى حياتهم لوثوقهم من أنهـــم مهما تكن آثامهم فإن « ثلاث كلمات » (ego-te absolvo) « تكفى لنجاتى »(٤٢) .

ويبدو أنه كان فى القرى وقتئذ كما فيها الآن من لا يؤمنون بالله . ولكن الكافرين القرويين لا يتركون وراءهم ذكريات تحدث عنهم ، يضاف إلى هذا أن معظم ما وصل إلينا من أدب العصور الوسطى قد كتبه رجال الدين أو أن رجال الدين قد أخفوا الجزء الأكبر منه ولم يبرزوا لنـــا إلا ما وقع عليه اختيارهم . وسنجد فيما بعد « علماء جوالين » يقولون شعراً يبدو فيه عدم الاحتشام ، ولصوصاً غلاظاً ينطقون بأشد الأقوال تجديفاً ، وأناساً ينامون ويغطون(٤٣) ، بل ويرقصون(٤٤) ويفجرون(٤٥) فى الكنائس ، كما نجد من يرتكبون « العهر ، والنهم ، والقتل ، والسرقة فى يوم الأحد » (كما يقول أحد الرهبان) « أكثر ممن يرتكبون هذه الذنوب فى جميع أيام الأسبوع الذى قبله »(٤٦) . وفى وسعنا أن نذكر فى هذه الصفحة ما لا يحصى من الأمثلة نجمعها من مائة بلد وبلد ، ومن ألف عام وعام . وكلها تدل على ما كان فى العصور الوسطى من نقص فى الإيمان الحق ، وتحذرنا من التغالى فى الاعتقاد بتقوى الناس فى تلك العصور ؛ ولكن العصور الوسطى لا تزال مع هذا تغمر الباحث فى جو من العبادات والعقائد الدينية ؛ فلقد كانت كل دولة أوربية تأخذ المسيحية فى كنفها وتحت حمايتها ، وترغم الناس بقوة القانون على الخضوع للكنيسة ، وكان كل ملك ، إلا القليل النادر منهم ، يثقل

الكنيسة بالهبات ، وكانت كل حادثة تقع فى التاريخ ، إلا ما ندر منها ، تفسر على أساس من الدين ، وكل واقعة فى أسفار العهد القديم تسبق إلى تصوير شيء أسفار العهد الجديد .

ومن أمثلة ذلك ما يقوله الأسقف العظيم من أن داود حين يراقب بتشبع وهو يستحم إنما يرمز إلى المسيح إذيرى كنيسته تطهر نفسها من دنس هذه الدنيا(٤٧). وكان كل شيء عادى طبيعى علامة على شيء خارق للعادة ، كما كان لكل جزء من كنيسة ، فى رأى جيوم ديوراند Guillame Durant (١٢٣٧ — ١٢٩٦) ، أسقف مندى mende ، معنى دينى ؛ فمدخل الكنيسة هو المسيح ، الذى يوصلنا إلى الجنة ؛ وعمدها تمثل المطارنة وعلماء الدين ، الذين يقيمون صرح الكنيسة ، وغرفة المقدسات التى يلبس فيها القس ثيابه هى رحم مريم ، الذى يتجسد فيه المسيح بجسد الآدميين(٤٨). ويقول أصحاب هذه النزعة إن لكل حيوان معنى فى الدين ؛ من ذلك ما جاء فى كتاب فى الحيوان مؤلف فى العصور الوسطى وهو نموذج لغيره من أمثاله : « إذا ولدت لبوءة شبلا ، فهى تلده ميتاً ، وتظل تعنى به ثلاثة أيام حتى يأتى أبوه فى اليوم الثالث وينفخ فى وجهه ، ويبعث فيه الحياة . وبهذه الطريقة عينها أحيا الله جل وعلا ابنه سيدنا عيسى المسيح من بين الموتى(٤٩).

وكان الناس يسرون بسماع مائة ألف من القصص عن الحوادث . والقوى ، ووسائل الشفاء الخارقة ، أو يخلقونها خلقاً من عند أنفسهم ، كقولهم إن صبياً إنجليزياً حاول أن يسرق بعض زغاليل الحمام من عشها ، فالتصقت يده بقوة سماوية بالحجر الذى اتكأ عليه ، ولم تفك إلا بعد أن قضى أهله ثلاثة أيام فى الصلاة والدعاء(٥٠). وقدم طفل طعاما لتمثال المسيح الطفل المنحوت فى مزار صور فيه مولده ؛ فما كان من الطفل المنسـيح إلا أن شكره ودعاه إلى دخول الجنة ؛ ولم تمض على هذا الحادث ثلاثة أيام حتى توفى الطفل الذى قدم الخبز للمسيح(٥١) .

وكلف قس فاسق بإحدى النساء ، فلما عجز عن استمالتها إليه احتفظ بجسم المسيح الطاهر فى فه بعد القربان ، لعله إذا قبلها والجسم فى فه استجابت إلى رغبته بقوة القربان المقدس . . . ولكنه لما أراد أن يخرج من الكنيسة خيل إليه أن جسمه قد تضخم حتى اصطدم رأسه بسقفها » . فدفن الخبز المقدس فى أحد أركان الكنيسة ؛ واعترف بعدئذ بما حدث لقس آخر ، فأخرجا الخبز من الأرض فوجداه قد استحال إلى صورة رجل مصلوب يقطر منه الدم(٥٢). واحتفظت إحدى النساء بالخبز المقدس فى فمها وهى فى طريقها من الكنيسة إلى بيتها ، ثم وضعته فى قفير نحل لتقلل بذلك من عدد ما يموت من نحلها ، فما كان من النحل « إلا أن بنى لضيفه العزيز من أحلى ما يخرجه من الشهد معبداً صغيراً بديع الصنع »(٥٣). وملأ البابا جريجورى الأول مؤلفاته بقصص من هذا القبيل . ولعل الناس ، أو المتعلمين منهم ، كانوا يشكون فى هذه القصص ويرون أنها أقاصيص مسلية طريفة وليست أسوأ من القصص العجيبة التى يطرد بها الملوك ورؤساء الجمهوريات فى الوقت الحاضر السأم عن أنفسهم ويريحون بها عقولهم المجهدة ، ولعل السذج فى العصور الحالية لم يقبلوا أكثر من تبديل نوعها لا مداها ، وإن فى كثير من أقاصيص العصور الوسطى لشواهد على إيمان أهل تلك العصور إيماناً يحدث فى النفس أعمق الأثر ؛ وحسبنا أن نذكر منها أنه لما عاد البابا ليو التاسع المحبوب إلى إيطاليا بعد رحلة الإصلاح التى قام بها فى فرنسا وألمانيا انشق له نهر أنين Aniene كما انشق البحر الأحمر لموسى ليستطيع أن يجتازه(٥٤).

وترجع قوة الدين المسيحى إلى أنه يعرض على الناس الإيمان لا المعرفة ، والفن لا العلم ، والجمال لا الحقيقة ؛ وقد فضله الناس فى صورته هذه ، وكانوا يرون آن ليس فيهم من يستطيع أن يجيب عن أسئلتهم ، ولهذا كانوا يشعرون بأن من الحزم أن يؤمنوا بالأجوبة التى ينطق بها رجال الدين ، ويؤكدوها توكيدا

يزيل مخاوفهم . ولو أن الكنيسة قد اعترفت بأنها تخطئ تارة وتصيب تارة أخرى لفقدوا ثقتهم فيها ، ولعلهم كانوا يرتابون المعرفة ويرون أنها الثمرة المرة للشجرة المحرمة تحريماً ينطق بالحكمة ، أو السراب الذى يضل الناس ويغويهم ليخرجوا من جنة السذاجة والحياة الخالية من الشك . وهكذا استسلم العقل فى العصور الوسطى للإيمان فى أغلب الأوقات والحالات ، وجعل كل اعتماده على الله وعلى الكنيسة ، كما يثق رجل هذه الأيام بالعلم وبالدولة . انظر إلى قول فليب أغسطس لملاحيه أثناء عاصفة ثارت فى منتصف الليل : « إنكم تهلكوا لأن آلافا من الرهبان يقومون من فراشهم فى هذه اللحظة ، ولن يلبثوا أن يصلوا من أجلكم(٥٥) » . وكان الناس يعتقدون أنهم تسيطر عليهم قوة أعظم مما تستطيع المعرفة البشرية أن تهبهم ، وكانوا فى العالم المسيحى . كما كانوا فى العالم الإسلامى ، يسلمون أنفسهم إلى الله ؛ كما كانوا حتى فى دنسهم . وعفتهم ، وفجورهم يبتهلون إليه أن ينجيهم . لقد كان هذا عصراً ثملا بنشوة الإيمان بالله .

الفصل الثانى

الأسرار المقدسة

كانت القوة الثانية من قوى الكنيسة التى تلى تحديد الدين هى عملها فى أداء الأسرار المقدسة — أى الشعائر التى ترمز إلى منح البركة الإلهية . ويقول القديس أوغسطين فى هذا : « لا يستطيع الناس فى دين من الأديان أن يرتبط بعضهم ببعض إلا إذا اجتمعوا فى نوع من الزمالة عن طريق رموز أو شعائر يرونها رأى العين »(٥٦) . ويكاد اللفظ اللاتينى الذى يعبر عن هذه الأسرار المقدسة وهو لفظ Sacramentum ينطبق فى القرن الرابع الميلادى على كل شىء مقدس — على التعميد ، وعلى الصليب ، والصلاة ؛ وأطلقه أوغسطين فى القرن الخامس على الاحتفال بعيد القيامة ؛ ثم قصره إزدور الأشبيلى Isidore of Seville فى القرن السابع على التعميد وتثبيت العماد ، والقربان المقدس . فلما كان الثانى عشر حددت الأسرار المقدسة بسبعة أسرار : التعميد ، وتثبيت العماد ، والكفارة ، والقربان المقدس ، والزواج ، ورتبة الكهنوت ، والمسح بالزيت قبيل الوفاة . أما الشعائر الصغرى التى تمنح البركة الإلهية كالرش بالماء المقدس أو علامة الصليب — فلم تكن من هذه الأسرار وسميت sacramentals أى المتعلقة بتلك الأسرار تمييزاً لها عن الأسرار الأصيلة .

وكان التعميد أهم تلك الأسرار كلها ، وكان يهدف إلى غرضين : محو الخطيئة الأولى ، بحيث يولد الشخص مولداً جديداً يستقبل على أثره فى حظيرة الدين المسيحى . وكان المفروض أن يطلق الأبوان على طفلهما فى هذا الحفل اسم أحد القديسين ، ليكون هذا القديس فى المستقبل شفيع الطفل ، وأنموذجه ، وحاميه ، وهذا هو « اسمه المسيحى » أو الخاص . وقبل أن يحل القرن

التاسع كانت طريقة التعميد المسيحية الأولى — طريقة غمر الطفل كله — قد استبدلت بها تدريجا طريقة الرش لأنها أقل خطراً على الصحة من الطريقة الأولى فى الجواء الباردة الشمالية . وكان فى وسع أى قسيس — أو أى مسيحى عند الضرورة — أن يقوم بعملية التعميد ؛ وكانت الطريقة القديمة ، طريقة تأجيل التعميد حتى يكبر الطفل ، قد استبدلت بها طريقة التعميد فى سن الرضاعة ؛ وقد أنشأت بعض الجماعات وبخاصـــة فى إيطاليا كنائس صغرى خاصة لأداء هذه الشعيرة .

وكانت مراسم تثبيت العماد والقربان المقدس تقام عند أتباع الكنيسة الشرقية بعد التعميد مباشرة . أما عند أتباع الكنيسة الغربية فقد أجلت سن تثبيت العماد شيئاً فشيئاً إلى السنة السابعة من حياة الطفل حتى يستطيع أن يتعلم المبادئ الأساسية للدين المسيحى . ولم يكن يقوم بهذه العملية إلا أحد الأساقفة ، ويصحبها دعاء إلى الروح القدس أن يدخل فى جسم التعميد ، ومسح جبهته بالزيت المقدس ولطمه لطمة خفيفة على خده ؛ وبهذه الطريقة الشبيهة بما كان متبعاً فى مراسم الفروسية يثبت المسيحى الصغير فى دينه ، ويكون له تبعاً لذلك كل ما للمسيحى من حقوق وعليه كل ما على المسيحى من واجبات .

وأهم من هذا مراسم الكفارة . فإذا كانت عقائد الكنيسة تلقّن الناس أنهم آثمون ، فقد كانت تعرض عليهم وسائل تطهير أرواحهم حيناً بعد حين بأن يعترفوا بذنوبهم إلى قسيس ، ويقوموا بمراسم الكفّارات . فقد ورد فى الإنجيل (متّى الآية ١٩ من الأصحاح السادس عشر ، والآية ١٨ من الأصحاح الثامن عشر) أن المسيح غفر الخطايا . وأنه منح الرسل هذه القدرة نفسها قدرة « الربط والحل » . وتقول الكنيسة إن هذه القدرة قد انحدرت بالتوارث من الرسل إلى المطارنة الأولين ، ومن بطرس إلى البابوات ، ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين فى القرن الثامن . واستبدلت

بطريقه الاعتراف العلني التي جرت بها العادة في أيام المسيحية الأولى طريقة الاعتراف السرى الفردى حتى لا تمس كرامة بعض الكبار ؛ ولكن الاعتراف العلني بقى عند بعض الطوائف الخارجة على مبادئ الكنيسة . وكانت الكفارة العلنية تفرض أحياناً عند ارتكاب بعض الجرائم الشنيعة كمذبحة سالونيك أو قتل بكت Becket . وقد قرر مجلس لاتران الرابع (١٢١٥) أن يتكرر الاعتراف والعشاء الربانى كل عام ، وجعلهما من الواجبات الخطيرة ، إذا أهملهما إنسان حرم من جميع خدمات الكنيسة ومن الدفن دفنة مسيحية . وأريد تشجيع من يريدون التوبة وحمايتهم فوضع « خاتم » على كل توبة بمفردها ؛ ومعنى هذا الخاتم أنه لا يجوز لقس أن يفشى ما اعترف له به . ونشرت منذ القرن الثامن قوائم تحدد الكفارة القانونية (التى قررتها الكنيسة) لكل مذنب — الصلوات ، والصيام ، والحج ، وإخراج الصدقات ، أو غيرها من أعمال التقى أو التصدق .

ولهذا « النظام العجيب » ، كما يصف ليبنتز مراسم الكفارة ، كثير من النتائج الطيبة . فهو يريح التائب من آلام وخز الضمير الصامتة المنهكة للأعصاب ؛ وهو يمكن القس من إصلاح أحوال أتباعه الخلقية والجسمية ، وهو يريح بال المذنب بما يبعثه فيه من أمل فى صلاح حاله ، وهو كما يقول ڤلتير المتشكك ، قيد يقلل من ارتكاب الجرائم[٥٨] . ويقول جيته Goethe « لقد كان من الواجب ألا يحرم بنو الإنسان من الاعتراف السمعى »[٥٩] . لكنه لم يخل من بعض النتائج السيئة : فقد كان هذا النظام يستخدم أحياناً لتحقيق أغراض سياسية ، وذلك حين كان القساوسة مثلا يأبون أن يغفروا للذين يناصرون الأباطرة على البابوات[٦٠] . وكان يستخدم أحياناً فى محاكم التفتيش كما حدث حين أمر القـديس شارل برميو St. Charles Borromeo (١٥٣٨ — ١٥٨٣) رئيس أساقفة ميلان قساوسته أن يطلبوا إلى من يأتونهم للتوبة على أيديهم أن يخبروهم بأسماء كل من يعرفونهم من الملحدين أو ممن تحوم حولهم شبهة الإلحاد[٦١]

وأخطأ بعض السذج فظنوا أن الغفران يبيح لهم أن يعودوا إلى ارتكاب الذنوب . ولما ضعف التحمس الديني كانت الكفارات القاسية المفروضة على من يتقدمون للتوبة مما يغريهم بالكذب ، وأجيز للقساوسة أن يفرضوا على التائبين عقوبات مخففة ، كانت في العادة هي التصدق بالمال لغرض ترتضيه الكنيسة . ونشأت من هذا « التخفيف » صكوك الغفران .

ولم يكن صك الغفران رخصة بارتكاب الإثم ، بل كان إعفاء جزئياً أو كلياً من بعض العقاب الذي يستحقه الإنسان جزاء له على آثامه الدنيوية ؛ أو من هذا العقاب كله ، وهذا الإعفاء تمنحه إياه الكنيسة . وكان الغفران الذي يمنح عند الاعتراف يمحو الخطيئة التي لولاه لأدت بكاسبها إلى الجحيم ، ولكنه لم يكن يعفيه من العقاب « الزمني » المترتب على إثمه . وكانت أقلية صغرى من المسيحيين هي التي تكفر عن ذنوبها في هذا العالم تكفيراً تاماً ، أما ما بقي من هذا التكفير فيحدث في المطهر . وكانت الكنيسة تدعى لنفسها حتى التجاوز عن هذا العقاب ؛ وذلك بأن تنقل إلى أي تائب مسيحي يقوم بأعمال معينة من التقى أو التصدق قسماً صغيراً عن كنوز البركة التي تجمعت من تعذيب المسيح وموته ، ومن أعمال القديسين الأبرار الذين تزيد حسناتهم على سيئاتهم . وقد منحت صكوك الغفران منذ القرن التاسع ؛ وأعطى بعضها في القرن الحادي عشر للحجاج الذين يزورون الأضرحة المقدسة ؛ وكان أول صك بالغفران الكلي هو الذي عرضه إربان الثاني في عام ١٠٩٥ على من يشتركون في الحرب الصليبية الأولى . ونشأت من هذه العادات سُنَّة منح صكوك الغفران لمن يتلون أدعية معينة أو يؤدون خدمات دينية خاصة ، أو ينشئون القناطر ، أو الطرق ، أو الكنائس أو المستشفيات ، أو يقطعون الغابات ، أو يجففون المستنقعات ، أو يتبرعون بالمال لحرب صليبية أو لهيئة كهنوتية أو لعيد كنسي ، أو حرب مسيحية . . . واستخدمت هذه السنة في كثير من الأغراض الصالحة ، ولكنها فتحت الأبواب

للمطامع البشرية ؛ فقد بعثت الكنيسة ببعض رجال الدين ، وكانوا فى العادة من الرهبان ، ليجمعوا المال بأن يعرضوا على الراغبين صكوك الغفران نظير هبات يقدمها الطالبون ، أو توبة من الذنوب ، أو صلوات يؤدونها . وقد نشأ من هذه العروض التى يسميها الإنجليز « غافرات pardoners تنافس شديد جلل بالعار كثيراً من المسيحيين ، فكانوا يتظاهرون بتعظيم بعض الآثار الدينية المزورة ليحملوا الناس على التبرع بالمال ، وكانوا يحتفظون لأنفسهم من هذه الأموال بقسط قليل أو كثير . وبذلت الكنيسة عدة محاولات لتقليل هذه المساوئ ، من ذلك أن مجلس لاتران الرابع أمر المطارنة أن ينبهوا المؤمنين إلى ما هنالك من الآثار الدينية الكاذبة والشهادات المزورة ؛ وحرمت رؤساء الأديرة من حق إصدار صكوك الغفران ، وفرضت بعض القيود على حق المطارنة فى إصدارها ، وحثت جميع رجال الدين على أن يراعوا جانب الاعتدال فى تحمسهم لهذه الوسيلة الجديدة . وندد مجلس مينز الدينى فى عام ١٢٦١ بكثير من موزعى هذه الصكوك ، ووصفهم بأنهم كاذبون أشرار ، يعرضون ما يعثرون عليه من عظام الناس أو الحيوان على أنها عظام أولياء صالحين ، مرنوا على البكاء حين يشاءون ، يساومون على التطهير من الذنوب بأكبر ما يستطيعون الحصول عليه من المال وبأقل ما يقدمونه من الأدعية والصلوات[٦٢] . وشهرت بها مجالس كنسية أخرى مثل هذا التشهير كمجلس ڤين Vtenne (١٣١١) ومجلس راڤنا (١٣١٧)[٦٣] ، لكن هذه المساوئ لم تنقطع .

وكان العشاء الربانى أهم الأسرار المقدسة بعد التعميد . ذلك أن الكنيسة تمسكت بحرفية العبارة المعزوة إلى المسيح وقت تناول العشاء الأخير ، والقائلة إن الخبز هو جسمه وإن النبيذ دمه . وأهم ما تقوم عليه شعيرة العشاء الربانى هو تحول رغيف الخبز وكأس النبيذ إلى جسم المسيح ودمه بقدرة القسيس المعجزة ؛ وكان الغرض الأول من القداس هو أن يسمح للمؤمنين بأن يشتركوا فى « جسم »

الأقنوم الثانى من الثالوث الإلهى « دمه ، ورحه ، وألوهيته » ، وذلك بأكل القربان المقدس ، وشرب النبيذ المقدس . وإذا كان شرب هذا النبيذ يعرض دم المسيح للانسكاب على الأرض فقد نشأت فى القرن الثانى عشر عادة الاكتفاء بتناول العشاء الربانى بالخبز وحده ؛ ولما أن طالب بعض المحافظين (الذين أخذ عنهم الهوسيون البوهيميون (Hussites of Bohemia) أراءهم فيما بعد أن يتناولوا القربان بصورتيه ليتأكدوا من أنهم حصلوا على دم المسيح وجسمه ، قال لهم علماء الدين إن دم المسيح « ملازم » لجسمه فى الخبز ، وإن جسمه « ملازم » لدمه فى النبيذ(٦٤) . وانتشرت ألف قصة وقصة عن مقدرة الخبز المقدس على إخراج الشياطين ، ومداواة الأمراض ، وإطفاء النيران ، والكشف عن الكذب باختناق الكاذبين(٦٥) . وكان يطلب إلى كل مسيحى أن يتناول العشاء الربانى مرة فى العام على الأقل ، وكان تناول الشاب المسيحى لأول مرة فرصة لإقامة المهرجانات الفخمة والحفلات السارة .

ونشأت عقيدة حضور المسيح فى أثناء العشاء الربانى نشأة بطيئة . وكانت الصياغة الرسمية الأولى لهذه العقيدة هى التى أذاعها مجلس نيقية فى عام ٧٨٧ . ثم قام راهب بندكتى فرنسى يدعى رترراموس Ratramus فى عام ٨٥٥ وقال إن الخبز والخمر المقدسين لم يكونا جسم المسيح ودمه إلا بطريقة روحية لا جسدية . وقام برنجار Berenegar رئيس شمامسة تور حوالى عام ١٠٥٤ وجهر بارتيابه فى تحول الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه ، فكان جزاؤه الحرمان من الدين ، وكذب لافرانك Lafranc رئيس دير بلك Bec رداً عليه (١٠٦٣) يقرر فيه العقيدة الدينية الصحيحة قال فيه :

إنا لنعتقد أن المادة الأرضية . . . تستحيل بتأثير القوة السماوية التى لا يستطيع أحد وصفها ... أو إدراك كنهها إلى جوهر جسم المسيح ؛ على حين أن مظهره ، وبعض صفاته الأخرى المتصلة بهذه الحقائق نفسها ، تبقى خافية حتى

ينجو الناس من هول رؤية الأشياء النيئة المخضبة بالدماء ، وحتى ينال المؤمنون الجزاء الكامل لإيمانهم . ومع هذا كله فإن جسم المسيح ذاته يبقى في الوقت عينه في السماء ... مصونا كاملا ، لا يمسه أذى أو دنس(٦٦).

وأعلن مجلس لاتران في عام ١٢١٥ أن هذه العقيدة من المبادئ الأساسية في الدين المسيحي ، وأضاف مجلس ترنت Trent إلى هذا القول في عام ١٢٦٠ أن كل جزىء من الخبز المقدس مهما كسر يحتوى جسم عيسى المسيح كلة ، ودمه ، وروحه ؛ وبهذه الطريقة تعظم الحضارة الأوربية والأمريكية اليوم شعيرة من أقدم الشعائر في الأديان البدائية — وهي أكل الإله .

وقد رفعت الكنيسة من شأن عقدة الزواج إلى أكبر حد ، وجعلتها عقدة دائمة ، حين جعلت الزواج من الأسرار المقدسة . وحين يحتفل بضم إنسان إلى رجال الدين يهب المطران القس الجديد بعض القوى الروحية التي ورثها عن الرسل والتي يفترضون أن الله نفسه قد وهبها إياهم عن طريق المسيح . وفي آخر الأسرار المقدسة وهو المسح الأخير ، يستمع القس إلى اعترافات المسيحي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ويمنحه المغفرة التي تنجيه من النار ، ويمسح أعضاءه حتى تتطهر من الخطيئة وتصبح مستعدة للبعث أمام الحكم العدل . ويدفنه الأحياء من أهله دفنة مسيحية بدل أن يحرقوا جسده كما يفعل الوثنيون ، لأن الكنيسة كانت تقول إن الجسم أيضاً يبعث حيا بعد الموت ، وهم يلفونه في كفنه ، ويضعون قطعة من النقود في تابوته كما كان يفعل الأقدمون إذ يعتقدون أنهم يؤجرون كارون Charon لنقله إلى الدار الآخرة(٦٦) ، ثم يحملونه إلى قبره باحتفال مهيب ينفق فيه الكثير من المال . وقد يستأجر النائحون أو النائحات ليبكوه وينوحوا عليه ويرتدى أهله عليه سود الثياب مدة عام ، حتى لا يستطيع أحد أن يعرف لطول مدة الحزن أن قلباً تائباً ، وقسا خادما ، قد ضمنا لهذا الرجل جنة النعيم .

الفصل الثالث

الصـــلاة

الشعائر الدينية فى كل دين عظيم لازمة لزوم العقيدة نفسها ، فهى تعلم الإيمان ، وتغذيه ، وتوجده فى كثير من الأحيان ؛ وهى تربط المؤمن بربه برباط يريحه ويطمئنه ؛ وتفتن الحواس والروح بمظاهرها الروائية وشعرها ، وفنها ؛ وتربط الأفراد برباط الزمالة ، وتخلق منهم جماعة مؤتلفة حين تقنعهم بالاشتراك فى شعائر واحدة ، وترانيم واحدة ، وأدعية وصلوات واحدة ، ثم يفكرون آخر الأمر تفكيراً واحدا .

وأقدم الصلوات المسيحية هما الصلاة التى مطلعها « أبانا الذى فى السموات » والتى مطلعها « نؤمن بإله واحد » ، وقبل أن ينتهى القرن الثانى عشر بدأت الصلاة الرقيقة المحببة التى مطلعها « السلام لك يا مريم » تتخذ صيغتها المعروفة . وكانت هناك غير هذه الصلوات أوراد شعرية من الثناء والتضرع . ومن الصلوات فى العصور الوسطى ما يكاد يكون رقى تمكن من يتلوها من الإتيان بالمعجزات ، ومنها ما هو إلحاح متكرر لا يتفق مع تحريم المسيح « للتكرار العديم النفع »(٦٧) . ونشأت عند الرهبان والراهبات تدريجاً ، وعند غير رجال الدين فيما بعد ، عادة استعمال المسبحة ، وهى عادة شرقية جاءبها الصليبيون(٦٨) . ونشر الرهبان الدمنيك هذه العادة ، كما نشر الفرنسسكان عادة « طريق الصليب » أو « مواضعه » وهى التى تقضى بأن يتلو المتعبد صلوات أمام صورة أو لوحة من لوحات أو صور أربع عشرة تمثل كل منها مرحلة من مراحل آلام المسيح ؛ فكان القساوسة ، والرهبان ، والراهبات ، وبعض العلمانيين ينشدون أو يتلون أدعية الساعات القانونية — وهى أدعية ، وقراءات ، ومزامير ، وترانيم صاغها البندكتيون وغيرهم

وجمعها ألكوين Alcuin وجريجورى السابع فى كتاب موجز . وكانت هذه الأدعية تطرق أبواب السماء من مليون كنيسة وبيت متفرقة فى جميع أنحاء الأرض كل يوم وليلة فى فترات بين كل واحدة والتى تليها ثلاث ساعات . وما من شك فى أن نغماتها الموسيقية كان لها أحسن الوقع على آذان أصحاب البيوت التى تستمع إليها كما يقول أوردركس ڤيتالس : Ordericus Vitalis « ما أحلى أناشيد العبادة الإلهية التى تطمئن بها قلوب المؤمنين . وتدخل عليهم السرور »(٦٩) .

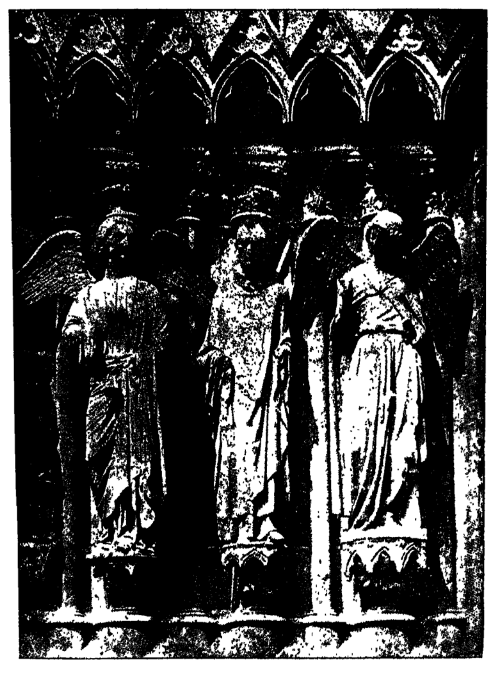
وكثيراً ما كانت الصلوات الرسمية التى تتلى فى الكنائس توجَّه إلى الله الأب ؛ وكان عدد قليل منها يوجَّه إلى الروح القدس ؛ ولكن صلوات الشعب كانت توجه فى الأغلب الأعم إلى عيسى ومريم ، والقديسين . وكان الناس يخافون الله سبحانه وتعالى ، فقد كان لا يزال يتصف فى عقول العامة بكثير من القسوة التى كانت ليهوه ؛ وكيف يجرؤ الشخص المذنب الساذج أن يوجه صلاته إلى ذلك العرش الرهيب البعيد ؟ إن عيسى لأقرب إليه من ذلك العرش ، ولكنه هو أيضاً إله ، ومن أصعب الأشياء أن يجرؤ الإنسان على مخاطبته . وجهاً لوجه بعد أن أنكر نعمه هذا النكران التام . ومن أجل هذا بدا للناس أن من الحكمة أن توجه الأدعية والصلوات إلى أحد القديسين (أو إحدى القديسات) تشهد قوانين الكنيسة بمقامه فى الجنة ، وأن يتوسل إليه بأن يكون وسيلته عند المسيح . وبهذه الطريقة بعثت فى عقول العامة من الماضى الذى لا يبيد أبداً جميع مظاهر الشرك الشِّعرية الخيالية . وملأت العبادات المسيحية بطائفة كبيرة من الأرواح ، ترافق الناس ، وتشد عزائمهم ، وتكون لهم إخوة على الأرض تقربهم إلى السماء . وتخلص الدين من عناصره الأكثر قتاماً ؛ فكان لكل أمة ، ومدينة ، ودير ،وكنيسة، وحرفة، ونفس ، وأزمة من أزمات الحياة ، وليُّها الشفيع النصير ، كما كان لكل منها إلها فى رومة القديمة . كان لإنجلترا القديس

چورج ، ولفرنسا القديس دنيس ؛ وكان القديس بارثولميو حامى الدابغين ، لأن جلده سلخ وهو حى ؛ كان صانعو الشموع يضرعون إلى القديس يوحنا لأنه غمر فى قدر مليئة بالزيت المشتعل ؛ وكان القديس كرستفر St. Christopher نصير الحمالين لأنه حمل المسيح على كتفيه ، وكانت مريم المجدلية تتلقى توسلات بائعى العطور لأنها صبت زيوتاً عطرة على قدمى المسيح المنقذ . وكان لكل من يحدث له حادث طارئ ، أو يصاب بمرض ، صديق فى السموات ؛ فكان القديس سبستيان والقديس رتش Roch ذوى قوة وبأس فى أيام الوباء . وكان القديس أپولينيا St.Appolinia الذى كسر الجلاّد فكه يشفى ألم الأسنان ؛ والقديس بليز St. Blaise يشفى آلام الحلق ، والقديس كورنى St. Corneille يحمى الثيران ، والقديس جول Gall يحمى الدجاج والقديس أنطون يحمى الخنازير ؛ وكان القديس ميدار Médord هو الذى تتضرع إليه فرنسا أكثر من سائر القديسين لينزل إليها المطر ، فإذا لم ينزله ألقى عبّاده الذين ينفد صبرهم تمثالا له فى الماء من حين إلى حين ، ولعل هذا كان بمثابة رقية سحرية(٧٠) .

ووضعت الكنيسة تقويماً كنسيا جعلت كل يوم فيه عيداً لأحد القديسين . ولكن التقويم لم يتسع للخمسة والعشرين ألفاً من القديسين الذين اعترفت بهم قوانين الكنيسة قبل أن يحلّ القرن العاشر الميلادى . وقد بلغ من معرفة الشعب بتقويم القديسين أن التقويم العادى قسم السنة الزراعية أقساما أطلق على كل منها اسم أحد القديسين ؛ ففى فرنسا مثلا كان عيد القديس چورچ يوم البذر ، وفى إنجلترا كان عيد القديس ڤالنتين St. Valentine يحدد آخر فصل الشتاء ؛ فإذا حل ذلك اليوم ، على حد قولهم ، تزاوجت الطيور بحماسة فى الغابات ، ووضع الشباب الأزهار على أعتاب النوافذ فى بيوت البنات اللاتى يحبونهن . ومن القديسين عدد كبير اعترفت بهم الكنيسة لأن العامة داوموا على عبادتهم وإحياء ذكراهم ، أو لأن مكاناً ما قد أصرّ على هذه العبادة على الرغم من

معارضة رجال الدين . وعلقت صور ووضعت تماثيل للقديسين فى الكنائس ، والميادين العامة ، وفى الطرق ، وفوق المبانى ، وتلقت من أنواع العبادة التلقائية ما جلل بالعار بعض الفلاسفة ومحطمى العصور المقدسة . واضطر كلوديوس أسقف تورين إلى الشكوى من أن كثيرين من الناس « يعبدون صور القديسين ؛ . . . فهم لم يقلعوا عن عبادة الأصنام ، بل كل ما فى الأمر أنهم غيروا أسماءها »(٧١) . وبهذه الطريقة ، على الأقل ، أوجدت إرادة الشعب وحاجته شكل العبادة التى يتعبدها .

وما دام القديسون قد كثر عددهم إلى هذا الحد ، فقد كثرت تبعاً لذلك مخلفاتهم — عظامهم ، وشعورهم ، وأثوابهم ، وأى شىء استعملوه فى حياتهم . وكان المفروض أن كل مذبح يشمل واحداً أو أكثر من واحد من هذه المخلفات ؛ فكانت باسلقا القديس بطرس تباهى بأنها تحتوى جسدى القديسين بطرس وبولس اللذين أصبحت رومة بفضلهما كعبة الحجاج من جميع أنحاء أوربا . وكانت كنيسة فى سانت أومر St. Omer تدعى أن فيها قطعاً من الصليب الحقيقى ومن الحربة التى اخترقت جسم المسيح ، ومن مهده ، وقبره ، ومن المن الذى نزل من السماء ، ومن عصا هارون ، ومن المذبح الذى تلا عليه القديس بطرس القداس ، ومن شعر تومس أبكت وقلنسوته ، وقميصه المنسوج من الشعر ، والشعر الذى جز من مقدم رأسه ، ومن الألواح الحجرية الأصلية التى سجلت عليها الوصايا العشرَ إصبعُ الله نفسه(٧٢) ، وتحتوى كنيسة أمين Amiens رأس يوحنا المعمدان فى كأس فضية (٧٣) ، ويحتوى دير القديس دنيس جسم ديونيسيوس الأريوبجى Dionysius the Areopagite وتاجه الشوكى . وتدعى واحدة من ثلاث كنائس متفرقة فى فرنسا أن فيها جسد مريم المجدلية كاملا(٧٤) ؛ كما تؤكد خمس كنائس فى فرنسا أن فى كل منها الأثر الحقيقى الوحيد الباقى من ختان المسيح(٧٥) . وتعرض كنيسة إكستر Exter أجزاء من



(الصورة رقم ٢) القديس نيكيس بين ملكين – من كندرائية ريمس

الشمعة التي استعملها ملاك الله لإضاءة قبر عيسى ، وأجزاء من العشب الذى تحدث منه الله إلى موسى(٧٦) . وفى دير وستمنستر بعض دم المسيح وقطعة من الرخام عليها طابع قدمه(٧٧) . ويعرض أحد آديرة درهام مفصلا من مفاصل القديس لورنس ، والفحم الذى أحرقه ، والصفحة التى قدم عليها رأس يوحنا المعمدان إلى هيرود ، وقميص العذراء ، وقطعة من الصخر عليها علامات نقط من لبنها(٧٨) . وكانت كنائس القسطنطينية قبل عام ١٢٠٤ غنية أكثر من غيرها بالمخلفات المقدسة ، فكان فيها الحربة التى نفذت فى جسم المسيح ، والتى لاتزال حمراء من دمه ، والعصا التى ضُرب بها ، وقطع كثيرة من الصليب الحقيقى مغلفة بالذهب ، وثريد الخبز الذى قدم ليهوذا فى العشاء الأخير ، وشعرات من لحية المسيح ، وذراع يوحنا المعمدان اليمنى . . .(٧٩) . وسرقت كثير من هذه المخلفات حين نهبت القسطنطينية ، ثم اشترى بعضها ، وأخذت تنتقل من كنيسة إلى كنيسة فى بلاد الغرب إلى أيدى من يؤدى فيها أكبر الأثمان . وكانت تعزى إلى جميع المخلفات قوى معجزة ، وتروى مئات الآلاف من القصص عما تحدثه من المعجزات . وكان الرجال والنساء يبذلون كل ما فى وسعهم للحصول على أقل أثر ، أو أقل أثر من أثر ليتخذوه طلسما — كخيط من ثوب قديس ، أو قليل من تراب عُلبة مخلفات ، أو نقطة زيت من مصباح مقدس فى ضريح . وكانت الأديرة تتنافس وتتنازع فى جمع المخلفات وعرضها على العباد الأسخياء ، لأن امتلاك المخلفات الشهيرة كان يدرّ على الدير أو الكنيسة ثروة طائلة .

وحسبنا مثلا لهذا أن نذكر أن « نقل » عظام تومس أبكت إلى ضريح جديد فى كنيسة كنتربرى الكبرى (١٢٢٠) جمع من الذين شاهدوا هذا العمل مايقدر بنحو ٣٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى بنقود هذه الأيام(٨٠) . واجتذب هذا العمل الرابح كثيراً من ممارسيه ، فكانت مخلفات زائفة كثيرة تباع للكنائس والأفراد ، وكانت بعض الأديرة يغريها الكسب بـ « كشف » مخلفات

جديدة حين تحتاج إلى المال . وكان شر هذه المساوئ هو تقطيع الأولياء الأموات ليتيسر لعدد من الأماكن أن يحظى برعاية القديس وقوّته(٨١) .

ومما يذكر بالحمد لبعض رجال الدين من غير رجال الأديرة ، وللكثرة الغالبة من الأديرة نفسها ، أنها لم تكن ترضى ، وأنها كثيرا ما كانت تندد ، بهذه الدكاكيرية (الفيتنشية) المسرفة الواسعة الانتشار . ومن الرهبان الذين يسعون إلى العزلة فى عباداتهم من لم يكونوا يرضون عن المعجزات التى تفعلها مخلفات أديرتهم . من ذلك أن رئيس جرامونت Grammont توسل إلى مخلفات القديس استيفن أن تمتنع عن الإتيان بخوارق العادات ، لأنها تغرى الجموع الصاخبة بالتجمع ؛ ثم هدد القديس بقوله : « وإلا ألقينا عظامك فى النهر »(٨٢) . ولم تكن الكنيسة هى التى تزعمت حركة خلق الأقاصيص الخرافية عن معجزات المخلفات أو مضاعفة عددها ، بل الشعوب هى التى فعلت هذا ، وكثيراً ما كانت الكنيسة تحذر الجماهير من تصديق ما يذاع من تلك الأقاصيص(٨٣) . مثال ذلك أن مرسوما إمبراطورياً لعله صدر بناء على طلب الكنيسة حرَّم على الناس « حمل » مخلفات القديسين « أو بيعها » وأن القديس أوغسطين شكا من المنافقين الذين يلبسون مسوح الرهبان » والذين « يتجرون فى أجسام الشهداء ، إذا كانوا شهداء بحق » ؛ وقد أعاد جستنيان نشر هذا المرسوم(٨٤) . وكتب الأب جيبرت النوچنتى Guibert of Nogent حوالى عام ١١١٩ رسالة **فى مخلفات القديسين** ينادى فيها بوضع حد لجنون المخلفات ، ويقول إن الكثير من هذه الآثار « لأولياء اشتهروا فى سجلات لا قيمة لها » ، وإن بعض « رؤساء الأديرة أغوتهم كثرة ما يحمل إليهم من الهدايا ، فقبلوا اصطناع المعجزات الكاذبة » ، « وثمة نساء عجائز ونساء ساقطات كثيرات يتغنين بالأقاصيص الكاذبة عن القديسين الشفعاء وهنّ يعملن على أنوالهن ... فإذا ما فنـد إنسان أقوالهن هاجمته ... بلقاطاتهن » . ويقول إنه قلما أوتى أحد من رجال الدين

الجرأة أو الشجاعة على الاحتجاج ، ويعترف بأنه هو نفسه قد سكت حين رأى تجار المخلفات يعرضون على المؤمنين المصدقين « بعض ذلك الخبز عينه الذى مضغه السيد المسيح بأسنانه نفسها » ؛ ذلك « أنى لو جادلت المجانين لحق علىّ القول بأنى مجنون »(٨٥) . ويضيف إلى ذلك أن فى عدد من الكنائس رءوساً كاملة ليوحنا المعمدان ، ويعجب مما كان لهذا القديس من رءوس كثيرة لا يمكن أن يقطعها قاطع(٨٦) . وجرم البابا اسكندر الثالث (١١٧٩) على الأديرة أن تطوف بما عندها من المختا . بجمع التبرعات ؛ كما حرّم مجلس لاتران المنعقد فى عام ١٢١٥ عرض المخلفات فى خارج الأضرحة(٨٧) ، وندد مجلس ليون الثانى (١٢٧٤) بـ « الحط من قدر » المخلفات والصور(٨٨) .

ويمكن القول بوجه عام إن ما قامت به الكنيسة لم يكن هو تشجيع الخرافات بل كان أكبر نصيب لها فى هذه الناحية هو أنها ورثتها من خيال الناس أو من تقاليد عالم البحر المتوسط . وكان الإيمان بما لبعض المخلفات ، والطلاسم ، والتمائم . والرقى ، من قدرة على الإتيان بالمعجزات عزيزاً على المسيحيين والمسلمين على السواء ، وقد ورثوا هذه العقائد من الأديان الوثنية القديمة . وبقيت أشكال قديمة من عبادة عضو التذكير زمناً طويلا فى العصور الوسطى . ولكن الكنيسة ألغتها شيئاً فشيئاً(٨٩) . وورثت عبادة الله بوصفه رب الجيوش ، وملك الملوك ، بعض أساليب التقرب إليه وتعظيمه ، ومخاطبته . من الساميين والرومان ؛ وتذكرنا عادة حرق البخور أمام المذبح أو رجال الدين بعادة تقريب القرابين المحروقة . أما عادة الرش بالماء المقدس فكانت صورة قديمة من التعاويذ ؛ وأما المواكب ومراسم التطهير فهى امتداد لشعائر موغلة فى القدم ؛ وملابس القساوسة ، وتلقيب البابا بالحبر الأعظم Pontifex Maximus تراث من رومة الوثنية . ووجدت الكنيسة أن معتنقى المسيحية من أهل الريف لا يزالون يعظمون بعض العيون ، والآبار ، والأشجار ،

والحجارة ؛ فرأت أن من الحكمة أن تخلع البركة على هذه الأشياء ، وأن يستخدمها المسيحيون بدل أن تقضى قضاء مفاجئاً سريعاً على عادات شديدة الارتباط بعواطف الخلق . واتباعاً لهذا دشنت مجموعة من الحجارة فى صورة مائدة فى بلواريه Plouaret على أنها مصلى القديسين السبعة ، وحلت عبادة شجرة البلوط بأن علقت على الأشجار صور القديسين المسيحيين(٩٠) . وعادت الاحتفالات الوثنية العزيزة على الشعوب أو التى لا بد منها لكى تبيح للناس الخروج على قواعد الأخلاق وأضحت أعياداً مسيحية ، واستحالت الطقوس الوثنية النباتية طقوساً كنسية مسيحية وظل الناس كما كانوا من قبل يوقدون النيران فى منتصف الصيف عشية عيد القديس يوحنا(*) ؛ وسمى عيد قيام المسيح (عيد القيامة) بالاسم الوثنى القديم Eostre وهو اسم إلهة الربيع التيوتونية القديمة ، وحل تقويم القديسين المسيحى محل التقويم الرومانى ؛ وأجازت الكنيسة أن تبقى الأرباب القديمة العزيزة على الناس وأن تحمل أسماء قديسين مسيحيين ، فأضحت إلهة النصر Dea Victovria إلهة إقليم الألب الأدنى هى القديسة ڤكتوار St. Victoire ، كما ولد كاستر وپلكس Castor and Pollux من جديد وأصبحا هما القديسين كزماس Cosmas ودميان Damian .

وكان أعظم ما ظفرت به هذه الروح ، روح التكيف المتسامحة ، من نصر هو السمو بعبادة الإلهة الأم الوثنية واستحالتها إلى عبادة مريم أم المسيح . وهنا أيضاً كان الشعب هو البادئ بهذا التسامى . ذلك أن سيريل Cyril كبير أساقفة الإسكندرية وصف ، فى موعظة له شهيرة ألقاها فى إفسس Ephesus عام ٤٣١ ، مريم بكثير من العبارات التى كان الوثنيون من أهل تلك المدينة يصفون بها « إلهتهم الكبرى » أرتميس — ديانا Artimis-Diana دلالة على حبهم إياها

(*) ويطلق على هذا العيد بالإنجليزية اسم Easter وكان عيد هذه الإلهة يحتفل به فى يوم الاعتدال الربيعى . (المترجم)

واعتزازهم بها ، ووافق مجلس إفسس فى تلك السنة على أن تلقب مريم « أم الإله » وعلى الرغم من احتجاج نسطوريوس Nestorius . وما لبثت أرق صفات عشتروت ، وسيبيل ، وأرتميس ، وديانا ، وإيزيس أن جُمعت كلها فى عبادة مريم . ثم قررت الكنيسة فى القرن السادس إقامة الاحتفال بعيد صعود العذراء إلى السماء ، وحددته باليوم الثالث عشر من شهر أغسطس ، وهو تاريخ عيدين قديمين لإيزيس وأرتميس(٩١) . وأضحت مريم القديسة الشفعية للقسطنطينية وللأسرة الإمبراطورية ، وكانت صورتها تحمل فى مقدمة كل موكب عظيم ، وكانت (ولا تزال) تعلق فى كل كنيسة وبيت فى العالم المسيحى اليونانى . وأكبر الظن أن الصليبيين هم الذين جاءوا من الشرق إلى الغرب بعبادة العذراء عبادة قوية بمظاهر ذات جمال وروعة(٩٢) .

ولم تشع الكنيسة نفسها عبادة مريم . نعم إن آباء الكنيسة كانوا قد كرموا مريم وفضلوها عن حواء ؛ ولكن عداءهم للمرأة بوجه عام ، ووصفهم إياها بأنها « الوعاء الضعيف » ، ومصدر كل غواية بارتكاب الإثم ؛ وخوف الرهبان من النساء وفرارهم منهن ، وحملة الوعاظ على مفاتن النساء ونقائصهن — هذا كله لم يكن من شأنه أن يؤدى إلى عبادة مريم هذه العبادة القوية الشاملة . وكان الشعب وحده هو الذى ابتدع أجمل زهرة فى العالم الروحى أثناء العصور الوسطى وجعل مريم أقرب الأشخاص إلى القلوب فى التاريخ كله . ذلك أن سكان أوربا المستفيقة من رقدتها لم يعودوا يقبلون تلك الصورة الصارمة لإله يعاقب الكثرة الغالبة من خلقه بإلقائهم فى نار جهنم ، فخففوا من تلقاء أنفسهم الأهوال التى يحدثهم عنها علماء الدين بما خلعوه على أم المسيح من صفات الرحمة والحنان ، وكانوا يرون أن فى وسعهم أن يقتربوا من عيسى — وهو لايزال عندهم أسمى وأعدل من أن يتصلوا به مباشرة — عن طريق أمه التى لاترد سائلا ، والتى لا يستطيع ابنها أن يرد لها شفاعة . وحسبنا دليلا على رأى الناس

فى مريم القصة التى يرويها قيصريوس الهسترباخى Caesarius of Heisterbach (١٢٣٠) وهى أن شابا أغواه الشيطان بإنكار المسيح نظير ثروة طائلة وعدها إياه ، ولكنه لم يفلح فى أن يغريه بإنكار مريم ؛ فلما تاب الشاب استطاعت مريم أن تقنع المسيح بالعفو عنه . ويحدثنا الراهب نفسه عن أخ له ستَرسى من غير رجال الدين سمعه يناجى المسيح بقوله : « رباه ! إن لم تنقذنى من هذه الغواية فسأ شكوك إلى أمك »(٩٣) . وقد بلغت صلوات الناس لها من الكثرة حداً جعل خيال العامة يصور عيسى فى صورة من يغار منها ، فيقولون إن شخصاً ملأ السموات بصلاة العذراء « السلام لك يا مريم » فظهر له المسيح ، كما تقول القصة الطريفة ، وأنبه أشد التأنيب وقال له : « إن أمى لتشكر لك كثيراً ما قدمت لها من أدعية وصلوات ، ولكن عليك مع ذلك ألا تغفل عن الصلاة لى أيضاً »(٩٤) . ولقد كانت عدالة المسيح فى حاجة إلى رحمة مريم لتخففها ، كما كانت صرامة يهوه فى حاجة إلى المسيح . والحق أن أم المسيح أصبحت كما وصفها القرآن ، ثالثة الثالوث الجديد ، يشترك كل إنسان فى حبها والثناء عليها ؛ فالعصاة أمثال أيلار ينحنون لها إجلالا وتكريماً ، والهجاءون أمثال روتبوف Rutebeuf ، والمتشككون الصخابون أمثال المدرسين الجوالين لم يكونوا يجرءون على النطق بكلمة نابية عنها ؛ وكان الفرسان ينذرون أنفسهم لخدمتها ، والمدن تقدم لها مفاتيحها ، والطبقات الوسطى الرأسمالية الناشئة ترى فيها الرمز الطاهر للأمومة والأسرة ؛ والجفاة الغلاظ من رجال النقابات الطائفية — وحتى أبطال الثكنات وميادين القتال الذين لا يتورعون عن النطق بأقبح الألفاظ فيما هو مقدس — يتبارون مع الفتيات القرويات والأمهات الثاكلات فى توجيه صلواتهم إليها ووضع هداياهم تحت قدميها(٩٥) . وكان أقوى أسفار العصور الوسطى عاطفة هو ذلك الورد الذى يعلن فى حماسة متأججة متزايدة مجدها ويطلب معونتها . ولم يكن مكان ما يخلو من صورة لها . بل لم تخل منها منحنيات

الشوارع وملتقيات الطرق والحقول . ولما أن تمخض القرنان الثانى عشر والثالث عشر عن أنبل مولد للشعور الدينى فى التاريخ أقبل الفقراء والأغنياء ، والأذلاء والعظماء ، ورجال الدنيا ورجال الدين ، والفنانون ، والصناع ، أقبل هؤلاء جميعاً يجودون بما ادخروه من مال وبما لديهم من حذق ومهارة لتكريمها فى ألف كنيسة وكنيسة سميت كلها إلا القليل منها باسمها أو كان أبهى ما فيها حرماً خاصاً هو ضريحها .

وعلى هذا النحو نشأ دين جديد ، ولعل السبب فى بقاء الكثلكة إلى هذا اليوم هو أنها استوعبت هذا الدين . وصبغ إنجيل لمريم ، لا تعترف به الكنيسة ، ولا يصدقه العقل ، ولكنه يُفتتن به افتتاناً يجل عن الوصف ، وضع الشعب ما فيه من القصص وسطرها الرهبان ؛ نذكر منها **القصة الذهبية** التى تقول إن أرملة قدمت ولدها الوحيد استجابة لنداء وطنها ، فلما أسره العدو أخذت الأرملة تصلى إلى العذراء فى كل يوم أن تنقذ ولدها وترده إليها ؛ ومرت على ذلك أسابيع طوال لم تستجب العذراء لدعائها ، فما كان منها إلا أن سرقت تمثال الطفل عيسى من بين ذراعى أمه وأخفته فى بيتها ، وحينئذ فتحت العذراء السجن ، وأطلقت سراح الشاب ، وأمرته أن « بلّغ أملك : يا بنى أن ترد إلىّ ولدى بعد أن رددت إليها ولدها »[٩١] .

وجمع رئيس دير فرنسى يدعى جولتييه ده كوانسى Gaultier de Coincy أقاصيص مريم فى قصيدة طويلة مؤلفة من ثلاثين ألف بيت ، تجسد فيها العذراء تشفى راهباً مريضاً بأن تجعله يمتص اللبن من ثديها العذب . وقبض على لص كان على الدوام يصلى لها قبل أن يقدم على السرقة . وعلق اللص ليشنق ، ولكن يديها ظلتا ترفعانه دون أن يراهما أحد فلما تبين الناس أنها تحميه . أطلق سراحه ؛ وخرجت راهبة من ديرها لتحيا حياة الإثم ، فلما عادت إلى الدير بعد عدة سنين تائبة محطمة الروح ، وجدت العذراء — التى لم تغفل هى عن الصلاة إليها فى كل يوم — قد شغلت مكانها على الدوام ، وأن

إنساناً ما لم يلاحظ غيابها[٩٧] . ولم يكن فى مقدور الكنيسة أن ترتضى هذه القصص كلها ، ولكنها كانت تقيم احتفالات عظيمة فى ذكرى الحوادث البارزة فى حياة مريم — كالبشارة ، والزيارة(*) ، والتطهير (عيد تطهير العذراء ودخول المسيح إلى الهيكل) ، والصعود ؛ ثم خضعت الكنيسة آخر الأمر إلى إلحاح أجيال من غير رجال الدين ومن الرهبان الفرنسسكان فأجازت للمؤمنين أن يعتقدوا ، ثم أمرتهم فى عام ١٨٥٤ أن يعتقدوا ، بالحمل بلا دنس — أى أن مريم قد حملت مبرءاً من أثر الخطيئة الأولى التى تلطخ ، حسب قول الكنيسة ، كل طفل يولد من رجل وامرأة من عهد آدم وحواء .

واستحالت الكثلكة بفضل عبادة مريم من دين رهبة — لعلها كانت ضرورية فى العصور الوسطى — إلى دين رحمة وحب ؛ وإن نصف ما فى العادات الكاثوليكية من جمال ، وكثيراً مما فى الفن الكاثوليكى والغناء الكاثوليكى من روعة وجلال ، لمن خلق هذا الإيمان السامى الذى يتجلى فى وفاء امرأة ورقتها ، بل وفى جمال جسمها ورشاقتها . لقد دخلت بنات حوّاء الهيكل وبدلت روحه ؛ وكانت هذه الكثلكة الجديدة من الأسباب التى طهرت الإقطاع فاستحال فروسية ، ورفعت من شأن المرأة إلى حد ما فى عالم من صنع الرجال ؛ وبفضله وهب النحت والتصوير فى العصور الوسطى فن تلك العصور عمقاً ورقة قلما كان اليونان يعرفونهما فى عهدهم . وفى وسع الإنسان أن يعفو عن كثير مما فى دينٍ وفى عصرٍ أوجدا مريم وكنائسها الكبرى .

(*) زيارة مريم العذراء لإليصابات قبل أن تلد هذه ابنها يوحنا المعمدان . وتحتفل الكنيسة بهذه الذكرى فى ٢ يولية من كل عام . (المترجم)

الفصل الرابع

الطقــوس

لقد كانت الكنيسة حكيمة إذ أفسحت فى فنها ، وترانيمها ، وصلواتها ، مكاناً لعبادة العذراء ؛ ولكنها أصرّت فى العناصر القديمة من عباداتها وطقوسها على النواحى الصارمة الجدية من الدين . من ذلك أنها جرت على السنة التى كان يجرى عليها الأقدمون ، ولعلها رأت فى هذه السنة فائدة للصحة ، فشرعت الصيام فى أوقات معينة ، نهت فيها عن أكل اللحم فى جميع أيام الجمعة ، كما حرمت أكل اللحم، والبيض ، والجبن ، طوال أيام الصوم الكبير الأربعين ، وأمرت أن يدوم ذلك الصوم حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ؛ وأمرت كذلك ألا يكون فى هذه الفترة زواج ، أو طرب ، أو صيد ، أو محاكمات فى دور القضاء ، أو صلات جنسية بين الرجال والنساء(٩٨) . وكانت هذه نصائح لمن أراد أن يكون مسيحيا كاملا ، وقلما كان أحد يتمسك بها ، أو يرغم على اتباعها ، ولكنها أفادت فى تقوية الإرادة وكبح الشهوات عند خلائق نهمين شهوانيين .

وكانت الصلوات أيضاً مما ورثته الكنيسة عن الأقدمين ، ثم عدلت فصارت أشكالا من التمثيل الدينى ، والموسيقى الدينية والفن الدينى ، رفيعة ، سامية ، مؤثرة فى النفس . وكانت أقدم العناصر فى الصلاة المسيحية هى مزامير العهد القديم وأدعية هيكل أورشليم وعظاته ، وقراءات من العهد الجديد ، وتناول القربان المقدس . وأدى انقسام الكنيسة شرقية وغربية إلى اختلاف فى الشعائر الدينية ، كما أدى عجز البابوات الأولين عن أن يفرضوا إرادتهم كاملة خارج حدود إيطاليا الوسطى إلى وجود خلاف فى الحفلات الدينية حتى داخل الكنيسة

اللاتينية نفسها . من ذلك أن أحد الطقوس الذى استقر فى ميلان انتشر إلى أسبانيا ، وغالة ، وأيرلندة ، وشمالى بريطانيا ، ولم تتغلب عليه الطقوس الرومانية إلا فى عام ٦٦٤ . وأصلح البابا هدريان الأول طقوس الكنيسة فى منشور خاص بعث به شرلمان حوالى آخر القرن الثامن ؛ ولعل عمله هذا كان إتماما لجهود بذلها جريجورى الأول فى هذه السبيل ، ودوّن جويوم دوران Guillaume Durand أهم طقوس الكنيسة الرومانية فى كتابه « عرض للوظائف الدينية قائم على العقل Rationale divinorum officiorum » (١٢٨٦) . وفى وسعنا أن ندرك ما لقيه هذا المؤلف من قبول إذا عرفنا أنه أول ما طبع من الكتب بعد الكتاب المقدس . وكان المحور الذى تدور عليه العبادات المسيحية وأهم شعائرها هو القداس . وكان هذا الاحتفال يعرف فى القرون الأربعة الأولى باسم « الحمد Eucharist » ، وقد بقيت هذه الذكرى القدسية للعشاء الأخير جوهر الصلوات وعمادها الأساسى ، ثم اجتمعت حولها فى خلال اثنى عشر قرناً من الزمان مراسيم متتابعة معقدة من الأدعية والترانيم تختلف باختلاف أيام السنة ، وفصولها ، والغرض الذى يقام من أجله هذا القداس أو ذاك ، ودوّنت هذه المراسم فى كتاب القداس ليسهل على القس الرجوع إليها . وكانت الكنيسة اليونانية تفصل بين الرجال والنساء وقت الاجتماع لإقامة القداس كما كانت الكنيسة اللاتينية تفعل ذلك فى بعض الأحيان . ولم تكن هناك كراسىُّ يجلس عليها المصلون ، بل كانوا يؤدون الصلاة وهم وقوف ، وكانوا فى بعض الاحتفالات الرهبية يؤدونها راكعين ؛ ويعفى من الوقوف والركوع الشيوخ والضعفاء . وأقيمت للرهبان والقساوسة الذين يضطرون إلى الوقوف خلال الصلاة الطويلة أفاريز صغيرة فى أمكنة الترتيل لتسند الجزء الأسفل من العمود الفقرى ، وأصبحت هذه الرحمات miserieovoliae موضع عناية ناحت الخشب وحذقه وكان القس الذى يقيم القداس يدخل وعليه (توغا toga) كالتى

يرتديها اليونان والرومان الأقدمون ، يغطيها قميص أبيض طويل all ، وحلة القداس Cbasuble وبطرشيل stole وكلها أثواب زاهية عليها زخارف رمزية ، أكثرها ظهوراً الأحرف IHS وهى أوائل الكلمات Jesos Huiss Soter أى عيسى ابن (الله) المنقذ . وكان القداس نفسه يبدأ عند أسفل المذبح بهذا النشيد المتواضع : سأدخل فى مذبح الله ، ويضيف إليه السادن : « إلى الله الذى يضفى البهجة على شبابى » . ثم يصعد القس المذبح ويقبّله لأنه المكان المقدس الذى أودعت فيه مخلفات القديس . ويترنم بالدعاء الذى مطلعه كيرى اليسون kyrie eleison (« ارحمنا يا ألله ») وهو بقية يونانية فى القداس اللاتينى . ويتلو بعدئذ دعاء المجد (« المجد لله فى العلا ») والدعاء الأساسى الذى مطلعه « نؤمن بإله واحد » ثم يدشن قطعاً صغيرة من الخبز وقدحاً من الخمر لتكون جسم المسيح ودمه بأن يتلو عليها تلك الكلمات : هذا جسدى وهذا دمى .

Hoc est corpus meum و (*)Hic est sanguinis meus

ثم يعرض هذه العناصر المتحولة — أى ابن الله — لتكون قرباناً يتقرب به إلى الله وإحياء لذكرى التضحية على الصليب ، وبديلا من التضحية القديمة بالأحياء . ثم يلتفت القس إلى المصلين ويأمرهم بأن يسموا بقلوبهم إلى الله ، فيرد عليه السادن بوصفه نائباً عن المصلين بقوله : « إنا نرفعها إلى الرب » . ويتلو القديس بعدئذ القداس المثلث Triple Sanctus وحَمَل الله Ognus Dei ، وأبانا الذى ، ويشترك هو نفسه فى تناول الخبز والخمر المقدسين ، ويقدم العشاء الربانى إلى الحاضرين . وبعد أن يؤدى عدة صلوات إضافية ينطق بالصيغة الأخيرة وهى : تفرقوا ، حان الفراق Ite missa est . ولعل لفظ القداس الإنجليزية mass مشتق من لفظ missa هذا(٩٩) . ويبقى بعد هذا من القداس فى أشكاله المتأخرة أن يبارك القس-المصلين ، وأن تتلى بعض فقرات أخرى من الإنجيل — وهى

(*) ومن هذه الألفاظ اشتق الساحرون « لفظ hevuspocuc »

عادة الديباجة الأفلاطونية الجديدة من إنجيل يوحنا . ولا يقام القداس عادة إلا على يد مطران ، وبعد القرن الثانى عشر لم يكن يقام إلا إذا ألقى فيه راهب موعظة .

وكان القداس يُنشد على الدوام فى أول الأمر ، وكان المصلون يشتركون فى إنشاده ؛ ثم قلّ اشتراكهم فيه أثناء القرن الرابع وما بعده ، وأخذ مرتلون مختصون يردون على المنشد(*) . وتعدّ الترانيم التى يتغنى بها فى الصلوات المختلفة بالكنائس من أعظم ما أنتجته العاطفة والفن فى العصور الوسطى روعة وأقواها فى النفس أثراً . ويبدأ التاريخ المعروف للترانيم اللاتينية بهلارى Hilary أسقف پواتييه (المتوفى عام ٣٦٧) . ذلك أنه لما عاد إلى غالة من منفاه فى بلاد الشام جاء معه ببعض الترانيم اليونانية — الشرقية ، وترجمها إلى اللغة اللاتينية ، وأضاف إليها ترانيم اخرى من عنده ، وقد فقدت هذه كلها . ووضع أمبروز Ambrose بداية أخرى فى ميلان ، ولدينا من ترانيمه الطنانة ثمان عشرة ترنيمة كان لحرارتها المكبوتة أعظم الأثر فى نفس أوغسطين . وأكبر الظن أن ترنيمه الشكر والإيمان النبيلة التى مطلعها « الشكر لك يا ألله » والتى كانت تعزى قبل إلى أمبروز قد كتبها نيقيتاس مطران رمسيانا Remisiana فى أواخر القرن الرابع . وربما كانت الترانيم اللاتينية قد أصبحت أرق من الترانيم السابقة إحساسا وأجمل صورة لتأثرها بالشعر العربى الإسلامى والبروڤنسالى(١٠٠) . ومن الترانيم ما يكاد يكون عبارات ركيكة لا تزيد على ألفاظ رنانة ، مقفاة ؛ غير أن ترانيم عهد العصور الوسطى الزاهر — فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر — أضحت من جوامع الكلم ، محكمة العبارات ، تتخللها القوافى الرخيمة ، وتعبِّر عن أفكار طيبة رقيقة ، ترفعها إلى مستوى أعظم الشعر الوجدانى الذى أنتجه الأدب العالمى .

(*) انظر الباب الثالث والثلاثين ففيه تفصيل واف لموسيقى القداس .

وجاء إلى دير القديس ڤكتور الشهير القائم فى خارج باريس حوالى عام ١١٣٠ شاب من بريطانى بفرنسا ، لا نعرف من اسمه أكثر من آدم نزيل دير القديس ڤكتور . وقضى الشاب فى ذلك الدير الستين عاما الباقية من عمره هادئاً راضياً ، وتشرَّب بروح هوجو Hugo ورتشرد الصوفيين الذائعى الصيت ، وعبّر عن هذه النزعة الصوفية تعبيراً متواضعاً ، حلواً ، قويا ، ترانيم يقصد بمعظمها أن تتلى بعد مراسم القداس . وبعد مائة عام من ذلك الوقت ألف راهب فرنسسكانى يدعى چكوپون ده تودى Jacopone de Todi (١٢٢٨ ؟ — ١٣٠٦) أعظم ترنيمة فى العصور الوسطى وهى المعروفة باسم « وقفت الأم Sébat mother » . وكان چكوپون هذا محامياً ناجحاً فى تودى القريبة من پروجيا Perugia ، واشتهرت زوجته بصلاحها وجمالها ، وماتت هذه الزوجة إثر حادث سقوط طوار عليها فى أحد الأعياد ؛ فذهب الحزن بعقل چكوپان ، وأخذ يجول على غير هدى فى طرق أمبريا Umbria مردداً بأعلى صوته ذنوبه وأحزانه ، وطلى نفسه بالقار والريش ، وأخذ يمشى على أربع ، وانضم إلى جماعة الفرنسسكان وأنشأ القصيدة التى تحتوى فى إيجاز ما كان فى هذا الوقت من تُقى وحنان :

وقفت الأم كسيرة القلب ،
تزرف الدمع أمام الصليب
وابنها معلق يحتضر ؛
وقد نفذ فى روحها المثقلة بالأحزان ،
وهى تندبه وتتألم من أجله ،
سيف الأسى البتّار .
ألا ما أشد حزنها
تلك الأم التى أنعم الله عليها بابنها الوحيد ،
والتى رماها الزمان بسهامه !

وأخذت وقتئذ تنتحب وتندب سوء حظها ،
وترتجف حين أبصرت عذاب ابنها النبيل .
ومنذا الذى لا يحزن
إذا شاهد أم منقذنا
وقد شجتها الغصة ؟
منذا الذى يستطيع أن يحاجز نفسه عن أن يشاركها أحزانها حين
يرى هذه الأم الحنون
تندب مصير ولدها ؟ . . .
أقبلى يا أماه ، يا منبع الحب ،
وأشعرينى آلامك بأكملها
دعينى أشاركك أحزانك ،
واشعلى فى قلبى نار الشوق
وحب المسيح إلهنا ومنقذنا ،
دعينى أفعم قلبه بالسرور !
أيتها الأم المقدسة ، افعلى هذا رحمة بى !
اغرسى ضربات من مات شهيداً
عميقة فى قلبى .
دعينى أقاسى آلام
ابنك الذى أصيب بجرح أليم
وتحمل الهوان من أجلى !
دعينى أبك بحق إلى جانبك ،
وأقض سنى حياتى كلها

آشاركك الحزن على ابنك المصلوب .

ألا ليتنى أستطيع أن أكون معك ،

وأقف بجوار الصليب فى صحبتك ،

راضياً ، مغتبطا ، مرتبطا فى الحزن بك

فليحمنى الصليب ،

ولتنجنى آلام المسيح المنقذة للبشر ،

وليرعنى بلطفه ،

وإذا ما بلى جسمى

فلتنظر روحى فى أمجاد السماء

إليه وجهاً لوجه .

وليس فى الشعر ما يضارع هذه الترانيم المسيحية التى قيلت فى العصور الوسطى إلا قصيدتان إحداهما هى قصيدة عيد القربان Pange Lingue ، والأخرى قصـــيدة « يوم الغضب » الرهيبة التى كتبها تومس السلانوى Thomas of Celono حوالى ١٢٥٠ ، والتى تنشد فى القداس الذى يقام للموتى ؛ وهنا توحى رهبة يوم الحساب بقصيدة لاتقل كآبة وكمالا عن أى حلم من أحلام دانتى المعذبة(١٠١) .

وأضافت الكنيسة إلى طقوسها ذات الأثر الشديد فى النفس والمشتملة على الأدعية والترانيم والقداس — أضافت إلى هذه الطقوس ما يحدث فى الأعياد الدينية من حفلات ومواكب . وأخذ عيد الميلاد فى البلدان الشمالية المراسم المفرحة للطبقة التى كان التيوتون الوثنيون يقيمونها احتفالا بانتصار الشمس وقت الانقلاب الشتائى على الظلمة المقبلة ؛ ومن هذا نشأت كُتَل عيد الميلاد التى تحرق فى بيوت الألمان ، وأهل فرنسا الشمالية ، والإنجليز ، وأهل اسكندناوة ، كما

نشأت شجرة عيد الميلاد التى تثقل بالهدايا ، والولائم المرحة التى تتخم البطون القوية حتى الليلة الثانية عشرة بعد هذا العيد ، وكان ثمة أعياد واحتفالات أخرى يخطئها الحصر — عيد الغطاس ، وعيد الختان ، وحد السعف ، وعيد القيامة ، وعيد الصعود ، وعيد العنصرة . . . وكانت هذه الأعياد وأيام الآحاد كلها إلى درجة أقل منها قليلا ، أحداثاً مثيرة فى حياة رجل العصور الوسطى . وكان يستعد لاستقبال عيد القيامة بالاعتراف بما يهمه أن يتذكره من ذنوبه ، ويستحم ، ويحلق لحيته أو يقص شعره ، ويلبس خير ملابسه وأكثرها مضايقة له ، ويَتَطَعَّمُ الله فى العشاء الربانى ، ويحس أعمق الإحساس بالمسرحية المسيحية الخطيرة الشأن التى قُدِّر عليه أن يكون جزءاً منها . وكانت حوادث آلام المسيح تمثل فى كثير من المدن فى الثلاثة الأيام الأخيرة من أسبوع الآلام ، تتضمنها مسرحية دينية ذات حوار وأغان بسيطة ؛ كذلك كانت عدة أوقات أخرى من السنة الكنسية تمتاز بأمثال هذه « الطقوس الخفية » . وحدث فى عام ١٢٤٠ أن أبلغت يوليانا **Juliana** رئيسة دير قريب من لييج **Liége** قس القرية التى تقيم فيها أن رؤيى سماوية قد نبهتها إلى أنه لا بد من تكريم جسم المسيح حين يستحيل القربان إلى لحمه ودمه فى العشاء الربانى وذلك بإقامة عيد فخم رهيب ، وأقر البابا إربان الرابع هذا الاحتفال فى عام ١٢٦٢ وعهد إلى تومس أكوناس أن يضع له « صلاة مؤلفة من ترانيم وأدعية تناسبه » . وقام الفيلسوف بهذه المهمة على خير وجه ، وفى عام ١٣١١ ثبت أخيراً عيد القربان واحتفل به فى أول يوم خميس بعد عيد العنصرة بأفخم موكب من مواكب السَّنَة المسيحية بأجمعها . وكانت هذه الحفلات تجتذب إليها جموعا لا يحصى عددها ، وتبعث البهجة والمرح فى قلوب الكثيرين ممن يشتركون فيها ؛ وهى التى مهدت السبيل للمسرحية غير الدينية فى العصور الوسطى ، وساعدت على قيام مواكب النقابات الطائفية واحتفالاتها ، وألعاب البرجاس والاحتفال بتنصيب الفرسان ، وتتويج الملوك ، وشغل ما هنالك من فراغ



(الصورة رقم ٣) « البشارة والزيارة » فى كتدرائية ريمس

فى حياة الأهلين الذين لا يميلون بفطرتهم إلى السلم والنظام بالحركات المنبعثة عن التقى ، والصلاح ، والمناظر التى تسمو بأرواحهم إلى أعلى الدرجات . ولم تكن الكنيسة تقيم تعاليمها الأخلاقية ، التى تصل إليها عن طريق العقائد الدينية على الجدل المؤدى إلى الإقناع ، بل كانت تلجأ فى الوصول إلى هذا الغرض إلى الحواس عن طريق التمثيل ، والموسيقى ، والتصوير ، والنحت ، والعمارة ، والقصص ، والشعر ؛ ولا يسعنا إلا أن نعترف أن الالتجاء إلى العواطف على هذا النحو أكثر نجاحا وأهدى إلى الغرض — شراً كان أو خيراً — من الالتجاء إلى العقل المتقلب ذى النزعة الفردية . ولقد أوجدت الكنيسة بالتجائها إلى هذا فن العصور الوسطى .

وكانت أعظم المهرجانات ما يقام منها عند أماكن الحج . فقد كان الرجال والنساء يحجون ليكفروا عن ذنب أو يوفوا بنذر ، أو يطلبوا شفاء من داء بإحدى المعجزات ، أو ينالوا غفرانا ؛ وما من شك فى أنهم كانوا يسعون ، كما يسعى السياح فى هذه الأيام ، ليشاهدوا بلدانا جديدة ومناظر جديدة ، وليقوموا فى طريقهم بمغامرات تطرد ما يلقونه فى حياتهم الضيقة الرتيبة من ملل وسآمة . وكان هناك عشرة آلاف مكان معترف بجواز الحج إليها فى أواخر القرن الثالث عشر . وكان أكثر الحجاج شجاعة يؤمون فلسطين النائية ، ومنهم الحفاة ، ومنهم من لا يلبسون إلا قميصا واحداً ؛ وكانوا يحملون فى الصلاة ، صليبا ، وعكازا ، وكيسا من النقود تناولوها كلها من يد قسيس . وحدث فى عام ١٠٥٤ أن سار ليدبرت Leidbert أسقف كمبريه على رأس ثلاثة آلاف حاج إلى بيت المقدس ، وفى عام ١٠٦٤ سار كبير أساقفة كولونى ، وميتز ، وأساقفة اسباير ، وبامبرج ، وأوترخت إلى بيت المقدس أيضا ، ومن ورائهم عشرة آلاف مسيحى هلك منهم ثلاثة آلاف فى الطريق ، ولم يعد منهم إلى أوطانهم سالمين إلا ألفان . وعبر حجاج آخرون جبال البرانس ، أو جازفوا بحياتهم فى المحيط الأطلنطى

ليزوروا الأماكن التي يقال إن بها عظام الرسول يعقوب بقمبستيلا Compostela من أعمال أسبانيا . وفي إنجلترا كان الإنجليز يحجون إلى قبر القديس كثبرت Cuthbert في درهام ، وإلى قبر ادورد المعترف Edward the Confessor في وستمنستر ، أو إلى قبر القديس إدمند St, Edmund في بيورى Bury ، أو إلى الكنيسة التي أنشأها كما يقولون يوسف الأرماثيائى Joseph of Arematea في جلاستنبرى Glastonbury وكان أهم من هذه الأماكن كلها في نظر الإنجليز ضريح تومس أبكت في كنتربرى . وكانت فرنسا تجتذب الحجاج إلى قبر القديس مارتن في تور وإلى نتردام في تشارتر ، ونتردام في له — پوى — أن — ڤلاى Le-puyen-Velay وفي إيطاليا كنيسة القديس فرانسس وعظامه في أسسى Assisi ، وفيها أيضاً سانتا ، كاسا Santa Casa أو البيت المقدس في لوريتو Loreto ويعتقد المتقون أنه هو البيت الذي سكنت فيه مريم مع عيسى في الناصرة ، وأن الملائكة حملت هذا الكوخ من فلسطين حين طرد الأتراك آخر الصليبيين منها ، وطارت به في الهواء ثم أنزلته في دلماشيا (١٢٩١) ، ثم طارت فوق البحر الأدرياوى إلى غابات أنكونا (اللورتوم Louretum) التي اشتق منها اسم هذه القرية المكرمة .

وآخر ما نذكره في هذا المقام أن كل طرق العالم المسيحي كله كانت تؤدى بالحجاج إلى رومة ، ليشاهدوا قبرى بطرس وبولس ، ولينالوا الغفران بزيارة المنازل المقدسة ، أو الكنائس القائمة في تلك المدينة ، أو للاحتفال بعيد من الأعياد ، أو ذكرى سارة في التاريخ المسيحي . وحدث في عام ١٢٩٩ أن أعلن البابا بنيفاس الثامن أن سيقام عيد كبير في عام ١٣٠٠ ، وعرض أن يغفر جميع ذنوب من يأتون للتعبد في كنيسة القديس بطرس في ذلك العام . ويقال إن عدد من دخل أبواب رومة من الغرباء في كل يوم من أيام هذه الشهور الاثنى عشر لم يكن يقل عن مائتى ألف ، وإن مليونى زائر مع كل منهم نذر يناسبه وضعوا

ما معهم من الكنوز أمام قبر القديس بطرس ؛ وقد بلغت هذه الكنوز من الكثرة حدا شغل قسيسين ظلا يعملان بالمجارف ليلا ونهارا لجمع النقود[١٠٢]. وكانت دلائل السياح ترشد الحجاج إلى الطرق التي يسلكونها ، والأماكن التي لا بد لهم أن يزوروها في طريقهم أو حين يحطون رحالهم . وفي وسعنا أن نرسم لأنفسنا صورة حقيقية من فرحة الحجاج المتعبين ، وقد كساهم العثير ، وحين تقع أبصارهم آخر الأمر على المدينة الخالدة ، وحين ترتفع عقيرتهم بأغنية الفرحة والحمد التي يتلوها الحجاج : « أي روما النبيلة ، يا ملكة هـذا العالم كله ، ويا خير المدائن كلها ، يا ذات اللون الأحمر الياقوتي الذي كستك به دماء الشهداء الوردية ، ولكنك كالسوسن النقي بمن فيك من العذارى . إليك نهدي تحياتنا خلال السنين وندعو لك بالخير ، ونحييك من خلال القرون ! » .

وقد أضافت الكنيسة إلى الخدمات الدينية المختلفة خدمات أخرى اجتماعية ؛ فقد أشعرت الناس بما للعمل من كرامة ، ومارس رهبانها العمل في الزراعة والصناعة . ووافقت على أن ينتظم العمال في نقابات طائفية ، ونظمت نقابات طائفية دينية للإشراف على أعمال الصدقات[١٠٣] . وكانت كل كنيسة حرماً مقدساً من حق كل من يُطارَد أن يلجأ إليها ليجد فيها مُقاماً له حتى تهدأ سورة من يطارده ويخضع للإجراءات القانونية ، وكان إخراج هؤلاء الرجال من هذا الحرم الأمين تدنيساً له يعاقب من يرتكبه بالطرد من حظيرة الدين . وكانت الكنيسة الصغيرة والكبيرة المركز الاجتماعي في القرية أو المدينة . وكان حرمها المقدس في بعض الأحيان أو الكنيسة نفسها يستخدمان برضاء القساوسة لخزن الحبوب أو الدريس أو النبيذ ، كما كانا يستخدمان أيضاً في طحن الحبوب أو عصر الجعة[١٠٤] . وفي الكنيسة عُمِّد معظم أهل القرية ، وعندها سوف تدفن كثرتهم . وفيها يجتمع الكبار في أيام الأحد ليتجاذبوا أطراف الحديث أو يتناقشوا في شؤون القرية ، ويجتمع الشبان والشابات ليرى بعضهم بعضاً .

وعندها يجتمع المتسولون وتوزّع الكنيسة صدقاتها ، وفيها يجتمع كل ما تعرفه القرية من فن إلا القليل منه ليجمل بيت الله ، ويبتهج ألف فقير بما يشهد من مجد المعبد المقدس الذى شاده الناس بأموالهم وأيديهم ، والذى يعدّونه ملكا لهم ، وموطنهم الجماعى والروحى . وكانت الأجراس المعلقة فى برج الكنيسة تدق ساعات اليوم ، أو تدعو المؤمنين إلى الصلاة والدعاء ، وكانت موسيقى هذه الأجراس أحلى من كل ما عداها إذا استثنينا الترانيم التى تؤلف بين الأصوات والقلوب وتوحدها ، أو تبعث الحماسة فى قلوب ذوى الإيمان الفاتر بتسابيح القداس . وقد ارتفعت أبراج الكنائس ، المستدق منها وغير المستدق ، فى أقطار الأرض من نفجورود إلى فارس ، ومن بيت المقدس إلى هبريدة تشق الفضاء لأن الناس لا يستطيعون الحياة بلا أمل ولا يرضون بالموت .

الفصل الخامس

القانون الكنسى

نمت إلى جانب الطقوس الدينية المعقدة الرائعة طائفة من الشرائع الكهنوتية أكثر منها تعقيداً ، تنظم أعمال الكنيسة وقراراتها . وكانت الكنيسة ذلك الوقت تسيطر على دولة أعظم رقعة وأكثر تبايناً من أية إمبراطورية . وقد نشأ القانون الكنسى شيئاً فشيئاً من العادات الدينية القديمة ، ومن فقرات فى الكتاب المقدس ، وآراء آباء الكنيسة ، وقوانين رومة أو القبائل المتبربرة ، وقرارات مجالس الكنيسة ، وقرارات البابوات وآرائهم . وعدّلت أجزاء من قانون جستنيان لكى تشرف على سلوك رجال الدين ، وأعيدت صياغة بعضها الآخر لكى يتفق مع آراء الكنيسة فى الزواج ، والطلاق ، والوصايا . وأعدت مجموعات من الشرائع الدينية فى البلاد الغربيـــة فى القرنين السادس والثامن ، كما أعد أباطرة بزنطية من حين إلى حين مجموعات مثلها فى بلاد الشرق . وصيغت قوانين الكنيسة الرومانية فى صيغتها النهائية التى كانت عليها فى العصور الوسطى على يد جراتيان Gratian حوالى عام ١١٤٨ .

وكان جراتيان هذا من رهبان بولونيا ، ولذلك لا يبعد أن يكون قد درس على إرنريوس Irnerius فى جامعة تلك المدينة . وسواء كان هذا أو لم يكن فإن الذى لا شك فيه أن الموجز الذى أصدره يدل على علم غزير بالقانون الرومانى وفلسفة العصور الوسطى . وقد سمى كتابه **التوفيق بين القواعد المتعارضة** Concordia discordantium Canonum ، ثم أطلقت عليه الأجيال المتأخرة اسم **القرارات** . وقد جمعت فيه ما أصدرته الكنيسة من قوانين ، وما كان لها من عادات ، وما أصدرته المجالس الدينية والبابوات حتى عام ١١٣٩ من قرارات

خاصة بالعقائد الدينية ، والطقوس ، والأنظمة ، والقواعد الإدارية ، والمحافظة على أملاك الكنيسة وإجراءات المحاكم الكنسية ، وما لها من سوابق ، وتنظيم حياة الرهبنة ، وعقود الزواج وقواعد الوصية . وربما كانت طريقة العرض قد أخذت عن كتاب أبلار . Sic et non « هكذا وإلا فلا »

وما من شك فى أنها كان لها بعض الأثر فى الطريقة المدرسية بعد جراتيان Gratian ، فهى تبدأ بقضية مقررة ثم تنقل أقوالا أو سوابق تعارضها ، وتحاول أن تزيل هذه الاعتراضات وتضيف بعض الشروح والتعليقات . ولم تتخذ الكنيسة فى العصور الوسطى هذا الكتاب مرجعاً نهائيا ، ولكنه أصبح فى الفترة التى كان قائما فيها نصا لا غنى عنه ، ويوشك أن يكون نصا مقدسا . وأضاف إليه جريجورى التاسع (١٢٣٤) وبنيفاس الثامن (١٢٩٤) وكلمنت الخامس (١٣١٣) ملاحق من عندهم ، وقد نشرت هذه الملاحق وبعض إضافات أقل منها شأناً مع كتاب جراتيان فى عام ١٥٨٢ باسم « مجموعة من القوانين الكنسية مقابلة لمجموعة قوانين جستنيان المدنية »(*) .

والحق أن الميدان الذى يشغله القانون الكنسى كان أوسع من الميدان الذى يشغله أى قانون مدنى معاصر له ، فهو لا يقتصر على البحث فى تكوين الكنيسة ، وعقائدها ، وأعمالها ، بل يبحث فوق ذلك فى القواعد التى تعامل بمقتضاها غير المسيحيين المقيمين فى البلاد المسيحية ؛ والطرق التى تستخدمها عند النظر فى أمر الإلحاد ، وفى القضاء على الملحدين ؛ وفى تنظيم الحروب الصليبية ؛ وفى قوانين الزواج وشرعية الأبناء ، والمهور ، والزنى ، والطلاق ، والوصايا ، والدفن وأحوال الأرامل ، واليتامى ؛ وفى قوانين الإيمان ، ونقضها ، وانتهاك حرمة المعابد ، والتجديف والمتاجرة بالدين والرتب الكهنوتية ، والسب ،

(*) وفى ٢٠ مايو ١٩١٨ أصبحت مجموعة القوانين الكنسية المعدلة هى قانون الكنيسة الرسمى .

والربا ، والأثمان العادلة ؛ وفيه قواعد لتنظيم المدارس والجامعات ، وهدنة الله وغيرها من الوسائل المقيدة للحرب والمنظمة للسلم ؛ وما يجب أن تكون عليه المحاكم الكنسية والبابوية ، وحق استخدام الطرد من الدين واللعنة والحرمان ؛ وتوقيع العقوبات الكنسية ؛ والعلاقة القائمة بين المحاكم المدنية والمحاكم الدينية ، وبين الدولة والكنيسة . وكانت الكنيسة ترى أن الواجب المفروض على المسيحيين جميعاً أن يخضعوا هـذه المجموعة الضخمة من القوانين ، وأن من حقها هي أن توقع على كل من يخرج على أي شيء منها مختلف العقوبات البدنية أو الروحية ، لا يستثنى من ذلك إلا شيء واحد وهو أنه لا يجوز لأية محكمة كنسية أن تنطق بـ « حكم الدم » — أي أن تحكم بالإعدام على شخص ما .

وكانت الكنيسة قبل عهد محاكم التفتيش(*) تعتمد على وسائل الإرهاب الروحي ؛ فكان الحرمان الأصغر **Minor excommunication** يمنع المسيحي من الاشتراك في العشاء الرباني وفي طقوس الكنيسة ؛ وكان من حق كل رجل من رجال الدين أن يصدر هذه العقوبة ؛ وكان معناها عند المؤمنين العذاب الدائم في نار الجحيم إذا مات الآثم قبل العفو عنه . أما الحرمان الأكبر **Maior excommunication** (وهو الحرمان الوحيد الذي تستخدمه الكنيسة في هذه الأيام) فلا يصدره إلا مجلس ديني أو مطارنة أعلى مرتبة من القساوسة ، كما أنه لا يصدر إلا على أشخاص داخل دائرة هذه المجالس أو أولئك المطارنة . فإذا صدر أبعد المحروم من كل اتصال قانوني أو روحي بالمجتمع المسيحي : فلا يستطيع أن يقاضي ، أو يرث ، أو يعقد عقداً صحيحاً من الوجهة القانونية ، ولكنه يجوز لغيره أن يقاضيه ، ويحرم على أي مسيحي أن يؤاكله أو يكلمه وإلا حق عليه الحرمان الأصغر . ولما أن صدر قرار الحرمان على ربرت ملك

(*) أو دواوين التحقيق كما يسميها بعضهم

فرنسا (٩٩٨) لزواجه من ابنة عمه ، تركه جميع رجال حاشيته وجميع خدمه تقريباً ؛ وكان الخادمان اللذان بقيا عنده يلقيان فى النار ما يتبقى من طعامه بعد كل وجبة من وجباته ، حتى لا تدنسهما هذه البقايا . وكانت الكنيسة فى الحالات القصوى تضيف إلى الحرمان عقوبة اللعنة Anathema ، وهى عقوبة ذكر فيها بعناية وبأقوى عبارة ، وبكل ما تحتويه العبارات القانونية من لغو ، كل ما يتصل بهذه العقوبة . وكان آخر ملجأ للكنيسة هو حق البابا فى أن يصدر قرار تحريم (Interdict) على أية بقعة من العالم المسيحى — أى أن يمنع إلى أجل جميع الخدمات الدينية أو الكثرة الغالبة منها . وإذ كان الناس فى تلك الأيام يشعرون بحاجتهم إلى العشاء الربانى ، ويخشون أن توافيهم المنية قبل أن يعفى عن خطاياهم ، فقد كان المحروم يضطر عاجلا أو آجلا إلى مصالحة الكنيسة . وقد صدرت قرارات بالحرمان من هذا النوع على فرنسا فى عام ٩٩٨ ، وعلى ألمانيا فى عام ١١٠٢ ، وعلى إنجلترا فى عام ١٢٠٨ ، وعلى رومة نفسها فى عام ١١٥٥ .

وكانت كثرة ما صدر من قرارات الحرمان والتحريم سبباً فى ضعف أثرهما فى القرن الحادى عشر[١٠٥] . فقد كان البابوات يصدرون بين الفينة والفينة قرارات لأغراض سياسية ؛ كما حدث حين هدد إنوسنت الثانى مدينة بيزا بإصـــدار قرار التحريم عليها إذا لم تنضم إلى الجامعة التسكانية[١٠٦] . وبلغت قرارات الحرمان بالجملة — للغش فى أموال الزكاة التى كانت الكنيسة تتقاضاها من الأهلين — من الكثرة أن أضحت أقسام كثيرة من المجتمع المسيحى محرومة كلها فى وقت واحد ، ومنها ما لم تكن تعرف أنها محرومة ، كما أن منها ما أغفل قرار الحرمان أو سخر منه[١٠٧] ولم يعبأ به . من ذلك أن قرار الحرمان بالجملة صدر على ميلان وبولونيا وفلورنس ثلاث مرات فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وظلت ميلان اثنين وعشرين عاماً تتجاهل القرار الثالث . ويحدثنا الأسقف جويوم له مير

Guillaume le Maire فى عام ١٣٩١ عن هذه القرارات فيقول : « لقد رأيت بعينى فى بعض الأحيان أربعمائة محروم فى أسقفية واحدة بل رأيت سبعمائة منهم . . .(*) يزدرون سلطة المفاتيح ويوجهون ألفاظ التجديف والسباب للكنيسة ورجالها(١٠٨) » ولم يعبأ فليب أغسطس وفليب الجميل بقرارات الحرمان التى صدرت عليهما .

وكان ما يحدث آناً بعد آن من تجاهل لهذه القرارات بداية اضمحلال سلطان القانون الكنسى على غير رجال الدين فى أوربا . وكانت الكنيسة قد أخضعت لسلطانها طائفة كبيرة من شئون الحياة البشرية حين تضعضعت السلطات المدنية فى الألف السنة الأولى من التاريخ المسيحى ؛ فلما أن قويت الحكومة المدنية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر استرد القانون المدنى من القانون الكنسى طائفة بعد طائفة من الشئون البشرية . نعم إن الكنيسة قد نالت مكاسب جديدة فى التعيين فى الوظائف الدينية ، أما فى معظم الميادين الأخرى فقد أخذ سلطانها يضمحل فى شئون التعليم ، والزواج ، والأخلاق . والاقتصاد ، والحرب . فقد أعلنت الدول التى نمت وترعرعت فى ظل النظام الاجتماعى الذى أوجدته هى والذى أجاز لها أن تنمو وتترعرع ، أعلنت هذه الدول أنها شبت عن الطوق وبدأت تلك العملية الطويلة — عملية التحرر من السلطة الدينية — التى بلغت غايتها فى هذه الأيام . ولكن جهود واضعى القانون الكنسى لم تذهب هباء ، كما لا تذهب هباء معظم الجهود المبدعة الخلاقة فى هذا العالم ، فهى التى أعدت ودربت أعظم من أخرجتهم من الحكام .

(*) لعله يريد سلطة رجال الدين الذين كانت بيدهم مفاتيح السماء فى ظنهم . (المترجم)

وأسهمت فى نقل القانون الرومانى إلى العالم الحديث ، وأيدت الحقوق القانونية للأرامل والأطفال ، ووضعت فى القانون المدنى المعمول به فى أوربا الغربية المبدأ الذى يجعل للزوجة فى حياتها نصيبا من مال زوجها[١٠٩] ، وكان له نصيب فى صياغة الفلسفة المدرسية ووضع مصطلحاتها . وملاك القول أن الشريعة الكنسية كانت من أعظم الأعمال التى تمخض عنها العقل البشرى فى العصور الوسطى .

الفصل السادس

رجال الدين

كان الناس فى حديثهم العادى فى العصور الوسطى يقسمون الخلق طبقتين : طبقة رجال الدين وطبقة « رجال الدنيا » وكان الراهب من رجال الدين وكانت الراهبة من نسائه ، ومن الرهبان من كانوا أيضاً قسيسين وهؤلاء يكونون « رجال الدين النظاميين » أى رجال الدين الذى يتبعون قانون الأديرة (regula) ؛ أما غيرهم من رجال الدين فكانوا يسمون « دنيويين » أى يعيشون فى الدنيا » (saeculum) ، وكانت طبقات رجال الدين جميعها تمتاز من غيرها بحلق قمة الرأس وبأن يلبس أفرادها مئزراً طويلا ذا لون واحد أيا كان ، ما عدا اللونين الأحمر والأخضر ، تضمه أزرار بطوله كله من الرأس إلى القدمين . ولم يكن لفظ رجال الدين يطلق على من كان منهم فى « الدرجات الصغرى » فحسب — أى بوابى الكنائس ، وقارئى الصلوات ، وقارئى الرُّقَى ، والسدنة — بل كان يطلق كذلك على جميع طلبة الدين ومدرسيه فى الجامعات ، وعلى كل من حلقوا قمة رءوسهم — أى دخلوا فى زمرة رجال الدين — وهم طلاب ثم أصبحوا فيما بعد أطباء أو محامين ، أو فنانين ، أو مؤلفين ؛ أو اشتغلوا محاسبين أو مساعدين لرجال الأدب . وهذا هو السبب الذى من أجله ضاق معنى لفظى Clerical ، Clerk فصارا «كتابياً» و« كاتباً» . وكان يسمح لرجال الدين من غير الطبقات العليا أن يتزوجوا وأن يشتغلوا بأية مهنة محترمة ، ولم يكونوا يلزمون بأن يظلوا مستمسكين بعادة حلق قمم رؤوسهم .

أما الطبقات الثلاث « الكبرى » أو « الطبقات المقدسة » — أتباع الشمامسة — والشمامسة — والقساوسة — فلم يكن يجوز لمن انضم إليها أن يخرج

منها ؛ وقد أغلق أمام أفرادها بوجه عام باب الزواج بعد القرن الحادى عشر ، ولكن لدينا شواهد تدل على أن بعض القساوسة اللاتين بعد أيام جريجورى السابع كانوا يتخذون لهم أزواجاً أو خليلات(١١٠) ، غير أن هذه الحالات أخذت تقل شيئاً فشيئاً حتى كانت من الحالات الشاذة النادرة(*) ، وكان على قس الأسقفية أن يقنع بالمتع الروحية . وإذ كانت حدود الأسقفية تتفق فى العادة مع حدود الضيعة أو القرية ، فإن مالك الضيعة كان فى أغلب الأحوال هو الذى يعين القس(١١١) بالاشتراك مع الأسقف . وقلما كان هذا القس ممن نالوا قسطاً موفوراً من التعليم ؛ وسبب ذلك أن التعليم الجامعى كان وقتئذ كبير النفقة ، وأن الكتب كانت نادرة ؛ ولهذا كان يكفيه أن يعرف كيف يقرأ الصلوات والقداس ، ويقوم بتقديم العشاء الربانى وتنظيم شئون العبادة والصدقات فى الأسقفية . ولم يكن فى كثير من الحالات أكثر من مساعد أو نائب يستأجره قس أكبر منه ليؤدى الخدمات الدينية فى الأسقفية نظير ربع دخله من معاشه . وكان فى مقدور القس الكبير بهذه الطريقة أن يكون له معاش من أربع

(*) لقد خلقت العزوبة العامة بين الرهبان والقساوسة والراهبات بعد عام ١٢١٥ مشكلة من المشاكل الجنسية . ولربما كانت أوربا قد قاست بعض الخسارة فى القوة الحيوية من جراء امتناع عدد كبير من الأشخاص الأصحاء عن الاضطلاع بواجب الأبوة والأمومة ، ولكننا لا نعرف على وجه التحقيق إلى أى حد تورث القدرة العالية على التناسل . وأقرب من هذا البحث إلى الناحية العلمية أثر التفاوت فى العدد بين الرجال والنساء الذين لا ينتمون إلى الطبقات الدينية والناشئ من تحريم الزواج على الرهبان والقسيسين . ولما زادت نسبة الوفيات بين الرجال على مثلها بين النساء بسبب الأسفار للتجارة وغيرها ، وبسبب الحروب العادية والصليبية ، والنزاع بين الأفراد والجماعات ، وغير هذه من الأخطار ، بقيت نسبة كبيرة من النساء عانسات أو لجأن إلى الاختلاط الجنسى غير المشروع . وكانت الكنيسة ترحب بمن يردن أن يترهبن من النساء إذا استوفين شروط الترهب ، ولكن عدد الرهبان والقساوسة مجتمعين كان يفوق عدد الراهبات كثيراً . ومن أجل هذا فإن بنات الأشراف اللاتى لا يتزوجن كثيراً ما كن يوجهن إلى الأديرة أما بنات غير هذه الطبقة فكن يلجأن إلى العمل على عجلة الغزل ، أو يمشن مع بعض أقاربهن ، أو يحيين فى جو من العار والريبة ليشبعن مطالب رجال من ذوى المكانة .

أبرشيات أو خمس ، أما قس الأبرشية فكان يحيا حياة الفقر والمذلة[١١٢]، يعتصر دخله من « رسوم المذبح » أو التعميد ، أو عقود الزواج ، أو الدفن ، أو قراءة القداس للموتى . وكان فى بعض الأحيان ينحاز إلى جانب الفقراء فى حرب الطبقات ، كما فعل جون بول John Ball[١١٣] ؛ ولم يكن مستواه الخلقى يضارع مستوى قس هذه الأيام الذى سما إلى ما سما إليه بفضل المنافسة الدينية ، ولكنه كان بوجه عام يقوم بعمله صابراً حريصاً على إطاعة نداء الضمير وواجب الشفقة والرحمة . فكان يعود المرضى ، ويواسى المحرومين ، ويعلم الشباب ، ويلوك صلواته ، ويبث فى الأهلين الغلاظ الشداد شيئاً من التحضر والخلق الطيب . ويقول أقسى ناقدى هذه الطائفة إن كثيرين من قساوسة الأبرشيات « كانوا ممن لا غنى عنهم فى هذا العالم »[١١٤]، وقال عنهم لكى Lecky المتحرر من قيود الدين : « ليس ثمة طائفة غيرهم أظهرت ما أظهروه هم من غيرة جامعة مجردة من الانهماك فى متاع الدنيا ، لا يثنيها عن هدفها مصالحها الشخصية ، يضحى أفرادها فى سبيل الواجب المفروض عليهم أعز ما فى العالم من متاع ، ويواجهون جميع الصعاب أيا كان نوعها وألوان العذاب والموت ببسالة لا تتزعزع ولا تلين »[١١٥] .

وكان القساوسة والأساقفة يؤلفون فيما بينهم طبقة رجال الكهنوت . فأما الأسقف فكان قساً اختير ليؤلف من عدة أبرشيات وعـــدد من القساوسة أسقفية واحدة . وكان الذين يختارونه لهذا المنصب من الوجهـــة النظرية وفى بداية الأمر هم القساوسة والشعب ، ولكن الذى كان يرشحه لمنصبه عادة قبل أيام جريجورى السابع هو البارون أو الملك ، وكان يختاره بعد عام ١٢١٥ كهنة الكنيسة الكبرى بالاشتراك مع البابا نفسه . وكان يعهد إليه بكثير من الشئون الدنيوية والكنسية ، كما كانت محكمته الأسقفية تنظر فى بعض القضايا المدنية وفى جميع القضايا التى تمس رجال الدين على اختلاف طبقاتهم . وكان من حقه

أن يعين القساوسة ويفصلهم ، ولكن سلطته على الأديرة ورؤسائها فى أسقفيته نقصت فى الوقت الذى نتحدث عنه لأن البابوات أخضعوا طبقات الرهبان لسلطانهم المباشر لخوفهم من سلطان الأساقفة . وكان إيراد الأسقف يأتى بعضه من الأبرشيات التابعة له ، ولكن معظمه كان يأتيه من الضياع التابعة لكرسيه ؛ وكان فى بعض الأحيان يعطى إحدى الأبرشيات من المال أكثر مما يأخذ منها . وكان المتقدمون لشغل مناصب الأساقفة يتعهدون عادة بأن يؤدوا — للملك أولاثم للبابا فيما بعد — قدراً من المال نظير ترشيحهم؛ وكانوا بوصفهم حكاماً دنيويين يطرأ عليهم ما يطرأ على غيرهم من ميل لتعيين أقاربهم فى المناصب ذات الإيراد المجزى — وكان مما يشكو منه البابا إسكندر الثالث أنه « لما حرم الله الأساقفة من الأبناء وهبهم الشيطان أبناء الإخوة والأخوات »(١١٦) . وكان كثيرون من الأساقفة يحيون الحياة المترفة ، التى تليق بالسادة الإقطاعيين . ولكن كثيرين منهم كانوا يهبون أنفسهم لواجباتهم الروحية والإدارية . ولقد كان أساقفة أوربا ، بعد أن أصلح ليو التاسع نظام الأسقفيات ، خير الطوائف كلها فى العصور الوسطى من الناحيتين العقلية والخلقية .

وكان يرأس أساقفة كل إقليم كبير الأساقفة أو المطران ، وكان له هو وحده حق دعوة مجلس الكنيسة الإقليمى ورياسته . وكان بعض كبار الأساقفة ، بما أوتوا من قوة فى الخلق أو سعة فى الثراء ، يسيطرون على حياة أقاليمهم من نواحيها كلها تقريباً . وكان كبار أساقفة مدن همبرج ، وبرمن ، وكولونى ، وترير ، ومينز ، ومجدبرج، وسلزبرج الألمانية من السادة الإقطاعيين الأقوياء ، يختارهم الأباطرة فى كثير من الأحيان لتصريف شئون الإمبراطورية أو ليكونوا لهم سفراء أو مستشارين . وكذلك اضطلع كبار أساقفة ريمس ، ورون ، وكنتربرى ، بمثل هذا الواجب الخطير فى فرنسا ، ونورمندية ، وإنجلترا . ومن كبار الأساقفة — فى

طليطلة ، وليون ، ونربوتة ، وريمس ، وكولونى ، وكنتربرى — من أصبحوا « رؤساء » كباراً ذوى سلطان غير منازع على جميع رجال الدين فى أقاليمهم .

وكان كبار الأساقفة يجتمعون فى مجلس تتألف منه من حين إلى حين حكومة نيابية للكنيسة . وكانت هذه المجالس فى العهود المتأخرة تدعى لنفسها سلطات تعلو على سلطات البابا ؛ أما فى العصر الذى نتحدث عنه ، عصر أعظم البابوات ، فلم يكن أحد فى أوربا الغربية ينازع سلطان أسقف رومة سلطاته العليا الدينية والروحية . وكانت فضائل ليو التاسع وهلدبراند قد كفّرت عن فضائح القرن العاشر ، كما أخذ سلطان البابوية ينمو بين صروف القرن الثانى عشر المتقلبة وكفاحه نمواً مكن إنوسنت الثالث من أن يدّعى أن هذا السلطان يمتد إلى جميع بقاع الأرض . فقد كان الملوك والأباطرة يمسكون بركاب خادم خدم الله ، ذى الثياب البيض ، ويقبّلون قدمبه . وأضحى منصب البابوية فى ذلك الوقت أسمى ما يطمع فيه إنسان على ظهر الأرض ، فكانت أذكى العقول وقتئذ تتهيأ فى أشد مدارس اللاهوت والقانون صرامة لتشغل فيما بعد مكاناً بين رجال الكنيسة . وكان الذين يرقون منهم إلى الذروة رجالا من ذوى العقول الجبارة والقلوب الباسلة لا يخشون أن يحكموا قارة بأجمعها ؛ وقلما كان موت الواحد منهم يثنى غيره عن مواصلة السياسة التى وضعها هؤلاء الرجال هم ومجالسهم ؛ فلقد أتم إنوسنت الثالث ما لم يتمه جريجورى السابع ، وفاز إنوسنت الرابع والإسكندر الرابع بالنصر فى الكفاح الذى قام به إنوسنت الثالث وجريجورى التاسع ضد الأباطرة الذين أرادوا تضييق سلطان البابوية .

وكان سلطان البابا يؤول إليه من الوجهة النظرية من الحقوق التى منحها المسيح الحواريين . وكانت حكومة الكنيسة بهذا المعنى حكومة دينية — أى حكومة الشعب ، عن طريق الدين ، على أيدى خلفاء الله فى الأرض . لكن الكنيسة كانت بمعنى آخر حكومة دمقراطية : فقد كان فى وسع أى إنسان فى

العالم المسيحى ، عدا المصابين فى عقولهم أو أجسامهم ، والمحكوم عليهم فى جرائم ارتكبوها ، والمطرودين من حظيرة الدين ، والأرقاء — كان فى وسع أى إنسان عدا هؤلاء أن يُختار قساً أو بابا . وكان الأغنياء فى هذا المجال ، كالأغنياء فى كل مجال سواه ، تتاح لهم فرص أكثر من غيرهم لأن يُعِدوا أنفسهم لتسنم درجات هذا السلم الدينى الكثيرة ؛ غير أن الباب كان مفتوحاً لجميع الناس على السواء . وكانت المواهب العقلية ، لا الآباء والجدود ، هى التى يعتمد عليها النجاح فى أكثر الأحيان . وقد خرج مئات من الأساقفة وعدد كبير من البابوات من بين صفوف الطبقة الفقيرة[117] ؛ وكان سريان هذا الدم الجديد من جميع الطبقات فى طوائف رجال الدين بمثابة غذاء مستمر لعقولهم ، وقد « ظل عصوراً طوالا الاعتراف العملى الوحيد بمساواة الناس بعضهم بعضاً »(*) .

ولقد مر بنا أن حق اختيار البابا قد اقتصر على « الأساقفة الكرادلة » المقيمين فى رومة ؛ ثم زيد عدد هؤلاء الكرادلة السبعة تدريجاً بمن ضمهم البابوات إليهم من أمم مختلفة ، حتى أضحوا كلية مقدسة مؤلفة من سبعين عضوا يمتازون من غيرهم بقلانسهم الحمراء ومآزرهم الأرجوانية ، وأضحوا طبقة جديدة فى سلم الدرجات الدينية لا يعلو عليهم إلا البابا نفسه .

(*) من كتاب جيمس وستفول طمسن James Westfall Thomsou « تاريخ العصور الوسطى الاقتصادى والاجتماعى Economic and Social History of the Middle Ages المطبوع بنيويورك سنة ١٩٢٨ ص ٦٠١ . انظر أيضاً قول فلتير : « كانت الكاثوليكية تمتاز على الدوام بأنها تحص بدوى الجدارة ما تختص به الحكومات الأخرى ذوى النسب العريق » . مقال فى آداب أوربا وأخلاقها (Esssay on the Manners and Morals of Europe فى مجموعة مؤلفاته المطبوعة فى نيويورك عام ١٩٢٧ المجلد الثالث عشر ص ٣٠) ويقول هتلر إن هذا هو مصدر السلطة القوية التى لا يصدقها العقل والتى تستقر فى هذه المنظمة المعمرة . ذلك أن هذا الحشد الكبير من الروساء الدينيين ، بفضل السنة التى جرى عليها دائما دون استثناء سنة سد ما يطرأ على صفوفه من نقص بين أدنى طبقات الأمم ، يفضل هذه السنة يحتفظ هذا الحشد بما بينه وبين عالم العاطفة الشعبية من رابطة غزيرية ، ويضمن لنفسه فوق هذا قدراً من الطاقة والنشاط والقوة سيظل بهذه الصورة موجوداً إلى أبد الدهر فى جمهرة الشعب . من كتاب كفاحى Mein Kamp المطبوع فى نيويورك سنة ١٩٣٩ ص ٦٤٣) .

وكان البابا يحكم دولة روحية بلغت فى القرن الثالث عشر ذروة مجدها ، ويساعده فى حكمها أولئك الرجال وطائفة كبيرة من رجال الكنيسة وغيرهم من الموظفين يؤلفون جميعاً « الكوريا » Curia أو المحكمة التنفيذية والقضائية . وكان من حقه وحده أن يدعو للانعقاد مجلسا عاما من الأساقفة ، ولم يكن لما يصدرونه من الشرائع أية قوة إلا إذا صدق عليه البابا بمرسوم من قبله . وكان له الحرية المطلقة فى تفسير قانون الكنيسة ، وإعادة النظر فيه ، وتوسيعه ، وإعفاء من يرى إعفاءه من قواعده . وكان [illegible]كمة العليا التى تستأنف إليها أحكام محاكم الأسقفيات ، وكان هو وحده الذى يستطيع أن يغفر بعض الذنوب الخطيرة أو يصدر صكوك الغفران الكبرى ، أو يسلك شخصاً فى زمرة القديسين . وكان على جميع القساوسة بعد عام ١٠٥٩ أن يقسموا يمين الطاعة له ، وأن يقبلوا رقابة مندوبى البابا على شئونهم . وكانت جزائر مثل سردانية وصقلية ، وأمم كالإنجليز ، والمجر ، والأسبان تعترف بأنه سيدها الإقطاعى وترسل إليه الجزية ؛ وكان فى وسعه أن يرقب بعينيه ويحرك بيديه كل جزء من أجزاء مملكته عن طريق الأساقفة ، والقساوسة ، والرهبان ، المنبثين فى كل مكان ، فقد كان هؤلاء يكونون هيئة للمخابرات والإدارة لا نظير لها فى أية دولة من الدول . وهكذا عاد إلى رومة شيئاً فشيئاً ، بدهاء باباواتها ، ما كان لها من سلطان على أوربا معتمدة على ما كان لكلمة الدين من قوة عجيبة .

الفصل السابع

البابوية فى أوجها ١٠٨٥ ـ ١٢٩٤

ولم يقض على النزاع الذى قام بين الكنيسة والدولة حول المناصب الكنسية بعد عهد جريجورى السابع وانتصار الإمبراطورية فى الظاهر . بل ظل هذا النزاع قائماً جيلا من الزمان ، تولى فيه عدة أحبار ، وانتهى بتراض بين الطرفين فى اتفاق ورمز Worms (١٢٢٢) الذى عقد بين البابا كلكستس الثانى Calixtus II والإمبراطور هنرى الخامس . وقد سلم هنرى بمقتضى هـذا الاتفاق بحق الكنيسة فى « تعيين كل من يتمتعون بالخاتم والعصا » ، ورضى أن « يجرى » انتخاب الأساقفة ورؤساء الأديرة « حسب القوانين الكنسية » ، أى أن يقوم به رجال الدين أو الرهبان دوو الشأن — « وأن يكون بمأمن من كل تدخل » واستخدام للمال . ووافق كلكستس على أن يجرى انتخاب الأساقفه ورؤساء الأديرة الذين يمتلكون أرضاً من التاج فى حضور الملك ؛ وأنه إذا قام النزاع حول الانتخابات كان من حق الملك أن يفصل بين المتنازعين بعد استشارة أساقفة الإقليم ؛ وأن على الأسقف أو رئيس الدير الذى يمتلك أرضاً من الملك أن يؤدى له جميع الالتزامات الإقطاعية التى يجب على التابع أن يؤديها للمتبوع(١١٨) . وكانت اتفاقات مماثلة لهذا الاتفاق قد عقدت قبل ذلك الوقت مع إنجلترا وفرنسا . وادعى كل من الطرفين أنه هو المنتصر ، والحق أن الكنيسة تقدمت بهذه الاتفاقات خطوة كبيرة نحو استقلالها بشئونها ، ولكن الروابط الإقطاعية ظلت تعطى الملك الكلمة المسموعة فى اختيار الأساقفة فى جميع أنحاء أوربا(١١٩) .

وحدث فى عام ١١٣٠ أن انقسمت هيئة الكرادلة شيعتين ، اختارت إحداهما لكرسى البابوية إنوسنت الثانى واختارت الثانية أنكليتس الثانى Anacletus II . وكان أنكليتس ينتمى إلى أسرة پيرليونى Pierleoni الشريفة ، ولكنه كان له جد يهودى اعتنق الدين المسيحى ، وكان معارضوه يسمونه « الجد اليهودى » ؛ وبعث القديس برنار ، وهو رجل كان فى غير هذا الظرف الخاص صديقاً لليهود ، برسالة إلى الإمبراطور لوثير الثانى Lothaire II يقول إن « مما يجلل المسيح بالعار أن يجلس رجل من أصل يهودى على كرسى القديس بطرس » — وقد نسى قوله هذا أصل بطرس نفسه . وأيدت كثرة رجال الدين ، وأيد ملوك أوربا كلهم إلا واحداً منهم ، إنوسنت الثانى ، وأخذت الجماهير فى أوربا تسلى نفسها بتوجيه المثالب لأنكليتس ، واتهامه بأنه يضاجع المحرمات عليه ، وينهب الكنائس المسيحية ليغنى بأموالها أصدقاءه اليهود ؛ ولكن أهل رومة ظلوا يؤيدونه إلى يوم وفاته (١١٣٨) . وأكبر الظن أن قصة أنكليتس هى مصدر خرافة أندريس Andreais التى ذاعت فى القرن الرابع عشر عن « البابا اليهودى »(١١٩م) .

وكان هدريان الرابع (١١٥٤ — ١١٥٩) مثلا آخر لما يستطيع أن يرقى إليه من الدرجات الرفيعة ذوو المواهب السامية . فقد ولد من أسرة وضيعة فى إنجلترا ، وجاء إلى أحد الأديرة يطلب الصدقات . وارتفع نقولاس بريكسپير Nicholas Breakspear بجدارته وحدها إلى منصب رئيس الدير وإلى كردينال ثم إلى بابا . ووهب أيرلندة إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا ، وأرغم بربرسا على أن يقبل قدميه ، وكاد يحتال على الإمبراطور العظيم ويقنعه بأن يسلم بحق البابوات فى أن يتصرفوا حسب مشيئتهم فى عروش الملوك . ولما مات هدريان اختارت كثرة الكرادلة إسكندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١) واختارت أقلية منهم ڤكتور الرابع . وأراد بربرسا أن يستعيد السلطة التى كانت للأباطرة الألمان

على البابوية ، فدعا كلا الرجلين لأن يعرضا عليه مطالبهما . فأما الإسكندر فرفض الطلب ، وأما ڤكتور فقبله ، وأيد بربرسا فى مجمع پاڤيا المقدس (١١٦٠) اختيار ڤكتور لكرسى البابوية ، فما كان من الإسكندر إلا أن أصدر قراراً بحرمان فردريك ، وأعفى رعايا الإمبراطور من طاعته فى الشئون المدنية ، وساعد الثورة القائمة عليه فى لمباردية . وأذل انتصار الجامعة اللمباردية فى لنيانو (١١٧٦) فردريك ، فعقد الصلح مع الإسكندر فى مدينة البندقية ، وقبل قدمى البابا مرة أخرى . وأرغم هذا البابا نفسه هنرى الثانى ملك إنجلترا على أن يسير حافى القدمين إلى قبر بكت Becket ، وأن يتلقى هناك درساً فى الطاعة من قساوسة كنتربرى . وكان كفاح الإسكندر زمنا طويلا ونصره المؤزر فى هذا الكفاح هما اللذين مهدا السبيل لبابا من أعظم البابوات على بكرة أبيهم .

ولد إنوسنت الثالث فى أنيانى القريبة من رومة فى عام ١١٦١ . وكان وهو لا يزال يسمى لوتاريودى كنتى Lotariodei Conti ، ابن كونت سني Segni يتصف بجميع المزايا التى يمتاز بها أبناء الأشراف ممن نالوا قسطاً كبيراً من الثقافة . ثم درس الفلسفة واللاهوت فى باريس ، والشريعة الكنسية والمدنية فى بولونيا Bologna ، ولما عاد إلى رومة استطاع بمهارته الدبلوماسية ، وعلمه الواسع بالعقائد الدينية ، وصلاته بأصحاب النفوذ ، أن يرقى رقياً سريعاً فى المناصب الدينية ؛ فكان وهو فى الثلاثين من عمره شماساً أكبر ، ولما بلغ السابعة والثلاثين اختير بابا بإجماع الآراء وإن لم يكن قد أصبح قسيساً (١١٩٨) ، وجلس على كرسى البابوية فى اليوم التالى ليوم اختياره ، وكان من حسن حظه أن الإمبراطور هنرى السادس الذى تمت له السيادة على إيطاليا وصقلية قد مات فى عام ١١٩٧ وترك عرش الإمبراطورية لفردريك الثانى ، وهو طفل فى الثالثة من عمره . وانتهز إنوسنت هذه الفرصة السانحة ، وكان فى استخدامها جد عنيف : فقد طرد رئيس بلدية رومة الألمانى من منصبه ، وأخرج الملتزمين الألمان من

، اسبوليتو Spoletp وپروچيا Perugia ، وتقبل خضوع تسكانيا ، وأعاد حكم البابا فى الولايات البابوية ، واعترفت به أرملة هنرى سيدا أعلى للصقليتين ، وقبل هو أن يكون وصياً على ابنها ، ولم تمض عشرة شهور حتى كان إنوسنت سيد إيطاليا بلا منازع .

ويدل ما لدينا من الشواهد على أنه كان أعظم أهل زمانه عقلا ، فقد ألف وهو فى بداية العقد الرابع من عمره أربعة كتب فى علوم الدين ، تمتاز بغزارة المادة وبلاغة الأسلوب ، ولكن هذه الكتب قد طغى عليها سنا شهرته السياسية . وكانت عباراته التى ينطق بها فى الشئون البابوية تمتاز بالوضوح والتفكير المنطقى السليم ، وقوة العبارة ؛ ولولا منصبه الدينى لبلغ فى الفلسفة ما بلغه أكويناس ، ولبلغ فى الأدب مبلغ أبلار وإن امتاز عنه بصدق العقيدة . وقد أكسبته عيناه الثاقبتان ، وأكسبه وجهه الأسمر ، مهابة لم ينتقص منها قصر قامته . ولم تكن تعوزه الفكاهة ، وكان يجيد الغناء ، ويقرض الشعر ، وكان رقيق الحاشية ، وفى وسعه إذا شاء أن يكون رحيما ، صبورا ، ومتسامحا فيما يمس شئونه الخاصة . أما فيما يختص بعقيدته وأخلاقه ، فلم يكن يقبل أى انحراف عن أحكام الكنيسة أو مبادئها الخلقية ؛ وإذ كان عالم الإيمان والأمل المسيحيين هو الدولة التى دعى لحمايتها فقد كان يسعه كما يسع غيره من الملوك أن يدافع عن دولته بحد السيف إذا لم تكف الكلمة للدفاع عنها . وكان وهو الذى ولد فى مهد الثراء يعيش عيشة البساطة الفلسفية ، طول حياته ، طاهر اليد فى عصر فشت فيه الرشوة فى كل مكان(١٢٠) . وما كاد يتولى منصبه حتى حرم على موظفى هيئة الكرادلة أن يتقاضوا أجرا على ما يقومون به من أعمال . وكان يحب أن يرى كرسى الرسول بطرس يثرى من مال العالم كله ؛ ولكنه كان يصرف أموال البابوية بنزاهة معقولة . وكان دبلوماسيا بارعا . وكان له نصيب معتدل من النقائص الخلقية التى تلازم هذه الحرفة الممتازة(١٢١) . وكأن الزمن قد عاد به

أحد عشر قرنا إلى الوراء ، فجعله إمبراطورا رومانيا رواقيا أكثر منه مسيحيا ، لا يشك قط فى أن من حقه أن يحكم العالم .

وكان من الطبيعى ، وذكرى هؤلاء البابوات الأقوياء لا تزال ماثلة فى أذهان أهل رومة ، أن يقيم إنوسنت سياسته على الاعتقاد بقداسة منصبه ورسالته . ولهذا كان شديد الحرص على أبهة الاحتفالات البابوية وفخامتها ، ولم ينزل قط أمام الجماهير عن قلامة ظفر من جلال منصبه وعظمته . وكان صادق الإيمان بأنه هو وارث السلطات التى يعتقد الناس عامة أن المسيح وهبها للحواريين وللكنيسة ، فلم يكن فى مقدوره أن يعترف بأن لأحد ما له هو من السلطان . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إن المسيح لم يترك لبطرس حكم الكنيسة كلها فحسب بل ترك له حكم العالم بأجمعه »(١٢٢). ولم يكن يدعى لنفسه السلطة العليا فى الشئون الأرضية أو الزمنية الخالصة ، اللهم إلا فى الولايات البابوية(١٢٣) ، ولكنه كان يصر على أنه إذا ما تعارضت السلطة الروحية مع السلطة الزمنية وجب أن تسمو السلطة الروحية على السلطة الزمنية كما تسمو الشمس على القمر . وكان يستمسك بالمثل الأعلى الذى ستمسك به جريجورى السابع — وهو أن على الحكومات أن ترضى بأن يكون لها مكان فى دولة عالمية يتولى البابا رياستها ، على أن تكون له الكلمة العليا فى جميع الشئون القضائية ، والأخلاقية ، والعقائد الدينية ، وأوشك فى وقت ما أن يحقق هذا الحلم ، فقد نفذ جزءاً من خطته على أثر استيلاء الصليبيين على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ ، إذ خضعت الكنيسة اليونانية إلى أسقف رومة : واستطاع أن يتحدث وهو مغتبط عن ثوب المسيح غير المخيط ؛ وأخضع بلاد العرب وأرمينية البعيدة نفسها لسيطرة الكرسى البابوى فى رومة ؛ واستطاع أن يكون هو صاحب الحق فى تعيين رجال الدين فى مناصبهم ؛ واندفع فى سلسلة من المغامرات والنزاع الخطيرة انتهت بإرغام رؤساء الحكومات الأوربية على الاعتراف بسيادته عليهم سيادة لم يسبق لها من قبل مثيل . هذا فى

فى خارج إيطاليا ، أما فى إيطاليا نفسها فكانت سياسته أقلّ من هذا نجاحاً : فقد عجز فيما بذله من جهود متعددة للقضاء على الحروب القائمة بين دول المدن الإيطالية ، ونغّص عليه أعداؤه السياسيون فى رومة حياته وجعلوها غير آمنة حتى كان فى وقت من الأوقات يخشى المقام فى عاصمته . كذلك أفلح الملك شڤير Severre النرويجى (١١٨٤ — ١٢٠٢) فى مقاومته بالرغم من صدور قرار الحرمان عليه(١٢٤) هو وبلاده ، وتجاهل فليب الثانى ملك فرنسا أمره حين عقد الصلح مع إنجلترا ، وإن كان قد خضع لما أصر عليه البابا من أن يعيد زوجته التى هجرها ، واقتنع ألفنسو التاسع صاحب ليون Leon أن يفارق برنجاريا Berengaria التى تزوجها لأنها من قريباته المحرمات عليه . واعترفت البرتغال ، وأرغونة ، وبلاد المجر ، وبلغاريا ، بأنها إقطاعيات بابوية ، وأعطت البابا جزية سنوية ، ولما رفض الملك چون أمر البابا بتعيين لانجتن Langton كبيراً لأساقفة كنتربرى اضطره البابا بقرار التحريم الذى أصدره على إنجلترا وبدهائه السياسى أن يضم إنجلترا إلى الإقطاعات البابوية . ووسع إنوسنت سلطاته فى ألمانيا بأن أعان أتو الرابع على فليب صاحب سوابيا Swabia ، ثم أعان فيليب على أتو ، وحصل فى كلتا الحالين على منح وامتيازات للبابوية نظير انتصاره لكلا الطرفين المتنازعين ، فضلا عن تحرير الولايات البابوية مما كان يتهددها من التطويق ؛ وأذكر الإمبراطور أن بابا من البابوات هو الذى « نقــل » السلطة الإمبراطورية من اليونان إلى الفرنجة ، وأن شارلمان لم يصبح إمبراطوراً إلا بعد أن مسحه البابا وتوّجه ، وأن فى مقدور البابوات أن يستردوا ما منحوا . وحسبنا دليلا على سلطان إنوسنت ما وصفه به زائر بيزنطى إلى رومة إذ قال إن إنوسنت « ليس خليفة بطرس بل خليفة قسطنطين »(١٢٥)

وقد أحبط ما بذله الحكام الزمنيون من جهود لفرض الضرائب على رجال الدين دون رضاء البابا ، ورصد المال فى الكرسى البابوى لمعونة القساوسة المحتاجين ،

ويبذل ما فى وسعه لتحسين تربية رجال الدين وتعليمهم ؛ وقد رفع من منزلتهم الاجتماعية حين عرّف الكنيسة بأنها ليست جميع المؤمنين المسيحيين بل هى جميع رجال الدين المسيحيين ؛ وقاوم عادة استيلاء الأساقفة أو رؤساء الأديرة على العشور التى تجمع من الأبرشيات وحرمان قساوسة الأبرشية منها[١٣٦] . وعمل على إصلاح ما كان فى أديرة الرجال والنساء من تراخ وإهمال بأن نظم زيارات متتابعة لهذه الأديرة لمعرفة أحوالها والتفتيش عليها . واستطاع بفضل ما وضعه من التشريعات أن يحدد العلاقة بين رجال الدين وغير رجال الدين ، وبين القساوســة والأساقفة ، والأساقفة والبابوات . ورفع من شأن المجلس البابوى فجعله محكمة قديرة للمشورة ، والإدارة ، والقضاء ، حتى أضحت وقتئذ أقدر هيئة حاكمة فى زمانها ، وقد ساعدت إجراءاتها ومصطلحاتها على تشكيل فن الدبلوماسية وطرائقها . وأكبر الظن أن إنوسنت نفسه كان أعظم أهل زمانه تبحراً فى القانون ، وأنه كان قادراً على أن يجد فى المنطق والسوابق سنداً قانونياً لكل قرار يصدره . وكان العلماء والمشترعون يهرعون إلى « مجمع الكرادلة » حيث كان يرأس هذه الهيئة بوصفها المحكمة الكنسية العليا ، ليفيدوا من نقاشها وأحكامها فى المسائل القانونية المدنية والدينية ؛ وقد أسماه بعضهم « أبا القانون Pater iuris »[١٢٧] ، وأسماه آخرون حباً وتفكهاً سليمان الثالث[١٢٨] .

وكان آخر ما ناله من نصر بوصفه مشترعاً وبابا أن رأس فى عام ١٢١٥ مجلس لاتران الرابع الذى عقد فى كنيسة القديس يوحنا بروما . وأقبل على هذا المجلس العام الثانى عشر ألف وخمسمائة من رؤساء الأديرة ، والأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، وغيرهم من علية رجال الدين والمندوبين فوق العادة من جميع الأمم ذات الشأن فى العالم المسيحى المتحد . وكانت خطبة الافتتاح التى ألقاها البابا اعترافا وتحديا غاية فى الجرأة إذ قال « إن أكبر سبب فى فساد الخلق هو فساد رجال الدين أنفسهم ، وهذا هو مصدر كل ما فى العالم المسيحى من شرور : فقد

انمحى الإيمان ، وطمست معالم الدين . . . ووطئت العدالة بالأقدام ، وكثر الخارجون على الدين ، وجرؤ الناس على الانشقاق ، وازداد غير المؤمنين قوة ، وانتصر المسلمون(١٢٩) » . ورضيت سلطات الكنيسة وعقولها المجتمعة فى هذا المجلس أن يسيطر عليها رجل واحد سيطرة تامة ، فكانت أحكامه هى قرارات المجلس ، وقبلت هذه السلطات أن يعيد هو تعريف عقائد الكنيسة الأساسية ، وأن يحدد معناها ؛ وعرِّفت لأول مرة تعريفاً رسمياً عقيدة استحالة العشاء الربانى إلى لحم المسيح ودمه . وقبل المجلس قرارات البابا التى تطلب إلى غير المسيحيين فى البلاد المسيحية أن يلبسوا شارة خاصة تميزهم من غيرهم ، واستجاب بحماسة إلى دعوته بشن حرب على الملاحدة الألبجنسيين ؛ ولكنه أيضاً أيده فى الاعتراف بنقائص الكنيسة وعيوبها ، وشَّهر ببيع المخلفات الزائفة ، وانتقد انتقاداً شديداً صكوك الغفران التى « لا يتورع بعض رجال الدين . . . عن منحها ويسرفون فى ذلك إسرافاً بعيداً عن الحكمة ، والتى أضحت مفاتيح الكنيسة بفضلها محتقرة ، وفقدت التوبة ما كان لها من قوة »(١٣٠) . وحاول المجلس أن يصلح حياة الرهبنة إصلاحاً شاملا ، وندد بإدمان رجال الدين الخمر وما انحدروا إليه من فساد فى الأخلاق ، وزواج فى الخفاء ؛ واتخذ بإزائهم إجراءات شديدة ؛ ولكنه رفض ما ادعاه الألبجنسيون من أن كل اتصال بين الرجال والنساء إثم . وملاك القول أن مجلس لاتران الرابع كان فى كثرة من حضره ، وفى اتساع مداه وآثاره ، أهم مجمع عقدته الكنيسة بعد مجلس نيقية .

وبعد أن بلغ إنوسنت ذروة المجد فى حياته أخذ ينهار مسرعا نحو منيته العاجلة . ذلك أنه قد انهمك فى توسيع سلطانه وإدارة أعماله انهماكاً دائماً لم يخلد فيه قط إلى شىء من الراحة ، وأنهك قواه وهو لا يزال فى الخامسة والخمسين من عمره . ومن أقواله وهو يتحسر : « ليس لدى متسع من الوقت أفكر فيه فى الشئون السماوية ، بل إنى قلما أجد وقتاً للتنفس ، ولقد كرست حياتى لغيرى

حتى كدت أصبح غريباً عن نفسى(١٣١) » ، ولعله كان يسعه فى آخر سنة من حياته أن يرجع بذاكرته إلى أعماله ، وأن يحكم عليها حكماً موضوعياً أصدق من حكمه عليها فى غمرة النزاع الذى كان وقت أن قام بها . لقد أخفقت الحملات الصليبية التى نظمها لاسترداد فلسطين ، وكانت الحملة التى نجحت بعد وفاته هى التى أبيد فيها الألبجنسيون فى جنوبى فرنسا بوحشية مجردة من كل رحمة . نعم إنه نال إعجاب مواطنيه ، ولكنه لم ينل حبهم كما ناله جريجورى الأول أو ليو التاسع ، وقد شكا بعض رجال الدين من أنه كان ملكاً أكثر منه رجل دين ؛ وظن القديس لتجاردس Lutgardis أنه لن يستطيع الفرار من النار إلا بشق الأنفس(١٣٢) ؛ وحتى الكنيسة نفسها امتنعت عن أن تسلكه فى عداد القديسين وفيهم من هم أقل وأكثر منه إطاعة لصوت الضمير ، وإن كانت تفخر بعبقريته وتشكر له صادق جهوده .

ولكننا لا ينبغى لنا أن نضن عليه بأنه رفع الكنيسة إلى ذروة مجدها ، وأوشك أن يحقق ما كانت تحلم به من أن تصبح دولة عالمية مسيطرة على شئون الناس الأخلاقية . وكان هو أقدر حكام زمانه ، يعمل لتحقيق أغراضه ببعد نظر ، وإخلاص ، ومزيج من الإصرار والمرونة ، وجهود لا يكاد يصدقها الإنسان ؛ فلما مات فى عام ١٢١٦ كانت الكنيسة قد بلغت من دقة التنظيم ، وعظيم الأبهة ، وبعد الصيت ، وقوة السلطان ، ما لم تعرف له نظيراً قبل ، وما لم تستمتع به بعد إلا فى فترات جد نادرة وقصيرة .

وليست لهونوريوس الثالث (١٢١٦ — ١٢٢٧) منزلة عالية فى سجلات التاريخ القاسية ، لأنه كان لرقة حاشيته عاجزاً عن أن يخوض بقوة الحرب الناشبة بين الإمبراطورية والبابوية ؛ أما جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) فقد خاض غمار هذه الحرب بعزيمة تكاد تصل إلى درجة التعصب ، وإن كان قد بلغ الثمانين من العمر حين جلس على كرسى البابوية ؛ وقد حارب فردريك

الثانى وانتصر عليه انتصاراً كان من أثره آن تأخر عصر النهضة مائة عام ؛ وهو الذى نظم محكمة التفتيش ، ولكنه كان إلى ذلك مخلصاً إخلاصاً لا يرق إليه الشك ، تقيا إلى حد البطولة ، قويا فى دفاعه عما حسبه أثمن ما يملكه بنو الإنسان وهو الدين الذى جاء به المسيح .

وهل كان هـــذا الرجل قاسياً غليظ القلب ، وهو الذى حمى كردينال فرانسس وهداه بحكمته ، ولولا هذا لكان من الجائز أن يصبح من الملحدين المارقين . وقضى إنوسنت الرابع (١٢٤٣ — ١٢٥٤) على فردريك الثانى . وأقر استخدام محكمة التفتيش للتعذيب(١٣٣) . وكان نصيراً صادقاً للفلسفة ، مساعداً للجامعات ، مؤسساً لمدارس القانون . وكان اسكندر الرابع (١٢٥٤ — ١٢٦١) محباً للسلم ؛ رحيما ، شفيقاً عادلا « أدهش العالم ببعده على الاستبداد »(١٣٤) ومعارضته لصفات أسلافه العسكرية »(١٣٥) ، يفضل التقى عن السياسة ؛ وقد مات « كسير القلب » كما يقول مؤرخ فرنسسكانى « ولم يتقطع يوما عن التفكير فيما بين المسيحيين من نزاع متزايد رهيب »(١٣٦) ؛ وعاد كلمنت الرابع (١٢٦٥ — ١٢٦٨) إلى امتشاق الحسام ، ودبر هزيمة مانفرد Manfred ، وقضى على أسرة هوهنستاوفن وعلى ألمانيا الإمبراطورية . ولما استعاد اليونان مدينة القسطنطينية تعرض الاتفاق القائم بين الكنيسة اليونانية والرومانية لخطر الزوال ؛ ولكن جريجورى العاشر (١٢٧١—١٢٧٦) استحق حمد ميخائيل پليلجوس Miehael Palealogus بمقاومته مطامع شارل دوق أنجو فى الاستيلاء على القسطنطينية ؛ فلما عاد إمبراطوطور الروم إلى ملكه أخضع الكنيسة اليونانية إلى رومة ، وعادت البابوية إلى ما كانت عليه من تفوق .

الفصل الثامن

مالية الكنيسة

لقد كانت الكنيسة فى واقع الأمر دولة أوربية فوق الدول جميعها : تضطلع بشئون العبادات ، والأخلاق ، والتعليم ، والزواج ، والحروب العامة ، والحروب الصليبية ، والموت ، والوصايا ، لنصف سكان قارة من القارات ، وتشترك اشتراكا فعليا فى تصريف الشئون الزمنية ، وتقيم أكثر الصروح نفقة فى تاريخ العصور الوسطى ، ولهذا كله لم تكن تستطيع أن تقوم بهذه الوظائف كلها إلا باستغلال مائة مصدر من مصادر الإيراد .

وكانت العشور أكبر مصادر هذا الإيراد : ذلك أن قانون الدولة فرض بعد شارلمان على جميع الأراضى التى يمتلكها غير رجال الدين أن تؤدى عشر مجموع غلتها أو ريعها عيناً أو نقداً إلى الكنيسة المحلية ؛ كذلك فرض على كل أبرشية بعـــد القرن العاشر أن تبعث بجزء من عشورها إلى مطران الأسقفية . وأجازت مبادئ الإقطاع أن تقطع عشور الأبرشية للغير ، وترهن ، ويوصى بها ، وتباع ، شأنها فى هذا شأن جميع الأملاك أو الإيراد ، فلم يكد يحل القرن الثانى عشر حتى نشأت شبكة مالية معقدة كانت الكنيسة المحلية وقسيسها هما القائمين على جمع عشورها ولم يكونا من مستهلكيها . وكان ينتظر من القس أن « يصب اللعنات من أجل عشوره » على حد قول الإنجليز — أى أن يُخرج من الدين من يحاولون التملص من أدائها أو يزورون فى إيرادهم ؛ لأن الناس فى تلك الأيام كانوا يكرهون أداء العشور للكنيسة التى يرون أن أعمالهـــا لازمة لنجاتهم ، كما يكرهون فى هذه الأيام أداء الضرائب للدولة . فنحن نسمع عن ثورات يقوم بها دافعو العشور من آن إلى آن : فقد حدث فى رجيو إميليا Reggio Emilia عام

١٢٨٠ ، كما يقول الراهب سلمبين Salimbene ، أن تحدى الناس قرارات الحرمان والتحريم ، وتعاهدوا على « ألا يؤدى أحد منهم أى عشور إلى رجال الدين . . . وألا يجلسوا معهم على مائدة الطعام . . . وألا يقدموا لهم طعاما أو شرابا — وهو حرمان معكوس ، اضطر معه الأسقف إلى أن يترضاهم(١٣٧) .

وكان مصدر إيراد الكنيسة الأساسى هو أراضيها التى حصلت عليها بالهبة أو الوصية ، وبالبيع أو إغلاق الرهن ، أو بإصلاح الأراضى البور بأيدى جماعات الرهبان أو غيرها من الجماعات الدينية . وكان ينتظر من كل مالك حسب السنن الإقطاعية أن يوصى حين مماته بجزء من ماله للكنيسة ؛ وكان الذين لا يفعلون هذا يرتاب فى صدق إيمانهم ، ويتعرضون لعدم الدفن فى الأراضى المخصصة للموتى الصالحين(١٣٨) . وإذا كان الذين يعرفون الكتابة من غير رجال الدين نسبة ضئيلة من الأهلين ، فإن القس كان هو الذى يدعى فى العادة إلى كتابة الوصايا . وقد أصدر البابا إسكندر الثالث فى عام ١١٧٠ قراراً يحرم على أى إنسان عمل وصية صحيحة من الوجهة القانونية إلا فى حضرة قسيس ، وينص على أن كل موثق من غير رجال الدين يجرؤ على كتابة وصية بغير هذا الشرط يطرد من حظيرة الدين(١٣٩) ، وكانت الكنيسة وحدها هى المختصة بإثبات صحة الوصايا . وكانت الهبات أو الوصايا لكنيسة ما فى نظر الناس هى أول الطرق الموثوق بها للنجاة من آلام المطهر . وكان عدد كبير من الوصايا للكنيسة ، وبخاصة قبل عام ١٠٠٠ م يبدأ بهذه العبارة : Adventante mudi vespero ، ومعناها أنه « لما كانت أمسية العالم قريبة »(١٤٠) . ولقد سبق القول إن بعض الملاك كانوا ينزلون عن أموالهم إلى الكنيسة بوصف ذلك تأميناً لهم من العجز : فكانت الكنيسة تؤدى للراهب راتباً سنويا وترعاه فى حالتى المرض والشيخوخة ، على أن تتسلم تركته خالية من جميع الحقوق العينية حين وفاته(١٤١) . وكانت بعض الأديرة « تؤاخى » المحسنين إليها فتمنحهم نصيباً ، تخفيف عذاب المطهر ، وهو

التخفيف الذى ناله الرهبان بفضل صلواتهم وصالح أعمالهم(١٤٢) . ولم يكتف الصليبيون ببيع أراضيهم إلى الكنيسة بأثمان بخسة ليحصلوا ببيعها على ما يحتاجونه من المال ، بل إنهم استدانوا الأموال من الهيئات الكنسية بضمان ممتلكاتهم أو برهنها لها ؛ وكثيراً ما كانت هذه الممتلكات تؤول إلى تلك الهيئات لعجز أصحابها عن أداء ما عليها من الديون . ومن الناس من كانوا يموتون وليس لهم ورثة طبيعيون فيتركون أملاكهم كلها للكنيسة ، من ذلك أن ماتلدا دوقة تسكانيا Countess Matilda of Tuscany حاولت أن توصى للكنيسة بما يكاد يبلغ ربع مساحة إيطاليا كلها .

وإذ كانت أملاك الكنيسة مما لا يجوز انتقاله إلى غيرها ، وكانت قبل عام ١٢٠٠ معفاة فى الأحوال العادية من الضرائب الزمنية(١٤٣) ، فقد أخذت هذه الأملاك تنمو على مر القرون ، فلم يكن من الأمور غير العادية أن تمتلك كنيسة كبرى ، أو يمتلك دير للرجال أو النساء : عدة آلاف من الضياع تشمل فيما تشمله نحو اثنتى عشرة بلدة ، بل تشمل أحياناً مدينة كبرى أو مدينتين(١٤٤) . فقد كان أسقف لانجر Langres مثلا يمتلك المقاطعة كلها . وكان دير القديس مارتن فى تور يحكم عشرين ألفا من أرقاء الأرض ، وكان أسقف بولونيا يمتلك ألفى ضيعة ، وكان الدير لورسش Lorsch مثل هذا القدر من الضياع ، وكان لدير لاس هوبلحاس Las Huelgas فى أسپانيا أربع وستون بلدة(١٤٥) ؛ وكانت الكنيسة فى قشتالة تمتلك حوالى عام ١٢٠٠ م ربع الأراضى الزراعية ؛ وكانت فى إنجلترا تمتلك خمسها ، وفى ألمانيا ثلثها ، وفى ليڤونيا Livonia نصفها(١٤٦) . على أنه يجدر بنا أن ننبه القارئ إلى أن هذه التقديرات تقريبية ، وليست كلها مما يوثق بصحته . وأضحت هذه الثروة المكدسة موضع حسد الدولة ومطمعها . فقد صادر شارل مارتل أملاك الكنيسة ليمول بها حروبه ، وأصدر لويس التقى القوانين التى تحرّم على من كان له أبناء أن يوصى بأملاكه إلى الكنيسة(١٤٧) .

وجرّد هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا كثيراً من الأديرة من أراضيها ، وقال فى تبرير هذا العمل إن الرهبان قد نذروا أن يعيشوا فقراء ، ووضعت بعض القوانين الإنجليزية الخاصة بالأموال المرصودة قيوداً على انتقال الأملاك إلى « الهيئات » أى الجماعات الكنسية . واستولى إدورد الأول من الكنيسة الإنجليزية فى عام ١٢٩١ على عُشر أملاكها ، كما استولى منها فى عام ١٢٩٤ على نصف دخلها السنوى . وبدأ فليب الثانى سُنّة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة فى فرنسا ، وجرى القديس لويس على هذه السنّة وجعلها فليب الرابع شريعة مقررة . ولما تقدمت الصناعة والتجارة ، وكثرت النقود ، وارتفعت الأثمان ، أصبح دخل الأديرة والأسقفيات الآتى، معظمه من الرسوم الإقطاعية التى كانت مقدرة من قبل على أساس مستوى الأثمان المنخفضة ، والتى لم يكن يستطاع رفعها فى هذه الأيام ، نقول أصبح دخل الأديرة والأسقفيات لايفى بمعيشة من فيها ، دع عنك ترفهم(١٤٨) ، فلم يحل عام ١٢٧٠ حتى كانت كثرة الكنائس والأديرة فى فرنسا مستغرقة فى الدين ؛ ذلك أنها كانت قد استدانت من أصحاب المصارف بفوائد مرتفعة لتفى بمطالب الملوك ؛ وكان هذا من أسباب ضعف نشاط البناء فى فرنسا فى آخر القرن الثالث عشر .

وزاد البابوات فى فقر الأسقفيات بما فرضوه من الضرائب على أملاكها وإيرادها ليمولوا الحروب الصليبية فى بادئ الأمر ، وليوفوا بنفقات الكرسى البابوى المطردة الزيادة فيما بعد ؛ وكان لا بد من وجود مصادر للدخل المركزى كلما وسعت البابوية مجال أعمالها وزادتها تعقيداً . وتحقيقاً لهذه الغاية أمر البابا إنوسنت الثالث (١١٩٩) جميع الأساقفة أن يرسلوا إلى كرسى القديس بطرس جزءاً من أربعين جزءاً من إيرادهم فى كل عام ، وفرضت ضرائب على جميع أديرة الرجال والنساء ، وعلى الكنائس الداخلة فى دائرة الحماية البابوية مباشرة . وفرض البابوات على كل أسقف فى أول اختياره لمنصبه ضريبة تعادل من الوجهة

النظرية جميع إيراده فى السنة الأولى ، ولكنها كانت من الوجهة العملية نصف هذا الإيراد ؟ وذلك نظير تثبيته فى منصبه . وكذلك كانت مبالغ كبيرة تنتظر ممن يعينون رؤساء أساقفة ، وكان يطلب إلى كل بيت من البيوت المسيحية أن يرسل إلى الكرسى البابوى بنساً سنويا (⅟٢٤٠ من الريال الأمريكى) يعرف باسم « بنسات بطرس » . وقد جرت العادة على أن تفرض رسوم على القضايا التى تعرض على المحكمة البابوية . وكان البابوات يدعون لأنفسهم حق الخروج على القانون الكنسى فى بعض الحالات ، كالإذن بزواج من يحرم زواجهم من ذوى القربى إذا بدا لهم أن ثمة غاية سياسية طيبة تبرر هذا الخروج ، وفرضت أجور على الإجراءات القضائية التى يتطلبها هذا العمل . كذلك جاءت إلى البابوات أموال طائلة ممن ينالون صكوك الغفران البابوية ، ومن الحجاج القادمين إلى رومة . وقد حسب دخل الكرسى البابوى فى عام ١٢٥٠ فكان أكثر من دخل رؤساء الدول الأوربية الزمنيين مجتمعين(١٤٩) . ولقد تلقى البابا من إنجلترا فى عام ١٢٥٢ ثلاثة أمثـــال إيراد التاج(١٥٠) .

ومهما تكن ثروة الكنيسة متناسبة مع اتساع وظائفها ، فقد كانت هذه الثروة أهم أسباب الإلحاد فى هذا العصر . فقد أعلن آرنلد البرشيائى Arnold of Brescia أن كل قس أو راهب يموت وله ملك مآله النار لا محالة(١٥١) . وزاد البجوميل Bogoniles والولدنس Waldenses ، والباترين Paterines ، والكاثارى Cathari على ذلك فشنوا حملة شعواء على ثروة أتباع المسيح . وكان من قصائد الهجاء المتداولة فى القرن الثالث عشر قصيدة عنوانها « الإنجيل حسب الماركات الفضية » مطلعها : « وقال البابوات للرومان فى تلك الأيام : إذا جاء ابن الإنسان إلى مقعد جلالتنا فليكن أول ما تقولون : أيها الصديق لم جئت إلى هذا المكان ؟ فإذا لم يعطكم شيئا فألقوا به فى الظلمات الخارجية »(١٥٢) . وإنا لنجد فى جميع آداب ذلك الوقت — فى الأقاصيص الخرافية ، وفى الأغانى ، وفى قصة الوردة Roman de La Rose

وفى قصائد الشعراء الجائلين ، وأشعار شعراء الفروسية الغزليين ، وفى قصائد دانتى ، وفى أقوال مؤرخى الأديرة الإخباريين أنفسهم شكاوى من بخل رجال الدين أو ثرائهم(١٥٣) . وقد ندد ماثيوباريس Mathew. Paris أحد الرهبان الإنجليز بجشع رجال الدين الإنجليز والرومان الذين يعيشون منعمين من أملاك المسيح(١٥٤) . وكتب هيوبرت ده رومان Hubert de Romans رئيس طائفة الرهبان الدمنيك عن « بائعى صكوك الغفران البابوية الذين يفسدون المحاكم الدينية بما يقدمونه من الرشا »(١٥٥) . ويتحدث پترس كانتور Petrus Cantor وهو نفسه قسيس ، عن القساوسة الذين يبيعون القداس أو أدعية الغروب(١٥٦) ؛ وشنع بكت Beckte رئيس أساقفة كنتربرى بمجلس القضاء البابوى الذى يباع ويشترى ، وينقل عن هنرى الثانى قولا له يفخر فيه بأن جميع أعضاء مجلس الكرادلة يتقاضون منه أجورا(١٥٧) . والحق أن تهم الرشوة والفساد قد وجهت إلى كل حكومة ظهرت فى التاريخ . وإن فى هذه التهم لشيئاً من الحقيقة فى جميع الأحوال ، غير أن فيها كذلك بعض المبالغة فى حوادث منشؤها أمثلة صاخبة حدثت فى بعض الأوقات ، ولكن هذه التهم تثير أحياناً غضباً يكاد يبلغ حد الثورة ، ولقد كان يسع الأهلين الذين أقاموا بدريهماتهم الكنائس لمريم العذراء أن يحتجوا وهم غضاب على جشع الكنيسة مجتمعة ، وكم من مرة قتلوا قسا عنيداً(١٥٨) .

واشتركت الكنيسة نفسها فى نقد جشع رجال الدين ، وبذلت كثيراً من الجهود للقضاء على شره رجالها وترفهم . فلقد حاول مئات من رجال الدين من القديس بطرس داميان St. Peter Damian ، والقديس برنار St. Bernard والقديس فرانسس ، والكاردينال ده ڤترى Cardinal de Vitry إلى صغار الرهبان تقليل هذه المساوىء(١٥٩) ، وإن ما كتبه هؤلاء المصلحون من رجال الكنيسة لهو أهم المصادر التى عرفنا منها ما نعرفه عن هذه المساوىء . وقام عدد من طوائف الرهبان ينادون بضرورة إصلاحها ، ويضربون بأنفسهم المثل لما

يجب أن يكون عليه هذا الإصلاح ، وندد البابا اسكندر الثالث ومجلس لاتران الذى عقد فى عام ١١٧٩ بفرض الأجور على أداء مراسم التعميد ، أو مسح المشرفين على الموت ، أو القيام بمراسم الزواج ، ودعا جريجورى العاشر مجلس ليون الجامع سنة ١٢٧٤ خاصة لاتخاذ الإجراءات اللازمة لإصلاح الكنيسة . ولم يكن البابوات أنفسهم فى ذلك العصر ممن يبدو عليهم ميل إلى الترف ، وقد كسبوا مالهم بالانهماك فى أداء واجباتهم المنهكة . وإن من المآسى التى تتعرض لها الروحانيات أنها تضمحل ويضعف شأنها إذا لم يعن بتنظيمها ، وأنها تفسدها ما يتطلبه تنظيمها من ضرورات مادية .

الباب الثامن والعشرون

محاكم التفتيش فى بداية عهدها

١٠٠٠ – ١٣٠٠

الفصل الأول

الإلحاد الألبجنسى

وصارت الحملة على رجال الدين سيلاً جارفاً فى آخر القرن الثانى عشر. فقد كان فى عصر الإيمان مخابئ منعزلة من التصوف الدينى والعاطفة الدينية، بمنجاة من المسيحية الكهنوتية المنظمة، غير راضية عن أعمالها. وأقبلت على بلاد الغرب موجات جديدة من التصوف الشرقى لعلها سارت فى ركاب الصليبيين العائدين إلى بلادهم. وجاءت من بلاد فارس عن طريق آسية الصغرى وبلاد البلقان أصداء الاثنينية المانوية(*) والشيوعية المزدكية. وجاءت من بلاد الإسلام كراهية الصور والاشمئزاز من القساوسة؛ وأعقب الحروب الصليبية وإخفاقها شك خفى فيما يعزى إلى الكنيسة المسيحية من أصل قدسى ومعونة إلهية. وجاء البوليسيون Paulicians إلى إيطاليا وپروڤانس عن طريق بلاد البلقان فارّين نحو الغرب من وجه الاضطهاد البيزنطى، يحملون معهم سخريتهم من الصور المقدسة والعشاء الربانى، ورجال الدين، وقسموا الكون إلى عالم روحى

(*) المانوية أتباع مانى، وهو رجل من أهل همذان عاش بين عامى ٢١٥ و ٢٧٦ وقال إن كل شىء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلام أو الخير والشر. (المترجم)

من خلق الله وعالم مادى من خلق الشيطان ، وقالوا إن الشيطان هو يهوة الوارد ذكره فى العهد القديم . وتكونت طائفة البجوميل Bogomiles (أى أصدقاء الله) فى بلغاريا ، وتسموا فيها بهذا الاسم ، وانتشروا فى البوسنة بنوع خاص ؛ وهوجموا بالسيف والنار فى أوقات مختلفة فى القرن الثالث عشر ، واستماتوا فى الدفاع عن أنفسهم ، ثم استسلموا آخر الأمر (١٤٦٣) للإسلام لا للمسيحية .

وظهرت فى عام ١٠٠٠ شيعة فى طولوز (طلوشة) وأورليان ، تنكر المعجزات وقدرة التعميد على غسل الذنوب ووجود المسيح فى القربان المقدس ، وتأثير الصلوات للقديسين . وأغفل أمرهم إلى حين ، ثم حوربوا ، وأحرق ثلاثة عشر منهم أحياء فى عام ١٠٢٣ . ونشأت شيع ملحدة أخرى شبيهة بهم ، وأعقبت نشأتهم اضطرابات فى كمبريه ، وليبج (١٠٢٥) ، وجسلار Goslar (١٠٥٢) ، وسواسون Soissons (١١١٤) ، وكولونى (١١٤٦) ، وغيرها من المدن ، أحصى منها برثلد الرجنزبرجى Berthold of Regensburg مائة وخمسين شيعة فى القرن الثالث عشر[1] ؛ منها جماعات عديمة الضرر تلتقى ليقرأ بعضها إلى بعض الكتاب المقدس بلغتها القومية دون الاستعانة بقسيس ، وليفسروا بأنفسهم ما فيه من عبارات اختلف الناس فى تفسيرها ؛ ومنها جماعات عدة كالهيوملياتى Humiliati فى إيطاليا ، والبجوين Béguines والبغارد Beghards فى البلاد الوطيئة ، تتمسك بالدين فى كل شىء إلا فى إصرارها المحير على أن يعيش القساوسة فقراء . وكان الفرنسيسكان شيعة من هذا الصنف ، وكانت تعد من الشيع الملحدة ولم تنج من هـــذا إلا بشق الأنفس .

لكن الولد نزيين Waldenses لم ينجوا من هذا المصير ، فقد استأجر تاجر ثرى يدعى بطرس ولدو Pater Waldo فى عام ١١٧٠ جماعة من العلماء ليترجموا الكتاب المقدس إلى اللانج دك langue d'oc لغة جنوبى فرنسا . وأقبل على درس الترجمة بشغف ، وخرج من هذا الدرس معتقداً أن من واجب المسيحيين

أن يعيشوا كما كان يعيش الرسل — ليس للواحد منهم مِلك خاص . ثم نزل عن جزء من ثروته لزوجته ، ووزع الباقى منها على الفقراء ، وقام يدعو الناس إلى أن يعيشوا فقراء . وجمع حوله طائفة قليلة العدد هى « رجال ليون الفقراء » لبسوا مسوح الرهبان ، وعاشوا عيشة العفة والطهارة ، ومشوا حفاة أو منتعلين الصنادل ، وكانوا ينفقون من مكاسبهم مشاعة[٢] . وصبر عليهم رجال الدين بعض الوقت فلم يعارضوهم فى شىء ، وسمحوا لهم بأن يقرأوا أو ينشدوا فى الكنائس[٣] . ولكن بطرس ضرب بمنجله محصول رجل غيره ، منفذاً بذلك أوامر الإنجيل بحرفيتها ، فأذكره رئيس أساقفة ليون بعبارة قوية أن الأساقفة وحدهم هم الذين يجوز لهم أن يعظوا الناس . وسافر بطرس إلى رومة (١١٨٩) ، وطلب إلى الإسكندر الثالث أن يمنحه إذناً بالوعظ ، فأجابه البابا إلى طلبه على شريطة أن يوافق على ذلك رجال الدين المحليون ، وأن يكون خاضعاً لإشرافهم . وواصل بطرس عظاته ، دون أن يحصل على موافقة رجال الدين المحليين ؛ وأصبح أتباعه من أشهر رجال الدين تمسكا بالكتاب المقدس ، وحفظوا فقرات طويلة منه عن ظهر قلب . واصطبغت هذه الحركة تدريجاً صبغة معادية لرجال الدين ، ونبذتهم جميعاً ، وأنكرت صحة العشاء الربانى الذى يقدمه قس آثم ، وعزت إلى كل مؤمن طاهر القدرة على العفو عن الذنوب . وعارض بعض الأعضاء صكوك الغفران ، وعقيدة المطهر . وتحول القربان المقدس إلى جسم المسيح ودمه ، والصلاة للقديسين . وقامت طائفة منهم تنادى بأن « الأشياء جميعها يجب أن تكون ملكا مشاعاً »[٤] . ونادت طائفة أخرى بأن الكنيسة هى المرأة الحمراء المذكورة فى سفر الرؤى[٥] . وصدر فى عام ١١٤٨ قرار بحل هذه الجماعة . وقبل إنوسنت الثالث فى الكنيسة عام ١٢٠٦ فئة منها هى فئة « الكاثوليك الفقراء » ، أما كثرتها الغالبة فقد أصرت على آرائها الخارجة على الدين . وانتشرت من فرنسا إلى أسپانيا وألمانيا . وأصدر مجلس عقد فى طولوز عام ١٢٢٩ : ليقاوم أغلب

الظن انتشار هذه الشيعة ، قراراً يقضى بألا يمتلك شخص من غير رجال الدين كتباً مقدسة عدا كتب الترتيل والأدعية (ومعظمها مزامير) ؛ وحرم عليهم أن يقرأوا هذه الكتب بغير اللغة اللاتينية ، لأن الكنيسة لم تكن حتى ذلك الوقت قد بحثت أية ترجمة إلى اللغات القومية وأيدت صحتها(٦) . ولما قاومت حركة القضاء على الألبجنسيين حُرق آلاف من أتباع ولدو ، ومات بطرس نفسه فى بوهيميا فى عام ١٢١٧ ، ويبدو أنه مات ميتة طبيعية .

وقبل أن ينتصف القرن الثانى عشر كانت بلدان أوربا الغربية معششاً للشيع الملحدة ، حتى قال أحد الأساقفة فى عام ١١٩٠ إن « المدن ملأى بأولئك الأنبياء الكاذبين »(٧) ، وكان فى ميلان وحدها سبعة عشر ديناً جديداً ، وكان أهم الشيع الملحدة فيها شيعة البتريائيين Patarines — ويبدو أن اسمهم مشتق من بتاريا Pataria أحد الأحياء الفقيرة فى البلدة . ويلوح أن هذه الحركة بدأت احتجاجاً على الأغنياء ، ثم استحالت حركة ضد رجال الدين ، وأخذت تندد بالرشا وبيع المناصب الكهنوتية ، وثراء رجال الدين وزواجهم ، وانتشار التسرى بينهم ، واقترحت كما قال أحد زعمائها « أن تصادر أموال رجال الدين ، وأن تباع أملاكهم بالمزاد ؛ فإذا قاوموا فلتبح بيوتهم للنهب ، « وليطردوا هم وأبناؤهم غير الشرعيين من المدينة »(٨) . ونشأت شيع مثلها ضد رجال الدين فى ڤيتربو Viterbo ، وأرڤيتو Orvieto وڤيرونا Verona ، وفرارا Ferrara وپارما Parma وپياسنزا Piacenza ، وريمينى Rimini . . .(٩) ، وكانت هذه الشيع فى بعض الأوقات هى المسيطرة على الجمعيات الشعبية ، والمستولية على زمام الحكم ، وبلغ من سلطانها أن فرضت الضرائب على رجال الدين لتمويل المشروعات المدنية(١٠) . وأمر إنوسنت الثالث مندوبه فى لمبارديا أن يستقسم جميع موظفى البلديات ألا يعيّنوا أحداً من الملاحدة فى أية وظيفة أو أن يوافقوا على أى تعيين من هذا القبيل . وثار الغوغاء فى مدينة ميلان عام ١٢٧٣ وأخذوا « يجهرون

بأقوال التجديف والسباب » ، ودنسوا عدة كنائس « بالأقذار التى تستنكف عن ذكرها »[١١] .

وكانت أسماء مختلفة تطلق على أقوى الشيع الملحدة كلها ، فكانت تسمى شيعة الكاثارى ، وهذا اللفظ مشتق من كلمة يونانية معناها « الطاهر » أو البلغارى نسبة إلى أصلهم (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة « بجر Bugger » للسباب) ؛ والألبجنسيين نسبة إلى بلدة ألبى Albi التى كانوا يكثرون فيها بنوع خاص . وكانت مدائن منپليه ، ونربونه ومرسيليا المراكز الفرنسية للشيع الملحدة ، ولعل منشأ هذا هو اتصالها بالمسلمين واليهود ، وتردد التجار من مراكز الإلحاد فى البوسنة ، وبلغاريا ، وإيطاليا . ونشر التجار حركة الإلحاد فى طولوز ، وأورليان ، وسواسون ، وأراس ، وريمس ؛ ولكن لانجويدك Languedoc وپروڤانس بقيتا حصنها الحصين . وكانت حضارة العصور الوسطى الفرنسية قد بلغت ذروتها فى هاتين المقاطعتين ؛ فكان أتباع الأديان الكبرى يختلطون فيهما متحابين كما يتحاب أهل الحضر المهذبون .

وكانت النساء حسانا مزهوات ، والأخلاق طليقة من القيود ؛ وكان الشعراء الغزلون ينشرون الأفكار المرحة ، وكان عصر النهضة وشيك البدء فيهما كما كان وشيك البدء فى إيطاليا أيام فردريك . وكانت فرنسا الجنوبية تتألف وقتئذ (١٢٠٠) من إمارات تكاد تستقل كل منها بشئونها لا يربطها بالولاء إلى ملك فرنسا إلا رباط واه . وكان نبلاء طولوز هم أعظم السادة فى ذلك الإقليم ، فقد كانوا يملكون من الأراضى أكثر من أملاك الملك الخاصة . وكانت عقائد الكاثارى وشعائرهم من ناحية عودة إلى العقائد والأساليب المسيحية الأولى ، وكانت من ناحية أخرى ذكرى غامضة للإلحاد الأريوسى الذى انتشر فى فرنسا الجنوبية فى عهد القوط الغربيين ، ومن ناحية ثالثة نتيجة للآراء المانوية وغيرها من الآراء الشرقية . وكان من بينهم رجال دين يرتدون ثياباً سوداء ، ومطارنة يسمون

الكمل Perfecti ، يقسمون وقت ترقيتهم لهذه المناصب أن يتخلوا عن آبائهم وأزواجهم ، وأبنائهم ، وأن يهبوا أنفسهم « لله والإنجيل . . . وألا يقربوا امرأة قط ، ولا يقتلوا حيوانا ، ولا يأكلوا اللحم أو البيض أو منتجات الألبان ، وألا يطعموا إلا السمك والخضر(*) » . وكان أتباعهم « المؤمنون (Credentes) » يتعهدون بأن يقسموا فيما بعد الأيمان على هذا ، وكان يسمح لهم قبل أن يقسموها أن يأكلوا اللحم ، ويتزوجوا ولكنهم كان يطلب إليهم أن يخرجوا من الكنيسة الكاثوليكية ، وأن يسيروا نحو الحياة « الكاملة » ، وأن يُحيُّوا كل واحد من الكمل بثلاث ركعات علامة على التعظيم.

وتقسم فلسفة الكاثارى الدينية الكون كما يقسمه المانوية إلى الخير : الله والروح ، والسماء ؛ والشر : الشيطان ، والمادة ، والعالم المادى . وتقول إن الشيطان لا الله هو الذى خلق العالم المرئى . وهى تعد المادة كلها شرا بما فيها الصليب الذى مات عليه المسيح والقربان المقدس ، وتقول إن المسيح لم يكن يتحدث إلا مجازاً حين قال عن الخبز : « هذا جسمى »(١٣) . وإذا كانت الأجسام كلها من المادة فإن كل اتصال بها يدنس المتصل ، وكل الاتصال الجنسى إثم ، وكان الجماع هو خطيئة آدم وحواء(١٤) . ويصف أعداء الألبجنسيين أولئك القوم بأنهم يرفضون العشاء الربانى ، والقداس ، وتعظيم الصور المقدسة ، والتثليث ، ولا يؤمنون بأن المسيح ولد من عذراء ؛ وعندهم أن المسيح من الملائكة ، ولكنه ليس هو الله . ويقال عنهم إنهم ينكرون الملكية الخاصة ، ويأملون أن تقسم الطيبات بين الناس بالتساوى(١٥) . وقد اتخذوا « عظة الجبل » أساساً لمبادئهم الأخلاقية ؛ وكانوا يعلِّمون أن يحبوا أعداءهم ، وأن يعنوا

(*) من تقرير كتبه سكونى Sacchoni أحد قضاة محكمة التفتيش(١٢) . ولسنا نعرف شيئاً من عقائد الكاثارى وشعائرهم إلا منقولا عن أعدائهم . أما ما كتبوه هم فقد ضاع أو تلف .

بالمرضى والفقراء ، وألا يقسموا قط ، وأن يستمسكوا على الدوام بالسلم ؛ وكان يقال لهم إن العنف يتنافى مع الخلق الكريم ، ولو كان موجهاً للكفار ، وإن عقوبة الإعدام من أكبر الجرائم ، وإن على الإنسان أن يوقن وهو مطمئن أن الله سينتصر آخر الأمر على الشر من غير أن يستخدم وسائل شريرة(١٦) . ولم يكن فى هذه الفلسفة الدينية نار ولا مطهر ؛ بل إن كل نفس ستنجو بعد أن تتقلب فى عدة أدوار من التناسخ تطهرها من آثامها ؛ ولا بد للإنسان أن يموت وهو طاهر لكى يصل إلى السماء ؛ ولهذا كان عليه أن يتلقى من قس مسيحى القداس الأخير الذى يتم به تطهير الروح من آثامها . وكان الكثاريون المؤمنون يؤجلون هذا القداس (كما كان بعض المسيحيين الأولين يؤجلون التعميد) إلى مرضهم الأخير فى ظنهم ، وكان الذين يشفون من هذا المرض يتعرضون لخطر الدنس من جديد ، وللموت دون أن يقوموا بمراسيم القداس الأخير ؛ ولهذا كان من أكبر البلايا أن يشفى الشخص من مرضه بعد أن يقوم بمراسمه . وكان القساوسة الألبجنسيون يتهمون بأنهم يعملون لمنع هذه الكارثة بإقناع الكثيرين من المرضى الذين يشفون بأن يميتوا أنفسهم جوعاً ليرقوا إلى السماء . ويؤكد لنا أعداؤهم أنهم كانوا فى بعض الأحيان يميتون المريض خنقاً برضاه حتى لا يكون ثمت مجال لاحتمال شفائه من مرضه الأخير(١٧) .

ولقد كان يسع الكنيسة أن تترك شيعة الكاثارى تقضى بنفسها على نفسها ، لولا أن هذه الطائفة أخذت توجه سهام النقد إلى الكنيسة . فقد أنكرت أن الكنيسة كنيسة المسيح ؛ وقالت إن القديس بطرس لم يأت قط إلى رومة ، ولم يؤسس البابوية . وإن البابوات خلفاء الأباطرة لا خلفاء الرسل ؛ وإن المسيح لم يجد له مكاناً يضع فيه رأسه ، أما البابا فيسكن قصراً منيفاً ، وإن المسيح لم يكن له ميلك ولا مال ولكن كبار رجال الدين المسيحيين من ذوى الثراء

العريض ؛ وما من شك — كما يقول الكاثارى — فى أن رؤساء الأساقفة والأساقفة ، ذوى الأملاك الواسعة ، والقساوسة الدنيويين ، والرهبان السمان ، هم الفَرِيسيون Pharisees (الزنادقة) الأقدمون عادوا إلى الحياة من جديد ! ولم يكونوا يشكّون فى أن الكنيسة الرومانية هى « زانية بابل » ، وأن رجال الدين هم زمرة الشيطان ، وأن البابا هو المسيح الدجال[١٨] . وكانوا يندّدون بالداعين إلى الحروب الصليبية ويصفونهم بأنهم قتلة[١٩] ، وكان الكثيرون منهم يستهزئون بصكوك الغفران والمخلفات المقدسة . ويقال إن جماعة منهم صوروا العذراء فى صورة قبيحة ، عوراء ، مشوهة الجسم ، وادعوا أنهم يفعلون بهذه الصورة المعجزات ، وإن كثيرين من الناس آمنوا بقوة هذه الصورة الزائفة ، ثم كشفوا هم أنفسهم آخر الأمر عن سخريتهم[٢٠] . ونشرت كثير من آراء الكاثارى عن طريق الأغانى التى يذيعها شعراء الفروسية الغزلون ، ولم يكن هؤلاء ممن تعجبهم تعاليم المسيح الأخلاقية وإن لم يعتنقوا آراء الشيعة الجديدة . غير أن جميع زعماء هذه الطائفة من الشعراء كانوا يعدُّون من أنصار الألبجنسيين ؛ فقد كانوا يسخرون من الحج ، والاعتراف ، والماء المقدس ، والصليب ؛ وكانوا يسمون الكنائس « معششات اللصوص » ، كما كان القساوسة الكاثوليك فى رأيهم « خونة ، كاذبين ، منافقين »[٢١] .

وظل رجال الدين والسلطة الزمنية فى فرنسا الجنوبية حيناً من الدهر يبدون الكثير من التسامح مع طائفة الكاثارى ؛ ويلوح أنهم أجازوا لجمهرة الشعب أن تختار بملء حريتها بين الدينين القديم والجديد[٢٢] . وعقدت مجالس عامة تناقش فيها فقهاء الكاثارى والكاثوليك ، منها واحد عقد فى كاركسون Carcassonne حضره مندوب من قبل البابا وآخر من قبل پدرو الثانى ملك أرغونة (١٢٠٤) . كذلك عقدت عدة فروع مختلفة من الكاثارى مجلساً من رجال دينها فى عام ١١٧٦ ، وحضره ممثلون لهذه الفروع من بلاد مختلفة .

وتباحث المجتمعون فى عقائد هذه الشيعة ، ونظمها ، وشئونها الإدارية ، ووضعت قواعد تسير بمقتضاها ، وانفض المجتمعون دون أن يتعرض لهم أحد(٢٣) . وفوق هذا فإن الأشراف رأوا أن من الخير لهم أن يضعفوا سلطان الكنيسة فى لانجويدك ؛ ذلك أن هذه الكنيسة كانت واسعة الثراء تمتلك الكثير من الأرض ، على حين أن الأشراف كانوا إذا قيسوا إليها فقراء ؛ ولهذا شرعوا ينتزعون بعض أراضيها . وحدث فى عام ١١٧١ أن هاجم فيكونت بيزيير Béziers ديراً من الأديرة ، وزج أسقف ألبى Albi فى السجن ، وعين أحد الخارجين على الدين لحراسته . ولما أن اختار رهبان آليه Allet رئيساً عليهم ممن لا يرضى عنهم الفيكونت أحرق الدير وزج بالرئيس فى السجن . فلما مات هذا السجين نصب الفيكونت المرح جثته فى المنبر ، وأرغم الرهبان على أن يختاروا فى مكانه رئيساً يرتضيه . كذلك طرد ريمند روچر Raymond Roger كونت فوا Foix رئيس دير پامير Pamiers ورهبانه من ديرهم ، وأطعم خيله الشوفان من فوق المذبح ، واستخدم جنوده أذرع الصلبان التى عليها صورة المسيح مصلوباً وأرجلها مدقات لطحن الحبوب ، واتخذوا صورة المسيح هدفاً للتدريب على الرماية . وهدم ريمند كونت طولوز عدداً من الكنائس ، واضطهد رهبان مواساك Moissac ، وطُرد من حظيرة الدين (١١٩٦) ؛ ولكن الحرمان الدينى كان وقتئذ أمراً لا قيمة له فى نظر الأشراف المقيمين فى فرنسا الجنوبية ؛ واعتنق الكثيرون منهم آراء الكاثارى الإلحادية ، أو بسطوا على معتنقيها حمايتهم(٢٤) .

ولما جلس إنوسنت الثالث على كرسى البابوية فى عام ١١٩٨ رأى فى هذه التطورات خطراً محدقاً بالكنيسة والدولة جميعاً . لقد كان يرى بعض العذر فيما يوجه إلى الكنيسة من نقد ، ولكنه كان يحس بأنه لا يستطيع أن يقف مكتوف اليدين ، يرى هذا الصرح الدينى العظيم الذى وضع له أكبر الخطط ، وعقد عليه أنبل الآمال ، والذى بدا له أقوى عاصم من العنف البشرى ، والفوضى

الاجتماعية ، ومن ظلم الملوك — ، يرى هذا الصرح يهاجم من أساسه ، وتغتصب ممتلكاته ، وتهان كرامته ، ويتعرض لضروب السخرية والتجديف . لقد ارتكبت الدولة هي أيضاً كثيراً من الذنوب ، واحتضنت الفساد والموظفين الفاسدين ، ولكن البلهاء وحدهم هم الذين يرغبون في القضاء عليها . وهل يستطاع إقامة نظام اجتماعي دائم على المبادئ التي تنهى عن الأبوة ، وتدعو إلى الانتحار ؟ وهل يفلح نظام اقتصادي يمجد الفقر ويخلو من كل ما في الملكية من حافز إلى السعي والعمل ؟ وهل يستطاع إنقاذ العلاقات الجنسية بين النساء والرجال ، وتنشئة الأطفال ، من الفوضى الوحشية إلا بنظام كنظام الزواج . وقد بدت عقائد الكاثاري لإنوسنت كأنها خليط من السخف ، نفثت فيها سذاجة الجماهير سما زعافاً ؟ وما فائدة حرب صليبية توجه إلى المسلمين في فلسطين إذا ظل هؤلاء الألبجنسيون يتضاعفون في قلب العالم المسيحي نفسه ؟

وكتب إنوسنت بعد شهرين من توليته إلى رئيس أساقفة أوتش Auch في غسقونية يقول :

إن قارب القديس بطرس الصغير تتلقفه العواصف وتتقاذفه أمواج البحر ، ولكن أشد ما يحزنني ويقض مضجعي . . . أن قامت في هذه الأيام فئة لم نر لها فيما مضى مثيلا في تحررها من جميع القيود وفي شدة أذاها ، قد ارتكبت أخطاء لا يرتكبها إلا الشياطين ، وأخذت توقع نفوس السذج من الناس في حبائلها ، وتفسد بخرافاتها وبدعها الكاذبة معاني الكتاب المقدس ، وتحاول أن تهدم وحدة الكنيسة الكاثوليكية . وإذ كان . . . هذا الوباء قد أخذ ينتشر في غسقونية والأقاليم المجاورة لها ، فإنا ندعوكم أنتم والأساقفة زملاءكم إلى مقاومته بكل ما آوتيتم من قوة . . . وقد أصدرنا إليكم هذا الأمر القوي النافذ أن تقضوا على هذه الفئات الملحدة بكل ما تستطيعون من الوسائل ، وأن تخرجوا من

أسقفيتكم كل من أصابهم دنسها . . . وفى وسعكم إذا اضطررتم أن تجعلوا الأمراء والشعب يقضون عليهم بحد السيف(٢٥).

ويبدو أن رئيس أساقفة أوتش — وهو رجل متسامح مع غيره كما هو متسامح مع نفسه — لم يقم بالعمل الذى تدعوه هذه الرسالة إلى القيام به ؛ أما رئيس أساقفة نربونة وأسقف بيزيير فقد قاوما المندوبين اللذين عينهما إنوسنت لينفذا أوامره . وحدث حوالى ذلك الوقت أن اعتنقت ست سيدات تتزعمهن أخت كونت فواه مبادئ الكاثاريين ، وكان ذلك فى احتفال عام شهده كثير من النبلاء ، فما كان من إنوسنت إلا أن استبدل بمندوبيه المحققين مندوبا آخر أشد منهم بطشا وأمضى عزيمة ، وكان هذا المندوب هوارنو Arnuad رئيس الرهبان السسترسيين (١٢٠٤) ومنحه قوات غير عادية تجيز له أن يفحص ويحقق فى جميع أنحاء فرنسا . وأمره أن يعرض على ملك فرنسا وأشرافها عفواً شاملا لكى يساعدوه فى القضاء على شيعة الكاثارى الملحدة ، ثم عرض البابا على فليب أغسطس فضلا عن هذا أن يمنحه نظير هذه المساعة جميع الأراضى التى يمتلكها من يأبون الانضمام إلى حملة صليبية ضد الألبجنسيين(٣٦) . لكن فليب تردد فى قبول هذا العرض لأنه كان قد أتم قبيل ذلك الوقت فتح نورمندية ، وكان فى حاجة إلى متسع من الوقت يهضم فيه هذا الكسب الجديد . ووافق ريمند السادس صاحب طولوز أن يستخدم طريقة الإقناع مع الملحدين ، ولكنه أبى أن يشترك فى حرب تشن عليهم ، فما كان من إنوسنت إلا أن أصدر عليه قرار الحرمان ؛ فلما وعد ريمند بأن يجيب البابا إلى طلبه ، وعفا عنه البابا ، عاد إلى التباطؤ والإهمال ، وقال أحد الفرسان الذين أمرهم مندوب الباب بطرد الكاثارى من أرضه ؛ «كيف نفعـــل هذا وقد نشأنا مع هؤلاء القوم ومنهم بعض أهلينا ، ونراهم يعيشون بيننا معيشة الصالحين ؟ »(٢٧) . وأقبل على القوم القديس دمنيك من أسبانيا ، وأخذ يخطب داعيا إلى مسالمة الزنادقة ، وعاد

بعضهم إلى الدين القويم متأثرين بتقواه وصلاحه(٢٨) . ولعل المشكلة كانت تحل بهذه الطريقة ، يصاحبها إصلاح شأن رجال الدين لو لم يقتل پيير ده كاستلنو Pierre de Castelnau أحد مندوبى البابا بيد فارس بسط عليه ريمند بعدئذ حمايته(٢٩) . وكان إنوسنت قد رأى جهوده التى بذلها نحو عشر سنين طوال ضد هذه الطائفة الملحدة تبوء بالخيبة ، فلجأ إلى أساليب العنف الشديد ، وحرم ريمند ومحرضيه من الكنيسة ، وأصدر قرار التحريم ضد الأراضى الخاضعة لهم ، وعرض هذه الأراضى على كل مسيحى يستطيع القبض عليهم ، ودعا المسيحيين فى جميع أقطار العالم إلى حرب صليبية ضد الألبجنسيين ومن يحمونهم . وأجاز فليب أغسطس لكثيرين من بارونات مملكته أن يتطوعوا فى هذه الحرب ، وجاءت فصائل من ألمانيا وإيطاليا . ووعد جميع من يشتركون فى هذه الحرب بالغفران الشامل الذى وعد به من يحملون الصليب للقتال فى فلسطين . وطلب ريمند المغفرة ، وكفر عن ذنبه علنا (ضرب بالسوط وهو نصف عار فى كنيسة القديس چيل St. Gilles) ونال المغفرة للمرة الثانية واشترك فى الحرب المقدسة (١٢٠٩) .

وقاوم معظم سكان لانجويدك ، خاصتهم وعامتهم على السواء ، أولئك الصليبيين ، لأنهم رأوا فى هجوم أشراف الشمال وجنوده المغامرين محاولة تبغى الاستيلاء على أرضهم تحت ستار الغيرة الدينية ، بل إن المسيحيين الصادقين من أهل الجنوب قاوموا غارات أهل الشمال(٣٠) . ولما اقترب الصليبيون من بيزيير عرضوا عليها أن يجنبوها ويلات الحرب إذا ما سلمت إليهم جميع الملحدين الذين دوّن أسقفها أسماءهم ؛ ولكن زعماء المدينة رفضوا هذا العرض وقالوا إنهم يفضلون أن يُضرب عليهم الحصار حتى يضطروا إلى أكل أطفالهم . فما كان من الصليبيين إلا أن تسلقوا أسوار المدينة ، واستولوا عليها ، وقتلوا من أهلها عشرين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال بلا تمييز بينهم ، وحتى الذين احتموا منهم

بالكنيسة لم ينجوا من القتل[٣١] . ومن القصص التى شاعت وقتئذ قصة لا نجد لها سنداً إلا فيما كتبه قيصريوس هيستر باخ **Caesarius Heisterbach** بعد عشرين عاما من ذلك الوقت ، وهى تقول إن أرنود **Arnaud** مندوب البابا سُئل هل يؤمَّن الكاثوليك على حياتهم فلا يقتلون ، فأجاب : « اقتلوهم جميعاً فالله يعلم من هم أنصاره »[٣٢] ، ولعله كان يخشى أن يجهر جميع المغلوبين وقتئذ باعتناق الدين القويم ، ثم يعودو بعد إلى ضلالهم . ولما حرقت بزيير عن آخرها تقدم الصليبيون بقيادة ريمند ليهاجموا حصن كاركسون حيث وقف روچر كونت بزيير وابن أخى ريمند وقفته الأخيرة يدافع عن الحصن ، لكن الحصن سقط فى أيدى المهاجمين ومات روچر بز حار البطن .

وكان أكثر القواد شجاعة فى هذا الحصار هو سيمون ده مونت فورت **Simon de Montfort** . وقد وُلد سيمون هذا فى فرنسا حوالى عام ١١٧٠ وكان أكبر أبناء سيد مونت فورت القريبة من باريس . وأصبح سيمون بعدئذ إيرل ليسستر **Earl of Leicester** ، وهو لقب ورثه عن أمه الإنجليزية . وقد استطاع سيمون أن يجمع بين التقى العظيم والحروب العوان ، كما استطاع ذلك كثيرون من رجال وقته المتغطرسين . فكان يستمع إلى الصلوات فى كل يوم ، واشتهر بطهره وعفافه ونال شهرة عظيمة فى حروب فلسطين . وأخذ فى هذه الحرب الألبجنسية يهاجم بجيشه الصغير المؤلف من ٤٥٠٠ رجل بلدة فى إثر بلدة يستحثه مندوب البابا ، ويسحق كل ما يعترضه من مقاومة ، ويعرض على الأهلين أن يختاروا بين يمين الولاء للكنيسة الرومانية أو القتل لأنهم مارقون ؛ واختار آلاف منهم أن يقسموا يمين الولاء ، وفضّل مئات أن يقتلوا[٣٣] . وواصل سيمون حملاته أربعة أعوام خرب فيها أملاك كونت ريمند كلها تقريباً ما عدا طولوز ، حتى استسلمت له طولوز نفسها فى عام ١٢١٥ ، واجتمع مجلس من مندوبى البابا فى منپلييه وقرر خلع كونت ريمند ، وورث سيمون لقبه والجزء الأكبر من أملاكه .

ولم يكن إنوسنت الثالث راضياً كل الرضا عن هذه الأعمال ، فقد هاله أن يجد أن الصليبيين استولوا على أملاك رجال لم يخرجوا قط على الدين ، وأن هؤلاء الرجال نُهبوا وقُتلوا كما يُقتل القراصنة المتوحشون ويُنهبون(٣٤). وأشفق البابا على ريمند فوظف له معاشاً سنويا ، ووضع جزءاً من أملاكه تحت وصاية الكنيسة تحتفظ بها لابنه ولما بلغ ريمند السابع سن الرشد فتح طولوز واستردها من سيمون ؛ ومات سيمون نفسه وهو يحاصر المدينة مرة ثانية (١٢١٨) . ووقفت الحرب الصليبية وقتئذ لما مات إنوسنت . وخرج من بقى حيا من الألبجنسيين المستمسكين بعقيدتهم يمارسون شعائر دينهم ويدعون له تحت حكم كونت طولوز الجديد اللين الرحيم .

وعرض لويس الثامن ملك فرنسا فى عام ١٢٢٣ أن يخلع ريمند ؛ وأن يقضى على كل الخوارج فى أملاكه . إذا سمح له هونوريوس الثالث بأن يضم هذا الإقليم إلى أملاكه الخاصة . ولسنا نعرف بم أجاب البابا ، وكل ما نعرفه أن حرباً صليبية بدأت . وأن لويس أوشك أن ينتصر فيها حين وافته المنية فى منبلييه (١٢٢٦) . وانتهز ريمند هذه الفرصة ليعقد الصلح مع بلانش صاحبة قشتالة النائبة فيها عن لويس التاسع ، فعرض أملاك ابنته جين Jeanne على ألفونس أخى لويس . وعودة أملاك ريمند بعد وفاته إلى جين وزوجها . وكانت بلانش يؤرقها ويقضّ مضجعها الأشراف الثائرون عليها ، فقبلت هذا العرض ، ووافق عليه البابا جريجورى التاسع بعد أن تعهد ريمند بالقضاء على حركة الإلحاد بقضها وقضيضها . وعقدت معاهدة الصلح فى باريس عام ١٢٢٩ ووضعت الحروب الألبجنسية أوزارها بعد ثلاثين عاماً من التقتيل والتخريب ، وخرج الدين القويم ظافراً من هذه الحروب ، وانتهى بانتصاره عهد التسامح ؛ وحرم مجلس نربونه (١٢٢٩) أن يمتلك أحد من غير رجال الدين أى جزء من الكتاب المقدس(٣٥). وأخذ الإقطاع ينتشر ، وأخذت حرية المدن وحكوماتها البلدية فى

الاضمحلال ؛ وانقض عصر شعراء الفروسية الغزلين فى جنوبى فرنسا .
وماتت فى عام ١٢٧١ جين هى وألفونس اللذان ورثا أملاك ريمند دون أن
يكون لهما أبناء ، وآلت ولاية طولوز الواسعة إلى لويس التاسع والتاج
الفرنسى ، وأصبحت لفرنسا الوسطى وقتئذ منافذ تجارية حرة على البحر
المتوسط ، وخطت فرنسا خطوة واسعة نحو وحدتها ؛ وكانت هذه الوحدة
هى ومحكمة التفتيش أعظم ما أسفرت عنه الحروب الصليبية الألبجنسية .

الفصل الثانى

منشأ محكمة التفتيش أو التحقيق

لقد سن كتّاب العهد القديم قانوناً بسيطا لمعاملة المارقين من الدين ، يقضى بأن يفحص عنهم فحصاً دقيقاً ، فإذا شهد ثلاثة شهود عدول بأنهم : « ذهبوا وراء آلهة أخرى » أخرج المارقون من المدينة و « رجموا بالحجارة حتى يموتوا » . (تثنية التشريع ١٣ : ١٠)(*) :

إذا قام فى وسطك نبى أو حالم وأعطاك آية أو أعجوبة ، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلا لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ، فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم ، لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم . . . وذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم يقتل لأنه يتكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم . . . فتنزعون الشر من بينكم . وإذا أغواك سراً أخوك ابن أمك ، أو ابنك أو ابنتك ، أو امرأة حضنك ، أو صاحبك الذى مثل نفسك قائلا نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك . . . فلا ترض منه ولا تسمع له ، ولا تشفق عينك عليه ، ولا تستره بل قتلا تقتله . (تثنية التشريع ١٣ : ١ — ٩) . . . لا تدع ساحرة تعيش (الخروج ٢٢ : ١٨) .

وقد ورد فى إنجيل يوحنا (١٥ : ٦) أن عيسى عليه السلام ارتضى هذا القول : « إن كان أحد لا يثبت فىَّ يطرح خارجاً كالغصن فيجف ، ويجمعونه ويطرحونه فى النار فيحترق » . وحافظت الجماعات اليهودية فى العصور الوسطى من الوجهة

(*) فى الأصل الإنجليزى (١٧ : ٢٥) ولكن ١٣ : ١٠ هو الصحيح . (المترجم)

النظرية على شريعة الكتاب المقدس الخاصة بالمروق من الدين ، ولكنها قلما عملت بها . واستمسك بها ابن ميمون بلا تحفظ(٣٦) .

وكانت قوانين اليونان ترى المروق من الدين — أى الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية — جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام ، وهذا هو القانون الذى حكم به على سقراط بالموت ؛ وفى رومة القديمة ، حيث كان الآلهة حلفاء الدولة وأصدقاءها الأوفياء ، كان الخروج عليهم أو التجديف فى حقهم من جرائم الخيانة العظمى التى يعاقب عليها بالإعدام . فإذا لم يوجد من يتقدم باتهام المذنب ، استدعى القاضى الرومانى نفسه هذا المتهم وقام بتحقيق القضية (inquisitio)، ومن هذا الإجراء أخذت محكمة التفتيش أو التحقيق فى العصور الوسطى شكلها واسمها . وطبق أباطرة الروم القوانين الرومانية فى العالم البيزنطى فحكموا بالإعدام على المانويين وغيرهم من المارقين . ثم كثر التسامح فى البلاد الغربية خلال العصور المظلمة وهى التى قلما كان أبناؤها يتحدون الكنيسة ، وقال ليو التاسع أن الحرمان من الدين يجب أن يكون هو العقاب الوحيد الذى يوقع على المارقين(٣٧) . ولما انتشر الإلحاد فى القرن الثانى عشر قال بعض رجال الكنيسة إن حرمان الملحدين يجب أن يعقبه نفى الدولة إياهم أو سجنهم(٣٨) . ولما عادت بولونيا فى القرن الثانى عشر إلى اتباع القوانين الرومانية جاءت فى قانونها نصوص وأساليب ، ودوافع . لإنشاء محكمة تحقيق ، ونقل قانون الإلحاد الكنسى كلمة كلمة من القانون الخامس المعنون De hereticis (الضلال) فى كتاب جستنيان(٣٩). وكان آخر ما فعلته الكنيسة أن أخذت فى القرن الثالث عشر قانون ألد أعدائها . فردريك الثانى . وهو أن يكون الإعدام عقوبة الضلال .

ولقد كان من المبادئ العامة لدى المسيحيين — ولدى كثيرين من الضالين أنفسهم — أن الكنيسة قد أقامها ابن الله ، وتبعا لهذا المبدإ كان كل هجوم على المذهب الكاثوليكى جريمة موجهة إلى الله نفسه ؛ وكانت النظرة التى ينظر بها

إلى الضال العاصى هى أنه أداة للشيطان أرسل للقضاء على عمل المسيح ، وكل رجل من رجال الحكم بغض النظر عن الضلال إنما يخدم الشيطان بعمله هذا . وإذ كانت الكنيسة تشعر بأنها جزء لا يتجزأ من حكومة أوربا الأخلاقية والسياسية ، فقد كانت تنظر إلى الضلال كما تنظر الدولة إلى الخيانة : أى أنه عمل يراد به تقويض أسس النظام الاجتماعى . وفى ذلك يقول إنوسنت الثالث : « إن القانون المدنى يعاقب الخونة بمصادرة أملاكهم وإعدامهم . . . وهذا يؤكد حقنا فى أن يحرم من الدين من يخونون دين المسيح ، وأن تصادر أملاكهم ؛ ذلك بأن الإساءة إلى الذات العلية المقدسة جريمة أشنع من الإساءة إلى جلالة الملك »(٤٠) . وكان الضال يبدو فى أعين الحكام الدينيين أمثال إنوسنت شراً من المسلم أو اليهودى ؛ ذلك أن هذين يعيشان إما فى خارج العالم المسيحى أو يخضعان لقانون نظامى — صارم — إذا كانا فى داخله ؛ يضاف إلى هذا أن العدو الأجنبى جندى فى حرب صريحة ، أما الضال فهو خائن فى داخل البلاد يقوّض أسس المسيحية وهى مشتبكة فى حرب طاحنة مع الإسلام ، يضاف إلى هذا فى رأى رجال الدين ، أنه إذا أجيز لكل إنسان أن يفسر الكتاب المقدس حسب ما يراه عقله (مهما يكن قاصراً) ، وينشئ لنفسه الصورة التى يرتضيها من صور المسيحية ، فإن الدين الذى حفظ لأوربا قانونها الأخلاقى الضعيف لن يلبث أن ينهار ويتفرق إلى مائة عقيدة ، ويفقد ما له من أثر بوصفه قوة اجتماعية تربط الآدميين المتوحشين بفطرتهم وتخلق منهم مجتمعاً وحضارة .

وكان الشعب نفسه ، إلا فى جنوبى فرنسا وإيطاليا ، أشد الناس حماسة في اضطهاد المخالفين ، وقد يكون هذا لأن الشعب نفسه يعتنق آراء رجال الدين السالفة الذكر دون أن تكون لها فى ذهنه صورة واضحة لها ، أو لأن النفوس الساذجة تخشى بفطرتها كل مخالف وغريب ، أو لأن الناس يسرهم أن يطلقوا فى غمار الجماهير المجتمعة المجهولة العنان لغرائزهم المكبوتة بسبب ما عليهم من

التبعات بوصفهم أفراداً . وأيا كان السبب فإن « الغوغاء أنفسهم قد عاقبوا الضالين قبل أن تشرع الكنيسة فى اضطهادهم بزمن طويل »[٤١]، بل لقد كان الأهلون المتدينون يشكون لين الكنيسة المفرط مع الضالين[٤٢] ، وكانوا فى بعض الأحيان « يختطفون المنشقين من أيدى القساوسة الذين يحمونهم »[٤٣] ؛ وشاهد ذلك ما كتبه قس من فرنسا الشمالية إلى إنوسنت الثالث يقول : « لقد بلغ من تقوى الناس فى هذه البلاد أنك لا تراهم دائما على استعداد لأن يبعثوا إلى موضع الحرق بمن ثبتت ضلالتهم فحسب ، بل إنهم ليبعثون إليه فوق ذلك بكل من يظنونه ضالا »[٤٤] ؛ وحدث فى عام ١١١٤ أن زج أسقف سواسون ببعض الضالين فى سجن ، ولكن العامة انتهزوا فرصة غيابه و« خافوا أن يصطنع رجال الدين اللين معهم » فهجموا على السجن وجردوا الضالين منه وحرقوهم أحياء[٤٥] . وأصر العامة فى ليبج عام ١١٤٤ على أن يحرق بعض الضالين الذين كان الأسقف أدلبرو Adlbero لا يزال يأمل فى هدايتهم[٤٦] . ولما قال يير ده بروى Birre de Bruys « إن القساوسة يكذبون حين يدعون أنهم يصنعون جسم المسيح » (وهم يصنعون القربان المقدس) وأحرق كومة من الصلبان فى يوم الجمعة الحزينة ، قتله العامة فى مكانه وأحرقوه لساعته[٤٨] .

واشتركت الدولة على كره منها فى اضطهاد الضالين لأنها كانت تخشى ألا تستطيع الحكم بغير مساعدة الكنيسة التى تغرس فى قلوب الناس عقيدة دينية موحدة . يضاف إلى هذا خوفها أن يكون الضلال الدينى ستاراً يختفى وراءه التطرف السياسى ، ولم تكن فى ظنها هذا مخطئة على الدوام[٤٩]. وقد يكون للاعتبارات المادية أثر فى هذا الشأن لأن الضلال الدينى أو السياسى كان يعرض للخطر أملاك الكنيسة والدولة ؛ ولهذا كان الرأى العام بين الطبقات العليا — مع استثناء لانجويدك مرة أخرى — يطلب إلى الدولة أن تقضى على الضلال مهما كلفها ذلك القضاء[٥٠]. ولهذا أمر هنرى السادس إمبراطور ألمانيا (١١٩٤)

أن ينزل بالضالين أشد أنواع العقاب ، وأن تصادر جميع أملاكهم ، وأصدر أتو الرابع (١٢١٠) ، ولويس الثامن ملك فرنسا (١٢٢٦) ، وأصدرت مدينتا فلورنس (١٢٢٧) وميلان (١٢٢٨) ، مراسيم شبيهة بمرسوم هنرى . وكان أشد قوانين الاضطهاد هو القانون الذى سنّه فردريك الثانى فيما بين عامى ١٢٢٠ و ١٢٣٩ وقضى بأن يسلم الضالون الذين تحكم عليهم الكنيسة إلى « اليد الزمنية — أى إلى ولاة الأمور المحليين — وأن يحرقوا أحياء ، فإذا ما رجعوا عن ضلالهم نجوا من الموت وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ، ثم صودرت جميع أملاكهم ، وحرم ورثتهم من ميراثهم ، وظل أبناؤهم محرومين من حق الاختيار إلى أى منصب ذى دخل أو كرامة ، إلا إذا كفّروا عن ذنب آبائهم بالتبليغ عن غيرهم من الضالين . وقضى القانون بأن تحرق بيوت الضالين ولا يعاد بناؤها قط[٥١] . وأضاف لويس التاسع الرقيق الظريف أحكاماً شبيهة بهذه الأحكام إلى قوانين فرنسا . والحق أن الملوك هم الذين كانوا ينازعون الشعب فضل البداية فى اضطهاد الضالين . وحسبنا أن نذكر غير ما سبق أن ربرت ملك فرنسا أمر بإحراق ثلاثة عشر ضالا فى أورليان عام ١٠٢٢ ؛ وكان هذا أول حادث معروف من حوادث إعدام الضالين بعد إعدام برسلبان Priscillian بأيدى السلطات الزمنية فى عام ٣٨٥ . وبعد ذلك شنق هنرى الثالث إمبراطور ألمانيا عدداً من المانويين أو الكاثاريين جسلار غير عابئ باحتجاج وازو Wazo أسقف لييج وقوله إن فى الحرمان من الدين عقاباً كافياً للضالين[٥٢] . وفى عام ١١٨٣ « بعث » الكونت فليب صاحب فلاندرز هو ورئيس أساقفة ريمس « عدداً كبيراً من النبلاء ، ورجال الدين ، والفرسان ، والفلاحين ، والفتيات ، والنساء المتزوجات ، والأرامل إلى حيث أحرقوا وهم أحياء بعد أن صادرا أملاكهم واقتسماها بينهما » .

وكان البحث عن الضالين قبل القرن الثالث عشر يترك فى الأحوال العادية

للأساقفة . وإنا ليصعب علينا أن نسمى هؤلاء الأساقفة باحثين ، لأنهم كانوا ينتظرون الشائعات العامة أو الضجيـــج الذى يدلهم على الضالين ، فيستدعونهم ولكنهم يصعب عليهم أن يحملوهم بطريق التحقيق على الاعتراف بذنوبهم . ولم يكونوا يرتضون أن يلجأوا إلى التعذيب ، فكانوا لذلك يعمدون إلى طريق التحكيم الإلهى ، وهم مخلصون فى ظاهر الأمر فى اعتقادهم أن الله سيرسل المعجزات لحماية البريئين . وأيد القديس برنار هذه الوسيلة ووصفها مجلس من الأساقفة عقد فى ريمس (١٢٥٧) بأنها إجراء عادى فى محاكمة الضالين ، ولكن إنوسنت الثالث حرمها . وساء البابا لوسيوس الثالث إهمال الأساقفة فى محاربة الضلال ، فأمرهم بأن يزوروا أسقفياتهم مرة فى كل عام على الأقل ، وأن يقبضوا على كل من تحوم حولهم الشبهات ، وأن يسلكوا كل من لا يقسم يمين الولاء التام للكنيسة فى زمرة الضالين (وقد رفض الكاثارى أن يقسموا هذا القسم) ، ثم عليهم بعد ذلك أن يسلموا هؤلاء العصاة إلى ولاة الأمور المحليين . وخوّل مندوبو البابا حق خلع الأساقفة الذين يتوانون فى القضاء على الضلال(٥٤) . وطلب إنوسنت الثالث فى عام ١٢١٥ إلى جميع ولاة الأمور المدنيين أن يقسموا علناً بأن « يبيدوا من الأراضى الخاضعة لطاعتهم جميع الضالين الذين عينتهم الكنيسة ليلقوا ما يستحقون من العقاب » فإذا لم يفعلوا هذا كانوا هم أنفسهم ضالين . وكل أمير يهمل فى أداء هذا الواجب يخلع ويعفى البابا رعاياه من طاعته(٥٥) ، ولم يكن « العقاب الذى يستحقونه » حتى ذلك الوقت يزيد على النفى ومصادرة الأملاك(٥٦) .

ولما ارتقى جريجورى التاسع عرش البابوية (١٢٢٧) وجد أن الضلال آخذ فى الازدياد رغم المحاكمات الشعبية ، والحكومية ، والأسقفية . فقد كانت جميع بلاد البلقان ، وكان الجزء الأكبر من إيطاليا ، وغير قليل من فرنسا ، كانت هذه البلاد مرتعاً للزيغ والضلال . حتى لقد أضحت الكنيسة . ولما يمض على

سلطان إنوسنت الرائع إلا زمن وجيز ، يتهددها خطر الانقسام والتفكك . وكانت المسألة ، كما يراها الحبر الطاعن فى السن ، أن الكنيسة وهى تقاتل فردريك والضلال فى وقت واحد ، إنما تقاتل فى سبيل المحافظة على حياتها ، وأنها يحق لها من أجل ذلك أن تلجأ إلى المبادئ الأخلاقية والأساليب التى تحتمها حالة الحرب . وروّع جريجورى أن عرف أن الأسقف فلپو پاترنون Filippo Paterrenon الذى تمتد آسقفيته من بيزا إلى أرزو قد اعتنق مذهب الكاثارى ، فعيّن لجنة للتحقيق يرأسها راهب من الدمنيك تعقد جلساتها فى فلورنس وتقدم الضالين إلى المحاكمة (١٢٢٧) . وكانت هذه اللجنة فى واقع الأمر بداية محكمة التحقيق البابوية ، وإن كان المحققون فيها خاضعين من الوجهة الرسمية لسلطان الأسقف المحلى . فلما كان عام ١٢٣١ أدخل جريجورى فى قانون الكنيسة الشرائع التى سنها فردريك فى عام ١٢٢٤ ؛ وبذلك اتفقت الكنيسة والدولة من ذلك الوقت على أن الضالين الذين لا يتوبون عن ضلالهم خونة يجب أن يعاقبوا بالإعدام ؛ وبهذا أنشئت محكمة التحقيق (التفتيش) رسميا تحت سلطان البابوات .

الفصل الثالث

المحققون (المفتشون)

أرسل جريجورى وخلفاؤه بعد عام ١٢٢٧ عدداً متزايداً من المحققين أو المفتشين الخصوصيين لمطاردة الضلال ، وكان يفضل أن يختار لهذا العمل أعضاء طوائف الرهبان المتسولين الجدد لأن حياتهم البسيطة وإخلاصهم يختلفان عن ترف رجال الدين من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى لايستطيع الاعتماد على الأساقفة على أنه لم يبح لأى محقق أن يقضى بحكم شديد على أى ضال من غير موافقة الأسقف ، ولهذا اختير كثير من الرهبان الدمنيك لهذا الغرض ، حتى لقد سموا من قبيل السخرية Domini Canes أى « كلاب الله » (الصيادين)[٥٧] . وكان كثيرون منهم رجالا متزمتين فى أخلاقهم ولكن قلّ منهم من كان يتصف بالرحمة ، ولم يكونوا يعتقدون فى أنفسهم أنهم قضاة يزنون الأدلة بعدل ونزاهة ، بل كانوا يظنون أنهم محاربون يطاردون أعداء المسيح . وكان منهم رجال ذوو عناية وضمائر حية أمثال برنار جوى Bernard Gui ، ومنهم من كانوا مرضى ساديين مثل ربرت الدمنيكى Robert the Dominican وهو رجل ضال تائب أرسل فى يوم واحد من أيام ١٢٣٩ مائة وثمانين شخصاً ليحرقوا أحياء ، من بينهم أسقف منح الضالين حسب رأيه حرية أكثر مما يستحقون . وقد أعفى ربرت هذا من منصبه وحكم عليه بالسجن مدى الحياة[٥٨] .

وكان اختصاص محكمة التحقيق مقصوراً على المسيحيين دون سواهم ، أما اليهود والمسلمون فلم يكونوا يدعون أمامها للتحقيق معهم إلا إن كانوا مسيحيين مرتدين[٥٩] . ولقد بذل الدمنيك جهوداً خاصة لتحويل اليهود إلى المسيحيه ،

ولكنهم لم يكونوا يلجئون فى هذا العمل لغير الوسائل السلمية ؛ وبلغ من حرصهم على هذا أنه لما اتهم بعض اليهود فى عام ١٢٥٦ بقتل بعض أطفال المسيحيين فى بعض طقوسهم ، عرض الرهبان الدمنيك والفرنسسكان حياتهم للخطر لإنقاذهم من الغوغاء(٦٠) . وخير ما يوضح لنا الغرض من إنشاء محكمة التحقيق ودائرة اختصاصها مرسوم بابوى أصدره نقولاس الثالث (١٢٨٠) :

نعلن بهذا حرمان جميع الضالين ونصبّ عليهم اللعنة — الكاثارى ، والپتارين ، ورجال ليون الفقراء . . . وكل من عداهم أيا كان الاسم الذى يسمون به . فإذا أدانتهم الكنيسة وجب إسلامهم إلى القاضى الزمنى لمعاقبتهم . . . وإذا ما ندم واحد منهم بعد اعتقاله وأراد أن يكفّر عن ذنبه ، وجب سجنه مدى الحياة ... وكل من يأوى الضالين ، أو يحميهم ، أو يساعدهم ، يحرم من الدين ؛ وإذا بقى إنسان محروماً عاماً كاملا ويوماً حرم من حماية القانون . . . وإذا لم يستطع المتهمون بالضلال أن يثبتوا براءتهم ، طردوا من حظيرة الدين ، فإذا بقوا محرومين عاما كاملا حكم عليهم بما يحكم على الضالين . وليس لهؤلاء حق استئناف الحكم . . . وكل من يمنحهم دفنة مسيحية يحكم عليه بالحرمان ويظل كذلك حتى يعمل ما يستوجب الرضا عنه . . . فلا يُغفر له ذنبه حتى يخرج بيده جثث المحرومين ويطرحها فى العراء . . . ونحن نحرم على غير رجال الدين جميعهم أن يناقشوا فى مسائل الدين الكاثوليكى ، ومن يفعل هذا يحرم من الدين ؛ وعلى كل من يعرف أحداً من الضالين ، أو ممن يعقدون اجتماعات سرية ، أو ممن لا يؤمنون بعقائد الدين القويم أيا كانت ، أن يبلغ ذلك إلى من يفضى إليه باعترافه ، أو إلى شخص آخر يبلغه إلى الأسقف أو المحقق ، فإذا لم يفعل هذا حرم من الدين . والضالون ، وكل من يأوونهم ، أو يؤيدونهم ، أو يساعدونهم ، وكذلك أبناؤهم حتى الجيل الثانى — هؤلاء لا يسمح لهم بتولى المناصب الكنسية . . . وها نحن أولاء نحرمهم جميعاً وأمثالهم من دخلهم إلى أبد الدهر(٦١) .

ويجوز أن تبدأ إجراءات محاكم التحقيق بالقبض العاجل على جميع الضالين ، وعلى جميع المشتبه فى ضلالهم أحياناً ؛ وقد تبدأ بأن يستدعى المحققون الزائرون جميع السكان البالغين فى مكان ما للبحث المبدئى . والذين يقرون بضلالهم فى خلال « المهلة القانونية » الأولى ، ومدتها ثلاثون يوما ، ثم يتوبون ، يطلق سراحهم بعد حبسهم زمناً وجيزاً ، أو بعد أن يقوموا بعمل من أعمـــال التقى ، أو يتصدقون بالمال[٦٢] . أما الضالون الذين لا يعترفون فى أثناء هذه المهلة ، ثم يكشف عن أمرهم فى هذا التحقيق المبدئى ، أو تدل عليهم عيون محكمة التحقيق[٦٣] ، أو يكشف عنهم بأية طريقة أخرى ، أما هؤلاء جميعاً فيدعون إلى المثول أمام محكمة التحقيق . وكانت هذه المحكمة تؤلف فى الأحوال العادية من اثنى عشر رجلا يختارهم الحاكم الزمنى فى الإقليم من ثبت يحتوى أسماء المرشحين ، يعرضه عليه الأسقف وهيئة المحققين ، ويضم إليه اثنان من المسجلين وعدد من الحجاب . فإذا ما انتهز المتهمون هذه الفرصة الثانية ، وأقروا بذنبهم ، عوقبوا عقاباً يختلف باختلاف ذنبهم ، وإذا أنكروا جرمهم زجوا فى السجن . وكان من المستطاع محاكمة المتهمين وهم غائبون أو بعد مماتهم . وكانت المحاكمة تحتاج إلى شاهدين من شهود الإثبات ، وتقبل من يعترفون بذنبهم من الضالين شهود إثبات على غيرهم ؛ وكان يسمح للزوجات أن يشهدن على أزواجهن وللأبناء على آبائهم ، ولا يسمح لهؤلاء أو أولئك أن يشهدن أو يشهدوا لهم[٦٤] . ويسمح لجميع المتهمين فى مكان ما بناء على طلبهم أن يطلعوا على ثبت شامل يحوى جميع أسماء من يتهمونهم ، ولكن هذا الثبت لا يدل أى متهم على من اتهمه ، فقد كان يخشى أنه إذا واجه أى متهم من اتهمه فقد يعمد أصدقاء المتَّهم إلى قتل من يتهمه . وفى ذلك يقول لى Lea : « والحق أن عدداً من الشهود قد قتلوا لريبة بسيطة حامت حولهم »[٦٥] . وكان يطلب إلى المتهم عادة أن يذكر أسماء أعدائه ، وكانت المحكمة ترفض أى دليل يقدمه أولئك الأعداء[٦٦] .

وكان المبلغون الكاذبون يعاقبون أشد العقاب[٦٧] ؛ ولم يكن يسمح للمتهمين قبل عام ١٣٠٠ بأن يستعينوا بأية معونة قانونية[٦٨] ، أما بعد عام ١٣٥٤ فقد صدر مرسوم بابوى يحتم على المحققين ألا يعرضوا أدلة الإثبات على الأسقف وحده بل أن يعرضوها عليه وعلى رجال من ذوى السمعة الطيبة في الإقليم ، وأن يصدروا حكمهم بما يتفق مع آرائهم[٦٩] . وكانت هيئة من الخبراء (perite) تدعى فى بعض الأحيان لتبدى رأيها فى الأدلة . وقصارى القول أن الأوامر الصادرة إلى المحققين كانت تنبههم إلى أن نجاة المذنب من العقاب خير من إدانة البرىء ، وأن من واجبهم أن يحصلوا إما على دليل واضح أو اعتراف صريح .

وكان القانون الرومانى القديم يجيز الالتجاء إلى التعذيب للحصول على الاعتراف ؛ ولم تكن هذه الطريقة تتبع فى المحاكم الأسقفية : أو فى السنين العشرين الأولى من سنى محـــاكم التحقيق . غير أن إنوسنت الرابع (١٢٥٢) أجازها حيث يكون القضاة واثقين من جرم المتهم ، ثم أجازها من جاء بعده من الأحبار[٧٠] . ولكن البابوات كانوا ينصحون بأن يكون التعذيب آخر ما يلجأ إليه مع المتهمين ، وألا يلجأ إليه إلا مرة واحدة ، « وألا يصل إلى ما يؤدى إلى فقد عضو من الأعضاء أو إلى خطر الموت » . وفسر المحققون عبارة « مرة واحدة » بأنها تعنى مرة واحدة فى كل محاكمة ، فكانوا لذلك يقطعون التعذيب فى بعض الأحيان ليواصلوا المحاكمة ، ويرون بعدئذ أن من حقهم أن يعودوا إلى تعذيب المتهم . وكان التعذيب يستخدم فى كثير من الأحيان لإرغام الشهود على أداء الشهادة ، أو لإجبار الضال المعـــترف على الإدلاء بأسماء غيره من الضالين[٧١] . وكان من أنواعه الجلد ، والكى بالنار ، والتعذيب بالعذراء ، والسجن الانفرادى فى جب مظلم ضيق . وكانت قدما المتهم توضعان أحياناً على الفحم المتقد ؛ أو كان يشد إلى إطار على شكل مثلث ثم تجذب يداه وساقاه بالحبال الملفوفة حول آلة لاوية . وكان طعام السجين يقلل أحياناً حتى يضعف

بذلك جسمه وإرادته فيؤثر فيه ذلك التعذيب النفسانى ، كالوعد بالرأفة أو التهديد بالقتل(٧٢) . وقلما كانت محكمة التحقيق ترى قيمة للاعتراف الذى يأتى من طريق التعذيب ، ولكن هذه المشكلة كان يتغلب عليها بإرغام المتهم على أن يؤكد ، بعد ثلاث ساعات من اعترافه ، ما قرره أثناء التعذيب ؛ فإذا أبى أمكن تعذيبه من جديد . وحدث فى عام ١٢٨٦ أن بعث موظفو كركسون Carcassonne برسالة إلى فليب الرابع ملك فرنسا وإلى البابا نقولاس الرابع يشكون فيها من صعوبة التعذيب الذى يلجأ إليه المحقق چان جالان Jean Galand . فقد كان بعض مسجونى چان هذا يتركون زمناً طويلا فى السجن الانفرادى الحالك الظلام ، وكانت قيود بعضهم تبلغ من الضيق حداً يضطرون معه إلى الجلوس فى برازهم ، أو لا يستطيعون إلا النوم على ظهورهم فوق الأرض الباردة(٧٣) . وقد شد بعضهم إلى العذراء شداً عنيفاً فقدوا معه استخدام أيديهم وأرجلهم ، ومنهم من مات فى أثناء التعذيب(٧٤) . وشنع فيلپ على هذه الوحشية وحاول البابا كلمنت الخامس (١٣١٢) أن يحد من التجاء المحققين إلى التعذيب ، ولكن سرعان ما أهملت أوامره(٧٥) .

وكان المسجونون الذين يأبون أن يفيدوا من الفرصتين اللتين تتاح لهم للاعتراف ثم يدانون بعدئذ ، والذين يرتدون إلى ضلالهم بعد توبتهم ، كان هؤلاء وأولئك يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة أو بالإعدام . وكان السجن مدى الحياة يخفف بمنح السجين شيئاً من الحرية فى التنقل ، والزيارة ، والألعاب ، أو يشدد بحرمانه من الطعام أو بتقييده بالأغلال(٧٦) . وكان الذين يدانون بعد أن يقاوموا يحكم عليهم بالإضافة إلى الأحكام الأخرى بمصادرة أملاكهم . وكان بعض هذه الأملاك المصادرة يعطى عادة لحاكم الإقليم الزمنى ، ويعطى بعضها للكنيسة ؛ وكان ثلث هذه الأملاك يعطى فى إيطاليا للذى يبلغ عن الضال ؛ أما فى فرنسا فكانت الأملاك المصادرة تذهب كلها للتاج . وكانت هذه الاعتبارات كلها

تغرى الدولة والأفراد بالاشتراك فى تعقب الضالين ، وفى محاكمة الموتى ؛ وكان من المستطاع فى أى وقت من الأوقات الاستيلاء على أملاك البريئين من الناس بحجة أن من أورثوهم إياها قد ماتوا وهم ضالون . وكان هذا من الشرور الكثيرة التى حاول البابوات أن يقضوا عليها ، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح(٧٧) . وكان مما يفتخر به أسقف رودس أنه جمع مائة ألف « صول(*) » فى حملة واحدة على الضالين فى أسقفيته(٧٨) .

وكان المحققون يعلنون فى حفل رهيب يقام من آن إلى آن إدانة المذنبين وما يحكم به عليهم من عقاب . فأما التائبون فكانوا يوضعون على منصة فى وسط الكنيسة ، ثم يُقرأ اعترافهم ، ويطلب إليهم أن يؤكدوا هذا الاعتراف ، وأن ينطقوا بصيغة خاصة يعلنون فيها إقلاعهم عن الضلال ؛ ثم يقوم المحقق الذى يرأس الاحتفال فيعفى التائب من الحرمان ، ويعلن سائر الأحكام المختلفة . فأما الذين « سيطلقون » أى يتركون إلى السلطات الزمنية فكان يسمح لهم بيوم آخر يرجعون فيه عن ضلالهم ؛ وأما الذين يعترفون ويتوبون ، ولو كانوا عند عمود الحرق ، فكان يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ؛ وأما الذين يبقون على عنادهم فكانوا يحرقون وهم أحياء فى الميدان العام . وكان هذا الإجراء كله ، من حكم وتنفيذ ، يطلق عليه فى أسبانيا اسم « عمل الإيمان auto da fé » لأنه كان يقصد به أن يقوى عقائد الشعب الصحيحة ، ويؤيد الإيمان بالكنيسة . ولم تنطق الكنيسة قط بحكم الإعدام ، فقد كان شعارها القديم هو : إن الكنيسة تحجم عن إراقة الدماء « ecclesia abhorret a sanguine » ، ولهذا كان القسيسون يؤمرون بألا يسفكوا دماء ؛ ومن أجل ذلك فإن الكنيسة حين تبعث إلى السلطات الزمنية باللذين تدينهم لم تكن تطلب إلى ولاة رجال الدولة

(*) عملة فرنسية قديمة كانت قيمتها جزءاً من الجنيه ثم نمى استبدل بها « الصلدى » . (المترجم)

أكثر من أن يوقعوا عليهم « العقاب الذى يستحقونه » وتنبههم إلى أن يتجنبوا « كل ما من شأنه سفك الدماء أو التعريض لخطر الموت » . ثم اتفقت الكنيسة والدولة بعد جريجورى التاسع على ألا يؤخذ هذا التحذير بمعناه الحرفى ، بل أن يقتل المذنبون دون أن تسفك دماؤهم أى أن يحرقوا عند عمود الإحراق [٧٩] .

وكان عدد من حكمت عليهم محكمة التحقيق الرسمية بالموت أقل مما كان يعتقده المؤرخون فى وقت من الأوقات [٨٠] . ومن الشواهد الدالة على ذلك أن برنار ده كو Bernard de Caux وهو من المحققين المتحمسين ، قد خلف سجلا طويلا بالقضايا التى نظر فيها ؛ وليس فى هذا السجل قضية واحدة حكم فيها بإرسال المذنب إلى السلطات المدنية [٨١] . وحكم محقق يدعى برنار جوى Bernard Gui فى مدى سبعة عشر عاما على تسعمائة وثلاثين ضالا ، فلم يتجاوز من حكم عليهم بالموت من بين هذا العدد خمسة وأربعين [٨٢] . وكانت الأحكام الصادرة فى حفل عام بطولوز (طلوشة) عام ١٣١٠ هى أن أمر عشرون شخصاً بأن يخرجو للحج ، وحكم على ستة وخمسين بالسجن مدى الحياة ، وعلى ثمانية عشر بالإعدام . وفى عمل الإيمان الذى حدث فى عام ١٣١٢ أرسل واحد وخمسون إلى الحج ، وحكم على ثمانية وستين بالسجن مدداً مختلفة ، وأرسل خمسة إلى السلطات الزمنية [٨٣] . وقصارى القول أن شر مآسى محاكم التحقيق قد أخفتها السجون ولم تر الضوء عند أعمدة الإحراق .

الفصل الرابع

النتـــائج

لقد حققت محاكم التحقيق فى العصور الوسطى أغراضها العاجلة ، فقد قضت على الكثارية فرنسا ، ولم تبق من الولدنسيين إلا عددا قليلا من المتخمسين المتفرقين فى أماكن مختلفة ، وأعادت جنوبى إيطاليا إلى الدين القويم ، وأجلت تمزق المسيحية الغربية مدى ثلاثة قرون . وبها انتقلت زعامة أوربا الثقافية من فرنسا إلى إيطاليا ، ولكن الملكية الفرنسية المطلقة . بعد أن قويت باستيلائها على لانجوبدك ، بلغت من السلطان مبلغاً استطاعت به أن تخضع البابوية لأمرها فى أيام بنيفاس الثامن ، وأن تزجها فى السجن فى عهد كلمنت الخامس .

ولم يكن لمحاكم التحقيق فى أسپانيا قبل عام ١٣٠٠ إلا شأن صغير ، وترجع نشأتها فيها إلى عام ١٢٣٢ حين استطاع ريمند الپنيا فورتى Raymond of Panafort الراهب الدمنيكى عند جيمس الأول ملك أرغونة ، أن يقنع هذا الملك بإدخال محاكم التحقيق فى بلده . ولعل هذا الملك أراد أن يقلل من شطط محاكم التحقيق فسن فى عام ١٢٣٣ قانوناً بجعل الدولة هى التى تؤول إليها أملاك الضالين المصادرة ، وإن أصبح هذا العمل نفسه فى القرون التالية حافزاً قويا للملوك الذين وجدوا أن التحقيق والاستيلاء عملان شديدا الاتصال أحدهما بالآخر .

وفى شمالى إيطاليا ظل الضالون كثيرى العدد ، فلم يكن أتباع الدين القويم يعنون كثيراً بالاشتراك فى اصطياد الضالين ، وكان الطغاة المستقلون أمثال إزلينو Ezzelino فى ڤيسنزا Vicenza وپلاڤيشينو Pallavicino فى كرمونا وميلان يحمون الضالين سراً أوجهراً . وفى فلورنس أنشأ الراهب روچيرى Ruggieri

جماعة عسكرية من النبلاء المستمسكين بالدين لتأييد محكمة التحقيق ؛ واشتبك معهم البتاريون فى معارك دموية فى الشوارع ولكنهم هزموا فيها (١٢٤٥) ؛ ثم أخفت الضلالة فى فلورنس رأسها فيما بعد ؛ وحدث فى عام ١٢٥٢ أن اغتال بعض الضالين الراهب پيرو دا ڤرونا Piero da Verona فى ميلان ، فلما قتل سلكته الكنيسة فى عداد القديسين الشهداء وأسمته الشهيد بطرس ؛ وكان لعملها هذا من الأثر فى مقاومة الضلالة فى شمالى إيطاليا أكثر مما كان لجميع فظائع المحققين . وشنت البابوية حروباً صليبية على إزلينو وپلاڤنسينو ، وقضى على أولها فى عام ١٢٥٩ وعلى الثانى فى عام ١٢٦٨ ، وبهذا كان انتصار الكنيسة فى إيطاليا نصراً حاسماً فى ظاهر الأمر .

ولم تثبت محكمة التحقيق قدمها فى إنجلترا . نعم إن هنرى الثانى حرص على إثبات تمسكه بدينه فى أثناء نزاعه مع بكت بأن جلد واحداً وعشرين من الضالين وكواهم بالنار فى أكسفورد عام ١٢٦٦[٨٤] . ولكننا لا نكاد نسمع عن ضلالة فى إنجلترا قبل أيام ويكلف Wycalf . وفى ألمانيا ترعرعت محكمة التحقيق وأقدمت على أعمال جنونية زمناً قصيراً ، ثم ماتت . فقد حدث فى عام ١٢١٢ أن أحرق هنرى أسقف استرسبرج ثمانين ضالا فى يوم واحد ، وكان معظمهم ولديين ؛ وأعلن زعيمهم القس يوحنا عدم إيمانه بالغفران ، وبالمطهر ، وببقاء رجال الدين بلا زواج ، وقال إن رجال الدين يجب ألا تكون لهم أملاك . وفى عام ١٢٢٧ عيّن جريجورى التاسع كنراد Conrad قس ماربرج Marburg رئيساً لمحاكم التحقيق فى ألمانيا وأمره ألا يكتفى بالقضاء على الضلال ، بل أن يصلح أحوال رجال الدين بعد أن وصمهم البابا بالفساد ، وقال إن فسادهم هو أهم أسباب ضعف الإيمان بين الناس . واضطلع كنراد بكلا الواجبين بمنتهى القسوة ، وخيّر كل من اتهموا بالضلال بين واحدة من اثنتين : إما الاعتراف فالعقاب ، أو الإنكار فالموت حرقاً . ولما أن سار فى إصلاح رجال الدين على

هذا النحو من الجد ، انضم المستمسكون بدينهم والضالون بعضهم إلى بعض فى مقاومته ، وانتهى الأمر بأن قتله أصدقاء ضحاياه (١٢٣٣) ؛ وتولى الأساقفة الألمان أعمال محاكم التحقيق ، وخففوا من غلوائها ، وجعلوا إجراءاتها أقرب إلى العدالة من ذى قبل . وبقيت بعض الشيع الدينية ، بعضها شيع ضالة وبعضها صوفية ، فى بوهيميا وألمانيا ، ومهدت السبيل إلى هوس Huss ولوثر Luther .

وبعد فإنا حين نصدر حكماً على محاكم التحقيق يجب أن ننظر إليها على ضوء عصر اعتاد الوحشية ، ولعل عصرنا الحاضر الذى قتّل فى الحروب وأزهق من الأرواح البريئة دون أية محاكمة ، أكثر من أمثالهم بين أيام قيصر ونابليون ، أقدر من غيره على فهم هذه المحاكم . إن التعصب يلازم الإيمان القوى على الدوام ، والتسامح لا ينشأ إلا حين يفقد الإيمان يقينه ، أما اليقين فسيف بتّار . ولقد أقر أفلاطون التعصب فى « **قوانينه** » ، وأقره المصلحون فى القرن السادس عشر ، وإن بعض من ينتقدون محكمة التحقيق ليدافعون عن أساليبها إذا جرت عليها الدول الحديثة . ولقد تضمنت قوانين كثير من الحكومات الأساليب التى سارت عليها محاكم التحقيق ، ولعل ما يحدث من تعذيب المشتبه فيهم سراً فى هذه الأيام يسير على نمط محاكم التحقيق أكثر مما يسير على نمط القانون الرومانى . وإذا وازنّا بين اضطهاد المسيحيين للضالين فى أوربا من ١٢٢٧ إلى ١٤٩٢ ، وبين اضطهاد الرومان للمسيحيين فى الثلاثة القرون الأولى بعد المسيح ، حكمنا من فورنا بأن هذا أخف وطأة وأكثر رحمة من ذاك . وإذا ما أسقطنا من حسابنا كل ما يطلب إلى المؤرخ من اعتدال فى حكمه ، وما يسمح به للمسيحى من تمسك بدينه : إذا أسقطنا من حسابنا هذا وذاك ، فلا بد لنا أن نضع محاكم التحقيق فى مستوى حروب هذه الأيام واضطهاداتها ، ونحكم عليها جميعاً بأنها أشنع الوصمات فى سجل البشرية كله ، وبأنها تكشف عن وحشية لا نعرف لها نظيراً عند أى وحش من الوحوش .

الباب التاسع والعشرون

الرهبان والإخوان

١٠٩٥ - ١٣٠٠

الفصل الأول

حياة الرهبنة

لعل الذى أنجى الكنيسة من محنتها لم يكن هو ما لجأت إليه محاكم التحقيق من تعذيب . بل كان نشأة طوائف جديدة من الرهبان انتزعت من أفواه الضالين دعوة التقشف الدينى والفقر ، وظلت مدى قرن من الزمان تهب طوائف الرهبان ، وغير الرهبان من رجال الدين ، مثلا طيباً من الإخلاص المطهر للنفوس .

وكانت الأديرة قد تضاعف عددها فى أثناء العصور المظلمة ، وبلغت ذروتها فى القرن العاشر المضطرب الذى ساءت فيه الأحوال إلى أقصى حد ، ثم أخذ عددها فى النقصان حين أخذ النظام يسود الشئون الزمنية ، وأخذ الرخاء فى الازدياد : مثال ذلك أنه كان فى فرنسا حوالى عام ١١٠٠ خمسمائة وثلاثة وأربعون ديراً ؛ وفى عام ١٢٥٠ كان فيها ٢٨٧ ؛ وربما كان هـذا النقص فى عدد الأديرة قد عوضه ازدياد متوسط أعضائها ، ولكن الأديرة التى كان رهبانها يبلغون المائة كان جد قليل . وكان لا يزال من السنن المتبعة فى القرن الثالث عشر عند الآباء الأتقياء أو ثقال الظهر أن يهبوا أطفالهم فى سن السابعة أو ما بعدها إلى الأديرة « زلفى » إلى الله . وهكذا بدأ القديس تومس أكويناس حياته فى الدير ، وكانت طائفة الرهبان البندكتيين ترى أن النذر الذى ينذره أبوا الطفل بأن يهباه إلى الدير

لا يمكن الرجوع فيه[٣] . أما القديس برنار وطوائف الرهبان الجدد فكان من رأيهم أن لا ضير على الطفل الموهوب للدير إذا عاد إلى العالم متى بلغ سن الرشد[٤] ، وأصبح الراهب الراشد على مر الزمن فى حاجة إلى إجازة بابوية إذا أراد أن يرجع فى يمينه من غير أن يرتكب ذلك إثما .

وكانت معظم الأديرة الغربية قبل عام ١٠٩٨ تسير على نمط ما من أنماط طائفة الرهبان البندكتيين بدرجات متفاوتة من الاستمساك بمبادئ هذه الطائفة . فكانت تخصص للمبتدئ سنة يستطيع الطالب فى أثنائها أن ينسحب من الدير بكامل حريته ، وفى ذلك يقول الراهب قيصريوس الهيستر باخى Caesarius of Heisterbach إن فارساً من الفرسان انسحب من الدير « متذرعاً بتلك الحجة الدالة على الجبن وهى أنه يخشى الحشرات التى فى ثياب (الرهبنة) ، وذلك لأن ملابسنا الصوفية تأوى الكثير من الحشرات »[٥] . وكان الراهب يقضى من يومه أربع ساعات فى الصلاة . وكانت وجبات الطعام قصيرة الأجل ، وتقتصر عادة على الخضر ؛ أما بقية اليوم فكانت تقضى فى العمل ، والقراءة ، والتعليم ، وأعمال المستشفيات ، والصدقات ، والراحة . ويحدثنا قيصريوس بأن ديره وزع أثناء القحط الذى حدث فى عام ١١٩٧ ألفاً وخمسمائة صدقة من الطعام فى يوم واحد و« حافظ على حياة كل من جاءنا من الفقراء حتى حل موعد الحصاد »[٦] وذبح دير للسسترسيين فى وستفاليا جميع ضأنه وماشيته ، ورهن كتبه وآنيته المقدسة ، ليطعم الفقراء[٧] ، وشاد الرهبان بعملهم وعمل أرقاء أرضهم أديرة ، وكنائس صغيرة وكبيرة ، وفلحوا ضياعاً واسعة ، وجففوا مستنقعات ، واستصلحوا أرض الغابات ، ومارسوا مائة من الصناعات اليدوية ، وعصروا أحسن النبيذ والجعة . ولقد دربت الأديرة آلافاً من الرجال الصالحين القادرين على الآداب والأنظمة الخلقية والذهنية ، وإن كانت فى ظاهر الأمر قد انتزعت الكثيرين منهم من

العالم لتدفنهم فى غمار الصلاحية الأنانيّة ، ثم أعادتهم إليه مرة أخرى ليكونوا مستشارين للأساقفة ، والبابوات والملوك ومديرين لأعمالهم(*) .

وفاض ثراء المجتمع المتزايد على مر الزمن على الأديرة ، وكان سخاء الشعب مصدراً لما كان ينغمس فيه الرهبان أحياناً من ترف . ولنضرب لذلك مثلا دير القديس ركوييه St. Riquier ، ولم يكن من أغنى الأديرة ولكنه كان له ١١٧ تابعاً يملكون ٢٥٠٠ بيت فى البلدة التى كان قائماً فيها ، ويحصل من مستأجريها على عشرة آلاف دجاجة وعشرة آلاف ديك مخصى مسمن ، وخمسة وسبعين ألف بيضة ، ... وعلى أجر نقدى معتدل لكل فرد ولكنه فى مجموعه كبير(٨) . وثمة أديرة أعظم من هذا الدير ثراء وهى أديرة مونتى كسينو Monte Cassino ، وكلونى Cluny ، وفلدا Fulda ، والقديس جول St. Gall ، والقديس دنيس St. Denis ؛ وكان رؤساء الأديرة أمثال سوجر Suger رئيس دير القديس دنيس ، وبطرس المبجل رئيس دير كلونى ، وحتى سامسون Samson رئيس دير القديس إدمند فى بيورى ، كان هؤلاء الرؤساء سادة أقوياء عظماء أصحاب ثروات مادية طائلة وسلطان سياسى واجتماعى عظيم ؛ وهذا هو سوجر بعد أن أطعم رهبانه وشاد كنيسة(٧) فخمة كبرى تبقى لديه من الموارد المالية ما يمكنه من أن يتكفل

(*) يقول عالم من كبار العلماء ليس فى العادة ممن يشفقون على الكنيسة : « ليس أدل على كذب التهم التى يذيعها السفلة وهى أن رهبان العصور الوسطى كانوا نهمين ، متلفين ، مبذرين ، فاسقين ، ليس أدل على هذا الكذب من مئات السجلات ، وقوائم الجرد التى بقيت حتى اليوم ، والتى تشهد بما كان يتصف به الرهبان من عناية ، وذكاء ، وأمانة فى إدارتهم أعمالهم . وإن ما قام به الرهبان من إصلاح اقتصادى لأوربا فى العصور الوسطى ليشهد بأنهم كانوا بوجه عام ملاكا وزراعا أذكياء « تاريخ العصور الوسطى الاقتصادى والاجتماعى لطمسن Thomson, Eecuomic and Social History of the Middle Ages ؛٦٣٠ ويقول رينان المتشكك : « إن أكمل أعمال المسيحية وأعظمها أثرا هى التى قامت بها طوائف الرهبان » طبعة مارك أوريل Marc Arrèle بباريس ٦٢٧ .

بنصف نفقات إحدى الحملات الصليبية[٩] ، ولعل القديس برنار كان يعنْ
سوجر حين كتب يقول : « لو أنني قلت إني لم أر رئيس دير يركب على
أس موكبه مؤلف من ستين فارساً أو أكثر لكنت من الكاذبين »[١٠] .
ولكن سوجر كان رئيس وزراء لا بد له أن يحيط نفسه بمظاهر الأبهة
والفخامة ليؤثر بذلك فى نفوس الشعب ! أما فى حياته الخاصة فكان يعيش
عيشة التقشف والبساطة ، فى خلوة متواضعة مراعياً جميع قواعد طائفته
بقدر ما تمكنه من ذلك واجباته العامة . وكان بطرس المبجل رجلا صالحاً
ولكنه عجز رغم جهوده المتكررة عن أن يحول دون ازدياد الثروة الجماعية
فى الأديرة التابعة لدير كلونى — وهى التى كانت من قبل تتزعم حركة
الإصلاح — إلى حد أمكن الرهبان من أن يعيشوا عيشة البطالة الموهنة للقوى
وإن كانوا أفراداً لا يملكون شيئاً .

إن الأخلاق تفسد كلما زاد الثراء ، وفطرة الإنسان تظهر كلما أمكنتها موارده
من الظهور ، وفى كل جماعة كبيرة أياً كان نوعها يوجد أفراد غرائزهم أقوى من
إيمانهم . ولقد ظلت كثرة الرهبان مستمسكة بالقواعد التى ارتبطت بها وفية لها ،
ولكن أقلية منهم أخذت تنظر إلى العالم وإلى شئون الجسم نظرة أكثر ليناً .
وكان رئيس الدير فى كثير من الأحيان يعينه سيد إقطاعى أو ملك ويختاره من
طبقة تعودت الراحة ؛ ولم يكن هؤلاء الرهبان يتقيدون بقيود الأديرة ، فكانوا
يستمتعون بالصيد ، والقنص ، وألعاب الفروسية ، وينغمسون فى السياسة ؛
وسرت عدواهم إلى الرهبان أنفسهم . وها هو ذا جرالدس كمبرنسس Giraldus
Cambrensis يصور لنا حياة رئيس دير إفشام Evesham بصورة مروعة
فيقول : « لم يكن أحد بمنجاة من فجوره » ، وكان جيرانه يخصون له ثمانية عشر
ولداً ؛ وكان لا بد من خلعه آخر الأمر[١١] . وأصبح رؤساء الأديرة المنكبون على
مباهج الدنيا ، السمان ، الأغنياء ، الأقوياء ، هدفاً لسخرية الشعب وتشهير
الأدباء ، فكان أقسى ما كتب من الهجاء وأبعده عن المعقول وصفاً لرئيس دير

بقلم ولترماب Walter Map[١٢] . ومن الأديرة ما اشتهر بطعامه الشهى وخمره . على أننا يجب ألا ننكر على الرهبان قليلا من الهناءة ، وفى وسعنا أن ندرك مقدار مللهم من الخضر ، واشتياقهم إلى اللحوم ؛ ولا بسعنا إلا أن نعطف على ثرثرتهم ، وشجارهم ، ونومهم وقت الصلاة من حين إلى حين[١٣] .

ولقد استخف الرهبان ، وهم يقسمون بأن يبقوا عزاباً ، بقوة الغريزة الجنسية التى يستثيرها مراراً وتكراراً ما يشاهدون من مناظر وأمثلة من غير رجال الدين . ويروى قيصريوس الهيستر باخى قصة تتكرر كثيراً فى العصور الوسطى ، عن رئيس دير وراهب شاب خرجا راكبين معاً . ووقعت عينا الشاب على النساء للمرة الأولى فسأل رئيس الدير : « من هؤلاء ؟ » فأجابه « هؤلاء شياطين » فرد عليه الراهب بقوله : « لقد كنت أظنهم أجمل من رأيت فى حياتى كلها »[١٤] . ويقول الزاهد بطرس داميان فى آخر أيام حياته الورعة المريرة :

فى وسعى وأنا الآن رجل طاعن فى السن أن أنظر وأنا آمن إلى وجه ذابل مجعّد لامرأة عجوز شمطاء عمشاء العينين . أما من هنّ أجمل منها وجهاً وأكثر زينة فإنى أغضّ طرفى عنهن وأحذرهن كما يحذر الصبيان النار . ويلاه أيها القلب المفجوع ! — الذى لا يستطيع الاحتفاظ بأسرار الكتاب المقدس التى قرأتها من أولها إلى آخرها مائة مرة ، ثم لا تنمحى منه صورة لم أرها إلا مرة واحدة[١٥] .

وكانت الفضيلة تبدو لبعض الرهبان كأنها صراع نفسانى بين المرأة والمسيح ، ولم يكن تشهيرهم بالنساء إلا جهوداً يبذلونها لإماتة شعورهم بمفاتنهن ، كما كانت أحلامهم الصالحة التقية فى بعض الأحيان يرطبها رضاب الشهوة ، وكثيراً ما كانوا يعبّرون عن رؤاهم القدسية الروحية بعبارات مستعارة من العشق الآدمى[١٦](*) . وكانت قصائد أُوفد من الأشعار المحبوبة فى بعض الأديرة ،

(*) وإنا لنجد هذا بعينه فى أشعار الصوفية المسلمين . (المترجم)

ولم تكن مؤلفاته فى فن الحب بأقل منها تداولا بين الرهبان(١٧) . وكانت التماثيل المقامة فى بعض الكنائس الكبرى ، والنقوش المحفورة فى أثاثها ، بل الرسوم المصورة فى بعض الكتب المقدسة نفسها ، تمثل عبث الرهبان والراهبات — تمثل خنازير فى ثياب الرهبان ، وأثواب الدير بارزة فوق أعضاء التذكير المنتصبة ، والراهبات يعشن مع الشياطين(١٨) . ويمثل نقش بارز فوق مدخل يوم الحشر فى كنيسة ريمس شيطاناً يجرّ الرجال الآثمين إلى الجحيم ، ومن بينهم أسقف على رأسه تاج الأسقفية . وقد سمح رجال الكنيسة فى العصور الوسطى — ولعلهم كانوا من غير الرهبان الذين يحسدون هؤلاء على ما هم فيه من نعيم — سمحوا بأن تبقى هـــذه الرسوم الهزلية فى أماكنها ؛ ولكن رجال الدين فى هذه الأيام رأوا من الخير إزالة الكثرة الغالبة منها . ولقد كانت الكنيسة نفسها أقسى من وجه النقد إلى آثام رجالها ، وقامت طائفة متتابعة من المصلحين الدينيين تبذل ما وسعها من الجهد لكى تعيد الرهبان ورؤساء الأديرة إلى المثل العليا التى جاء بها المسيح .

الفصل الثانى

القديس برنار

عمت العالم المسيحى فى أواخر القرن الحادى عشر ، وفى نفس الوقت الذى تطهرت فيه البابوية ، وامتلأت القلوب تحمساً للحرب الصليبية الأولى ، حركة من الإصلاح الذاتى تحسنت بسببها أحوال رجال الدين غير الرهبان ، وقامت فى أثنائها طوائف من الرهبان جديدة أخذت نفسها بقواعد الأوغسطين والبندكتيين الصارمة . فقد حدث فى وقت غير معروف قبل عام ١٠٣٩ أن أسّس القديس يوحنا جلبرتس St. John Galbertus[١٩] طائفة من القلمبروزا Vallombrosa فى « الوادى الظليل » المسمى بهذا الاسم فى إيطاليا ، وبدأ فيه نظام الإخوة العلمانيين الذى وطدت دعائمه فيما بعد طوائف الرهبان المتسولين . وأهاب المجمع الرومانى المقدس الذى عقد فى عام ١٠٥٩ برجال الدين الذين يقتسمون أعمال الكنيسة ومواردها أن يعيشوا جماعة ، وأن تكون أملاكهم مشاعة بينهم كما كان شأن الرسل الأولين . ولم يستجب بعضهم إلى هـــذا النداء وبقوا « كهنة علمانيين » ؛ واستجاب له كثيرون منهم ، واتبعوا قاعدة رهبانية يعزونها إلى القديس أوغسطين ، وكوّنوا من أنفسهم جماعات شبه رهبانية تعرف فى مجموعها باسم « الكهنة الأوغسطين أو الأوسطين Austins »[*] . وأنشأ القديس برونو St. Bruno الكولونى فى عام ١٠٨٤ ، من بعد أن رفض أن يكون رئيس أساقفة ريمس ، طائفة الكرثوزين Corthusians ، وذلك بأن أسّس ديراً فى

(*) يجب ألا يخلط بينهم وبين الإخوان الأوغسطين أو الأوسطين الذى أنشأهم الزهاد فى تسكانيا عام ١٢٥٦ .

بقعة منعزلة تدعى كارتريز Chartreuse في جبال الألب بالقرب من جرينوبل Grenoble ؛ وأنشأ غيره من الأتقياء الصالحين وحدات كرثوزية فى أماكن منعزلة بعد أن سئموا ما يسود العالم من نزاع وما يتصف به رجال الدين من تهاون . وكان كل راهب فى هذه الأماكن يعمل ، ويطعم ، وينام ، فى خلوته الخاصة المنعزلة ، ويعيش على الخبز واللبن ، ويلبس ثياباً من شعر الخيل . ويكاد يلازم الصمت على الدوام . وكانوا يجتمعون معاً ثلاث مرات كل أسبوع للقيام بمراسم القداس ، وصلاة الغروب ، وصلاة منتصف الليل ؛ وفى أيام الآحاد ، والأعياد ينطلقون فى الحديث ويُطعمون جماعة . وكانت هذه الطائفة أشد طوائف الرهبان صرامة ، وظلت ثمانية قرون كاملة تأخذ نفسها بقواعدها الأصلية وفيّة لها أشد الوفاء .

وأنشأ ربرت المولسميسى Robert. of Molesmes فى عام ١٠٩٨ بيت رهبنة جديد فى مكان برّى يدعى سيتو Citeaux قريب من ديجون Diion ، وذلك بعد أن أعيته الحيل لإصلاح أديرة البندكتيين المتفرقة التى كان هو رئيساً عليها ، واشتق من لفظ سيتو اسم الرهبان السسترسيين كما اشتق من لفظ كارتريز اسم الرهبان الكرثوزيين . وأعاد ستيفن هاردنج من دورسسترشير Stephen Harding of Dorsestershire تنظيم هذا الدير ووسعه ، وأنشأ له عدة فروع ، ووضع **عهد الحب** Carta caritatis ليضمن به التعاون السلمى الموحَّد بين سيتو والبيوت السسترسية المختلفة . وعادت مبادئ البندكتيين إلى كل ما كانت عليه من صرامة ، فكان الفقر التام أهم مستلزماتها ، وامتنع الأعضاء عن أكل اللحم بكافة أنواعه ، وحيل بينهم وبين التعليم ، وحرم عليهم قرض الشعر ، وأمروا أن يتجنبوا جميع مظاهر الأبهة فى الملابس الدينية ، والآنية ، والأبنية . وحتم على كل راهب قوى الجسم أن يشترك فى الأعمال اليدوية فى الحدائق والمصانع التى تجعل الدير مستقلا عن العالم الخارجى ، فلا يكون لراهب ما

حجة فى مغادرة ديره . وامتاز السسترسيون عن جميع الطوائف الأخرى ، رهبانية كانت أوغير رهبانية ، بنشاطهم وحذقهم فى الأعمال الزراعية ، وأنشأوا مراكز جديدة لطائفتهم فى الأصقاع غير المسكونة ، وجففوا المستنقعات ، وقطعوا أشجار الغياض والغابات ليفسحوا مكاناً للزراعة ، وكان لهم فضل كبير فى استعمار ألمانيا الشرقية وإصلاح الأضرار التى ألحقها وليم الفاتح بإنجلترا . وكان يساعد الرهبان السسترسيين فى هذه الجهود التى يبذلونها فى سبيل الحضارة إخوان علمانيون مهتدون نذروا أن يبقوا عزاباً ، صامتين ، أميين[٢٠] ، يعملون زرّاعاً أو خدماً نظير الطعام والملبس والمسكن[٢١] .

وبعثت هذه الصرامة الخوف فى قلوب من يريدون الانضمام إلى هذه الطائفة ، ولهذا كان نمو هذه الجماعة القليلة بطيئاً ، ولولا ما بعثه القديس برنار فى الطائفة الجديدة من حماسة قوية لقضى عليها فى مهدها .

وُلد القديس برنار بالقرب من ديجون (١٠٩١) من أسرة عريقة تنتمى إلى طبقة الفرسان ، وكان فى صباه شاباً حيياً تقياً ، يؤثر العزلة ؛ ولم يجد راحة فى العالم الدنيوى ، فاعتزم أن يدخل الدير ، وكأنما أراد الرفقة فى الوحدة ، فأخذ ينشر دعاوة قوية موفقة بين أهله وأصدقائه ليدخلوا معه ديرسيتو . ويحدثنا المؤرخون أن الأمهات والفتيات الصالحات للزواج كانت ترتعد فرائصهن حين يقترب منهن ، خشية أن يغرى أبناءهن أو عشاقهن بالتزام العفة ، ولكنه نجح على الرغم من دموعهن . ولما أن قبل فى دير سيتو (١١١٣) جاء معه بتسعة وعشرين ممن يريدون دخول الدير ، ومنهم إخوة له ، وأحد أعمامه ، وطائفة من أصدقائه ؛ وأفلح فيما بعد فى إقناع أمه وأخته بأن تترهبا ، وأقنع أباه أيضاً بأن يترهب بعد أن توعده بأنه « إن لم يكفّر عن ذنوبه فسيحترق إلى أبد الدهر . . وينبعث منه الدخان والرائحة الكريهة »[٢٢] .

وأعجب استيفن هاردنج من فوره بتقوى برنار ونشاطه إعجاباً حمله على أن

يرسله (١١١٥) على رأس ثلاثة عشر راهباً لينشئ بيتاً سسترسيا جديداً يكون هو رئيسه . واختار برنار لبيته الجديد بقعة شَجِرة على بعد تسعين ميلا من سيتو تعرف باسم **الوادى اللامع** Clara vallis أو Clairvaux ، ولم يكن فى هذا المكان مسكن ولم يكن فيه قط إنسان . وكان أول عمل قامت به الفئة المتآخية أن بنَت بأيديها « ديرها » الأول — وهو بناء خشبي يحوى تحت سقف واحد مصلى ، ومطعما ، وفى أعلاهما مكان للنوم يَصِلون إليه بسلم خشبي . وكانوا ينامون فى صناديق نثرت عليها أوراق الأشجار ، ولم تكن النوافذ أكبر من رأس الرجل ولم يكن على الأرض شيء . وكان طعامهم مقصوراً على الخضر إلا سمكة يطعمونها من حين إلى حين ؛ ولم يكونوا يطعمون خبزاً أبيض ، أو توابل ، وقلما كانوا يشربون نبيذاً ؛ فكان هؤلاء الرهبان الحريصون على دخول الجنة يأكلون كما يأكل الفلاسفة الراغبون فى طول العمر . وكانوا يعدون طعامهم بأيديهم ، فيتناوبون طهوه . وكان من القواعد التى وضعها برنار ألا يبتاع الدير أملاكا ، وألا يكون له إلا ما يوهب ، وكان يرجو ألا يكون له من الأرض أكثر مما يستطيع الرهبان العمل فيه بأيديهم وبأدواتهم البسيطة . وأخذ برنار وإخوانه المتزايد عددهم يعملون فى هذا الوادى الهادئ فى صمت وقناعة بعيدين عن « زوبعة العالم » يقطعون أشجار الغابة ، ويزرعون ، ويحصدون ، ويصنعون أثاثهم بأيديهم . ويجتمعون فى أوقات الصلاة ليرتلوا الأناشيد بغير أرغن ، ويتلوا مزامير اليوم وترانيمه . ويصفهم وليم السانت تيرىِّ William of St. Thierry بقوله : « كلما أنعمت النظر فيهم زاد يقيني أنهم أعظم أتباع المسيح كمالا . . . لا ينقصون إلا قليلا عن الملائكة ، ولكنهم أرقى كثيراً من الآدميين »(٢٣) . وانتشرت أنباء هذا السلام المسيحى وهذا الاستقلال الذاتى حتى كان فى كليرڤو قبل موت برنار سبعمائة من الرهبان . وما من شك فى أنهم كانوا سعداء فى ذلك المكان ، لأن الذين بعثوا من هذه البيئة الشيوعية ليكونوا رؤساء أديرة ، أو أساقفة ،

أو مستشارين ، كانوا كلهم تقريباً يتوقون للعودة إليها ؛ وكان برنار نفسه — وقد عرضت عليه الكنيسة أرقى مناصبها ، وذهب إلى أراض كثيرة بناء على طلبها — يحن دائما للعودة إلى صومعته فى كليرڤو « حتى تسبل أيدى أبنائى عينى ، وحتى يوارى جسدى فى كليرڤو بجوار أجساد الفقراء » .

وكان رجلا متوسط الذكاء ، ثابت اليقين ، ماضى العزيمة ، متناسق الصفات الخلقية ، ولم يكن يعنى بالعلم ولا بالفلسفة لأنه يحس أن عقل الإنسان وهو جزء من الكون متناه فى الصغر عاجز عن الحكم على الكون ، لا يستطيع الادعاء بأنه يفهمه ؛ وكان يدهش من كبرياء الفلاسفة السخيف وهم ينطقون بهذرهم عن طبيعة الكون ، وأصله ، ومصيره . وقد هاله ما يراه أبلار من تحكيم العقل فى الدين ، وقاوم هذه النزعة العقلية لأنها تجديف وقحة . وكان يفضل أن يمشى فى ضياء معجزات الوحى غير سائل أو متشكك ، مفضلا هذا عن محاولة فهم العالم . وكان من رأيه أن الكتاب المقدس هو كلام الله ، وإلا كانت الحياة فى رأيه بيداء من الشك الحالك الظلام ، وكلما أوغل فى الدعوة إلى هذا الإيمان الشبيه بإيمان الأطفال ، ازداد يقينه بأن هذا هو الطريق السوى . ولما أن جاءه أحد رهبانه واعترف له فى رهبة وفزع أنه لا يستطيع الإيمان بقدرة القس على أن يحول خبز القربان إلى جسم المسيح ودمه ، لم يلمه برنار على ما قال ، وأمره مع ذلك أن يشترك فى العشاء الربانى ، وقال له : « اذهب واشترك فيه **بإيمانى أنا** » ؛ ويؤكد لنا الرواة أن إيمان برنار فاض على المتشكك وأنجى روحه[٢٥] . وكان فى وسع برنار أن يكره ويطارد حتى الموت ، أو ما يقرب من الموت ، الضالين أمثال أبلار أو آرنلد البريشيائى لأنهم أضعفوا كنيسة تبدو له رغم أخطائها وعيوبها مطية المسيح نفسها ، كما كان فى وسعه أن يحب برقة لا تكاد تقل عن رقة العذراء التى كان يعبدها بغيرة منقطعة النظير . ورأى يوماً لصا يساق إلى المشنقة فشفع له عند كونت شمپانيا ووعده أن يوقع عليه عقاباً أقسى من الموت

الذى لا يقاسيه إلا لحظة وجيزة[٢٦] . وكان يعظ الملوك والبابوات ، ولكنه يكون أكثر رضاً عن نفسه حين يعظ الفلاحين والرعاة فى واديه . وكان يتسامح فى أخطائهم ، ويهديهم بما يضربه لهم بنفسه من مثل صالح ، وينال حبهم الصامت ويبادلهم حباً بحب . ووصل فى تقواه إلى حد الزهد المنهك للقوة ، وقد أكثر من الصوم حتى اضطر رئيسه فى سيتو أن يأمره بتناول الطعام . وظل ثمانية وثلاثين عاماً يعيش فى صومعة واحدة ضيقة فى كليرفو ، على فراش من ورق الشجر ، وليس فيها مقعد إلا حفرة فى الجدار[٢٧] . وكانت طيبات العالم جميعها وما فيه من أسباب الراحة ، تبدو له وكأنها لا شىء إذا قيست إلى التفكير فى المسيح ووعده . وكتب وهو فى هذه النشوة عدة ترانيم غاية فى البساطة والرقة الأخاذة بمجامع القلوب :

أيها المسيح يا صاحب الذكرى الحلوة ،
هب القلب البهجة الحقة ؛
إن أحلى من الشهد ومن الأشياء جميعها
مشهده الحلو ،
وليس فى كل ما يُغَنَّى شىء أجمل من ذكر عيسى ابن الله
ولا فيما يسمع شىء أحسن وقعاً على الأذن منه
ولا فيما يفكر فيه العقل أحلى منه .
أى عيسى يا أمل التائبين
ما أرقَّ قلبك على المتسولين !
وما أقربك لطالبيك !
ترُى ماذا تكون لمن يلقونك ؟

وقلما كان يعني بغير الجمال الروحى رغم إدراكه جمال اللفظ ، فكان يغطى

عينيه خشية أن تسرفا فى الاستمتاع الحسى بجمال بحيرات سويسرا[٢٩] . وكان ديره عارياً من جميع الزينة عدا صورة المسيح مصلوباً ، وكان يلوم دير كلونى لكثرة ما ينفقه من المال فى بناء الأديرة التابعة له وزينتها ، ويقول فى هذا : « إن الكنيسة تتلألأ جدرانها وتغلّ يدها عن فقرائها ، وتطلى حجارتها بالذهب وتترك أبناءها عراة ، وتفتن عيون الأغنياء بالفضة التى تأخذها من البائسين »[٣٠] . وكان يشكو من أن دير القديس دنيس العظيم غاص بالفرسان المتكبرين المدرعين بدل العبّاد السذج ؛ ويسميه : « حامية عسكرية ، ومدرسة الشيطان ، ومعشش اللصوص »[٣١] . وتأثر سوجر بهذا اللوم ، فأصلح عادات كنيسته ورهبانه ، وعاش حتى استحق ثناء برنار .

ولم يكن إصلاح الأديرة الذى سطع ضياؤه من كليرڤو ، ورفع مستوى رجال الدين بترقية رهبان برنار إلى مراتب الأساقفة ورؤساء الأساقفة ، لم يكن هذا إلا بعض ما أحدثه ذلك الرجل ، الذى لم يكن يطلب شيئاً غير الخبز ، من الأثر فى جميع الطبقات وفى خلال نصف القرن الذى عاشه . وجاء لزيارته الأمير هنرى الفرنسى أخو الملك وتحدث إليه برنار ، وقبل أن ينقضى اليوم كان هنرى راهباً يغسل الصحاف فى كليرڤو[٣٢] . وقد استطاع بعظاته — وقد أوشكت لفصاحتها وجزالة لفظها أن تكون شعراً — أن يؤثر فى نفوس كل من سمعه ؛ كما استطاع برسائله — وهى آيات خالدة فى الدعوة الحماسية الحارة — أن يؤثر فى المجالس ، والأساقفة ، والبابوات ، والملوك ؛ وأمكنه باتصاله الشخصى أن يشكل سياستى الكنيسة والدولة . وأبى أن يكون أكثر من رئيس دير ، ولكنه رفع البابوات إلى عروشهم وأنزلهم عنها ، ولم يكن الناس يستمعون إلى حبر من الأحبار بإجلال وخشوع أكثر مما يستمعون بهما إليه .

وقد خرج من صومعته ليقوم بنحو اثنتى عشرة مهمة دبلوماسية عالية ، كانت فى العادة بناء على طلب الكنيسة . ولما أن اختارت طائفتان متنازعتان

أنكليتس الثانى وإنوسنت الثانى للجلوس على كرسى البابوية (١١٣٠) أيد برنار إنوسنت ؛ ولما أن استولى أنكليتس على رومة دخل برنار إيطاليا ، وأثار بقوة شخصيته وخطبه الحماسية مدن لمبارديا لتأييد إنوسنت ؛ وسكرت الجموع بخطبه وتقاه فانكبت عليه تقبل قدميه ومزقت مئزره إرباً اتخذتها مخلفات مقدسة تورثها أبناءها من بعدها . وأقبل عليه المرضى فى ميلان ، وأعلن المؤمنون المصابون بالصرع والشلل وغيرهما من الأمراض أنهم شفوا من أمراضهم بلمسه . ولما عاد إلى كلبرفو بعد انتصاراته الدبلوماسية جاءته جموع الفلاحين من الحقول والرعاة من أعالى التلال ، يطلبون إليه أن يباركهم ، فلما تلقوا منه هذه البركة عادوا إلى كدحهم مرفوعى الرأس راضين .

وقبل أن يتوفى برنار فى عام ١١٥٣ كان عدد أديرة السسترسيين قد زاد من ثلاثين ديراً فى عام ١١٣٤ (وهى السنة التى مات فيها استيفن هاردنج) إلى ٣٤٣ ديراً وانضم إلى هذه الطائفة عدد كبير من الناس متأثرين بتقواه وقوته ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان عدد أفرادها ستين ألفاً يقيمون فى ٦٩٣ ديراً . ونشأت طوائف أخرى من الأديرة فى القرن الثانى عشر ، فأنشأ ربرت الأبرسولى Robert of Abrissol حوالى عام ١١٠٠ طائفة الفنتفرول Fontevroult فى أنجو ، وفى عام ١١٢٠ تخلى القديس نربر Norbert عن ثروة عظيمة آلت إليه وأنشأ طائفة « رهبان المرعى الموعود »(*) النظامية فى بريمنتريه Premontré بالقرب من ليون Leon . وفى عام ١١٣١ أنشأ القديس جلبرت طائفة

(*) Premonstrateusian وتسمى أيضا طائفة النربرتيين نسبة إلى منشئها . أما تسميتها بطائفة المرعى الموعود فسببها كما يقول نربر أن المكان الذى نشأوا فيه قد حدد له فى رؤيى ظهرت له وهو فى غاية كوسى Coucy بالقرب من ليون Leon فى مقاطعة اين Aisne .
(المترجم)

السمبرنجهام Sempringham الجلبرتيين الإنجليز على غرار طائفة فنترفول .
وفى عام ١١٥٠ سار بعض الزهاد الفلسطينيين على سنة القديس باسيلى وانتشروا فى جميع أنحاء فلسطين . ولما استولى المسلمون على فلسطين هاجر هؤلاء الرهبان « رهبان الكرمل » إلى قبرص ، وصقلية ، وفرنسا ، وإنجلترا . وفى عام ١١٩٨ صدق إنوسنت الثالث على قانون طائفة الرهبان « الثالوثيين Trinitarians » ، وحضهم على افتداء المسيحيين الذين وقعوا أسرى فى أيدى المسلمين . وكانت هذه الطوائف الجديدة شعلا أضاء ظلمات الكنيسة المسيحية .

وأخذت حركة الاصلاح فى الأديرة التى بلغت ذروتها على يد القديس برنار تضعف فى خلال القرن الثانى عشر . فقد كانت الطوائف الحديثة النشأة تحافظ على مبادئها الصارمة بإخلاص معقول . غير أنه لم يكن من المستطاع أن يوجد الكثيرون من الناس الذين يستطيعون الصبر على هذا النظام الصارم فى ذلك العهد السريع الخطى . فأثرى السسترسيون - ومنهم أتباع برنار نفسه فى كليرفو — على مر الزمن بما انهال عليهم من هدايا ذوى الآمال ، واستطاع الرهبان بفضل الأعيان الموقوفة من « التائبين » أن يضيفوا إلى طعامهم اللحم وكثيراً من النبيذ(٣٣) ، وعهدوا بجميع الأعمال اليدوية إلى إخوانهم العلمانيين ؛ ولما مضت أربع سنين على موت برنار ابتاعوا عدداً من الأرقاء المسلمين(٣٤) ، وكانت لهم تجارة واسعة تدر عليهم أرباحاً طائلة فى منتجات صناعاتهم المشاعة ؛ وأثاروا حقد نقابات أرباب الحرف لأنهم كانوا معفين من العوائد المفروضة على نقل البضائع (٣٥) . ولما ضعف إيمان الناس على أثر إخفاق الحملات الصليبية قل عدد الطلاب الجدد وانحطت بسبب هذا الضعف أخلاق جميع طوائف الرهبان ،

ولكن المثل الأعلى القديم القاضى بأن يحيا الرهبان كما كان يحيا الرسل حياة شيوعية خالية من الملك الفردى لم يمت ، بل بقى فى نفوس الآلاف من الناس الاعتقاد الراسخ بأن من واجب المسيحى الصادق أن يبتعد عن الثروة والسلطان ، وأن يحافظ أشد المحافظة على السلام . ثم ظهر فى تلال إمبريا Umbria بإيطاليا فى أوائل القرن الثالث عشر رجل أعاد تلك المثل العليا القديمة إلى سابق قوتها ، وذلك ببساطته ، وطهارته ، وتقواه ، وحبه ، وأدهش الناس بهذه الصفات حتى ظنوا أن المسيح قد ولد من جديد .

الفصل الثالث

القديس فرانسس(*)

وُلد چيوڤنى ده برنادون Giovanni de Bernadone فى أسيسى Assisi عام ١١٨٢ . وكان أبوه سرپيترو ده برنادون Ser Pietro de Bernadone من أثرياء التجار ، ذا تجارة واسعة مع پروڤانس ؛ وفيها أحب فتاة فرنسية تدعى پيكا Pica وتزوجها وجاء بها إلى أسيسى . ولما عاد من رحلة أخرى ووجد أنها أنجبت له ولدا بدّل اسم الطفل فجعله فرانسسكو Francesco أى فرانسس ، ويبدو أن ذلك كان تحية منه لپيكا . وشب الطفل وترعرع فى أجمل صقع فى إيطاليا ، ولم يفقد قط حبه لمناظر أمبريا الجميلة وسمائها الصافية . وتعلّم من والديه اللغتين الفرنسية والإيطالية ، وأخذ اللغة اللاتينية عن قس الأبرشية ، ولم يكن له بعدئذ نصيب من التعليم المنظم ، ولكنه سرعان ما انتظم فى عمل أبيه ، وأغضب سرپيترو بما أظهره من قدرة على صرف المال تفوق قدرته على كسبه . فقد كان أغنى شباب البلدة وأسخاهم يداً ، يجتمع حوله أصدقاؤه يطعمون معه ويشربون ويغنون أغانى الشعراء الغزلين . وكان فرانسس بين الفينة والفينة يرتدى حلة المنشدين الجائلين المتعددة الألوان(٣٦) . وكان شابا وسيما ، أسود العينين ، فاحم لون الشعر ، صبوح الوجه ، جميل الصوت . ويقول المترجمون الأولون له إنه لم تكن له قط صلة بالنساء ، وإنه لم يعرف إلا امرأتين معرفة لا تتجاوز النظر

(*) إن بعض ما كتب عن فرانسس تاريخ صحيح وبعضه قصص . وإذ كان بعض القصص من أروع الآيات الأدبية التى خلفتها العصور الوسطى فقد أثبتنا هذا البعض فى الصفحات التالية ونبهنا القارئ إلى طبيعته هذه فى كل مرة . ونقول هنا من بادئ الأمر إن معظم « زهيرات القديس فرانسس Fiovetti » و « مرآة الكمال Speculum Perfectiones » من القصص الموضوعة . وعلى هذا النحو يجب أن يفسر ما نقتبسه من هذين الكتابين .

إليهما[٢٧] ، ولكن هذا بلا ريب يظلم فرانسس بعض الظلم . ولعله سمع من أبيه فى تلك السنين التى يتشكل فيها خلقه شيئا عن الضالين الإلبجنسيين والولدنسيين فى جنوبى فرنسا ، وعن إنجيلهم الجديد إنجيل الدعوة إلى الفقر

وحارب فى عام ١٢٠٢ فى جيش أسيسى ضد پروجيا Perugia ، وأسر ، وقضى فى الأسر سنة شغلها كلها بالتأمل العميق . وفى عام ١٢٠٤ تطوع فى جيش البابا إنوسنت الثالث . وبينا هو طريح الفراش فى إسپوليتو ينتفض جسده من الحمى إذ خيل إليه أن صوتاً يناديه : « لم تهجر الإله إلى الخادم ، والأمير إلى تابعه ؟ » فسأل هو ذلك الصوت : « ربَّاه ماذا تريدنى أن أفعل ؟ » فأجابه الصوت : « عد إلى موطنك ، وهناك سيقال لك ماذا تفعل »[٢٨] . فما كان منه إلا أن ترك الجيش وعاد إلى أسيسى . ومن ذلك الوقت أخذ اهتمامه بتجارة أبيه يقل واهتمامه بالدِّين يزيد . وكان بالقرب من أسيسى مصلى صغيرة للقديس دميان . وبينا كان فرانسس يصلى فيها ذات يوم من أيام شهر فبراير عام ١٢٠٧ إذ خيل إليه أنه يسمع المسيح يتحدث إليه من المذبح ، ويتقبل حياته وروحه قرباناً له . وأحس من تلك اللحظة أنه موهوب إلى حياة جديدة ، فأعطى قس المصلى كل ما معه من المال وعاد إلى منزله . والتقى ذات يوم بشخص مصاب بالجذام ففر منه مشمئزاً ، ثم لام نفسه لعدم إخلاصه للمسيح . وعاد أدراجه وأفرغ ما كان فى كيسه من النقود فى يد المجذوم وقبَّل يده ؛ ويقول لنا هو إن هذا العمل كان بداية عهد جديد فى حياته الروحية[٢٩] . وأخذ من ذلك الحين يزور مساكن المجذومين ويتصدق عليهم .

وقضى بعد قليل من ذلك الحادث عدة أيام فى المصلى أو بالقرب منها ، ويبدو أنه لم يكن يأكل فى تلك الأيام إلا القليل الذى لا يغنى من جوع ، فلما ظهر مرة أخرى فى أسيسى كان جسمه قد ضعف وهزل ، ولونه قد امتقع ، وثيابه قد تمزقت ، وعقله قد تحير ، حتى أخذ الأطفال فى الميدان العام يصيحون

« پزو ، پزو ! pazzo, ! pazzo المجنون ، المجنون ! » وهناك عثر عليه أبوه ، وسماه بالشاب الذى ذهب نصف عقله ، وجره إلى منزله ، وأغلق عليه حجرة ضيقة . ولما أن أطلقته أمه من حبسه عاد مسرعاً إلى المصلى ، فلحق به أبوه الغاضب ، وأنبه لتعريضه أسرته للسخرية ، ولامه لأنه لم يفد شيئاً من المال الذى أنفقه على تربيته ، وأمره أن يخرج من البلدة التى هو فيها ؛ وكان فرانسس قد باع كل ممتلكاته الشخصية لينفق من ثمنها على المصلى ، فلما سمع هذا القول من أبيه أعطاه ما كان معه من ثمنها ، وقبله منه أبوه ، ولكنه لم يعترف لوالده بحقه فى أن يأمر شخصاً هو وقتئذ ملك للمسيح . ولما استدعى للمثول بين يدى محكمة الأسقف فى ميدان القديسة مارية مجيورى ، مثل أمامها فى خشوع وحوله جمع حاشد ينظر إليه . وقد خلد چيوتو هذا المنظر فى صورة له ذات روعة . ووثق الأسقف بما قطعه على نفسه من وعد وأمره أن يتخلى عن جميع أملاكه . وآوى فرانسس إلى حجرة فى قصر الأسقفية ، وما لبث أن عاد عارياً كما ولدته أمه ، وألقى أمام الأسقف بثيابه المحزومة وما كان باقيا معه من نقود قليلة وقال : « لقد ظللت حتى هذه الساعة أدعو پيترو برنادون أبى ، أما الآن فإنى أحب أن أكون خادماً لله . ولهذا فإنى أرد إليه هذا المال . . . هو وثيابى وكل ما حصلت عليه منه ، لأنى من هذه الساعة لن أنطق بغير « أبانا الذى فى السموات »(٤٠) . وأخذ برنادون الثياب وغطى الأسقف فرنسس المرتجف بمئزره ، وعاد فرانسس إلى مصلى القديس داميان ، ونسج لنفسه ثوبا من أثواب النساك ، وأخذ يسأل الناس طعامه من باب إلى باب ، وشرع يبنى بيديه المصلى المتصدعة ، وجاء بعض أهل القرية يساعدونه ، وكانوا يغنون جميعاً وهم يعملون .

وبينا كان يستمع إلى القداس فى شهر فبراير من عام ١٢٠٩ أثرت فى نفسه العبارات التى كان القس يتلوها من تعاليم المسيح إلى الرسل : وفيها « أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات . اشفوا مرضى . طهروا برصاً ،

أقيموا موتاً ، أخرجوا شياطين ، مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا ، لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً في الطريق ولا ثوبين ، ولا أحذية ولا عصا » (متى ١٠ : ٧ — ١٠) .

وخيل إلى فرانسس أن المسيح نفسه هو الذى يتكلم وأنه يتكلم إليه مباشرة ، وصمم على أن يطيع هذه الألفاظ وينفذها بنصها — أن يدعو إلى ملكوت السموات ، وألا يقتنى شيئاً ، وأن يرجع إلى الوراء خلال المائتين والألف من الأعوام التى أخفت عن الناس صورة المسيح ، وأن يعيد تشكيل حياته على غرار هذا المثل القدسى .

وهكذا وقف فى ربيع ذلك العام فى ميدان أسيسى متحدياً سخرية الساخرين جميعها يدعو إلى إنجيل الفقر وإلى المسيح . واشمأزت نفسه مما كان سائداً فى هذا العصر من سعى لكسب المال بالحق أو بالباطل ، وروعه ما رآه من ترف بعض رجال الدين وأبهتهم ، فأخذ يندد بالمال نفسه ويقول إنه هو الشيطان وهو اللعنة ؛ وأمر أتباعه أن يجتنبوه كما يجتنبوا الرجس(٤١) ؛ وأهاب بالرجال والنساء أن يبيعوا كل ما يملكون وأن يهبوا ثمنه للفقراء . واستمعت إليه جماعات قليلة فى دهشة وإعجاب ، ولكن الكثرة مرت به وحسبته أبله مفتوناً بالمسيح ، ولما قال له أسقف أسيسى الصالح : « يبدو لى أن طريقتك فى الحياة من غير أن تملك شيئاً قاسية صعبة على النفس » أجابه فرانسس بقوله : « مولاى ، إننا إذا كان لنا ملك احتجنا إلى الأسلحة للدفاع عنه »(٤٢) . وتأثرت به بعض النفوس . وعرض عليه اثنا عشر ممن تأثروا به أن يتبعوا تعاليمه ويسيروا على سننه ، فرحب بهم ، ولقنهم الفقرة السالفة الذكر من أقوال المسيح ليتخذوها رسالة لهم وقاعدة يسيرون عليها ؛ ونسجوا لأنفسهم ثياباً سمراء ، وأقاموا لهم أكواخاً من أغصان الأشجار ، ونبذوا هم وفرانسس عزلة الرهبان القديمة ، فكانوا يخرجون كل يوم حفاة ، ليس معهم شىء من المال ، يعظون الناس . وكانوا فى بعض

الأحيان يغيبون عدة أيام ، وينامون فى مخازن الدريس ، أو مستشفيات المجذومين ، أو تحت أبواب الكنائس ؛ فإذا عادوا غسل فرانسس أقدامهم وقدم لهم الطعام .

وكانوا يحيون بعضهم البعض ، ويحيون كل من يلتقون بهم فى الطريق ، التحية الشرقية القديمة : « سلام الله عليكم » ولم يكونوا حتى ذلك الوقت قد أطلق عليهم اسم « فرانسسكان » ، فقد كانوا يسمون أنفسهم « الإخوان الصغار Minorites Fratres أو المينوريين Minores » . ذلك أنهم كانوا إخواناً لا قساوسة ، ومعنى كونهم صغاراً أنهم أصغر خدام المسيح شأناً ، وأنهم لا يمارسون قط سلطاناً ، بل يخضعون على الدوام لسلطان من هم أرقى منهم ؛ فهم يخضعون لأقل القساوسة درجة ، ويقبلون يد أى قسيس يلقونه ، ولم يرسم إلاّ عدد قليل منهم فى الجيل الأول من نشأتهم قساوسة ، ولم يرق فرانسس نفسه إلى أكبر من مرتبة شماس ، وكانوا فى جماعتهم الصغيرة يخدم بعضهم بعضاً ، ويشتغلون بالأعمال اليدوية ، ولم يكونوا يسمحون بوجود متعطل منهم ، أو يشجعون الدراسة العقلية بينهم ، لأن فرانسس لم يكن يرى فى المعلومات الزمنية أية فائدة غير تكديس الثروة أو الجرى وراء السلطان : « وسيجد إخوانى الذين تغويهم الرغبة فى العلم أنهم صفر الأيادى فى يوم المحنة »(٤٣) . وكان يسخر من المؤرخين الذين لا يقومون هم أنفسهم بعمل عظيم ، ولكنهم يشرفون لأنهم يسجلون ما يقوم به غيرهم من جليل الأعمال(٤٤) . وقد سبق فرانسس قول جيته إن العلم الذى لا يؤدى إلى العمل باطل مسمم فقال : « ليس للإنسان من العلم إلا القدر الذى يستخدمه فى العمل »(٤٥) ولم يكن واحد من الإخوان يمتلك كتاباً بما فى ذلك كتاب الترتيل نفسه ؛ وكانوا فى عظاتهم يلجأون إلى الغناء كما يلجأون إلى الخطابة ، بل كانوا يحذون حذو الشعراء المغنين الجائلين فيكونون مطربى الله(٤٦) .

وكان الإخوان أحياناً يُسخرمنهم ويُضربون ، وتُسرق منهم أثوابهم حتى الثوب الأخير . وقد أمرهم فرانسس ألا يبدوا أية مقاومة . وكان المعتدون

فى كثير من الأحيان يدهشون من احتقار الإخوان للمجد والملك ، وهو احتقار كان يبدو لهم فوق الطاقة البشرية ، ولهذا كانوا يتقدمون إليهم يطلبون الصفح ويعيدون إليهم ما سرقوه(٤٧) . ولسنا نعرف هل هذا المثل الآتى المأخوذ من **زهيرات القديس فرانسس** تاريخ حق أوخيال ، ولكنه فى كلتا الحالين يصوّر نشوة التقوى التى تسرى فى كل ما نسمعه عن القديس :

قال فرانسس فى يوم من أيام الشتاء وهو سائر فى طريقه من پروچيا يعانى الأمرين من برد الشتاء القارس : « أيها الأخ ليو ، إن الإخوان الصغار يضربون أحسن الأمثلة فى الصلاح والتهذيب ، ومع هذا فاكتب إليهم ، ولا تتوان عن تعليمهم ، أن البهجة الكاملة ليست فى هذا » . ويعد أن واصل فرانسس السير فى طريقه بعض الشىء قال : « أيها الأخ ليو ، إن الإخوان الصغار قد ردوا البصر إلى المكفوفين ، وقوّموا المعوجّين ، وأخرجوا الشياطين ، وأعادوا السمع إلى الصم ، ومكنوا العرج من المشى المستقيم . . . وأحيوا من قضوا فى القبر أربعة أيام ، ومع هذا فاكتب : إن السرور الكامل ليس فى ذاك » . ثم سار فى طريقه قليلا وصاح بأعلى صوته : « أيها الأخ ليو ، لو أن الأخ الصغير عرف كل اللغات والعلوم ، وجميع الكتب المقدسة حتى استطاع أن يكشف عن الأمور المستقبلة ويتنبأ بها ، بل استطاع أكثر من هذا أن يكشف عن مخبآت الضمائر والنفوس — فاكتب : إن السرور الكامل ليس فى ذاك » . . . ومع هذا فقد سار بعدئذ قليلا وصاح قائلا : « أيها الأخ ليو ، إن الأخ الصغير يحذق الوعظ إلى حد يستطيع معه أن يهدى الكفرة إلى دين المسيح — فاكتب : « ليس السرور الكامل فى ذاك » . ولما استمر هذا الطراز من الحديث ميلين كاملين سأله الأخ ليو : ... « أبى ، بالله قل لى أين يوجد السرور الكامل ؟ » فأجابه فرانسس بقوله : « حين نصل إلى كنيسة مارية الملائكة » (وكانت وقتئذ مصلى الفرانسسكان فى أسيسى) يبللنا المطر ، متجمدين من شدة البرد ، ملطخين

بالوحل ، معذبين من شدة الجوع ، وحين تدق الباب ويقبل البواب ثائراً ويقول : « من أنتما ؟ » فتقول له : « نحن اثنان من إخوانك » فيرد علينا قائلا : « إنكما كاذبان ، بل أنتما وغدان تسيران فى الطرق تخدعان العالم ، وتختلسان صدقات الفقراء . اذهبا ! » ثم لا يفتح لنا الباب ، ويتركنا فى خارجه نعانى آلام الجوع والبرد طوال الليل فى المطر والثلج ؛ فإذا ما تحملنا هذه القسوة صابرين . . . من غير أن نشكو أو نحزن ، ونعتقد فى ذلة وشفقة أن الله هو الذى أنطق البواب بالسخرية منا — ألا أيها الأخ ليو ، اكتب ، هناك السرور الكامل ! وإذا ما واصلنا دق الباب ، وخرج هو وطردنا وهو غاضب ، وسبّنا ولطم خدودنا وقال لنا : « أبْعدَا أيها اللصانِ السافلان ! — فإذا ما تحملنا هذا صابرين يملأ قلبينا الحب والفرح فاكتب أيها الأخ ليو : هذا هو السرور الكامل ! وإذا ما عضنا الجوع وآلمنا البرد فدفعنا الباب مرة أخرى ودعوناه بحب الله أن يفتح لنا . . . فخرج بعصا كبيرة معقدة وقبض علينا من قلنسوتينا ، وألقانا على الأرض ، ودحرجنا على الثلج ، ورض كل عظم من عظامنا بتلك العصا الثقيلة ، فإذا ما فكرنا فى آلام المسيح الرحيم ، وتحملنا هذه الآلام كلها فى صبر وسرور مدفوعين إليها بحب الله — فاكتب أيها الأخ ليو أن هنالك وفى هذا يوجد السرور الكامل »(٤٨) .

وكانت ذكرى حياته المترفة الباكرة تبعث فى نفسه شعوراً بالخطيئة يؤرقه ويقض مضجعه ، وإذا كان لنا أن نصدق ما جاء فى الزهيرات فإنه كان فى بعض الأحيان يسائل نفسه فى حيرة هل يغفر له الله ذنوبه ؟ وثمة قصة مؤثرة تقول إنه فى الأيام الأولى من نشأة الطائفة حين لم يكن فى وسعهم أن يجدوا كتاب صلوات يتلون منه أدعيتهم المقدسة ، ارتجل فرانسس ورداً للتوبة ، وأمر الأخ ليو أن يعيد بعده عبارات تتهم فرانسس بالخطيئة . وحاول ليو أن يعيد التهمة فى كل جملة ، ولكنه وجد أنه لم يكن يكرر التهمة ، بل كان يقول بدلا منها

إن « رحمة الله وسعت كل شيء »(٤٩). وحدث فى مرة أخرى ، وكان فرانسس قد نقه تواً من الحمى ، أن طلب أن يُجَر وهو عار من الثياب أمام الناس فى سوق أسيسى وأن يلقى أحد الإخوان على وجهه صفحة من الرماد ، ثم قال هو للحاضرين : « إنكم تعتقدون أنى ولى صالح ، ولكنى أعترف لله ولكم أنى فى ضعفى هذا أكلت لحماً وشربت مرق لحم »(٥٠) . وزاد ذلك القول يقين الناس بطهره وقداسته ، ورووا أن أخاً شاباً أبصر المسيح والعذراء يحدثانه ؛ وكانوا يعزون له عدة معجزات ، ويأتون إليه بمرضاهم ومن بهم « مس » ليشفيهم . وأصبحت صدقاته مضرب المثل وموضوع القصص ، فلم يكن يطيق أن يرى أحداً أفقر منه ، وكثيراً ما كان يتصدق على من يمرّ به من الفقراء بالثوب الذى يلبسه حتى كان مريدوه يجدون من أصعب الصعاب أن يبقوه مكتسياً . وتقول **مرآة الكمال** التى هى فى أكبر الظن من نسج الخيال(٥١):

وبينا هو عائد من سينا Siena إذ التقى فى طريقه برجل فقير ، فقال لزميل من الرهبان : « يجب أن نعيد هذا المئزر إلى صاحبه ، لأنا لم نأخذه إلا عارية حتى نعثر على من هو أفقر منا . . . وإنا إذا لم نعطه من هو أشد حاجة إليه منا عُدّ هذا منا سرقة » .

وفاض حبه من الآدميين على الحيوان والنبات ، وعلى الجماد نفسه ؛ وتعزو إليه **مرآة الكمال** التى لم تثبت صحتها تسبيحاً للشمس يقول فيه :

حين تشرق الشمس فى الصباح ، يجب على كل إنسان أن يحمد الله الذى خلقها لننتفع بها ... وإذا جن الليل وجب على كل إنسان أن يسبح بحمد الله الذى أمدنا بأختنا النار التى تبصر بها أعيننا ، لأننا جميعاً أشبه بالمكفوفين ، وقد أضاء الله أعيننا بهذين الأخوين .

وكان يعجب بالنار إعجاباً يحمله على التردد فى إطفاء شمعة ؛ لأن النار قد

تعارض فى أن تطفأ . وكان قوى الإيمان بما بينه وبين كل كائن حى من أواشج القربى . وأراد أن « يتوسل إلى الإمبراطور » (فردريك الثانى الذى كان مولعاً بصيد الطير) « لكى يخبره بحق حبه لله ولى أن يضع قانوناً خاصاً يحرم على أى إنسان أن يقبض على أخوتنا القبرات أو يقتلها ، أو يلحق بها أذى ما ، وأن يطلب رؤساء البلديات وعمد البلاد ، وملاك القصور والقرى ، إلى كل رجل أن ينثر الحب فى خارج المدن والقصور فى يوم عيد الميلاد من كل عام حتى تجد أخواتنا القبرات وغيرها من الطير ما تأكله »(٥٢) والتقى مرة بشاب اقتنص بضع قمريات وسار بها إلى السوق . وأقنع فرانسس الشاب أن يعطيه إياها ، وبنى القديسون عشوشاً لها « حتى تثمر وتتضاعف » ؛ وأطاعت القمريات فأثمرت وتضاعفت أضعافاً مضاعفة ، وعاشت بجوار الدير سعيدة بصداقة الرهبان ، وكانت أحياناً تخطف الطعام من المائدة التى يطعم عليها أولئك الرهبان(٥٣) . ونسجت حول هذا الموضوع عشرات من الأقاصيص لتزينه وتجمله ، منها واحدة تقول إن فرانسس خطب فى « أخواتى الصغار من الطير » وهو فى طريقه من كانورا **Cannora** إلى بيفانيا **Bevagna** ؛ فنزلت إليه الطيور التى على الأشجار لتستمع إليه ، وظلت ساكتة بينا كان فرانسس يختم عظته :

أخواتى الصغار من الطير ! ما أكثر ما أنتن مدينات به إلى الله خالقكن ، ومن واجبكن أينما كنتن وأنى كنتن أن تحمدنه لأنه وهبكن حلة ثنائية وثلاثية . لقد وهبكن الحرية التى تمكنكن من الذهاب أينما شئتن . . . وفوق هذا فإنكن لا تزرعن ، ولا تحصدن ، والله يطعمكن ويهبكن الأنهار والعيون لتشربن من مائها ؛ ويهبكن الجبال والوديان لتأوين إليها ، والأشجار الباسقة التى تبنين فيها أعشاشكن ، وإذ كنتن لا تستطعن أن تغزلن أو تخطن فإن الله يكسوكن أنتن وأبناءكن . . . فاحذرن إذن يا أخواتى الصغار أن ترتكبن ذنب الكفران بالنعمة ، ولا تغفلن أبداً عن حمد الله(٥٤) .

ويؤكد لنا الأخوان چيمس وماسيو أن الطيور كانت تنحنى احتراماً لفرانسس ، وأنها لم تكن تبرح أماكنها حتى يباركها . والزهيرات Fioretta التى نقلنا منها هذه القصة هى تبسيط باللغة الإيطالية لكتاب Actus Beati Francisci المكتوب باللغة اللاتينية (١٣٢٣) ، وهى أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ الحق ، ولكنها تعد فى مستوى أجمل مؤلفات عصر الإيمان وأعظمها متعة .

ولما قيل له إن إنشاء طائفة دينية جديدة يتطلب الحصول على إذن من البابا ، سافر فرانسس ومريدوه الاثنا عشر إلى رومة فى عام ١٢١٠ ، وعرضوا طلبهم ومبادئهم على إنوسنت الثالث . فنصحهم البابا العظيم بلطف أن يؤجلوا مسألة الإنشاء الرسمى للطائفة الجديدة حتى يحين الوقت لاختبار مبادئهم اختباراً عملياً ، وقال لهم : « أبنائى الأعزاء ، إن حياتكم لتبدو لى أقسى مما تطيقون ، نعم إنى أرى أنكم شديدو التحمس لمبادئكم . . . ولكن من واجبى أن أفكر فيمن سيأتون بعدكم خشية أن يكون أسلوب حياتكم فوق ما يطيقون »(٥٥) . وأصر فرانسس على طلبه ، وخضع له البابا آخر الأمر — خضعت القوة الممثلة فى شخص البابا إلى الإيمان الممثل فى شخص فرانسس — ، وقص الإخوان شعورهم ، وخضعوا لرجال السلطة الدينية ، وحصلوا من البندكتيين فى مونت سباسيو Mt. Subasio القريب من أسيسى على مصلى القديسة مارى الملائكية St.Mary of the Angels ، وهى مصلى لايزيد طولها على عشر أقدام ، وقد بلغ من صغر مساحتها أن أطلق عليها فيما بعد اسم پورتى أنكولا Portiuncula — « أى الجزء الصغير » . وبنى الإخوان لهم أكواخا حول المصلى ، وكانت هذه الأكواخ أولى أديرة طائفة القديس فرانسس الأولى .

وانضم إلى الطائفة أعضاء جدد ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، ولكن فتاة ثرية فى الثامنة عشرة من عمرها هى كلارا دى اسكفى Clara dei Sciffi طلبت

إليه أن يأذن لها بإنشاء طائفة ثانية من طوائف القديس فرانسس خاصة بالنساء (١٢١٢) . وابتهج القديس لهذا الطلب أعظم ابتهاج — فقد غادرت الفتاة بيتها ونذرت نفسها للفقر ، والطهر ، والطاعة ، وأصبحت رئيسة دير فرنسيسى أقيم حول مصلى القديس دميان . ثم أنشئت طائفة ثالثة من طوائف القديس فرانسس — هى الطائفة الثلاثية — من بين العلمانيين الذين لم يكونوا يرتبطون بقواعد القديس فرانسس كاملة ، ولكنهم أرادوا أن يتبعوا هذه القواعد قدر المستطاع ، وأن يعيشوا فى « الدنيا » ، ويساعدوا الطائفة الأولى والثانية بعملهم وصدقاتهم . وحملت الطوائف الفرنسيسية المطردة الزيادة إنجيلها إلى بلدان أمبريا (١٢١١) ، ثم حملته فيما بعد إلى غيرها من مقاطعات إيطاليا . ولم يكن هؤلاء الرهبان ينطقون بشىء عن الضلالة ، بل كانوا يعظون الناس عظات بسيطة فى شئون الدين ؛ ولم يكونوا يطلبون إلى المستمعين أن يأخذوا أنفسهم بالعفة ، والفقر ، والطاعة التى وهبوا هم أنفسهم لها ، بل كانوا ينادونهم « خافوا الله وعظموه ، وأثنوا عليه وسبحوه . . . وتوبوا إليه واستغفروه . . . فإنكم تعلمون أنا عما قليل ميتون . . . تجنبوا الشر ، وثابروا على الخير » .

لقد طالما سمعت إيطاليا هذه الألفاظ من قبل ، ولكنها قلما سمعتها من رجال أوتوا من الإخلاص البين مثل ما أوتى هؤلاء الرجال . وأقبل الناس ذرافات ليستمعوا إلى مواعظهم ، وعرفت قرية فى أمبريا أن القديس فرانسس مقبل عليها . فخرجت على بكرة أبيها لتحييه بالأزهار ، والأعلام ، والأناشيد[٥٦] . ولما أقبل على سينا Siena وجد المدينة فى حرب أهلية ؛ فلما استمع الحزبان المتحاربان إلى مواعظه أقبلوا عليه خاضعين ، وأنهوا نزاعهم طوعاً لأمره إلى حين[٥٧] . وكانت هـــذه الرحلات التبشيرية التى قام بها فى إيطاليا هى التى أصيب فيها بالملاريا التى قضت على حياته فى سن مبكرة .

بيد أن ما لقيه من النجاح فى إيطاليا وجهاده بالإسلام قد شجعاه على مواصلة

العمل ، فاعتزم أن يذهب إلى بلاد الشام ويدعو المسلمين والسلطان نفسه إلى اعتناق الدين المسيحى . ولهذا أبحر فى عام ١٢١٢ من إحدى الثغور الإيطالية ولكن عاصفة بحرية قذفت بسفينته إلى شاطئ دلماشيا واضطرته أن يرجع إلى إيطاليا ؛ غير أن إحدى الأقاصيص تقول إن « القديس فرانسس أدخل فى دينه سلطان بابل »(٥٨) . وتقول قصة أخرى أكبر الظن أنها غير صادقة كسابقتها إنه سافر فى ذلك العام نفسه إلى أسبانيا ليدخل المسلمين فى دين المسيح ، ولكنه حين وصل إليها أصيب بمرض شديد اضطر مريديه أن يعودوا به إلى أسيسى . وتروى قصة أخرى مشكوك فى صحتها أنه جاء إلى مصر ، وأنه مر بسلام فى صفوف جيش المسلمين الذى كان يقاوم الصليبيين عند دمياط ، وعرض أن يخوض النار إذا وعده السلطان أن يعتنق هو وجنوده الدين المسيحى إن خرج من النار سالما ؛ ورفض السلطان هذا العرض ولكنه أمر بأن يعد للقديس حرس يصحبه إلى معسكر المسيحيين . وروع فرانسس حين رأى ما أظهره جنود المسيح من وحشية وهم يذبحون السكان المسلمين حين استولى الصليبيون على دمياط(٥٩) ، فعاد إلى إيطاليا مريضاً محزونا ، وأصيب وهو فى مصر ، فضلا عن مرض الملاريا ، برمد أوشك فى مستقبل حياته أن يفقده بصره .

وازداد أتباع القديس فى أثناء غيابه زيادة أسرع مما يستطيع معها السيطرة عليهم. ذلك أن شهرته جعلت الأتباع ينضمون إليه دون آن يفكروا فى الأمر التفكير الواجب ، فأخذ بعضهم يندمون على تسرعهم ، وشكا البعض الآخر من صرامة مبادئ الطائفة ، فنزل فرانسس عن بعض القواعد وهو كاره . وما من شك كذلك فى أن انتشار الطائفة التى انقسمت إلى عدة بيوت منتشرة فى أنحاء أمبريا قد تطلب منه مهارة إدارية وكياسة لا قبل له بهما لشدة انهماكه فى مبادئه الصوفية . من ذلك ما يروى أن راهبا اغتاب زميلا له فأمره فرانسس أن يأكل قطعة من روث حمار حتى لا يحلو الخبث فى لسانه من بعد . وصدع

الراهب بالأمر ولكن زملاءه هالهم العقاب أكثر مما هالتهم الجريمة[٦٠] . وتخلى فرانسس فى عام ١٢٢٠ عن زعامة الطائفة ، وأمر أتباعه أن يختاروا لها غيره مرشداً عاماً ، وارتضى فيما بعد أن يكون راهباً بسيطاً . لكنه أزعجه بعد عام من ذلك الوقت ما رآه من استمرار التراخى فى إطاعة المبادئ الأولى (١٢١٠) فوضع للطائفة قواعد جديدة — هى « العهد » الذائع الصيت — أراد بها أن يتقيد أتباعه تقيداً تاماً بمراعاة يمين الفقر التى أقسموا أن يراعوها ، ونهى الرهبان عن الانتقال من أكواخهم عند اليورتى أنكولا إلى الأحياء الطيبة الهواء التى أنشأها لهم أهل المدينة ؛ وعرض هذه القواعد على هونوريوس الثالث فأحالها إلى لجنة من المطارنة لمراجعتها ، فلما خرجت من أيديهم كانت قد أخذت بنحو اثنتى عشرة قاعدة من قواعد فرانسس وبمثلها من التعديلات المخففة ، وهكذا تحققت نبوءة إنوسنت الثالث .

وعمد فرانسس فى ذلك الوقت على كره منه ، وإطاعة لما أخذ به نفسه من خشوع ، عمد إلى حياة قضى معظمها فى التفكير ، والعزلة ، والزهد ، والصلاة . وجاءته شدة خشوعه وقوة خياله من حين إلى حين بروى المسيح ، أو مريم ، أو الرسل . وفى عام ١٢٢٤ غادر أسيسى مع ثلاثة من مريديه وخرج يقطع الجبال والسهول حتى وصل إلى صومعة على جبل فرنا M. Verna بالقرب من شيوزى Chiusi ، وأقام منفرداً فى كوخ منعزل وراء أخدود عميق لا يسمح لأحد غير الأخ ليو أن يزوره ، وأمره ألا يأتى إليه إلا مرتين كل يوم ، وألا يجىء إذا لم يتلق رداً على ندائه بأنه قريب منه . وفى اليوم الرابع عشر من سبتمبر عام ١٢٢٤ يوم عيد تمجيد الصليب المقدس ، وبعد صوم طويل وليلة قضاها ساهراً مصلياً — فى هذا اليوم خيل إلى فرانسس أنه رأى ملكاً ينزل من السماء يحمل معه صورة للمسيح المصلوب ، ولما توارى الشبح أحس بآلام غريبة وتبين زوائد لحمية فى كفيه وظهرى يديه ، وفى أسفل قدميه وأعلاهما ، وفى جسمه كله شبيهة فى أماكنها

وفى لونها بالجروح التى أحدثتها فى ظن الناس المسامير التى يعتقدون أنها دقت أطراف المسيح فى الصليب والحربة التى نفذت فى جنبه(*) .

وعاد فرانسس إلى صومعته وإلى أسيسى ، وشرع بعد عام من ظهور تلك القروح يفقد بصره ، إلى أن كان يوماً فى زيارة لدير القديسة كلارا ففقد بصره فقداناً تاما . ومرضته كلارا حتى عاد إليه نور عينيه واستبقته فى دير القديس دميان شهراً من الزمان ، وفيه ألّف فى يوم من أيام ١٢٢٤ « تسبيحة الشمس » بالنثر الإيطالى الموزون ، ولعله ألفها وهو فى نشوة الفرح أيام النقاهة من مرض عينيه(٦٢) :

ربّاه يا ذا الخير والجلال والسلطان الأعظم ،
إليك الحمد ، والمجد ، والتكريم ، وكل البركات ؛
إنك أنت وحدك يا ذا الجلال خليق بها
وما من أحد يليق به أن يذكرك .
إليك الحمد يارب أنت وجميع مخلوقاتك ،
وأكثر ما يكون ذلك الحمد لأخينا الشمس
الذى يهبنا النهار ويضيئنا به
والشمس جميلة ساطعة ذات روعة ،
بينها وبينك يا ذا الجلال بعض الشبه ،
تسبّح بحمدك يا رب قمر السماء ونجومها ؛
فقد خلقتها فى السماء صافية ، ثمينة ، جميلة

(*) قيل إنه ربما كان سبب هذه الفقاقيع هو الملاريا الخبيثة . ومما هو معروف أن هذا المرض يحدث نزيفاً فى الجلد من الدم الأرجوانى ، لعدم معرفة القوم وقتئذ بوسائل العلاج الحديثة(٦١) .

نُسَبح بحمدك يا رب الرياح ، والهواء ، والسحب ، والجواء كلها ،
الطيّب منها وغير الطيب ، وهي التي تهب بها القوت لمخلوقاتك .
تُسبّح بحمدك يا رب أختنا المياه
ذات النفع العظيم والتواضع الجم ، الثمينة النقية .
تُسبح بحمدك يا رب أختنا النار
التي أضأت بها دجى الليل ،
وهي جميلة ، ومبتهجة ، وشديدة وقوية ،
تُسبح بحمدك يا رب أختنا وأمنا الأرض ،
التي تمدنا بالغذاء وتسيطر علينا ،
وتخرج لنا الفاكهة المختلفة الأشكال والأزهار ،
والأعشاب ذات الألوان .
يُسبح بحمدك يا رب من يعفون عن الناس حبا فيك ،
ويحتملون آلام المرض والمحن ،
طوبى لمن يحتملونها في هدوء ،
لأنك أنت يا ذا العظمة ستضع على رءوسهم التيجان .

ورأى بعض الأطباء في ريتى أن يمروا بقضيب من الحديد المتوهج على جبهته ليعالجوا بذلك مرض عينيه بعد أن مسحوهما « ببول غلام لم يباشر قط النساء » . ويقال إن فرانسس نادى : « الأخ النار : إنك جميل فوق كل المخلوقات ؛ فمن على في هذه الساعة ؛ وإنك لتعلم مقدار حبي العظيم الدائم لك » ؛ وقال فيما بعد إنه لم يحس قط بألم . واسترد من قوة البصر ما يكفيه لأن يبدأ رحلة أخرى يعظ فيها الناس ، ولكن متاعب السفر لم تلبث أن أنهكت قواه ، وأقعده داء الملاريا ومرض الاستسقاء ، فعادوا به إلى أسيسى .

واضطروه رغم احتجاجه إلى الرقاد فى قصر الأسقفية ؛ وسأل الطبيب أن يصدقه الخبر ، فقيل له : إنه لا يكاد يبقى حيا بعد الخريف ، وأدهش جميع الحاضرين إذ بدأ يغنى ، ثم أضاف ، على حد قولهم ، مقطوعة أخرى إلى تسبيحة الشمس :

نُسبح بحمدك يا رب يا من منت علينا بأختنا مَيْتةَ الجسد التى لاينجو منها بشر .

فوا أسفى على من يموتون وهم آثمون
وطوبى لمن هم طوع إرادتك المقدسة ،
لأن الميتة الثانية لن ينالهم منها أذى(٦٣) .

ويقال : إنه ندم فى تلك الأيام الأخيرة على زهده لأنه « أساء به إلى أخيه الجسم »(٦٤) . ولما خرج الأسقف من عنده أقنع فرانسس الرهبان — أن ينقلوه إلى پورتى أنكولا ؛ وفيها أملى وصيته ، وهى وصية تجمع بين التواضع والقوة ، فقد أمر أتباعه أن يقنعوا « بالكنائس الفقيرة المهجورة » ، وألا يقيموا فى بيوت لا تتفق مع الأيمان التى أقسموها بأن يظلوا فقراء ؛ وأن يسلموا للأسقف كل ضال أو ناكث للعهد من رهبان الطائفة ؛ وألا يغيروا قط مبادئهم(٦٥) :

وأدركته المنية فى اليوم الثالث من شهر أكتوبر من عام ١٢٢٦ ولما يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره ؛ وكان فى اللحظة الأخيرة ينشد أحد المزامير . وبعد سنتين من وفاته سمته الكنيسة قديسا . وكان زعيمان آخران يسيطران على هذا العصر القوى الحركة هما إنوسنت الثالث وفردريك الثانى . فأما إنوسنت فقد رفع مقام الكنيسة إلى أعلى ذروته ، ومن هذه الذروة هوت بعد قرن من الزمان ؛ وأما فردريك فقد رفع الإمبراطورية إلى ذروة مجدها ، ومن هذه الذروة هوت بعد عقد واحد . ولسنا ننكر أن فرانسس قد بالغ فى فضائل الفقر والجهل ،

ولكنه بعث القوة فى الدين المسيحى بأن أعاد إليه روح المسيح . وأولو العلم وحدهم هم الذين يعرفون اليوم البابا والإمبراطور ، أما القديس الساذج فيتغلغل حبه فى قلوب الملايين من بنى الإنسان .

وبلغ عدد أعضاء الطائفة التى أنشأها خمسة آلاف عضو عند وفاته ، وانتشرت في بلاد المجر، وألمانيا ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا . وكانت هى الدعامة التى تعتمد عليها الكنيسة فى عودة شمالى إيطاليا من الضلالة إلى الكثلكة . ولم تقبل إنجيل الفقر والأمية الذى كانت تنادى به إلا أقلية صغيرة ، لأن أوربا أصرّت على التخبط فى تيه الثروة ، والعلم ، والفلسفة ، والشك المثير للنفوس . وفى هذه الأثناء (١٢٣٠) تحلل رهبان الطائفة مرة أخرى من القواعد المعدلة التى وافق عليها فرانسس وهو كاره ؛ فلم يكن يُنتظر من الناس أن يبقوا زمناً طويلا ، وأن يبقوا بالعدد المطلوب ، محتفظين بذلك المستوى العالى من الزهد الذى لا يكاد يقبله عاقل ، والذى عجل منية فرانسس . فلما خفت وطأة قواعد الطائفة بعض الشيء زاد عدد الإخوان الصغار حتى بلغ قبل عام ١٢٨٠ نحو مائتى ألف راهب يقيمون فى ثمانية آلاف دير ، وحتى أصبحوا من كبار الواعظين ، وحتى حملوا رجال الدين بما ضربوه لهم من الأمثلة على أن يقوموا بالوعظ والإرشاد ، وكانت هذه العادة حتى ذلك الوقت مقصورة على الأساقفة دون غيرهم . وخرج من بينهم قديسون أمثال القديس برنردينو السينائى Bernardino of Siena والقديس أنطونى البدوانى Antony of Padua ، كما قام من بينهم علماء مثل روجر بيكن ، وفلاسفة مثل دن اسكوتس Dun Scotus ومعلمون مثل اسكندر الهاليسى Alexander of Hales ، وأضحى بعضهم عمالا لمحاكم التحقيق ؛ وارتقى بعضهم إلى كراسى الأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، والبابوية ؛ وقام كثيرون منهم بمغامرات تبشيرية فى بلاد أجنبية بعيدة . وتوالت عليهم الهبات من الأتقياء الصالحين ، وتعلم بعض زعمائهم ، مثل الأخ إلياس ،

حب الترف ، وأقام لذكرى فرانسس تلك الباسلقا الرائعة التى لا تزال تتوج تل أسيسى وإن كان مؤسس الطائفة قد حرّم إقامة الكنائس الكبرى . ولقد كانت رسوم سيمابيو Cimabue وجيتو Giotto فى هذه الباسلقا أول تتاج ذلك الأثر العظيم الخالد الذى كان للقديس فرانسس ولتاريخه وقصصه فى الفن الإيطالى .

واحتج كثيرون من أبناء الطائفة على التحلل من بعض قواعد فرانسس وآووا إلى صوامع أو أديرة صغيرة فى جبال الأپنين يعيشون فيها رهاداً « روحيين » أو « متحمسين » ، أما بقية الفرنسيسيين فقد آثروا الأديرة الرحبة . وكان الروحيون يقولون إن المسيح والحواريين لم يكن لهم متاع ؛ ووافقهم على هذا القديس بونا فنتورا Bonaventura ، وصدّق البابا نقولاس الثالث على ذلك الرأى فى عام ١٢٧٩ ؛ غير أن البابا يوحنا الثانى والعشرين أعلن فى عام ١٣٢٣ أنه رأى خاطئ ؛ ومن ذلك الحين عـــدّ « الروحيون الذين أصروا على الدعوة إلى هذا المبدإ من الضالين ، وقمعت حركتهم . وبعد مائة عام من وفاة فرانسس حرقت محاكم التحقيق أتباعه عند أعمدة التحريق .

الفصل الرابع

القديس دمنيك

يظلم الناس دمنيك حين يقولون إن اسمه يوحى بمحاكم التحقيق ، ذلك أن دمنيك لم يكن هو الذى أنشأ تلك المحاكم ، ولم يكن هو الذى تلقى عليه تبعة ما لجأت إليه من إرهاب ؛ فقد كان نشاطه مقصوراً على هداية الناس بالقدوة والموعظة الحسنة . وكان أقوى من فرانسس شكيمة ، ولكنه كان يجله ويراه أعظم منه قداسة ، وحباه فرانسس بحبه جزاء له على هذه الصفات الطيبة . وكان عمل الرجلين فى جوهره واحداً : فكلاهما نظم طائفة عظيمة من الرجال لايعمدون إلى نجاة أنفسهم بطريق العزلة ، بل بالتبشير بين المسيحيين وغير المسيحيين . وأخذ كلاهما من الضالين أعظم أسلحتهم إقناعا — وهو مدح الفقر والقيام بالوعظ ، وكان لهما معاً فضل إنقاذ الكنيسة .

ولد دمنجو ده جزمان Domingo de Guzman فى قلعة رويجا من أعمال قشتالة (١١٧٠) ونشأ فى رعاية عم له من القساوسة ، فكان رجلا من آلاف الرجال الذين تمكنت المسيحية من نفوسهم ، وعمرت بها قلوبهم . ويقال إنه لما نزل القحط بمدينة بلنسية ، باع جميع متاعه ، وفيه كتبه الثمينة ليطعم بثمنها فقراء المدينة . وأصبح قساً أغسطينيا نظاميا فى كنيسة أسما Osma ، وصحب أسقفها فى عام ١٢٠١ فى بعثة تبشيرية إلى طولوز ، وكانت وقتئذ مركز الفئة الألبجنسية الضالة . وكان مضيفهما نفسه ألبجنسيا ، وقد يكون من الأقاصيص الموضوعة أن دمنيك هداه إلى الدين القويم فى أثناء الليل . وأوحى إليه نصح الأسقف ، والمثل الذى ضربه له بعض الضالين ، فعمد إلى حياة الفقر الاختيارى.

ومشى حافى القدمين ، وبذل ما يستطيع من الجهد ليعيد الناس بطريق السلم إلى حظيرة الدين القويم . والتقى فى منپلييه بثلاثة من مندوبى البابا — أرنلد Arnold وراؤل Raoul وبطرس الكاسلنووى Peter of Castelnэw وروع حين شهد ثيابهم الغالية وترفهم ، وعزا إلى هذا ما أقروا به من عجز عن كفاح الضلالة ، وأخذ يؤنبهم بجرأة لا تقل عن جرأة أنبياء العبرانيين : « إن الضالين لا يردون الناس عن دينهم ويضمونهم إليهم بما يظهرون من القوة والأبهة ، ولا بمواكب الخدم والحشم ، وإنما يردونهم بالوعظ الحماسى ، وبالخشوع المماثل لخشوع الحواريين ، وبالتقشف ، والاستمساك بالدين »(٦٦) ويقال إن المندوبين استحوا من عملهم ، فصرفوا حاشيتهم وخلعوا نعالهم .

وأقام دمنيك فى لانجويدك عشر سنين (١٢٠٥ – ١٢١٦) ، يعظ الناس بكل ما أوتى من غيرة وحماسة . ولم يذكر اسمه فى حادث ذى صلة بالاضطهاد البدنى إلا ما قيل من أنه أنجى أحد الضالين من اللهب عند عمود الإحراق(٦٧) . ويطلق عليه بعض أتباعه تفاخراً به اسم — Persecutor Haere ticorum — وليس معنى هذا حتماً أنه مضطهد الضالين بل قد يكون معناه أنه مطاردهم فحسب . وجمع حوله طائفة من الوعاظ ، بلغ من تأثيرهم أن اعترف البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦) بأن « الإخوان الوعاظ » طائفة جديدة ، وصدق على دستورهم الذى وضعه لهم دمنيك ، واتخذ الرجل مركزه الرئيسى فى رومة ، وأخذ يجمع الأنصار ويعلمهم ، ويبث فيهم من روحه الحماسية التى كادت تبلغ حد التعصب ، ثم بعثهم يجوسون خلال أوربا حتى كيف Kiev من جهة الشرق ، والبلاد الأجنبية ، ليهدوا المسيحيين والكفار إلى دين المسيح . ولما عقد أول اجتماع للدمنيكيين فى بولونيا عام ١٢٢٠ ، أقنع دمنيك أتباعه بأن يوافقوا بإجماع الآراء على دستور الفقر المطلق . ومات فى هذه البلدة بعد عام من ذلك الاجتماع .

وانتشر الدمنيكيون ، كما انتشر الفرنسيسيون ، فى كل مكان فكانوا

إخوانا . متسولين . جوالين . ويصف ماثيوباريس فى عام ١٢٤٠ طائفتهم فى إنجلترا بقوله :

إنهم قوم شديدو الاقتصاد فى طعامهم ولباسهم ، لا يقتنون ذهباً ولا فضة ولا شيئاً ما لأنفسهم ، يطوفون بالمدن ، والبلدان ، والقرى ، يدعون إلى الإنجيل . . . ويعيشون جماعات من عشرة أو سبعة . . . لا يفكرون فى الغد ، ولا يحتفظون بشىء ما للصباح التالى . . . يعطون الفقراء من فورهم كل ما بقى لديهم من الطعام الذى يتصدق بها الناس عليهم . يسيرون حفاة ، ولا يحتفظون إلا بالإنجيل ، وينامون بثيابهم على الحصر ، ويتخذون الحجارة وسائد يضعونها تحت رؤسهم(٦٨) .

واضطلعوا فى أعمال محاكم التحقيق بدور نشيط لم يكن على الدوام مشوباً برقة القلب ، وعينهم البابوات فى مناصب رفيعة وأرسلوهم فى بعثات دبلوماسية خطيرة ، والتحقوا بالجامعات ، ونبغ منهم رجلان جباران فى الفلسفة المدرسية هما ألبرتس ماجنس وتومس أكويناس ، وكانوا هم الذين أنقذوا الكنيسة من أرسطو بأن بدلوه رجلا مسيحيا . ولقد أحدثوا هم والفرنسيسيون . وإخوان الكرمل وأوستن ثورة فى حياة الرهبنة ، وذلك باختلاطهم بعامة الشعب كل يوم فى أثناء الخدمات الدينية ، وسموا بالرهبنة فى القرن الثالث عشر فوهبوها من القوة والجلال ما لم تستمتع بمثله قبل.

وإن النظرة الشاملة إلى تاريخ الرهبنة لاتؤيد إسراف علماء الأخلاق فى مدحها ولاسخرية شانئيها . وفى وسعنا أن نذكر أمثلة جمة من سوء السيرة بين الرهبان وهذه الأمثلة إنما تلفت أنظارنا لأنها الشواذ وليست القاعدة ؛ وهل منا من بلغ من الطهر والصلاح درجة يحق له معها أن يتطلب من أية طائفة من الناس حياة نقية لا تشوبها أدنى شائبة ؟ ولقد نجا الرهبان الذين بقوا مخلصين لأيمانهم

— أى الذين عاشوا مغمورين فى فقرهم ، وعفتهم وتقواهم — نجا هؤلاء من الغيبة ، ومن التاريخ ؛ ذلك أن الفضيلة لا تنقل أخبارها ، وأن القراء والمؤرخين يملون تكرارها . فنحن نسمع عن « صروح شامخة » يملكها الرهبان الفرنسيسيون منذ عام ١٢٤٩ ، وفى عام ١٢٧١ أبلغ روچر بيكن — الذى طالما تفرق سامعوه من حوله لشدة مغالاته — أبلغ هذا الراهب البابا أن « الطوائف الحديثة قد سقطت سقوطاً مروعاً من علياء كرامتها الأولى »(٦٩) . ولكن هذه ليست هى الصـــورة التى يصورها لنا الأخ سلمبين Salimbene فى أخباره الصريحة الدقيقة (١٢٨٨ ؟) فها هو ذا راهب فرنسيسى ينتقل بنا إلى ما وراء السجف وإلى الحياة اليومية للطائفة التى ينتمى إليها . ولسنا ننكر أن فى حياة أفرادها هفوات متفرقة ، وأن فيها شيئاً من التنازع والتحاسد ؛ ولكن جوا من التواضع ، والبساطة ، والأخوة ، والسلام يغمر هذه الحياة الشاقة المكبوتة(٧٠) . وإذا ما دخلت بين الفينة والفينة امرأة فى هذه القصة ، فكل ما لها فيها من أثر أنها تضفى مسحة من الرشاقة والحنان على حياة العزلة والضيق التى يحياها أولئك الرهبان . وها هو ذا مثل من ثرثرة الأخ سلمبين الصريحة :

كان فى دير بولونيا شاب يسمى الأخ جيدو Guido اعتاد أن يغط فى نومه غطيطاً عاليا لا يستطيع معه إنسان أن يبقى معه فى نفس البيت . ولهذا أمر أن ينام فى سقيفة من الخشب والقش . ولكن هذا أيضاً لم يُنج منه الإخوان ، لأن هزيم هذا الرعد الملعون كان يتردد صداه فى جميع أنحاء الدير . ولهذا اجتمع القساوسة وذوو الرأى من الإخوان على بكرة أبيهم . . . وأصدروا قراراً رسميا أن يردوه إلى أمه التى خدعت الطائفة ، لأنها كانت تعرف هذا كله عن ولدها قبل أن تضمه إلينا . ولكنه مع ذلك لم يرسل إلى أمه ، وكان عدم إرساله بفعل الله . . . ذلك أن الأخ نقولاس قال فى نفسه : إن الغلام سيطرد لعيب طبيعى فيه ، دون

أن يرتكب هو نفسه ذنباً ، فكان يدعو الصبي فى كل يوم عند مطلع الفجر أن يأتى إليه ويخدمه فى ساعة القداس ، حتى إذا فرغ منه أمر الغلام أن يركع وراء المذبح يرجو أن ينال منه بعض البركة . وفى هذه الساعة يلمس الأخ نقولاس بيديه وجه الغلام وأنفه ، ويدعو الله أن يمن عليه بنعمة الصحة . وجملة القول أن الغلام شفى فجأة من مرضه شفاء تاما ، ولم يسبب للإخوان بعدئذ متاعب أخرى . وأصبح من هذه الساعة ينام نوماً هادئا سالما كما تنام الزغبة(*) :

(*) وتسمى أيضاً الفأرة النوامة وهى حيوان بين الفأر والسنجاب **dormouse**
(المترجم)

الفصل الخامس

الراهبـــات

كانت العادات المألوفة في المجتمعات المسيحية منذ أيام القديس بولس أن تهب بعض الأرامل وغيرهن من النساء الصالحات ، أو اللاتى يعشن وحدهن ، بعض أيامهن وثروتهن أو كل هذه الأيام والثروة إلى أعمال البر . ثم أخذت بعض النساء فى القرن الرابع ينافسن الرهبان ، فتركن شئون الدنيا وعشن عيشة دينية منفردات أو مجتمعات ، ونذرن أنفسهن للفقر ، والطهر ، والطاعة ؛ حتى إذا كان عام ٥٣٠ أنشأت اسكولاستيكا Scholastica توأمة القديس بندكت ديراً للنساء بالقرب من جبل كسينو Monte Cassino يسير على دستوره وتحت إشرافه . وأخذت أديرة النساء البندكتية من ذلك الحين تنتشر فى أنحاء أوربا ، حتى كان عدد الراهبات البندكيات يضارع عدد الرهبان البندكتيين . وافتتحت طائفة الرهبان السترسيين أول دير للنساء فى عام ١١٢٥ ، ثم افتتحت أشهر أديرتها كلها وهو دير پورت رويال Port Royal فى عام ١٢٠٤ ، ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان فى أوربا ٧٠٠ دير سسترسى للنساء(٧٢) . وكانت معظم الراهبات اللاتى دخلن أديرة هذه الطوائف القديمة من الطبقات العليا(٧٣) ، وكثيراً ما كانت الأديرة ملاجئ للنســاء اللاتى تضيق بهن بيوت أهلهن أو اللاتى لم يكن يوائمن أذواق هؤلاء الأهلين . ومن أجل هذا اضطر الإمبراطور مجوريان Majorian أن يحرم على الآباء التخلص من بناتهـم الزائدات عن حاجتهم بإرغامهن على دخول الأديرة(٧٤) . وكان دخول أديرة النساء البندكتية يتطلب عادة بائنة ، وإن كانت الكنيسة قد حرمت جميع الهبات إلا الاختيارية منها(٧٥) . ولهذا

كان فى وسع رئيسة الدير أن تكون ، كما كانت الرئيسة الوارد ذكرها فى أشعار تشوسر Chaucer ، امرأة من أسرة عريقة ، ذات تبعات كثيرة ، تدير أملاكاً واسعة هى مصدر إيراد ديرها ؛ وكانت الراهبة فى تلك الأيام تسمى « السيدة » لا « الأخت » ؛

وأحدث القديس فرانسس انقلاباً كبيراً فى نظم أديرة النساء كما أحدث انقلاباً فى نظم أديرة الرجال ؛ ولما أن أقبلت عليه القديسة كلارا Clara فى عام ١٢١٢ وأبدت إليه رغبتها فى أن تنشئ للنساء طائفة من الراهبات كالتى أنشاها هو للرجال ، تغاضى عن النظم الكنسية ، وتلقى منها إيمانها ، وإن لم يكن وقتئذ أكثر من شماس ، وضمها إلى طائفة الرهبان الفرنسيسين وأذن لها أن تنشئ طائفة الكلاريات الفقيرات The Poor Clares ، وأيد إنوسنت الثالث ، بما اعتاده من قدرة على خرق حرفية القوانين فى سبيل روحها ، هذا الإذن (١٢١٦) . وجمعت القديسة كلارا حولها بعض النساء الصالحات اللاتى عشن معها عيشة فقيرة مشتركة ، يغزلن وينسجن ، ويعنين بالمرضى ، ويوزعن الصدقات . ونسجت حولها القصص الخرافية التى لا تكاد تقل فى تمجيدها عما نسج حول فرانسس نفسه ، منها ، على حد قولهم ، أن أحد البابوات :

جاء إلى ديرها ليستمع إلى حديثها عن الأمور القدسية والسماوية ... وأمرت القديسة كلارا بأن تمد المائدة ، ووُضعت عليها أرغفة الخبز لكى يباركها الأب المقدس ... وركعت القديسة كلارا فى خشوع عظيم ، وسألته أن يتفضل فيبارك الخبز ... فأجابها الأب المقدس بقوله : « أيتها الأخت يا كلير Clare ، يا أعظم النساء وفاء وإخلاصا ، إنى أحب أن تباركى أنت هذا الخبز ، وأن ترسمى فوقه علامة الصليب المقدس ، صليب المسيح ، الذى وهبت نفسك كاملة إليه » . فأجابته القديسة كلارا بقولها : « مغفرة أيها الأب المقدس ؛ لو أننى ، وأنا المرأة الفقيرة الحقيرة ، بلغت بى الجرأة أن أنطق بهذه البركة فى حضرة خليفة المسيح لحق على

أشد اللوم » . ورد عليها البابا قائلا : « ولكيلا يعزى هذا العمل إلى غطرستك وجرأتك بل يعزى إلى فضيلة الطاعة منك ، فإنى آمرك ، بحق ما يجب عليك من الطاعة المقدسة ، أن تباركى ... أنت باسم الله هذا الخبز » . فلم تجد القديسة كلارا وقتئذ مناصاً من أن تبارك الخبز فى خشوع بعلامة الصليب الأقدس عملا بواجب الطاعة المفروضة عليها . ومن أعجب الأشياء أن علامة الصليب ظهرت على جميع تلك الأرغفة مرسومة أجمل رسم . فلما رأى الأب المقدس هذه المعجزة ، طعم من الخبز وغادر المكان وهو يحمد الله ويودع بركته مع القديسة كلارا(٧٦) .

وماتت كلارا فى عام ١٢٥٣ ، وما لبثت أن ضمت إلى القديسين والقديسات . ونظم الرهبان الفرنسيسيون فى عدة أماكن مختلفة مثل هذه الطوائف الكلارسية ، أو طوائف كلارا الفقيرة . وكذلك أنشأت طوائف الرهبان المتسولين — الدمنيكية ، والأوغسطينية ، والكرملية — طائفة ثانية من الراهبات ؛ ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان عدد الراهبات فى أوربا لايقل عن عدد الرهبان . ونزعت أديرة الراهبات فى ألمانيا نزعة صوفية شديدة ، وفى فرنسا وإنجلترا كثيراً ما كانت ملاجئ لنساء الأسر الشريفة اللاتى « هُدين » لترك شئون الدنيا ، أو اللاتى أصابهن الهجر ، أو الخيبة ، أو الثكل . ويكشف دستور الناسكات Ancren R wle ما كان يطلب إلى الراهبات الإنجليزيات أن يتصفن به فى القرن الثالث عشر . ولربما كان الأسقف بور Poore هو الذى وضع هذا الدستور لدير نسائى فى ترانت Tarrant من أعمال دورستشير Dorsetshire . ويخيم على هذا الدستور جوّ قاتم من الحديث الطويل عن الخطيئة والنار ، وبعض الذم التجديفى لجسم المرأة(٧٧) . ولكن نغمة من الإخلاص الجميل تخفف من وقع هذا القتام ، وهو من أقدم نماذج النثر الإنجليزية وأنبلها(٧٨) .

وبعد ، فإن من السهل على الإنسان أن يجمع من عشرة قرون أمثلة رائعة

من الفساد الخلقي المألوف . فقد دخلت بعض الراهبات الأديرة على الرغم منهن[٧٩] ووجدن متاعب فى حياة التقى والصلاح ، ولقد رأى ثيودور رئيس أساقفة كنتربرى وإجبرت أسقف يورك من الواجب عليهما أن يحرما على رؤساء الأديرة ، والقساوسة ، والأساقفة غواية الراهبات[٨٠] . وكتب إيڤو Ivo أسقف تشارتر (١٠٣٥ — ١١١٥) يقول إن بعض راهبات دير القديسة فارا Fara يحترفن الدعارة ، ويرسم أبلار (١٠٧٩ — ١١٤٢) صورة شبيهة بهذه الصورة لبعض لأديرة الفرنسية القائمة فى أيامه ؛ ووصف إنوسنت الثالث دير أجاثا Agatha بأنه ماخور انتشرت عدوى فساد الحياة فيه وسوء سمعته فى جميع أنحاء الإقليم المجاور له[٨١] . ويرسم ريجو Rigaud أسقف رون (١٢٤٩) صورة طيبة بوجه عام للطوائف الدينية المنتشرة فى أسقفيته ، ولكنه يتحدث عن دير من أديرة النساء فيه ثلاث وثلاثون راهبة وثلاث أخوات من غير الراهبات وجدت منهن ثمان يحترفن الفسق أو يشتبه فى أنهن يحترفنه ، «ولا تكاد رئيسة الدير تبتعد عن الخمر ليلة واحدة »[٨٢] . وحاول بنيفاس الثامن (١٣٠٠) أن يرقى بقواعد الآداب التقليدية فى الأديرة فأمر بالتشديد فى عزلة الراهبات عن العالم ، ولكن أمره هذا لم يكن فى الإمكان تنفيذه[٨٣] ، ولما جاء الأسقف ليودع هذا القرار فى أحد أديرة النساء فى أسقفية لنكلن Lincoln قذفت الراهبات به رأسه ، وأقسمن أنهن لن يطعنه قط[٨٤] ، وأكبر الظن أن هذه العزلة لم تكن مما نص عليه فى قسمهن ، ولم يكن لرئيسة الدير الواردة فى أقاصيص تشوسر عمل تقوم به لأن الكنيسة حرمت على الراهبات أن يخرجن حتى للحج[٨٥] .

ولو أن التاريخ كان يعنى بذكر أمثلة الطاعة للقواعد المألوفة عنايته بذكر الأمثلة التى تخرق فيها هذه القواعد ؛ لاستطعنا فى أغلب الظن أن نذكر فى مقابل كل زلة آثمة ألف مثل من الإخلاص والأمانة . ولقد كانت دساتير الأديرة فى كثير من الحالات قاسية قسوة تخرجها عن طاقة البشر ، وكانت خليفة

بالخروج عليها . من ذلك أنه كان يتطلب إلى الراهبات الكرثوزيات ، والسسترسيات أن يلتزمن الصمت فلا يتكلمن إلا إذا لم يكن من الكلام بد — وذلك قيد شديد على الجنس اللطيف . وكانت الراهبات فى العادة يقمن بجميع ما يحتجنه من أعمال التنظيف ، والطبخ ، والغسل ، والخياطة ؛ ويصنعن الملابس للرهبان ، والفقراء ، والأغطية القيلية للمذبح ، وأثواب القسس ؛ وكن ينسجن السجف ، والأقمشة التى تزين بها الجدران . وينقشن عليها بأصابعهن الرقيقة ، ونفوسهن الصابرة ، نصف تاريخ العالم . وكن ينسخن المخطوطات ويزينها بالرسوم والحروف الكبيرة الجميلة ويقبلن الأطفال للإقامة فى الدير ، ويعلمنهم الأدب ، وقانون الصحة ، والفنون المنزلية ، وكانت كثيرات منهن يعملن ممرضات فى المستشفيات ، وكن يقمن فى منتصف الليل ليصلين ، ثم يقمن مرة أخرى قبل الفجر ، ويتلون الصلوات الأخرى فى ساعاتها المحددة . وكانت أيام كثيرة أيام صوم . لا يذقن فيها الطعام حتى تحين وجبة المساء .

وإنا لنأمل أن تكون هذه القواعد الشديدة قد خرقت أحياناً . ونحن إذا ما ارجعنا بعقولنا إلى القرون التسعة عشر التى عاشتها المسيحية ، وإلى من فيها من الأبطال ، والملوك ، والقديسين . صعب علينا أن نحصى كثيرين من الرجال الذين اقتربوا من الكمال المسيحى كما اقتربت منه الراهبات ؛ وما أكثر الأجيال التى سعدت بفضل حياتهن التى تفيض بالخشوع الهادئ والعمل فى ابتهاج لخدمة بنى الإنسان . ولو أن آثام التاريخ جميعها وزنت أمام فضائل أولئك النساء لرجحتها هذه الفضائل ولكفرت عن كل ما اقترفه الجنس البشرى من ذنوب .

الفصل السادس

المتصـــوفة

واستطاعت كثيرات من أولئك النساء أن تكنّ قديسات لأنهن أحسسن بالألوهية أقرب إليهن من أيديهن وأرجلهن . وقد تأثرت أخيلة الناس فى العصور الوسطى بكل ما كان للألفاظ ، والصور ، والتماثيل ، والحفلات ، من قوة ، بل تأثرت فوق هذا بلون الضوء ومقداره تأثراً جعل الرؤى غير الحسية تتوارد سراعاً على هذه الأخيلة ، فكانت النفوس المؤمنة تحس بأنها تخترق حدود الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة . وكان العقل البشرى نفسه بكل ما له من سلطان غامض خفى يبدو كأنه شيء خارق للطبيعة ، وللأشياء الأرضية ، وقريب بلا ريب من العقل الكلى الذى يسير مادة العالم ويكمن فيها – أو أنه صورة من هذا العقل الكلى غير واضحة المعالم . وعلى هذا فإن فى مقدور ذروة العقل أن تمس أسفل عرش الله . وكان الصوفى الخاشع المتذلل الطموح يتحرق أملا فى أن تسمو روحه غير المثقلة بالذنوب ، والتى علت بالصلوات ، بفضل الله ونعمته إلى الرؤى الطوباوية والصحبة الإلهية ، ولم يكن من المستطاع بلوغ هذه الرؤى عن طريق الحس ، أو العقل ، أو العلم ، أو الفلسفة المقيدة بالزمان ، وبالكثرة ، وبالأرض ، ولا تستطيع أن تصل إلى لب الكون وقوته ، ووحدته . وكانت المشكلة التى يواجهها الصوفى هى أن يطهر النفس التى هى عضو داخلى للإدراك الروحى ، وأن يوسع أفقها وحبها حتى تشمل أقصى ما يمكن أن تشمله ، فإذا تم لها ذلك رأت بقوة البصر الواضحة المجردة من الجسم معالم الكونية ، والخلد ، والألوهية ؛ ثم عادت ، وكأنها عادت من نفى طويل المدى ، إلى الوحدة مع الله الذى افترقت منه حين ولدت عقاباً لها . ألم يعد المسيحُ ذوى القلوب الطاهرة أن يروا الله ؟

ولهذا ظهر الصوفيون فى كل عصر ، وفى كل دين ، وفى كل أرض ، وامتلأت بهم المسيحية اليونانية رغم ما خلفه اليونان من تراث عقلى ؛ وكان القديس أوغسطين ينبوع التصوف الذى نهل منه الغرب ، وكانت اعترافاته بمثابة عودة الروح من الكائنات المخلوقة إلى الله . وقلما استطاع إنسان أن يطول تحدثه إلى الذات العلية كما طال تحدث أوغسطين إليها . وقد ناصر القديس أنسلم السياسى والقديس برنار المنظم ، ذلك الاتصال الصوفى ليقاوما به النزعة العقلية التى كان يقول بها روسلن Roscelin وأبلار . ولما أخرج وليم الشمبووى Wiliam of Champeaux من باريس بقوة منطق أبلار أنشأ فى إحدى ضواحيها (١١٠٨) دير القديس ڤكتور St. Victor الأوغسطينى ليكون مدرسة للاهوت ؛ وتجاهل خليفتاه هيو Hugh ورتشرد Richard خطر الفلسفة الناشئة الداهم ، فلم يقيما قواعد الدين على الحجة والبرهان ، بل أقاماها على الإحساس الصوفى بالحضرة الإلهية . فقد كان هيو (المتوفى عام ١١٤١) يرى فى كل صورة من صور الخلق رمزاً قدسياً ، وكان رتشرد (المتوفى عام ١١٧٣) يرفض المنطق والعلم ، ويؤثر « القلب » على « الرأس » على طريقة پسكال ، ويصف بمنطق العالِم القدير السمو الصوفى للروح إلى مقام الذات العلية .

وأحالت عواطف إيطاليا القوية هذه النزعة الصوفية ثورة متأججة . وحدث أن تاقت نفس يواقيم الفلورائى Joachim of Flora — أو چيوڤنى دى يواقيمى دى فيورى Giovanni dei Joacchimi di Fiori — أحد نبلاء كلابريا Calabria إلى رؤية فلسطين ، وتأثر بما شاهده فى طريقه من بؤس الناس ، فصرف حاشيته ، وواصل سيره كما يسير الحاج الذليل . وتقول إحدى القصص إنه قضى فى سنة من السنين الصوم الكبير كله على جبل طابور ، وأن هالة عظيمة تبدت له فى يوم عيد القيامة ، وملأته نوراً إلهيا فهم به لساعته كل ما جاء فى الكتاب المقدس ، وكل ما فى المستقبل والماضى . فلما عاد إلى كلابريا أصبح راهبا وقسا سسترسيا ،

وتاقت نفسه إلى الزهد والتقشف ، وآوى إلى صومعة . والتف حوله عدد من الأتباع والمريدين ، وألف منهم طائفة جديدة من رهبان فلورا . وصدق سلستين الثالث Calestine III على ما وضعه لهم من دستور للفقر والصلاة . وبعث إلى إنوسنت فى عام ١٢٠٠ بطائفة من مؤلفاته قال إنه كتبها بوحى من الله ، ولكنه رغم هذا يضعها بين يدى البابا ليبحثها ويبدى رأيه فيها . ثم مات بعد سنتين من ذلك الوقت .

وكان أساس كتابته هو النظرية الأوغسطينية — التى كانت تلقى قبولا عظيما لدى جميع المتمسكين بالدين القويم — القائلة بأن هناك توافقا رمزيا بين الحوادث الوارة فى العهد القديم وفى تاريخ العالم المسيحى من مولد المسيح إلى قيام مملكة السماء على الأرض . وقسم يواقيم تاريخ البشر ثلاث مراحل : كانت أولاها تحت حكم الله الأب وانتهت بمولد المسيح ، والثانية يحكمها الابن وتستمر وفقاً للحساب السرى ١٢٦٠ سنة ، والثالثة تحت حكم الروح القدس ، ويسبقها عهد من الاضطراب ، والحرب ، والفقر ، وفساد الكنيسة ، ويؤذن بحلولها قيام طائفة جديدة من الرهبان تطهر الكنيسة وتحقق طوبى عالمية من السلام والعدالة والسعادة(٨٦) .

وصدق آلاف من المسيحيين ، ومنهم رجال ذوو مناصب عالية فى الكنيسة . ما قاله يواقيم عن الوحى الذى أوحى إليه ، وأخذوا يتطلعون والأمل يعمر قلوبهم إلى الميلاد الثانى فى عام ١٢٦٠ . وبعثت تعاليم يواقيم الشجاعة فى قلوب الفرنسيسيين الروحيين الذين كانوا يوقنون بأنهم هم الطائفة الجديدة ، ولما أن أعلنت الكنيسة أنهم خارجون على القانون واصلوا دعوتهم بما أذاعوه من الكتابات التى تحمل اسمه . وظهرت فى عام ١٢٥٤ مجموعة من أهم مؤلفات يواقيم بعنوان الإنجيل الخالد وعليه تعليق يقول : إن بابا من البابوات ملوثا ببيع المناصب الكهنوتية سيكون

خاتم العهد الثانى ، وإن الحاجة إلى العشاء الربانى وإلى القساوسة تنتهى فى العهد الثالث حين يسود الحب العالمى . وحرمت الكنيسة قراءة هذا الكتاب ، وحكم على راهب فرنسيس يدعى جراردو دا بورجا Ghérards da Borga ظُن أنه هو مؤلفه بالسجن مدى الحياة ؛ ولكن الكتاب ظل يُتداول سرا ، وكان له أثر بالغ فى التفكير الصوفى وفى تفكير الطوائف الضالة فى إيطاليا وفرنسا من أيام فرانسس إلى أيام دانتى — الذى جعل ليواقيم مكاناً فى الجنة .

وتأججت حول بروصة فى عام ١٢٥٩ سورة جنونية من الندم والتوبة من الذنوب واكتسحت شمالى إيطاليا ؛ ولعل الباعث عليها كان هو التحمس الشديد فى ترقب حلول مملكة السماء . وأخذ آلاف من القادمين من مختلف الطبقات والأعمار يسيرون فى مواكب غير منتظمة وليس عليهم من الثياب إلا ما يستر حقويهم ، يبكون ويرجون الله الرحمة ، ويضربون أنفسهم بسياط من الجلد . وانضم إلى هذه المواكب اللصوص والمرابون وردوا ما كسبوا من المال الحرام ، متأثرين بعدوى الندم ، فكانوا يركعون أمام أقارب ضحاياهم ويطلبون إليهم أن يقتلوهم ؛ وأطلق سراح المسجونين ، وطلب إلى المنفيين أن يعودوا إلى أوطانهم ، وزالت العداوات بين الناس وصفت القلوب . وسرت هذه الحركة من ألمانيا إلى بوهيميا ، وخيل إلى الناس وقتا ما أن إيمانا جديداً صوفياً سيغمر أوربا بأجمعها متجاهلا الكنيسة . ولكن فطرة الإنسان ما لبثت أن استعادت قوتها ، فتأججت نار العداوة بين الناس مرة أخرى ، وخبت نار تلك السورة الجنونية ، سورة الجلد بالسياط ، واختفت فى الأعماق النفسية التى خرجت منها(٨٧) .

وفى فلاندرز سارت حركة التصوف سيراً هادئاً متصلا . ذلك أن قسا من ليبيج يدعى لامبير له بيج Lambert le Beuge (أى المتهته) أنشأ على ضفاف نهر الموز Meuse فى عام ١١٨٤ بيتاً للنساء اللاتى يردن أن يعشن معاً فى

جماعات صغيرة نصف شيوعية ، دون أن يقسمن أيمان الرهبنة ، ويَعُلْن أنفسهن بنسج الصوف وعمل المخرمات . وأنشئت للرجال طائفة أخرى من بيوت الفقر مماثلة لهذا البيت ، وأطلق الرجال على أنفسهم اسم (البيجارد Beghard) أى الرجال المتهين وعلى النساء اسم البجوين (أى المتهات) . وكانت هذه الجماعات تندد بالكنيسة ، كما يندد بها الولدنيون ، لاقتنائها الأملاك ، وسلكوا هم أنفسهم سبيل الفقر الاختيارى . وظهرت فى أجز برج عام ١٢٦٢ شيعة أخرى هى شيعية إخوان الروح الحر وثبتت أصولها فى المدن القائمة على ضفاف نهر الرين . وكانت كلتا الحركتين تدعى أنها تتلقى الوحى الصوفى الذى يعفيها من سيطرة الكهنوت ، بل يعفيها فوق ذلك من سيطرة الدولة والقانون الأخلاقى(٨٨) . وتضافرت الدولة والكنيسة على قمع الحركتين ، فاندفعتا إلى الهمل فى الخفاء ، وكانتا تظهران للعمل جهرة عدة مرار بأسماء جديدة ، وكانتا من أسباب نشأة شيعة المنكرين للتعميد وغيرها من الشيع المتطرفة التى ظهرت فى أيام الإصلاح الدينى وممن بعثوا روح الحماسة فى هذه الشيع .

وصارت ألمانيا أرض التصوف المحبوبة فى بلاد الغرب ، ففيها عاشت هلدجارد البنجنية Hildegarde of Bingen (١٠٩٩ — ١١٧٩) « سيبيلة الرين » the Sibyle of the Rhine كل حياتها البالغة اثنين وثمانين عاما ، عدا عامين اثنين ، راهبة بندكتية ، واختتمتها رئيسة دير للنساء على روبرتسبرج Rupertsburg . وكانت مزيجا غير مألوف من حسن الإدارة والرؤى الخيالية ، تقية ومتطرفة ، شاعرة وعالمة ، طبيبة وقديسة ، وكانت تراسل البابوات والملوك ، وتكتب إليهم دائما بنغمة صاحبة السلطان الملهم ، فى لغة لاتينية رصينة قوية قوة لغة الرجال . وقد نشرت عدة كتب فى الرؤى الدينية (Scivias) ادعت فيها معاونة الذات العلية ، وكان رجال الدين يغضبون حين يستمعون إليها لأن حديثها الملهم كان نقداً لاذعا لثراء الكنيسة وفسادها . قالت هلدجارد بعبارات تفيض بالآمال الخالدة .

إن للعدالة الإلهية ساعتها المحدودة ... وإن أحكام الله لتوشك أن تنفذ ؛ وستنهار الإمبراطورية والبابوية معاً بعد أن تترديا فى هوة الإلحاد . . . ولكن أمة جديدة ستقوم على أنقاضهما . . وستضم الوثنيين ، واليهود ، وعبّاد الدنيا ، والكفرة جميعاً ، وسيسود العالَمَ ربيعُ الدهر والسلام بعد مولده الجديد ، ويعود الملائكة وهم واثقون إلى السكنى بين الآدميين(٨٩) .

وبعد مائة عام من ذلك الوقت أثارت إليصابات الثورنجيائية (١٢٠٧ — ١٢٣١) بلاد المجر بحياتها القصيرة التى قضتها زاهدة متبتلة . وإليصابات هذه ابنة الملك اندرو Andrew وقد تزوجت وهى فى الثالثة عشرة من عمرها بأمير ألمانى . وكانت أمًّا فى الرابعة عشرة ، وأرملة فى سن العشرين . ونهب أخو زوجها مالها وطردها فى فقر مدقع ؛ فلجأت إلى حياة الورع والتجوال ، ووهبت حياتها للفقراء ، وكانت تؤوى النساء المصابات بالجذام ، وتغســـل جروحهن . وكانت هى الأخرى تتراءى لها رؤى سماوية ، ولكنها لم تكن تذيعها ، ولم تدع لنفسها أية قوى خارقة ولما التقت بكنراد الماربرجى Conrad of Marburge عضو محاكم التحقيق الشرس افتتنت افتتاناً وبيلا بقســـوته فى إخلاصه للدين ، فأضحت جاريته المطيعة ، يضربها إذا حادت قيد شعرة عما يعتقد أنه هو الصلاح والتقى ، فكانت تخضع له خضوع الأذلاء ، وتفرض على نفسها ضروباً شديدة من التقشف عجلت منيتها ولما تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها(٩٠) . وبلغ من اشتهارها بالتقوى أن من كان يسير فى جنازتها من أتباعها المخلصين الذين كادت تذهب النشوة بعقولهم قصوا شعر رأسها ، وقطعوا أذنيها ، وحلمتى ثدييها ليتخذوها مخلفات مقدسة(٩١) . ودخلت إليصابات أخرى الدير النسائى البندكتى فى شنو Schonau القريبة من بنجن وهى فى الثانية عشر من عمرها (١١٤١) ،

وعاشت فيه حتى توفيت فى عام ١١٦٣ . وكان ضعفها الجسمى ، وإسرافها فى زهدها يسببان لها نوبات من الإغماء ، تتلقى فيها إلهاماً من مختلف الأولياء المتوفين ، كلهم تقوياً من المعادين للكنيسة . ومما قاله لها ملكها الحارس « إن كرامة الله قد ذبلت ، وإن رئيس الكنيسة لمريض ، وإن أعضاءها لأموات ... أى ملوك الأرض ! إن ظلمكم الصارخ قد ارتفع دويه حتى وصل إلىّ أنا نفسى »(٩٢) .

وعلت موجة التصوف فى أواخر ذلك العهد فى ألمانيا ، وكان من متصوفتها مستر إكهارت Meister Eckhart الذى وُلد حوالى عام ١٢٦٠ ، والذى نضجت آراؤه الصوفية فى ١٣٢٦ ، والذى حوكم و توفى فى عام ١٣٢٧ . وواصل تلميذاه سوسو Suso وتولر Tauler دعوته إلى وحـــدة الوجود الصوفية ، وكانت هذه التقاليد ، تقاليد التقوى غير الكنسية ، أحد الينابيع التى فاضت منها حركة الإصلاح الدينى .

وكانت الكنيسة فى العادة تحمل هؤلاء المتصوفين وتقبلهم فى كنفها . نعم إنها لم تكن تسمح بأن يخرج أحد خروجاً خطيراً عن قواعدها الرسمية ، أو تجيز الفردية الفوضوية التى تدعو إليها بعض الشيع الدينية ، ولكنها كانت ترضى عن قول الصوفية إنهم يتصلون اتصالا مباشراً بالله عز وجل ، وتستمع فى غير غضب إلى تنديد الأولياء بأخطائها الآدمية . وكان كثيرون من رجال الدين ، ومنهم ذوو المناصب العالية فى الكنيسة ، يعطفون على ناقديهم ، ويعترفون بما فى الكنيسة من عيوب ، ويتمنون أن لو استطاعوا هم أيضاً أن يتخلوا عن الأدوات والأعمال التى يضطلعون بها فى الشئون السياسية الدنيوية وما فيها من أدران تلوثهم ، ويستمتعوا بما فى الأديرة من طمأنينة وسلام ، يطعمون من تقوى

الشعب ، ويحميهم سلطان الكنيسة . ولعل هؤلاء الصابرين من رجال الكنيسة هم الذين ثبّتوا قواعد الدين المسيحي بين زعازع الإلهام الجنوني التي كانت تهدد العقول في العصور الوسطى بأشد الأخطار من حين إلى حين . وكلما أمعنا في دراسة أقوال متصوفة القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، لاح لنا أن الاستمساك بأصول الدين القويم كثيراً ما كان هو الواقي من انتشار الخرافات المعدية ، وأن الكنيسة من إحدى النواحي عقيدة — كما كانت الدولة قوة — أخرجت من الفوضى نظاماً ليحافظ على سلامة عقول الناس .

الفصل السابع

البابا المنكود

لما ارتقى جريجورى الثانى عرش البابوية فى عام ١٢٧١ كانت الكنيسة مرة أخرى فى عنفوان قوتها . ولم يكن جريجورى بابا فحسب ، بل كان إلى هذا مسيحياً متمسكا بآداب المسيحية : كان رجل سلام ومحبة ، ينشد العدالة لا النصر . وكان يأمل أن يسترد فلسطين بجهد واحد جامع ، فأقنع البندقية ، وجنوى ، وبولونيا بأن تضع حدا للحروب القائمة بينها ، وعمل على إن يختار رودلف هپسبرج Rudolf of Hapsburg إمبراطوراً ، ولكنه خفف بلطفه ورقته غضب المهزومين من المطالبين بالعرش ؛ ووفق بين طائفتى الجلف Guelf والجبلين Ghibelline فى فلورنس وسينا المنقسمتين على نفسهما ، وقال لمؤيديه من الجلف « إن أعداءكم جبلينيون ولكنهم مع ذلك رجال ، ومواطنون ، ومسيحيون »(٩٣) . ودعا أحبار الكنيسة الى مجلس يعقد فى ليون (١٢٧٤) ؛ وجاءه فى عام ١٥٧٠ زعماء الكنيسة وأرسلت كل دولة عظمى ممثلا لها ، وبعث إمبراطور الروم برؤساء الكنيسة اليونانية ليؤكد من جديد خضوعها إلى الكرسى البابوى فى رومة وأنشد رجال الدين اللاتين واليونان معاً نشيد الفرح والغبطة . ودُعى الأساقفة أن يتقدموا بما فى الكنيسة من عيوب تحتاج إلى الإصلاح ، فلبوا الدعوة فى صراحة منقطعة النظير(٩٤) ، وسنت القوانين التى أريد بها تخفيف حدة هذه الشرور . واتحدت أوربا كلها اتحاداً رائعاً لتقوم بمجهود موحد ضد المسلمين . ولكن جريجورى مات وهو عائد إلى رومة (١٢٧٦) وشغلت السياسة الإيطالية خلفاءه فلم يستطيعوا تنفيذ ما وضعه من خطط .

ومع هذا فإنه لما اختير بنيفاس الثامن بابا فى عام ١٢٩٤ كانت البابوية

لا تزال أقوى الحكومات الأوربية ، وأحسنها تنظيما ، وخيرها إدارة ، وأنماها موارد . وكان من سوء حظ الكنيسة ، فى هذا الوقت العصيب الذى أوشك أن يختتم به قرن من القوة والتقدم ، أن جلس على أقوى العروش فى العالم المسيحى رجل كان له من فساد الخلق ، والغطرسة الشخصية ، والحرص على السلطان حرصا خاليا من الكياسة ، بقدر ما كان له من حب الكنيسة ، وإخلاص فى المقصد . ولم يكن هذا الرجل خلوا من الفضائل الفاتنة : فقد كان محبا للعلوم ، يضارع إنوسنت الثالث فى تجاربه القانونية ، وثقافته الواسعة ، أنشأ جامعة رومة ، وأعاد مكتبة الفاتيكان ووسع نطاقها ، وعين چيتو Giorro وأرنلفو دى كمبيو Arnolfo di Cambio فى مناصب عالية ، وساعد بما له على إنشاء واجهة كنيسة أرفيتو Orviero الرائعة المدهشة .

وكان قد مهد السبيل لتسنمه عرش البابوية بأن أقنع سلستين الخامس Celesrine V الورع العاجز أن ينزل عن العرش بعد أن جلس عليه خمسة أشهر — وكان هذا عملا لم يسبق له مثيل من قبل . وأحاط بنيفاس من بادئ الأمر بالبغض منذ البداية . وأراد أن يحبط كل ما عساه أن يدبر من خطط لإعادة سلستين ، فأمر بأن يحجز هذا الشيخ البالغ من السن ثمانين عاماً فى رومة ، ولما فر سلستين ، قبض عليه ، ثم فر مرة ثانية ، وقضى عدة أسابيع يجول فى أنحاء أپوليا ، حتى وصل إلى البحر الأدرياوى ، وحاول أن يعبره إلى دمياط ، ولكن القارب الذى كان يركبه تحطم به ، وقذفه البحر إلى إيطاليا وجىء به أمام بنيفاس ، وحكم عليه البابا بالسجن فى حجرة ضيقة فى فرنتينو Ferintino ، ومات بها بعد عشرة شهور من بداية سجنه (١٢٩٦)(٩٥) .

وكان مما زاد طبع البابا الجديد حدة أن أصيب بسلسلة متتابعة الحلقات من الهزائم الدبلوماسية والانتصارات الكثيرة الأكلاف . فقد حاول أن يثنى فردريك صاحب أرغونة عن قبول عرش صقلية ، ولما أصر فردريك على قبوله

حرمه بنيفاس ، وأصدر قرار التحريم على الجزيرة (١٢٩٦) . ولم يبال الملك ولا الشعب بهذا العقاب[٩٦] ، واضطر بنيفاس فى آخر الأمر أن يعترف بفردريك . وأعد العدة لحرب صليبية بأن أمر البندقية وجنوى بعقد هدنة ، ولكنهما رفضتا توسطه فى الصلح وواصلتا الحرب ثلاث سنين أخرى ، ولما عجز عن أن يقيم فى فلورنس نظاماً يوافق مصالحه أصدر قراراً بحرمان المدينة ، ودعا شارل صاحب ڤالوا أن يدخل إيطاليا ويهدئها (١٣٠٠) . ولم يفلح شارل إلا فى كسب حقد الفلورنسيين عليه وعلى البابا . وأراد بنيفاس أن يبسط راية السلم فى ولاياته البابوية فحاول أن يفض النزاع القائم بين أعضاء أسرة كولنا Colonna القوية ؛ ولكن بيترو Pietro وجاكوپو Jacopo ، وكلاهما كردينال ، رفضا عروضه ففصلهما ، وحرمهما من الدين (١٢٩٧) ، فما كان من الكردينالين المتمردين إلا أن علقا على أبواب الكنائس الرومانية ، ووضعا على مذبح القديس بطرس ، منشوراً يطلبان فيه إلى البابا أن يدعو مجلساً كنسياً عاماً . وكرر بنيفاس قرار الحرمان ، وضم فيه إليهما خمسة آخرين من الخارجين عليه ، وأمر بمصادرة أملاكهما ، وغزا أملاك أسرة كولنا بالجيوش البابوية ، واستولى على حصونها ، ودك أبنية پلستينا Palestina ، وأمر بنثر الملح فوق خرباتها . واستسلم العصاة ، وعفا عنهم ، ثم ثاروا مرة أخرى وهزمتهم جيوش البابا للمرة الثانية ، وفروا من الولايات البابوية ، وأخذوا يدبرون خطط الانتقام .

وبينما كان بنيفاس يلاقى هذه المحن فى إيطاليا إذ واجهته على حين غفلة أزمة شديدة فى فرنسا . فقد اعتزم فليب الرابع أن يوحد مملكته ، فاستولى على ولاية غسقونية الإنجليزية ؛ وأعلن إدورد الأول عليه الحرب (١٢٩٤) ؛ وأراد كلا الملكين أن يجمع المال الذى يستعين به على قتال عدوه ، فقررا أن يفرضا الضرائب على أملاك الكنيسة ورجالها . وكان البابوات قد أذنوا بفرض هذه الضرائب للاستعانة بها فى الحروب الصليبية ، ولكنهم لم يأذنوا بها قط لإنفاقها

فى حرب زمنية خالصة . كذلك كان رجال الدين الفرنسيون قد اعترفوا بأن من واجبهم أن يشتركوا بالمال فى الدفاع عن الدوله التى تحمى أملاكهم ، ولكنهم كانوا يخشون أنه إذا أطلق حق الدولة فى فرض الضرائب من كل قيد ، أصبح ذلك قوة فى يدها تستخدمه للهدم . وكان فليب قد أضعف من قبل مكانة رجال الدين فى فرنسا . فقد أخرجهم من المحاكم الإقطاعية والملكية ، ومن مناصبهم القديمة فى الإدارة الحكومية وفى مجلس الملك . وأزعج هذا الاتجاه الرهبان السسترسيين فمنعوا عن فليب خمس إيرادهم الذى طلبه ليستعين به فى حرب إنجلترا ، وبعث رئيسُ الجماعة يستنجد بالبابا . وكان لابد لبنيفاس أن يسير بحذر لأن فرنسا كانت من زمن بعيد أقوى عماد للبابوية فى كفاحها مع ألمانيا والإمبراطورية ، ولكنه أحس بأن الأساس الاقتصادى لسلطان الكنيسة وحريتها لن يلبث أن ينهار إذا ما انتزع منها إيرادها بفرض ضرائب من قبل الدولة على أملاك الكنيسة دون موافقة البابا . ولهذا أصدر فى شهر فبراير من عام ١٢٩٦ مرسوماً بابويا يعد من أشهر ما أصدره البابوات من مراسيم فى التاريخ الكنسى كله ، وسمى هذا المرسوم بالكلمتين الأولين منه Clericis laicos ، وكانت جملته الأولى اعترافاً غير حكيم ، وكانت نغمته تذكر قارئه بصواعق جريجورى السابع :

يقول الأقدمون إن العلمانيين شديدو العداء لرجال الدين ؛ وتجاربنا لاتترك مجالا للشك فى صدق هذا القول فى الوقت الحاضر . . . وإنا لنقرر بعد استشارة إخواننا ، وبمقتضى سلطتنا الرسولية أنه إذا أدى أحد من رجال الدين . . . إلى إنسان من العلمانيين . . . أى جزء من إيراده أو أملاكه . . . بغير إذن من البابا، عرض نفسه للحرمان من الدين ... ونقرر أيضاً أن كل إنسان أياً كانت سلطته أو مرتبته يطلب هذه الضرائب أو يتسلمها ؛ أو يغتصب أملاك الكنائس أو رجال الدين ، أو يتسبب فى اغتصابها . . . يتعرض بذلك للحرمان(٩٧) .

أما فيليب فكان قوى الاعتقاد بأن ما للكنيسة فى فرنسا من ثروة عظيمة يجب أن تتحمل نصيبها فى نفقات الدولة ، ولهذا عارض مرسوم البابا بأن حرم تصدير الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، والطعام ، وبأن حرم التجار أو المبعوثين الأجانب البقاء فى فرنسا . وحالت هذه الإجراءات دون وصول المال إلى البابوية من أهم مصادر إيرادها ، وأخرجت من فرنسا عمال البابا الذين كانوا يجمعون المال لحرب صليبية فى الشرق . ولهذا نكص بنيفاس فى مرسومه ineffabirlis Amor (سبتمبر عام ١٢٩٦) ، ووافق على تبرع رجال الدين بالمال مختارين فى سبيل الدفاع الضرورى عن الدولة ، واعترف بحق الملك فى أن يقرر هو هذه الضرورة . وألغى فيليب أوامره الانتقامية ، وارتضى هو وإدورد أن يكون بنيفاس — لا بوصفه بابا ، بل بوصفه شخصاً عاديا — حكما فى النزاع القائم بينهما . وحكم بنيفاس لصالح فيليب فى معظم أوجه النزاع ؛ وخضعت إنجلترا لحكمه إلى حين ، واستمتع المحاربون الثلاثة بفترة قصيرة من السلم .

وقرر بنيفاس أن تكون سنة ١٣٠٠ سنة عيد ، ولعله أراد بذلك أن يملأ الخزانة البابوية ، بعد أن نقصت إيراداتها من إنجلترا وفرنسا ، أو لعله أراد أن يجمع المال اللازم لحرب يستعيد بها صقلية بوصفها إقطاعية بابوية . ولحرب أخرى يوسع بها الولايات البابوية حتى تشمل تسكانيا(٩٨) . ونجح فى هذه الخطة نجاحاً تاماً ؛ فلم تشهد رومة من قبل جموعاً كالتى شهدتها فى ذلك الوقت . وفرضت حينئذ . ولعلها فرضت للمرة الأولى . قواعد المرور للإشراف على حركات الناس(٩٩) . وأحسن بنيفاس ومساعدوه إدارة شئون المدينة فجلبوا إليها الطعام موفورا وبيع فيها بأثمان معتدلة تحت إشراف البابا ورجاله . وكان من المزايا التى استمتع بها البابا أن الأموال الكثيرة التى جمعت بهذه الطريقة لم تكن مخصصة لغرض بالذات ، بل كان فى وسعه أن يستخدمها كما يشاء . وبلغ بنيفاس وقتئذ ذروة مجده رغم ما ناله من أنصاف الانتصارات وما أحاق به من الهزائم المنكرة

لكن المنفيين من آل كولنا كانوا فى هذا الوقت عينه يسلون فليپ بقصص عن شره البابا وظلمه ، وضلالاته الشخصية الخفية . ثم حدث نزاع بين أعوان فليپ وبرنارد سيسر Bernard Saisser المندوب البابوى . وقبض على المندوب لاتهامه بأنه يحرض على الفتنة ، وقدم للمحكمة الملكية ، وأدين ، ووضع تحت حراسة رئيس أساقفة نربونة (١٣٠١) . وارتاع بنيفاس للسرعة التى حوكم بها مندوبه ، فطلب أن يطلق سراح سيسر على الفور ، وأمر رجال الدين الفرنسيين أن يمتنعوا عن تسليم الإيرادات الكنسية للدولة ، ثم طلب إلى فيليپ فى مرسومه المسمى **استمع يا ولدى** Ausculta fili (ديسمبر سنة ١٣٠١) أن يستمع فى خشوع إلى خليفة المسيح بوصفه الملك الروحى على جميع ملوك الأرض ؛ واحتج على محاكمة رجل من رجال الدين أمام محكمة مدنية ، وعلى الاستمرار فى استخدام أموال الكنيسة فى الأغراض غير الدينية . وأعلن أنه سيدعو الأساقفة ورؤساء الأديرة فى فرنسا ليتخذوا الإجراءات « الكفيلة بالمحافظة على حريات الكنيسة وبإصلاح المملكة وتقويم الملك »[١٠٠]. وحينما عرض المرسوم على فليپ ، اختطفه كونت أرتوا Artois من يدى رسول البابا وألقاه فى النار . وصودرت نسخة منه كانت معدة لأن ينشرها رجال الدين الفرنسيون . وثارت ثائرة الطرفين حين نشرت وثيقتان زائفتان قيل إن إحداهما صادرة من بنيفاس إلى فليپ تطلب إليه أن يطيعه فى كل الشئون حتى الزمنية منها ، والأخرى من فليپ إلى بنيفاس تُبلغ « حماقتك العظيمة أننا لانخضع لإنسان ما فى الشئون الزمنية » وسرعان ما ساد الاعتقاد بأن هاتين الوثيقتين المزورتين صحيحتان[١٠١] .

وفى اليوم الحادى عشر من فبراير سنة ١٣٠٢ حرق مرسوم « **استمع يا ولدى** » رسميا فى باريس فى حضرة الملك وجمهور كبير . وأراد فليپ أن يستبق المجلس الكنسى الذى يريد بنيفاس عقده فدعا الطبقات الثلاث فى مملكته

إلى الاجتماع فى باريس فى شهر إبريل . وكتبت كل طبقة بمفردها من طبقات الأمة الثلاث — الأشراف ، ورجال الدين ، والعامة — فى هذا المجلس ، مجلس الطبقات ، الأول من نوعه فى تاريخ فرنسا ، كتبت كل طبقة إلى رومة تدافع عن الملك وعن سلطته الزمنية ، وحضر نحو أربعة وخمسين من المطارنة الفرنسيين مجلس رومة الذى عقد فى شهر أكتوبر من عام ١٣٠٢ على الرغم من حظر فليب ومصادرة أملاكهم . وأصدر هذا المجلس القرار المسمى Unamsanctum الذى حدد فيه مطالب البابوية تحديداً صريحاً صراحة تلفت الأنظار . وجاء فى هذا المرسوم أنه لاتوجد إلا كنيسة واحدة لا نجاة لأحد فى خارجها ، وأن ليس للمسيح إلا جسد واحد له رأس واحد لا رأسان ، وأن هذا الرأس هو المسيح وممثله البابا الرومانى ، وأن هناك سيفين أى قوتين القوة الروحية والقوة الزمنية ؛ الأول تحمله الكنيسة . والثانى يحمله الملك نائباً عن الكنيسة ، ولكنه يحمله تبعاً لإرادة القس وبإذن منه . والسلطة الروحية فوق السلطة الزمنية ، ومن حقها أن ترشدها إلى أسمى غاياتها ، وأن تحاكمها إذا ارتكبت إثماً . واختتم المرسوم بالعبارة الآتية : « ونعلن ، ونحدد ، وننطق بأن من الضرورى للنجاة أن يخضع الناس جميعاً للرئيس الدينى الرومانى »[١٠٢] .

وكان رد فليب أن دعا جمعيتين إلى الانعقاد (فى شهرى مارس ويونيه من عام ١٣٠٣) وأن أصدرت الجمعيتان وثيقة اتهم فيها بنيفاس رسميا بأنه ظالم ، وساحر ، وكافر[١٠٣] . وطلبت أن يخلعه مجلس عام للكنيسة . وبعث الملك وليم نوجارت William Nogaret كبير رجال القانون عنده إلى رومة ليبلغ البابا ما يطلبه الملك من دعوة مجلس عام . وكان البابا وقتئذ فى القصر البابوى بأنانى Anagni فأعلن أن البابا وحده هو الذى يحق له أن يدعو مجلساً عاما ، وأعد مرسوماً يحرم فيه فليب ويصب اللعنة على فرنسا . وقبل أن يصدره سار وليم نوجارت وسيارا كولنا Siarra Colonna على رأس [illegible]

واقتحما القصر ، وقدما إلى البابا رسالة فيليب ، وطلبا إليه أن يوقعها (٧ سبتمبر سنة ١٣٠٣) ، فرفض بنيفاس هذا الطلب . وتقول رواية « موثوق بصحتها أعظم الثقة »[١٠٤] إن سياراً لطم الحبر الأعظم على وجهه وإنه كاد يقتله لولا تدخل نوجات . وكان بنيفاس وقتئذ فى الخامسة والسبعين من عمره ، ضعيف الجسم ، ولكنه ظل يتحدى خصومه . وبقى ثلاثة أيام سجيناً فى قصره والجنود المرتزقون ينهبونه . ولكن أهل أنانى يؤيدهم أربعمائة فارس من عشيرة أرسينى Orsini فرقوا الجنود المرتزقين وأعادوا إلى البابا حريته . ويلوح أن سجانيه لم يقدموا له طعاماً مدى الثلاثة الأيام السابقة على تحريره ؛ لأنه وهو واقف فى السوق سأل : « إن كانت هناك امرأة صالحة ترضى أن تقدم لى صدقة من النبيذ والخبز ، فإنى أمنحها بركة الله وبركتى » . وقاده فرسان الأرسينى إلى رومة وإلى الفاتيكان ، وهناك انتابته حمى شديدة مات منها بعد أيام قليلة (فى الحادى عشر من شهر أكتوبر سنة ١٣٠٣) .

وحرم خليفته بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ — ١٣٠٤) نوجارت ، وسياراكولنا ، وثلاثة عشر غيرهما من الرجال رآهم يقتحمون القصر فى أنانى . ومات بندكت بعد شهر من ذلك الوقت فى بروجيا . وربما كان أحد الجبلين الإيطالين قد دس له السم[١٠٥] . ووافق فليب على أن يؤيد برتراند ده جو Bertrand de Got رئيس أساقفة بوردو للجلوس على كرسى البابوية إذا نهج سياسة المصالحة ، وعفا عمن حرموا من الدين لهجومهم على بنيفاس ، وسمح بأن تجبى من رجال الدين الفرنسيين ضريبة دخل سنوية مقدارها عشرة فى المائة مدة خمس سنين . وأن يعيد أفراد أسرة كولنا إلى مناصبهم ويرد إليهم أملاكهم . وأن يشهر بذكرى بنيفاس[١٠٦] . ولسنا نعرف إلى أى حد وافق برتراند على هذه المطالب . وكل ما نعلمه أنه اختير بابا ، وتسمى باسم كلمنت الخامس (١٣٠٥) . وأنذره الكرادلة بأنه ان يكون آمناً على حياته فى رومة ، فنقل

كلمنت كرسى البابوية إلى أفنيون القائمة على الضفة الشرقية لنهر الرون ، فى خارج الحد الشرقى لفرنسا وعلى بعد قليل منه (١٣٠٩) وانتقل إليها بعد تردد قليل ، وربما كان ذلك أيضاً بعد أن وصله اقتراح مريح من فليب . وهكذا بدأ « الأسر البابلى » للبابوات الذى دام ثمانية وستين عاماً واستسلام البابوية لفرنسا ، بعد أن حررت نفسها من ألمانيا .

وأصبح كلمنت ، رغم إرادته الضعيفة ، أداة ذليلة فى يد فليب الذى لا حد لمطامعه ؛ فغفر للملك ذنوبه ، وأعاد رجال كولنا إلى مناصبهم ، وسحب موسوم Clercis laicoa وأجاز نهب أموال فرسان المعبد ، ووافق أخيرا (١٣١٠) على محاكمة بنيفاس بعد موته على أيدى مجمع كنسى عقد فى جروسو Groseau القريبة من أفنيون . وشهد ستة من رجال الدين فى التحقيق المبدئى الذى أجرى أمام البابا ومأموريه أنهم سمعوا بنيفاس يشير قبل سنة من توليه منصبه الدينى إلى أن كل القوانين التى يفترض الناس أنها من عند الله قد اخترعها بعضهم لكى يلزموا العامة بأن يسلكوا مسلكا حسناً لخوفهم من الجحيم ، وإلى أن من « البلاهة » أن نعتقد أن الله واحد وثلاثة فى آن واحد ، أو أن عذراء قد ولدت طفلا ، أو أن الله قد صار إنسانا ، أو أن الخبز يمكن أن يصبح جسم المسيح ، أو أن هناك حياة أخرى مستقبلة . « هذا ما أومن به وما أعتقده ، كما يؤمن به ويعتقده كل إنسان متعلم . أما السوقة فيعتقدون غير هذا ، وعلينا أن نتكلم كما يتكلم السوقة ، وأن نفكر ونعتقد كما تعتقد القـلة وتفكر » . ونقل هؤلاء الستة عن بنيفاس هـذه الأقوال . وأعاد هذه الشهادة ثلاثة منهم بعد أن سئلوا فيما بعد . ونقل رئيس دير القديس جيلز St. Giles القائم فى سان جمينو San Gemino عن بنيفاس حين كان الكردينال جيتانى Gaetani أنه أنكر بعث الجسم والروح ، وأيد هذه الشهادة عدد آخر من رجال الدين . ونقل أحد رجال الدين عن بنيفاس أنه قال عن القربان المقدس « إنه ليس إلا فطيرة » . واتهم بنيفاس

رجال كانوا قبل ذلك من أفراد بيته بأنه كانت له كثير من الصلات الجنسية الآثمة ، الطبيعية منها وغير الطبيعية ، واتهم غيرهم هذا المتشكك المزعوم بأنه حاول الاتصال السحرى بـ « قوى الظلام »[١٠٧] :

وأقنع كلمنت فليب قبل بدء المحاكمة الفعلية أن يترك مسألة إجرام بنيفاس إلى مجلس ڤينا العام الذى سيعقد فيما بعد . فلما عقد هذا المجلس (١٣١١) مثّل أمامه كرادلة وشهدوا بأن البابا المتوفى كان مستمسكا بالدّين القويم وبمكارم الأخلاق ، وألقى فارسان بقفازيهما متحديين ومؤيدين براءته عن طريق الاقتتال . لكن أحداً لم يقبل هذا التحدى وأعلن المجلس انتهاء المحاكمة .

الفصل الثامن

عودة على بدء

تكشف الأدلة التى قدمت ضد بنيفاس ، صادقة كانت أو كاذبة ، عن تيار التشكك الذى كان يجرى فى الخفاء على عصر الإيمان . وكذلك تدل لصفعة – المادية أو السياسية – التى وجهت إلى بنيفاس فى أنانى بمعنى من معانيها على بداية « العصر الحديث » : فقد كانت انتصاراً للقومية على ما فوق القومية ، وللدولة على الكنيسة ، ولقوة السيف على سحر الكلام . ذلك أن كفاح الكنيسة ضد آل هوهنستوفن وإخفاق الحروب الصليبية قد أضعفنا من قوتها ، فى الوقت الذى زاد فيه انهيار الإمبراطورية من قوة إنجلترا وفرنسا ، كما أثرت فرنسا باستيلائها على لانجويدك بمساعدة الكنيسة . ولربما كانت مناصرة الشعب لفليب الرابع على بنيفاس الثامن دليلا على غضب هذا الشعب من غلو محاكم التحقيق والحملة الصليبية الألبجنسية ؛ فقد قيل إن محاكم التحقيق حرقت بعض آباء نوجارت(١٠٨) ، ولم يكن بنيفاس يدرك ، وهو يتورط فى هذه المنازعات الكثيرة ، أن أسلحة البابوية قد تثلمت من الإفراط فى استخدامها ؛ ثم إن الصناعة والتجارة قد أنشأتا طبقة من الناس أقل تقوى من طبقة الزراع ، وأن الحياة والتفكير قد نزعا نزعة زمنية غير دينية ، وأخذت الطبقات العلمانية تدرك أهميتها ، وقبل أن تمضى سبعون سنة كانت الدولة قد طوت الكنيسه تحت جناحها .

وإذا ما ألقينا نظرة شاملة على المسيحية اللاتينية ، كان أهم ما ينطبع فى ذهننا منها هو ما بين شعوبها المختلفة من وحدة نسبية فى العقيدة الدينية ، وانتشار سلطان الكنيسة الرومانية الواسع ورجالها فى كل مكان انتشاراً أكسب أوربا

الغربية — أوربا غير الصقلبية ، وغير البيزنطية — وحدة فى العقل والأخلاق لم ير لها قط مثيل بعد ذلك الوقت . ولسنا نعرف فى التاريخ كله نظاما فى غير هذه الرقعة من الأرض كان له مثل هذا الأثر العظيم فى مثل هذا العدد من الناس ولمثل هذا الزمن الطويل . فقد دام سلطان الجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية على أملاكهما الواسعة من أيام بمبى الى أيام ألريك Alaric أى أربعمائة وثمانين عاما ؛ ودامت إمبراطورية المغول والإمبراطورية البريطانية نحو مائة عام ؛ أما الكنيسة الكاثوليكية الرومانيـــة فقد ظلت صاحبة السلطة العليا فى أوربا من موت شارلمان (٨١٤) إلى موت بنيفاس الثامن (١٣٠٣) أى ٤٨٩ عاماً . ويبدو أن تنظيمها وإدارتها لم يبلغا من الكفاية ما بلغاه فى الإمبراطورية الرومانية ؛ كذلك لم يؤت رجالها من القدرة والثقافة مثل ما أوتى الرجال الذين حكموا الولايات والمدن للقياصرة ؛ ولكن الكنيسة ورثت خليطاً من الهمج المسلوبى العقول ، وكان عليها أن تبذل الجهود المضنية لتشق لها طريقاً تعود به إلى بسط النظام ونشر التعليم . ولقد كان رجالها ، رغم هذه الظروف ، خير الرجال تعلماً فى ذلك العصر ، وكانوا هم الذين قدموا للناس فى أوربا الغربية التعليم الوحيد المستطاع فى خلال القرون الخمسة التى كان لها فيها السيادة والسلطان . وكانت محاكمها تقدم للناس أعدل ضروب العدالة فى أيامها . فكانت المحكمة البابوية ، المرتشية تارة والنزيهة تارة أخرى ، إلى حد ما . محكمة عالمية تحكم فى فض المنازعات الدولية ، وتضييق نطاق الحروب . ولسنا ننكر أن هذه المحكمة كانت على الدوام مسرفة فى نزعتها الإيطالية ، ولكن عقول الإيطاليين كانت فى تلك القرون أحسن العقول تدريباً ، وكان فى وسع أى إنسان أن يرقى إلى عضوية تلك المحكمة من أية طبقة ، ومن أية أمة فى العالم المسيحى اللاتينى .

ولقد كان من الخير أن يكون فوق دول أوربا وملوكها ، رغم أساليب الخداع التى تلجأ إليها عادة السلطة البشرية الجماعية ، سلطة عليا تستطيع محاسبة

هذه الدول وأولئك الملوك ، وتخفف من حدة منازعاتها ومنازعاتهم . وإذا كان لا بد من قيام دولة عالمية ، فهل ثمة مقر لها يبدو أليق من عرش القديس بطرس ، يستطيع الناس مهما يكن من ضيقه أن يتطلعوا منه بعين قارية ، من ورائها أحقاب طوال ؟ وهل ثمة قرارات أكثر قبولا عند الناس فى سلام . وأيسر تنفيذاً ، من قرارات حبر من الأحبار يجله جميع سكان أوربا الغربية ويرون أنه خليفة الله فى أرضه ؟ وحسبنا دليلا على ما كان لقرارات هذه السلطة من قوة أنه لما خرج لويس التاسع إلى الحرب الصليبية فى عام ١٢٤٨ ، اشتد هنرى الثالث ملك إنجلترا فى مطالبه من فرنسا واستعد لغزوها . فأنذر البابا إنوسنت الرابع إنجلترا بالحرمان إذا أصر هنرى على مطالبه ، ونكص هنرى على عقبيه . ويقول هيوم المتشكك إن سلطان الكنيسة كان ملجأ حصينا من عسف الملوك وظلمهم(١٠٩) ، ولو أن الكنيسة اقتصرت فى استخدام سلطانها على الأغراض الروحية والخلقية ، ولم تستخدمه قط لتحقيق الأغراض المادية ، لحققت المثل الأعلى الذى كان يرتجيه جريجورى السابع ــ ولجعلت سلطانها الأخلاقى يعلو على قوى الدول المادية . وكاد حلم جريجورى هذا يتحقق حين ضم إربان الثانى شتات العالم المسيحى لقتال الاتراك . فلما أن أطلق إنوسنت الثالث وجريجورى التاسع ، واسكندر الرابع ، وبنيفاس الثامن اسم الحروب الصليبية المقدسة على حروبهم ضد الألبجنسيين ، وفردريك الثانى وآل كولنا ، فلما فعلوا هذا تحطم المثل الأعلى العظيم فى أيدى البابوات الملطخة بدماء المسيحيين.

وكانت الكنيسة إذا لم يتهددها خطر تصطنع التسامح الكثير مع أصحاب الآراء المخالفة ، بل وآراء الضالين ، وسوف نجد ما لم نكن نتوقعه من الحرية الفكرية بين فلاسفة القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بل سوف نجد هذه الحرية بين أساتذة الجامعات المرخصة من قبل الكنيسة ، والخاضعة لإشرافها ؛ وكل ما كانت تطلبه أن يكون نقاشهم مقصوراً على المتعلمين ، ومفهوما منهم

وحدهم ، وألا يتخذ صورة الدعوة الثورية للناس بأن ينبذوا عقيدتهم وكنيستهم(١١٠) . ويقول كاتب هو أكثر نقاد الكنيسة المحدثين نشاطا ، إن « الكنيسة إذ تضم السكان أجمعين ، تضم كذلك كل صنف من أصناف العقول ، من أكثر العقول تخريفا إلى أكثرها لا أدرية ، وإن كثيراً من العناصر التي لم تكن مستمسكة بالدين الرسمي ، كانت تعمل تحت ستار الامتثال الرسمي بحرية أوسع مما يظن الناس عادة(١١١) .

وجملة القول أن الصورة التي نرسمها في أذهاننا للكنيسة اللاتينية في العصور الوسطى هي أنها منظمة معقدة التركيب ، تبذل كل ما في وسعها ، رغم ما يتصف به أبناؤها وزعماؤها من عيوب كامنة في فطرة الآدميين ، لإرساء قواعد النظام الأخلاقي والاجتماعي ، ونشر العقيدة الدينية التي تسمو بالناس وتواسيهم وسط حطام حضارة قديمة ، وعواطف ثائرة ، لمجتمع يجتاز دور النقاهة .

لقد كانت أوربا حين وحدتها كنيسة القرن السادس أشبه ببضاعة متناثرة بعد غرق سفينة بضاعة من الهمج المتنقلين ، وكانت خليطا من الألسنة والعقائد ، وفوضى من الشرائع غير المسطورة التي لا يحصيها العد . ولكن الكنيسة وهبتها قانوناً أخلاقيا تؤيده سلطة فوق سلطة البشر ، تبلغ من القوة ما يكفي لقمع الغرائز غير الاجتماعية الكامنة في نفوس ذوي العنف من الناس ، ووهبتها كذلك أديرة يلجأ إليها الرجال ، والنساء ، وتأوي المخطوطات القديمة ؛ وحكمتها بمحاكم كنسية ، وربتها في المدارس والجامعات ، وذللت قيادة ملوك الأرض لتحمل التبعات الأخلاقية وواجبات السلام ، وخلعت على حياة أبنائها بهجة الشعر ، والتمثيل ، والغناء ، وأوحت إليهم أن يقيموا أجل ما في التاريخ كله من أعمال فنية . ولما عجزت عن إقامة مدينة فاضلة تسودها المساواة بين رجال مختلفي الكفايات ، نظمت الصدقات والضيافات ، وحمت الضعفاء إلى حد ما من الأقوياء . وكانت بلا ريب أعظم قوة تعمل لنشر لواء الحضارة في تاريخ أوربا خلال العصور الوسطى .

الباب الثلاثون

الأخلاق والآداب فى العالم المسيحى

٧٠٠ — ١٣٠٠

الفصل الأول

القانون الأخلاقى المسيحى

كان لا بد للإنسان فى مرحلة سكنى الغاب أو فى مرحلة الصيد أن يكون شرهاً — حريصاً فى بحثه عن الطعام ، نهما فى ابتلاعه — لأنه إذا جاءه الطعام مرة لايدرى متى يأتيه مرة أخرى . وكان لا بد له أن يكون شديد الحساسية الشهوانية ، وكثيراً ما يطلق لهذه الشهوات العنان ، فلا يتقيد بزواج لأن ارتفاع نسبة الوفيات تحتم ارتفاع نسبة المواليد ، فكل امرأة يجب أن تصير أماً كلما كان ذلك مستطاعاً ، ولا بد أن تكون وظيفة الذكر حامية على الدوام . ولا بد له أن يكون مشاكساً دائم الاستعداد للقتال من أجل طعامه ورفيقته .

لقد كانت الرذائل فى وقت ما فضائل لا غنى عنها للمحافظة على البقاء ، فلما وجد الإنسان أن أحسن سبيل إلى البقاء — بقاء الفرد وبقاء النوع — هى سبيل التنظيم الاجتماعى ، وسع نطاق عصبة الصيد ، فجعلها هيئة من النظام الاجتماعى لا بد فيها من كبح جماح الغرائز التى كانت عظيمة النفع فى مرحلة الصيد عند كل خطوة يخطوها الإنسان ، حتى يستطاع بذلك قيام المجتمع . فليست كل حضارة إلا توازناً وتجاذباً بين غرائز الإنسان ساكن الغابة وقيود

القانون الأخلاقى ؛ فإذا وجدت الغرائز دون القانون الأخلاقى قضى على الحضارة ، وإذا وجدت القيود دون الغرائز قضى على الحياة ، فالمشكلة التى تواجهها الأخلاق هى أن تنظم القيود بحيث تحمى الحضارة دون أن توهن الحياة .

وكانت بعض الغرائز ، وأكثر ما تكون غرائز اجتماعية ، هى صاحبة السبق فى تهدئة العنف البشرى ، والاختلاط الجنسى الطليق ، والشره ؛ وكانت هى أساساً حيوياً للحضارة . فقد خلق الحب الأبوى ، فى الحيوان والإنسان ، نظام الأسرة الاجتماعى الفطرى ، وما فيها من تأديب تعليمى ، ومساعدة متبادلة ؛ ونقلت السلطة الأبوية ، وهى مزيج من ألم الحب ومتعة الاستبداد ، قانون السلوك الاجتماعى المنقذ للحياة إلى الطفل صاحب النزعة الفردية . وأحاطت القوة المنظمة التى يمارسها الزعيم ، أو الشريف ، أو تمارسها المدينة أو الدولة ، أحاطت هذه القوة وداجت إلى حد كبير قوة الأفراد غير المنظمة . وأخضع حب الاستحسان النفس البشرية إلى إرادة الجماعة ؛ وهدت العادة والمحاكاة من حين إلى حين المراهق والمراهقة إلى السبل التى ارتضاها الناس بعد تجاربهم وأخطائهم . وأرهب القانون الغرائز بشبح العقاب ، وذلل الضمير الشاب بطائفة لا حصر لها من الموانع والمحرمات .

واعتقدت الكنيسة أن هذه المنابع الطبيعية أو الزمنية للأخلاق لا تكفى وحدها للسيطرة على الدوافع التى تحفظ الحياة فى الغابة ، بل تقضى على النظام فى المجتمع ، وقالت إن هذه الدوافع أقوى من أن تكبحها أية سلطة لا تكون لها فى كل مكان وفى وقت واحد قوة مانعة رهيبة . ولهذا فإن القانون الأخلاقى شديد الوقع على الجسم لابد له أن يكون مختوماً بخاتم قوة غير بشرية إذا أريد أن يطيعه الناس ، ولابد له أن يكون مؤيداً بقوة إلهية وذا مكانة فوق المكانة الآدمية تحترمها النفس فى غياب كل سلطة ، وفى أثناء لحظات الحياة وخباياها الخفية . إن السلطة الأبوية نفسها ، وهى عماد كل نظام أخلاقى واجتماعى ، لتنهار فى النزاع

القائم ضد الغرائز البدائية إلا إذا كان لها دعامة من العقيدة الدينية تُغرس فى قلب الطفل . فإذا أريد خدمة المجتمع ونجاته ، فلابد له من دين يقاوم الغرائز الملحة بأوامر ليست من عند البشر ولاتقبل قط نزاعاً ، بل هى أوامر من عند الله نفسه ، محددة واضحة لا تقبل جدلا . وإذ كان الإنسان شديد الإثم والشراسة فإن هذه الوصايا الإلهية يجب ألا يؤيدها الثناء والشرف اللذان يمنحهما الناس من يطيعونها ، أو الخزى والعقاب اللذان يلحقان بمن يخرج عليها ، بل يجب أن يؤيدها ، فضلا عن هذا ، الأمل فى نعيم السماء تناله الفضيلة التى لا تلقى جزاءها فى هذه الدنيا ، وخوف الجحيم التى يتردى فيها الآثمون الذين لايلقون على ظهر الأرض عقاباً . إن هذه الوصايا يجب ألا تأتى من عند موسى بل من عند الله .

وكانت عقيدة الخطيئة الأولى فى اللاهوت المسيحى هى التى مثلت بها النظرية القائلة إن الغرائز البدائية تجعل الإنسان غير صالح للحضارة . وكانت هذه النظرية ، كما كانت فكرة « كارما » فى الديانة الهندية محاولة قصد بها ما يحل بالناس من آلام هم فى الظاهر غير خليقين بها ؛ وهذا التفسير هو أن « الصالحين يقاسون الآلام فى هذه الحياة لأن أسلافهم ارتكبوا الإثم ؛ وتقول النظرية المسيحية إن الجنس البشرى على بكرة أبيه قد لوثته خطيئة آدم وحواء ؛ ويقول جراتيان Gratian فى كتابه Decretum « القرار » (حوالى عام ١١٥٠) الذى اتخذته الكنيسة بصفة غير رسمية جزءاً من تعاليمها : « كل آدمى وُلد نتيجة لاتصال الرجل بالمرأة يولد ملوثاً بالخطيئة الأولى ، معرّضاً للعقوق والموت ، ولهذا فهو طفل مغضوب عليه »[١] لا ينجيه من الخبث واللعنة إلا رحمة الله وموت المسيح الذى كفّر عن آثامه (ولا ينقذ الإنسان من العنف ، والشهوة ، والشره ، وينجيه هو والمجتمع الذى يعيش فيه من الهلاك إلا المثل الذى ضربه المسيح الشهيد فى الوداعة ودماثة الخلق) . وبعثت الدعوة إلى هذه العقيدة ، مضافة إلى الكوارث الطبيعية التى لم تستطع العقول فهمها إلا على أنها عقاب عن الخطايا . بعثت هذه

الدعوة فى الكثيرين من الناس فى العصور الوسطى شعوراً بأنهم مفطورون على الدنس ، والانحطاط ، والإجرام ، وهو الشعور الذى غلب على كثير من أدبهم قبل عام ١٢٠٠ . ثم أخذ ذلك الشعور بالخطيئة والخوف من الجحيم يتناقص حتى جاء عهد الإصلاح الدينى ، وظهر بعدئذ بقوة ورهبة جديدتين بين المتطهرين المتزمتين .

وتحدث جريجورى الأول ومن جاء بعده من علماء الدين عن سبع خطايا — الكبرياء ، والبخل ، والحسد ، والغضب ، والشهوة ، والشره ، والكسل ، تقابلها فى رأيهم السبع الفضائل الرئيسية : أربع منها « فطرية » أو وثنية امتدحها فيثاغورس وأفلاطون — الحكمة ، والشجاعة ، والعدالة ، والاعتدال ؛ وثلاث فضائل « دينية » — الإيمان ، والأمل ، والإحسان . ولكن المسيحية لم تؤمن قط بالفضائل الوثنية وإن ارتضتها ؛ وكانت تفضل الإيمان عن العلم ، والصبر عن الشجاعة ، والحب والرحمة عن العدالة ، والتعفف والطهر عن الاعتدال . ورفعت من شأن الاتضاع ، ووصفت الكبرياء (وهو من أبرز صفات رجل أرسطو المثالى) بأنه أشنع الذنوب الشنيعة . وكانت المسيحية تتحدث أحياناً عن حقوق الإنسان ، ولكن أكثر ما كانت تؤكده هو واجبات الإنسان — واجباته نحو نفسه ، ونحو بنى جنسه ، ونحو كنيسته وربه . ولم تكن الكنيسة تدعو إلى الاقتداء بالمسيح الرقيق ، الوادع ، الرحيم ، لأنها كانت تخشى أن تجعل الرجال مخنثين . والحق أن رجال المسيحية اللاتينية فى العصور الوسطى كانوا أكثر رجولة من ورثتهم وخلفائهم فى هذه الأيام ، لأنهم كانوا يواجهون من الصعاب أكثر مما يواجهه هؤلاء . ذلك أن علماء الدين والفلاسفة ، كالرجال والدول ، يتصفون بما يتصفون به ، لأنهم فى زمانهم ومكانهم لم يكن لهم مما كانوا عليه بد .

الفصل الثاني

الآداب قبل الزواج

تُرَى إلى أى حد كانت آداب الناس فى العصور الوسطى تمثل أو تحقق المبادئ والنظريات الأخلاقية فى تلك العصور ؟ فلننظر أولا إلى الصورة التى كانت عليها تلك العصور دون أن يكون لدينا رأى سابق نريد إثباته .

لقد كانت أولى الحادثات التى تمت بصلة إلى الأخلاق فى الحياة المسيحية هى التعميد : به كان الطفل يندمج جدياً فى المجتمع وفى الكنيسة ، ويخضع – أو يخضع عنه من يعمدونه – إلى قوانينهما . وفى هذه الحفل يتلقى كل طفل « اسماً مسيحياً » – ويكون هذا الاسم فى العادة اسم أحد القديسين المسيحيين . أما الأسماء التى تضاف بعد هذا الاسم فكانت مختلطة الأصول : ويمكن الرجوع بها خلال أجيال متعددة إلى القرابة ، أو المهنة ؛ أو المكان ، أو إلى شىء من معارف الجسم أو معالم الخلق ، بل يمكن الرجوع بها أحياناً إلى شىء من الطقوس الكنسية : ومن أمثلة هذه الأسماء سسلى ولكنز دوتر Cicely Wilkinsdoughter وجيمس اسمث James Smith ، ومرجريت فرى ومن Margaret Ferrywoman وماثيو باريس Matthew Paris ، وأجنيس ردهد Agnes Redhead ، وجون مريمان John Merriman ، وربرت لتانى Robert Litany ؛ وربرت بنديسيت Robert Benedicite أو بندكت Benedict .

وكان جريجورى الأكبر ، كما كان روسو ، يحث الأمهات على أن يرضعن أطفالهن[٣] ؛ وكانت معظم النساء الفقيرات يفعلن هذا ، أما نساء الطبقات العليا

فكانت الكثرة الغالبة منهن لا تفعلنه(٤) . وكان الأطفال محبوبين ، كما هم محبوبين الآن ؟ ولكنهم كانوا يضربون أكثر مما يضربون فى هذه الأيام ، وكانوا كثيرى العدد بالرغم من كثرة من يموتون منهم فى سن الطفولة وسن المراهقة . وكان بعضهم يؤدب البعض لاجتماعهم فى مكان واحد ، وقد تحضروا بسبب خوفهم من ارتكاب الذنوب . وتعلموا من أقاربهم ورفاقهم فى اللعب كثيراً من فنون القطر أو المدينة ، وتقدموا تقدماً سريعاً فى معارفهم وخبثهم . وفى ذلك يقول تومس من أهل سيلانو Celano فى القرن الثالث عشر : « لا يكاد الأولاد ينطقون حتى يتعلموا الخبث ، وكلما تقدموا فى السن زادوا سوءاً على سوء حتى يصبحوا مسيحيين بالاسم لا أكثر »(٥) . ولكن الذين يكتبون فى الأخلاق مؤرخون غير صادقين ؛ فقد كان الأولاد يبلغون سن العمل وهم فى الثانية عشرة من عمرهم ويبلغون سن الرشد القانونى فى السادسة عشرة .

وكانت مبادئ الأخلاق المسيحية تتبع مع المراهقين سياسة الصمت بإزاء الأمور الجنسية : فقد كان النضج المالى أى القدرة على كفالة الأسرة يجئ بعد النضج الجنسى أى القدرة على الخلف ؛ وكان الاعتقاد السائد أن التربية الجنسية قد تزيد آلام العفة فى تلك الفترة من العمر ؛ وكانت الكنيسة تتطلب العفة قبل الزواج لتساعد بذلك على الاحتفاظ بالوفاء بعده وعلى النظام الاجتماعى والصحة العامة . ولكن الشاب فى العصور الوسطى كان فى أكبر الظن قد ذاق أنواعاً من الصلات الجنسية قبيل بلوغه السادسة عشرة من عمره . فقد عاد اللواط إلى الظهـــور فى أثناء الحروب الصليبية ، وفى أثر تيار الآراء الشرقية(*) ، وعزلة الرهبان والراهبات(٦) . وكانت المسيحية قد أفلحت فى مهاجمـــة هذا الداء فى العصور القديمة المتأخرة . وقد كتب هنرى رئيس دير كليرفو عن فرنسا فى عام

(*) كثيراً ما تظهر هذه العادة اللعينة فى الحروب ، وقد وجدت فى الغرب والشرق على السواء ، وإذا رجع القارئ إن الفصل الخامس باليونان من هذه السلسلة رأى ما ناله المؤلف عنها عند أولئك القوم . (المترجم)

١١٧٧ يقول : « إن سدوم(*) القديمة قد أخذت تقوم فوق أنقاضها »(٧) واتهم فليب الجميل رهبان المعبد بانتشار اللواط بينهم . وفى كتب التوبة الدينية التى تصف وسائل التكفير عن الذنوب ذكر لضروب الفحش من بينها البهيمية ، وكانت طائفة كثيرة التنوع عن البهائم موضع صلات جنسية بالآدميين(٨) . وكانت الصلات الجنسية من هذا النوع إذا كشفت عوقب الطرفان المشتركان فيها بالإعدام ؛ وفى سجلات البرلمان الإنجليزى ذكر لطائفة من الكلاب ، والمعز ، والبقر ، والخنازير ، والإوز ، حرقت حية هى ومن ارتكب معها الفحشاء من الآدميين . كذلك كثرت مضاجعة المحارم فى تلك الأيام .

ويبدو أن العلاقات الجنسية قبل الزواج ، وفى خارج نطاق الزواج ، كانت منتشرة انتشارها فى أى وقت بين أقدم الأزمنة والقرن الثانى عشر ، ذلك أن غريزة الإنسان المختلطة كانت تتعدى الحدود التى تقيمها الشرائع الزمنية والكنسية ، وكانت بعض النساء يعتقدن أن ورعهن فى آخر الأسبوع يكفّر عن مرحهن وبطنتهن . وكان الاغتصاب شائعاً (٩) رغم ما يتعرض له المغتصب من أشد ضروب العقاب ، وكان الفرسان الذين يخدمون النساء أو الفتيات الكريمات المولد نظير قبلة أو لمسة من أيديهن يسلون أنفسهم بخادمات هؤلاء السيدات والفتيات ، ومن أولئك السيدات من لم يكن يستطعن النوم مرتاحات الضمائر إلا إذا هيأن بأنفسهن هذه التسلية(١٠) كان مما يأسف له فارس لاتور لاندرى **La Tour Landry** انتشار الفسق بين بعض الشبان من أبناء الأشراف ؛ وإذا أخذنا بأقواله فإن بعض رجال الطبقة التى ينتمى إليها كانوا يفسقون فى الكنائس بل « على المذبح » نفسه ؛ وهو يحدثنا عن « ملكتين استمتعتا ببهجتهن الآثمة وبلذتهن داخل الكنيسة فى أثنـــاء الصلاة المقدسة فى يوم خميس الصعود

(*) بلدة لوط المذكورة فى الكتاب المقدس . (المترجم)

أثناء الصيام »(١١) . ويصف وليم الملمزبرى William of Molmsbury أشراف النورمان بأنهم منهمكون فى البطنة والدعارة » وأنهم يتبادلون العاشقات بعضهم مع بعض(١٢) خشية أن يضعف الوفاء حدة الشهوة . وكان الأطفال غير الشرعيين منتشرين فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، وكانت سيرتهم موضوعاً لآلاف القصص ، وكان أولاد الزنا أبطال عدد من هذه القصص فمنهم كوشولان Cuchulain ، وآرثر Arthur ، وجاوين Gawain ورولان Roland ، ووليم الفاتح ، وكثيرون من الفرسان المذكورين فى تواريخ فرواسار Froissart .

وتمشى العهر مع مطالب ذلك الوقت ؛ فقد كان بعض النساء الذاهبات إلى الحج يكسبن نفقة الطريق، كما يقول الأسقف بنيفاس، ببيع أجسادهن فى المدن القائمة فى طريقهن(١٣). وكان كل جيش يتعقبه جيش آخر من العاهرات لا يقل خطراً عن جيش أعدائه . ويحدثنا ألبرت من أهل إيكس Aix فيقول إن « الصليبيين كان بين صفوفهم جمع حاشد من النساء فى ثياب الرجال ، يسافرن معهم دون أن يميزن عنهم ، ويغتنمن الفرصة التى تتاح لهن مع الرجال »(١٤) . ويقول المؤرخ العربى عماد الدين إنه فى أثناء حصار عكا حضرت ثلثمائة من الفرنسيات الحسان ليروحن عن الجنود الفرنسيين . . . لأن هؤلاء أبوا أن يخرجوا للقتال إذا حرموا لذة النساء ، فلما رأى جنود المسلمين هذا طلبوا أن يهيأ لهم ما هيئ لهؤلاء(١٥) . ويقول جرانفيل إن الأشراف الذين كانوا مع القديس لويس فى حربه الصليبية « أقاموا مواخيرهم حول خيمة الملك »(١٦) . وكان طلبة الجامعات ، وبخاصة فى باريس ، ممن استبدت بهم الحاجة إلى هذا الترفيه أو رغبوا فى محاكاة غيرهم فيه ، ولهذا أنشأت الفتيات مراكز لسد هذه الحاجة(١٧) .

وأباحت بعض المدن — أمثال طولوز (طلوشه) ، وأفنيون ، ومنبليه ، ونورمبرج — هذه الدعارة قانوناً، ووضعتها تحت إشراف البلديات بحجة أنه بغير

هذا الدنس لا تستطيع النساء الصالحات أن يخرجن إلى الشوارع وهن آمنات على أنفسهن[١٨] . وكتب القديس أوغسطين يقول : « إذا منعت العاهرات والمواخير ، اضطربت الدنيا من شدة الشبق »[١٩] ، ووافقه على ذلك القديس تومس أكويناس[٢٠] . وكان فى لندن فى القرن الثانى عشر صف من « المواخير » بالقرب من جسر لندن . وقد أجاز أسقف ونشستر فى بادئ الأمر قيامها ، ثم صدق البرلمان على قيامها فيما بعد[٢١] . وقد حرم القانون الذى أصدره البرلمان عام ١١٦١ على صاحبات بيوت الدعارة أن يأوين فيها نساء يعانين آلام « الضعف الخطر من الاحتراق » — وهذا أول ما عرف من التشريع ضد انتشار الأمراض السرية . وقرر لويس التاسع فى عام ١٢٥٤ نفى جميع العاهرات من فرنسا ، ونفذ هذا القرار فعلا ، ولكن الدعارة السرية لم تلبث أن حلت محل التجارة العلنية ، حتى شكا أهل الطبقات الوسطى من أنه يكاد يكون من المستحيل حماية الفضيلة لدى زوجاتهم ونسائهم من إلحاح الجنود والطلاب . وعم انتقاد هذا القرار فى آخر الأمر حتى ألغى فى عام ١٢٥٦ . وحدد المرسوم الجديد الأماكن التى تستطيع فيها العاهرات أن يسكن ويمارسن مهنتهن فى باريس ، وحدد أيضاً ملابسهن وزينتهن . وأخضعهن لرقابة رئيس من رؤساء الشرطة يسمى ملك القوادين أو المتسولين أو الأفاقين roi de ribauds[٢٣] . ونصح لويس التاسع وهو يحتضر ولده أن يعيد المرسوم الذى قضى بنفى العاهرات . ونفذ فليب وصيته ، وكانت النتيجة هى النتيجة السابقة نفسها ؛ وبقى القانون مدوناً فى سجل الشرائع الفرنسية ولكنه لم ينفذ[٢٤] . وكان فى رومة . كما يقول الأسقف دوران الثانى المندى Bishop Durand II of Mende (١٣١١) ، مواخير بالقرب من الفاتيكان ، وقد أجاز رجال البابا إقامتها نظير ما يتقاضون من الأجور[٢٥] . وكانت الكنيسة تظهر العطف على العاهرات ، وأقامت ملاجئ للتائبات من النساء ، ووزعت على الفقيرات الصدقات التى كانت تتلقاها من العاشقات التائبات[٢٦] .

الفصل الثالث

الزواج

كان الشباب فى عصر الإيمان قصير الأجل ، وكان الزواج يحدث فيه مبكرا ، وكان فى وسع الطفل وهو فى السابعة من عمره أن يوافق على خطبته ، وكان هذا التعاقد يتم فى بعض الأحيان ليسهل به انتقال الملكية أوحمايتها . ولقد تزوجت جراس صليبى Grace de Saleby فى الرابعة من عمرها بشريف عظيم يستطيع حماية ضيعتها الغنيـــة ، ثم مات هذا الشريف ميتة سريعة فتزوجت وهى فى السادسة من عمرها بشريف آخر ، وزوجت وهى فى الثالثــة عشرة بشريف ثالث(٢٧) . وكان يستطاع حل هذا الرباط فى أى وقت من الأوقات قبل سن البلوغ ، وكان يفترض أن تكون هذه السن هى الثانية عشرة للبنت ، والرابعة عشرة للولد(٢٨) . وكانت الكنيسة ترى أن رضى الوالدين أو الأوصياء غير ضرورى للزواج الصحيح إذا بلغ الزوجان سن الرشد ، وتحرم زواج البنات قبل الخامسة عشرة ، ولكنها كانت تسمح بكثير من الاستثناءات ، لأن حقوق الملْــكية فى هذه المسأله كانت تطغى على نزوات الحب ، ولم يكن الزواج إلا حادثا من حوادث الأعمال المالية . وكان العريس يقدم لوالدى الفتاة هدايا أو مالا ، ويعطيها « هدية الصباح » ويضمن لها حق بائنة فى مزرعته . وكان هذا الحق فى إنجلترا هو أن يكون للأرملة استحقاق مدى الحياة فى ثلث ما يتركه الرجل من الأرض . وكانت أسرة الزوجة تقدم الهدايا للزوج ، وتخصص لها بائنة تتكون من الثياب ، والأثواب الثمينة ، والآنية والأثاث ، والأملاك فى بعض الأحيان . وكانت الخطبة عبارة عن تبادل عهود أو مواثيق ، وكان العرس نفسه ميثاقا (واسمه

الإنجليزى Wedding مشتق من اللفظ الإنجليسكسونى Weddian ومعناه الوعد) وكان القرين spouse هو الشخص الذى أجاب responded « إنى أريد » .

وكانت الدولة والكنيسة معاً تعدان الزواج صحيحا إذا تم بناء على تبادل عهد شفوى بين الطرفين ولو لم يصحبه أى احتفال قانونى أو كنسى(٢٩) . وكانت الكنيسة تريد أن تحمى النساء بذلك من أن يهجرهن من يغويهن ، وتفضل هذا الاتحاد عن الفسق أو التسرى ؛ ولكنها كانت بعد القرن الثانى عشر تنكر شرعية الزواج الذى يتم دون مصادقة الكنيسة ، وأخذت بعد مجلس ترنت (١٥٦٣) تتطلب حضور قس فى هذا التعاقد . وكان القانون الزمنى يرحب بتنظيم الكنيسة لشئون الزواج ؛ فكان براكتن Bracton (المتوفى عام ١٢٦٨) يرى أن لابد من إقامة احتفال دينى لكى يصبح الزواج صحيحا . ورفعت الكنيسة شأن الزواج إلى مقام القداسة ؛ وجعلته ميثاقا مقدساً بين الرجل والمرأة والله ؛ ثم بسطت سلطانها القانونى تدريجيا على كل خطوة من خطوات الزواج ، من واجبات فراش الزوجية إلى وصية الزوج الأخيرة قبل الوفاة . وذكر قانونها ثبتاً طويلا من « موانع الزواج » ؛ فكان يجب أن يكون كلا الطرفين غير مقيد برباط زواج سابق ، أو بنذر أنذره أن يظل بغير زواج ، وكان الزواج بمن لم يعمد محرما ؛ غير أنه وجدت مع ذلك حالات من الزواج بين المسيحيين واليهود(٣٠) . وكان الزواج بين الأرقاء بعضهم وبعض ، وبين الأرقاء والأحرار ، المستمسكين بالدين الصحيح والضالين ، وحتى بين المؤمنين والمحرومين ، كان الزواج بين هؤلاء يعد صحيحا(٣١) . ويجب ألا يكون بين الطرفين صلة تصل إلى الدرجة الرابعة من القرابة — أى أنه يجب ألا يكون لهما جد مشترك فى خلال أربعة أجيال ؛ وفى هذه المسألة كانت الكنيسة ترفض القانون الرومانى وتقبل القانون البدائى قانون الزواج من خارج العشيرة خشية أن يؤدى الزواج بين الأقارب الأدنين إلى الانحطاط الناشئ من التناسل داخل دائرة الأسرة ؛ ولعلها كانت تعمل بذلك على منع تركيز الثروة

نتيجة للروابط الأسرية الضيقة . وكان من الصعب تجنب هذا التزاوج الداخلى فى القرى الريفية ، فكان لابد للكنيسة أن تتغاضى عنه ، كما كانت تتغاضى عن كثير من الثغرات الأخرى بين الحقيقة والقانون .

ويجىء بعد حفلة الزواج موكب العرس — بموسيقاه المدوية وثيابه الحريرية الفاخرة — يسير من الكنيسة إلى منزل العريس ، وتعقبه الحفلات فى هذا البيت طول النهار كله ونصف الليل . ولا يصبح الزواج صحيحا حتى يتم اتصال الزوجين . وكان منع الحمل محرما ، ويرى أكويناس أنه جريمة لاتزيد عنها شناعة إلا جريمة القتل العمد[٣٢] ، بيد أن وسائل مختلفة بعضها آلية ، وبعضها كيميائية وبعضها سحرية . كانت تستخدم لهذا المنع . وكان أكثر ما يعتمد عليه هو وقف الجماع[٣٣] . وكانت العقاقير المجهضة ، أو المؤدية إلى العقم ، أو إلى العجز الجنسى ، أو إلى الشبق ، تباع مع الباغة المتنقلين . وكانت العقوبات التى وضعها ربانس مورس Rabanus Maurus للتكفير عن الآثام تقضى على « من تخلط منى زوجها بطعامها حتى تحسن قبول حبه ، بالندم على فعلتها ثلاثة أعوام »[٣٤] . وكان وأد الأطفال نادراً ، وقد أنشأت الكنيسة من أموال الصدقات فى القرن السادس وما بعده ملاجئ للقطاء فى عدة مدن ، ودعا مجلس عقد فى رون Rouen فى القرن الثامن النساء اللاتى ولدن أطفالا فى السر أن يودعنهم عند باب الكنيسة ، وأعلنت أنها ستكفلهن ، وكان أولئك الأيتام يربون ليكونوا أرقاء أرض يعملون فى أملاك الكنيسة . وقرر قانون أصدره شارلمان أن الأطفال الذين يعرضون للجو فى الخلاء يصبحون عبيداً لمن ينقذونهم ويربونهم . وأنشأ راهب من منبلييه حوالى عام ١١٩٠ جماعة إخوان الروح القدس التى تخصصت فى حماية اليتامى وتعليمهم .

وكان عقاب الزنا قاسيا ، مثال ذلك أن أقل ما كان يحكم به القانون السكسونى على الزوجة التى تخون زوجها هو جدع أنفها وصلم أذنيها ، وأجاز لزوجها أن يقتلها . ولكن الزنا كان منتشرا رغم هذه العقوبات الشديدة وأمثالها(٣٥) ؛ وكان أقل ما يكون انتشاراً بين الطبقات الوسطى ، وأكثر ما يكون بين الأشراف . فكان سادة الإقطاع يغوون رقيقات الأرض ولا يحكم عليهم إلا بغرامة قليلة : فمن « وطئ » بنتاً « من غير شكرها » أى رغم إرادتها — أدى للمحكمة ثلاثة شلنات(٣٦) ؛ ويقول فريمان Freeman إن القرن الحادى عشر « كان عصرا فاسقا » ، وكان يعجب من وفاء وليم الفاتح الظاهرى لزوجته(٣٧) وهو وفاء لا يستطيع أن يعزو مثله لأبيه ؛ ويقول تومس ريت Thomas Wright الأريب إن « مجتمع العصور الوسطى كان مجتمعا فاسد الأخلاق فاجراً »(٣٨) .

وكانت الكنيسة تجيز انفصال الزوجين بسبب الزنا . أو الارتداد عن الدين ، أو القسوة الشديدة ، وكان هذا الانفصال يسمى divortium ولكن معناه لم يكن إبطال الزواج ؛ أما هـذا الإبطال فلم يكن يمنح إلا إذا ثبت أن الزواج قد خالف أحد الموانع الشرعية التى نص عليها قانون الكنيسة . ويبعد أن تكون هذه الموانع قد ضوعف عددها عن قصد لكى يستعين على الطلاق من يستطيعون أداء الرسوم والنفقات الضخمة التى يتطلبها إبطال الزواج ، بل إن الكنيسة كانت تستخدم هذه الموانع استخداماً حكيما مرناً فى الظروف الاستثنائية التى يرجى أن يؤدى الطلاق فيها إلى وجود وارث إلى ملك لم ينجب أبناء ، أو يكون من ورائه فائدة أخرى للسلم أو السياسة . وكان القانون الألمانى يجيز الطلاق فى حالة الزنا ، بل كان يجيزه فى بعض الأحيان إذا اتفق عليه الطرفان(٣٩) . وكان

الملوك يفضلون قانون أسلافهم على قانون الكنيسة الصارم ؛ وكان سادة الإقطاع وسيداته يعودون إلى القوانين القديمة فيطلق بعضهم بعضاً من غير إذن الكنيسة ؛ ولم تبلغ الكنيسة فى سلطانها واستمساكها بمقتضيات الذمة والضمير درجة من القوة تمكنها من تنفيذ قراراتها إلا بعد أن رفض إنوسنت الثالث أن يوافق على طلب الطلاق الذى تقدم به إليه فايب أغسطس ملك فرنسا القوى :

الفصل الرابع

النســـاء

كانت نظريات رجال الكنيسة بوجه عام معادية للمرأة ؛ فقد تغالت بعض قوانين الكنيسة فى إخضاعها ؛ لكن كثيراً من مبادئ المسيحية وشعائرها رفعت من مكانتها . وكانت المرأة فى تلك القرون لا تزال فى نظر القساوسة وعلماء الدين كما كانت تبدو لكريسستوم — « شراً لا بدّ منه ، وإغواء طبيعيا ، وكارثة مرغوباً فيها ، وخطراً منزليا ، وفتنة مهلكة ، وشراً عليه طلاء »(٤٠) . وكانت لا تزال حواء مجسدة فى كل مكان ، حواء التى خسر بسببها الجنس البشرى جنات عدن ، وأداة الشيطان المحببة التى يقود بها الرجال إلى الجحيم . وكان تومس أكويناس ، وهو فى العادة رسول الرحمة ، يتحدث عنها كما يتحدث الرهبان ، فينزلها من بعض النواحى منزلة أقل من منزلة الرقيق :

إن المرأة خاضعة للرجل لضعف طبيعتها ، الجسمية والعقلية معاً (٤١)... والرجل مبدأ المرأة ومنتهاها ، كما أن الله مبدأ كل شيء ومنتهاه(٤٢) ... وقد فرض الخضوع على المرأة عملا بقانون الطبيعة ، أما العبد فليس كذلك(٤٣) ... ويجب على الأبناء أن يحبوا آباءهم أكثر مما يحبون أمهاتهم(٤٤) .

وأوجب قانون الكنيسة على الزوج حماية زوجته ، كما أوجب على الزوجة طاعة زوجها . وقد خلق الله الرجل لا المرأة ، فى صورته هو . ويعقب العالم بالقانون الكنسى على ذلك بقوله : « ويتضح من هذا أن الزوجة يجب أن تكون خاضعة لزوجها ، بل يجب أن تكون له أقرب ما تكون إلى الخادمة »(٤٥) . على أن فى هذه الفقرات نغمة الرغبات المرجوة لا الحقائق الواقعة . غير أن الكنيسة

كانت تحتم على الرجل ألا يتزوج بأكثر من واحدة ، وتصر على أن يكون القانون الأخلاقى ذا مستوى واحد للرجال والنساء على السواء ، وتكرم المرأة بعبادة مريم ، وتدافع عن حق المرأة فى وراثة الممتلكات .

وكان القانون المدنى أشد عداء للمرأة من القانون الكنسى . فقد كان كلا القانونين يجيز ضرب الزوجة(٤٦) ، ولما أن أمرت « قوانين بوفيه وعاداتها فى القرن الثالث عشر » الرجل ألا يضرب زوجته « إلا لسبب »(٤٧) كان ذلك خطوة كبرى إلى الأمام . وكان القانون المدنى ينص على ألا تسمع للنساء كلمة فى المحكمة « لضعفهن »(٤٨) ، ويعاقب على الإساءة للمرأة بغرامة تعادل نصف ما يفرضه على الرجل نظير هذه الإساءة نفسها(٤٩) . وقد حرم القانون النساء ، حتى أرقاهن مولداً ، من أن يُمَثِّلن ضياعهن فى برلمان إنجلترا أو فى الجمعية العامة للطبقات بفرنسا . وكان الزواج يعطى الزوج الحق الكامل فى الانتفاع بكل ما لزوجته من متاع وقت الزواج والتصرف فى ريعه(٥٠) . ولم يكن يرخص للمرأة أن تكون طبيبة .

وكان فى حياتها الاقتصادية من التنوع بقدر ما كان فى حياة الرجل . فكانت تتعلم وتباشر فنون البيت العجيبة المجهدة : تصنع الخبز والفطائر المتنوعة ، وتطهو اللحم ، وتصنع الصابون والشمع . والزبد والجبن ، وتعصر الجعة ، وتستخرج الأدوية البيتية من الأعشاب ، وتغزل الصوف وتنسجه ، وتنسج الأقمشة التيلية من الكتان ، وتخيط الملابس لأسرتها ، والسجف والملاءات ، وأغطية الأسرة ، والأنسجة التى تزين بها الجدران . وكان عليها أن تزين بيتها وتحتفظ به نظيفا إلى الحد الذى يسمح به من فيه من الرجال ، وأن تربى الأطفال . وكانت فى خارج الكوخ الزراعى تشترك بقوة وجلد فى أعمال المزرعة : تبذر ، وتزرع ، وتحصد ، وتطعم الفراخ الصغار ، وتحلب البقر ، وتجز الأغنام ، وتساعد على إصلاح البيت ونقشه وبنائه . وإذا كانت من سكان المدن ، كانت وهى فى

البيت أو فى الحانوت ، تقوم بغزل ما يلزم لنقابات المنسوجات الطائفية من غزل ونسيج . ولقد كانت شركة من « نساء الحرير » أول ما أنشأ فى إنجلترا فنون غزل الحرير وثنيه ونسجه(٥١) . وكان عدد النساء فى معظم نقابات الحرَف الإنجليزية مساوياً لعدد الرجال ، ويرجع معظم السبب فى هذا إلى أن الصناع كان يسمح لهم أن يستخدموا زوجاتهم وبناتهم ، ويسجلوا أسماءهن فى النقابات . وكانت بعض النقابات الطائفية المخصصة للصائغات من النساء تتألف من النساء وحدهن ، وكان فى باريس فى آخر القرن الثالث عشر خمس عشرة نقابة طائفية من هذا النوع(٥٢) . على أن النساء قلما كن رئيسات فى نقابات الحرف المكونة من الذكور والإناث ، وكن يتقاضين أجوراً أقل من أجور الرجال نظير الأعمال المتساوية . وكانت نساء الطبقات الوسطى يعرضن بملابسهن ثروة أزواجهن ، ويقمن بدور مثير فى الأعياد الدينية والحفلات الاجتماعية التى تقام فى البلدة . وقد ارتفعت نساء الأشراف الإقطاعيين ، باشتراكهن فى تحمل التبعات مع أزواجهن ، وتقبلهن فى ظرف وتمنع ما يقدمه الفرسان وشعراء الفروسية الغزلون من مراسم التبجيل والغرام ، ارتفعت أولئك النسوة إلى منزلة اجتماعية قلما ارتفعت إليها النساء من قبل .

وقد وجدت المرأة فى العصور الوسطى بفضل مفاتنها ، كما تجد عادة ، رغم أوامر الدين والقانون ، وسائل للتحرر من نتائج عجزها ؛ ولهذا فإن آداب ذلك العصر ملأى بأخبار النساء اللاتى حكمن رجالهن(٥٣) . ولقد كانت المرأة من وجوه كثيرة متفوقة على الرجل معترفاً لها بهذا التفوق ؛ فكانت فى أسر الأشراف تتعلم شيئاً من الأدب ، والفن ، والتهذيب ، بينما كان زوجها غير المتعلم يكدح ويحارب ؛ وكان فى وسعها أن تظهر بكل ما لصاحبات الندوات الأدبية فى القرن الثامن عشر من رشاقة ، وتتصنع الإغماء كما تصنعه البطلة فى روايات رتشردسن Richardson . وكانت فى الوقت نفسه تنافس الرجل فى حريته البذيئة فى القول والفعل ، وتتبادل

وإياه قصص المغامرات ، وكثيراً ما كانت هى البادئة فى الغرام دون حياء(٥٤) . وأياً كانت الطبقة التى تنتمى إليها فقد كانت تتنقل بكامل حريتها ، وقلما كان معها محرم . وكانت تزحم الأسواق وتسيطر على الاحتفالات ، وتصاحب الرجال فى الحج ، وتشترك فى الحروب الصليبية ؛ ولم يكن شأنها فيها للتسلية فحسب ، بل كانت فى بعض الأوقات جنديا فى عدة الحرب الكاملة . وكان الرهبان الخوارو العود يحاولون أن يقنعوا أنفسهم بأن منزلتها دون منزلة الرجال ؛ ولكن الفرسان كانوا يقتتلون لنيل رضاها والشعراء يقرُّون بأنهم عبيد لها . وكان الرجال يتحدثون عنها بوصفها خادماً مطيعاً ، ويحلمون بها على أنها إلهة معبودة . وكانوا يصلون لمريم العذراء ولكنهم يقنعون إذا حصلوا على إليانور الأكتانية Eleanor of Aquitine .

ولم تكن إليانور هذه إلا واحدة من عشرات النساء العظيمات فى العصور الوسطى — أمثال جلا بلاسيديا Galla Plaidedia ، وثيودورا ، وإيرينه Irene ، وأنا كمينا Anna Commena ، وماتلده كونتة تسكانيا ، وماتلده ملكة إنجلترا . وبلانش النبرية Blanche of Navarre ، وبلانش القشتالية ، وهلواز Héloïse ... وكان جد إليانور وليم العاشر الأكتانى ، أميراً وشاعراً ونصيراً للشعراء الغزلين وزعيما لهم . وكان يفد إلى بلاطه فى بوردو أحسن الفكهين والظرفاء وذوو الشهامة فى جنوبى فرنسا الغربى ؛ وقد تربّت إليانور فى هذا البلاط لتكون ملكة الحياة والآداب جميعاً . واتصفت بكل ما كان فى هذا الجو المشمس الحر من ثقافة وأخلاق : قوة فى الجسم ، ورشاقة فى الحركة ، وقوة فى العاطفة الخلقية والجسمية ، وحرية فى العقل والآداب والحديث ، وخيال شعرى ، وروح مشرقة ، وهيام لا حد له بالحب ، والحرب ، والملذات كلها ، يكاد يصل إلى الموت . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها (١١٣٧) عرض عليها ملك فرنسا أن يتزوجها ، لأنه كان يتوق إلى ضم دوقيتها أكتين ،

وثغرها العظيم بوردو إلى تاجه وموارده المالية . ولم تكن تعرف أن لويس السابع بليد ورع ، منهمك أشد الانهماك فى شئون الدولة . فانتقلت إليه بمرحها ، وجمالها ، وتحررها من مقتضيات الضمير ، فلم يعجبه إسرافها ، ولم يهتم بالشعراء الذين تبعوها إلى باريس ليجزوها على رعايتها إياهم بالمدائح والقوافى .

وكانت شديدة الشوق إلى المغامرات ، فاعتزمت أن تصحب زوجها إلى فلسطين فى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧) ؛ ولبست هى ووصيفاتها ملابس الرجال والحلل العسكرية ، وبعثن بمغازلهن فى ازدراء إلى الفرسان القاعدين فى أوطانهم ، وركبن فى مقدمة الجيش يلوحن بالأعلام الزاهية ومن ورائهن الشعراء الغزلون(٥٥) . وأهملها الملك أو لامها ، فسمحت لنفسها فى أنطاكية وغيرها من الأماكن ببعض مغامرات الحب ، فأشيع مرة أنها تحب عمها ريمند البنتييرى Raymond of Pontiers ، ومرة أخرى أنها تحب عبداً مسلماً جميلا ، وقال النمامون الجهلاء مرة ثالثة إنها تحب صلاح الدين التقى الورع نفسه(٥٦) . وصبر لويس على هذا العبث ، وعلى لسانها السليط ، ولكن القديس برنار شهر بها فى العالم . وظنت أن الملك سيطلقها ، فقاضته فى عام ١١٥٢ تطلب الطلاق منه بحجة أن نسبهما متصل فى الدرجة السادسة . وابتسمت الكنيسة ساخرة من هذه الحجة ، ولكنها منحت الطلاق ، وعادت إليانور إلى بوردو ، واستعادت حقها فى ملك أكتين ، وفيها التفت حولها طائفة كبيرة من الخاطبين ، اختارت منهم هنرى بلانتاجنت Henry Plantagenet ولى عهد إنجلترا ؛ وبعد سنتين من ذلك الوقت أصبح هنرى الثانى ، وعادت إليانور ملكة مرة أخرى (١١٥٤) — « ملكة إنجلترا بغضب الله » على حد قولها .

وجاءت إلى انجلترا بأذواق الجنوب ، وظلت فيها ، كما كانت فى فرنسا ، المشترعة العليا للشعراء القصاصين والغزلين ، ونصيرتهم ، ومعبودتهم . وكانت وقتئذ قد بلغت السن التى تمكنها من أن تكون وفية ، ولم يجد هنرى ما يشينها .

ولكن الآية انعكست ؛ فقد كان هنرى أصغر منها بإحدى عشرة سنة ولم يكن ينقص عنها فى حدة المزاج وقوة العاطفة ؛ وسرعان ما أخذ يشبع حبه بين نساء البلاط . واستشاطت إليانور غضباً واكتوى قلبها بنار الغيرة ، وهى التى كانت من قبل تحتقر الرجل الغيور . ولما أنزلها هنرى عن عرشها هربت من إنجلترا ، تريد أن تحتمى بأكتين ؛ فأمر بتعقبها ، وقبض عليها ، وزجت فى السجن ؛ وظلت ستة عشر عاماً يذبل غصنها فيه وإن لم يفلّ ذلك من قوة إرادتها . وأثار الشعراء الغزلون عواطف أوربا على الملك ، وائتمر به أبناؤه ، بإيعاز منها ، لخلعه ، ولكنه ظل يقاومهم ويحاربهم إلى يوم مماته (١١٨٩) . وخلف رتشرد قلب الأسد أباه ، وأخرج أمه من السجن ، وعينها نائبه للملك إنجلترا حين خرج لقتال صلاح الدين فى الحرب الصليبية ، ولما أصبح ابنها چون ملكا ، آوت إلى دير فى فرنسا ، حيث ماتت « من الحزن ، وضعف العقل » فى الثانية والسبعين من عمرها . لقد كانت إليانور « زوجة فاسدة ، وأماً فاسدة ، وملكة فاسدة »[٥٧] ؛ ولكن منذا الذى يفكر فيها على أنها من جنس خاضع ذليل ؟

الفصل الخامس

الأخلاق العامة

ما فتئت الشرائع والحِكَم الأخلاقية فى كل عصر من العصور تقاوم ما درج عليه الآدميون من غش وخيانة . ولم يكن الناس فى العصور الوسطى الطيِّب منهم والخبث أكثر أو أقل من غيرهم فى هذه الناحية ، فكانوا يكذبون على أبنائهم وأزواجهم ، وطوائفهم ، وأعدائهم ، وأصدقائهم ، وحكوماتهم ، وربهم . وكان الرجل فى العصور الوسطى مولعاً أشد الولع بتزوير الوثائق ، يزوّر الأناجيل غير الصحيحة ، ولعله لم يقصد فى يوم من الأيام أن تؤخذ على أنها أكثر من قصص طريفة ؛ ويزوّر الأوامر البابوية ليتخذها سلاحاً فى السياسة الدينية ؛ وكان الرهبان الأوفياء يزوّرون العهود ليكسبوا بها منحاً لأديرتهم من الملوك(٥٨) . ولقد زوّر لافرانك رئيس أساقفة كانتربرى ، كما تقول المحكمة البابوية ، عهداً يثبت به قِدم كرسيه الدينى(٥٩) ؛ وزوّر المدرسون عهوداً يخلعون بها على بعض الكليات فى كيمبردج أقدمية زائفة ، وكثيراً ما أفسدت « الأكاذيب التقية » النصوص ، واخترعت ألف معجزة تعظم بها أصحابها . وكانت الرشوة منتشرة فى التعليم ، والتجارة ، والحرب ، والدين ، والحكومة ، والقانون(٦٠) ؛ وكان تلاميذ المدارس يرسلون الفطائر لممتحنيهم(٦١) ، ورجال الحكم يقدمون الرشا ليعيَّنوا فى المناصب العامة ، ويجمعون من أصدقائهم ما يلزمهم من المال(٦٢) . وكان من المستطاع تقديم الرشا للشهود لكى يقسموا أى قسم يراد منهم ، كما كان المتقاضون يقدمون الهدايا إلى المحلفين والقضاة(٦٣) ؛ وقد اضطر إدورد ملك إنجلترا أن يفصل معظم قضاته ووزرائه فى عام ١٢٨٩ لأنهم مرتشون(٦٤)

وكانت القوانين تتطلب أن يقسم الناس الأيمان فى كل صغيرة وكبيرة ، فكانوا يقسمون على الكتب أو المخلفات المقدسة ؛ وكان يطلب إليهم فى بعض الأحيان أن يقسموا بألا ينقضوا القَسم الذى يوشكون أن يقسموه (٦٥) ؛ ومع هذا فإن الحنث بالأيمان قد كثر إلى حد جعل الناس يلجئون إلى تحكيم القتال رجاء أن يظهر الله أى الجانبين أكثر كذباً من الجانب الآخر (٦٦) .

وكثيراً ما كان أرباب الحرف فى العصور الوسطى يخدعون المشترين ببيعهم بضائع قديمة بالية ، أو منقوصة الطول ، أو يحتالون عليهم ببيعهم سلعاً غير المرغوب فيها . وكان بعض الخبازين يسرقون أجزاء صغيرة من العجين أمام أعين ملاكهم ، ويستخدمون لذلك الغرض باباً سرياً فى وعاء العجين ؛ وكانت أقمشة رخيصة توضع سراً فى مكان أقمشة غالية دفع ثمنها وتعهد البائعون بتوريدها ؛ وكان الجلد الرخيص « يزيَّن » لكى يبدو شبيهاً بأحسن أنواع الجلود (٦٧) ، وكانت الحجارة تخبأ فى أكياس الدريس والصوف التى تباع بالوزن (٦٨) ؛ واتهم الذين يعبئون اللحوم فى نورروتش Norwich بأنهم « يشترون الخنازير المصابة بالحصبة ، ويصنعون منها وزما وفطائر مضرة بالصحة » (٦٩) . ويصف برثلد الرچنسبرجى Berthold of Regenesburg (حوالى ١٢٢٠) مختلف أنواع الغش التى تستخدم فى الحرف المتباينة ، والحيل التى يحتال بها التجار فى الأسواق على أهل الريف (٧٠) . وكان الكتّاب والوّعاظ يندّدون بالجرى وراء الثروة ، ولكن حِكمة ألمانية من حِكم العصور الوسطى تقول : « إن كل الأشياء تطيع المال » ؛ وكان بعض الأخلاقيين فى تلك العصور يرون أن حب الكسب أقوى من الغريزة الجنسية (٧١) . ولسنا ننكر أن شرف الفروسية كثيراً ما كان من الحقائق الواقعة فى نظام الإقطاع ، ولكن يبدو أن القرن الثالث عشر لم يكن يقل ولعاً بالمادة عن أى عهد آخر من عهود التاريخ . تلك كلها أمثلة من الاحتيال والخداع جمعناها من أزمنة طويلة ومساحات واسعة ؛ وهى بلا ريب من الوقائع

الشاذة رغم كثرة عددها ؛ وليس من حقنا أن نستخلص منها نتيجة أكثر من أن الناس فى عصر الإيمان لم يكونوا خيراً منهم فى عصرنا هذا عصر الشك ، ومن أن القانون والأخلاق قلما أفلحا فى الاحتفاظ بالنظام العام ضد ما ركب من نزعة فردية فى طبيعة الناس الذين لم يقصد بهم بفطرتهم أن يكونوا مواطنين خاضعين للقانون .

وكانت معظم الدول تعاقب على جريمة السرقة الخطيرة بالإعدام ، كما كانت الكنيسة تحكم على مرتكبى السطو بالحرمان من الدين ؛ ومع هذا فإن السرقة بأنواعها — من النشل فى الطرق إلى الأشراف النهابين على ضفاف الرين — كانت من الجرائم الواسعة الانتشار . وكان مرتزقة الجنود الجياع ، والمجرمون الفارون والفرسان المفلسون ، يجعلون الطرق غير آمنة ؛ وكانت شوارع المدن تشهد فى ظلام الليل كثيراً من الشجار ، والسرقة ، والاغتصاب ، والاغتيال(٧٢) . وتدل سجلات أسباب الوفاة فى « إنجلترا الطروب » فى القرن الثالث عشر على « نسبة فى الاغتيال إذا حدثت فى هذه الأيام عُدّت من الفضائح »(٧٣) . ويكاد الاغتيال يبلغ ضعفى عدد حالات الموت بسبب الحوادث المفاجئة ، وقلما كان يقبض على المجرمين . وكانت الكنيسة تجاهد وهى صابرة للقضاء على حروب الإقطاع ، ولكن ما نالته من نصر متواضع فى هذه الناحية كان سببه أنها حولت الناس وخصامهم إلى الحروب الصليبية ، التى كانت من إحدى النواحى حروباً استعمارية تبغى الفتح والمكاسب التجارية ؛ فلما اشتبك المسيحيون فى الحرب لم يكونوا أكثر رضا بالهزائم أو أكثر وفاء بالعهود والمعاهدات من المحاربين المنتمين إلى الأديان والعهود الأخرى .

ويبدو أن القسوة والوحشية كانتا فى العصور الوسطى أكثر منهما فى أية حضارة قبل حضارتنا نحن . ذلك أن المتبربرين لم يتخلوا عن بربريتهم بمجرد أن صاروا مسيحيين . وكان رجال الأشراف ونساؤهم يصفعون خدمهم ويصفع

بعضهم بعضاً ؛ كما كان القانون الجنائى قاسياً قسوة وحشية ، ولكنه عجز مع ذلك عن قمع الوحشية والجريمة . فكثيراً ما كان التعذيب بالعذراء ، وبجفنة الزيت الملتهب ، وبعمود الإحراق ، وحرق الأحياء ، وسلخ جلودهم ، وتمزيق أطرافهم بشدها إلى الحيوانات ، كثيراً ما كانت هذه الوسائل الوحشية تستخدم فى العقاب . وكان القانون الأنجليسكسونى يعاقب الجارية السارقة بإرغام ثمانين جارية على أن تؤدى كل واحدة منهن غرامة ، وأن تأتى بثلاث حزم من الوقود وأن تحرق السارقة حية[٧٥] . ويقول سلمبينى Salimbene الراهب الإيطالى فى تاريخه الإخبارى ، وكان معاصراً للحروب التى شبت نارها فى إيطاليا الوسطى فى القرن الثالث عشر ، إن المسجونين كانـــوا يعاملون بوحشية لو أننا سمعنا بها فى شبابنا لما صدقناها :

فقد كانوا يربطون رءوس بعض الرجال بحبل ومخلة ، ويشدون الحبل بقوة تخرج عيونهم من أوقابها . وتسقطها على خدودهم ؛ ومنهم من كانوا يربطونهم بإبهام يدهم اليمنى أو اليسرى وحدها ، تحمل ثقلهم كله بعد أن يرفعوا عن الأرض . ومنهم من كانوا يعذبون بصنوف من العذاب أشنع من هذه وأشد منها رهبة أخجل من ذكرها ؛ وآخرون ... كانوا يجلسون وأيديهم مشدودة خلف ظهورهم . ويضعون تحت أقدامهم أوعية مملوءة بالفحم الملتهب . . . أو يربطون أيديهم بأرجلهم حول حفرة (كما يربط الحمل وهو ينقل إلى القصاب) ويبقونهم معلقين على هذا النحو طول النهار من غير ما طعام ولا شراب ؛ أو كانوا يحكون قصبات أرجلهم بقطعة خشنة من الخشب حتى يظهر عظم الساق عاريا من اللحم ، وهو عمل تكفى رؤيته وحدها لأن تبعث الأسى والألم فى النفوس[٧٦] .

وكان رجل العصور الوسطى يتحمل الألم بشجاعة ، ولعله كان أقل إحساساً به مما يبدو على رجال أوربا الغربية فى هذه الأيام . وكان الرجال والنساء من جميع الطبقات شهوانيين إلى حد بعيد ؛ وكانت أعيادهم ولائم شراب ، وميسر .

ورقص ، وانطلاق فى العلاقات الجنسية ؛ وكانت فكاهاتهم صريحة فى بذاءتها صراحة لاتكاد تماثلها فيها فكاهات هذه الأيام(٧٧) ؛ وكانت أحاديثهم أكثر من أحاديث هذه الأيام حرية وأوسع منها مجالا(٧٨) ؛ وقلما كان رجل فى فرنسا يفتح فاه من غير أن يذكر الشيطان ، على حد قول چوانفيل(٧٩) . وكان الناس فى العصور الوسطى أقدر على سماع الفحش منا ، ولم يكونوا يبرمون من الإصغاء إلى أفحش الأقوال التى وردت فى مقالات ربليه Rabelais ؛ وحسبنا أن نذكر أن الراهبات فى كتب تشوسر كن يستمعن دون حياء إلى الأقذار الواردة فى قصة ملر Miller's Tale ؛ وفى أخبار سلمبينى الصالح أجزاء تبلغ من البذاءة والفحش درجة تعز على الترجمة (٨٠) . وكانت الحانات كثيرة العدد ، وكان منها ما يقدم « فطائر » بالجعة على طراز هذه الأيام(٨١) . ولقد حاولت الكنيسة أن تغلق الحانات فى أيام الآحاد ، ولكنها لم تلق إلا قدراً ضئيلا من النجاح . وكان من حق جميع الطبقات أن تسكر فى بعض الأوقات ، وقد وجد زائر لمدينة لوبك Lübeck نساء من طبقة الأشراف فى حجرة الخمور يدمن الشرب من تحت أقنعتهن(٨٣) . وكان فى كولونى جمعية يلتقى أعضاؤها لشرب النبيذ مجتمعين وقد اتخذت شعاراً لها : « اشرب وأنت مرح » ولكنها كانت تفرض على أعضائها قواعد صارمة من الاعتدال فى السلوك والأدب فى الحديث .

وكان رجل العصور الوسطى كغيره من الرجال مزيجا بشريا كاملا من الشهوانية والغرام ،والذلة ،والأنانية ، والقسوة ، والرقة ،والصلاح ، والشره ؛ فقد كان أولئك الرجال والنساء ، الذين يشربون ويسبون بكل ما فيهم من قوة ، رحماء رحمة تمس شغاف القلوب ، يخرجون آلاف الصدقات . وكانت القطط والكلاب وقتئذ كما هى الآن حيوانات مدللة . وكانت الكلاب تدرب على قيادة المكفوفين(٨٥) ؛ وقد نمت فى قلوب الفرسان عاطفة الحب لخيلهم ، وصقور صيدهم ، وكلابهم . وبلغ تنظيم الصدقات مستوى رفيعاً

عشر والثالث عشر ، فكان الأفراد ، وكانت النقابات الطائفية ، والحكومات ، والكنيسة تشترك كلها فى تخفيف آلام المنكوبين . وكان إخراج الصدقات واجبا عاما يؤديه الجميع ؛ فالذين يرجون دخول الجنة يوصون بالأموال للصدقات ، والرجال الأغنياء يتبرعون بمهور البنات الفقيرات ، ويطعمون العشرات من الفقراء فى كل يوم ، والمئات منهم فى الأعياد الكبرى . وكان الطعام يوزع عند كثير من أبواب بيوت الأشراف ثلاث مرات فى الأسبوع على كل من يطلبه(٨٦) . وكانت كل سيدة عظيمة ، إلا القليل النادر منهن ، تحس أن واجبها الاجتماعى ، إن لم يكن واجبها الأخلاقى ، أن تشترك فى تدبير شئون الصدقات ؛ ولقد دعا روجر بيكن فى القرن الثالث عشر إلى أن تنشئ الدولة رصيداً للإنفاق منه على الفقراء ، والمرضى ، والطاعنين فى السن(٨٧) . ولكن القسط الأكبر من هذا العمل ترك تدبيره إلى الكنيسة ، فقد كانت الكنيسة من إحدى نواحيها مُنَظِّمة للصدقات تشمل القارة بأسرها ، وكان جريجورى الأكبر ، وشارلمان ، وغيرهم يحتمون أن يخصص ربع العشور التى تجبيها كل أبرشية لمعونة الفقراء والعجزة(٨٨) ؛ وقد نفذ هذا إلى حين ، ولكن استيلاء الرؤساء من رجال الدين والعلمانيين على إيرادات الأبرشيات ، أخل بإدارتها لمواردها فى القرن الثانى عشر ، وتحمل عبء هذه الصدقات أكثر من ذى قبل الأساقفة ، والرهبان ، والراهبات والبابوات . وكانت الراهبات كلهن ، إلا عددا قليلا من الخاطئات ، يهبن أنفسهن للتعليم ، والتمريض ، وأعمال البر ؛ وإن أعمالهن المطردة الاتساع فى هذه النواحى لتعد من أنصع الأعمال وأعظمها تقوية للعزائم فى تاريخ العصور الوسطى وتاريخ هذه الأيام . وكانت الأديرة التى تستمد مواردها من الهبات والصدقات ، وإيراد الأملاك الكنسية ، تطعم الفقراء ، وتعنى بالمرضى ، وتفتدى الأسرى ؛ وكان آلاف من الرهبان يعلمون الشبان ، ويعنون بالأيتام ، ويعملون فى المستشفيات ؛ وكان دير كلونى العظيم يكفر عما له من ثراء واسع بالتصدق بالكثير من أمواله ؛

وكان البابوات يبذلون كل ما فى وسعهم لمساعدة فقراء رومة ، وواصلوا بطريقتهم الخاصة النظام الإمبراطورى القديم نظام توزيع الطعام على الأهلين.

ولكن التسول كان كثيراً بالرغم من هذا البر كله ؛ فقد كانت المستشفيات وبيوت الإحسان تحاول إطعام كل من يقصدها وإيواءهم ؛ وسرعان ما أحاط أبوابَها العُرج ، والمقعـــدون ، والمقطوعو السيقان ، والمكفوفون ، والأفاقون ذوو الثياب البالية الذين يتنقلون من « مستشفى إلى مستشفى ويجوسون خلالها يتصيدون لقيمات الخبز وقطع اللحم » (٨٩) . وقد اتسع نطاق التسول فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى وزاد المتسولون إصراراً على مهنتهم ، وبلغ هذا الاتساع والإصرار حداً لا نظير له فى أفقر الأراضى فى الشرق الأقصى .

الفصل السادس

ملابس العصور الوسطى

تُرى أى صنف من الناس كان سكان أوربا فى العصور الوسطى ؟ ليس فى وسعنا أن نقسمهم عناصر ، فقد كانوا جميعاً من « العنصر الأبيض » إذا استثنينا منهم العبيد الزنوج ، ولكنهم كانوا مع هذا خليطا متنوعاً من الخَلْق لا يستطيع أحد تصنيفهم . كان منهم يونان بيزنطية وهلاس ؛ والإيطاليون أنصاف اليونان سكان إيطاليا الجنوبية ، وسكان صقلية اليونان — المغاربة — اليهود ؛ وكان منهم أهل إيطاليا الرومان ، والأمبريون ، والتسكان ، واللمبارد ، والجنويون ، والبنادقة ؛ وقد بلغ من تباين هؤلاء أن كانت كل طائفة منهم تنم عن أصلها بثيابها ، وشعر رأسها ، ولسانها ؛ وكان منهم البربر ، والعرب ، واليهود ، ومسيحيو أسپانيا ، وكان منهم الفرنسيون الغسقونيون ، والبرغنديون ، والباريسيون ، والنورمان ؛ ومنهم أهل الأراضى الوطيئة الفلمنكيون ، والوالون Walloons ، والهولنديون ؛ ومنهم أهل إنجلترا الكلت ، والإنجليز . والسكسون ، والدنمرقيون والسلالات النورمانية ؛ وكلت ويلز ، وأيرلندة ، واسكتلندة ، والنرويجيون ، والسويديون ، والدنمرقيون ؛ ومنهم مئات القبائل الألمانية ؛ والفنلنديون ، والمجر والبلغار ؛ وصقالبة پولندة ، وبوهيميا ؛ والدول البلطية ، والبلقان ، والروسيا . وقصارى القول أن أوربا قد تجمع فيها خليط من الدماء والأجناس . والأنوف ، واللحى ، والثياب ، لا ينطبق على تباينه العظيم أى وصف من الأوصاف .

وكان الجنس الألمانى قد أصبحت له الغلبة فى الطبقات العليا فى جميع بلاد أوربا الغربية ما عدا جنوبى إيطاليا وأسپانيا ، وذلك بسبب الهجرات والفتوح

التى لا يحصى عديدها . وقد بلغ الإعجاب بشَعر الجنس الأشقر وعيونه مبلغاً اضطر القديس برنار أن يجاهد طوال موعظة كاملة لكى يوفق بين هذا الإعجاب وبين العبارة الوارة فى نشيد الإنشاد القائلة : إنى أسود ولكن جميل ؛ وكان الفارس المثالى طويلا ، أشقر ، ملتحياً ؛ كما كانت المرأة المثالية فى الملاحم والروايات نحيلة ممشوقة القوام ، رشيقة ، زرقاء العينين ، ذات شَعر طويل أشقر أو ذهبى . وقد حل محل شَعر الفرنجة الطويل عند الطبقات العليا فى القرن التاسع رءوس مقصوصة الشعر من الخلف ، وليس عليها من الشعر إلا غطاء فى أعلاها . واختفت اللحى بين الطبقات العليا من الأوربيين فى القرن الثانى عشر ؛ غير أن الذكور من الزرّاع ظلوا يطيلون لحاهم القذرة وشعر رأسهم إلى حد اضطروا معه أحياناً إلى جمعه فى جدائل[٩٠] . وكان أهل إنجلترا على اختلاف طبقاتها يطيلون شعر رأسهم ، وكان المتأنقون الفناجرة فى القرن الثالث عشر يصبغون شعرهم ويلوُونه بمكاوٍ من الحديد ، ويربطونه بالأشرطة[٩١] . وكانت النساء المتزوجات فى هذا القرن وذاك البلد يربطن شعرهن بشبكة من الخيوط الذهبية ، بينا كان الغلمان من الطبقات العليا يرسلونه على ظهورهم ، وكانت لهم فى بعض الأحيان بالإضافة إلى هذا ، جديلتان تنوسان على صدورهم منحدرتان فوق أكتافهم[٩٢] .

وكان أهل أوربا الغربية فى العصور الوسطى أكثر وأجمل ثياباً مما كانوا قبل ذلك الوقت أو بعده ؛ وكثيراً ما كان الرجال يفوقون النساء فى زينة الثياب وبهجة ألوانها . وكانت الجبة والعَباءة الرومانيتان الفضفاضتان فى القرن الخامس عشر تحاربان حرباً خاسرة مع السراويل القصيرة والمناطق التى كان الغاليون يلبسونها ويتمنطقون بها ؛ فقد كان جو الشمال الحار وأعماله الحربية يتطلبان ثياباً أضيق وأسمك مما أوحى به دفء الجنوب وما فيه من راحة ؛ ولما انتقل مركز القوة إلى شمال جبال الألب أعقب ذلك الانتقال ثورة فى الثياب . فكان الرجل العادى يلبس سروالا طويلا ضيقا يعلوه قباء ، أو قميص نصفى ، مصنوعان من

الجلد أو القماش المتين ، ويعلق فى منطقته سكينا ، وكيسا ، ومفاتيح ، وعدد الصانع إن كان من الصناع ؛ وكان يرسل فوق كتفيه لفاعة أو حرملة ، ويضع على رأسه قلنسوة أو قبعة من الصوف ، أو اللباد أو الجلد ؛ ويغطى رجليه بجوربين طويلين ، وينتعل حذاءين عاليين من الجلد ينحنيان إلى أعلى عند أصابع القدمين ، كيلا يتمزقا من الاصطدام . وازداد طول الجورب قرب أواخر العصور الوسطى حتى بلغ أعلى الفخذ ، وتطور منه السروال غير المريح الذى استبدله الرجل الحديث بقميص الشعر ثوب القديسين فى العصور الوسطى ، كأن هذا السروال كفارة غير منقطعة عن ذنوبه الماضية . وكانت أجزاء الثياب كلها تقريباً من الصوف إلا القليل منها المصنوع من الجلد المدبوغ وغير المدبوغ الذى كان يلبسه الفلاحون أو الصائدون ؛ وكانت كلها تقريباً تغزل وتنسج وتفصل وتخاط فى البيت ؛ ولكن الأغنياء كان لهم خياطون خاصون يسمون فى إنجلترا « المقصات » ، واستغنى قبل القرن التاسع عشر عن الأزرار التى كانت تستعمل من حين إلى حين فى العهد القديم ، ثم عادت إلى الظهور لتكون زينة لا ينتفع بها فى شىء ؛ ومن هنا جاءت عبارة « لا يساوى زرا Not worth a button » الإنجليزية(٩٣) . ونشأت فى ألمانيا فى القرن الثانى عشر بين الرجال والنساء على السواء عادة لبس جلباب ذى حزام فوق الحلة الألمانية الضيقة .

وكان الأغنياء يزينون هذه الأثواب الأساسية بمائة من الوسائل التى تفتق عنها خيالهم . فكانت حواشيها وأطرافها اللاصقة للعنق تسوى بالفراء ؛ وحل الحرير ، أو الأطلس ، أو المخمل محل التيل أو الصوف حيث يسمح بذلك الجو ؛ وغطى الرأس بقلنسوة من المخمل ، وانتُعِلت أحذية من القماش الملون تنطبق كل الانطباق على شكل القدمين . وكانت أجمل الفراء تستورد من الروسيا ؛ وأحسنها كلها الفراء الثمينة المتخذة من جلد القاقم الأبيض ؛ وكان يحدث أن يرهن الأشراف أرضهم ليبتاعوا جلد قاقم لزوجاتهم . وكان الأغنياء يلبسون سراويل

تحتية من التيل الأبيض الرفيع ، وجورباً طويلا ملوناً فى أغلب الأحيان ، ومصنوعا عادة من الصوف ، وفى بعض الأحيان من الحرير ؛ وقميصاً من التيل الأبيض ، ذا طوق فاخر وردن جميل ؛ وكان يلبس فوق هذا كله مئزراً ، ومن فوقها كلها فى الجو البارد أو المطير عباءة ، أو حرملة ، يمكن أن تمد حتى تغطى الرأس . وكانت بعض القلانس ذات قمة مستوية مربعة ؛ وقد اصطنع هذه القلانس المعروفة باسم « ألواح الملاط mortiers » المحامون والأطباء فى أواخر العصور الوسطى ، وبقيت الآن فى أثواب كبار رجال الكليات الجامعية . وكان المتأنقون فى الثياب يلبسون قفازين فى كل الجواء و« يكنسون الأرض المتربة بأذيال مآزرهم وجلابيبهم الطويلة » كما يقول الراهب أردركس ڤيتالس Ardericus Vitalis شاكيامتحسرا(٩٤) .

ولم يكن الرجال يزينون بالحلى أجسامهم وحدها ، بل كانوا يزينون بها أيضا ثيابهم — قلانسهم ، ومآزرهم ، وأحذيتهم . وكانت بعض الأردية تطرز عليها باللؤلؤ نصوص مقدسة أو عبارات بذيئة(٩٥) ؛ وأخرى تزين أطرافها بمخرمات منسوجة من خيوط الذهب أو الفضة ؛ ومنهم من كان يلبس ثيابا من خيوط الذهب . وكان على الملوك أن يميزوا أنفسهم بزينة أكثر من هذه كلها ؛ فكان إدورد المعترف يلبس مئزرا مزركشا بالذهب من صنع زوجته المهذبة إدجيثا Edgitha ، وكان شارل الجسور Charles the Bold صاحب برغندية يلبس مئزرا فخما مطعما بالحجارة الكريمة ومثقلا بها يقدر ثمنه بمائتى ألف دوقة (نحو ٠٠٠ر٠٨٢ر١ دولار) . وكان الناس كلهم عدا الفقراء منهم يتختمون ، وكان لكل إنسان ذى شأن ولو ضئيل خاتم منقوش عليه رمزه الخاص ، وكانت أية علامة بهذا الخاتم تقبل على أنها توقيعه هو نفسه .

وكانت الملابس تعد دليلا على منزلة الإنسان أو ثرائه ، وكانت كل طبقة تحتج إذا قلدت أثوابها الطبقة التى دونها ، وقد سنت القوانين المالية — كما حدث

فى فرنسا فى سنتى ١١٤٩ و١٣٠٦ — لتنظم ما ينفقه الناس على ملابسهم حسب ثرواتهم وطبقاتهم . وكانت حاشية السيد العظيم ، أو جماعة الفرسان التابعين له ، تلبس فى المناسبات والأعمال الرسمية أثوابا يهديها هو إلى أفرادها مصبوغة باللون المحبب له أو الذى يميزه عن غيره ؛ وكانت هذه الحلل الخاصة تسمى بالفرنسية livrée (وبالإنجليزية livery) (ومعناها الموزّعة) لأن السيد الكبير كان يوزعها (deliver) مرتين فى العام . على أن الأثواب الجيدة فى العصور الوسطى كانت تعمل لتبقى مدى الحياة ، ومنها ما كان يعنى أصحابه بالنص على من تؤول إليه فى وصيته .

وكانت نساء الطبقات العليا يلبسن قميصاً طويلا من التيل ، ومن فوقه جلباب أو مئزر ذو حواش من الفراء يصل إلى القدمين ويعلوه قميص نصفى يبقى منفرج الطرفين إذا لم يكن فى الدار غرباء ، ولكنه يربط طرفاه إذا جاء البيت زوّار ؛ وذلك لأن جميع النساء المتأنقات يتقن إلى أن يظهرن نحيلات القوام . وقد يتمنطقن بمناطق مرصعة بالجواهر ، ويمسكن بكيس من الحرير ، ويلبسن بأيديهن قفازاً من جلد الشاموا . وكثيراً ما كن يضعن الأزهار فى شعرهن ، أو يربطنه بخيوط من الحرير ذات الجواهر . وكانت بعض السيدات يثرن غضب رجال الدين ، وغضب أزواجهن بلا ريب ، بأن يلبسن قبعات طويلة مخروطية مزدانة بقرنين ؛ وقد جاء على النساء حين من الدهر كانت فيه المرأة غير ذات القرنين هدفاً لسخرية الساخرين(٩٦) . وأصبحت الكعاب العالية فى أواخر العصور الوسطى هى الطراز المحبب ؛ وكان الناقدون الأخلاقيون يشكون من أن النساء كثيراً ما يرفعن أطراف أثوابهن بوصة أو بوصتين ليظهرن أرساغهن وأحذيتهن الظريفة ؛ أما سيقان النساء فلم يكن يبصرها إلا الأخصاء ، وكانت رؤيتها غالية الثمن . وقد ندد دانتى بنساء فلورنس لظهورهن علناً فى ثياب « تكشف عن صدورهن وأثدائهن »(٩٧) . وكانت ثياب النساء فى حفلات

البرجاس موضعاً للتعليقات المثيرة من رجال الدين ؛ وقد وضع الكرادلة قوانين يحددون بها طول أثواب النساء ؛ ولما أمر رجال الدين أن تلبس النساء النقاب حرصاً على أخلاقهن « جعلن هذا النقاب يصنع من الموصلين الرقيق والحرير المشغول بالذهب ، فظهرن فيه أجمل عشرات المرات مما كن بغيره ، واستلفتن عيون النظارة وأغرينهم بالفساد أكثر من ذى قبل »(٩٨) ؛ وكان جويو البروڤنسى Guyot of Provins يشكو من أن النساء يستخدمن المساحيق على وجوههن بكثرة لم يبق معها من هذه المساحيق شىء تلوّن به الصور والتماثيل فى الكنائس ، وأنذرهن بقوله إنهن حين يلبسن الشَّعر المستعار ، أو يضعن الكمادات أو مسحوق الفول ولبن الخيل على وجوههن لتجميلها ، إنما يُضفن بذلك مئات السنين لمقامهن فى الأعراف(٩٩) . وقد عنّف برثلد الرچنسبرجى Berthold of Regenesburg حوالى ١٢٢٠ النساء بفصاحة ماكان أضيعها :

أيتها النساء ، إنكن ذوات حنان عظيم ، وإنكن لأسرع فى الذهاب إلى الكنيسة من الرجال . . . ومنكن من سينجون لولا شرك واحد تقعن فيه : . . . ذلك أنكن تردن أن تنلن إعجاب الرجال فتصرفن جهودكن كلها فى زينة ثيابكن . . . والكثيرات منكن يؤدين للخياطة أجراً لا يقل عن ثمن الثوب نفسه ؛ فالثوب يجب أن يكون له وقايتان على الكتفين ، ويجب أن يثنى وتكون له أهداب حول أطرافه كلها ؛ وأنتن لا تكتفين بإظهار فخركن فى عُرَى أزراركن نفسها ، بل إنكن فوق هذا ترسلن أقدامكن إلى الجحيم بما تحملنها من أنواع العذاب الخاصة بها . . . وأنتن تشغلن أنفسكن ببراقعكن ! وتحولنها تارة إلى هذه الناحية وتارة أخرى إلى تلك ، وتطرزنها فى مواضع مختلفة بخيوط الذهب ، وتصرفن فيها كل جهودكن ، فتقضى إحداكن ستة أشهر كاملة فى صنع نقاب واحد ، وهو عمل آثم لا تبتغى به أكثر من أن يثنى الرجال على ثيابها فيقولون : « ربّاه ! ما أجمله ! هل وُجد من قبل ثوب يضارعه فى الجمال ؟ » . أما هن

فيقلن : « أيها الأخ برثلد ، إنا لا نفعل هذا إلا إكراما للرجل الصالح ، حتى تقل نظراته إلى غيرنا من النساء » . لا ، يا سيدتى ، صدقينى ؛ لو أن رَجُلك الصالح صالح بحق ، لفضل أن يستمع إلى حديثك الطاهر عن النظر إلى زينتك الخارجية . . . إن فى وسعكم أيها الرجال أن تقضوا على هذا ، وتكافحوه بقوة ؛ بالقول الحسن أوّلا ، فإذا أصررن على عنادهن ، فأقدموا بشجاعة . . . وانتزعوه من فوق رءوسهن ، ولو اقتلعت معه أربع شعرات أو عشر ، وألقوه فى النار ! ولا تفعلوا هذا مرتين أو أربع مرات فحسب ؛ وسترون أنهن سرعان ما يرجعن عن غيهن(١٠٠) ؛

وكانت النساء فى بعض الأحيان يتأثرن بهـذا الوعظ ، وحدث قبل أيام سفنرولا Savonarola بمائتى عام أن ألقين براقعهن وحليهن فى النار(١٠١) . ولكن أمثال هذه الثوبة كانت لحسن الحظ نادرة وقصيرة الأجل ؛

الفصل السابع

فى المنزل

لم يكن منزل العصور الوسطى مريحاً كثيراً ؛ فقد كانت نوافذه قليلة ، وقلما كان بها ألواح زجاجية ؛ وكانت المصاريع الخشبية تغلقها لتمنع البرد ووهج الشمس . وكان موقد يدفئ المنزل أو أكثر من موقد ، وكانت التيارات الهوائية تدخله من مئات الثقوب التى فى الجدران ، وتجعل المقاعد ذات الظهور العالية نعمة كبرى . وكان من عادة سكانها أن يلبسوا فى الشتاء قبعات وفراء مدفئة فى داخل المنزل نفسه . وكان الأثاث قليلا ولكنه جيد الصنع ، والكراسى أيضاً قليلة . وكانت فى العادة غير ذات ظهور ، ولكنها كانت فى بعض الأحيان محفورة حفراً جميلا ، ومنقوشاً عليها شارات أصحابها المميزة ، ومطعمة بالحجارة الكريمة . وكانت معظم المقاعد تحفر فى أبنية الجدران أو تبنى فوق صناديق فى مظلات البساتين . وكانت الطنافس نادرة الاستعمال قبل القرن الثالث عشر ، ولكن إيطاليا وأسبانيا كانتا تستعملانها ؛ ولما انتقلت إليانور القشتالية إلى إنجلترا فى عام ١٢٥٤ للزواج من إدورد الأول غطى خدمها أرض جناحها فى وستمنستر بطنافس كما يفعل أهل أسبانيا — ومن ثم انتشرت هذه العادة فى إنجلترا . أما أرض البيوت العادية فكانت تنثر عليها الأعشاب أو القش ، فكانت بعض البيوت لهذا السبب كريهة الرائحة إلى حد يأبى معه قس الأبرشية أن يزورها . وكانت أنسجة مزركشة تغطى بعض الجدران ، لتزينها وتمنع عنها تيارات الهواء ، ولتقسم بهو المنزل الكبير إلى حجرات صغيرة . وظلت بيوت إيطاليا وپروڤانس تحتفظ بذكريات الترف الرومانى ، فكانت لذلك أوفر راحة وأكثر مراعاة

لشروط الصحة من بيوت شمال أوربا . وكانت بيوت الطبقات الوسطى فى ألمانيا تحصل على ما يلزمها من الماء من مضخات مركبة على آبار توصل الماء إلى المطبخ(١٠٢) .

ولم تكن النظافة فى العصور الوسطى من الإيمان ؛ وكانت المسيحية الأولى قد نددت بالحمامات وقالت إنها بؤر للفساد والفسق ، وكان تحقيرها للجسم بوجه عام مما جعلها تهمل العناية بقواعد الصحة . ولم يكن استعمال المنديل على الطريقة الحديثة معروفاً فى ذلك الوقت(١٠٣) ؛ وكانت النظافة تتبع الثروة وتختلف باختلاف دخل الأفراد ؛ فكان السيد الإقطاعى ، ورجل الطبقة الوسطى المثرى ، يستحمان مرات معقولة فى أحواض خشبية كبيرة ، ولما انتشر الثراء فى القرن الثانى عشر انتشرت معه نظافة الجسم ؛ وكانت مدن كثيرة فى ألمانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا فى القرن الثالث عشر تحتوى حمامات ؛ ويقول أحد الكتّاب إن أهل باريس كانوا يستحمون فى عام ١٢٩٢ أكثر مما يستحمون فى القرن العشرين(١٠٤) ، وكان من نتائج الحروب الصليبية إدخال حمامات البخار العامة من بلاد الإسلام إلى أوربا(١٠٥) ؛ وكانت الكنيسة تعارض وجود الحمامات العامة بحجة أنها تفسد الأخلاق ؛ وكان لهذه المخاوف ما يبررها فى كثير من تلك الحمامات ؛ وكان فى بعض البلدان حمامات معدنية عامة .

وكان بالأديرة ، وقصور سادة الإقطاع ، وبيوت الأغنياء ، مراحيض تفرغ محتوياتها فى بالوعات ، ولكن سكان معظم البيوت كانوا يقضون حاجتهم فى مراحيض خارج البيت ، وكان المرحاض الخارجى الواحد فى كثير من الحالات يفى بحاجة اثنى عشر منزلا(١٠٦) . وكانت الأنابيب التى تنقل الفضلات من ضروب الإصلاح التى أدخلت إلى إنجلترا فى عهد إدورد الأول (١٢٧١ — ١٣٠٧) وكانت أوعية حجرات النوم فى بيوت باريس فى القرن الثالث عشر تفرغ من النوافذ فى شوارع المدينة ، ولا يصحب هذا العمل إلا تحذير للمارة :

احذروا الماء ! Gar l'eau — وظلت هذه الحوادث المفاجئة السيئة يتكرر ذكرها فى المسالى إلى أيام موليير . وكانت المراحيض العامة ترفاً نادر الوجود ؛ وقد وجد بعضها فى سان جمنيانو San Gimignano عام ١٢٥٥ ، ولكن فلورنس لم يكن فيها وقتئذ شيء منها(١٠٧) ، فكان الناس يقضون حاجتهم فى فناء المنزل ، وعلى درج السلم ، وفى الشرفات ؛ وكان ذلك يحدث فى قصر اللوفر نفسه . وقد صدر مرسوم بعد وباء ١٥٣١ يحتم على أصحاب البيوت فى باريس أن ينشئوا مرحاضاً فى كل بيت ، ولكن هذا الأمر كثيراً ما كان يخالف(١٠٨) .

وكان أفراد الطبقات العليا والوسطى يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده ، لأنهم كانوا يتناولون معظم الطعام بأصابعهم ؛ ولم تكن هناك إلا وجبتان منتظمتان فى اليوم ، إحداهما فى الساعة العاشرة صباحا ، والأخرى فى الرابعة مساء ؛ غير أن كلتا الوجبتين قد تدوم عدة ساعات ؛ وكان موعد الوجبة فى البيوت الكبيرة يعلن بالنفخ فى بوق الصيد . وقد تكون مائدة الطعام ألواحاً خشنة تقام على قوائم من الخشب ، وقد تكون أحيانا خوانا عظيما متين الصنع من الخشب الثمين المحفور حفراً يدعو إلى الإعجاب ، وكان من حولها مقاعد أو دكك ، والدكة تسمى بالفرنسية banc ومنها اشتق لفظ banquet للوليمة . وكانت فى بعض البيوت الفرنسية آلات عجيبة ترفع مائدة كاملة الإعداد من طبقة سفلى أو تنزلها من طبقة عليا ، ثم تزيلها من فورها حين يفرغ الجالسون من تناول الطعام(١٠٨) ، وكان الخدم يحملون أباريق الماء لكل طاعم يغسل فيها يديه ويجففهما فى قطائل يأخذها أولئك الخدم ، ولم تكن هذه القطائل تستخدم فى القرن الثالث عشر ، ولكن الطاعمين كانوا يجففون أيديهم فى غطاء المائدة(١١٠) . وكان الطاعمون يجلسون أزواجا ، كل زوج مكون من رجل وامرأة ، وكان كل اثنين يأكلان عادة من صفحة واحدة ، ويشربان من كوب واحد(١١١) . وكان كل فرد يعطى ملعقة ؛ وكانت الشوك معروفة فى القرن الثالث عشر ، ولكنها قلما كانت تقدم

للطاعمين ؛ وكان الآكل يستخدم سكينه الخاصة . وكانت الأكواب ، وأطباقها ، والصحاف تصنع عادة من الخشب(١١٢) ، ولكن سادة الإقطاع والأغنياء من الطبقة الوسطى كانت لهم صحاف من الخزف أو من مزيج القصدير والرصاص . ومنهم من كان يضع على المائدة أدوات من الفضة . بل إنها كانت تتخللها آنية من الذهب فى بعض الأحيان(١١٣) . وقد تضاف إلى هذه الآنية صحاف من الزجاج ، وصفحة أخرى كبيرة من الفضة فى صورة سفينة . تحتوى أنواعا من التوابل ، وسكين صاحب الدار وملعقته . وكان كل اثنين من الآكلين يعطيان قطعة كبيرة من الخبز . مستوية ، ومستديرة ، وسميكة . يضع عليها كل واحد اللحم والخبز يأخذهما بأصابعه من الصحفة العامة التى يدار بها عليه . وكان الطاعم يأكل هذه القطعة بعد نهاية الطعام أو تعطى إلى الكلاب والقطط التى يغص بها المكان ، أو ترسل إلى الفقراء من الجيران . وكانت الوجبة العظيمة تختتم بالتوابل والحلوى ، ثم بالنبيذ .

وكان الطعام موفوراً . أو متنوعا ، وحسن الإعداد ، إلا أن انعدام وسائل التبريد سرعان ما كان يفسد اللحم ، ويعلى من شأن التوابل التى يستطاع بها حفظه أو إخفاء تلفه . وكانت بعض هذه التوابل تستورد من بلاد الشرق ولكن غلو ثمنها كان يجعل الناس يزرعون غيرها فى حدائق البيوت — ومن هذه البقدونس ، والخردل ، والقصعين ، واليانسون ، والثوم ، والشبت . . . وكانت كتب الطهو كثيرة ومعقدة ؛ وكان الطاهى فى المنزل العظيم رجلا عظيم الشأن يحمل على كتفيه كرامة البيت وسمعته . وكانت لديه طائفة كبيرة من الأوعية النحاسية ، وآنية الغلى ؛ والقدور ؛ وكان يفخر بما يقدمه من الأصناف التى تسر العين وتلذ الفم . وكان اللحم ، والدجاج ، والبيض رخيصا(١١٤) ، وإن كان ثمنها مع ذلك يضطر الفقراء إلى الاقتصار على الخضر وهم كارهون(١١٥) . وكان الفلاحون يطعمون الخبز الأسمر الخشن المصنوع من دقيق الشعير ، والشوفان ،

أو الشيلم كاملا ، يخبز فى البيت ؛ أما سكان المدن فكانوا يفضلون الخبز الأبيض — يصنعه الخبازون — يظهرون بذلك علوهم عن أهل الريف . ولم تكن هناك بطاطس ، أو بن ، أو شاى ؛ ولكن اللحوم والخضر التى تؤكل الآن فى أوربا — ومنها ثعابين الماء ، والضفادع ، وحيوانات القواقع البحرية — كانت كلها تقريبا مما يطعمه رجل العصور الوسطى(١١٦) . وقبل أن يحل عهد شارلمان كان الأوربيون قد أتموا ، أو كادوا يتمون ، أقلمة الفواكه وأنواع النقل الأسيوية ؛ غير أن البرتقال كان لا يزال نادراً فى القرن الثالث عشر فى شمال جبال الألب والبرانس . وكان أكثر اللحوم انتشاراً هو لحم الخنزير ؛ فقد كانت الخنازير تقتات بالفضلات التى تلقى فى الشوارع ، ثم يأكل الناس الخنازير . وكان من الاعتقادات الشائعة أن لحم الخنزير يسبب الإصابة بالجذام ، ولكن هذا الاعتقاد لم يقلل من رغبة الناس فيه ، وكان الوزم والفصيد(*) من الأطعمة المحببة فى العصور الوسطى ؛ وكان المضيف من العظماء يضع على المائدة فى بعض الأحيان خنزيراً كاملا ، ويقطعه أمام ضيوفه ؛ وكان هذا يعد من الأطعمة الشهية التى لا تقل فى ذلك عن لحوم الحجل ، والسمان ، والدج ، والطاووس ، والكركى . وكان السمك من الأطعمة الأساسية ، والرنكة من الأطعمة التى يعمد إليها الجنود ، والبحارة ، والفقراء ؛ أما منتجات الألبان فكان استعمالها أقل منه فى هذه الأيام ، ولكن جُبن برى Brie اشتهر منذ ذلك الوقت البعيد(١١٧) . ولم تكن أنواع السلطة قد عرفت ؛ وكانت الحلوى نادرة . وكان السكر لا يزال يستورد من الخارج ، ولم يكن قد حل بعد محل عسل النحل فى التحلية ؛ وكانت الحلوى بعد الطعام هى الفاكهة والنقل ، وكانت الفطائر لا حصر لأنواعها ؛ يشكلها الخبازون هى والكعك بألطف ما يتصوره الخيال من أشكال ولا يلومهم على هذا أحد رجلا كان أو امرأة(١١٨) . وقد يبدو من الأمور الغريبة التى

(*) دم يوضع فى معى ويشوى . (المترجم)

لا يصدقها العقل أنهم لم يكونوا يدخنون بعد الطعام ، وكان الرجال والنساء يستبدلون بهذا شرب الخمر .

وإذ كان الماء غير المغلى مما لا تؤمن عاقبته فقد كانت جميع الطبقات تجد فى الجعة والنبيذ بديلا منه ، ولهذا كان من الأسماء النادرة اسما Drinkwater و Boileau « اشرب الماء » وفى هذا دليل على عدم الميل إلى شربه . وكان من أنواع الخمور خمر التفاح والكمثرى ، وكانا من المسكرات الرخيصة التى يتناولها الفلاحون . وكان السُّكْر من الرذائل المحببة للرجال والنساء فى العصور الوسطى ، وكانت الحانات يخطئها الحصر ، والجعة رخيصة الثمن ، فكانت هى شراب الفقراء المعتاد يتناولونه فى جميع الأوقات حتى فى الفطور . وكان يسمح للأديرة والمستشفيات القائمة شمال جبال الألب بجالون من الجعة لكل شخص فى اليوم(١١٩) . وكان لكثير من الأديرة ، والقصور ، وبيوت الأغنياء ، معاصرها الخاصة ، لأن الجعة فى البلاد الشمالية كانت من ضرورات الحياة لا يزيد عليها فى ذلك إلا الخبز . وكان الأغنياء فى كل الأمم ، وجميع الطبقات فى أوربا اللاتينية ، يفضلون عليها النبيذ ؛ وكانت فرنسا تعصر أشهر أنواعه ، وتتغنى بمديحه فى مئات الأغانى الشعبية . وكان الفلاحون فى وقت قطف الكروم يعملون أكثر مما يعملون فى سائر أيام العام ، وكان رؤساء الأديرة الصالحون يجزونهم على جدهم بإجازة من القواعد الأخلاقية . وتحتوى أغنية كان يتغنى بها نزلاء دير القديس بطرس فى الغابة السوداء بعض عبارات رقيقة :

فإذا وضع الفلاحون العنب ، جىء بهم إلى الدير وقدم لهم اللحم والشراب بكثرة ، ووضعت هناك خابية كبيرة ، وملئت بالنبيذ . . . ليشرب منها كل واحد منهم . . . فإذا لعب الشراب برءوسهم وضربوا الخازن أو الطاهى ، لم يؤدوا غرامة من أجل هذا العمل ، وظلوا يشربون حتى لا يستطيع كل اثنين منهم أن يحملا الثالث إلى العربة(١٢٠) ؛

وكان رب البيت عادة يسلى المدعوين بعد الوليمة بضروب من الشعوذة ، والشقلبة ، والغناء ، والتهريج . وكان لبعض سادة الإقطاع طائفة خاصة بهم من هؤلاء المسلمين ؛ وكان لبعض الأغنياء مازحون فى وسعهم أن يوجهوا وقاحتهم المرحة وفكاهاتهم البذيئة دون أن يخشوا عقاباً أو تأنيباً . وإذا أراد المدعوون أن يقوموا هم بتسلية أنفسهم كان فى وسعهم أن يرووا القصص ، أو يستمعوا إلى الموسيقى أو يعزفوها ، أو يرقصوا ، أو يتغازلوا ، أو يلعبوا النرد ، والشطرنج ، الألعاب الداخلية الأخرى ؛ وحتى الأشراف أصحاب الألقاب من الرجال والنساء كانوا يتراهنون ويلعبون الغميضاء . ولم تكن ألعاب الورق قد عرفت بعد ، وقد حرمت القوانين الفرنسية الصادرة فى عام ١٢٥٦ و ١٢٩١ صنع النرد أو لعبه ، ولكن لعب الميسر بالنرد كان واسع الانتشار رغم هذا التحريم ، وكان رجال الأخلاق يتحدثون عن ثروات فقدت ونفوس ضلت نتيجة للعب الميسر . ولم يكن هذا اللعب محرماً على الدوام بمقتضى القانون ؛ وكانت سينا Siena تهيئ له أمكنة فى الميدان العام(١٢١) ؛ وقد حرم بأمر من مجلس عقد فى باريس (١٢١٣) وبمرسوم أصدره لويس التاسع (١٢٥٤) ؛ ولكن أحداً لم يكن يهتم بهذا التحريم : وأضحت هذه اللعبة من ضروب التسلية التى ينهمك فيها الأشراف ويقضون فيها أوقاتاً طوالا ، وهى التى اشتق منها اسم خازن بيت مال الملك exchequer من المنضدة أو لوحة الشطرنج المختلفة الألوان Chequered table أو Chessboard التى كان إيراد الدولة يعد عليها(١٢٢) . وقد ذهل أهل فلورنس فى أيام دانتى من لاعب مسلم كان يلعب على ثلاث لوحات مختلفة فى وقت واحد مع أمهر لاعبى المدينة ؛ فقد كان ينظر بعينيه إلى إحدى اللوحات ، ويحتفظ بوضع اللوحتين الأخريين فى عقله ، وقد كسب لعبتين وتعادل مع اللاعب الثالث(١٢٣).

وكانت لعبة الداما معروفة فى فرنسا وإنجلترا ، وتسمى فى الأولى dames وفى الثانية draughts .

وكان الواعظون من رجال الدين يحرمون الرقص ، ولكن الناس كلهم تقريبا كانوا يمارسونه إلا من وهبوا أنفسهم للدين . وكان تومس أكويناس ذو النزعة المعتدلة يبيح الرقص فى حفلات العرس ، أو فى الاحتفال بقدوم صديق من خارج البلاد أو بنصر قومى ؛ وقد بلغ من أمر هذا القديس الطيب القلب أن قال : إن الرقص إذا كان فى حدود الأدب رياضة بدنية مفيدة للصحة(١٢٤) . وأظهر ألبرتس مجنس مثل هذا التسامح . ولكن رجال الأخلاق فى العصور الوسطى كانوا بوجه عام يعترضون على الرقص ويعدونه من اختراع الشيطان(١٢٥) ؛ ولم تكن الكنيسة ترضى عنه ، لأنها تراه مغريا بالفساد(١٢٦) ؛ ولقد بذل شباب العصور الوسطى الجرىء كل ما فى وسعه لتبرير مخاوفها(١٢٧) . وكان الفرنسيون والألمان بنوع خاص مولعين بالرقص ، وابتدعوا كثيراً من ضروبه الشعبية ؛ يمارسونها فى مواسم السنة الزراعية ، أو فى الاحتفال بالنصر ، أو لتقوية روح الشعب المعنوية إذا ألمت به كارثة أو انتشر بينه وباء . ويصف أحد الكتاب رقص البنات فى الحقول بقوله : إنه أبهج ملذات الربيع ، وإذا ما احتفل بمنح لقب فارس لأحد الشبان اجتمع كل الفرسان المجاورون له بعدتهم الحربية كاملة ، وقاموا بضروب من الألعاب على ظهور الخيل أو راجلين ، والعامة من حولهم يرقصون على نغمات الموسيقى العسكرية . وكان الناس أحياناً يسرفون فى الرقص حتى يصبح وباء : فقد حدث فى عام ١٢٣٧ أن فرقة من الأطفال الألمان ظلت ترقص على طول الطريق من إرفورت Erfurt إلى أرنستادت Arnstadt ؛ حتى مات كثيرون منهم فى الطريق ، وظل بعض من نجا منهم يعانون مرض الرُّقاص St Yttus'Dance (*) أو غيره من الاضطرابات العصبية الأخرى طول حياتهم(١٢٨) .

وكان معظم الرقص يدور أثناء النهار وفى الهواء الطلق ؛ ذلك بأن البيوت لم تكن جيدة الإضاءة بالليل — فقد كانت تنار بمصابيح مرتكزة أو معلقة ذات ؛

(*) اضطراب عصبى مصحوب بتشنجات متقطعة . (المترجم)

فتائل وبها زيت ، أو بمشعل من شحم الضأن ؛ وإذ كان الشحم والزيت كلاهما غاليا فقد كان العمل والقراءة قليلين بعد غروب الشمس . ولهذا كان الضيوف يتفرقون بعد الظلام بزمن قليل ، ويأوى أصحاب البيت إلى حجراتهم الخاصة . وقلما كانت حجرة النوم كافية ، وكان يحدث أحياناً أن يجد الإنسان فراش نوم إضافى فى بهو المسكن أو فى حجرة الاستقبال . وكان الفقراء ينامون مستريحين على فرش من القش ، والأغنياء ينامون متعبين على وسائد معطرة ، وحشيات من الريش . وكانت فرش العظماء تغطى بكلة تقيهم البعوض ويستعان على تعليقها بكراسى . ولم يكن ثمة ما يمنع نوم عدد من الأفراد ذكوراً كانوا أو إناثاً صغاراً أو كبارا فى حجرة واحدة . وكان الناس من جميع الطبقات فى إنجلترا أو فرنسا ينامون عشرة(١٢٩) .

الفصل الثامن

المجتمع والألعاب

لقد كانت الغلظة التى تتصف بها آداب العصور الوسطى بوجه عام يخففها بعض ما فى التأديب والمجاملات الإقطاعية من ظرف . فقد كان الرجال إذا التقوا يسلم بعضهم على بعض باليد ، كأن هذا عهد منهم بالمسالمة وعدم الاستعداد لاستلال السيف . وكانت ألقاب الشرف لا حصر لها وكانت متفاوتة المنزلة تبلغ المائة عدا ؛ وكان من العادات الظريفة أن يخاطب كل كبير بلقبه واسمه الأول أو اسم ضيعته . وقد سن قانون للآداب يتبعه أفراد المجتمع الراقى فى الظروف المختلفة — فى البيت ، وفى أثناء الرقص ، وفى الشوارع ، وفى ألعاب البرجاس ، وفى بلاط الملك ، وكان على السيدات أن يتعلمن كيف يمشين ، ويحيين ، ويركبن الخيل ، ويلعبن ، ويحملن الصقور برشاقة على معاصمهن ... ؛ وكانت هذه الآداب كلها وأخرى مثلها للرجال تؤلف ما يعرف باسم آداب البلاط Courtoisie . وقد نشرت فى القرن الثالث عشر إرشادات كثيرة الآداب اللياقة[١٣٠] .

وكان المسافر ينتظر المجاملات والضيافة من أبناء طبقته . فكان المسافرون يستضافون أثناء سفرهم فى أديرة الرجال إن كانوا ذكوراً والمسافرات يستضفن فى أديرة النساء ، على سبيل الصدقة إن كانوا فقراء أو نظير أجور أو هبات إن كانوا أغنياء . وقد أنشأ الرهبان منذ القرن الثامن مضايف عند ممرات جبال الألب ، وكان لبعض الأديرة بيوت كبرى للضيوف تتسع لثلثمائة من المسافرين ، وبها اصطبلات لخيولهم[١٣١] . على أن معظم المسافرين كانوا ينزلون فى « نُزُل » أنشئت على الطريق ؛ وكانت رخيصة الأجور ، وفى استطاعته الرجل أن يجد فيها مومساً بأجر

معتدل إذا حافظ على كيس نقوده من السرقة . وكان الكثيرون يتحدون أخطار السفر — لما يجدونه فى الطريق من أسباب الراحة السالفة الذكر — ومن هؤلاء التجار ، وأصحاب المصارف ، والقساوسة ، والدبلوماسيون ، والحجاج ، وطلاب العلم ، والرهبان ، والسائحون ، والأفاقون . وكانت طرق العصور الوسطى ، على ما فيها من متاعب وأخطار غير مشجعة على الأسفار ، غاصة بالكثيرين من الناس ذوى التشوف والآمال الذين يظنون أنهم سيكون أسعد حالا إذا بدلوا مكانهم .

وكانت الفروق بين الطبقات شديدة فى الأسفار كما هى فى التسلية والألعاب . ولكن الخاصة والسوقة كانوا يختلطون من حين إلى حين : إذا عقد الملك جمعية عامة من أتباعه الإقطاعيين ، ووزع الطعام على المجتمعين ، وإذا قام فرسان الأشراف بحركات عسكرية ، وإذا دخل أمير أو أميرة ، أو ملك أو ملكة إحدى المدن كامل العدة فى موكب فخم واصطف الناس على جانبى الطريق العام ليمتعوا أنظارهم بموكبه ، وإذا أقيم برجاس أو عقدت محاكمة بالاقتتال وسمح للجمهور بحضورهما . وكانت المشاهد المنظمة جزءا أساسياً من الحياة فى العصور الوسطى ؛ فقد كانت المواكب الدينية ، والاستعراضات العسكرية ، والاحتفالات التى تقيمها نقابات الحرف ، تملأ الشوارع بالأعلام ، والمشاعل ، وصور القديسين من الشمع ، والتجار السمان ، والفرسان المتبخترين ، والفرق الموسيقية العسكرية ، وكان الماجنون المتنقلون يمثلون مسرحيات قصيرة فى القرية أو ميدان المدينة ؛ والمغنون الجائلون يغنون ويلعبون ؛ ويقصون قصص الغرام ، والمشعوذون والقفازون يعرضون ألعابهم ، والرجال والنساء يمشون أو يرقصون على حبال مشدودة فوق هاويات سحيقة خطرة ؛ وكنت ترى أحياناً رجلين معصوبى العيون يمارس كلاهما بعض الحيل على زميله ؛ أو كان يؤتى بطائفة من الوحوش إلى البلدة حيث تعرض حيوانات غريبة ورجال عجيبون ، وحيث يقتتل حيوان مع حيوان حتى يقتل أحدهما :

وكان الصيد رياضة ملكية يعمد إليها الأشراف ولا تقل شأناً عندهم عن المثاقفة . وكانت قوانين الصيد تحدد مواسمه بفترات قليلة فى العام ، وكانت للأشراف أملاك يصيدون فيها ويُعَدُّ الاعتداء عليها سرقة بحكم القانون . وكانت غابات أوربا لا تزال مسكناً لوحوش لم تعترف بعد بفوز الإنسان فى حربه من أجل الاستيلاء على الكوكب الذى تعيش فيه ؛ وحسبنا أن نذكر أن مدينة باريس مثلا قد هاجمتها الذئاب عدة مرار فى العصور الوسطى . وكان الصائد من ناحية ما يعمل للاحتفاظ بسيادة الآدمى المزعزعة على هذه الأرض ، كما كان يعمل من ناحية أخرى لزيادة موارد الطعام ؛ ولم يكن أقل من هذين العملين شأناً أنه كان يُعد نفسه للحرب التى لا مفر منها بتقوية جسمه وروحه وتعويدهما ملاقاة الأخطار ، والقتال ، وسفك الدماء . وكان فى الوقت عينه يجعل من عمله هذا مهرجاناً . فكانت القرون العظيمة المصنوعة من العاج والمطعمة أحياناً بالذهب تدعو النساء ، والرجال ، والكلاب : النساء يجلسن فى رشاقة على الجياد المتبخترة وأرجلهن على جانب واحد من السروج ؛ والرجال فى حلل زاهية وعدّة حربية متباينة — القوس والسهم ، والبلطة الصغيرة ؛ والحربة ، والسكين ؛ وكلاب الصيد على اختلاف أنواعها تجذب مقاودها . وإذا ما أدى الطراد إلى عبور حقول الفلاحين ، كان من حق السيد وأتباعه ، وضيوفه أن يعبروا هذه الحقول مهما يكن التلف الذى يصيب البذور والمحاصـيل ، ولم يكن يشكو من الفلاحين إلا المتهورون الذين لا يحسبون للعواقب حساباً(١٣٢) . وقد نظم الفلاحون الفرنسيون الصيد فجعلوا له قواعد ، وسموه الطراد ، ووضعوا له مراسم وآداباً معقدة .

وكانت السيدات يشتركن بنوع خاص فى أكثر ضروب الصيد أرستقراطية — وهو الصيد بالبزاة ، فقد كان فى جميع الضياع الكبرى أقفاص تحوى أنواعاً كثيرة من الطيور ، أغلاها ثمناً هى البزاة . وكان البازى يعلَّم الجلوس على معصم السيد أو السيدة فى أى وقت ؛ وكانت بعض السيدات المتأنقات يحتفظن بها ومن

يستمعن إلى الصلاة فى الكنائس . وقد ألف الإمبراطور فردريك الثانى كتاباً ممتازاً فى الصيد بالبزاة بلغت عدد صفحاته ٥٨٩ صفحة ، وكان هو الذى جاء إلى أوربا من بلاد الإسلام بعادة السيطرة على أعصاب البازى وتشوفه بتغطية رأسه بغطاء من الجلد . وكانت أنواع مختلفة من البزاة تدرّب على الطيران العالى ، ومهاجمة أنواع مختلفة من الطيور ، وقتلها أو جرحها ، ثم العودة إلى معصم الصائد ، حيث يقربها ويقدم لها قطعة من اللحم جزاء لها على صنعها فتسمح له بأن يضع رجلها فى شرك حتى يبصر فريسة أخرى . ويكاد يكون البازى الحسن التدريب أحسن ما يهدى للشريف أو الملك ؛ وقد افتدى أحد أدواق برغندية ولداً له بأن أرسل اثنى عشر صقراً أبيض لأسرة السلطان بايزيد . وكان منصب حافظ البزاة الأكبر فى فرنسا من أعلى المناصب وأكبرها مرتبا فى المملكة .

وكانت كثيراً من الألعاب الأخرى تخفف عن الناس حر الشمس وبرد الشتاء ، وتحول عواطف الشباب ونشاطه إلى ضروب من المهارة الحيوية . فقد كان كل صبى تقريباً يتعلم السباحة ، وكان الناس كلهم فى شمالى أوربا يتعلمون الانزلاق على الثلج ، وكان سباق الخيل من الألعاب المحبوبة الواسعــة الانتشار وبخاصة فى إيطاليا ؛ وكانت كل الطبقات تمارس الرمى بالقوس والسهام ؛ ولكن طبقات العمال وحدها هى التى كانت تجد فسحة من الوقت لصيد السمك ؛ وكانت فى العصور الوسطى ضروب مختلفة من ألعاب الكرة ، ولعبة الكرة والصولجان hockey ، ورمى القرص quoits ، والمصارعة والملاكمة ، والتنس Tennis ، وكرة القدم ... وقد نشأت لعبة التنس فى فرنسا ، ولعل منشأها هناك من أصل إسلامى ؛ ويلوح أن اسمها مشتق من لفظ Tenezi الفرنسى أى « العب » — وهو اللفظ الذى كان اللاعب يعلن به بدايه لعبه(١٣٣) . وقد انتشرت هذه اللعبة فى فرنسا وإنجلترا انتشاراً بلغ منه أن كانت تلعب أحياناً أمام جماهير كبيرة فى دور التمثيل أو الهواء الطلق(١٣٤) . وكان الأيرلنديون يلعبون لعبة الكرة والصولجان

منذ القرن الثانى الميلادى ، ويصف مؤرخ بيزنطى من رجال القرن الثانى عشر وصفاً حياً ممتعاً مباراة فى الجحفة (البولو) استخدمت فيها مضارب ذات أوتار من الحبال شبيهة بلعبة لاكرس Lacrosse الكندية(١٣٥) . ويقول أحد مؤرخى العصور الوسطى الإخباريين(*) وهو مروع وجل إن كرة القدم « لعبة بغيضة يدفع فيها الشبان كرة ضخمة ، لا يقذفها فى الهواء ، بل يضربها بالقدم »(١٣٦) . ويبدو أن هذه اللعبة جاءت من بلاد الصين إلى إيطاليا(١٣٧) وإنجلترا حيث انتشرت فى القرن الثالث عشر انتشاراً واسعاً ، وقد بلغ من عنفها أن حرمها إدورد الثانى لأنها تؤدى إلى تعكير السلم (١٣١٤) .

وكان الناس وقتئذ أكثر ميلا إلى التآلف والاشتراك فى الحياة مما هم الآن وكانت أنواع النشاط الجماعية تهز المشاعر فى أديرة الرجال والنساء ، وفى الجامعات ، والقرى ، ومراكز نقابات الحرف . وكانت الحياة بهجة مرحة فى أيام الآحاد والأعياد بنوع خاص ؛ فنى تلك الأيام كان الفلاحون ، والتجار ، وكبار الملاك يلبسون أحسن ما عندهم من الثياب ، ويطيلون الصلاة أكثر من المعتاد ، ويشربون أكثر ما يستطيعون(١٣٨) وكان الإنجليز إذا حل أول يوم من شهر مايو يقيمون عمود هذا اليوم ، ويضيئون المشاعل ، ويرقصون حولها ، وكأنهم يعيدون وهم نصف واعين ذكريات أعياد الخصب الوثنية . وكانت كثير من البلدان والقصور فى أيام عيد الميلاد تعين « سيداً لسوء الحكم » ينظم للجماهير ضروب التسلية والمناظر . وكان المهرجون يلبسون الأقنعة ، واللحى المستعارة ، والأثواب المضحكة ، ويسيرون فى الطرقات يمثلون مسرحيات ، أو ألعاباً ، أو ينشدون أغانى عيد الميلاد ؛ وكانت البيوت والكنائس تزدان بشرابة الراعى واللبلاب « وبكل ما هو أخضر فى هذا الفصل من السنة (١٣٩) » . وكانت هناك

(*) المؤرخون الإخباريون هم الذين يكتفون فى تواريخهم بإيراد الحوادث وتواريخها مع وصف لما يشاهدونه فى بعض الأحيان أمثال الجبرتى . Chronicler (المترجم)

أعياد للفصول الزراعية ، وللانتصارات القومية أو المحلية ، وللقديسين ، ولنقابات الحرف ، وقلما كان يوجد فى تلك الأيام رجل لا يملأ معدته بالشراب . وكان لإنجلترا المرحة أسواق تنساب فيها الأموال وتجرى فيها الجعة جرياناً سريعاً ولكنه ليس بالمجان ؛ وكانت الكنيسة فى القرن الثالث عشر تندد بهذه الاحتفالات ، ولكنها هى نفسها اتخذتها أعياداً لها فى القرن الخامس عشر(١٤٠) .

وقد كيفت بعض الأعياد حفلات الكنيسة فجعلتها جدية فى قالب هزلى ، صخابة تختلف من الفكاهة الساذجة إلى الهجاء الشائن المقذع ، وكانت مدينتا بوڤيه Beauvais ، وسان Sans ، وغيرهما من البلدان الفرنسية تحتفل فى اليوم الرابع عشر من شهر يناير بعيد الحمار fête a l'âne : فتركب فتاة جميلة حمارا ، ويخيل إلينا أنها تمثل بهذه الطريقة مريم أم المسيح أثناء فرارها إلى مصر ، ثم يقاد الحمار إلى كنيسة ، وينحنى ويثنى ركبته اليمنى احتراما وعبادة ، ويوضع بجانب المذبح ؛ ويستمع إلى قداس وترانيم يتغنى فيها بمديحه ، فإذا انتهت الصلاة نهق القس والمصلون ثلاث مرات تكريما لهذا الحيوان الذى أنجى أم المسيح من هيرودس وحمل عيسى إلى أورشليم(١٤١) . وكانت أكثر من عشر مدائن فى فرنسا تحتفل فى كل عام — ويكون ذلك عادة فى يوم عيد الختان — بعيد البلهاء fête de fous . وكان يسمح فى هذا اليوم للطبقة الدنيا من القساوسة أن تثأر لخضوعها إلى كبار القسيسين والأساقفة طول العام بالسيطرة على الكنيسة والقيام بالشعائر الدينية ؛ وكانوا يلبسون فى ذلك اليوم ملابس النساء أو الملابس الكهنوتية مقلوبة ، ويختارون واحدا منهم ليكون أسقف البلهاء episcopus fatuorum ، ثم ينشدون أناشيد بذيئة ، ويأكلون الوزم على المذبح ، ويلعبون النرد عند أسفله ، ويحرقون أحذية قديمة فى المبخرة ، ويلقون مواعظ مرحة(١٤٢) . وكانت

كثير من البلدان فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر تختار من أهلها أسقف صبيان episcopus puerorum ، ليرأس زملاءه فى تقليد فكه للحفلات الكهنوتية[١٤٣] . وكان رجال الدين المحليون يبسمون لهذه المهازل الشعبية ويتسامحون فيها ، وظلت الكنائس وقتاً طويلا تغض النظر عنها ، ولكنها حين رأتها تنزع إلى الإسراف فى التحقير والبذاءة اضطرت إلى مقاومتها حتى اختفت آخر الأمر فى القرن السادس عشر[*] .

وكانت الكنيسة بوجه عام متسامحة لينة الجانب إزاء فكاهات عصر الإيمان الوقحة ، وذلك لعلمها أن الناس لا بد لهم أن يتحللوا بين الفينة والفينة من القواعد الأخلاقية ، وأن تفك القيود التى تعد فى الأوقات العادية ضرورية للمجتمع المتمدين . ولقد يغضب بعض أشداء المتزمتين أمثال القديس يوحنا كريسستوم St. John Chrysostom وينادون : « أتضحكون وقد صلب المسيح ؟ » ولكن « الفطائر ، والجعة لم تنقطع ، والنبيذ ظل يجرى ساخنا فى الأفواه ، وكان القديس برنار يرتاب فى المرح والجمال ، ولكن معظم رجال الدين كانوا فى القرن الثالث عشر أكولين ، يستمتعون باللحم والشراب ، ولا يرون فى هذا ما يؤنبهم عليه ضميرهم ، ولا يغضبون إذا سمعوا فكاهة حلوة أو رأوا ساقا جميلة ؛ ذلك أن عصر الإيمان لم يكن عصر جد وكآبة ، بل كان عصراً مليئاً بالحيوية والمرح الشديد ، والعاطفة الرقيقة ، والسرور الساذج من نعم الأرض . ولقد كتب طالب مفكر على ظهر كتاب المفردات اللغوية أمنية له يتمناها لنا جميعاً :

(*) بيد أن أسقف غلمان لا يزال ينتخب فى كل عام فى أدلستون **Addlestone** من أعمال سرى **Surrey** بإنجلترا .

وإنى لأرغب أن تكون الأيام كلها إبريل ومايو ، وأن يجدد كل شهر جميع الفواكه مرة بعد مرة ، وأن تنبت فى كل يوم أزهار الزنبق ، والمنثور ، والبنفسج ، والورد فى كل مكان يطرقه الإنسان . وأن تظل أشجار الغابات مورقة ، والمروج خضراء ، وأن ينال كل محب محبوبته ، وأن يحب كلاهما الآخر حباً صادقا أكيداً يمتلئ به قلبه ، وأن يستمتع كل إنسان بما يحب من اللذة وأن يمتلئ القلب مرحاً وغبطة[١٤٥] .

الفصل التاسع

الأخلاق والدين

ترى هل تؤيد الصورة العامة لأوربا فى العصور الوسطى الاعتقاد بأن الدين يبعث على مكارم الأخلاق ؟ .

إلى الصورة التى تنطبع فى أذهاننا بوجه عام لتوحى بأن الثغرة الفاصلة بين نظرية الخلق الطيب وحقيقته فى العصور الوسطى أوسع منها فى أى عصر آخر من عصور الحضارة . ذلك أن العالم المسيحى فى تلك العصور لم يكن يقل عنه فى عصرنا اللادينى الحاضر امتلاء بالشهوات الجنسية ، والعنف ، وإدمان الخمر ، والقسوة ، والفظاظة ، والدنس ، والشره ، والسطو ، والخيانة ، والتزوير . ويلوح أنه يفوق عصرنا الحاضر فى استعباد الأفراد ؛ ولكنه لم يكن يضارعه فى الاستعباد الاقتصادى للأقاليم المستعمرة أو الدول المغلوبة . وقد فاقنا فى إذلال النساء ، ولكنه لا يكاد يضارعنا فى عدم الاحتشام ، وفى الفسق ، والزنا ، وفى الحروب الضروس ، وفى كثرة من يقتلون فيها . وإذا وازنا بين مسيحية العصور الوسطى والإمبراطورية الرومانية من نيرفا إلى أورليوس ، حكمنا أن هذه المسيحية قد رجعت بالناس إلى الوراء من الناحية الأخلاقية ؛ غير أن كثيراً من أجزاء الإمبراطورية كانت فى عهد نيرفا قد استمتعت بقرون كثيرة من الحضارة ، على حين أن العصور الوسطى تمثل فى معظم مداها كفاحاً بين المبادئ الأخلاقية المسيحية والهمجية القوية التى كانت تحمل إلى حد كبير المبادئ الأخلاقية لدين لم تهتم هى بتلقى تعاليمه . ولقد كان يسع البرابرة أن يسموا بعض رذائلهم فضائل تستلزمها أحوال زمانهم ؛ فعنفهم تطرف فى الشجاعة ،

وشهوانيتهم زيادة فى الصحة الحيوانية ، وخشونتهم وصراحتهم فى الحديث ، وعدم حيائهم إذا تحدثوا عن الأشياء الفطرية ليست شراً من الخفر المصطنع الذى ينطوى عليه شبابنا .

ولقد يكون من الأمور السهلة أن ندين مسيحية العصور الوسطى بالاعتماد على أقوال من كتبوا فى الأخلاق من أبنائها . فلقد كان القديس فرانسس يندب سوء أحوال القرن الثالث عشر ويصفه بأنه « زمان الخبث والظلم اللذين لا حد لها[١٤٦] » ؛ وكان إنوسنت الثالث ، والقديس بونافنتورا ، وفنسنت البوفيزى ، ودانتى يرون أن أخلاق ذلك « القرن العجيب » هى الفظاظة التى لا أمل فى إصلاحها ؛ وقال الأسقف جروستستى Grosseteste ، وهو من أكثر أحبار ذلك العصر حصافة ، للبابا « إن الكاثوليك فى جملتهم أحلاف الشيطان »[١٤٧] . وحكم روجر بيكن (١٢١٤ ؟ — ١٢٤٩) على العصر الذى يعيش فيه حكماً متطرفاً كعادته فقال :

لم يوجد قط ، ما يماثله فى الجهل . . . لأن فيه من الرذائل ، ما لا مثيل له فى أى عصر سابق ... فيه الفساد الذى لا حد له ... والعهر ... والنهم ... ومع هذا فإن لدينا التعميد ولدينا وحى المسيح . . . اللذين لا يستطيع الناس أن يؤمنوا بهما حق الإيمان أو يجلوهما حق الإجلال . . . وإلا لما سمحوا لأنفسهم بأن يقعوا فى هذا الفساد كله . . . ولهذا فإن كثيرين من العقلاء يعتقدون أن أوان المسيح الدجال قد آن ، وأن نهاية العالم قد اقتربت[١٤٩] .

ولا حاجة إلى القول بأن هذه العبارات وأمثالها إنما هى مغالاة ضرورية يعمد إليها المصلحون ، وأن فى وسع الإنسان أن يجد أمثالها فى كل عصر من العصور .

ويبدو أن أثر خوف الجحيم فى رفع المستوى الخلقى كان أقل من أثر الرأى العام أو القانون فى أيامنا هذه أو فى ذلك الوقت ؛ ولكن جديراً بنا أن نذكر أن

المسيحية هى التى خلقت الرأى العام فى تلك الأيام ، وأنها هى التى أوجدت القانون إلى حد ما ؛ وأكبر الظن أنه لولا القانون الأخلاقى الذى خلقته المسيحية ، وما كان له من أثر ملطف ، لكانت الفوضى التى أوجدتها خمسة قرون من الغزو ، والحرب ، والتدمير والتخريب أشد مما كانت . ولقد يكون الباعث الذى حملنا على اختيار الأمثلة التى ذكرناها فى هذا الفصل هو التحيز غير المقصود ، فإن لم يكن فإن أحسن ما توصف به أنها جزئية غير وافية ؛ ذلك أن الإحصاءات معدومة وإن وجدت فهى غير موثوق بها ، ومن شأن التاريخ أن يسقط من حسابه على الدوام الرجل العادى . وما من شك فى أنه كان فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى آلاف من السذج الأخيار أمثال أم الأخ سلمبين Salimbene التى يصفها بأنها : « سيدة متواضعة تقية مخلصة ، تكثر من الصوم ، ويسرها أن توزع الصدقات على الفقراء »[١٤٩] ؛ ولكن كم مرة نعثر فى صفحات التاريخ على مثيلات هذه السيدة ؟

ولقد كانت للمسيحية فى الأخلاق آثار رجعية وآثار تقدمية معاً . فلقد كان من الطبيعى أن تضمحل الفضائل الذهنية فى عصر الإيمان ؛ وحلت الغيرة والحماسة ، والإعجاب بالصلاح والطهارة ، والتقوى غير المستندة إلى الضمير ، فى بعض الأحيان ، حلت هذه محل الذمة العقلية (النزاهة فى النظر إلى الحقائق) والبحث عن الحقيقة . وبدا للناس أن « الأكاذيب التقية » الممثلة فى تبديل النصوص ، وتزوير الوثائق آثام عرضية بسيطة يتجاوز عنها . وتأثرت الفضائل المدنية بقصر الاهتمام على الحياة الآخرة ، وتأثرت أكثر من هذا بانحلال الدولة ؛ ولكن الذى لا شك فيه أن حب الوطن ، مهما يكن حبا محليا ، لم ينعدم من قلوب الرجال والنساء الذين شادوا هذه الكنائس الكبرى الكثيرة ، وبعض الأبهاء العظيمة فى المدن . ولعل النفاق ، الذى هو من مستلزمات الحضارة ، قد زاد فى العصور الوسطى ، إذا نظرنا إليه فى ضوء نزعة القدماء الدنيوية الصريحة ،

أو الوحشية الجماعية السافرة التي نشاهدها في هذه الأيام .

على أن هذه الرذائل وغيرها تقابلها كثير من الفضائل . فلقد كافحت المسيحية ببسالة وإصرار سيل الهمجية القوى الجارف ؛ وبذلت جهوداً جبارة لتقليل الحروب والمنازعات ، والالتجاء إلى القتال والتحكيم الإلهى فى المحاكمات ؛ وأطالت فترات الهدنة والسلام ؛ وسمت بعض السمو بعنف الإقطاع ومنازعاته فجعلتهما وفاء وفروسية ؛ وقاومت القتال فى المجتلدات ، ومنعت استرقاق المسجونين ، وحرمت اتخاذ المسيحيين عبيداً ، وافتدت عدداً لا حصر له من الأسرى ، وعملت على تحرير أرقاء الأرض أكثر مما عملت على استخدامهم فى أراضيها ، وغرست فى النفوس احتراما جديداً للحياة والأعمال البشرية ، وحرمت وأد الأطفال ، وقللت من الإجهاض ، وخففت أنواع العقاب التى كان يفرضها القانون الرومانى وقانون القبائل المتبربرة ؛ ولم تقبل مطلقاً أن يكون مستوى الأخلاق عند النساء مختلفاً عنه عند الرجال ؛ ووسعت مجال الصدقات وأعمالها ، ووهبت الناس طمأنينة عقلية وسط ألغاز العالم المحيرة للعقول ، وإن كانت بعملها هذا قد ثبطت البحوث العلمية والفلسفية . وآخر ما نذكره لها أنها علمت الناس أن الوطنية إذا لم يقاومها ولاء أسمى منها تصبح أداة للشره والنهم الجماعيين . وقد فرضت على جميع المدن والدول الصغرى الأوربية المتنافسة قانوناً أخلاقيا واحداً ، وحافظت عليه ؛ واستطاعت أوربا بهديها ، وبشىء من التضحية التى لا بد منها ببعض حريتها ، أن تستمتع مدى قرن من الزمان بالمبادئ الأخلاقية الدوَّلية التى تتمناها وتكافح من أجلها فى هذه الأيام — نعنى بها أن يكون لها قانون يخرج الدول من قانون الغابة ، ويوفر على الناس جهودهم لينفقوها فى معارك السلام وانتصاراته .

الباب الحادى والثلاثون

بعث الفنون

١٠٩٥ – ١٣٠٠

الفصل الأول

يقظة حاسة الجمال

ترى لأى سبب بلغت أوربا الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر درجة عليا فى الفنون تضارع ما بلغته أثينة فى عصر بركليز ورومة فى عهد أغسطس ؟

الحق أن لهذه النهضة الفنية أسباباً كثيرة . لقد صدت أوربا غارات أهل الشمال وغارات العرب ؛ ولقد بعثت الحروب الصليبية فى نفوس أهلها نشاطا مبدعاً قوياً ، وجاءت إلى أوربا بألف فكرة وفن من الشرق البيزنطى والإسلامى . ونشأت من إعادة فتح البحر المتوسط وفتح المحيط الأطلنطى لتجارة الأمم المسيحية ، ومن الأمن والتنظيم اللذين استمتعت بهما التجارة المنقولة فى أنهار فرنسا وألمانيا ، والبحار الشمالية ، واتساع نطاق الصناعة والشئون المالية ، نقول نشأت من هذا كله ثروة لم تعرفها أوربا منذ أيام قسطنطين ، وقامت فيها طبقات جديدة فى مقدور كل منها أن تساعد الفن بالمال ، ومدن غنية ذات حكم ذاتى تعمل كل منها جاهدة لكى تشيد كنيسة كبرى أجمل من آخر كنيسة فيها . وكانت خزائن رؤساء الأديرة ، والأساقفة ، والبابوات تفيض بالمال الذى يأتيها من العشور وعطايا التجار ، وهبات النبلاء والملوك . وكانت حركة تحطيم الصور

قد قضى عليها ، ولم يعد الفن يوسم كما كان يوسم من قبل بأنه عودة إلى عبادة الأصنام ؛ ووجدت فيه الكنيسة ، التى كانت من قبل تخشاه ، وسيلة نافعة تغرس بها عقائدها ومثلها العليا فى نفوس غير الجهلاء ، وتبث فيها ذلك الورع الذى جعلها ترفع الأبراج إلى السماء كأنها أدعية وأوراد صاعدة إلى عرش الله . يضاف إلى هذا أن دين مريم الجديد ، المنبعث من قلوب الناس من تلقاء نفسه ، قد أفرغ ما ينطوى عليه من حب وثقة فى معابد فخمة يستطيع آلاف من أبنائها أن يجتمعوا فيها دفعة واحدة يقدمون لها فروض الولاء ويطلبون إليها العون . لقد اجتمعت هذه المؤثرات وأخرى كثيرة لتغمر نصف قارة من الأرض بسيل جارف من الفن لم يسبق له مثيل .

وكانت الفنون قد بقيت فى أماكن متفرقة لم تقض عليها أعمال البرابرة المخربة ، ولم يمح معالمها ما طرأ على البلديات من ضعف وانحلال ، فالمهارات القديمة التى اشتهر بها أهل الإمبراطورية الشرقية لم تضع قط ؛ وكانت بلاد الشرق اليونانية وإيطاليا البيزنطية هى البلاد التى دخلت منها كثرة الفنانين والموضوعات الفنية فى حياة الغرب الذى بعث من جديد . ولقد أدخل شارلمان فى خدمته فنانين يونان فروا من وجه محطمى الصور البيزنطيين ، وهذا هو الذى جعل فن آخن يقرن الرقة والنزعة الصوفية البيزنطية بالصلابة والنزعة الدنيوية الألمانية . وبدأ رهبان دير كلونى الفنانون فى القرن العاشر عهداً جديداً فى فن العمارة الغربية وزينتها ، وكان أول ما فعلوه أن نقلوا النماذج البيزنطية . وكان معلمو مدرسة فن الأديرة التى أقامها فى منتى كسينو Mante Cassino الرئيس دزدريوس Abbot Desederius (١٠٧٢) من اليوناس يسيرون على الأساليب البيزنطية ؛ ولما أراد هونويوس الثالث (١٢١٨) أن يزين جدران سان بولو بالنقوش الجدارية بعث بطلب صناع نقوش الفسيفساء من البندقية ، وكان الذين جاءوا متشبعين بالتقاليد البيزنطية . وكان من المستطاع وجود جاليات من الفنانين البيزنطيين فى كثير من

المدن الغربية ؛ وكان طرازهم فى التصوير هو الذى شكل طراز دوتشيو Duccio وسيمابيو Cimabue وطراز چيتو Giotto نفسه فى بداية عهده . وجاءت الموضوعات البيزنطية أو الشرقية — كالنقوش المركبة من خوص النخل أو ما يشبهه ، وأوراق الأقنتا(*) ، والحيوانات التى فى داخل الرصائع — جاءت هذه الموضوعات إلى بلاد الغرب على المنسوجات ، وعلى العاج ، وعلى المخطوطات المزخرفة ، وعاشت مئات السنين فى طراز النقوش الرومانى . وعادت أشكال العمارة السورية ، والأناضولية ، والفارسية — العقد ، والقبة ، والواجهة المحوطة بالأبراج ، والعمود المركب الجامع لعدة طرز مختلفة ، والشبابيك المجتمعة مثنى أو ثلاثاً تحت قوس يربطها — عادت هذه الأشكال إلى الظهور فى عمارة الغرب . ألا إن التاريخ لا يعرف الطفرات ولا شىء قط يضيع .

وكما أن تطور الحياة يتطلب الاختلاف كما يتطلب الوراثة ، وكما أن تطور المجتمع يحتاج إلى التجديد التجريبى وإلى العادة التى تعمل على الاستقرار ، كذلك لم يكن تطور الفن فى أوربا الغربية يتضمن استمرار التقاليد القديمة فى المهارات والأشكال ، والحافز الناشئ من المُثُل البيزنطية الإسلامية ، بل كان يتضمن بالإضافة إلى هذا عودة الفنان المرة بعد المرة من المدرسة الفنية التى ينتمى إليها إلى الطبيعة ، ومن الأفكار إلى الأشياء ، ومن الماضى إلى الحاضر ، ومن تقليد النماذج إلى التعبير عن الذات . لقد كان من خصائص الفن البيزنطى القتام المقبض والسكون ، ومن خصائص النقش الغربى الرشاقة الهشة النسائية ، وليس فى مقدور هذه الصفات أن تمثل ما فى الغرب وقتئذ من رجولة حيوية ، وما عاد إليه من نزعة همجية ، ونشاط قوى . وكانت الأمم الخارجة من العصور المظلمة إلى ضياء القرن الثالث عشر تفضل رشاقة نساء چيتو النبيلة عن صور ثيودور الجامدة

(*) ويسمى أيضاً شوك الجمل أو شوك اليهود أو الكنكر وهو نبات شوكى اتخذت رسوم أوراقه فى الزينة المعمارية . (المترجم)

المنقوشة فى الفسيفساء البيزنطية ؛ وتسخر من خوف الساميين من الصور والتماثيل . ولهذا حولت الزخارف المحضة إلى صور الملاك الباسم التى تشاهد فى كنيسة ريمس الكبرى ، وإلى صورة العذراء الذهبية فى أمين Amiens ، وهكذا غلبت بهجة الحياة خوف الموت فى الفن القوطى .

وكان الرهبان هم الذين حافظوا على الأساليب الفنيـــة فى الفن الرومانى ، واليونانى ، والشرقى ، ونشروها ، كما حافظوا على الآداب اليونانية والرومانية القديمة . ذلك أن الأديرة لحرصها على أن تستقل بذاتها دربت النازلين فيها على فنون الزخرفة كما دربتهم على الحرف العملية . فقد كانت كنيسة الدير تتطلب مذبحا ، وآثاثاً للمحراب ، وكأساً للقربان ، وصندوقا وعلبا لحفظ المخلفات ، وأضرحة ، وكتباً للصلاة ، وماثلات ؛ وقد تتطلب نقوشا من الفسيفساء ، وصوراً على الجدران ، وتماثيل وصوراً تبعث التقى فى القلوب ، وكان الرهبان يصنعون معظم هذا بأيديهم ؛ بل إنهم هم الذين يخططون الدير ويبنونه ، كما فعل البندكتيون بدير مونتى كسينو الذى لا يزال قائما إلى اليوم شاهداً على ما بذلوه فى بنائه من جهود . وكانت فى معظم الأديرة مصانع واسعة ؛ مثال ذلك أن برنارد تيرون Bernard de Tiron أنشأ بيتاً دينيا جمع فيه على ما يقولون « صناعا فى الخشب والحديد ، ونحاتين ، وصائغين ، ونقاشين ، وبنائين ... وغيرهم من العمال الحاذقين جميع الأعمال الدقيقة »[1] . ولقد كانت المخطوطات المزخرفة التى كتبت فى العصور كلها تقريباً من عمل الرهبان ، وكانت أرق المنسوجات من صنع أيدى الرهبان ، والراهبات ، وكان المهندسون المعماريون الذين شادوا الكنائس على الطراز الرومانى فى عهدها الأول رهبانا[2] ، وأمد دير كلونى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر وبداية القرن الثانى عشر بالمهندسين المعماريين وبكثير من المصورين والمثالين[3]؛ وكان دير القديس دنيس فى القرن الثالث عشر مركزاً جم النشاط لمختلف الفنون ؛ بل إن أديرة السسترسين نفسها ، وهى التى أوصدت أبوابها دون أعمال الزخرفة فى

أيام برنار اليقظ ، سرعان ما استسلمت لمغريات الأشكال وبهجة الألوان ، وشرعت تبنى أديرة لا تقل فى زينتها عن دير كلونى أو دير القديس دنيس ؛ وإذ كانت الكنائس الإنجليزية الكبرى فى العادة كنائس أديرة ، فإن رجال الدين النظاميين أو الرهبان ظلوا إلى آخر القرن الثالث عشر أصحاب السيطرة على عمارة الكنائس فى إنجلترا ؛

لكن الدير ، مهما بلغ من صلاحيته لأن يكون مدرسة وملجأ للروح ، مقضى عليه بسبب عزلته أن يكون مستودعا للتقاليد لا مسرحا للتجارب الحية ، فهو أصلح للحفظ منه للابتكار ؛ ولم نجد حياة العصور الوسطى التعبير الخصب الغزير فى أشكال لم تمل التكرار ، وصلت بالفن القوطى إلى درجة الكمال ، لم تجد تلك الحياة هذا التعبير إلا بعد أن أمدت المطالب الواسعة لذوى الثراء من غير رجال الدين الفنون الدنيوية بحاجتها من الغذاء . ثم تجمع العلمانيون المتخصصون المحررون فى إيطاليا أولا ، ثم تجمعت كثرتهم فى فرنسا وقلتهم فى إنجلترا ، فى نقابات الحرف ، وانتزعوا الفنون من أيدى معلمى الأديرة وصناعها ، وشادوا هم الكنائس الكبرى .

الفصل الثانى

زينـــة الحياة

ومع هذا فإن راهباً هو الذى كتب أكمل وأوضح موجز فى فنون العصور الوسطى وحرفها ، ذلك هو ثيوفيلس Theophilus — حبيب الله — الراهب فى دير هلمرزشوزن Helmershausen القريب من پادربورن Paderborn والذى كتب حوالى عام ١١٩٠ موجزاً فى مختلف الفنون يقول فيه :

ثيوفلس ، القس الوضيع . . . يوجه كلماته إلى كل من يرغب فى أن ينفض عنه كل غبار الكسل وشرود الروح . . . بالعمل اليدوى النافع ، وبالتفكير السار فيما هو جديد . . . (هنا يجد الناس) كل ما عند بلاد اليونان من ألوان ومركبات مختلفة ، وكل ما عرفته تسكانيا من فنون الميناء . . . وكل ما تستطيع بلاد العرب أن تعرضه من الأعمال التى تتطلب الليونة ، والصهر ، والنقش ، والحفر ، وكل المزهريات الكثيرة والجواهر المحفورة ، والعاج الذى تزينه إيطاليا بالذهب ، وكل ما تقومه إيطاليا من أنواع الشبابيك المختلفة الغالية ، وكل ما يثنى عليه الناس من أعمال الذهب ، أو الفضة ، أو النحاس ، أو الحديد ، أو العمل الدقيق فى الخشب أو الحجر ،

فها نحن أولاء فى هذه الفقرة نشهد ناحية أخرى من نواحى عصر الإيمان ، نشهد رجالا ونساء ، ونشهد بنوع خاص رهباناً وراهبات ، يعملون لإشباع الرغبة الغريزية فى التعبير ، ويجدون متعة فى التناسب ، والتناسق ، والأشكال ، ويحرصون على أن يجعلوا النافع جميلا . ولقد كانت أهم ما تحتويه المناظر التى صوّرت فى العصور الوسطى صوراً للرجال والنساء وهم يعملون ، وإن غلبت عليها

النزعة الدينية ، وكان الغرض الأول والأساسى الذى يهدف إليه فنهم هو تجميل أعمالهم ، وأجسامهم ، وبيوتهم . وكان آلاف من صناع الخشب يستخدمون السكين ، والمثقب ، والأزميل المقعر ، والمِنْحَت ، ومواد الصقل ، لحفر النضد ، والكراسى ، والمقاعد ، والصناديق ، والعلب ، والخزائن ، وأعمدة الدرج ، والوزَرات ، والأسرّة ، والأصونة ، وخزانات الطعام والشراب ، والصور والتماثيل المقدسة ، وأجزاء المذابح الكنسية ، وأماكن المرنمين . . . وتزيينها بما لا يحصى من أنواع الأشكال والموضوعات ، بارزة وغير بارزة ؛ وكثيراً ما كانوا يضفون عليها الفكاهات الخبيثة التى لاتعرف الفوارق بين ما هو مقدس وما هو دنس . وفى وسعنا أن نجد على الخناجر أشكالا للبخلاء ، والنهمين ، والثرثارين ، والحيوانات والطيور الغريبة ذات الرءوس الآدمية . وكان ناحتو الخشب من أهل البندقية يصنعون فى بعض الأحيان براويز أجمل من الصور التى فى داخلها وأعظم منها قيمة ، وفى القرن الثانى عشر بدأ الألمان فى صناعة حفر الخشب العجيبة التى أضحت من الفنون الكبرى فى القرن السادس عشر(*) .

ولم يكن الذين يعملون فى المعادن أقل شأناً من العاملين فى الخشب . فقد كانوا يصنعون الحديد المشغول الرشيق للنوافذ ، والأفنية ، والأبواب الخارجية ، والمفصلات قوية تمتد فى عرض الأبواب الضخمة ذات أشكال نباتية متنوعة (كالتى نشاهدها فى كنيسة نتردام Notre Dame فى باريس) ؛ وكان مايصنع منه لمقاعد المرنمين فى الكنائس الكبرى « صلباً كالحديد » ورقيقاً كالمخرمات . وكان الحديد ، أو البرنز ، أو النحاس يصهر أو يطرق لتصنع منه أجمل المزهريات ، والقدور ، والأباريق ، والماثلات ، والمباخر ، والعلب ، والمصابيح ؛ وكانت صفائح البرنز تغطى كثيراً من أبواب الكنائس . وكان صناع الأسلحة يحبون أن

(*) انظر سورة « الصَّلب » الباقية من القرن الثانى عشر فى متحف هلبر ستادت أو تمثال جيمس الأصغر James the Less الباقى من القرن الثالث عشر والمحفوظ بالمتحف الفنى فى نيويورك .

يضفوا شيئاً من الزينة على السيوف وأغمادها ، والخوذ ، والتروس والدروع ؛ وحسبنا شاهداً على مقدرة صناع المعادن الألمان الثريا البرنزية الضخمة التي أهداها فردريك الثاني لكنيسة آخن الكبرى ، وعلى مقدرة أمثالهم الإنجليز الماثلة البرنزية الضخمة (المصنوعة حوالى ١١٠٠) المنقولة من جلوسستر Gloucester والمحفوظة فى متحف ڤكتوريا وألبرت Victoria and Albert Museum ؛ وإن ولع صناع العصور الوسطى بأن يجعلوا من أبسط الأدوات تحفاً فنية ليتجلى فى مزاليج الأبواب ، وأقفالها ومفاتيحها ؛ وحتى دوارات الهواء نفسها قد عنوا بزخرفتها بالنقوش الجميلة التى لا تستطاع رؤيتها إلى بالمرقب .

وازدهرت فنون المعادن النفيسة والأحجار الكريمة وسط مظاهر الفاقة العامة ، فقد كان للملوك الميروڤنجيين صحاف من الذهب ، وقد جمع شارلمان فى آخن كنزاً من المصنوعات الذهبية . وكانت الكنيسة تحس، ومن حقها أن نغفر لها هذا الإحساس ، أنه إذا كان الذهب والفضة يزينان موائد الأشراف وأصحاب المصارف ، فإن من الواجب أن يسخرا أيضاً لخدمة ملك الملوك . ولهذا صنعت بعض المذابح من الفضة المنقوشة ، وبعضها من الذهب المنقوش ، كما نشاهد فى كنيسة القديس أمبروز St. Anbrose بميلان وفى كنيستى پستويا Pistoia وبازل . وكان الذهب هو المعدن الذى تصنع منه عادة الُحقَّةُ التى يوضع فيها الخبز المقدس ، ويصنع منه الوعاء الذى يعرض فيه على المؤمنين ليعظموه ، والكأس التى تحتوى النبيذ المقدس ، والعلب التى تحفظ فيها المخلفات المقدسة . ولقد كانت هذه الآنية فى كثير من الأحيان أجمل صنعا من أغلى الكؤوس التى تهدى للفائزين فى المباريات فى هذه الأيام . وكان الصياغ فى أسپانيا يصنعون الخيام البديعة التى يحمل فيها الخبز المقدس أثناء سير موكبه فى الشوارع . وفى باريس استخدم الصائغ بنار Bonnard (١٢١٢) ١٥٤٤ أوقية من الفضة وستين أوقية من الذهب ليصنع منها ضريحاً لعظام القديس چنيڤييڤ Genevieve . وحسبنا دليلا على

اتساع مجال فنون الصياغة الفصول التسعة والسبعون التى خص بها ثيوفيلس هذا الفن فى كتابه . فيها نجد أن كل صائغ فى العصور الوسطى كان ينتظر منه أن يكون هو وقلينى Cellini سواء — يصهر . وينحت ، ويطلى بالميناء ، ويركب الجواهر ، ويطعم . وكان فى باريس فى القرن الثالث عشر نقابة قوية للصياغ وتجار الجواهر ، وذاعت منذ ذلك الحين شهرة قاطعى الجواهر الباريسيين فى عمل الجواهر الصناعية(٥) . وكانت الأختام التى يبصم بها الأغنياء الشمع الموضوع على رسائلهم أو مظاريفها تصمم وتحفر بعناية فائقة ؛ وكان لكل رئيس دينى خاتم رسمى ، وكان كل رجل ظريف أو متظرف يتباهى بخاتم ، إن لم يتباهَ بأكثر من خاتم ، فى يده . ألا إن الذين يقدمون لبنى الإنسان أسباب غرورهم قلما يعدمون قوتهم .

وكانت النقوش البارزة الصغيرة على المواد الثمينة شائعة بين الأغنياء . وكان لهنرى الثالث ملك إنجلترا نقش من هذا النوع قدرت قيمته بمائتى جنيه (٤٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، وجاء بولدوين الثانى بنقش أعظم من هذا قيمة من القسطنطينية ليضعه فى سنت شابل Sainte Chapelle بباريس . وكان العاج يحفر بأعظم عناية ويبذل فى حفره جهد كبير طوال العصور الوسطى ، وتصنع منه أمشاط ، وعلب ، ومقابض ، وقرون للشرب ، وتماثيل مقدسة ، وجلود للكتب ، ومحافظ لأوراق الكتابة مزدوجة الثنايا أو مثلثها ، وعصى ، وصوالج الأساقفة ، وعلب وأضرحة ... وفى متحف اللوفر مجموعة من الأدوات العاجية من مخلفات القرن الثالث عشر تقرب من الكمال قربا يثير الدهشة ، وتمثل النزول عن الصليب . وقد غلب الخيال وغلبت الفكاهة على التقى فى أواخر هذا القرن ، فظهرت فى بعض الأحيان نقوش دقيقة لمناظر غاية فى الدقة فى بعض الأحيان على علب المرايا وصناديق الزينة المعدة للنساء اللاتى لا يستطعن أن يعكفن على التقى فى جميع الأوقات .

وكان العاج إحدى المواد التى استخدمت للتطعيم ، وهو الذى يسميه الإيطاليون intarsia (وهى كلمة مشتقة من اللفظ اللاتينى interserere ومعناه يدخل أو يحشر) ويسميه الفرنسيون تلبيساً Marquetry (من Marquer أى يعلم) . وكان الخشب نفسه يطعم به غيره من أنواع الخشب : كأن يحفر رسم فى قطعة من الخشب ثم تدخل فيها قطع من خشب آخر وتضغط وتغرى فى مواضع الحفر . وكان من أدق الفنون فى العصور الوسطى عمل الميناء السوداء (النيلو Niello من اللفظ اللاتينى Nigellus أى أسود)— فكان السطح المعدنى يحفر ويطعم بعجينة سوداء مكونة من مسحوق الفضة ، والنحاس ، والكبريت ، والرصاص ؛ فإذا جفت العجينة بُرِد سطحها حتى تلمع الفضة التى فى المزيج . وقد اصطنع فنجويرا Finiguerra من هذا الفن فى القرن الخامس عشر صناعة النقش على ألواح النحاس .

وقامت صناعة الخزف مرة أخرى من صناعة الفخار حينما أيقظ الصليبيون العائدون من الشرق أوربا من العصور المظلمة . وجاءت صناعة الميناء ذات الحزوز إلى بلاد الغرب من بيزنطية فى القرن الثامن . ولدينا من القرن الثانى عشر لوحة مصورة تمثل يوم الحساب(*) ، حفرت فيها الأجزاء المحصورة بين خطوط الشكل المرسوم على أرضية من النحاس ثم ملئ الفراغ بعجينة الميناء . وكانت مدينة ليموج Limoge الفرنسية تصنع الآنية المطعمة بالميناء منـذ القرن الثالث ، فلما كان القرن الثانى عشر أضحت هى المركز الرئيسى فى غربى أوربا لصناعة الميناء ذات الحزوز والميناء المصبوبة فوق النحاس . وكان الفخرانيون المسلمون فى أسبانيا المسيحية فى القرن الثالث عشر يغطون الآنية بطبقة لامعة من القصدير لا ينفذ فيها الضوء ، أو من الميناء ، ويتخذونها قاعدة

(*) وهى الآن فى متحف فكتوريا وألبرت .

للزخارف المصورة ؛ وفى القرن الخامس عشر استورد التجار الإيطاليون هذه الآنية من أسپانيا فى سفن مملوكة لأهل جزيرة ميورقة وسموا هذه الآنيـــة ميوليقة ، فاستبدلوا بحرف r حرف l على طريقتهم فى الترخيم .

وعاد فن الزجاج ، الذى كاد يبلغ حد الكمال فى رومة القديمة ، إلى مدينة البندقية من مصر وبيزنطية ؛ فنحن نسمع منذ عام ١٠٢٤ لا بعد عن اثنى عشر مصنعاً فى تلك المدينة ، بلغ من تنوع منتجاتها أن بسطت الحكومة حمايتها على هذه الصناعة . واقترحت أن يطلق على صانعى الزجاج اسم « السادة » . وفى عام ١٢٧٨ نقل صناع الزجاج إلى حى خاص فى جزيرة مورانو **Murano** ليكونوا هناك آمنين من جهة ، وللاحتفاظ بسرية الصناعة من جهة أخرى . وسنت قوانين صارمة تحرم على صناع الزجاج الانتقال إلى خارج الجزيرة أو الكشف عما فى هذه الصناعة من أسرار خفية . وظل البنادقة أربعة قرون يسيطرون من هذه البقعة الأرضية الضيقة على فن الزجاج وصناعته فى العالم الغربى ، وارتقى فنا طلاء الزجاج بالميناء وتذهيبه ؛ وكانت أليڤو ده ڤينزيا **Olivo de Venezia** تصنع منسوجات من الزجاج ؛ كما كانت مورانو تخرج مقادير كبيرة من الفسيفساء والخرز ، والقنينات ، والأكواب ، وأدوات المائدة ، المصنوعة كلها من الزجاج ، بل كانت تخرج مرايا زجاجية أخذت فى القرن الثالث عشر تحل محل المرايا المصنوعة من الصلب المصقول . وكانت فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا تصنع هى الأخرى زجاجاً فى هذه الفترة ذاتها ، ولكنه كان يستخدم كله تقريباً فى الأغراض الصناعية ، ما عدا الزجاج الملون البراق الذى كان يستخدم فى الكنائس الكبرى .

وكانت النساء على الدوام يُغمط فضلهن فى تاريخ الفن فلا ينلن ما هن خليقات به من التقدير . إن الزينة الشخصية والمنزلية من العناصر الجليلة الشأن فى فن الحياة ، ولقد هيأت أعمال النساء فى تصميم الأزياء ، وزينتها الداخلية ،

وزخرفها ، ونسجها ، والتصوير عليها ، هيأت أعمالهن فى هذا أكثر مما هيأت معظم الفنون من أسباب المتعة غير الحسة التى نستمدها من وجود الأشياء الجميلة الصامتة معنا أو بالقرب منا . وكان للمنسوجات الرقيقة المغزولة بحذق وعناية ذات المنظر الجميل والملمس اللطيف قيمة عالية فى عصر الإيمان ؛ فقد كانت تغطى مذابح الكنائس ، ومخلفات الأولياء ، والآنية المقدسة ، ويرتديها القساوسة ، وأفراد الطبقة الراقية فى المجتمع رجالا كانوا أو نساء . وكانت هذه المنسوجات نفسها تلف فى ورق ناعم لطيف رقيق ، اشتق اسمه من اسمها فسمى « ورق النسيج » واستطاعت فرنسا وانجلترا فى القرن الثالث عشر أن تنزلا القسطنطينية عن عرشها بوصفها أكبر منتج للتطريز الفنى ؛ فنحن نسمع فى عام ١٢٥٨ عن نقابات المطرزين فى باريس ؛ ويحدثنا ماثيو باريس Matthew Paris تحت عنوان سنة ١٢٤٦ أن البابا إنوسنت الرابع ذهل حين رأى الأحبار الإنجليز الذين زاروا رومة يرتدون ملابس مطرزة بالذهب وأمر أن تصنع مثل هذه الزخارف الإنجليزية الفخمة لحرامله وحلله التى يلبسها فى أوقات القداس . وكانت بعض ملابس رجال الدين مثقلة بالجواهر ، وخيوط الذهب ، واللوحات المصورة المصنوعة من الميناء إلى حد يصعب عليهم معه المشى وهم يرتدونها[٦] ؛ ولقد اشترى ثرى أمريكى ثوباً كهنوتياً يعرف باسم حبريه أسكولى Cope of Ascoli[*] بستين ألف دولار . وكان أشهر ثوب مطرز فى العصور الوسطى هو « ثوب شارلمان الدلماشى » وكان . الاعتقاد السائد أنه صنع فى دلماشيا ، ولكن يغلب على الظن أنه صنع فى القسطنطينية فى القرن الثانى عشر ، وهو الآن من أثمن التحف فى كنوز الفاتيكان .

(*) ولما عرف أنها مسروقة أعادها إلى الحكومة الإيطالية ، واكتفى بعدلاة جزاة له على أمانته .

وحلت السجف أو الأقمشة المطرزة التي تزين بها الجدران محل الصور الملونة في فرنسا وإنجلترا ، وبخاصة في الأبنية العامة . وكان يحتفظ بعرضها كاملة لأيام الأعياد ، فكانت في تلك الأيام تعلق تحت العقود بين أعمدة الكنائس ، وفي الشوارع ، وعلى القوارب في المواكب ؛ وكانت تنسج عادة من الصوف أو الحرير بأيدي « المتْعَبات » أي الوصيفات اللاتي يخدمن قصور سادة الإقطاع تحت إشراف أمينة القصر . وكان عدد كبير منها تنسجه الراهبات ، وبعضه ينسجه الرهبان . ولم تكن المنسوجات التي تزدان بها الجدران تطاول الصور الدقيقة الملونة في جمالها ؛ وكان يقصد بها أن ترى عن بعد ، وكان يضحي فيها بدقة الخطوط والظلال في سبيل وضوح الصورة ولألاء اللون وثباته . وكان يقصد بها تخليد ذكرى حادثة تاريخية أو قصة خيالية ذائعة الصيت ، أو تفريج هم من في داخل البيوت بتمثيل المناظر الطبيعية ، أو الأزهار ، أو البحر . وقد ورد ذكرها في فرنسا منذ القرن العاشر ، ولكن أقدم نموذج لها باق إلى اليوم لا يكاد يرجع عهده إلى ما قبل القرن الرابع عشر . وكانت فلورنس في إيطاليا ، وشنشيلا في أسبانيا وبواتييه ، وأراس ، وليل في فرنسا ، تتزعم مدائن الغرب في فن أقمشة الجدران والطنافس . هذا وليست أقمشة بايو Bayeux الذائعة الصيت في العالم كله من نوع هذه الأقمشة إذا أردنا الدقة في التعبير ، لأن النقوش التي عليها مطرزة على سطحها وليست جزءاً من النسيج . وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى كنيسة بايو التي ظلت تحتفظ بها زمناً طويلا ؛ وتعزوها الرواية المتواترة إلى ماتلدة زوجة وليم الفاتح وإلى السيدات اللاتي كن في بلاط ملوك النورمان ؛ ولكن العلماء الذين لا يبالون بإغضاب كرائم العقائل يفضلون أن يعزوها إلى صناع غير معلومين ، وإلى عصر أحدث من عصر وليم (٨) . وهذه الزينات تتنافس المؤرخين الإخباريين في كونها مصدراً من مصادر الفتح النورماندي . فقد نقش على قطعة من نسيج التيل الأسمر ، عرضها تسع عشرة بوصة وطولها إحدى وسبعون ياردة ،

ستون منظراً تصور على التوالى الاستعداد إلى الغزو ، وسفائن النورمان تشق القناة الإنجليزية بحآجنها العالية المصورة ، ومعركة هيستنج الوحشية ، وهارولد Harold يتلقى الطعنة ويموت ، وهزيمة الجنود الأنجليسكسون وتبدد شملهم ، وانتصار القوة المباركة . وهذه الأغطية أمثلة من أعمال التطريز الناطقة بالصبر الطويل ، ولكنها ليست من أجمل ما صنع من نوعها : وقد اتخذها نابليون فى عام ١٨٠٣ وسيلة يثير بها الفرنسيين إلى غزو إنجلترا(٩) ، ولكنه نسى أن يستعين على هذا الغزو ببركة الآلهة .

الفصل الثالث

التصـــوير

١ ـــ الفسيفساء

اتخذ فن التصوير فى عصر الإيمان ثلاثة أشكال رئيسية : الفسيفساء ، والتحلية الصغيرة للكتب ، والصور الجدارية ، والزجاج الملون .

فأما فن الفسيفساء فكان وقتئذ فى عهد الشيخوخة ، ولكنه كان فى خلال الألفى عام التى مرت عليه قد أثمر كثيراً من الدقة ؛ فقد كان صانعوه ، إذا أرادوا عمل الأرضية الذهبية التى يحبونها حباً جماً ، يلقون ورقة رقيقة من الذهب حول مكعبات من الفضة ، ويغطون هذه الورقة بغشاء رقيق من الزجاج ليمنعوا تلوث الذهب وقتامه ، ثم يضعون المكعبات المذهبة فى سطوح غير مستوية بعض الشىء ليمنعوا بذلك بريق السطوح . وكان الضوء ينعكس من هذه المكعبات فى زوايا مختلفة وبذلك يكسب القطعة كلها نسيجاً حياً .

وأكبر الظن أن فنانين بيزنطيين هم الذين غطوا القباء الشرقى فى إحدى الكنائس القديمة فى ترشلو Torcello — وهى جزيرة صغيرة قريبة من البندقية — وجدارها الشرقى بنقوش من الفسيفساء تعد من أروع ما خلفته العصور الوسطى(١٠) . وتمتد أعمال الفسيفساء فى كنيسة القديس مرقص على مدى سبعة قرون ، وتمثل أنماطها تلك القرون السبعة ؛ فقد أمر الدوچ دمنيكوسلفو Domenico Selvo بعمل أولى نقوش الفسيفساء الداخلية فى عام ١٠٧١ ؛ ويظن أنه استخدم فى هذا العمل فنانين بيزنطيين ؛ كذلك تمت فسيفساء عام ١١٥٣ تحت إشراف فنانين بيزنطيين ؛ ولم يكن للفنانين الإيطاليين الشأن الأكبر فى

تزيين كنيسة القديس مرقس بالفسيفساء قبل عام ١٤٥٠ ؛ وإن الرسم الفسيفسائى المنقوش فى القبة الوسطى فى القرن الثانى عشر ، والذى يمثل صعود المسيح لهو أسمى ما بلغه هذا الفن ، ويقرب منه فى روعته النقش الفسيفسائى الذى يمثل يوسف والموجود فى قبة البهو . ولقد ظل النقش الفسيفسائى الرخامى الموجود فى طوار الكنيسة مدى سبعمائة عام يقاوم خطى بنى الإنسان .

وفى الطرف الآخر من إيطاليا اتحد الفنانون اليونان والمسلمون فى صنع آيات النقش الفسيفسائى فى صقلية النورمانية — فى الكاپلا پلاتينا Capella Palatina وفى كنيسة مرترانا Martorana بمدينة پالرم Palermo ، وفى دير منريال Monreale وكنيسة كفالو Cefalu (١١٤٨) . وربما كانت حروب البابوية التى شبت نارها فى القرن الثالث عشر قد عاقت تقدم الفن فى رومة ؛ ولكن نقوشاً فسيفسائية متألقة صنعت فى ذلك القرن لتزدان بها كنائس سانتا ماريا مجيورى Santa Matia Maggiore ؛ وسانتا ماريا فى ترستفيرى Trastevere والقديس يوحنا فى لاتران « والقديس بولس خارج الجدران » . وكان فنان إيطالى هو الذى وضع تصميم النقش الفسيفسائى لكنيسة التعميد فى فلورنس ، ولكن هذا النقش لا يبلغ من الروعة ما بلغته أعمال الفنانين اليونان فى البندقية أو صقلية . وكان لدير سوجر فى سانت دنيس (١١٥٠) أرضية فسيفسائية فخمة احتفظ ببعض أجزائها فى متحف كلونى ؛ وإن طوار دير وستمنستر (حوالى عام ١٢٨٨) لمزيج من الظلال الفسيفسائية يثير الدهشة والإعجاب . غير أن فن الفسيفساء لم يزدهر قط فى شمال جبال الألب ، فلقد طغى عليه فى تلك البلاد الزجاج الملون كما طغت عليه فى إيطاليا نفسها حتى كادت تخرجه منها الصور الجدارية حين أقبل على هذا الفن دتشيو Duccio وسيمابيو Cimabue ، وچيتو .

٢ — نقوش المخطوطات

ظل تزيين المخطوطات بالرسوم والنقوش الصغيرة بالفضة المذابة والذهب المذاب ، وبالمداد الملون ، فناً محبوباً يوائم تقوى الأديرة وجوها الهادئ . وقد بلغ هذا الفن ذروته فى بلاد الغرب فى خلال القرن الثالث عشر ، شأنه فى هذا شأن كثير من أوجه النشاط فى العصور الوسطى ، ولم يبلغ بعدئذ فى وقت من الأوقات ما بلغه فى خلال ذلك القرن من دقة وابتكار وكثرة ، فقد حلت فى ذلك العهد محل الصور والكسى الجامدة ، والألوان الخضراء والحمراء القاسية التى كانت سائدة فى القرن الحادى عشر ، حلت محلها بالتدريج أشكال رشيقة رقيقة فى ألوان جمة العدد ، على أرضية زرقاء أو ذهبية ؛ وغلبت صور العذراء على هذه النقوش ، كما أخذت من ذلك الوقت تكثر فى الكنائس الكبرى .

ولقد أتلفت كتب كثيرة فى العصور المظلمة ، وتضاعف قيمة ما بقى منها لأنها كانت فى نصها وفنها خيطا رفيعاً من خيوط الحضارة إذا صح هذا التعبير(١١) . وكان الناس فى تلك الأيام يعتزون بكتب الترانيم ، وبالأناجيل ، والتراتيل ، وكتب القداس ، وكتب الصلوات ، وأدعية الساعات ، ويحسبونها الأدوات الحية التى تنقل إليهم الوحى الإلهى ، ولم يكونوا يرون أن أى مجهود يبذل فى تزيينها الزينة اللائقة بها أكثر مما تستحق . فكان الواحد منهم يبذل يوما كاملا فى كتابة الحرف الأول من كلمة ، وأسبوعا كاملا فى كتابة عنوان صفحة ، ولا يرى فى هذا خروجاً على المعقول ، وقد حدث فى عام ٩٨٦ أن أقسم هارتكر Hartker أحد رهبان القديس جول Gall أن يظل ما بقى من حياته الدنيوية داخل جدران أربعة ، ولعله كان يتوقع انتهاء العالم فى ذلك القرن . وظل فى صومعته الصغيرة حتى مات بعد خمسة عشر عاما من دخولها ، وفيها زين بالصور والنقوش تراتيل القديس جول(١٢) .

وكان فن المنظور وعمل القوالب وقتئذ أقل شأناً مما كانا عليه أيام ازدهارهما في عصر الكارولنجيين ، فقد كان أصحاب النقوش الصغيرة يعنون بعمق اللون وبهائه ، وازدحام الصور وحيويتها ، أكثر من عنايتهم بأن يخدعوا الناظر حتى يظن أن ما أمامه فضاء ذو ثلاثة أبعاد . وكانت أكثر موضوعاته تؤخذ من الكتاب المقدس ، أو من الأناجيل غير القانونية ، أو من أقاصيص القديسين ، ولكن صوراً للنبات والحيوان كانت تستخدم أحياناً في تلك الزينة ، وكان يسر صاحبها أن يصور نباتات وحيوانات خيالية كما يصور نباتات وحيوانات حقيقية . وكانت القواعد الكنسية المفروضة على الموضوعات وطريقة معالجتها في الكتب المقدسة نفسها أقل دقة وتحديدا في الغرب منها في الشرق ؛ وكان يسمح للمصور أن ينتقل ويلهو حرا في مجاله الضيق . وكانت رءوس بشرية مركبة على أجسام حيوانات ، ورءوس حيوانات على أجسام بشرية ، وكان قرد في زي راهب ، وقرد يختبر في وقار كوقار الطبيب قنينة ملأى بالبول ، وموسيقيٌّ يطرب سامعيه بحك فكي حمار — كانت هذه هي الموضوعات التي ازدان بها كتاب صلوات ساعات العذراء(١٣) . ونشأت نصوص غير هذه مقدسة ودنسة ، واتخذت لها مكانا في مناظر الصيد ، أو البرجاس ، أو الحرب ؛ وكان من الصور التي اشتمل عليها كتاب ترانيم من القرن الثالث عشر صورة تمثل داخل مصرف إيطالي ، ذلك أن العالم الدنيوي ، وقد استفاق من رهبة الأبدية ، أخذ يغزو أرباض الحياة الدينية .

وكانت الأديرة الإنجليزية موفورة الإنتاج في هذا الفن السلمي ، فقد أخرجت مدرسة أنجيليا الشرقية كتب مزامير واسعة الشهرة : منها كتاب محفوظ في مكتبة بركسل ، وآخر (« الأورمزي Ormbsy ») في أكسفورد ، وثالث (القديس أومر Omer) في المتحف البريطاني . ولكن خير ما أنتجه هذا الفن كان في فرنسا ؛ فقد بدأت كتب التراتيل التي زينت للويس التاسع طرازاً من النقوش الجامعة المركزة ، وتقسما إلى مدليات داخل إطارات ، نُقلت

بلا ريب عن زجاج الكنائس الملون . واشتركت الأراضى الوطيئة فى هذه الحركة ، فبلغ رهبان لييج وغنت فى فن تزيين الكتب بعض ما بلغه فن النحت فى أميَن Amiens وريمس Reims من الشعور الحماسى والرشاقة الفياضة ؛ وأخرجت أسبانيا أعظم آية مفردة من آيات هذا الفن فى القرن الثالث عشر فى كتاب ترانيم للعذراء هو تسابيح (ألفونسو العاشر) الملك الحكيم (حوالى عام ١٢٨٠) . وإن نقوشه الصغيرة البالغ عددها ١٢٢٦ نقشاً لتشهد بما كان يبذل فى كتب العصور الوسطى من كد وإخلاص . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الكتب كانت كتب خط كما كانت كتب تصوير ، وكان الفنان الواحد فى بعض الأحيان ينسخ أو يؤلف النصوص ويكتبها ، ثم يرسم النقوش بيده . وإن الإنسان ليتردد ، إذا أراد أن يحكم على كثير من الكتب ، أيهما أجمل زينتها أو نصها . ألا إننا قد خسرنا بالطباعة الشىء الكثير .

٣ – النقوش الجدارية

من العسير علينا أن نقول إلى أى حد أثرت زخارف الكتب من حيث موضوعها وأشكالها فى نقوش الجدران واللوحات المصورة ، والصور المقدسة ، ونقوش الخزف ، والنحت البارز ، والزجاج الملون ، وإلى أى حد أثرت هذه فى زخارف الكتب . لقد كان بين هذه الفنون تبادل كثير فى موضوعاتها وأنماطها ، وتفاعل مستمر ، وكان الفنان الواحد بعض الأحيان يمارسها جميعا ؛ وإنا لنظلم الفن والفنان معاً إذا ما فصلنا أحد هذه الفنون عن بقيتها فصلا تاما ، أو فصلنا الفنون عن الحياة القائمة فى أيامها ؛ ذلك أن الحقيقة أكثر ارتباطا فى أجزائها من تواريخنا ؛ وإذا ما جزأ المؤرخ عناصر الحضارة التى يجرى تيارها مجتمعاً فى مجرى واحد ، فإنما يفعل ذلك لسهولة البحث والإيضاح لا غير . وليس من حقنا أن نفصل الفنان عن الثقافة المعتدة التى ربته وعلمته ، وأمدته بالتقاليد والموضوعات —

وأثنت عليه أو عذبته ، واستخدمته ، ودفنته ، ونسيت اسمه أكثر مما ذكرته .

وكانت العصور الوسطى تقاوم الفردية ، وتعدّها من العقوق المفلس ، وتأمر العبقرى أن يغمر نفسه فى أعمال زمانه ومجرى حوادثه . وكانت الكنيسة ، والدولة ، والمدينة المستقلة ، ونقابة الحرف فى عرف ذلك الوقت هى الحقائق الخالدة ؛ وكانت هى الفنانين أنفسهم ، ولم يكن الأفراد إلا أيدى الجماعة ، وإذا ما قامت الكنيسة الكبرى على قواعدها كان جسمها وروحها يمثلان جميع ما قدسه واستنفده تصميمها ، وبناؤها ، وتزيينها من أجسام وأرواح . ومن أجل هذا ابتلع التاريخ جميع أسماء الرجال الذين نقشوا جدران عمائر العصور الوسطى قبل القرن الثالث عشر ، ولم يبق من هذه الأسماء إلا القليل ، وكادت الحروب ، والثورات ، والرطوبة التى توالت مدى الدهور . تبتلع أعمالهم . ترى هل كان فى أساليب ناقشى الجدران عيوب ؟ لقد كانوا يستخدمون أساليب المظلمات وأدهنة الجدران القديمة ، فيضعون الألوان على الجدران قبل أن يجف بياضها ، أو يرسمون على الجدران الجافة بألوان يجعلونها لزجة بما يدخلونه فيها من المواد الغروية . وكانوا يقصدون بكلتا الوسيلتين أن يخلدوا ما يرسمون ، إما بنفاذ الألوان فى الجدران أو بتماسكها ؛ ومع هذا كله كانت الألوان تتطاير على مر السنين ، ولذلك لم يبق لدينا إلا القليل من الرسوم الجدارية التى عملت قبل القرن الرابع عشر(*) . ويصف ثيوفيلس (١١٩٠) طريقة تحضير الألوان الزيتية ، ولكن هذه الصناعة لم تبلغ كثيراً من الرقى قبل عهد النهضة .

ويلوح أن تقاليد النقش الرومانى القديم على الجدران قد قضت عليها غارات القبائل المتبربرة وما أعقبها من فقر دائم عدة قرون . ولما أن بُعث فن النقش الجدارى الإيطالى ، لم يسترشد باعثوه بالتقاليد القديمة ، بل استرشدوا بأساليب

(*) لهذا يدهش الإنسان من براعة المصريين الأقدمين لأنه يرى الألوان على بعض آثارهم وكأنها قد خرجت تواً من تحت أيديهم . (المترجم)

بيزنطية النصف اليونانية والنصف الشرقية ؛ وإنا لنجد فى أوائل القرن الثالث عشر مصورين يونان يعملون فى إيطاليا — ثيوفانيس فى البندقية ، وأپلونيوس فى فلورنس وملورمس Melormus فى سينا . . . وتحمل أقدم لوحات الفن الإيطالى الموقع عليها من راسميها فى ذلك العهد أسماء يونانية ؛ وقد جاء هؤلاء الرجال معهم بموضوعات وأنماط بيزنطية — بصور رمزية ، دينية — صوفية ، وهم لا يدعون قط أنهم يمثلون مواقف أو مناظر طبيعية .

ولما زاد الثراء وارتقى الذوق تدريجاً فى إيطاليا خلال القرن الثالث عشر ، واجتذبت الهبات العالية التى كان يعطاها الفنانون رجالا من ذوى المواهب العالية ، شرع المصورون الإيطاليون — جيونتا پيزانو Giunta Pisano فى پيزا ، ولابو Lapo فى پستويا ، وجيدو Guido فى سَينا ، وپيترو كفلينى Pietro Cavallini فى أسيسى وروما ؛ شرع هؤلاء المصورون يهجرون الطريقة البيزنطية الخيالية الحالمة ، وينفثون فى رسومهم اللون الإيطالى والعاطفة الإيطالية . ولهذا نقش جيدو (١٢٧١) فى كنيسة سان دمنيكو فى سينا صورة للعذراء بزت بصورة « وجهها الصافى الحلو »[١٤] أشكال الرسوم البيزنطية الضعيفة التى لا حياة فيها ، والتى كانت سائدة فى ذلك العصر وتكاد هذه الصورة تكون بداية عصر النهضة الإيطالية .

وبعد جيل من ذلك الوقت دفع دتشيو دى بيونسنيا Duccio di Bouninsegna (١٢٧٣—١٣١٩) مدينة سينا فى سورة مدنية جمالية بصورة « الجلالة » Maesta التى تمثل العذراء فوق عرشها . وتفصيل ذلك أن المواطنين ذوى الثراء قرروا أن الأم المقدسة ، ملكتهم الإقطاعية ، يجب أن ترسم صورتها فى حجم رائع بيد أعظم فنان يعثرون عليه فى أى مكان ، وسرهم أن يختاروا لهذا الغرض دتشيو ابن بلدتهم ، ووعدوه بأن يقدموا له الذهب ، ووفروا له الطعام والوقت ، وراقبوا كل خطوة يخطوها فى عمله . ولما أتم الصورة بعد ثلاث سنين

(١٣١١) وأضاف إليها ذلك التوقيع المؤثر : — « أى أم الإله المقدسة ، هبى سينا السلام ودتشيو الحياة لأنه صورك فى هذه الصورة » — حملت الصورة (وكان طولها أربع عشرة قدماً وعرضها سبع أقدام) إلى الكنيسة يحف بها موكب من الأساقفة ، والقساوسة ، والرهبان ، والموظفين ، ونصف سكان المدينة ، وسط دوى الأبواق ودق النواقيس ، وكانت الصورة لا تزال نصف بيزنطية فى طرازها ، تهدف إلى التعبير الدينى لا التصوير الواقعى ، فقد كان أنف العذراء أطول و ... اعتدالا مما يجب أن يكون ، وكانت عيناها أكثر قتاماً ، ولكن الصور المحيطة بها كانت ذات رشاقة وصفات أخلاقية واضحة ، وكانت المناظر المأخوذة من حياة مريم والمسيح ، والمرسومة على منصات المذابح والأبراج ذات فتنة جديدة وجلية . وجملة القول أن هذه الصورة كانت أعظم ما صور قبل چيتو Giotto(*) .

وكان چيوڤنى سمابو Giovanui Cimabue (١٢٤٠ ؟ — ١٣٠٢) قد بدأ وقتئذ فى فلورنس أسرة من المصورين قُدّر لها أن تسيطر على الفن الإيطالى ما لا يكاد يقل عن ثلاثة قرون . وقد ولد چيوڤنى لأسرة شريفة ، وما من شك فى أنه قد أحزنها حين هجر القانون إلى الفن ؛ وكان ذا روح عالية متكبرة ، لا يتردد فى أن يطرح وراء ظهره أية صورة يجد فيها هو أو غيره من الناس عيباً ما . ومع أن مدرسته الفنية ، كمدرسة دتشيو ، فرع من المدرسة الإيطالية — البيزنطية ، فإنه قد أفرغ كل كبريائه وكل نشاطه ، فى فنه ؛ وأثمرت جهوده هذه ثمرة أوفت على الثورة ؛ وقد عمل هو ، أكثر مما عمل دتشيو الذى يعلو عليه فى مكانته الفنية ، على إبطال الطراز البيزنطى وشق طريق للرقى جديد . فنبى ورق الخطوط الجامدة التى كان يرسمها أسلافه ؛ وكسا الروح لحما ، ووهب اللحم دماً ودفئاً ، والآلهة والقديسين حناناً آدمياً ، واستخدم فى تصويره الألوان الزاهية

(*) والصورة الرئيسية محفوظة الآن فى « الأپرا » أى متحف كنيسة سينا .

الحمراء ، والقرنفلية ، والزرقاء ، فنفث فى صوره حياة ولألاء لم تعرفهما إيطالية العصور الوسطى قبل أيامه ، على أننا مضطرون إلى قبول كل ما ذكرناه عنه مستندين إلى شهادة معاصريه ؛ لأن الصور التى تعزى له ليس فيها صورة واحدة موثوق بأنها من صنع يده ، وأكبر الظن أن صورة **العذراء والطفل مع الملائكة** المرسومة بالطلاء المائى لمصلى روشلاى Rucellai فى كنيسة سانتا ماريا نوڤلا Santa Maria Novella بمدينة فلورنس ، أكبر الظن أن هذه الصورة من صنع دتشيو[١٥] . وتعرو رواية يشك فيها بعضهم ، ولكنها فى أغلب الظن صادقة ، إلى سمابيو صورة **العذراء والطفل بين أربعة ملائكة** الموجودة فى كنيسة سان فرانسسكو السفلى فى أسيسى . وهذا المظلم الضخم الذى يُرجع المؤرخون تاريخه عادة إلى عام ١٢٥٦ والذى أعيد فى القرن التاسع عشر ، هو أولى الآيات الفنية الباقية حتى الآن من روائع فن التصوير الإيطالى . وصورة القديس فرانسس التى فيه واقعية إلى حد يشهد بجرأة راسمها — فهى تمثل رجلا روعته رؤية المسيح إلى حد هزل معه جسمه ؛ وصورة الملائكة الأربعة هى بداية التآلف بين الموضوعات الدينية والجمال النسوى .

وعُيّن سمابيو فى آخر سنى حياته كبير أساتذة الفسيفساء فى كنيسة پيزا ؛ وفيها ، كما يقولون ، وضع لقبا الكنيسة تصميم فسيفساء **المسيح فى المجد بين العذراء والقديس يوحنا** . ويروى ڤسارى Vassari قصة لطيفة يقول فيها إن سمابيو وجد فى يوم من الأيام غلاماً من الرعاة فى العاشرة من عمره يسمى چيتو دى بندونى Giotto di Bondone ، يرسم بقطعة من الفحم صورة حَمل على أردواز ، فأخذه إلى فلورنس وجعله تلميذاً له[١٦] . وليس ثمة شك فى أن چيتو عمل فى مرسم سمابيو ، وأنه شغل منزل أستاذه بعد موته . وهكذا بدأت أعظم أسرة من المصورين فى تاريخ الفن .

٤ — الزجاج الملون

سبقت إيطاليا شمالى أوربا بمائة عام كاملة فى النقوش الجدارية والفسيفساء ، وتأخرت عن تلك البلاد مائة عام فى العمارة والزجاج الملون . وكان فن تلوين الزجاج معروفا عند الأقدمين ، ولكن أكثر ما عرفت منه كان فى صورة الفسيفساء الزجاجية ؛ فقد ملأ جريجورى التورى Gregory of Tours (٥٣٨ ؟ — ٥٩٣) نوافذ كنيسة القديس مارتن بزجاج « مختلف الألوان » ؛ وتحدث بولس المنظم(*) Paul the Silentiary عن جمال ضوء الشمس حين يمر خلال الشبابيك المختلفة الألوان فى كنيسة أياصوفيا بالقسطنطينية . ومبلغ علمنا أنه لم تبذل فى هذه الحالات أية محاولة لرسم صور بالزجاج الملون ، لكن أدلبرو Adalbero أسقف مدينة ريمس زين كنيسته حوالى عام ٩٨٠ بشبابيك « تحتوى تواريخ »[١٧] ، وتحتوى أخبار القديس بنينيس St. Benignus على وصف لـ « شباك مصور قديم جدا » يمثل القديس باسكاسيوس St. Paschasius ، فى كنيسة بديجون[١٨] . لقد كان هذا زجاجاً مؤرَّخاً ؛ ولكن يبدو أن اللون هنا قد وضع على الزجاج ولم يصهر فيه . ولما أن قلل فن العمارة القوطية من الثقل الذى تتحمله الجدران وهيأ بذلك مكاناً للنوافذ الواسعة ، سمح الضوء الكثير الذى يدخل الكنيسة بهذه الوسيلة — أو بالأحرى تطلب هذا الضوء — تلوين ألواح الزجاج ، وبهذا وجدت الحوافز القوية الكثيرة عن وسيلة لتلوين الزجاج تلويناً أبقى على الزمن من الوسيلة القديمة .

والراجح أن الزجاج ذا الألوان المصهورة قد تفرع من الزجاج المطلى بالميناء. ويصف ثيوفيلس فى عام ١١٩٠ هذه الصباغة الفنية الجديدة فيقول إن « رسما» أو تصميما يوضع على منضدة ويقسم أقساما صغيرة ، ويميز كل منها برمز للون

(*) المنظم هنا بمعنى الذى يحفظ النظام فى الاجتماع . (المترجم)

المرغوب فيه . ثم تقطع قطع من الزجاج قلما يزيد طولها أو عرضها على بوصة واحدة بقدر مساحة الرسم . وتلون كل قطعة من الزجاج باللون المطلوب وذلك بصبغة مكونة من مسحوق الزجاج المخلوط بأكاسيد معدنية مختلفة — الكوبلت للون الأزرق ، والنحاس للون الأحمر أو الأخضر ، والمنجنيز للأرجوانى . . . ثم يحرق الزجاج المطلى بعدئذ لتنصهر الأكاسيد والطلاء فى الزجاج ، وتوضع الأجزاء بعد تبريدها على التصميم ، وتلحم بعضها ببعض بقطع رفيعة من الرصاص . وإذا نظر الإنسان لشباك مصنوع من هذا الزجاج الفسيفسائى فإن العين لا تكاد تلاحظ قطع الرصاص ، بل تحسب أجزاءه سطحاً ملوناً متصلا . وكان أكبر ما يهتم به الفنان فى هذه الحال هو اللون ، وكان هدفه هو مزج الألوان ؛ ولم يبحث فى عمله عن الواقعية ، ولم يعن بالمنظور ؛ وكان يظهر الأشياء المرسومة فى صورته بأغرب الألوان — ففيها جمَّالة خضر ، وآساد قرنفلية ؛ وفرسان زرق الوجوه[١٩] . ولكنه حصل على النتيجة التى يبتغيها : حصل على صورة متلألئة مخلدة اللون ، وعلى تخفيف الضوء الداخل فى الكنيسة وتلوينه ، وعلى تعليم العابدين والسمو بنفوسهم .

وكانت الشبابيك — حتى « الورود » العظيمة منها — تقسم فى معظم الأحوال إلى لوحات مصـــورة ، ورصائع ، ودوائر ، ومعينات ، ومربعات ، وذلك لكى يمثل الشباك الواحد عدة مناظر فى سيرة أو موضوع ما . فكان أنبياء العهد القديم يصورون أمام نظائرهم فى العهد الجديد أو أمام نبوءاتهم التى تحققت فيه . وكان العهد الجديد تضاف إليه أجزاء من الأناجيل غير القانونية ، وقد كان ما تحتويه هـــذه الأناجيل الأخيرة من الأقاصيص ذات الخيال الجميل عزيزا على عقل العصور الوسطى محبباً له . وكانت القصص المأخوذة من حياة القديسين أكثر فى النوافذ من الحوادث المستقاة من الكتاب المقدس ؛ مثال ذلك أن مغامرات القديس يوستاس St. Eustace كانت تروى على شبابيك شارتر ،

وعلى شبابيك سان Sens ، وأوكسير Auxerre ولمـان Le Mans ، وتور . وقلما كانت حوادث التاريخ غير الدينى تظهر على الزجاج الملون .

ولم يمض نصف قرن على ظهور أول مثل للزجاج الملون فى فرنسا حتى وصل إلى درجة الكمال فى تشارتر ، وكانت شبابيك تلك الكنيسة الكبرى نماذج ينسج على منوالها أو أهدافا يسعى لبلوغها فى سان Sens، وليون Leon ، وبورج Bourges ، ورون . ومن هنا انتقل الفن إلى إنجلترا ، وأوحى إلى صناع زجاج كنتربرى ولنكلن ، وقد نصت معاهدة عقدت بين فرنسا وإنجلترا على أن يسمح لأحد المصورين على الزجاج عند لويس السابع (١١٣٧ — ١١٨٠) بأن يأتى إلى إنجلترا[٢٠] . وفى القرن الثالث عشر كبرت الأجزاء التى يتكون منها لوح الزجاج وفقد اللون بعض ما كان فى الأعمال الأولى من دقة واهتزاز ، وحلت فى أواخر ذلك القرن الزخارف المكونة من خطوط خارجية رفيعة حمراء أو زقاء اللون على قاعدة من لون واحد رمادى محل الألوان المتناسقة فى الكنائس العظمى ، وكان لفواصل الشبابيك نفسها ، وقد أخذت أشكالها تزداد تعقيداً على مر الأيام ، شأن أكبر فى الصورة ؛ ومع أن الزخارف السالفة الذكر أضحت على مر الزمان فنا جميلا ، فإن مهارة المصور على الزجاج أخذت تضعف تدريجا . ذلك أن روعة الزجاج الملون جاءت مع الكنائس القوطية الكبرى ، فلما زال مجد القوط ، زالت معه نشوة الألوان .

الفصل الرابع

النحت

لقد دُمر الكثير من أعمال النحت لأن البرابرة نهبوه على أثر انتصارهم في غزواتهم ، ولأن المسيحية الناشئة حسبته من قبيل عبادة الأوثان الدنيئة ؛ ولكن قليلا منه نجا من هذا الدمار وبخاصة في فرنسا ، فأثار خيال البربرية بعد أن روضت ، والثقافة المسيحية بعد أن نضجت . واحتفظت الدولة الرومانية الشرقية في هذا الفن ، كما احتفظت في غيره من الفنون ، بالنماذج والمهارات القديمة ، وأضافت إليها أساليب العرف والتصوف الأسوية ، وعادت فوزعت على الغرب البذور التي جاءت إليها قبل من رومة . وانتقل النحاتون اليونان إلى ألمانيا بعد أن تزوجت ثيودورا من أتو الثاني (٩٧٢) : وانتقلوا كذلك إلى البندقية ، ورافنا ، وروما ، ونابلي ، وصقلية ، ولعلهم انتقلوا أيضا إلى برشلونة ومرسيليا ؛ وليس ببعيد أن يكون المثالون الذين كانوا يعملون عند فردريك الثاني قد أخذوا فنهم عن هؤلاء الرجال وعن الفنانين المسلمين الخاضعين لسلطانه ؛ ولما أثرت البربرية كان في وسعها أن تجمع بين الهمجية والجمال ؛ ولما أثرت المسيحية ، سخّرت النحت كما سخرت غيره من الفنون لخدمة عقائدها وشعائرها الدينية ، وكانت هذه في آخر الأمر هي الطريقة التي نمت بها الفنون الكبرى في مصر ، وآسية ، وبلاد اليونان ، وروما : ذلك بأن الفن العظيم وليد الإيمان المنتصر .

ولم يكن النحت يفكر فيه على أنه فن مستقل بذاته ، بل كان يعد مرحلة من فن شامل ، ليس له اسم في لغة من اللغات — ذلك هو زخرفة العبادة ،

وشأنه فى هذا شأن الصور الجدارية ، والفسيفساء والزجاج الملون . فكانت مهمة المثال الأولى هى تجميل بيت الله بالتماثيل والنقوش البارزة ؛ وكانت مهمته الثانية هى صنع الصور والتماثيل الدينية لبث روح التقى فى البيت ؛ فإذا بقى بعد ذلك وقت ومال كان فى وسعه أن ينحت تماثيل لأشخاص دنيويين ، أو يزين أشياء لا تمت بصلة إلى الدين . وكانت المادة المفضلة فى النحت الخاص بالكنيسة هى التى تتسم بالبقاء كالحجر ، والرخام ، والمرمر ، والبرنز ؛ أما التماثيل فكانت الكنيسة تفضل أن تصنعها من الخشب ، ذلك بأن هذه التماثيل يستطيع حملها من غير مشقة المسيحيون السائرون فى المواكب الدينية . وكانت التماثيل تلون كما كان يحدث فى الفن الدينى القديم ، وكانت فى أكثر الأحيان واقعية أكثر منها مثالية ، تهدف إلى أن يشعر العابد بالنظر إلى صورة القديس أنه بين يديه ؛ وقد بلغ من نجاح المثالين فى بلوغ هذه الغاية أن كان المسيحى ، كما كان العابد فى الأديان القديمة ، ينتظر أن يصنع التمثالُ نفسُه المعجزات ، وقلما كان يخامره الشك إذا سمع أن ذراع المسيح المصنوعة من المرمر قد تحركت لتبارك إنساناً ، أو أن ثدى عذراء من الخشب قد در اللبن .

وخليق بكل من يدرس فن النحت فى العصور الوسطى أن يستشعر الندم حين يبدأ هذه الدراسة . ذلك أن قسما كبيراً من آثاره دمرها المتطهرون المتعصبون فى إنجلترا ، وكان البرلمان فى بعض الأحيان هو الآمر بهذا التدمير ، كما دمر الكثير من هذه الآثار فى فرنسا أثناء الإرهاب الذى تعرض له الفن أيام الثورة . وكان ذلك العمل الرجعي فى إنجلترا موجها إلى ما بدا لمحطمى الصور الجدد أنه زخرفة وثنية للأضرحة المسيحية ؛ أما فى فرنسا فكان يهدف إلى مهاجمة قبور الأشراف المكروهين وما لديهم من مجموعات فنية ودمى . ولهذا نجد فى جميع أنحاء البلدين تماثيل بلا رءوس . وأنوفاً مكسورة ، وتوابيت مهشمة ، ونقوشاً بارزة ، وطنفاً ، وتيجان عمد محطمة . ذلك أن ثورة جامحة من الحقد الدفين

الذى ظل يغلى زمناً طويلا فى الصدور على الاستبداد الكنسى والإقطاعى قد انفجر مرجلها آخر الأمر فى صورة تخريب شيطانى لهذه الآثار — وكأن الزمن وأتباعه من العناصر الجوية قد أجمعت أمرها فى ثورة من التدمير، فاكتسحت ظاهر التماثيل، وأذابت الحجارة، ومحت النقوش، وشنّت على أعمال الإنسان حرباً باردة صامتة، لم تتخللها قط هدنة؛ وشن الإنسان نفسه على هذه الآثار ألف حرب سعى فيها إلى النصر بالتنافس فى التدمير، فكان من أثر ذلك أننا لا نعرف النحت فى العصور الوسطى إلا من حطامه.

وإذا ما نظرنا إلى عناصره المتناثرة فى المتاحف، أضفنا إلى الأذى سوء الفهم. ذلك أن الفن الذى تمثله هذه العناصر لم يكن يقصد به أن ينظر إليه متفرقاً على هذه الصورة، فقد كان فى أصله جزءاً لا يتجزأ من موضوع دينى؛ وكان صرحاً معمارياً كاملا، ولهذا فإن ما قد يبدو لنا فجاً قبيحاً وهو بمفرده، قد يكون موائماً أحسن مواءمة لما يحيط به من الحجارة. لقد كان التمثال القائم فى الكنيسة الكبرى عنصراً فى مجموعة، موضوعاً فى المكان اللائق به، وكأنه يستطيل ليطاول علو الكنيسة الشامخ: فقد كانت الساقان متلاصقتين، والذراعان ملتصقتين بالجسم؛ وكان تمثال القديس فى بعض الأحيان يدق ويمتد حتى يصل إلى أعلى قائمة كتف الباب. وكان المثال يهدف فى أحيان قليلة إلى تقوية الأثر الأفقى لاالرأسى فى نفس المُشاهد؛ فكان يجعل التماثيل المقامة فوق الأبواب بدينة مفلطحة، كالتى نشاهدها فوق مدخل تشارتر؛ أو كان رجل أو حيوان يحشر فى تاج عمود كما كان يحشر الإله اليونانى قوصرة الباب أو الشباك، وبهذا انصهر فن النحت القوطى فأصبح جزءاً لا يتجزأ من فن العمارة الذى يزينه.

وكان خضوع النحت للعمارة فى طرازها وهدفها الهدف الذى يمتاز به فن القرن الثانى عشر بنوع خاص. ثم شهد القرن الثالث عشر ثورة جامحة من

جانب المثال فخرج وقتئذ من النزعة الشكلية إلى الواقعية ، ومن الصلاح إلى الفكاهة والهجاء وتذوّق الحياة الأرضية . فبينا نرى تماثيل القرن الثانى عشر الموجودة فى تشارتر مكتئبة جامدة ، إذ نرى تماثيل القرن الثالث عشر فى ريمس وقد فاجأها المثال أثناء حديثها الطبيعى أو عملها التلقائى . فمعارفها فردية ، وفى وضعها رشاقة ملحوظة ؛ وإن كثيراً من هذه التماثيل القائمة فى كنائس تشارتر وريمس لتشبه الفلاحين الملتحين الذين لا نزال نلتقى بهم فى القرى الفرنسية ، وتمثال الراعى الذى يدفئ نفسه بالنار والقائم فوق باب أمين Amiens الغربى قد يكون له نظير فى حقل بنورمندية أو جسپيه Gaspé فى هذه الأيام . وليس فى التاريخ كله نحت يضارع النقوش القوطية الكنسية فى واقعيتها الغربية . فنى رون نجد تمثال فيلسوف مفكر له رأس خنزير محشوراً فى أزهار من ذوات الورقات الأربع ، وطبيباً نصفه آدمى والنصف الآخر إوزة ، يدرس أنبوبة أخرى مليئة بالبول ، ومعلم موسيقى نصفه آدمى ونصفه ديك يلقى درسا على عضو غنطروس ، ورجلا أحاله ساحرٌ كلبا ، وظلت قدماه تلبسان حذاءيه[٢١] . وهناك صورة صغيرة مضحكة جاثمة تحت التماثيل فى تشارتر ، وأمين ، وريمس . وفى كنيسة استرسبرج تاج عمود أعيد إلى وضعه الأول منذ قليل يمثل دفن رينارد الثعلب Reynard the Fox : يحمل نعشه خنزير وجدى ، ويحمل الصليب ذئب ، وينير الطريق أرنبٌ بشمعة ، ويرش دب الماء المقدس ، وينشد القداسَ وعلٌ ، ويتلو حمار صلاة الجنازة من كتاب مستند إلى رأس قطة[٢٢] . وفى كنيسة بفرلى Beverley ثعلب على رأسه قلنسوة راهب يرتقى منبراً ويعظ طائفة من الإوز التقية المتدينة[٢٣] .

وتمثل الكنائس فيما تمثله حدائق حيوانات من الحجارة ، تكاد تجمع كل ما عرفه الإنسان من الحيوان ، وإن كثيراً من الحيوانات التى لم تمر إلا بمخيلة رجال العصور الوسطى لتجد لها مكاناً فى هذه المجموعات الضخمة التى لا تحصى

عديدها . ففى ليون **Leon** ستة عشر ثوراً تخور فوق أبراج الكنيسة الكبرى ، ويقولون لنا إنها تمثل الوحوش القوية التى ظلت السنين الطوال تنقل جلاميد الحجارة من المحاجر إلى الكنيسة القائمة على رأس التل . وتقول إحدى القصص الظريفة : إن ثوراً كان فى يوم من الأيام يصعد بمشقة فوق التل فوقع على الأرض من فرط الإعياء ، وظل الحمل متزناً اتزاناً مزعزعاً على منحدر التل حتى ظهر ثور بمعجزة من المعجزات ، وانزلق تحت عدة الثور الملقى على الأرض ، وجر العربة إلى قمة التل ، ثم اختفى فى الهواء السماوى الإعجازى(٢٤) . وإنا لنبتسم ساخرين من هذه القصص الخيالية ، ونعود إلى قراءة قصصنا التى تحدثنا عن الجرائم وعن العلاقات الجنسية .

واتسعت الكنائس أيضاً لحدائق النبات ، وهل ثمة بعد العذراء والملائكة والقديسين ، زينة لبيت الله أحسن من النباتات ، والفاكهة ، وأزهار الريف الفرنسى ، أو الإنجليزى ، أو الألمانى ؟ ولقد بقيت الزخارف النباتية القديمة — التى تمثل أوراق الكنكر والكرم — فى فن العمارة الرومنسية (٨٠٠ — ١٢٠٠) ؛ ثم حلت محل هذه الزخارف الشكلية العرفية فى الفن القوطى طائفة تدهش الإنسان لكثرتها من النباتات المحلية ، منقوشة على قواعد الأعمدة وتيجانها ، والأجزاء الشبه المثلثة التى بين العقود ، والعقود نفسها ؛ وفى الطنف ، والعمد نفسها ، والمنابر ، ومقاعد المرنمين ، وقوائم الأبواب ، والمصاطب ... وليست هذه الأشكال مما حدده العرف ، بل هى فى كثير من الأحيان أنواع فردية ، محبوبة فى البيئة التى صورتها ، وبعث فيها المؤلف الحياة . وتراها فى بعض الأحيان زينات مركبة من نباتات مختلفة جمعت بعضها إلى بعض ؛ وذلك أيضا مما ابتدعه الخيال القوطى ، ولكنها مع ذلك ظلت تُشعِر الناظر إليها بأنها من صنع الطبيعة . ترى هناك الأشجار ، والغصون ، والعساليج ، والأوراق ، والبراعم ، والأزهار ، والفاكهة ، والسرخس ، والشقيق الأصفر ، والطلح ، والكرسون المائى ، وعود الريح ، وأشجار الورد ،

والشليك ، والحسك ، والقصعين ، والبقدونس ، والسريس ، والكرتب ، والكرفس ، تساقط من مستودع الكنيسة الذى لا ينضب معينه ، لقد كان المثال ثملا ببهجة الربيع ، فهدت يده الإزميل فى الحجر . وليس الربيع وحده هو الذى تمثله هذه النباتات والأزهار المنحوتة ، بل إن جميع فصول السنة ممثلة فيها : وهى فوق هذا تطالعك بكل ما فى أعمال البذر ، والحصاد ، وعصر الخمر ، من كدح ومتعة ، وليس فى تاريخ النحت كله ما هو أجمل فى نوعه من « تاج عصر العنب » فى كنيسة ريمس الكبرى(٢٥) .

ولكن هذا العالم كله — عالم النبات والزهر ، والحيوان والطير — كان فى المرتبة الثانية إذا قيس إلى الموضوع الرئيسى فى فن النحت أثناء العصور الوسطى — وهو حياة الإنسان وموته . ففى تشارتر . ولاءون ، وليون Lyons ، وأكسير . وبورج نقوش أولية تروى قصة الخلق . وفى لاءون يعد الخالق على أصابعه ما بقى له من الأيام حتى يتم عمله . وتراه فى مناظر متأخرة عن هذا المنظر . وقد أجهده كدحه فى خلق الكون . متكئاً على عصاه . وجالساً ليستريح . ونائماً . ذلك إله يسع كل فلاح ساذج أن يفهمه . وثمة نقوش بارزة فى كنائس أخرى تصور أشهر العام وما اختص به كل شهر منها من عمل وبهجة ؛ وتبين نقوش غير هذه وتلك مختلف أعمال الإنسان فتصور الفلاحين فى الحقل أو عند معصرة الخمر ؛ وترى بعضهم يقودون الخيل أو الثيران وهى تشق الأرض أو تجر العربات ؛ ومنهم من يجز الضأن . أو يحلب البقر . وهناك طحانون . ونجارون . وحمالون . وتجار وفنانون وطلاب علم . بل إن هناك أيضاً فيلسوفاً أو فيلسوفين . ويصور المثال المعنويات المجردة عن طريق الأمثلة : فدونارتس Donartus يمثل النحو . وشيشرون الخطابة . وأرسطو الجدل . وبطليموس الفلك . وتجلس الفلسفة ورأسها فى السحب . وفى يمناها كتاب . وفى يسراها صولجان . فهى ملكة العلوم . وثمة نقوش ترمز إلى الإيمان وعبادة الأوثان . والأمل واليأس . والصدقات والبخل .

والعفة ، والدعارة ، والسلام ، والشقاق ؛ وفى لاءون نقش على باب عال يصور معركة بين الفضائل والرذائل ؛ وعلى الواجهة الغربية من كنيسة نوتردام فى باريس صورة امرأة رشيقة معصوبة العينين تمثل المعبد ، وأمامها امرأة أجمل منها فى ثياب ملكية وعليها سيماء من اعتادت الأمر والنهى وتمثل الكنيسة بوصفها عروس المسيح . أما المسيح نفسه فيبدو تارة رحيما وتارة أخرى رهيباً ؛ وتمثله بعض الصور وأمه تنزله من الصليب ؛ أو يقوم من القبر وبالقرب منه رسم رمزى يمثل أسداً يعيد الحياة بأنفاسه إلى أشباله ؛ أو يقضى فى رهبة بين الأحياء والأموات . وترى صور يوم الحساب فى كل مكان منحوتة أو مرسومة ملونة فى الكنائس ؛ ذلك أنه لم يكن يسمح للإنسان أن ينساها ؛ وهنا أيضاً لم يكن يستطاع الاعتماد إلا على شفيع واحد لغفران الذنوب ، ذلك هو مريم العذراء التى تبدو لهذا السبب فى الصور المنحوتة ، كما تبدو فى الأوراد ، صاحبة المكان الأول ، ومنبع الرحمة اللانهائية ، التى لا تسمح لابنها أن يفسر تفسيراً حرفياً تلك الكلمات القائلة إن الكثيرين يُدْعَون والقليلين يُختارون .

. إن فى فن النحت القوطى لعمقاً فى الشعور ، وتنوعاً ونشاطاً فى الحياة ، وتعاطفاً مع أشكال عالَم النبات والحيوان جميعاً ، وإن فيه لرقة ، وظرفاً ، ورشاقة ؛ فهو معجزة من الحجارة لا تكشف عن اللحم بل عن الروح ؛ وهذه كلها تحركنا وتشبعنا بعد أن فقدت روعة أجسام التماثيل اليونانية بعض ما كان لها من جاذبية . ولعل سبب ضياعها هو أننا بلغنا سن الشيخوخة . وتبدو الآلهة الثقيلة القائمة فى قوصرة البارثنون إذا وضعت إلى جانب الصور الحية التى أخرجها إيمان العصور الوسطى باردة ميتة . ولسنا ننكر أن النحت القوطى معيب من الناحية الفنية ، فليس فيه ما يضارع كمال إفريز البارثنون ، أو جمال آخنة بركستليز وإلاهاته الشهوانية ، أو سيدات نقش السلام وشيوخه فى رومة ؛ وما من شك فى أن صور أولئك الشبان ذوى الوسامة ، وصور أفروديتى اللينة العريكة ، كانت تمثل فى وقت ما

متعة الحب والحياة السليمة . ولكن آراءنا الدينية المبتسرة ، إذ تذكرما فيها من جمال وتغفل عما فيها من رهبة ، تعود بنا المرة بعد المرة إلى الكنائس الكبرى وترجّح كفة الإله الجميل المصور فى أمين والملاك الباسم المصورفى ريمس ، وعذراء شارتر .

وكان المثال فى العصور الوسطى كلما زادت مهارته فى فنه قوى أمله فى تحرره من فن العمارة وفى أن يعمل فيه أعمالا توائم الذوق الدنيوى المتزايد عند الأمراء والأحبار ، والأشراف ، والطبقة الرأسمالية المتوسطة . ففى إنجلترا كان نحاتو الرخام فى پربك Purbeck يستخدمون النوع الممتاز الذى يقطعونه من نتوء دورسسترشير Dorestershire ، واشتهر فى القرن الثالث عشر بالعمد والتيجان الجاهزة ، وبالدمى المضطجعة التى ينحتونها على توابيت الأموات الأغنياء — وصب وليم تورل William Torel وهو صائغ من أهل لندن حوالى عام ١٢٩٢ تمثالين من البرنز لهنرى الثالث وإليانور القشتالية زوجة ولده ليوضعا فى قبرهما الرخاميين فى دير وستمنستر ؛ ويبلغ هذان التمثالان من الجمال والدقة ما تبلغه أية تحفة برنزية فى ذلك العصر . واجتمعت فى ذلك الوقت مدارس للنحت عظيمة الشأن فى ليبج ، وهلسدهايم Hildesheim ونومبرج Naumburg . ونحت مثّال غير معروف حوالى عام ١٢٤٠ التمثالين القويين البسيطين — ذوى الأثواب الفخمة — لهنرى الأسد وابوته القائمين فى كنيسة برنزويك Brunswick . وتزعمت فرنسا أوربا بأجمعها فى جمال تماثيلها الرومنسية (فى القرن الثانى عشر) والقوطية (فى القرن الثالث عشر) ولكن معظم هذه التماثيل قائمة فى كنائسها الكبرى ، ولهذا فإن خير مكان تدرس فيه هو هذه الكنائس .

ولم يكن النحت فى إيطاليا وثيق الصلة بالعمارة ، ولا بالمدن ذات الحكومات المستقلة ، ولا بنقابات الحرف كما كان فى فرنسا ؛ ومنذ [illegible] الثالث عشر

نجد فنانين منفردين تسيطر شخصياتهم على أعمالهم وتخلد أسماءهم . من هؤلاء نيقولو بيزانو Niccolo Pisano الذى اجتمعت له عدة مؤثرات مختلفة انصهرت كلها فخرجت منها شخصية مركبة فذة . فقد ولد هذا الفنان فى أبوليا عام ١٢٢٥ ، واستمتع فيها بالجو الحافز الذى يحيط بحكم فردريك الثانى ؛ ويبدو أنه درس فيها بقايا الفن الإيطالى القديم وآثاره المعادة(٢٦) . ثم انتقل إلى بيزا وورث فيها التقاليد الرومنسية ، وسمع بالطراز القوطى الذى بلغ وقتئذ ذروة مجده فى فرنسا . ولما أن نحت منبراً لمكان التعميد فى بيزا اتخذ له نموذجاً تابوتاً فى عهد هدريان . وقد تأثر أشد التأثير بالخطوط القوية الرشيقة التى تمتاز بها الأشكال القديمة ، ولهذا فإن معظم الأشكال التى فى منبره ذات ملامح وثياب رومانية وإن كانت أقواسه رومنسية وقوطية ؛ فوجه مريم الذى نراه فى لوحة المخاض وثيابها هما بعينهما وجه امرأة رومانية وثيابها ، ونرى فى إحدى الزوايا صورة لشخص رياضى عار شاهدة على الروح اليونانية القديمة التى كان يتأثر بها هذا الفنان . ودبت الغيرة من هذه التحفة فى قلب سينا (١٢٦٥) فاستخدمت نقولو وابنه چيوڤنى ، وتلميذه أرنلفو دى كمبيو Arnolfo di Cambio فى صنع منبر أجمل من هذه لكنيستها . وحالفهم التوفيق فى هذه المهمة . ويقوم المنبر الجديد المصنوع من الرخام الأبيض على عمد ذات تيجان تمثل أوراق النبات ، وتتكرر فيه الموضوعات التى فى منبر بيزا مع لوحة مزدحمة تمثل الصلب . وهنا يتغلب التأثير القوطى على التأثير الرومانى القديم . ولكن المزاج القديم يظهر فيما يسبغه الفنان على الصور النسائية التى تتوج الأعمدة من رقة سابغة لا خفاء فيها . وكأنما أراد نقولو أن يؤكد عواطفه الرومانية القديمة فنحت فوق قبر القديس دمنيك الناسك فى بولونيا صوراً كاملة الرجولة على الطراز الوثنى مليئة ببهجة الحياة . وانضم فى عام ١٢٧١ إلى ابنه وأرنلفو لينحتوا الواجهة الرخامية التى لا تزال حتى اليوم قائمة فى [illegible] يا العظم . ومات بعد [illegible] سنتين من ذلك الوقت . وهو لا يزال إلى

حد ما فى سن الشباب ، ولكنه مهد فى أثناء حياته السبيل إلى دناتلو Donatello وإلى بعث فن النحت القديم فى عصر النهضة .

وكان ابنه چيوفنى پيزانو (حوالى ١٢٤٠ إلى حوالى ١٣٢٠) يضارعه فيما تعرض له من تأثير متعدد النواحى ، ولكنه يفوقه فى مهارته الفنية . وقد عهدت إليه پيزا بناء مقبرة تليق بالرجال الذين كانوا فى ذلك الوقت يقتسمون البحر المتوسط الغربى مع چنوى . وجئ بالتراب المقدس للميدان المقدس Compo Santo من جبل كلفارى . وأقام الفنان حول مستطيل كلئ عقوداً رشيقة امتزج فيها الطرازان الرومنسى والقوطى . وجيئت بروائع النحت لتزيين البوائك ، وظل الميدان المقدس قائماً يخلد ذكرى چيوفنى پيزانو حتى حطمت الحرب العالمية الثانية نصف عقوده وتركته أنقاضاً مهملة(*) .

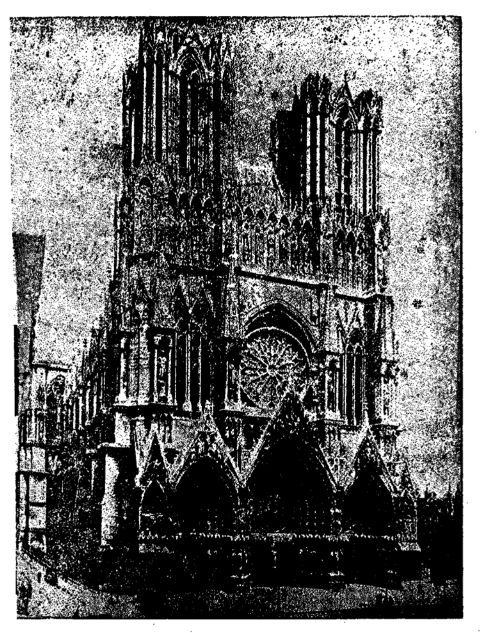
ولما منى الپيزيون بالهزيمة على أيدى الجنويين (١٢٨٤) لم يعد فى مقدورهم أن يمدوا چيوفنى بما يحتاجة من المال ، فانتقل إلى سينا . ونحت فى عام ١٢٩٠ بعض النقوش البارزة لواجهة كنيسة أرڤيتو Orvieto الغربية غير المألوفة . ثم عاد فانتقل شمالا إلى پستونيا Pistonia ونحت لكنيسة سانتا أندريا Santa Andrea منبراً صوره أقل اكتمالا فى رجولتها من صور منبر والده فى پيزا ، ولكنة يفوق منبر أبيه فى رشاقته وفى اتفاقه مع الطبيعة ؛ والحق أن هذا المنبر لهو أجمل ما أخرجه فن النحت القوطى فى إيطاليا .

وظل أرنلفو دى كمبيو (١٢٣٢ — ١٣٠٠) ثالث هؤلاء الثلاثة الذائعى الصيت يمارس عمله على الطراز القوطى برعاية البابوات ، وكانت لمعظمهم روابط سابقة بفرنسا . فقد اشترك وهو فى أرڤيتو فى قطع واجهة كنيستها ، وصنع تابوتاً جميلا للكردنال ده براى Cardinal de Braye . وكان شبيهاً بفنانى النهضة فى

(*) والعمل يجرى الآن فى إعادة الميدان المقدس إلى ما كان عليه .

تعدد مهاراتهم ؛ وبهذه المهارات المتعددة صمم ، وشرع ينفذ ، ثلاثة من الأعمال المجيدة التى تفخر بها فلورنس : كنيسة سانت ماريا دل فيورى Santa Maria del Fiori ، وكنيسة سانتا كروس Santa Croce (الصليب المقدس) والبلازو ڤتشيو Plazzo Vecchio (قصر ڤتشيو)

ولكننا حين نتحدث عن أرنلفو وعن هذه الأعمال ننتقل بالقارئ من النحت إلى العمارة . فقد عادت كل الفنون وقتئذ إلى الحياة وإلى الصحة ؛ ولم ترجع المهارات القديمة إلى سابق عهدها وكنى، بل أخذت تغامر فى اتجاهات وصياغات فنية جديدة تكاد لكثرتها تبلغ حد التهور ؛ وتآلفت الفنون وتوحدت ، كما لم تتآلف أو تتوحد من قبل ولا من بعد ، فى المغامرة الواحدة وفى الرجل الواحد . وكان كل شيء قد أعد لتلك الدرجة الرفيعة التى بلغها فن العصور الوسطى ، فتجتمع الفنون كلها وتتعاون أكمل تعاون وأعظمه ، ويطلق اسم فنها الجامع على طراز ذلك العصر وفنه .



(الصورة رقم ٤) كتدرائية ريمس

الباب الثاني والثلاثون

ازدهار الفن القوطي

١٠٩٥ - ١٣٠٠

الفصل الأول

الكتدرائيات(*)

نرى لم شادت أوربا هذا العدد الجم من الكنائس فى الثلاثة القرون التى أعقبت عام ١٠٠٠ بعد الميلاد ؟ وأية حاجة دعت إلى أن تنشأ فى أوربا التى لا يكاد سكانها فى ذلك الوقت يصلون إلى خمس سكانها الحاليين معابد قلما تمتلئ لسعتها بالمصلين فى أكثر الأيام قدسية ؟ وكيف استطاعت حضارة زراعية أن تنشئ بمواردها تلك الصروح الكثيرة النفقة التى تكاد الحضارة الصناعية تعجز عن الاحتفاظ بها ؟

لقد كان السكان قليلين ، ولكنهم كانوا مؤمنين ، وكانوا فقراء ، ولكنهم كانوا يبذلون بسخاء عظيم . ويقول سوجر رئيس دير القديس دنيس إن العابدين فى أيام الأعياد ، وفى الكنائس التى يؤمها الحجاج ، كانوا من الكثرة بحيث « تضطر النساء إلى الجرى إلى المذبح متخذات من رءوس الرجال طوارا »[1] ، ولسنا ننكر أن الرئيس العظيم كان يجمع المال لبناء تلك الآية الفنية ، وأنه

(*) الكتدرائية هى الكنيسة الرئيسية فى الأسقفية وفيها يكون مقر الأسقف أو عرشه . (المترجم)

خليق لهذا السبب بأن نغفر له بعض مغالاته . ولكن أسبابا كثيرة كانت تدعو إلى بناء الكنائس بهذه الكثرة وتلك السعة : لقد كان من المرغوب فيه أن يجتمع سكان بعض المدن مثل فلورنس ، وبيزا ، وتشارتر ، ويورك ، فى صرح واحد فى بعض المناسبات . كذلك كان لا بد أن تتسع كنيسة الدير المزدحم للرهبان والراهبات ولغير رجال الدين . وكان لا بد من أن تحفظ المخلفات المقدسة فى أضرحة خاصة تتسع أيضا للصفوة من العابدين ، وكانت الحاجة تدعو إلى وجود بناء مقدس رحب تقام فيه الطقوس الكبيرة ، وإلى مذابح جانبية فى الأديرة والكتدرائيات التى ينتظر أن يتلو قساوستها الكثيرون القداس فى كل يوم ؛ وكان الاعتقاد السائد أن مذبحا أو مصلى يخصص لكل قديس محبوب قد يدعوه إلى إجابة طلبات من يتوسلون إليه ؛ وكان لا بد أن يبنى لمريم « مصلى نسائية » إذا لم تكن الكنيسة كلها ملكا لها .

أما نفقات هذه الصروح فقد كان معظمها يؤخذ مما يجمع من الأموال فى كرسى الأبرشية ؛ وكان الأساقفة فضلا عن هذا يطلبون العطايا من الملوك والنبلاء ، والمدن ذات الحكم الذاتى ، والنقابات الطائفية والأبرشيات ، والأفراد . وكانت المنافسة الطيبة تثار بين المدن التى أضحت الكتدرائية فيها رمزا لثرائها وسلطانها ، تتحدى بهما غيرها من المـــدن ؛ وكان المتبرعون يوعدون بأن تغفر لهم ذنوبهم ، كما كانت المخلفات المقدسة يطاف بها فى الأبرشية لتحفز الناس إلى العطاء ، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يحرض الناس على البذل والسخاء بمعجزة من المعجزات(٢) . وكان التنافس فى بذل المال للبناء شديداً ؛ وكان الأساقفة يعارضون فى جمع المـــال من أبرشياتهم لإقامة منشآت فى غيرها ، ولكن أساقفة من أجزاء أخرى ، ومن بلاد أجنبية فى بعض الأحيان ، كانوا يمدون بالمعونة مشرعات فى غير بلادهم كما حدث فى مدينة تشارتر . ولسنا ننكر أن بعض هذه الطبقات كانت تقرب أحيانا من الإلزام ، ولكنها قلما تصل إلى قوة

المؤثرات التى تعبأ لتمويل الحروب الحديثة من الأموال العامة . وقد استنفدت هيئات القساوسة فى الكتدرائيات الفرنسية أموالها الخاصة ، وكادت تفلس من أجل ذلك الكنيسة الفرنسية فى خلال سورة البناء القوطية . ولم يكن الناس أنفسهم يشعرون وهم يتبرعون بالمال بأنهم يُستَغلون ، وقلما كانوا يحسون بفقد القليل الذى يبذله كل فرد منهم ، لأن هذا القليل كان يرد إليهم فيما يعود عليهم من عزة جماعية وعمل جليل عظيم ، وفيما يكون لهم من بيت للعبادة ، ومكان رحب يجتمعون فيه ، ومدرسة يتعلم فيها أبناؤهم ، ومدرسة للفنون والحرف تتلقاها فيها نقاباتهم الطائفية ؛ وكانت فى نظرهم كتاباً مقدسا من الحجارة يقرءون فى تماثيله وصوره بعين بصيرتهم قصة إيمانهم . وقصارى القول أن بيت الله كان أيضاً بيت الشعب .

ومن هم الذين خططوا الكتدرئيات ؟ إذا كانت العمارة هى فن تخطيط البناء وتجميله ، وتوجيه القائمين بتشييده فإن علينا أن نرفض — فى حالة الفن القوطى — الرأى القديم القائل إن القسيسين أو الرهبان هم مهندسو هذه الصروح . لقد كانت مهمتهم هى أن يصوغوا حاجتهم ، وأن يتقدموا بفكرة عامة عن البناء المطلوب ، ويحصلوا على مكان يقيمونه فيه ، ويجمعوا ما يلزمه من المال . وقد جرت عادة رجال الدين وبخاصة رهبان دير كلونى قبل عام ١٠٥٠ أن يصمموا البناء ، ويضعوا خطته ، ويشرفوا على بنائه . أما الكتدرائيات الكبرى — كلها بعد عام ١٠٥٠ — فقد كان لا بد فيها من استخدام مهندسين محترفين ، كانوا كلهم — إلا قلة منهم لا تذكر — من غير الرهبان أو القسيسين . ولم يكن المهندس المعمارى يلقب بهذا اللقب قبل عام ١٥٦٣ ، بل كان يسمى فى العصور الوسطى « رئيس « البنائين » وأحيانا رئيس المشيدين » ، وتدلنا هذه التسمية على منشئه . فقد كان يبدأ حياته بنَّاء يعمل بيده فى البناء الذى يشرف عليه . فلما استهل القرن الثالث عشر وعظم الثراء ، فشيدت بفضله الصروح الكبيرة ، وزاد

التخصص ، لم يبق « رئيس البنائين » رجلا يشترك بنفسه فى العمل اليدوى ، بل أصبح رجلا يضع الخطط ويعرض المناقصات ؛ ويقبل المشارطات ؛ ويخطط الأرض ، ويضع الرسوم ، ويحصل على المواد ، ويؤجر العمال والفنانين ، ويؤدى إليهم أجورهم ، ويشرف على أعمال البناء من البداية إلى النهاية . وإنا لنعرف أسماء الكثيرين من هؤلاء المهندسين الذين عاشوا بعد عام ١٠٥٠ ، نعرف أسماء ١٣٧ من المهندسين القوط فى أسبانية العصور الوسطى بله غيرها من البلاد . ومن هؤلاء من كانوا ينقشون أسماءهم على ما يشيدونه من الأبنية ، ومنهم قلة ألفت كتباً فى مهنتها . وقد ترك ڤلار ده هنكور Villard de Honnecourt (حوالى عام ١٢٥٠) سجلا من المذكرات والرسوم التخطيطية المعمارية توضح ما قام به من الأسفار وهو يمارس مهنته من ليون وريمس إلى اوزان وبلاد المجر .

ولم يكن للفنانين الذين يقومون بأعمال أقل درجة من البناء — أى الذين يحفرون الصور ، والنقوش ، أو يدهنون النوافذ والجدران ، أو يزينون المذبح أو مكان المرتلين — لم يكن لهؤلاء الفنانين اسم خاص يمتازون به من الصناع ؛ لقد كان الفنان رئيس صناع ، وكانت كل صناعة تحاول أن تكون فنا . وكانت معظم الأعمال توزع بمقتضى عقود ومشارطات على النقابات الطائفية التى ينتمى إليها الصناع والفنانون على السواء . أما العمل الذى لا يحتاج إلى مهارة فكان يقوم به أرقاء الأرض أو عمال متنقلون مأجورون ؛ وإذا ما طلب العمل الإسراع جندت الحكومة رجالا — وصناعا ماهرين إذا لزم الأمر — لإنجازه(٣) . وكانت ساعات العمل تدوم فى الشتاء من مطلع الشمس إلى مغيبها ، وفى الصيف من بعد مطلع الشمس إلى قبيل الغروب ، مع السماح للعمال بوقت يتناولون فيه وجبة الغذاء . وكان المهندسون الإنجليز يتقاضون فى عام ١٢٧٥ اثنى عشر بنسا فى اليوم (١٢ سنتاً أمريكيا) تضاف إليها أجور الانتقال وهدايا فى بعض الأحيان .

وكان تخطيط أرض الكتدرائية فى جوهره هو تخطيط الباسلقا الرومانية : فهو صحن مستطيل ينتهى بمحراب وقبا ، ويرتفع فوق طرقتين وبينهما إلى سقف قائم على جدران وعمد . وطرأ على هذه الباسلقا البسيطة تطور معقد ولكنه فاتن خلاب ، فأضحت هى الكتدرائية الرومنسية أولا والقوطية فيما بعد ، فقطع الصحن والطرقتين صحنٌ عَرْضى يجعل التصميم فى شكل صليب لاتينى . وأخذت مساحة أرض الكتدرائية تزداد بفضل المنافسة أو الحماسة الدينية ، حتى أضحت مساحة كنيسة نوتردام فى باريس ٦٣٫٠٠٠ قدم مربعة ، ومساحة كنيسة تشارتر أو ريمس ٦٥ ألفاً ، وكنيسة أمين ٧٠ ألفاً ، وكولونى ٩٠ ألفاً والقديس بطرس ١٠٠ ألف . وكانت الكنيسة المسيحية تبنى بحيث يكاد رأسها أو محرابها يكون على الدوام متجهاً نحو الشرق — أى نحو بيت المقدس .

ومن أجل هذا كان المدخل الرئيسى فى الواجهة الغربية التى تستقبل زخرفتها الخاصة ضوء الشمس الغاربة . وكان كل مدخل فى الكتدرائيات العظيمة يتألف من باكية ذات « تجويفات داخلة » : أى أن أبعد العقود من الداخل يعلوه عقد أكبر منه يمتد إلى الخارج ، من فوقه هو أيضاً عقد يعلوه عقد ثالث أكبر من الثانى ، ويتكرر هذا الوضع حتى تبلغ العقود فى بعض الأحيان ثمانى طبقات يتكون منها كلها غلاف قابل للاتساع . وهناك « طبقات ثانوية » شبيهة بها تزيد جمال عقود الصحن وأكتاف الشبابيك . ويتسع كل رباط حجرى من العقد المعمارى لتماثيل أو غيرها من الزخارف المنحوتة ، وبذلك يصبح مدخل الكتدرائية ، وبخاصة فى الواجهة الغربية ، وكأنه فصل شامل واف فى كتاب القصص المسيحى الحجرى .

ومما زاد روعة الواجهة الغربية ومهابتها أن أقيم حولها من الجانبين برجان ؛ ذلك أن الأبراج قديمة قدم السجلات التاريخية ؛ ولم تكن تستخدم فى الطرازين الرومنسى والقوطى مكاناً للأجراس فحسب ، بل كانت تستخدم فوق ذلك

لتحمل ضغط الواجهة الجنوبى ؛ وضغط طوب الأجنحة : وكان فى المبانى النورمندية والإنجليزية برج ثالث ذو نوافذ كثيرة ، إذا لم يكن جزوه الأكبر مفتوحاً عند قاعدته ، وكان هذا البرج بمثابة « فانوس » ينفذ منه الضوء الطبيعى إلى وسط الكنيسة . وقد أراد المهندسون القوط المولعون بالأوضاع الرأسية أن يضيفوا برجا رفيعاً مستدق الطرف لكل واحد من هذين البرجين ، غير أنهم لم يسعفهم المال ، أو المهارة الفنية ، أو الحماسة ؛ وسقطت بعض هذه الأبراج المستدقة كما حدث فى بوفيه ؛ ولم تقم فى كتدرائيات نوتردام ، أو أمين ، أو ريمس أبراج من هذا النوع ، ولم يُبن فى تشارتر إلا برجان من الثلاثة الأبراج المستدقة التى كان فى النية إقامتها ، كما لم يُبن فى لاؤن إلا واحد من خمسة ، وقد دمر هذا البرج المستدق فى أثناء الثورة الفرنسية . وكان برج الجرس يشرف على المدن الإيطالية ، كما كان البرج المستدق يشرف على برارى البلاد الأوربية والشمالية . وكانت هذه الأبراج فى تلك الجهات الشمالية منفصلة عادة عن بناء الكنيسة ، تشبه من هذه الناحية برج پيزا Pisa المائل ، أو برج جيتو فى فلورنس . ولعل من شادوها قد تأثروا بالمآذن الإسلامية ، ثم عادوا فنشروا هذا الطراز فى فلسطين وسوريا ، وأصبحت هى أبراج الأجراس فى المدن الشمالية .

وإذ كانت العمد التى على جانبى الطرقة الوسطى فى داخل الكنيسة تعتمد عليها عقود تنحنى حتى تلتقى فى قبة السقف ، فإن هذه الطرقة تبدو للناظر كأنها هيكل المركب من الداخل فى وضع مقلوب ، ومن هذا الوضع اشتق اسمها nave(*) . وكان طولها ينقص تأثيره فى نفس الناظر إليه أحياناً ، وبخاصة فى إنجلترا ، بإضافة شباك من الرخام أو الحديد المشغول منحوت أو مصبوب نحتاً أو صباً جميلا يعترض الصحن ليقى المحراب من تطفل العلمانيين أثناء الصلاة .

(*) الاسم الإنجليزى nave الذى يطلق على صحن الكنيسة أى جزئها الأوسط العام مشتق من كلمة net الفرنسية المأخوذة من كلمة navis اللاتينية ومعناها السفينة . (المترجم)

وكان فى المحراب مقاعد للمرنمين كلها تحف فنية على الدوام ، ومنبران ، ومقاعد للقساوسة الذين يصلون بالناس ، والمذبح الرئيسى الذى يحتوى فى أغلب الأحيان على ستار خلفى مزخرف . ومن حول المحراب ممشى دائرى يصل صحن الكنيسة بقبابها ، ويسمح للمواكب بأن تطوف بالبناء كله . وكانت بعض الكنائس تنشئ تحت المذبح قبواً تحفظ فيه مخلفات القديس الشفيع ، أو عظام الأموات الممتازين ، وكأنها بذلك تذكرنا بحجرات الدفن فى مقابر الرومان .

وكانت المشكلة الكبرى فى العمارة الرومنسية أو القوطية هى طريقة ارتكاز السقف . لقد كانت الكنائس الأولى المقامة على الطراز الرومنسى ذات سقف خشبية مصنوعة فى العادة من خشب البلوط الجيد الجفاف ؛ وإذا ما أحسنت تهوية هذا الخشب ومنعت عنه الرطوبة فإنه يبقى إلى ما شاء الله ، وشاهد ذلك أن الطرقة الجنوبية المستعرضة فى كتدرائية ونشستر لا تزال محتفظة بسقفها الخشبى المصنوع فى القرن الثانى عشر . وأكبر عيب فى هذه السقف هو تعرضها لخطر الحريق ، فإذ ما شبت النار فيها كان من الصعب الوصول إليها لإطفائها . ولهذا فإنه لم يستهل القرن الثانى عشر حتى كانت الكنائس الكبرى كلها تقريباً قد بنيت سقفها . وكان ثقل هذه السقف هو الذى وجه تطور العمارة الأوربية فى العصور الوسطى ؛ فكان لا بد من أن يرتكز قسم كبير من هذا الثقل على العمد المقامة على جانبى الصحن ؛ وإذن فقد كان لا بد من تقوية هذه العمد أو مضاعفة عددها ، وقد تحقق هذا الغرض بضم عدد من العمد فى مجموعة أو إحلال دعامات ضخمة من البناء محل هذه العمد . وكانت مجموعة العمد أو الدعامة الضخمة يعلوها تاج ، وربما كانت لها أيضا عصابة يتسع بها سطحها لتحمل ما يعلوها من ثقل . وكانت مروحة من العقود تقوم فوق كل مجموعة من العمد أو الدعامة : منها عقد مستعرض فى الصحن يمتد إلى الدعامة المواجهه ، وعقد مستعرض آخر يمر فوق الطرقة إلى دعامة فى الجدار ، وعقـــدان طوليان يمتدان إلى الدعامتين التاليتين

الخلفية منهما والأمامية ، وعقدان ممتدان على طولى القطرين ويصلان بين إحدى الدعامات ودعامتين مقابلتين لها فى عرض الصحن ؛ وقد يكون هناك عقدان آخران ممتدان إلى دعامتين مقابلتين يعلوان فوق عرض الممشى . وقد جرت العادة أن يكون لكل عقد ركيزته الخاصة فوق عصابة الدعامة أو تاجها . وكان يحدث أحياناً ما هو خير من هذا فيكون مستطيل كل عقد فى خط غير منقطع حتى يصل إلى الأرض ليكون طائفة من العمد المتجمعة أو الدعامات المركبة . وكان الأثر الذى ينتج من هذه العمد والدعامات الرأسية من أجمل خصائص الطرازين الرومنسى والقوطى . وكان كل مربع من الدعامات القائمة فى الصحن أو الطرقات يكون فرجة ترتفع منها العقود منثنية انثناء رشيقاً نحو الداخل ليتكون منها قسم من القبة . وكان هذا السقف يغطى من الخارج بسطح هرمى من الخشب تستره وتقيه طبقة من الاردواز أو القرميد .

وكانت قبة السقف أعظم ما أنتجته عمارة العصور الوسطى . وقد سمح مبدأ العقود بإيجاد فضاء يغطى أوسع رقعة من السطح الذى ييسر وجوده السقف الخشبى أو العوارض المرتكزة على العمد . وبهذا أصبح من المستطاع توسيع عرض الصحن حتى يوائم طوله الكبير ؛ فلما زاد هذا العرض تطلب ذلك زيادة ارتفاعه حتى يتناسب الارتفاع مع سعته ؛ وييسر هذا ارتفاع المستوى الذى تقوم فوقه الدعامات أو الجدران ؛ وهذه الاستطالة الجديدة فى العمد زادت هى الأخرى من علو الكتدرائية . وزاد تناسق أجزاء القبة لما أنشئت فى حافاتها « ضلوع » من الآجر أو الحجارة تمتد من زوايا تقاطع العقود . وأدت هذه الضلوع هى الأخرى إلى تحسينات كبرى فى البناء والطراز . فقد عرف البناءون كيف يبدأون القبة بإنشاء ضلع بعد ضلع فوق إطار خشبى يسهل تحريكه ونقله ؛ ثم ملأوا المثلثات التى بين كل ضلعين بالبناء الخفيف مثلثاً بعد مثلث ، وجعلوا هذه الشبكة الرقيقة من البناء مقعرة ؛ وبهذا نقل الجزء الأكبر من ثقله إلى الضلوع

نفسها ، وجعلت هذه الضلوع قوية حتى يلقى الضغط السفلى على نقط معينة — هي دعامات الصحن أو الجدار . ولقد أضحت القبة ذات الأضلاع والعقود المتقاطعة من أهم ما تمتاز به عمارة العصور الوسطى فى أعلى درجاتها .

وعولجت مشكلة ارتكاز البناء العلوى فوق هذا يجعل صحن الكنيسة أعلى من طرقاتها ؛ وبهذا كان سقف الطرقة ، هو والجدار الخارجى ، بمثابة دعامة لقبة الصحن ؛ وإذا ما بنيت فوق الطرقة نفسها قبة ، فإن عقودها المضلعة تلقى نصيف ثقلها إلى الداخل لتقاوم بذلك الضغط الخارجى للقبة الوسطى عند أضعف نقط فى دعامات الصحن . يضاف إلى هذا أن جزء الصحن الذى يعلو عن سقف الطرقات يصبح فى الوقت نفسه بمثابة طابق أعلى ترتفع نوافذه فوق مستوى البناء المجاور له ، فتكون بذلك غير محجوبة وتضىء صحن الكنيسة . وكانت الطرقات نفسها تقسم عادة إلى طابقين أو ثلاثة أطباق تكون أعلاها شرفة ، وتسمى التى أسفل منها ذات الأبواب الثلاثة لأن المسافات التى بين العقود والتى تواجه بها الصحن كانت تقسم عادة إلى « ثلاثة أبواب » بعمودين يقومان فيها . وكان ينتظر من النساء فى الكنائس الشرقية أن يصلين فى ذلك المكان وأن يتركن الصحن كله للرجال .

وهكذا قامت الكتدرائية مرحلة فى إثر مرحلة خلال عشرة أعوام أو عشرين عاما أو مائة عام ، تتحدى قوة الجاذبية لتمجد الله سبحانه . فإذا تمت وأصبحت معدّة للصلاة دشنت باحتفال دينى فخم ، يجتمع فيه كبار الأحبار وذوو المقام العالى ، والحجاج ، والنظارة ، وجميع أهل المدينة ما عدا القرويين غير المتدينين . وتمضى عدة سنوات بعد ذلك لتكملة ما تحتاج إليه من الإضافات فى الداخل والخارج وإضافة ألف من الزخارف وضروب التحلية . ويظل الناس قروناً طوالا يقرأون على أبوابها ، ونوافذها ، وتيجان أعمدتها وجدرانها ما حفر أو صور عليها من تاريخ دينهم وقصصه — يقرأون قصة خلق العالم ، وسقوط آدم ، ويوم

الحساب ، وسير الأنبياء والبطارقة وما تعرض له أولياء الله الصالحون من صنوف العذاب وما قاموا به من المعجزات ، والقصص ذات المغزى التى تدور حول عالم الحيوان ، وعقائد رجال الدين التحكمية ، بل وآراء الفلاسفة التجريدية . كل هذه نجدها فى الكنيسة تتكون منها موسوعة حجرية كبيرة فى الدين المسيحى . وكان المسيحى الصالح يرجو حين يموت أن يدفن بالقرب من تلك الجدران التى تمتنع الشياطين عن الجولان حولها . ويأتى الناس جيلا بعد جيل للصلاة فى الكتدرائية ، ويخرجون جيلا بعد جيل من الكنيسة إلى المقابر التى حولها . وتظل الكتدرائية الشهباء عليهم فى غدوهم ورواحهم بهدوء الحجارة الساكنة حتى يجىء الموت الأعظم ، ويموت الدين نفسه ، فتستسلم هذه الجدران المقدسة إلى الدهر الذى لا يبقى على شىء ، أو حتى تهدم هذه الكتدرائية لتبنى من أنقاضها هياكل جديدة لآلهة جدد .

الفصل الثانى

الطراز الرومنسى القارى : ١٠٦٦ — ١٢٠٠

لو أننا قلنا إن هذا الوصف العام الذى وصفنا به بناء الكتدرائية يصدق على جميع الكنائس فى العالم المسيحى اللاتينى لأخطأنا خطأ كبيراً فى شأن تنوع العمارة الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ذلك أن تأثير الفن البيزنطى قد بقى قائماً فى مدينة البندقية ؛ وقد أضيفت إلى كنيسة القديس بطرس زخارف بعد زخارف ، وأبراج بعد أبراج ، وغنائم تلو غنائم ، ولكنها كانت على الدوام على نمط مثيلاتها فى القسطنطينية ممتزجة بأخرى من بغداد . وأكبر الظن أن طراز القباب البيزنطى ذا المثلثات التى بين العقود القائمة فوق قاعدة يونانية على شكل الصليب ، قد دخل فرنسا عن طريق جنوى أو مرسيليا ، وظهر فى كنيستى سانت إتين St. Etienne وسانت فرونت St. Front فى برجويه Perigucx وفى كتدرائيتى كاهور Cahors وأنجوليم Angoulême . ولما أن اعتزمت البندقية إعادة بناء قصر الدوج وتوسيعه عمدت فى عام ١١٧٢ إلى خليط من الطرز المعمارية — الرومانية ، واللمباردية ، والبيزنطية ، والعربية — وجمعتها كلها فى آية من آيات الفن وصفها ڤيلهاردون Villehardouin فى عام ١٢٠٢ بأنها جد غنية وجميلة ، ولا تزال حتى الآن أكبر مفاخر القناة الكبرى فى تلك المدينة .

وليس ثمة تعريف لأى طراز معمارى يسلم من الشواذ ، ذلك بأن أعمال الإنسان ، كأعمال الطبيعة نفسها ، تأبى التعميم ، وتُلَوِّح بفرديتها فى وجه كل قاعدة . فلنقل إذن إن العقد المستدير ، والجدران والدعامات السميكة ، والنوافذ الضيقة ، ومساند الجدران المتصلة بعضها ببعض أو انعدام هذه المساند ، والخطوط الأفقية فى الغالب ، لنقل إن هذه الصفات هى التى يمتاز بها الطراز الرومنسى ،

ولنكن مستعدين مع هذا إلى قبول بعض الانحراف عن هذا الوصف فى هذا الطراز .

وقد طلبت پيزا بعد ما يقرب من قرن من إقامة كنيستها إلى ديوتيسالڤى Diotisalvi أن يبنى مكاناً للتعميد فى عرض مربع من مربعات الكتدرائية (١١٥٢) . فصمم البناء على شكل دائرة وجعل ظاهر البناء من الرخام ، وشوهه بالبواكى الخالية من النقوش ، وأحاطه بالعمد ، وأقام فوقه قبة لولا أنه جعل أعلاها مخروطى الشكل لكانت كاملة . ثم أقام بونانو Bonanno من پيزا ووليم من إنزبروك Innsbruck البرج المائل ليكون برجا للأجراس (١١٧٤) . وقد تكرر فيه طراز واجهة الكتدرائية — فهو سلسلة من البواكى الرومنسية بعضها فوق بعض وفى طبقته الثامنة علقت الأجراس . وهبط البرج فى ناحيته الجنوبية بعد أن بنيت ثلاث طبقات فوق الأساس الذى لم يزد عمقه على عشر أقدام ؛ وأراد المهندس أن يعوض هذا الميل بأن أمال الطبقات الأخرى نحو الشمال . وينحرف البرج الآن عن الوضع العمودى ست عشرة قدماً ونصف قدم فى ارتفاع ١٧٩ قدماً — وقد زاد هذا الانحراف قدماً واحدة بين عامى ١٨٢٨ و ١٩١٠ .

وجاءت الأنماط الرومنسية مع الرهبان الإيطاليين الذين هاجروا إلى فرنسا ، وألمانيا ، وإنجلترا ، ولعل هؤلاء الرهبان هم الذين طبعوا معظم الأديرة الفرنسية بالطابع الرومنسى ، ولهذا فقد أصبح طراز الأديرة اسماً ثانياً لهذا الطراز فى فرنسا . وقد شاد رهبان دير كلونى البندكتيون فيها ديراً فخماً (١٠٩٨ — ١١٣١) يحتوى على أربع طرقات جانبية وسبعة أبراج ، ونحتوا طائفة كبيرة من تماثيل الحيوانات أثارت غضب القديس برنار وأنطقته بقوله :

ماذا تريدون أن تفعل هذه الوحوش السخيفة المضحكة فى أروقة الدير تحت سمع الرهبان وبصرهم ؟ وما معنى وجود هذه القردة النجسة ، وتلك

التنينات ، والقنطروسات ، والثورة ، والآساد . . . وأولئك المقاتلين ، ومناظر الصيد التي تغطي الجدران ؟ . . . وماذا تعمل تلك المخلوقات التي نصفها وحوش ونصفها أناسي ؟ . . . إنا لنرى هنا عدة أجسام تحت رأس واحد ، وعدة رؤوس فوق جسم واحد ، ونرى في مكان ما حيواناً من ذوات الأربع له رأس ثعبان ، وفي مكان آخر سمكة لها رأس حيوان من ذوات الأربع ؛ ونرى في مكان غيره جواداً من الأمام وماعزاً من الخلف(٤) .

وقد دمر دير كلوني في أثناء اضطرابات الثورة الفرنسية ، ولكن أثره المعماري انتشر في الألفين من الأديرة المنتسبة إليه . ولا يزال جنوبي فرنسا غنياً بالكنائس الرومنسية ، فقد كانت التقاليد الرومانية فيها قوية في الفن كما كانت قوية في القوانين ، وظلت زمناً طويلا تقاوم الطراز « البربري » القوطي الذي أقبل عليها من الشمال . وإذ كان الرخام نادراً في فرنسا فقد عوضت نقص البريق الخارجي بكثرة الصور المنحوتة ، وإن ما تمتاز به التماثيل من قوة التعبير لما يثير الدهشة — ففيها يتبين الناظر العزم على نقل الإحساس بدل نقل المنظر ؛ ولهذا فإن صورة القديس بطرس القائمة عند باب دير مواساك Moissac (١١٥٠) بوجهها المعذب وساقيها العنكبوتيتين لم تكن تهدف بلا ريب إلى إبراز خطوط البناء بقدر ما كانت تهدف إلى التأثير في خيال الناظر إليها وبث الرعب في قلبه . وتدل صور النبات الدقيقة الواقعية في تيجان أعمدة مواساك على أن المثالين قد عمدوا عن قصد إلى تشويه ما يرسمون من الصور . وخير ما يوجد من هذه الواجهات الرومنسية في فرنسا هو المدخل الغربي لكنيسة القديس تروفيم St. Trophime في آرل (١١٥٢) ، المزدحمة بصور الحيوانات والأولياء الصالحين .

وشادت أسبانيا ضريحاً رومنسياً فخماً في كنيسة سنتياجو ده كمپستسيلا (١٠٧٨ — ١٢١١) الذي يحوي « باب المجد » Portico de Gloria فيها

أجمل نحت رومنسى فى أوربا كلها . وشادت كوامبرا Coimbra ، التى أضحت بعد زمن وجيز مدينة البرتغال الجامعية ، كتدرائية رومنسية فى القرن الثانى عشر ، ولكن الطراز الرومنسى لم يبلغ ذروته إلا فى البلاد الشمالية التى هاجر إليها . لقد نبذته إيل ده فرانس Ile de France ولكن نورمندية أحسنت استقباله ، لأن قوتها الخشنة كانت توائم أحسن مواءمة شعباً كان من عهد قريب من بحارة الشمال المغيرين ، ولم يزل حتى ذلك الوقت من القراصنة . ولهذا شاد رهبان چوميبچ Jumièges البندكتيون وهى بلدة قريبة من رون — فى عام ١٠٤٨ ديراً اشتهر بأنه أكبر من أى دير سواه شيد فى أوربا الغربية منذ أيام قسطنطين ، ذلك بأن العصور الوسطى كانت تفخر أيضاً بضخامة مبانيها . وقد دمر هذا الدير نصف تدمير على أيدى المتعصبين من رجال الثورة ، ولكن واجهته وأبراجه الباقية حتى الآن تحتفظ بتصميمه الجرىء القوى . والحق أن الفرع النورمندى من الطراز الرومنسى قد تكوّن فى ذلك المكان ، وكان يعتمد فى تأثيره على الحجم وشكل البناء أكثر مما يعتمد على الزينة .

وأراد وليم الفاتح أن يكفر عن ذنبه بزواج ماتلدة أميرة فلندرز فقدم فى عام ١٠٦٦ المال اللازم لبناء كنيسة سانت إتين فى كائن Caen وهى المعروفة بدير الرجال Abbays aux Homme ؛ وقدمت ماتلدة ، لهذا الغرض عينه فيما نظن ، ما يلزم من المال لبناء كنيسة الثالوث La Trinité المعروفة بدير النساء Abbys aux Dames ولما أريد إعادة بناء دير الرجال فى عام ١١٣٥ قسمت كل فرجة بين العمد فى صحن الكنيسة بعمود إضافى فى كل ناحية ، وربط العمودان الجديدان بقوس مستعرضة ، وبهذا أضحت القبة الرباعية قبة سداسية ، وهو شكل انتشر فى أوربا فى القرن الثانى عشر .

وانتقل الطراز الرومنسى من فرنسا إلى فلاندرز وأنشئت على هذا الطراز كتدائية جميلة فى تورناى (١٠٦٦) ؛ ومن فلاندرز ، وفرنسا ، وإيطاليا انتقل

إلى ألمانيا . وكانت مدينة مينز قد بدأت كتدرائيتها فى عام ١٠٠٩ ، وترير Trier فى عام ١٠١٦ واسپاير Speyer فى ١٠٣٠ ، ثم أعيد بناء هذه الكنائس قبل عام ١٣٠٠ ، واحتفظ فيها حين إعادتها بالطراز المستدير ، وشادت كولونى فى ذلك الوقت فى كپتول Kapitol كنيسة القديسة مارية التى اشتهرت بجمالها من الداخل وكنيسة القديسة مارية الشهيرة بأبراجها . وقد دمرت الكنيستان فى الحرب العالمية الثانية . ولا تزال كتدرائية ورمز التى افتتحت فى عام ١١٧١ وأعيد بناؤها فى القرن التاسع عشر تشها .مظـه فن نهر الرين الرومنسى . وكان لكل واحدة من هذه الكنائس قبا فى كل طرف ، وقلما كان يعنى فيها بالواجهات ذات التماثيل المنحوتة ، بل كانت تزدان من الخارج بالعمد وتدعم بأبراج أخرى صغيرة رفيعة ذات أشكال مختلفة . وإن الناقد غير الألمانى ليمتدح هذه الأضرحة بالاعتدل المنبعث من نزعته الوطنية ، ولكن الألمانى يرى فيها جمالا فاتنا يوائم كل المواءمة جمال بلاد الرين الجذاب .

الفصل الثالث

الطراز النورمندى فى إنجلترا : ١٠٦٦ — ١٢٠٠

لما جلس إدورد المعترف على العرش فى عام ١٠٤٢ جاء معه بكثير من الأصدقاء والأفكار من بلاد نورمندية التى قضى فيها أيام شبابه . وبدأ دير وستمنستر فى أيامه كنيسة نورمندية ذات عقود مستديرة وجدران ثقيلة ؛ وقد دفن هذا البناء تحت الدير القوطى الذى شيد فى عام ١٢٤٥ ؛ ولكنه كان بداية انقلاب معمارى خطير ؛ وكان الإسراع فى استبدال الأساقفة النورمنديين بالسكسون والدنمرقيين مما أكد غلبة الطراز النورمندى فى إنجلترا ؛ ونفح وليم الفاتح وخلفاؤه الأساقفة بكثير من الثروة المصادرة من الإنجليز الذين لم يقـدروا فتح بلادهم حق التقدير وأضحت الكنائس أداة لتهدئة العقول ؛ وما لبث الأساقفة الإنجليز النورمنديون أن بلغوا من الثراء ما بلغه النبلاء الإنجليز النورمنديون ؛ وتضاعف عدد الكتدرائيات والقصور ، وتحالفت بعضها مع بعض فى البلاد المفتوحة . وكتب فى ذلك وليم الملمزبرى William of Malmsbury يقول : « وأخذوا كلهم ينافس بعضهم بعضا فى إقامة العمائر الفخمة على الطراز النورمندى ؛ لأن النبلاء كانوا يشعرون بأن اليوم الذى يحتفلون فيه بعمل فخم عظيم يوم ضائع »(٥) ؛ والحق أن إنجلترا لم تشهد قط سورة جنونية فى البناء كالتى شهدتها فى ذلك الوقت ؛

وتفرعت العمارة النورمندية الإنجليزية من الطراز الرومنسى وكانت مغايرة له فى بعض أجزائه . فقد حذت حذو المثل الفرنسية فى ارتكاز السقف بعقود مستديرة على دعامات سميكة وجدران ثقيلة — وإن كانت سقفها قد صنعت فى العادة



(الصورة رقم ٥) دير وستمنستر بلندن

من الخشب . وإذ كانت القبة من الحجارة فقد كان سمك الجدران يتراوح بين ثمان أقدام وعشر . وكانت معظم الكنائس أشبه بالأديرة فى أنها تقام فى أماكن نائية لا فى المدن . ولم يكن فى الكنيسة إلا قليل من التماثيل الخارجية ، لأن القائمين عليها كانوا يخشون على هذه التماثيل من مناخ البلاد الرطب ، وحتى تيجان الأعمدة كانت تنحت نحتاً بسيطاً غير دقيق ؛ والحق أن إنجلترا لم تبلغ فى النحت ما بلغته بلاد القارة الأوربية ؛ وإن لم تكن فى تلك البلاد أبراج كثيرة تضارع الأبراج العظيمة التى تشرف على القصور النورمندية أو تحرس وجهات الكنائس النورمندية — أو ملتقى الطرقات المغطاة فيها .

ولا يكاد يبقى إلى وقتنا هذا فى إنجلترا كلها بناء كنسى رومنسى خالص . فقد ارتفعت فى كثير من الكتدرائيات العقود والقباب فى القرن الثالث عشر ، ولم يبق فيها إلا الشكل الأساسى النورمندى : وقد دمرت النار كتدرائية كنتربرى القديمة فى عام ١٠٦٧ ، ثم أعاد لافرانك بناءها (١٠٧٠ — ١٠٧٧) على نمط دير الرجال الذى له فى كائن ، ولم يبق من كنيسة لافرانك إلا قطع قليلة من البناء فى المكان الذى سقط فيه بكت . ثم أقام الرئيسان إرنلف وكنراد سردابا جديداً ومكاناً للمرتمين ، واحتفظا بالعقد المستدير ولكنهما نقلا الضغط على نقط تقويها مساند خارجية . وكان الانتقال إلى الطراز القوطى قد بدأ قبل ذلك الوقت .

واختفت فى عام ١٢٩١ كنيسة يورك التى شيدت فى عام ١٠٧٥ على قواعد نورمندية ، وكان اختفاؤها تحت صرح قوطى ، وأعيد بناء كتدرائية لكلن ، التى كانت فى الأصل (١٠٧٥) نورمندية الطراز ، على الطراز القوطى ، وكان ذلك بعد أن دمرها زلزال عام ١١٨٥ ؛ ولكن الكنيسة النورمندية الأولى بقى منها البرجان الكبيران والأبواب الفخمة النحت ، ومنها يستبين الإنسان ما يمتاز به الطراز القديم من حذق وقوة . وفى ونشستر بقيت من الكتدرائية القديمة التى

أقيمت بين عامى ١٠٨١ و ١١٠٣ طرقاتها المتقاطعة وسردابها . وهذه الكنيسة هى التى بناها الأسقف ولكلين Walkelin لاستقبال الوفود التى كانت تحج إلى قبر القديس إسويثين(*) . وقد لجأ إسويثين إلى ابن عمه وليم الفاتح ليمده بالخشب اللازم لسقف صحنها العظيم الاتساع ؛ وأجاز له وليم أن يأخذ من غابة همپاج Hempage كل ما يستطيع قطعه من الأشجار فى ثلاثة أيام ، فما كان من أتباع ولكلين إلا أن قطعوا جميع أشجار الغابة ونقلوها فى اثنتين وسبعين ساعة . ولما تم بناء الكتدرائية شهد تدشينها رؤساء الأديرة الإنجليزية وأساقفتها كلهم تقريبا ؛ وليس من العسير علينا أن نتصور ما أثاره هذا الصرح الضخم من منافسة قوية فى البناء .

وفى وسعنا أن نتصور كذلك اتساع مجال التنافس فى الأبنية النورمندية إذا لاحظنا أن دير سانت أولبنز بدئ فى عام ١٠٧٥ ، وأن كتدرائية إلى Ely بدئت فى عام ١٠٨١ ، وروشستر فى عام ١٨٠٣ ، وكنيسة وورسستر فى عام ١٠٨٤ ، وكنيسة القديس بولس القديمة فى عام ١٠٨٧ ، وكنيسة جلوسستر فى ١٠٨٩ ، ودرهام فى ١٠٩٣ ، ونوروك فى ١٠٩٦ وتشيشستر فى ١١٠٠ ، وتوكسبرى Tewkesbury فى ١١٠٣ ، وإكستر فى ١١١٢ ، وپيتربرو Peterborough فى ١١١٦ ، وكنيسة دير رمزى Romsey فى ١١٢٠ ، ودير فونتن Fountains فى ١١٤٠ ، وكنيسة القديس داڤد بويلز فى ١١٧٦! . وليست هذه الكنائس مجرد أسماء بل هى كلها آيات فنية ؛ وإنا لنستحى أن نخرج من هذه الكنائس ولما نقض فيها إلا بضع ساعات ، أو أن نفرغ من الكلام عليها فى بعض السطور . وقد أعيد بناؤها أو بُدّلت كلها ما عدا واحدة على الطراز القوطى ، ذلك أن كنيسة درهام لاتزال نورمندية

(*) وهو أسقف من أساقفة ونشستر عاش فى القرن التاسع . وتقول إحدى القصص إن المطر قد أخر نقل جثته إلى الضريح الذى أعد له فى عام ٩٧١ مدة أربعين يوما ؛ ومن ثم نشأ القول المأثور إن نزول المطر فى يوم القديس اسويثين (١٥ يوليه) ينبئ باستمراره أربعين يوما .

فى معظم أجزائها ، ولا تزال أعظم الصروح الرومنسية فى أوربا روعة .

ودرهام بلدة صغيرة من بلدان التعدين يبلغ عدد سكانها نحو عشرين ألفاً . ويقوم عند ثنية من ثنايا نهر وير Wear نتوء صخرى ، ويقوم على على هذا المرتفع ذى الموقع المنيع صرح الكتدرائية الضخم « نصفه كنيسة لله ونصفه الآخر حصن منيع لصد غارات الاسكتلنديين »[٦] . وقد أقام جماعة من رهبان جزيرة لندسفارن Lindisfarne فارين من المغيرين الدنمرتيين كنيسة من الحجر فى ذلك المكان عام ٩٩٥ ، ثم هدّم أسقفها الثانى وليم السانت كارليفى of St. Carilef هذا البناء فى عام ١٠٩٣ وشاد الصرح القائم مكانه إلى هذا اليوم بشجاعة نادرة الوجود وثروة لا يعرف مصدرها حتى اليوم . وظل العمل فيها قائماً حتى عام ١١٩٥ ، ولهذا فإن الكتدرائية تمثل آمال من شادوها وجهودهم مدى مائة عام كاملة . وصحن الكنيسة الشامخ نورمندى الطراز ، له صفان من البواكى ذات العقود المستديرة المرتكزة على تيجان غير منقوشة ودعامات ضخمة قوية . وقد أدخلت قبة درهام فى إنجلترا فكرتين جديدتين غاية فى الخطر : أولاهما أن ملتقى العقود والأقبية تخرج منه ضلوع ، وهذا يساعد على تركيز الضغط فى مواضع خاصة ؛ والثانية أن العقود المستعرضة مستدقة الرءوس على حين أن الأقطار مستديرة ؛ ولو أن العقود المستعرضة كانت مستديرة لما وصلت تيجانها إلى الارتفاع الذى بلغته الأقطار وهى أطول من العقود ، ولأصبحت قمة القبة خطاً مضطرباً غير متساو فى الارتفاع . فلما رفعت تيجان العقود المستعرضة لتلتقى فى شكل زاوية أمكن إيصالها إلى الارتفاع المطلوب . ويبدو أن هذه الحاجة المعمارية لا الاستجابة إلى حاسة الجمال هى منشأ أهم المظاهر البارزة فى الطراز القوطى .

وأضاف الأسقف بدسى Pudsey فى عام ١١٧٥ إلى الطرف الغربى من

كتدرائية درهام طنفا جميلا جذابا أطلق عليه لسبب لا نعرفه اسم الجليل (*) والعقود القائمة فى هــذا المكان — الذى يحتوى قبر بيد الأب الموقر — مستديرة ، ولكن العمد الرفيعة تقترب من الشكل القوطى . وقد تهدمت القبة القائمة فوق موضع المرنمين فى أوائل القرن الثالث عشر ، فلما أعيد بناؤها دعم المهندسون باكية الصحن بسنادات تربط الأجزاء العليا والوسطى من البناء بالسنادات الرأسية التى بالجدران الخارجية ، وتختفى تحت البواكى التى فى الصحن والطرقات . وأضيف إليها بين عامى ١٢٤٠ ، ١٢٨٠ ضريح ذو تسعة مذابح ليحتفظ فيه بمخلفات القديس كثبت Cuthbett ، وكانت العقود التى فى هذا الضريح مستدقة وبذلك تم الانتقال إلى الطراز القوطى .

(*) لعل الذى أوحى بهـذا الإسم هو الآية السابعة من الإصحاح السادس عشر من إنجيل مرقس . (المترجم)

الفصل الرابع

نشوء العمارة القوطية وارتقاؤها

يمكن تعريف هندسة العمارة القوطية بأنها حصر ضغط البناء فى أماكن خاصة ، وتوازن هذا الضغط ، وتوكيد الخطوط الرأسية ، والقباب المضلعة ، والأشكال المستدقة . وقد نشأ هذا الفن عن طريق حل المشاكل الآلية التى أوجدتها حاجة المبانى الكنسية والأمانى الفنية . ذلك أن خوف احتراق البناء أدى إلى إقامة القباب من الحجارة والآجر ، وأن ازدياد ثقل السقف أوجب بناء الجدران السميكة والدعامات السمجة ، ووجود الضغط السفلى فى كل مكان حدد سعة النوافذ ، وأن الجدران السميكة ظللت النوافذ الضيقة ، ولهذا أصبح داخل الكنيسة شديد الظلمة لا يتناسب مع جو البلاد الشمالية . وقد قلل اختراع القبة المضلعة ثقل السقف فأمكن بذلك إقامة العمد الرفيعة ، وحصر التوتر فى أماكن محددة ؛ كما أن تركيز الضغط وتوازنه قد أكسبا البناء استقراراً من غير زيادة فى الثقل ؛ وحَصْرَ الارتكاز بطريق المساند قد سمح بوجود نوافذ طويلة فى الجدران القليلة السمك ؛ وكانت النوافذ مجالا مغريا لممارســة فن الزجاج الملون الذى كان موجوداً فى ذلك الوقت ، كما أن الإطارات الحجرية التى تعلو النوافذ المركبة قد شجعت على قيام الفن الجديد فن النقوش الغائرة أو الرسوم السطحية ، وجعلت عقود القباب مستدقة ليمكن بها إيصال العقود ذات الأطوال المختلفة إلى تيجانها بارتفاع واحد لها جميعاً ، ثم جعلت العقود الأخرى وأشكال النوافذ مستدقة كذلك لتكون متناسقة مع عقود القبة . ولما تحسنت طرق احتمال الضغط على هذا النحو أمكن زيادة ارتفاع صحن الكنيسة ؛ وأبورت الأبراج

الكبيرة ، وأبراج الأجراس الرفيعة ، والعقود المستدقة أهمية الخطوط الرأسية وأنتجت ما يمتاز به الطراز القوطى من علو شامخ ورشاقة تبعث البهجة فى النفوس . هذه الخصائص مجتمعة جعلت الكتدرائية القوطية أعظم ما أنتجته النفس البشرية وأجل ما عبرت به عن مشاعرها .

لكننا نعدو طورنا إذا ادعينا أن فى وسعنا أن نفرغ من وصف تطور العمارة فى فقرة من فصل ؛ ذلك أن بعض خطوات من هذا التطور جديرة بالبحث الهادئ على مهل . مثال ذلك أن مشكلة التوفيق بين الرشاقة الرفيعة والصلابة المستقرة قد حلتها العمارة القوطية أحسن مما حلها أى فن معمارى قبل وقتنا الحاضر ؛ ولسنا نعرف إلى متى يستطيع تحدينا لقوة الجذب أن ينجو من قدرة الأرض على تسوية أعلاها بأسفلها . على أن المهندس القوطى لم يصب التوفيق والنجاح على الدوام ؛ فإن تكن كنيسة تشارتر لا تزال قائمة سليمة من الشروخ ، فإن موضع المرنمين فى كتدرائية بوفيه تهدم بعد اثنى عشر عاما من بنائه ، ولقد كان أهم ما يمتاز به الطراز القوطى هو الأضلاع فى أجزاء البناء المختلفة : أضلاع العقود المستعرضة والممتدة على طول أقطارها ، والتى ترتفع من كل فرجة بين أعمدة صحن الكنيسة . وتجتمع لتكون شبكة خفيفة رشيقة يمكن أن ترتكز عليها قبة رقيقة من البناء . وقد أضحت كل فرجة فى الصحن وحدة بنائية قائمة بذاتها تتحمل النقل والدفع الناشئين من العقود القائمة على دعاماتها ، واللذين تساعد على تحملهما ضغوط أخرى مقابلة لها تحدثها الفرجات المقابلة لها فى طرقات البناء وضغوط المساند الخارجية المركبة على الجدران فى النقط التى يبدأ منها كل عقد مستعرض .

والمساند استنباط قديم ، فقد كان لكثير من الكنائس التى شيدت قبل عهد القوط عمد مبنية تضاف إليها من خارجها عند النقط التى يقع عليها ضغط خاص . على أن الدعامات المقوسة التى تصل جدران الأجزاء الداخلية والوسطى من البناء بالدعامات الرأسية للجدران الخارجية تنقل الدفع أو التوتر فوق فراغ

إلى مسند عند القاعدة وإلى الأرض . وقد كانت بعض الكتدرائيات النورمندية تستخدم فى البواكى التى بين الصحن والطرقات الجانبية أنصاف عقود تدعم عقود الصحن ، غير أن هذه المساند الداخلية تصل جدار الصحن فى نقطة منخفضة لا تهب القوة للطبقة العليا المضيئة التى يكون ضغط القبة عليها بالغ الشدة . والتى يعرضها هذا الضغط إلى الانهيار . ولهذا فإن تقوية البناء فى هذه النقط العالية كان يحتم إخراج المساند من مخابئها . وإقامتها فوق الأرض الصلبة والانتقال بها فى الفراغ فوق سقف الممشى لتدعم بذلك جدار الطبقة العليا المضيئة مباشرة . وكان أقدم ما عرف من استخدام هذا النوع من المساند فى كتدرائية نوايون Noyon حوالى عام ١١٥٠[٧] ، ولم يختتم ذلك القرن حتى أضحت من الاختراعات المحببة . على أنها لم تكن تخلو من أخطاء ذات خطورة : فقد كانت فى بعض الأحيان توحى إلى الناظر بأنها هيكل بنائى ، أو محالات أهملت إزالتها ، أو مهرب لجأ إليه المصمم فيما بعد لأن بناءه هبط من وسطه ، وأن « للكتدرائية عكازات » كما يقول ميشليه Michelet . ولهذا نبذ عصر النهضة هذا الضرب من المساند ورآها حواجز قبيحة المنظر ، واخترع أساليب أخرى لحمل أثقال قبة القديس بطرس . لكن المهندس القوطى كان على غير هذا الرأى ؛ فقد كان يجب أن يعرض على الأنظار خطوط فنه وحيله الآلية ؛ وقد أولع بالمساند ولعله ضاعف عددها من غير حاجة إلى هذا التضعيف ؛ وجعلها مساند مركبة حتى تدعم بذلك البناء فى نقطتين أو أكثر من نقطتين ، أو تدعم إحداها الأخرى ؛ ثم جمل الدعامات التى تعمل على استقرارها بما أضافه إليها من « الشماريخ »[*] . وأثبت أحياناً — فى ريمس — أن ملكا واحداً فى القليل يستطيع الوقوف على قمة الشمروخ .

(*) الأبراج المستدقة المرتفعة pinnacles. (المترجم)

وكان توزيع التوتر أعظم أهمية فى العمارة القوطية من العقد المستدق ، ولكن هذا العقد أصبح هو السمة الخارجية الظاهرة للرشاقة الداخلية . وكان العقد المستدق هذا من الأشكال القديمة ، فهو يظهر فى ديار بكر بتركيا مقاماً فوق عمد رومانية لا يعرف لها تاريخ ، وأقدم مثل له معروف التاريخ فى قصر ابن وردان ببلاد الشام ، ويرجع تاريخه إلى عام ٥٦١[٦] ، ويوجد هذا الشكل فى قبة الصخرة فى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، وهو من مبانى القرن السابع ، كما يوجد فى مقياس للنيل بمصر أنشئ فى عام ٨٦١ ، وفى مسجد ابن طولون بالقاهرة الذى أنشئ فى عام ٨٧٩ ، وكثيراً ما كان يقيمه الفرس ، والعرب ، والأقباط ، والمغاربة المسلمون قبل آن يبدأ ظهوره فى أوربا الغربية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر[٩] . ولعله جاء إلى فرنسا الجنوبية من أسپانيا الإسلامية ، ولعله جاء به الحجاج العائدون من بلاد الشرق ؛ أو لعله نشأ فى بلاد الغرب من تلقاء نفسه ليحل مشاكل آلية فى تصميم العمارة . على أننا يجب أن نلاحظ أن مشكلة الوصول بعقود ذات أطوال مختلفة إلى تاج مستو يمكن أن تحل من غير الالتجاء إلى العقد المستدق ، وذلك بتعلية النقطة التى يبدأ عندها من الدعامة أو الجدار فى الداخل . وقد كان لهذه الطريقة أيضاً أثرها الجمالى لأنها تبرز الخطوط الرأسية ، ولهذا استخدمت على نطاق واسع ، وقلما كانت تتخذ بديلا من العقد المستدق بل كانت كثيرة الاستعمال مع هذا العقد لتقويته ومساعدته على أداء وظيفته .

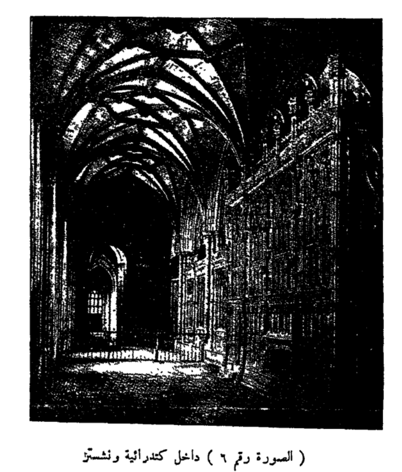
وحل العقد المستدق مشكلة أخرى : ذلك أنه لما كانت الطرقات الجانبية أضيق من صحن الكنيسة فإن فرجة الطرقة كان يزيد طولها على عرضها ، ولهذا فإن تيجان عقودها المستعرضة تكون أقصر كثيراً من عقود قطريها ، إلا إذا كانت العقود المستعرضة مستدقة أو إذا رفعت النقطة التى تبدأ عندها هذه العقود من الداخل ارتفاعاً يحول بين تناسقها مع القطرين . وقد كان العقد المستدق حلا لتلك العملية الصعبة عملية إقامة قبة من عقود ذات تاج

مستو على ممشى القبا ، حيث يكون الجدار الخارجى أطول من الجدار الداخلى ، وحيث تكون كل فرجة شبه منحرف لا يمكن تصميم قبته تصميما مقبولا بغير العقد المستدق . ومما يدل على أن هذا الشكل لم يستخدم فيها لرشاقته فى أول الأمر كثرة المبانى التى استخدم فيها لحل تلك المشكلات ، مع أن العقود المستديرة ظلت تستخدم فى النوافذ ومداخل الأبنية فى الوقت عينه . ثم انتصر العقد المستدق تدريجاً لارتفاعه العمودى ، وقد يكون للرغبة فى تناسق الشكل أثر فى هذا الانتصار . وإن التسعين عاماً من الكفاح المتواصل بين العقد المستدير والعقد المستدق — أى منذ ظهور العقد المستدق فى الكتدرائية الرومنسية بدرهام (١١٠٤) إلى البناء النهائى لكتدرائية تشارتر (١١٩٤) — لهى فترة الانتقال إلى هذا الطراز المعارى فى الهندسة القوطية الفرنسية .

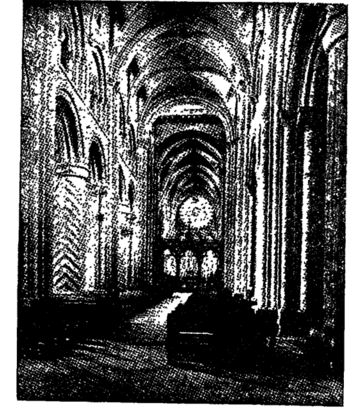
وقد أوجد استخدام العقد المستدق فى النوافذ مشاكل جديدة ، وحلولا لها جديدة ، ومفاتن جديدة ؛ فقد قضى نقل التوتر عن طريق الأضلاع من القبة ومن الدعائم إلى نقط خاصة فى البناء تدعمها سنادات ، قضى هذا على حاجته إلى الجدران السميكة . ذلك بأن المكان الذى بين كل نقطة ارتكاز والنقطة التى تليها ، لم يكن يتحمل إلا ضغطا قليلا نسبيا ، وإذن فقد كان من المستطاع جعل الجدار بين النقطتين رفيعاً ، بل إن من المستطاع إزالته . وكن ملء هذا الفراغ الكبير بلوح واحد من الزجاج غير مأمون العاقبة ، ولهذا قسم هذا إلى نافذتين مستدقتين (مقصدين) أو أكثر من نافذتين يعلوهما عقد من الحجارة . وبهذا أصبح الجدار الخارجى سلسلة من العقود أو البواكى شأنه فى ذلك شأن صحن الكنيسة . وقد كان « الدرع » البنائى ذو الأربع القمم المتروك بين الأطراف العليا للنوافذ المزدوجة والمستدقة وبين قمة العقد الحجرى المحيط بهذه النوافذ كان هذا الدرع فراغا قبيح المنظر يتطلب الزخرف . وقد حقق المهندسون الفرنسيون حوالى عام ١١٧٠ هذا المطلب بلوحات من النقوش الحجرية [illegible]

يتركون فيه قضباناً حجرية أو فواصل ذات أشكال زخرفية — مستديرة ، أو مسننة أو منتفخة ؛ ثم ملأوا الفجوات والنوافذ بالزجاج الملون . وعمد المثالون فى القرن الثالث عشر إلى قطع أجزاء مطردة الزيادة من الحجارة ، ووضعوا فى الفتحات قضباناً حجرية صغيرة منحوتة على صورة أقداح أو غيرها من الأشكال . وأخذت أشكال هذه الحلى التى على شكل العصى تزداد كل يوم تعقيداً ، ونشأت من هذا التعقيد طرز وعصور من العمارة القوطية أُخذت أسماؤها من الخطوط الرئيسية فى هذه الزخارف : كالعقد الرمحى ، والطراز الهندسى ، والمستدير الخطوط ، والعمودى ، والكثير الألوان . وأنتجت عمليات أخرى شبيهة بهذه العمليات وطبقت على سطوح الجدران فوق مداخل البناء ، أنتجت ما يسمى « بالنوافذ الوردية » ، كانت زخارفها الخطية سبباً فى إطلاق لفظ « المشمع » على الطراز الذى بدأ فى كنيسة نتردام عام ١٢٣٠ ، وبلغ درجة الكمال فى كنيستى ريمس ، وسانت شابل Sainte Chapelle . وما من شىء يفوق جمال النوافذ « الوردية » . فى الكتدرائيات القوطية سوى العقود العليا التى فى القبة .

وانتقلت الزخارف الخطية ، بمعناها الواسع ، أى ثقب الحجارة بأشكال زخرفية من أى نوع كان ، من الجدران إلى غيرها من أجزاء الكتدرائية القوطية — إلى شماريخ المساند ، وإلى السقف الهرمية التى فوق المداخل ، وإلى « بطنيات » العقود ، والأجزاء المثلثة المحصورة بين كل اثنين منها ، وإلى البواكى التى تعلو العقود بين الصحن والطرقات الجانبية ، وإلى ستائر المعبد ، والمنبر والحظار الزخرفى الذى خلف المذبح ؛ ذلك أن المثال القوطى ، لابتهاجه بفنه ، قلما كان يمس سطحاً دون أن يزخرفه ؛ ولهذا كان يزحم واجهات المبانى ، والطنف ، والأبراج ، بصور الرسل والشياطين ، والأولياء ، والناجين والملعونين . وصوّر ما يمليه عليه خياله تيجاناً للعمد ، ورفارف للزينة ، وحليات من خشب أو حجارة ،



(الصورة رقم ٦) داخل كتدرائية ونشستر



(الصورة رقم ٧) داخل كتدرائية درهام

وعتبات للأبواب والنوافذ العليا ، وحليات شبكية ، وقوائم أكتاف الأبواب والنوافذ . وكان يمثل بالحجارة ضحكه مع الحيوانات العجيبة والمرعبة التى ابتدعها خياله لتكون ميازيب(*) تبعد المطر الذى يلوث المبانى عن الجدران ، أو تجره إلى الأرض خلال المساند . ولم تجتمع فى غير هذا الفن الثروة ، والمهارة ، والتقى ، والفكاهة العارمة ، لتوجد مثل هذه الكثرة من الزخارف التى تتكشف عنها الكتدرائية القوطية . ولسنا ننكر أن هذه الزخارف كانت فى بعض الأحيان مسرفة فى كثرتها ، وأن الخطوط الزخرفية قد أسرف فيها هى الأخرى إسرافاً جعلها هشة ، وأن التماثيل وتيجان العمد كانت بلا ريب براقة بطلائها الذى محاه كر الدهور . ولكن هذه هى سمات الخصوبة الحيوية التى تكاد تُغتفر معها كل الأخطاء . ولقد يلوح لنا ونحن نجول بين هذه الآجام والحدائق الحجرية أن الفن القوطى كان ، على الرغم من خطوطه وأبراجه الرفيعة الشامخة ، فنا مغرما بالأرض ؛ فنحن نستشف بين أولئك القديسين الذين ينادون بباطل الأباطيل ، وهول يوم الحساب القريب ، صورة فنان العصور الوسطى ، المعجب بحذقه ، المبتهج بقوته ، الساخر من اللاهوت والفلسفة ، الذى يستمتع بشرب كأس الحياة المترعة ذات الحبب حتى الثمالة .

(*) gargoyles أو حلوق صغيرة . (المترجم)

الفصل الخامس

الطراز القوطى الفرنسى (١١٣٣ — ١٣٠٠)

متى لم بدأ الانقلاب القوطى فى فرنسا وبلغ غايته فيها ؟

نقول أوّلا إن الطراز القوطى لم يبدأ من لا شىء ، بل إن تقاليد تبلغ المائة عدًّا قد اجتمعت كلها لتمهّد له السبيل : الباسلقا الرومانية ، والعقود ، والقباب ، والطبقات العليا ذات النوافذ ، وموضوعات الزخرف البيزنطية ، والعقد السنّينى الأرمنى ، والسورى ، والفارسى ، والمصرى ، والعربى ؛ والقباب ذات الزوايا المتقاطعة ، والدعامات المتجمعة ، والأساليب الغربية ، والنقوش العربية ؛ والقباب المضلعة ، وأبراج الواجهات ؛ والنزعة الألمانية لما هو فَكِه أو شاذ غريب . . ولكن لم اجتمعت هذه المؤثرات كلها فى فرنسا ؟ لقد كان فى وسع إيطاليا التى امتازت بين بلدان غربى أوربا بثرائها وتراثها أن تحمل لواء ازدهار الفن القوطى ، ولكنها كانت سجينة فى تراثها القديم . لقد كانت فرنسا ، بعد إيطاليا ، أغنى أمم الغرب وأكثرها تقدماً فى القرن الثانى عشر ؛ وكانت هى التى قدمت للحروب الصليبية أكثر الأموال والرجال ، والتى أفادت من حوافزها الثقافية . وكانت هى التى تزعمت أمم أوربا فى التعليم ، والآداب ، والفلسفة ، وكان العالم يعترف بأن صناعها أمهر الصناع فى الناحية الغربية من بيزنطية وقبل أن يجلس على عرشها فليب أغسطس (١١٨٠ — ١٢٢٣) ، كانت السلطة الملكية قد انتصرت على نزعة التفكك الإقطاعية ؛ وكان رخاء فرنسا وقوّتها ، وحياتها العقلية قد أخذت تتجمع فى أملاك الملك الخاصة — وهى الأملاك المعروفة بجزيرة فرنسا ، والتى يمكن تحديدها تحديداً غير دقيق بالإقليم الممتد عند مجرى السين الأوسط . وكانت فيها تجارة رابحة رائجة تنتقل فى أنهار

السين والواز Oise ، والمارن ، والأين Aisns ، وتخلف وراءها ثروة استحالت حجارة فى الكتدرائيات التى شيدت فى باريس ، وسانت دنيس ، وسنليس Senlis ، ومانت Mantes ، ونوايون Noyen ، وسواسون Soisso::s ، ولاؤون ، وأمين ، وريمس . وأخصب المال التربة التى نما فيها الفن .

وكانت أولى روائع طراز عهد الانتقال هى كنيسة دير سانت دنيس فى ضاحية باريس المسماة بهذا الاسم . وكانت هذه الآية من عمل أكمل الشخصيات وأكثرها توفيقاً فى التاريخ الفرنسى . لقد كان سوجر (١٠٨١ — ١١٥١) رئيس أحد الأديرة البندكتية ، ونائب الملك فى فرنسا ، رجلا حسن الذوق ، لم تمنعه بساطة عيشه أن يرى أنه ليس من الإثم أن يحب الأشياء الجميلة وأن يجمعها ليزخرف بها كنيسته . ولما أخذ عليه القديس برنار هذا الحب رد عليه بقوله : « إذا كانت الشرائع القديمة قد أمرت أن تستخدم الكؤس الذهبية فى شرب القربان وتَلَقِّى دماء الضأن . . . فإن أولى من هذا أن يخصص الذهب ، والحجارة الكريمة ، وأندر المعادن لصنع الآنية المعدة لتلقى دم سيدنا »(١٠) . وهو لهذا يحدثنا مزهواً عن جمال الذهب والفضة ، والجواهر وقطع الميناء . والفسيفساء والنوافذ ذات الزجاج الملون ، والثياب والآنية الغالية ، التى جمعها أو صنعها لكنيسته . وعما كلفته من مال . ففى عام ١١٣٣ جمع الفنانين والصناع « من جميع البلاد » ليشيد ويزين بيتاً جديداً للقديس دنيس شفيع فرنسا ، وليكون مقراً لعظام الملوك الفرنسيين . وأقنع لويس السابع ملك فرنسا وحاشيته بتقديم المال اللازم لهذا البناء « فتمثلوا بنا » على حد قوله « وخلعوا الخواتم من أصابعهم » ليقدموا المال اللازم لمشروعه الكثير الأكلاف(١١) . وفى وسعنا أن نتصوره وهو يستيقظ فى الصباح الباكر ليشرف على أعمال البناء ، من تقطيع الأشجار التى اختارها ليأخذ منها حاجته من الخشب ، إلى تركيب الزجاج الملون الذى اختار له موضوعاته وألف له نقوشه . ولما أن دشن هذا الصرح فى عام ١١٤٤

قام بهذه العملية عشرون مطرانا ، وشهد الحفل ملك فرنسا ، وملكتها ، ومئات من الفرسان ، وحق لسوجر أن يشعر بأنه نال بهذا العمل تاجا أجل من تاج أى ملك من الملوك .

ولم يبق فى الصرح القائم فى هذه الأيام إلا أجزاء من كنيسته : وهى الواجهة الغربيـــة ، وفرجتان فى الصحن ، والمصليات التى على جانب الطرقات ، وقبو الكنيسة . أما الجزء الأكبر من داخل الكنيسة فهو بناء معاد قام به پيير ده منتريه Pierre de Montreux بين عامى ١٢٣١ ، ١٢٨١ . والقبو من الطراز الرومنسى . أما الواجهة الغربية فتختلط فيها العقود المستديرة والمستدقة ؛ ومعظم تماثيلها المنحوتة من عهد سوجر ، وتشمل ما لا يقل عن مائة صورة ؛ كثير منها فردى الطابع ، وكلها تدور حول أحسن فكرة عن المسيح القاضى نشاهدها فى كل ما أنتجه فن العصور الوسطى .

وبعد اثنى عشرة سنة من وفاة سوجر كرمه الأسقف موريس ده سلى Maurice de Sully بأن أدخل التحسين على ما تركه من قواعد ، وقامت كنيسة نتردام ده پارى Notre Dame de Paris على جزيرة فى نهر السين . وإن التواريخ المتصلة ببنائها لتوحى بضخامة العمل الذى استلزمه تشييدها ؛ فقد بنى موضع المرنمين والأجنحة التى على جانب الطرقات بين عامى ١١٦٣ و ١١٨٢ . وبنى الصحن من ١١٨٢ إلى ١١٩٦ ؛ وأقيمت الأجزاء التى بين الأعمـــدة والأبراج فيما بين ١٢١٨ و ١٢٢٣ ؛ وتم بناء الكتدرائية كلها فى عام ١٢٣٥ . وكان يقصد فى تصميمها الأول أن تكون البواكى القائمة فوق الدعامات التى بين الصحن والطرقات على الطراز الرومنسى ، ولكن [illegible] اتخذ عند إتمامه الطراز القوطى . والواجهة الغربية أكثر استواء مما تتطلبه الكتدرائية القوطية ، ولكن سبب هذا أن التماثيل التى كان فى النية إقامتها فوق الأبراج لم تبن قط ؛ ولعل هذا هو منشأ ما فى الواجهة من هيبة ذات بساطة وقوة جعلت العلماء الأفذاذ

يضعونها فى مصاف « أنبل ما أنتجته أفكار الإنسان من آراء فى فن المعمار »[١٢] . والشبابيك الوردية فى كنيسة نتردام ده پارى آية فى النقوش الخطية وجمال التلوين ، ولكنها لم يكن يقصد بها أن توصف بالقول أو بالكتابة . والتماثيل التى بها ، وإن عدا عليها الزمان أو أضرت بها الثورة ، تبرز أحسن ما أنتجه الفن بين عصر قسطنطين وبناء كتدرائية ريمس . وقد نحتت فى قلب المقص القائم فوق المدخل الرئيسى صور يوم الحساب بتؤدة أعظم مما نقش بها هذا الموضوع الذى نراه فى كل مكان ؛ فصورة المسيح هنا ذات جلال هادئ ؛ والمـَلـَك الذى عن يمينه من أعظم الانتصارات التى أحرزها فن النحت القوطى . وخير من هذا كله صورة عذراء العمود La Vierge de trumeux القائمة فوق المدخل الشمالى : إن فى هذه الصورة لدقة فى التنفيذ ، وفى صقل السطح الخارجى ، وفى الثياب المنسجمة مع الطبيعة ؛ ويسراً جديداً ورشاقة فى أوضاع الوقوف ، وإلقاء ثقل الجسم على إحدى القدمين ، وتحرره بذلك من الوضع العمودى المتصلب . ويكاد فن النحت القوطى يعلن فى هذه الصورة الجميلة استقلاله عن فن العمارة وينتج آية خليقة بأن تنتزع مما حولها ، وتقام بمفردها تعلن عن فوز هذا الفن . وانتهى فى كندوائية نتردام ده پارى طور الانتقال وحل عصر الفن القوطى .

وتُلقِـى قصة كتدرائية تشارتر ضوءاً على ما كان عليه موضعها فى العصور الوسطى وعلى خصائص تلك العصور . فقد كانت تشارتر بلدة صغيرة فى الجنوب الغربى من باريس وعلى بعد خمسين ميلا منها ، على أطراف المستلكات الملكية . وكانت سوق السهل بوس Beauce « هُرى فرنسا » . ولكن قيل إن العذراء نفسها زارت هذا المكان ، واتخذها الصالحون من العرج . والمكفوفين . والمرضى ، والثاكلين ، والثاكلات ، مكاناً يحجون إليه . ومنهم من شفى أو نزلت فى قلبه الطمأنينة عند ضريحها ، وبذلك أضحت تشارتر هى بعينها لورد Lourde . يضاف إلى هذا أن أسقفها فلبير Fulbert ، وهو رجل جمع بين الطيبة ؛

والذكاء ، والإيمان ، قد جعلها فى القرن العاشر كعبة للتعليم العالى و... حنونا لطائفة من أنبه الشخصيات ذكراً فى الفلسفة المدرسية . ولما أن احترقت فى عام ١٠٢٠ كتدرائية فلبير التى شيدت فى القرن التاسع ، أخذ على عاتقه من فوره أن يعيد بناءها ، وطال عمره حتى شاهد تمام هــذا البناء . ولما دمرته النار للمرة الثانية فى عام ١١٣٤ ، جعل الأسقف ثيودريك إقامة كتدرائية جديدة بمثابة حرب صليبية حقة ، فبعث فى قلوب الناس من التحمس لإنجاز هذا العمل ما جعلهم يغدقون عليه من المال والجهد ما وصفه شاهد عيان هو هيمون Haimon رئيس أحد الأديرة النورمندية فى عام ١١٤٤ بقوله :

رأيت الملوك ، والأمراء ، وذوى القوة والسلطان من رجال العالم المزهوين بألقاب الشرف وبالثراء ، والرجال والنساء من أبناء الأسرة الشريفة ، رأيت هؤلاء يطوقون أعناقهم المنتفخة المنبثة بالعظمة والكبرياء بالأرسان ، ويشدون أنفسهم إلى العربات يجرونها كما تجرها الدواب ، وهى محملة بالنبيذ ، والحبوب ، والزيت ، والجير ، والحجارة ، وكتل الخشب وما إليها من الأشياء اللازمة لحياة الناس أو لبناء الكنائس ... يضاف إلى هذا أنا نشاهد تلك المعجزة تقع فى الوقت الذى يجرون فيه العربات : وهى أن ألفا من الرجال والنساء ... يشدون أحيانا إلى حبال العربات ... ومع ذلك فإنهم يتقدمون وهم صامتون لا يسمع لهم صوت ولا همس .... فإذا وقفوا فى الطريق لا تسمع منهم ألفاظاً إلا اعترافاً بخطاياهم ... وضراعة ودعاء طاهرا ... ويعظهم القسيسون ويدعونهم إلى السلام ، وتسل السخائم والأحقاد من الصدور وتزول أسباب الفرقة والانقسام ، وينزل الدائنون عن ديونهم وتعود الوحدة إلى الصفوف(١٣) .

ولم تكد كتدرائية الأسقف ثيودريك تتم (١١٨٠) حتى شبت فيها النار فى عام ١١٩٤ فدمرت الصحن وهدمت قبته وجدرانه ، ولم يبق من الكنيسة إلا القبو السفلى والواجهة الغربية ببرجيها وشمروخيها متفرقة منعزلة . ويقال إن

كل بيت فى البلدة قد دمر فى هذا الحريق المروع الذى لا تزال آثاره باقية تشاهد حتى اليوم فى بقايا الكتدرائية . وفقد الأهلون شجاعتهم إلى حين وفقدوا بفقدها إيمانهم بالعذراء . وأرادوا أن يغادروا المدينة ، ولكن مليور Melior الرسول البابوى الذى لا تلين له قناة قال إن الله قد أصابهم بهذه الكارثة عقاباً لهم على ذنوبهم ، وأمرهم أن يعيدوا بناء كنيستهم وبيوتهم ، وتبرع رجال الدين فى الأسقفية بدخلهم كله تقريباً مدى ثلاث سنين ، وتناقل الناس أخبار معجزات جديدة لعذراء تشارتر ، وبعث الإيمان فى القلوب من جديد ، وأقبلت الجماعات مرة أخرى كما أقبلت فى عام ١١٤٤ لتساعد العمال المأجورين على جر عربات النقل ووضع الحجارة فى أماكنها ، وتبرعت بالمال كل كتدرائية فى أوربا[١٤] . ولم يحل عام ١٢٢٤ حتى كان الكدح والأمل قد أتما الكتدرائية التى جعلت تشارتر مرة أخرى مقصد الحجاج من جميع الأنحاء .

وكان التصميم الذى وضعه المهندس المجهول يقضى بألا يقيم الأبراج على جناحى الواجهة الغربية وحدها ، بل أن يقيمها أيضاً على الأبواب التى عند ملتقى الطرقات المتعامدة على الصحن وعند القبا ، غير أنه لم يبن من هذه الأبراج إلا برجان فوق واجهة الكنيسة . وارتفع برج الناقوس القديم (١١٤٥ — ١١٧٠) بشمروخه إلى علو ٣٥١ قدماً فى الطرف الجنوبى من الواجهة ، وهذا البرج بسيط غير مزخرف يفضله المهندسون المحترفون على غيره من الأبراج المزخرفة[١٥] . أما البرج الشمالى — المعروف ببرج الجرس الجديد فقد أحرقت النار شمروخه الخشبى مرتين ؛ ثم أعاد جان له تكسييه Jean le Texier بناءه بالحجارة على الطراز القوطى الكثير الألوان المزدحم بالزخارف الدقيقة ؛ حتى حسبه فرجسون Fergusson « أجمل الشماريخ المنقوشة فى القارة الأوربية »[١٦] ، ولكن المتفق عليه بوجه عام أن هذا الشمروخ الكثير الزخرف لا يتفق مع الوحدة التى تتطلبها الواجهة الكالحة المجردة من الزينة[١٧] .

وتعتمد شهرة كنيسة تشارتر على ما تحويه من تماثيل منحوتة وزجاج ، فهذا القصر ، قصر العذراء ، تسكنه عشرة آلاف شخصية منحوتة أو مصورة — من رجال ، ونساء ، وأطفال . وقديسين . وشياطين ، وملائكة ، وأشخاص الثالوث . وفى مدخل الكنيسة وحده ألفا تمثال(١٨) ، تضاف إليها تماثيل أخرى مستندة إلى الأعمدة المقامة فى داخل البناء ؛ وإن الزائرين الذين يصعدون إلى السقف على الدرج البالغ عددها ٣١٢ درجة لتعتريهم الدهشة حين تقع أعينهم على تماثيل منحوتة بعناية وبالحجم الطبيعى فى ذلك المكان الذى لا يبصرها فيه إلا الطَّلِعَةَ المتشوف . وتقوم فوق الباب الأوسط صورة رائعة للمسيح ليست كغيرها من الصور التى نحتت فيما بعد عابسة تحكم على الموتى ، بل يرى فيها جالساً فى جلال هادئ بين طائفة كبيرة من الناس السعداء ، وقد مدت يده كأنه يبارك العباد الداخلين . ويتصل بالتجويف الداخلى لعقد الباب تسعة عشر تمثالا للأنبياء والملوك ، والملكات ، وهى نحيلة ، متصلبة توائم بشكلها هذا عملها بوصفها عمد الكنيسة ؛ وكثير من هذه التماثيل غير متقنة وناقصة ؛ ولربما كانت تلفت أو بليت لقدم عهدها ، ولكن وجوه بعضها تطالع الناظر إليها بطابع فلسفى عميق ، وبراحة لطيفة . أو برشاقة العذارى التى بلغت درجة الكمال فى ريمس .

وواجهات الأجنحة والطرقات الجانبية أجمل ما يوجد من نوعها فى أوربا . ولكل منها ثلاثة أبواب على جانبيها عمد وقوائم منحوتة نحتا جميلا تفصل كلا منها عن الأخرى ، وتكاد تغطيها تماثيل كل منها منفرد بملامح خاصة إلى حد جعل الناس يطلقون على عدد كبير منها أسماء من أهل تشارتر . وتجتمع تماثيل الباب الجنوبى البالغ عددها ٧٨٣ تمثالا حول المسيح الجالس على عرشه فى يوم الحساب . وهنا توضع عذراء تشارتر فى مركز أقل من مركز ولدها . ولكنها تعوض عن هذا ، كما عوضها ألبرتس ماجنس Albertus Magnus ، بالعلوم كلها وبالفلسفة ؛ وترى فى خدمتها على هذا الباب الفنون الحرة السبعة — الموسيقى ويمثلها

فيثاغورس ، والجدل ويمثله أرسطو ، والبلاغة ويمثلها شيشرون ، والهندسة ويمثلها إقليدس ، والحساب ويمثله نيقوماخوس ، والنحو ويمثله برشيان Prician ، والفلك ويمثله بطليموس . وقد أمر القديس لويس أن يتم الباب الشمالى : « بسبب إخلاصه الشديد لكنيسة عذراء تشارتر ، ولنجاة روحه وأرواح آبائه » كما جاء بالنص فى عهده الصادر عام ١٢٥٩[١٩] . وحدث فى عام ١٧٩٣ أن رفضت جمعية الثورة الفرنسية بأغلبية قليلة اقتراحا يقضى بتدمير التماثيل المقامة فى كتدرائية تشارتر باسم الفلسفة واسم الجمهورية ؛ وارتضت الفلسفة بعدئذ ألا تدمر هذه التماثيل واكتفت بتحطيم بعض أيديها[٢٠] . وهذا الباب الشمالى هو باب العذراء ، وهو يروى قصتها رواية ملؤها الحب والإجلال . والتماثيل المجسمة المقامة هنا تمثل فن النحت فى نضوجه ، والثياب التى عليها لا تقل فى رشاقتها ومواءمتها للطبيعة عن مثيلاتها فى أى نحت يونانى ، وصورة « الطهر » تمثل الأنوثة الفنية كأحسن ما يمثلها الفن الفرنسى ، ففيها يُكسب الطهر الجمال قوة على قوته ؛ وليس فى تاريخ النحت كله ما هو أجمل من هذه الصورة ، وفى ذلك يقول هنرى أدمز Henry Adams : « وهذه التماثيل هى أحسن ما صوره الفن الفرنسى فى الرخام »[٢١] .

وإذا ما دخل الإنسان الكنيسة انطبعت فى نفسه أمور أربعة تمتزج بعضها ببعض : الخطوط البسيطة الممثلة فى الصحن والقبة ، التى لاتكاد تبلغ فى حجمها أو جمالها ما يبلغه صحن كنيسة أمين أو ونشستر ؛ وستار مكان المرتمين المزخرف الذى بدأه فى عام ١٥١٤ جان ده تكسيبه المولع بكثرة الألوان ؛ وصورة المسيح الهادئه المقامة على عمود عند ملتقى الصحن بالطرقات الجانبية من جهة الجنوب ، والتى تغمر المكان كله بلون هادئ وزجاج ملون منقطع النظير . ويرى الناظر فى نوافذ هذا المكان البالغ عددها ١٧٤ نافذة ٣٨٨٤ صورة مأخوذة من الأقاصيص أو التاريخ ، تختلف من الأساكفة إلى الملوك ، وتمثل فرنسا فى العصور

الوسطى ؛ يراها الناظر فى أبهى ما أخرجه الفن من ألوان — حمراء داكنة ، وزرقاء خفيفة ، وخضراء زمردية ، وزعفرانية ، وصفراء ، وبنية ، وبيضاء . وفيها ترى مجد تشارتر أكثر مما تراه فى أى مكان سواه . وليس من حقنا أن نتطلب أن تكون الصور التى فى هذه النوافذ صوراً واقعية ؛ ذلك أنها مشوهة ، بل إنها لتبلغ حد السخف فى بعض الأحيان . فرأس آدم فى الحلية الوسطى التى تمثل طرده من الجنة معوج اعوجاجاً يؤلم النظر إليه ، وإن العابد ليصعب عليه إذا ما أبصر مفاتن حواء أن لا يميل إلى شهوته الجنسية . لقد كان هؤلاء الفنانون يظنون أن حسبهم أن تروى الصورة قصة ، بينا تمثل الصورة بألوانها ، التى يختلط بعضها ببعض ويفنى بعضها فى بعض فى عين الناظر ، جو الكتدرائية ، وما أجمل صورة نافذة « الابن المتلاف » ؛ وما أعظم الألوان والخطوط فى صورة « شجرة يسى » الرمزية(*) ؛ ولكن أجمل من هذه كلها صورة « عذراء النافذة الجميلة » . وتقول الرواية المأثورة إن هذه اللوحة البديعة أنقذت من النيران التى اندلعت فى الكنيسة عام ١١٩٤ .

وإذا وقف الإنسان عند تقاطع الطرقات الجانبية والصحن رأى نوافذ تشارتر الكبرى الوردية الشكل . وتمتد النافذة الوسطى فى الواجهة الرئيسية أربعين قدما كاملة ، وتكاد تضارع فى اتساعها الصحن الذى تطل عليه ، ولقد وصفها بعضهم بأنها أجمل تحفة من الزجاج عرفها التاريخ(٢٣) .

وتغمر النافذة المعروفة باسم « وردة فرنسا » ملتقى الطرق بالصحن من جهته الشمالية بفيض من الضوء . وكان زجاج هذه النافذة قد أهدى إلى لويس التاسع وبلانش القشتالية ، ثم أهدياه هما إلى العذراء ؛ ويواجهها فى الناحية المقابلة لها من الكنيسة « وردة دريه Dreux » القائمة عند تقاطع الطرقات بالصحن فى الواجهة الجنوبية وهى التى أهداها بيير موكلير Pierre Mauclere من دريه عدو بلانش ،

(*) شجرة تسلسل يسوع من يسى والد داود . (المترجم)

والتى تضع ابن مريم مواجهاً « لأم الإله » فى نافذة بلانش . وثمة خمس وثلاثون وردة أصغر من هذه واثنتا عشرة وريدة أصغر من هذه أيضاً ، وبها تتم مجموعة زجاج تشارتر الدائرى . وإذا ما وقف صاحب النزعة الحديثة ، الذى تمنعه سرعته واضطراب أعصابه من أن يتطلب الكمال المحتاج إلى الصبر والهدوء ، أمام هذه المناظر ، أخذته الدهشة والحيرة من هذه الأعمال التى يجب أن تُعْزَى إلى ما يتصف به الشعب والجماعة . والعصر ، والعقيدة الدينية ، من سمو فى العاطفة وجد فى العمل لا إلى عبقرية أفراد معدودين .

ولقد اخترنا كنيسة تشارتر لتمثيل العمارة القوطية الناضجة أو المتشععة ، وليس من واجبنا أن نعمد إلى هذه الإطالة نفسها فى الحديث عن كنائس ريمس ، وأميين ، وبورفيه . ولكن منذا الذى يستطيع أن يمر مسرعاً بالواجهة الغربية من كنيسة ريمس ؟ ولو أن الشماريخ الأصلية ظلت حتى الآن قائمة فوق الأبراج لكانت هذه الواجهة أعظم ما قام به الإنسان من أعمال ؛ وإنا لتدهشنا وحدة الطراز وأجزاء الكنيسة المختلفة وتناسقها فى بناء أقامته ستة أجيال من الناس . فقد دمرت النار فى عام ١٢١٠ الكتدرائية التى أتمها هنكمار Hincmar فى عام ٨٤٠ ؛ وبدئت فى يوم الذكرى الأولى لهذا الحريق كتدرائية جديدة من تصميم ربرت دى كوسى Robert de Coucy وچان دوربيه Jean d'orbais تليق بأن يتوج فيها ملوك فرنسا . ودام العمل أربعين عاماً نفد بعدها المال ، فوقف البناء (١٢٥١) ، ولم تتم الكنيسة العظيمة إلا فى عام ١٤٢٧ . ودمرت النار فى عام ١٤٨٠ شماريخ الأبراج ، واستخدمت أموال الكتدرائية المدخرة فى ترميم البناء الرئيسى ، أما الأبراج فلم يجدد بناؤها . ودمرت القنابل فى الحرب العالمية الأولى عدداً من مساند الجدران وأحدثت فجوات كبيرة فى السقف وفى القبة ، ودمرت النار السقف الخارجى وحطمت كثيراً من التماثيل ؛ ودمرت جماعات من المتعصبين عدداً آخر

من الصور ، وعدا الزمان على بعضها الآخر فأبلاه ، ذلك أن التاريخ صراع بين الفن وعوادى الأيام .

وتمثل روائع النحت فى كنيسة ريمس ، كما تمثل واجهتها ، أرقى ما وصل إليه الفن القوطى : فبعضها عتيق فج ولكن الموجود منها فى المدخل الأوسط منقطع النظير ؛ وإنا لنلتقى فى عدة أماكن على أبواب الكنيسة ، وقمم أبراجها المستطيلة ، وفى داخلها ، بتماثيل تكاد تضارع فى صقلها ما نحت فى عصر بركليز . ولسنا ننكر أن منها ما هو مفرط فى الرشاقة كتمثال العذراء القائم على عمود المدخل الأوسط ، وأنها توحى إلى الناظر بضعف قوة القوط ، ولكن تمثال « عذراء التطهير » القائم عن يسار هذا المدخل نفسه ، وتمثال « عذراء زيارة الملاك » القائم عن يمينه ليعدان من حيث التفكير والتنفيذ من الأعمال الجليلة التى يعجز القلم واللسان عن وصفها . وأوسع من هذين التمثالين شهرة ، وإن لم تبلغ مبلغهما من الكمال ، تماثيل الملائكة الباسمة فى مجموعة تماثيل البشارة القائمة فى هذه الواجهة . ألا ما أعظم الفرق بين هذه الوجوه المستبشرة وبين تمثال القديس بولس القائم عند المدخل الشمالى ! وإن كان هذا التمثال من أقوى الصور التى نحتت فى الحجر .

وتفوق التماثيل المنحوتة فى كتدرائية أمين تماثيل ريمس فى رشاقتها وصقلها ، ولكنها تقل عنها فى جلال التفكير وعمق الإيحاء . فهنا نرى فوق الباب الغربى تمثال الإله الجميل Beau Dieu الذائع الصيت ، وهو تمثال تقيد صانعه بعض الشىء بالتقاليد ، وخلا بعض الشىء من الحياة ، وهما عيبان يطالعاننا بعد أن نشاهد تماثيل ريمس الحية الناطقة . وهنا أيضاً تمثال القديس فرمين Firmin وهو لا يمثله زاهداً فزعاً بل يمثله رجلا هادئاً صلباً لم يُشكَّ فى يوم من الأيام بأن الحق سوف ينتصر ؛ وهنا أيضاً عذراء تحتضن طفلها بين ذراعيها ، ويبدو عليها كل ما تتصف به الأمومة الصغيرة السن من استغراق فى الحنان . وفى الباب الجنوبى

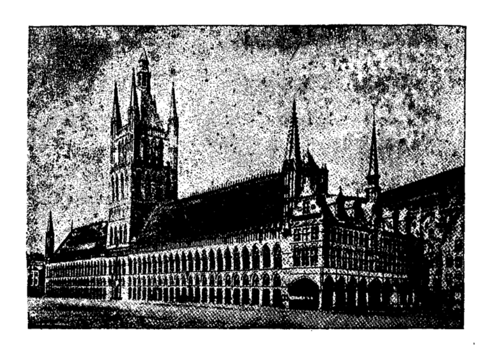
نرى العذراء الذهبية تبتسم وهى ترقب طفلها يلعب بكرة ، وقد جملها المثَّال قليلا ، ولكنها أكثر رشاقة من أن تستحق ما وصفها به رسكن Ruskin فى غير كياسة بأنها « مدللة پيكاردى » (soubrette of Picardy) . وما ألذ أن يرى الإنسان المثَّالين القوط يكتشفون الرجال والنساء ، بعد أن ظلوا مائة عام فى خدمة الأغراض الدينية ، وينحتون بعد هذا الكشف متع الحياة على واجهات الكنائس . وغضت الكنيسة النظر عن هذا الكشف بعد أن عرفت هى أيضاً كيف تستمتع بالحياة الدنيا ، ولكنها رأت من الحكمة أن تصور منظر يوم الحساب على الواجهة الرئيسية .

وبنيت كتدرائية أميَن فيما بين ١٢٢٠ و ١٢٨٨ ؛ وقام ببنائها سلسلة متتابعة من المهندسين : ربرت ده لوزارك Robert De Luzarches ، وتومس ده كورمنت Thomas de Cormonte وابنه رنيول Regnault . ولم يتم بناء الأبراج إلا فى عام ١٤٠٢ . وداخلها هو أكثر الصحون القوطية نجاحا ؛ فهو يرتفع فى قبة علوها ١٤٠ قدما . ويخيل إلى الناظر أنها تجتذب الكنيسة إلى أعلى ، وليست تتحمل ثقلا . وترتبط بواكى الصحن ذات الثلاث الطبقات جذوع متصلة ممتدة من الأرض إلى القبة فتجعل منها وحدة فخمة ذات عظمة وجلال . وتعد القباب القائمة فوق القبا انتصاراً للتصميم المتناسق على اختلال النظام الباعث على الحيرة والارتباك ؛ وإن المرء ليذهل وتقف دقات قلبه حين تقع عيناه أول مرة على نوافذ الطابق الأعلى وعلى ورود أمكنة تقاطع الطرقات والصحن وعلى الواجهة .

وفى كتدرائية بوفيه عدا هذا الولعُ القوطى بالقباب طورَه وبلغ مصيرَه المحتوم وهو السقوط . ذلك أن فخامة كتدرائية أمين أثارت الغيرة فى قلوب أهل بوفيه ، فبدءوا البناء فى عام ١٢٢٧ وأقسموا ليرفعن قبة كنيستهم أعلى من قبة أمين بثلاث عشرة قدما ووصلوا بموضع المرنمين إلى الارتفاع المطلوب ، ولكنهم

ما كادوا يضعون سقفه حتى انهار ، واستفاق جيل آخر من هذه الكارثة فأعاد بناء موضع المرنمين إلى ارتفاعه السابق ولكنه انهار مرة أخرى فى عام ١٢٨٤ . وأعيد البناء للمرة الثالثة وعلوا به هذه المرة إلى ارتفاع ١٥٧ قدماً فوق الأرض ؛ ولما نفد ما عندهم من المال تركوا الكنيسة قرنين كاملين من غير جناحين أو صحن . ولما أفاقت فرنسا آخر الأمر من حرب المائة السنين فى عام ١٥٠٠ ، بدئ الجناحان الضخمان ، ثم أقيم فوق ملتقى الجناحين برج فانوس بلغ ارتفاعه خمسمائة قدم ليعلو بذلك على شمروخ كنيسة القديس بطرس فى رومة . وانهار هذا البرج أيضاً فى عام ١٥٧٣ وانهار معه جزء كبير من الجناحين ومكان المرنمين . ثم قنع أهل بوفيه الأبطال آخر الأمر بحل وسط : فرمموا موضع المرنمين وبلغوا به علوه غير الأمين ، ولكنهم لم يضيفوا إليه صحناً ، ولهذا فإن كتدرائية بوفيه كلها رأس بلا جسم ؛ فهى من خارجها واجهتان لجناحين جميلين قيمين ، وقبا تحيط به وتخفيه السنادات ؛ ومن داخلها موضع للمرنمين كالكهف يتلألأ بالزجاج الفخم الملوّن . ويقول أحد الأمثال الفرنسية القديمة إنه لو استطاع الإنسان أن يضم موضع المرنمين فى كنيسة بوفيه إلى صحن كنيسة أمين ، وإلى واجهة ريمس وشماريخ تشارتر ، لو استطاع ذلك لكانت كتدرائية قوطية تبلغ حد الكمال .

وإذا ما عاد الناس بخيالهم فى العصور المقبلة إلى ذلك القرن الثالث عشر فسوف تتملكهم الحيرة فلا يدرون من أين كان لأهل هذا القرن ذلك الثراء الذى أقاموا به على الأرض تلك الصروح الفخمة المجيدة . ذلك أنه ما من أحد يستطيع أن يعرف ما صنعته فرنسا فى ذلك الوقت — بالإضافة إلى جامعتها ، وشعرائها ، وفلاسفتها ، وحروبها الصليبية — إلا إذا وقف بنفسه أمام واحدة تلو واحدة من تلك الصروح القوطية الجريئة التى لاتعدو أن تكون هنا مجرد أسماء : نتردام ، وتشارتر ، وريمس ، وأمين ، وبوفيه ، وبروچ (١١٩٥—١٣٥٠)



(الصورة رقم ٨) « فندق المدينة » إيبر



(الصورة رقم ٩) كتدرائية كنتربرى

ذات الصحن الرحب ، والطرقات الأربع ، والزجاج الذائع الد
والملاك الجميل النحت ذى الميزان ؛ وجبل سانت ميشيل وديره العم
(١٢٠٤ — ١٢٥٠) القائم فى حصن مشرف على صخرة فى وسط ماء البحر
بالقرب من نورمندية ؛ وكنستانس (١٢٠٨ — ١٣٢٨) وشماريخها النبيلة ؛
وررون (١٢٠١ — ١٥٠٠) وبابها الأمامى باب ناشرى الكتب ؛ وسانت
شابل فى باريس — « **صندوق** جواهر » الزجاج القوطى التى شادها
(١٢٤٥ — ١٢٤٨) بيير ده منتريه لتكون ضريحاً مصلا بقصر القديس
لويس يضم المخلفات التى ابتاعها ذلك الملك من بلاد الشرق . ومن الخير
أن نتذكر فى عصور الدمار أن فى مقدور الناس إذا شاءوا أن يبنوا كما
بنوا فى فرنسا يوما من الأيام .

الفصل السادس

الطراز القوطى الإنجليزى (١١٧٥ — ١٢٨٠)

وزحف الطراز القوطى من تشارتر و « جزيرة فرنسا Ile de Franec »
إلى الأقاليم الفرنسية . ثم عبر الحدود إلى إنجلترا . وبلاد السويد . وألمانيا ،
وأسبانيا ، ثم انتقل أخيراً إلى إيطاليا . وكان المهندسون والصناع الفرنسيون
يقبلون ما يكلفون به من أعمال فى البلاد الأجنبية . وكان الفن الجديد
يسمى أينما حل **العمل المولود فى فرنسا** opus Francigenum : ورحب
به إنجلترا لأنها كانت فى القرن الثامن عشر نصف فرنسية . ولم تكن القناة
الإنجليزية إلا نهراً بين ناحيتين من مملكة بريطانية تشمل نصف فرنسا .
وكانت رون العاصمة الثقافية لتلك المملكة . واستمد الفن القوطى أصله من
نورمندية لا من إيل ده فرانس . واحتفظ بالضخامة النورمندية فى إطار
قوطى . وحدث الانتقال من الطراز الرومنسى إلى الطراز القوطى فى
فرنسا وإنجلترا فى وقت واحد تقريباً ، ففى الوقت الذى كان العقد المستدق
يستخدم فى كنيسة القديس دنيس (١١٤٠) أخذ هذا الطراز يعود إلى الظهور
فى كتدرائيتى درهام وجلوسستر ، وفى دير الفوارات Fountains Abbey ،
ومالمسزبرى Malmsbury[٢٤] . وكان هنرى الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢)
يعجب بكل ما هو فرنسى ويحسد المجد المعمارى الذى بلغته فرنسا فى
عهد القديس لويس . وفرض على رعاياه من الضرائب ما أفقرهم ليعيد
بناء دير وستمنستر ، ولينفق على مدرسة الفنانين — البنائين ، والمثالين ،
والمصورين ، والمزخرفين ، والصياغ — الذين جمعهم قرب بلاطه لينفذوا
مشروعاته . وسنقصر وصفنا هنا على الطراز الأول من الطرز التى تنقسم إليها
العمارة القوطية الإنجليزية — وهى الطراز الإنجليزى المبكر (١١٧٥ — ١٢٨٠) ،

والطراز المنقوش (١٢٨٠ — ١٣٨٠) ، والطراز العمودى (١٣٨٠ — ١٤٥٠) . وقد اتخذ هذا الفن من النوافذ والعقود الإنجليزية له اسماً آخر فسمى « بالريشة »(*) . وكانت الواجهات والأبواب فى هذا الطراز أبسط من مثيلاتها فى فرنسا . وإن كانت كنيستا لنكلن وروشستر قد حوتا بعض التماثيل المنحوتة ، وحوت منها كنيسة ولز Wells أكثر من هاتين الكنيستين ؛ ولكن هذه لم تكن هى القاعدة المتبعة ، ولا يمكن على كل حال مقارنة هذه التماثيل ، فى نوعها وعددها ، بالتماثيل المقامة على أبواب كنائس تشارتر ، أو أمين ، أو ريمس . أما الأبراج فكانت تمتاز بالفخامة لا بالارتفاع ، وإن كانت أبراج سالزبرى ، ونوروك ، ولتشفيلد تدل على ما يستطيع البنّاء الإنجليزى أن يفعله إذا ما آثر الرشاقة والارتفاع على الروعة والفخامة . كذلك عجز ارتفاع الكنيسة من الداخل عن أن يغرى المهندسين الإنجليز ؛ لقد حاولوه أحياناً كما فعلوا فى وستمنستر وسلزبرى ، ولكنهم فى الأغلب الأعم كانوا يتركون القبة منخفضة انخفاضاً مقبضاً للنفس ، كما تراها فى جلوسستر ، وإكستر . يضاف إلى هذا أن طول الكتدرائيات الإنجليزية الكبير لم يكن يشجع على بذل الجهود التى تجعل ارتفاعها يتناسب مع هذا الطول ؛ فطول كنيسة ونشستر ٥٥٦ قدماً ، وطول كنيسة إلى Ely ٥١٧ ؛ وكنتربرى ٥١٤ ، ودير وستمنستر ٥١١ ؛ أما كنيسة أمين فطولها ٤٣٥ ، وريمس ٤٣٠ ، وحتى كنيسة ميلان نفسها لا يزيد طولها على ٤٧٥ . لكن ارتفاع كنيسة ونشستر من الداخل لم يكن يزيد على ٧٨ قدماً . وهو فى كنيسة كنتربرى لا يزيد على ٨٠ ، وفى لنكلن لا يتجاوز ٨٢ . وفى وستمنستر لا يتجاوز ١٠٣ ؛ أما أمين فترتفع إلى ١٤٠ قدماً .

(*) والنوافذ التى سمى بها هذا الطراز عالية ضيقة تنتهى بعقد مستدق كثيراً : مزدوج الفتحات أو ثلاثيها ، وهو كثير الوجود فى مبانى النصف الأول من القرن الثالث عشر . (المترجم)

وظل الطرف الشرقى للكنيسة القوطية الإنجليزية هو القبا المربع المعروف فى الطراز الإنجليسكسونى ، متجاهلا فى ذلك التطور الفرنسى السهل الذى أنتج القبا الكثير الأضلاع أو النصف الدائرى . وكان الطرف الشرقى يوسع فى كثير من الحالات ليكون مصلى خاصة لعبادة العذراء ، وإن كانت عبادة مريم لم تبلغ من الحماسة الدرجة التى بلغتها فى فرنسا . وكثيراً ما كان موضع اجتماع القساوسة فى الكتدرائية وقصر الأسقف متصلين بالكنيسة يكونان معها « حرم الكنيسة » ، وكان يحيط به فى العادة سور . وكان انتشار عنابر النوم ، وقاعات الطعام ، والدير ، والطرقات المنعزلة فى الأديرة القوطية بإنجلترا واسكتلندة — كما هى الحال فى فوانتينز ، ودرايبرج Dayburgh ، وملروز Melrose ، وتنتبرن Tintern داخل محيط واحد مما جعلها تكون مجموعة فنية ذات جلال وروعة .

ويبدو أن المبدأ الأساسى فى العمارة القوطية — مبدأ توازن الضغوط وتصريفها لتقليل ضخامة الدعائم والمساند — وما ينشأ عن هذه الضخامة من قبح المنظر — لم يحز قط قبولا تاماً فى إنجلترا ، ولم يعدّل سمك الجدران الذى يمتاز به الطراز الرومنسى القديم إلا تعديلا يسيراً فى الطراز القوطى الإنجليزى ، حتى فى الحالات التى يتحتم فيها تكييف التصميم ليوائم القاعدة الرومنسية كما حدث فى سلزبرى . وكان المهندسون الإنجليز ينفرون من المساند المتنقلة نفور المهندسين الطليان . نعم إنهم لجأوا إليها فى بعض الأماكن ، ولكنهم فعلوا ذلك فى غير مبالاة ؛ وكانوا يشعرون بأن دعائم البناء يجب أن يحتويها البناء نفسه ، لا أن تكون فى الزوائد التى تضاف إليه ؛ ولعلهم كانوا فى هذا على حق ؛ وإن لكتدرائياتهم لقوة وصلابة ورجولة تسمو فوق الجمال إلى العظمة والجلال ، وإن كانت تنقصها الرشاقة التى نشاهدها فى روائع الفن الفرنسى .

وبعد أن مضت أربع سنين على مقتل بكت فى كنتربرى احترق موضع المرنمين فى الكتدرائية (١١٧٤) . وروع أهل البلدة لهذه الكارثة ، وأخذوا

يضربون الجدران برؤوسهم فى غضب وحيرة لأن العلى العظيم لم يمنع حلولها بضريح أصبح قبل وقوعها كعبة الحجاج المتدينين(٢٥) . وعهد الرهبان بناء الكنيسة إلى مهندس من أهل سان Sens يدعى وليم ، وهو رجل فرنسى ذاع صيته على أثر بنائه كتدرائية لمدينته . وظل وليم يعمل فى كنتربرى من ١١٧٥ إلى ١١٧٨ ؛ ثم عجز عن العمل لسقوطه من فوق محالة ، فواصل العمل « وليم الإنجليزى William the Englishman » وهو رجل « ضئيل الجسم » كما يقول الراهب چرفاز Gervase ولكنه دقيق أمين فى أعمال كثيرة مختلفة الأنواع(٢٦) . وقد بقيت أجزاء كثيرة من الكتدرائية الرومنسية التى شيدت فى عام ١٠٩٦ ؛ بقيت العقود المستديرة بين التجديدات القوطية بصفة عامة ؛ ولكن السقف الخشبى الذى كان يغطى موضع المرنمين قد استبدلت به قبة من الحجر مضلعة ، وكذلك استطالت العمد فعلت إلى ارتفاعها الكامل الرشيق ، ونحتت تيجانها نحتا بديعا ، وملئت النوافذ بالزجاج الملون البراق . وإن كتدرائية كنتربرى المتجمعة فى محيطها الكتدرائى ، والتى تشرف مع ذلك على بلدتها الجميلة العجيبة لهى اليوم من أكثر مناظر الأرض إيحاء وإلهاما للنفوس .

ونشر الأحبار والحجاج الذين لا يحصى عددهم الطراز القوطى فى أنحاء بريطانيا بما أقيم من كنائس على نمطها . فأقامت پيتربرو Peterborough فى عام ١١٧٧ رواقا فخما ذا عمد فى واجهة الجناح الغربى من كتدرائيتها ، وشيد الأسقف هيو ده لاسى Hugh de Lacy فى عام ١١٨٩ الامتداد الجميل لكتدرائية ونشستر خلف مكان القربان على هذا الطراز . وحدث فى عام ١١٨٦ زلزال تصدعت منه كتدرائية لنكلن من أعلاها إلى أسفلها ؛ وبعد ست سنين من تصدعها شرع الأسقف هيو يعيد بناءها على تصميم قوطى قام به جوفرى ده نوايير Geoffrey de Noyers ، وأتمها جروستست Grossete الشهم النبيل حوالى عام ١٢٤٠ . وهى قائمة على ربوة تطل على ريف إنجليزى يتمثل فيه

جمال هذا الريف أصدق تمثيل . وقلّ أن يشاهد الإنسان ما يشاهده فى هذه الكنيسة من روعة الحجم قد وفق بينها وبين رقة التفاصيل : فأبراجها الثلاثة العظيمة ، وواجهتها العريضة ببابها ذى التماثيل المنحوتة وبواكيها المعقدة ، وصحنها الفخم الذى يبدو خفيفاً رغم ضخامة حجمه وسعته ، وجذوع أعمدتها الرشيقة وما على دعاماتها من نقوش لا تقل عن هذه الجذوع رشاقة . ونوافذها المشععة ، وقبوة بيت القساوسة الشبيهة بالنخلة ، وعقود الصوامع الفخمة الرائعة — هذه تكفى وحدها لأن تجعل كتدرائية لنكلن مما يشرف بنى الإنسان ، ولو لم يكن فيها « مرنمة الملائكة » . فقد حدث فى عام ١٢٣٩ أن سقط برج نورمندى قديم وحطم المرنمة التى شادها الأسقف هيو ، فلما سقطت شيدت مرنمة جديدة فى الفترة التى بين ١٢٥٦ — ١٢٨٠ على الطراز المزخرف الوليد ، منقوشة ولكنها بديعة . وتعزو الأقاصيص اسمها إلى الملائكة الذين أقاموها — كما تقول القصة — لأن أيدى بنى الإنسان تعجز من أن تقيم عملا يبلغ هذا المبلغ من الكمال ؛ ولكن أغلب الظن أن هذا الاسم قد اشتق من الملائكة الموسيقيين الباسمين المنحوتة صورهم على الفرج المسدودة حول أقواس طاقات البواكى القــائمة فوق العقود بين الصحن والجناحين . وأوشك المثالون الإنجليز أن يبلغوا فى تماثيلهم القائمة على باب المرنمة الجنوبى ما بلغه المثالون فى ريمس وأمين . فهناك أربعة تماثيل قد أزال رؤوسها وشوّهها المتطهرون المتزمتون تبلغ فى الجمال مبلغ تماثيل ريمس وأمين ، ومن هذه تمثالان يرمز أحدهما إلى الهيكل وآخر إلى الكنيسة هما أجمل التماثيل الإنجليزية التى نحتت فى القرن الثالث عشر . ويظن السير وليم أسلر Sir William Osler وهو من كبار العلماء ، أن مرنمة الملائكة هذه أجمل روائع الفن البشرى على الإطلاق .

واستأجر الأسقف پور Poore فى عام ١٢٢٠ إلياس ده درهام Elias de Derham ليصمم ويبنى كتدرائية سلزبرى ؛ وقد تم بناؤها فى الفترة القصيرة

المعتادة التى لا تزيد على خمس وعشرين سنة . وهى فى جميع أجزائها على الطراز الإنجليزى المبكر ، وتشذ عن القاعدة المتبعة فى الكتدرائيات الإنجليزية وهى جمعها بين عدة طرز مختلفة . وإن ما تمتاز به من وحدة فى التصميم ، وتناسق فى الحجم والخطوط ، وجلال ساذج فى برج الجناح وشمروخه ، ورشاقة فى القبة المقامة على معبد العذراء . وجمال فى نوافذ بيت القساوسة ، إن ما تمتاز به من هذا كله ليعوضها عن ثقل دعامات الصحن وضيق القبة المقبض . ولا يزال لكتدرائية إلى Ely سقف من الخشب ، ولكنه سقف غير منفر . فإن فى الخشب من صفات الدفء والحيوية ما لا يوجد له مثيل فى العمارة الحجرية . وقد أضاف المهندسون القوط إلى الحصن النورمندى بابا غريبا جميلا هو « باب الجليل » (حوالى عام ١٢٠٥) ، وبيتا للقساوسة به مجموعة من العمد الجميلة منحوتة من رخام بربك Purbeck ، كما أضافوا إليها فى القرن الرابع عشر على الطراز القوطى المزخرف مصلى للعذراء ، ومرنمة ، ثم أقاموا عند ملتقى الجناحين بالسقف برج ناقوس ضخم هو « مُثَمَّن إلى » . وكانت كتدرائية ولز (١١٧٤ - ١١٩١) من أقدم أمثلة الطراز القوطى الإنجليزى ؛ ولم يكن صحنها جيد التصميم ، ولكن الواجهة الشمالية التى أضافها الأسقف جوسلين Jocelyn (١٢٢٠ - ١٢٤٢) « أوشكت أن تكون أجمل ما شيد فى إنجلترا »(٢٨) . ولقد كان فى كوى الواجهة ٣٤٠ تمثالا ؛ فقد منها ١٠٦ كانت من ضحايا تزمت المتطهرين ، والتخريب ، وعوادى الزمن ، وتكون البقية الباقية أكبر مجموعة من الصور المنحوتة فى بريطانيا . وليس فى وسعنا أن نقول عن صفاتها مثل ما نقوله عن عددها .

وكانت آخر العمائر التى شيدت على الطراز القوطى الإنجليزى المبكر كنيسة ديروستمنستر . وكان سبب بنائها أن هنرى الثالث الذى اتخذ إدورد المعترف قديسه الشفيع أحس بأن الكنيسة النورمندية التى بناها إدورد (١٠٥٠)

غير جديرة بأن تحوى عظام هذا الشفيع ، فأمر فنانيه أن يستعيضوا عنها بصرح قوطى على الطراز الفرنسى ، وجبى لهذا الغرض ضرائب بلغ مقدارها ٧٥٠٫٠٠٠ جنيه يمكننا أن نقدرها تقديراً تقريباً بما يعادل ٩٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى حسب قيمة الدولار فى هذه الأيام . وبدأ العمل فى عام ١٢٤٥ ، وظل قائما حتى توفى هنرى فى ١٢٧٢ . وكان تصميمها على غرار تصميم كنيستى ريمس وأمين لا يستثنى من هذا الجناحان الكثيرا الأضلاع اللذان هما من مميزات الطراز القارى : ولقد تأثرت النقوش المنحوتة فى الباب الشمالى ، والتى تصور يوم الحساب ، بالنقوش التى فى الواجهة الغربية لكتدرائية أمين . وفى الفرج المسدودة فى البواكى القائمة فوق العقود التى بين الصحن والجناحين نقوش بارزة مدهشة تمثل الملائكة ، منها ملك فى الفرجة الجنوبية يطل على الزمان بوجه حنون رحيم يضارع ملك كنيسة ريمس . وفوق مدخل بيت القساوسة صورتان تمثلان البشارة وتشير فيهما العذراء إشارة فاتنة تجمع بين التوسل والتواضع . وأجمل من هذا كله على جماله القبور الملكية التى فى الدير ، وأجمل من هذه كلها تمثال هنرى الثالث نفسه ؛ وقد جمل فيه صانعه الملك البدين القصير فجعله مثلا أعلى فى الجمال وتناسب الأعضاء . ولقد أنست الناس هذه القبور الفخمة جرائم عشرين من الحكام ، وكادت تعوضهم عنها العبقرية الإنجليزية المدفونة تحت حجارة توابيت الملوك .

الفصل السابع

الطراز القوطى الألمانى (١٢٠٠ - ١٣٠٠)

استوردت فلاندرز الطراز القوطى من فرنسا فى تاريخ مبكر. فقد بدأت كنيسة القديس جودول Gudule التى ترفع هامتها كبرياء على تلها ببركسل فى عام ١٢٢٠، وأهم ما تفخر به هو زجاجها الملون. وأقيمت فى كنيسة القديس باڤون Bavon بغنت مرنمة قوطية فى ١٢٧٤؛ وكانت كنيسة القديس رمبولت Rombault فى مكلن Mechlin تشرف على الريف من أبراجها الضخمة المفرطة فى الزخرف وإن كانت لم تتم فى يوم من الأيام. ذلك أن فلاندرز كانت تهتم بالنسيج أكثر مما تهتم بالدين، وكانت عمارتها مدنية لادينية، وكان أعظم ما فيها من العمائر القوطية هو قاعات الأقمشة فى إيبر وبروج وغنت. وكانت قاعة إيبر (١٢٠٠ - ١٣٠٤) Ypres أفخم هذه القاعات: فقد كان لهـا واجهة ذات ثلاثة أطباق من البواكى طولها ٤٥٠ قدماً دمرت فى أثناء الحرب العالمية الأولى. ولا تزال قاعة النسيج فى بروج (١٢٨٤ وما بعدها) تشرف بقبة ناقوسها الفخمة التى طبقت شهرتها العالم كله على الميدان الذى تقوم فيه. وتوحى هذه المبانى الجميلة هى ومبانٍ غنت (١٣٢٥ وما بعدها) بما كانت عليه نقابات الحرف الفلمنكية من ثراء، وما كانت تتيه به من كبرياء هى خليقة به، وهى بعض ما فى هذه المدن السارة الهادئة فى هذه الأيام من فتنة وروعة.

ولقى الفن القوطى فى انتشاره نحو الشرق إلى هولندة وألمانيا مقاومة متزايدة؛ ذلك أن رشاقة الطراز القوطى لم تكن تتفق بوجه عام مع النزعة العقلية التيوتونية، وأن الطراز الرومنسى أكثر مواءمة لهذه النزعة، ولهذا استمسكت

به ألمانيا حتى القرن الثالث عشر . وتعد كتدرائية بمبرج Bamberg العظمى (١١٨٥ - ١٢٣٧) مرحلة انتقال : فالنوافذ فيها صغيرة وذات عقود مستديرة وليست فيها مساند متنقلة ، ولكن القبة ذات ضلوع من الداخل وذات شكل مستدق . وإنا لنجد هنا فى مطلع عهد الفن القوطى الألمانى تطوراً فى النحت ذا بال : فقد كان فى بادئ الأمر يحذو حذو النحت الفرنسى ، ولكنه سرعان ما خطا نحو طراز من النزعة الطبيعية البديعة والقوة . والحق أن الصورة التى تمثل المعبد فوق كنيسة بمبرج لأوقع فى النفس من الصورة المماثلة لها فى ريمس[٢٩] . وتمثالا اليصابات ومريم اللذان فى المرنمة أقرب إلى أن يكونا نسختين من الموضوعين المماثلين لهما فى فرنسا . ذلك أن تمثال اليصابات ذو وجه وشكل يشبهان وجه عضو من أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى يرتدى الجبة الرومانية (الطوغة) ، وأما مريم فقد مثلت فى صورة امرأة ذات قوة وصـــلابة وهما الصفتان اللتان تحبهما ألمـــانيا على الدوام .

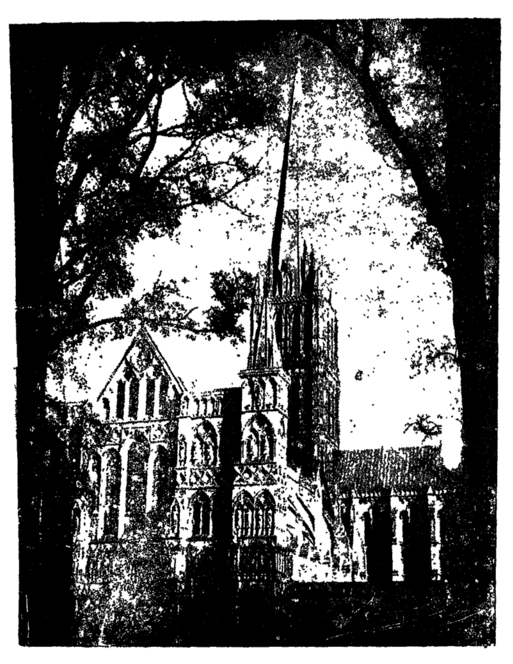
وتكاد كل كتدرائية ألمانية باقية من ذلك العهد تحتوى تماثيل تستلفت الأنظار ، أحسنها كلها التى فى كتدرائية نومبرج Naumburg (حوالى ١٢٥٠) . ففى المرنمة القريبة من هذه الكنيسة اثنا عشر تمثالا متعاقبة تمثل طائفة من علية القوم المحليين ، فى واقعية حازمة ، وتوحى بأن الفنانين لم ينالوا حقهم من الأجر كاملا ؛ وكأنما أرادوا أن يكفّروا عن هذا الخطأ فكانت صورة يوتا Uta زوجة الأمير تمثل المرأة الألمانيه كما يتوق إليها التفكير الألمانى . وعلى ستار المرنمة نقش يمثل يهوذا يتناول المال ليغدر بالمسيح . والصور هنا مزدحمة وذات قوة ولكنها قوة لا تضر بفرديتها ، فيهوذا قد مثل بحيث يبدو متصفاً بشىء من العطف ، والفريسيون شخصيات ذوات قوة . تلك هى آية فن النحت الألمانى فى القرن الثالث عشر .

وفى عام ١٢٤٨ وضع كنراد الهتشستادنى Conrad of Hochstaden كبير

أساقفة كولونى أشهر الكتدرائيات الألمانية وأقلها موافقة للطراز القوطى . وتقدم العمل تقدماً بطيئاً فى خلال الفوضى التى أعقبت موت فردريك الثانى ، فلم تدشن الكتدرائية إلا فى عام ١٣٢٢ ، ولهذا فإن جزءاً كبيراً منها يرجع تاريخه إلى القرن الرابع عشر ، أما الشماريخ الرشيقة وما على زواياها من النقوش التى فى صورة أوراق أشجار ملفوفة وزخارف النوافذ الحجرية التى يوضع فيها الزجاج فقد بنيت فى عام ١٨٨٠ حسب تصميم لها من القرن الخامس عشر . وبنيت كتدرائية كولونى على غرار كتدرائية أمين فترسمت الطراز الفرنسي والأسلوب الفرنسى بدقة . فخطوط الواجهة مفرطة فى اعتدالها وصلابتها ، ولكن عمد الصحن السامقة الرفيعة ، والنوافذ المتلألئة ، والتماثيل الأربعة عشر التى على دعامات المرنمة تكسب داخل الكتدرائية جاذبية ، لم تنج من الحرب العالمية الثانية إلا بأعجوبة ، وتكاد تكون إحدى المعجزات .

وكتدرائية استرسبورج Strassbourg أكثر من هذه إمتاعاً للنفس . وهنا أيضاً كان قرب البلدة من فرنسا مما جعل الطراز الفرنسى يبدو وكأنه أقل بعداً عن الطابع الوطنى مما يبدو فى استرسبورج فى هذه الأيام (١٩٤٩) ، فخارجها يمثل الرشاقة الفرنسية وداخلها يمثل القوة الألمانية . ويدخل الإنسان إلى الكتدرائية بعد أن يمر ببيوت مزدحمة جميلة المنظر ذات سقف هرمية . وتزين التماثيل الواجهة ، ولكن النوافذ المشععة الواسعة ذات الروعة أبهى من هذه الزينة . والبرج الوحيد القائم فى ركن واحد من أركان الواجهة يشوه منظرها ، إذ يوحى إلى الإنسان بأن فيها نقصاً ، ولكن الفنان قد أفلح كل الفلاح فى أن يجمع هنا بين المهابة والزخرف ، حتى ليستطيع الإنسان أن يفهم وصف جيته لهذه الواجهة بأنها « موسيقى متجمدة » ، وإن كان علينا نحن أن نستخدم فى وصفها لفظاً غير لفظ « متجمد » . فقد كتب جيته يقول : « لما كنت قد نشأت على احتقار العمارة القوطية ، فقد ازدريت هذه الواجهة ؛ ولكنى لما دخلتها اعترتنى

الدهشة ، وأحسست بما فى جمالها من جاذبية »(٣٠) . والزجاج الملون فى هذه الكتدرائية قديم العهد ، ولعله أقدم من أى زجاج فى فرنسا ؛ والتماثيل المنحوتة التى عند باب الجناح الجنوبى (١٢٣٠ — ١٢٤٠) نادرة الجمال ، وفى القوس التى فوق الباب نقش غائر يمثل موت العذراء ؛ والرسل المجتمعون حول فراشها ذوو ملامح فردية غير وافية ؛ ولكن الفكرة التى أوحت بصورة المسيح جميلة وقد أبرزها المثال بمهارة . ويقوم على جانبى هذا الباب تمثالان عظيمان : يمثل أحدهما الكنيسة فى صورة ملكة ألمانية بشوشة ؛ والآخر صورة لشخص نحيل رشيق ، مكفوف ولكنه جميل ، يرمز إلى معبد اليهود ؛ ولو رفعت العصابة التى على عينى هذا التمثال لفاق المعبد الكنيسة . وقد أمرت لجنة الثورة الفرنسية فى عام ١٧٩٣ بتدمير تماثيل الكتدرائية لتجعل منها « معبداً للعقل » ؛ ولكن عالما فى التاريخ الطبيعى لا نعرف من اسمه أكثر من هرمان Herman أنقذ تمثالى الكنيسة والمعبد بأن أخفاهما فى حديقته المخصصة لعلم النبات ، كما أنقذ النقوش التى فوق قوس الباب بأن غطاها بلوحة عليها نقش فرنسى : **الحرية ، والمساواة ، والإخاء**(٣١) .



(الصورة رقم ١٠) كتدرائية سلزبرج

الفصل الثامن

الطراز القوطى الإيطالى (١٢٠٠ — ١٣٠٠)

أطلق الإيطاليون فى العصور الوسطى على الطراز القوطى اسم طراز تيدسكو ؛ وأخطأ إيطاليو النهضة مثل خطئهم فى أصل هذا الطراز ، فاخترعوا له اسم القوطى لاعتقادهم أن برابرة ما وراء الألب وحدهم هم الذين يستطيعون إيجاد فن يبلغ هذا القدر من الإسراف . ذلك أن ما فى هذا الطراز من كثرة فى الزخارف وعظم فى الجرأة لم يكن يتفق وأذواق الإيطاليين ذات النزعة القديمة الطويلة العهد بالنقاء . وإذا كانت إيطاليا قد اتخذت الطراز القوطى، فقد كان ذلك عن إباء يكاد يبلغ حد الاحتقار . ولم يكن فى مقدورها أن تطلع على العالم بلألاء كتدرائية ميلان الغريب وطراز أرڤيتو ، وسينا ، وأسيسى ، وفلورنس القوطى — البيزنطى — الرومنسى إلا بعد أن كيفته بما يوائم حاجاتها ومزاجها . وكان الرخام موفوراً فى أرضها وخرباتها وكان فى وسعها أن تبنى واجهات معابدها بألواح منه متعددة الألوان ؛ ولكن كيف تستطيع أن تنحت واجهة رخامية لتشيد منها المداخل المعقدة كما كان ينحت أهل الشمال بالحجارة اللينة ؟ إنها لم تكن فى حاجة إلى النوافذ الكبيرة التى تدعو إليها حاجة بلاد الشمال الباردة القائمة إلى الدفء والضوء ، وكانت لذلك تفضل عليها النوافذ الصغيرة التى جعلت كتدرائياتها معابد قليلة الحرارة تقى روادها وهج الشمس؛ ولم تكن ترى أن الجدران السميكة والأربطة الحديدية نفسها أقبح منظراً من الدعامات المتنقلة ، فكانت لذلك تستخدمها فى تزيين مبانيها ، ولم تتقبل فى يوم من الأيام المنطق الإنسانى فى الطراز القوطى .

ويكاد هذا الطراز فى البلاد الشمالية يكون كله قبل عام ١٣٠٠ مقصوراً

على الكنائس ، لا يستثنى من هذا إلا عدد قليل منها فى المدن التجارية مثل إيبر ، وبروج ، وغنت . وكان للعمارة المدنية فى إيطاليا الشمالية والوسطى ، وهما أغنى من الأراضى الوطيئة نفسها فى الصناعة والتجارة ، شأن عظيم فى فى تنمية الفن القوطى ، فقد اتخذت القاعات العامة ، وجدران المدن ، والأبواب ، والأبراج ، وقلاع سادة الإقطاع ، وقصور التجار ، اتخذت هذه كلها الشكل القوطى أو الزخرف القوطى ؛ وبدأت بروجيا دار بلديتها فى عام ١٢٨١ ، وبدأت سينا دارها العامة فى ١٢٨٩ ، وبولونيا دارها الشعبية فى ١٢٩٠ ، وبدأت فلورنس دارها الفذة الرشيقة المعروفة بقصر ڤتشيو Vecchio فى ١٢٩٨ ب وكلها على الطراز القوطى التسكانى .

وفى أسيسى أراد الأخ إلياس فى عام ١٢٢٨ أن ينشئ مكاناً يتسع للعدد الجم من رهبانه الفرنسيسين وللطوائف المتزايدة من الحجاج إلى قبر القديس فرانسس ، فأمر بتشييد دير سان فرانسسكو وكنيستها العظيمى الاتساع — وهى أول كنيسة شيدت فى إيطاليا على النظام القوطى . وعهد هذا العمل إلى رئيس للبنائين ألمانى يسميه الإيطاليون ياقوبو الألمانى (يعقوب الألمانى Jacopo d,Alemannia) ، ولعل هذا هو السبب فى تسمية الطراز القوطى فى إيطاليا « بالطراز الألمانى » . وشيد ياقوبو « كنيسة سفلى » على الطراز الرومنسى الذى فيه القبة ذات المنحنيات الزاوية عند ملتقى العقود ، ثم أقام فوقها « كنيسة عليا » ذات نوافذ فى عقودها محشوة بزخارف جميلة ، وقباب مضلعة مستدقة . وتكون الكنيستان والدير كتلة من البناء ذات روعة ، وإن كانت لا تبلغ فى الإمتاع ما تبلغه المظلمات العجيبة التى أبدعتها أيدى سمابيو Cimabue ، وچيتو ، وتلاميذ چيتو ، أو السائحين والعباد الذين يهرعون كل يوم من مائة مدينة ومدينة إلى ضريح قديس إيطاليا المحبوب ، أقل من يلقى المبالاة من هؤلاء القديسين .

ولا تزال سينا حتى الآن من مدائن العصور الوسطى : فهى تتكون من

ميدان عام تحيط به دور الحكومة ، وسوق عامة مكشوفة ، تتصل بها حوانيت متضعة لا تبذل فيها جهود لاسترعاء النظر . ويتفرع من هذا الميدان المركزى نحو اثنى عشر طريقاً تتعثر فى طريقها الخطر الظليل بين مساكن قديمة مظلمة لا تكاد يبعد بعضها عن بعض بعشر أقدام . غاصة بخلائق بشوشين تفوح منهم روائح كريهة ، الماء عندهم ترف أندر وأشد خطورة على أجسامهم من النبيذ . وتقوم على تل خلف المساكن كتدرائية المدينة مبنية من الرخام القاتم والأبيض فى سطور غير دات جمال . وقد بدئ بناء الكنيسة عام ١٢٢٩ وتم فى عام ١٣٤٨ ؛ وأضيفت إليها فى عام ١٣٨٠ واجهة جديدة ضخمة من تصميم خلّفه چيوڤنى بيزانو . وكلها من الرخام الأحمر أو الأسود أو الأبيض ، وفيها ثلاثة أبواب كبيرة رومنسية الطراز على جانبى كل منها قوائم منحوتة نحتاً بديعاً ، وتحيط بها سقف هرمية ذات نقوش معقوفة ، ونافذة متشععة ترشح أشعة الشمس الغاربة ، وتمتد البواكى والعمد على طول الواجهة تطالع الناظر بطائفة كبيرة من التماثيل ؛ وفى الأركان شماريخ وأبراج من الرخام الأبيض تقلل من حدة زواياها ، وفى المقص العالى نقش فسيفسائى ضخم يمثل العذراء الأم تسبح صاعدة إلى الجنة . وكان الفنان الإيطالى مولعاً بالسطوح البراقة الملونة ، ولم يكن كالفنان الفرنسى مولعاً بانعكاسات الضوء والظل الدقيقة على العمد الداخلية فى الأبواب وعلى الواجهات ذات النحت الغائر . وليست هنا مساند للجدران . وتعلو فوق المرتمة قبة بيزنطية الطراز ، تتحمل ثقلها جدران سميكة وعقود مستديرة متسعة اتساعا كبيراً . تقوم على مجموعات من عمد الرخام . وتحمل قبة ذات أضلاع مستديرة ومستدقة . والطراز القوطى التسكانى لا يزال يغلب عليه هنا الطراز الرومنسى ، ولا يزال بعيداً كل البعد عن طراز كنيستى أمين وكلونى الثقيل المعجز . وفى داخل الكنيسة منبر نقولو وچيوڤنى بيزانو . وتمثال برنزى لقائم بالتعميد صبه دوناتلو Donatello (١٤٥٧) . ومظلات من صنع پنتورتشيو Pinturicchio .

ومذبح من صنع بلدسارى بروزيو Baldassare Peruzzio (١٥٣٢) ومقاعـــد للمرنمين كثيرة النقوش المنحوتة من عمل برتولميو نيرونى Bartolomeo Neroni (١٥٦٧) ؛ وهكذا استطاعت كنيسة إيطالية أن تنمو قرناً بعد قرن بفضل سلسلة متصلة الحلقات من العباقرة الإيطاليين .

وبينما كانت كتدرائية سينا وبرج أجراسها يتشكلان تناقل الناس من قرية بلسينا Bolsena معجزة كانت لها نتائج معمارية . ذلك أن قساً ، كان فى سابق أيامه يشك فى عقيدة استحالة العشاء الربانى إلى لحم المسيح ودمه ، اقتنع بصدق هذه العقيدة الدينية حين رأى الدم على الخبز المقدس ؛ ولم يكتف البابا إربان الرابع بأن يخلد هذه المعجزة بضم « عيد الجسد » إلى الأعياد المسيحية (١٢٦٤) ، بل أمر بتشييد كتدرائية فى أرڤيتو القريبة من قرية بلسينا . ووضع تصميم هذه الكتدرائية أرنلفو دى كمبيو Arnolfo di Cambio ولورنزو مكتانى Lorenzo Mactani وظلا يعملان فى تشييدها من ١٢٩٠ حتى تمت فى ١٣٣٠ . وجعلت واجهتها على طراز كتدرائية سينا ، ولكنها أجمل منها صقلا وتنفيذا ، وأحسن منها تناسباً فى أجزائها ، فكأنها تصوير ضخم فى الرخام ، كل عنصر من عناصرها آية فنية بذلت فيها عناية فائقة . وتروى النقوش البارزة المفصلة تفصيلا لا يكاد يصدقه العقل ، ولكنها مع ذلك دقيقة كل الدقة ؛ وتحدث هذه النقوش القائمة على العمد المربعة العريضة التى بين الأبواب مرة أخرى عن قصة خلق العالم ، وحياة المسيح ، وتطهير المسيح للجنس البشرى من الذنوب والشقاء ، ويوم الحساب . ويمتاز أحدها ، وهو الذى يمثل زيارة العذراء لإليصابات ، بأنه يرقى فى ذلك العهد إلى الكمال الذى بلغه فن النحت فى عصر النهضة . وهناك عمد منحوتة نحتا رقيقا تقسم مراحل الواجهة الشامخة الثلاث ، وتأوى طائفة كبيرة من الأنبياء ، والرسل ، والآباء ، والقديسين . وتتوسط هذه المجموعة المعقدة نافذة مشععة تعزى إلى أركانيا Orcania (١٣٥٩) ، وإن كان

هذا مشكوكاً فيه ، ويعلوها نقش فسيفسائى براق (أزيل فى الوقت الحاضر) يمثل تكليل العذراء . وداخل الكنيسة الذى تتناوب فيه الخطوط الملونة تناوباً غريباً عبارة عن باسلقا ساذجة تحت سقف منخفض من الخشب ؛ والإضاءة فيها ضعيفة ، وليس فى وسع الإنسان أن يمتدح المظلمات التى صنعها فرا أنجليكو Fra Angelico وبنزو جتزولى ، Benozzoli Gozzoli ولوكا سنيورلى Luca Signorelli .

ولكن سورة البناء التى اجتاحت إيطاليا فى القرن الثالث عشر أتت بأعظم عجائبها فى مدينة فلورنس الثرية . فقد شاد أرنلفو دى كمبيو فى عام ١٢٩٤ كنيسة الصليب المقدس (سانتاكروس Santa Croce) واحتفظ فيها بنظام الباسلقا التقليدى الخالى من الجناحين ، ذى السقف الخشبى المستوى ، ولكنه استخدم العقد المستدق فى النوافذ ، والصحن ذا البواكى والواجهة الرخامية . ولا يعتمد جمال الكنيسة على هندستها المعمارية بقدر ما يعتمد على كثرة ما فى داخلها من التماثيل ، والنقوش المنحوتة ، والمظلمات ، التى تكشف عن مهارة أصحاب الفن الإيطالى السائر نحو النضوج . وفى عام ١٢٩٨ أنشأ أرنلفو لمكان التعميد واجهة من طبقات الرخام يتعاقب فيها اللونان الأسود والأبيض ذلك التعاقب الذى يمجه الذوق السليم ، ويشوه كثيراً من مبانى الطراز التسكانى ، لأنه يخضع الارتفاع العمودى لحشد من الخطوط المستقيمة . ولكن روح العصر المزهوة بنفسها — وهى بشير آخر بعصر النهضة — يمكن تبينها فى المرسوم (١٢٩٤) الذى كلف به أرنلفو ببناء الكتدرائية العظيمة :

لما كان الحزم أجمع يقضى على ذوى الأصول الكريمة أن يختطوا فى أعمالهم خطة تجعل ما يتبعونه فيها من حكمة وفخامة تظهر فى صورة تراها العين ، فقد أمرنا أن يعد أرنلفو رئيس المهندسين فى المدينة نماذج أو تصميمات لإعادة بناء (كتدرائية) سانتا مارية ربراتا Sante Maria Reparata ، بحيث تبدو

فى أسمى حلة من الفخامة مهما أنفق فيها من المال ، وبحيث لاتستطيع جهود البشر ولا قواهم أن تبتكر شيئاً أيا كان ، أو أن تتعهد بالقيام بشىء ، يفوقها سعة أو جمالا ؛ وأن يراعى فى هذا العمل ما أعلنه أحكم الحكماء من المواطنين وأشاروا به فى مجلسهم العام وفى اجتماعهم العام وهو ألا تمس يد أعمال المدينة إلا إذا كان فى نية صاحبها أن يجعلها موائمة للروح النبيلة المؤلفة من أرواح جميع مواطنيها مجتمعة فى إدارة موحدة[٣٢] .

وأثار هذا التصريح الواسع الانتشار حماسة الجماهير ، وهو الهدف المقصود منه بلا ريب ، فأخذوا يتبرعون بالمال . واشتركت نقابات الحرف الطائفية فى المدينة فى تمويل المشروع ؛ ولما أن تباطأت غيرها من النقابات فيما بعد تعهدت نقابة عمال الصوف بنفقات المشروع كله ، وتبرعت لهذا الغرض بمبلغ ارتفع إلى ٥١٫٠٠٠ ليرة ذهبية (أى ما يعادل ٩٫٢٧٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) فى العام[٣٣] . ولهذا صمم أرنلفو البناء على أبعاد ضخمة ، فقدر ارتفاع القبة الحجرية بمائة وخمسين قدماً ، أى بما يساوى ارتفاع قبة بوفيه ، وقدر اتساع الصحن بمائتين وستين قدماً فى خمس وخمسين ؛ واعتزم أن تتحمل ثقل البناء جدران سميكة ، وأربطة حديدية ، وعقود فى الصحن مستدقة ، اشتهرت بقلة عددها الذى لا يزيد على أربعة ، وبامتدادها الهائل الذى يبلغ خمساً وستين قدماً فى الطول وتسعين قدماً فى العرض . وتوفى أرنلدو فى عام ١٣٠١ ؛ وظل العمل قائماً بعد وفاته وأدخل على تصميمه كثير من التعديل بإشراف چيتو ، وأندريا پيزانو ، وبرونلسكى Brunelleschi وغيرهم ،ولم تدشن هذه الكتلة الضخمة المشوهة من البناء إلا فى عام ١٤٣٦ ،وغير اسمها إلى سانتا ماريا ده فيورى Santa Maria de Fiore . وهى صرح ضخم غريب المنظر استغرق تشييده ستة قرون ، وغطى مساحة قدرها ٨٤٫٠٠٠ قدم مربعة ، وتبين فيما بعد أنه يتسع لمستمعى شڤنرولا Savonarola .

الفصل التاسع

الطراز القوطى الأسپانى (١٠٩١ - ١٣٠٠)

حمل رهبان فرنسا فى القرن الثانى عشر الطراز القوطى إلى أسپانيا فوق جبال البرانس ، كما نقلوا طراز العمارة الرومنسى إلى تلك البلاد فى القرن الحادى عشر . وكانت كتدرائية سان سلڤادور القائمة فى بلدة أڤيلا الصغيرة (١٠٩١ وما بعدها) هى بداية الانتقال من الطراز الرومنسى إلى القوطى ، وذلك بما احتوته من العقود المستديرة ، والباب القوطى الطراز ، والعمد الشيقة التى فى القبا والتى ترتفع حتى تتصل بالأضلاع المستدقة فى القبة . واحتفظ أهل سلمنقه Salamanca الأتقياء بالكتدرائية القديمة التى تمثل دور الانتقال والتى شيدت فى القرن الثانى عشر إلى جانب الكتدرائية الجديدة التى شيدوها فى القرن السادس عشر ؛ وتكون الكنيستان معا مجموعة من أكبر المجموعات البنائية وأعظمها روعة فى أسپانيا . وفى طرقونة Tarragona كانت الصعاب المالية سبباً فى إطالة عملية بناء الكرسى الكهنوتى من ١٠٨٩ إلى ١٣٧٥ ؛ وإن ما يتصف به البناء من بساطة ومتانة ليوائم الزخارف القوطية والإسلامية ، وما فيه من الأروقة - المكونة من عمد رومنسية تحت قبة قوطية - لمن أجمل ما أخرجه فن العصور الوسطى .

وطراز البناء فى طرقونة واضح المعالم ، أما بورجوس Burgos ، وطليطلة وليون فهى أكثر منها نزعة فرنسية ، وتزيد كل واحدة عن التى قبلها فى هذا الاتجاه . ذلك أن زواج بلانش القشتالية من لويس الثامن ملك فرنسا (١٢٠٠) قد أدى إلى زيادة أسباب التدخل الذى بدأه من قبل الرهبان المهاجرون . وكان

ابن أخيها فرنندو الثالث ملك قشتالة هو الذى وضع الحجر الأساسى لكتدرائية بورجوس فى عام ١٢٢١ ؛ وكان مهندس فرنسى غير معروف هو الذى قام بتصميم البناء ، وألمانى من كولونى — چوان ده كولونيا Juan de Colonia — هو الذى أقام الشماريخ (١٤٤٢) ، وبرغندى يدعى فليپه ده برجونيا Felipé de Borgonia هو الذى بنى الناقوس العظيم فوق ملتقى الجناحين (١٥٣٩ — ١٥٤٣) ؛ ثم قام أخيراً تلميذه چوان ده ڤليجو Juan de Vallego الأسبانى بإتمام الصرح كله ١٥٦٧ : وإن الشماريخ المزخرفة النوافذ ، والأبراج المفتوحة التى تعتمد عليها هذه الشماريخ ، والباكية ذات التماثيل ، لتخلع على كنيسة سانتا ماريا لا مايور Senta Maria la Mayor (القديسة مارية الكبرى) مهابة وفخامة لا يستطيع الإنسان أن ينساهما فى وقت قصير . وقد كانت هذه الواجهة الحجرية كلها فى بادئ الأمر مطلية ، ولكن الألوان زالت عنها من زمن بعيد ، ولهذا فإن كل ما نستطيعه الآن هو أن نحاول تصور هذا الصرح المتلألئ الذى كان فى وقت من الأوقات يضارع الشمس بهاء .

كذلك قدم فرنندو الثالث نفسه الأموال اللازمة لبناء كتدرائية طليطلة الأكثر من كتدرائية بورجوس فخامة . وقلّ أن توجد فى المدن الداخلية مدينة جميلة الموقع كمدينة طليطلة — فهى تجثم فى ثنية من ثنايا نهر التاجه ، تخفيها تلال تحميها من الأعــداء ؛ وما من أحد يعرف ما هى عليه من فقر فى هذه الأيام يتصور أن ملوك القوط الغربيين ومن جاء بعدهم من أمراء المسلمين ، ثم ملوك اليون Leon وقشتالة المسيحيين ، قد اتخذوا هذه المدينة عاصمة لهم . وقد بدأت كتدرائيتها فى عام ١٢٢٧ وأخذت ترتفع فى الجو ببطء مرحلة بعد مرحلة ، حتى أوشكت على التمام قبيل عام ١٤٩٣ . ولم ينشأ من التصميم الأصلى إلا برج واحد ؛ وهى من طراز نصف إسلامى مغربى كطراز الخرلدة فى أشبيلية ، وتكاد تماثلها فى رشاقتها . وبنيت فوق البرج الثانى فى القرن السابع عشر قبة أعدّ تصميمها أشهر

أبناء طليطلة دومنجو تيوتوكوپولى Domingo Teotocopuli الملقب باليونانى Elgreco . وطول الكنيسة من الداخل ٤٩٥ قدماً وعرضها ١٧٨ ؛ وهى متاهة تحتوى على خمس طرقات ذات دعامات عالية ، ومصليات مزخرفة ، وتماثيل حجرية للأولياء الزهاد ، وشبابيك من حديد مشغول ، و ٧٥٠ شباكاً من الزجاج الملون . ويتمثل فى هذه الكتدرائية الضخمة كل ما يتصف به الخلق الأسپانى من جد ، وكل ما يتصف به التقى الأسپانى من كآبة وقوة انفعال ، وما فى الآداب الأسپانية من رقة ودماثة ، كما يتمثل فيها أيضاً بعض ما يتصف به المسلمون من ولع بالزخرف .

ومن الأمثال السائرة فى أسپانيا أن « فى طليطلة أغنى كنائسنا ، وفى أڤيلو أكثرها قداسة ، وفى سلمنقة أعظمها قوة ، وفى ليون أعظمها جمالا »(٣٤). وقد بدأ الأسقف منريك Manrique كتدرائية ليون Leon فى عام ١٢٠٥ وجمع المال اللازم لها من تبرعات صغيرة جوزى عليها من قدموها بصكوك الغفران ، وتم بناؤها فى عام ١٣٠٣ . وقد عمد المهندسون فيها إلى الخطة القوطية الفرنسية وهى أن يكون معظم بناء الكتدرائية مكوناً من نوافذ ؛ ولزجاجها الملون منزلة عالية بين روائع ذلك الفن . وقد يكون حقاً أن تصميم الأرض التى بنيت عليها مأخوذ من كتدرائية ريمس ، وأن الواجهة الغربية قد أخذت من شارتر ، والباب الجنوبى الكبير من برجوس . ولهذا تمثل الكنيسة خليطاً عجيباً من الكتدرائيات الفرنسية — يحتوى على أبراج وشماريخ مصقولة .

وقامت كنائس أخرى ابتهاجاً باستعادة المسيحية أسپانيا — فى زمورة عام ١١٧٤ ، وفى توطيلة عام ١١٨٨ ، ولريده ١٢٠٣ ، وبلنسية ١٢٦٢ ، وبرشلونة ١٢٩٨ . ولكننا يصعب علينا أن نصف الكنائس الأسبانية التى قامت فى تلك الفترة من الزمان بأنها قوطية الطراز ؛ لا يستثنى من ذلك التعميم إلا كنيسة ليون . فقد خلت هذه الكنائس من النوافذ الكبيرة والمساند

المتنقلة ، واعتمد ثقل أبنيتها على جدران ودعامات ضخمة ؛ وتمتد هذه الدعامات نفسها حتى تكاد تصل إلى القبة ؛ بدل أن تمتد ضلوع العقود من القاعدة إلى السقف ؛ وهذه العمد العالية التى تقوم كالمردة الحجرية فى كهوف الصحون الضخمة تكسب داخل الكنائس الأسپانية عظمة قاتمة مظلمة تخشع لها النفوس رهبة ؛ على حين أن الطراز القوطى الشمالى يسمو بها لما يغمرها من ضوء . وكثيراً ما احتفظت الأبواب والنوافذ فى الطراز القوطى الأسپانى بالعقود الرومنسية ، كما احتفظت الزخارف المكونة من طبقات مختلفة ورسوم من الآجر الملون بعنصر إسلامى مغربى بين زخارفها القوطية ؛ وبقى تأثير الطراز البيزنطى فى القباب وأنصاف القباب القائمة ، ذات التقاسيم الثلاثية المتناسقة القائمة على قاعدة كثيرة الأضلاع . وهذه العناصر المختلفة هى التى أنشأت منها أسپانيا طرازاً فذاً من الكتدرائيات يعد من أجمل كتدرائيات أوربا .

وليست قصور الريف الحصينة وقلاعه ، ولا جدران المدن وأبوابها ، أقل الأعمال المعمارية فى العصور الوسطى نبلا وفخامة . فلا تزال جدران أڤيلا قائمة إلى اليوم تشهد بإدراك العصور الوسطى لجمال الشكل ، كما جمعت بعض الأبواب الكبيرة كباب الشمس **Puerto de Sol** فى طليطلة بين الجمال والمنفعة . كذلك أقام الصليبيون من ذكرياتهم للقلاع الرومانية ، فى الشرق الأدنى — ولعل ذلك كان أيضاً من ذكرياتهم لما شاهدوه من حصون المسلمين[٣٥] — حصوناً قوية ضخمة كحصن الكرك (١١٢١) ، تفوق فى حجمها وشكلها أية حصون من نوعها فى ذلك العهد الحربى . وشادت بلاد المجر ، حصن أوربا الحصين من المغول ، قصوراً فخمة حصينة فى خلال القرن الثالث عشر . ثم انتقل هذا الفن إلى بلاد الغرب وترك فى إيطاليا آيات من الفن الحربى مثل برج ڤلتيرا **Voltera** الحصين ، وفى فرنسا فى القرن الثالث عشر قصور كوسى **Coucy** وپييرفون **Pierrefonds** ، وقصر جويارد **Chatean Guillard** الذى شاده رتشرد قلب الأسد

(١١٧٩) على أثر عودته من فلسطين . ولم تكن القصور المحصنة فى أسبانيا بدعة من بدع الخيال ، بل كانت كتلاً ضخمة قوية من البناء صدت المسلمين المغاربة ، واشتق منها اسم قشتالة(*) . ولما استرد الفنسو السادس (الأذفنش) (١٠٧٣ — ١١٠٨) ملك قشتالة مدينة سيجوفيا Ssgovia من المسلمين ، أقام فيها قصراً حصيناً على نمط « قصر » طليطلة . وقامت أمثال هذه القصور الحصينة فى إيطاليا لتكون قلاعاً يسكنها النبلاء ، ولا تزال مقاطعتا تسكانيا ولمبارديا مليئتين بها ؛ وكان فى سان جمنيانو San Gimignano وحدها ثلاثة عشر قصراً حصيناً من هذا النوع قبل الحرب الأوربية الثانية . وبدأت فرنسا منذ القرن العاشر لا بعد تبنى فى شتودون Chateaudun القصور التى أضحت فى عصر النهضة من أفخم مظاهر فنها المعمارى . وانتقلت الأساليب الفنية فى بناء القصور الحجرية إلى إنجلترا مع أتباع إدورد المعترف المحبَّبين ، وارتقت بما اتخذه وليم الفاتح من إجراءات هجومية دفاعية فى البلاد ، فاتخذت فى أثناء قبضته الحديدية عليها صروح برج لندن ، وقصر ونزر Windsor ، وقصر درهام اتخذت هذه الصروح أقدم صورها . ومن فرنسا أيضا انتقل بناء القصور الحصينة إلى ألمانيا ، حيث شغف به الأعيان الخارجون على القانون ، والملوك المحاربون ، والقديسون الغازون . فشاد اسكلس Schloss الكنجزبرجي الرهيب (١٢٥٧) حصنا استطاع الفرسان التيوتون أن يحكموا منه السكان المعادين لهم ، حتى كان هذا الحصن ضحية هو خليق بها من ضحايا الحرب العالمية الثانية .

(*) Castle من Castile . (المترجم)

الفصل العاشر

لمحات متفرقات

لقد كانت العمارة القوطية أجل ما تكشفت عنه النفس البشرية فى العصور الوسطى . ذلك أن أولئك الرجال ، الذين أقدموا على تعليق هاته القباب على مشاءات قليلة من الحجارة ، قد درسوا عملهم ، وعبروا عنه بإحكام أكثر مما فعله فى برجه العاجى أى فيلسوف من فلاسفة العصور الوسطى ، وقد أثمرت هذه الدراسة ما لم تثمره دراسة أولئك الفلاسفة ؛ وإن خطوط كنيسة نتردام وأجزاءها المتناسقة لتؤلف قصيدة أعظم من الملهاة الإلهية . هذا وليس فى وسعنا أن نعقد موازنة عامة بين العمارتين القوطية واليونانية — الرومانية القديمة ، لأن هذه الموازنة تحتاج إلى كثير من التخصص . ولسنا ننكر أنه ما من مدينة واحدة فى أوربة العصور الوسطى قد أخرجت من العمائر ما أخرجته أثينة أو رومة ، وأنه ليس من الأضرحة القوطية ضريح حوى من الجمال الصافى ما حواه البارثنون ؛ ولكننا لا نعرف فى العمائر اليونانية — الرومانية القديمة ما يضارع العظمة المعقدة التى نراها فى واجهة كتدرائية نتردام أو الوحى الذى ينزل على النفس فيسمو بها حين تشهد قبة كتدرائية أمين . وإن ما يتمثل فى الطراز القوطى من تمرد واطمئنان ليعبر عن تعقل واعتدال كانت تدعو بلاد اليونان إليهما أهلها ذوى العاطفة القوية الجائشة ؛ وإن النشوة الخيالية التى فى الطراز القوطى الفرنسى ، والضخامة القائمة التى تمتاز بها كتدرائيتا برجوس وطليطلة ، والاتزان ـ مزان من غير قصد إلى ما فى روح العصور الوسطى من شوق وحنان ، وإلى ما فى العقيدة الدينية من رهبة ، وإيمان بالأساطير والعقائد الخفية . لقد كانت الحياة والفلسفة

اليونانيتان — الرمانيتان القديمتان علمين يهدفان إلى الثبات والاستقرار ؛ ذلك أن العوارض الراكزة على الأعمدة والتى كانت تربط عمد البارثنون كانت هى التفسير الدنيوى لنقوش دلفى مع توكيد للتسامى ، والنضج بالثبات ، وهى توشك أن ترغم أفكار بنى الإنسان على العودة إلى هذه الحياة وهذه الأرض . ولقد كانت تسمية روح بلاد الشمال بالروح القوطية تسمية صادقة تنطبق على الواقع ، لأنها ورثت الجرأة القلقة التى هى من مميزات البرابرة الفاتحين ؛ وكانت تنتقل منهومة من نصر إلى نصر ، حتى حاصرت آخر الأمر السماء بمساندها المتنقلة ، وعقودها السامقة ، ولكنها كانت بالإضافة إلى هذا روحا مسيحية تطلب إلى السماء أن تهبها الرحمة التى أقصتها البربرية عن الأرض . وكانت البواعث المتعارضة هى التى أدت إلى أعظم انتصار للشكل على المادة فى تاريخ الفن من أوله إلى آخره .

ولكن لِمَ اضمحلت العمارة القوطية ؟ لقد كان من أسباب اضمحلالها أن كل فن يقضى على نفسه بتعبيره الكامل عن نفسه ، ويدعو إلى رد الفعل أو التغيير . ثم إن تطور الفن القوطى إلى العمودى فى إنجلترا ، وإلى كثرة الألوان والزخارف فى فرنسا ، لم يترك للشكل مستقبلا سوى المغالاة ثم الاضمحلال . يضاف إلى هذا أن إخفاق الحملات الصليبية ، وضعف العقيدة الدينية ، وتحول الأموال من مريم العذراء إلى رب المال ، ومن الكنيسة إلى الدولة ، قد حطم روح العصر القوطى . وفوق هذا وذاك فإن فرض الضرائب على رجال الدين بعد أيام لويس التاسع قد أفرغ من المال خزائن الكتدرائيات ، وفقدت المدن المستقلة ونقابات الحرف الطائفية ، التى كانت تُسهم فى مجد العمارة القوطية ونفقاتها ، استقلالها ، وثروتها ، واعتزازها بنفسها ؛ وأنهك الموت الأسود ، وحرب المائة السنين فرنسا وانجلترا كلتيهما ؛ فكانت النتيجة أن المبانى الجديدة فى القرن الرابع عشر لم تقل فحسب ، بل إن الكثرة الغالبة من الكتدرائيات

العظيمة التي بدأت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر قد تُركت ناقصة . وآخر ما نذكره من أسباب هذا الضعف أن إعادة كشف الكتّاب الإنسانيين الحضارة القديمة ، ونهضة العمارة الجديدة في إيطاليا التي لم تمت فيها هذه الحضارة قط ، قد أحلا محل الفن القوطي فنا خصبا جديداً موفور النماء ، فسيطر فن النهضة المعماري من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر على أوربا الغربية ، لا يستثنى من ذلك الإسراف في الزينة وكثرة التفاصيل . ولما جاء الدور على النزعة اليونانية — الرومانية القديمة فأصابها هي الأخرى الوهن أعادت الحركة الإبداعية التي قامت في بداية القرن التاسع عشر العصور الوسطى إلى خيال أصحاب النزعة المثالية ، وعادت العمارة القوطية إلى الوجود . ولا يزال الكفاح قائماً بين الطرازين اليوناني — الروماني والقوطي في كنائسنا ومدارسنا وأسواقنا وحواضرنا ، على حين أن طرازاً معمارياً أصيلا أعظم جرأة من الطراز القوطي أخذ يعلو في أجواز الفضاء .

وظن رجل العصور الوسطى أن الحقيقة قد تكشفت له فلم يعد في حاجة إلى الجرى الوحشي وراءها ؛ ولهذا فإن الجهد الطائش الذى نبذله الآن في الجرى وراء تلك الحقيقة قد وجه في تلك الأيام إلى خلق الجمال ، وقد وجد الناس بين كوارث الفاقة ، والأوبئة الفتاكة ، والحروب . من الوقت والروح القوية ما مكنهم من أن يجملوا ألفاً من الأدوات المختلفة الأنواع تختلف من حروف أسمائهم الأولى إلى الكتدرائيات الشامخة . وإذا ما وقفنا محتبسي الأنفاس أمام بعض مخطوطات العصور الوسطى ، أذلاء أمام نتردام ، وتمثلنا صورة صحن كنيسة ونشستر البعيدة ما كان في عصر الإيمان من خرافات وأقذار ، وحروب دنيئة . وجرائم وحشية ؛ وأدهشنا مرة أخرى ما كان يتصف به أجدادنا في العصور الوسطى من صبر طويل ، وذوق جميل ، وخشوع وإخلاص ؛ وحمدنا لألف ألف من الرجال المنسيين ما تركوه في دم الأرض من قداسة الفن .

الباب الثالث والثلاثون

موسيقى العصور الوسطى

(٣٢٦ — ١٣٠٠)

الفصل الأول

موسيقى الكنيسة

لقد أسأنا نحن إلى الكتدرائية . إنها لم تكن هذه المقبرة الباردة الخالية التى يدخلها الزائر فى هذه الأيام ، بل كان لها عمل تؤديه ؛ ذلك أن من كانوا يدخلونها للعبادة لم يكونوا يجدون فيها تحفة فنية فحسب ، بل كانوا يجدون فيها مريم وابنها يواسيانهم ، ويشدان عزمهم . وكانت تستقبل الرهبان والقساوسة الذين كانوا يقفون عدة مرات فى اليوم فى مواضع الترنيم ينشدون أناشيد الصلوات الدينية . وكانت تستمع إلى أدعية المصلين الملحين يستمدون من الله الرحمة والعون . وكان صحنها وجناحاها تهدى المواكب التى كانت تحمل أمام الشعب صورة العذراء أو جسم ربهم ودمه . وكانت جنباتها الرحبة تردد فى جد ووقار موسيقى القداس ، ولم تكن هذه الموسيقى أقل شأناً من صرح الكنيسة نفسه ، وكانت تؤثر فى النفس تأثيراً أعمق من تأثير جلال الرجاج والحجارة . وما أكثر النفوس الجامدة القوية ، المتشككة فى العقيدة الدينية ، التى أذابتها الموسيقى فخرت راكعة أمام ذلك السر الذى تعجز الألفاظ عنه .

• قد اتفق تطور موسيقى العصور الوسطى اتفاقاً عجيباً مع تطور الطرز

المعمارية ؛ فكما أن الكنائس الأولى انتقلت فى القرن السابع من شكلها القديم شكل القباب والباسلقات ، إلى الشكل الرومنسى القوى المتين ، وانتقلت فى القرن الثالث عشر إلى الطراز القوطى المعقد ، العالى ، المزخرف ، كذلك احتفظت الموسيقى المسيحية إلى زمن جريجورى الأول (٥٤٠ - ٦٠٤) بنغمات بلاد اليونان والشرق الأدنى الحزينة ، وانتقلت فى القرن السابع إلى الترنيم الجريجورى أو الترنيم البسيط ، ثم ازدهرت فى القرن الثالث عشر فتعددت نغماتها وكثرت أصواتها القوية الجريئة تنافس الأساليب المتزنة التى تقوم عليها الكتدرائية القوطية .

وتضامنت غارات البرابرة فى الغرب ، مع بعث النزعة الشرقية فى الشرق الأدنى ، فى تحطيم التقليد اليونانى الذى كان يرمز إلى النغمات الموسيقية بحروف توضع فوق الكلمات ؛ ولكن الأساليب اليونانية الأربعة - الدورى ، والفريجى ، والليدى ، والمكسوليدى Mixolydean بقيت وتولد منها بطريق التقسيم الأساليب الثمانية فى التأليف الموسيقى - التأملى ، والمحبوس ، والجدى ، والرزين ، والمرح ، والمبتهج ، والقوى ، والمنتشى . وظلت اللغة اليونانية ثلاثة قرون بعد الميلاد باقية فى موسيقى الغرب الكنسية ، ولا تزال باقية فى صلاة ارحمنا يارب Kyrie eleison . واتخذت الموسيقى البيزنطية شكلها فى عهد القديس باسيلى ، وقرئت الترانيم اليونانية بالسورية ، وبلغت ذروتها فى ترانيم رومانوس (حوالى ٤٩٥) وسرجيوس (حوالى ٦٢٠) ونالت أعظم نصر لها فى الروسيا

وكان بعض المسيحيين الأولين يعارض فى استخدام الموسيقى فى الدين ، ولكن سرعان ما تبين أن دينا بغير موسيقى لا يمكن أن يقوى على منافسة العقائد التى تمس حساسية الإنسان الموسيقية . ومن أجل ذلك تعلم القس أن يغنى القداس ، وورث بعض الألحان التى كان يتغنى بها المرتل العبرى ؛ وعلم الشمامسة

وخدم الكنيسة أن يغنوا الردود ؛ وعلم بعضهم تعليما فنياً فى مدارس خاصة للترنيم جعلت البابا سلستين الأول Celestine I (٤٢٢ — ٤٣٢) يصبح هو نفسه مرنما حاذقا ، وكان هؤلاء المرنمون المدربون يكونون فرقاً عظيمة منهم ، كان فى فرقة أياصوفيا ٣٥ مرنماً ، ١١١ « قارئا » معظمهم من الغلمان[١] . وانتشر غناء المصلين من الشرق إلى الغرب ، وكان الرجال يتبادلون مع النساء أغنيات متجاوبة ويشتركون معهن فى التسبيحات الدينية . وكانوا يظنون أن المزامير التى يغنونها تردد أو تقلد على الأرض تسابيح المديح التى يغنيها الملائكة والقديسون بين يدى الله فى الجنة . وأدخل القديس أمبروز فى أسقفيته تبادل الغناء بين الرجال والنساء على الرغم من نصيحة الرسل بأن تظل النساء صامتات فى الكنيسة ؛ وقال هذا الإدارى الحازم إن « المزامير حلوة النغم فى كل عصر ، وتليق بكلا الجنسين ، وهى تخلق رابطة عظيمة من الوحدة حين يرفع الناس جميعاً عقيرتهم فى ترنيمة واحدة »[٢] . وبكى أوغسطين حين سمع المصلين فى كنيسة ميلان يتلون ترانيم أمبروز ، وصدّق عليه قول القديس باسيلى إن المستمع الذى يستسلم للذة الموسيقى يستجيب للنشوة الدينية والتقوى[٣] . ولا تزال ترانيم أمبروز تتلى فى كنائس ميلان إلى يومنا هذا .

وثمة رواية متواترة كان أهل العصور الوسطى عامة يؤمنون بصحتها ، وأضحت الآن بعد شكوك دامت زمنا طويلا مقبولة بوجه عام[٤] ، تعزو إلى جريجورى الأكبر وأعوانه إصلاحاً وتجديداً فى الموسيقى الكنسية الكاثوليكية الرومانية ، أدى إلى اعتبار « النشيد الجريجورى » الموسيقى الرسمية للكنيسة مدى ستة قرون . واجتمعت الألحان الهلنستية والبيزنطية مع الإيقاع العبرى فى الهيكل والمعبد فشكلت هذا النشيد الرومانى أو النشيد البسيط . وكان هذا النشيد موسيقى تتألف من أغنية واحدة ؛ وأيا كان عدد الأصوات المشتركة فيه ، فقد كانت كلها تغنى نغمة واحدة ، وإن كان النساء والغلمان كثيراً ما يغنون طبقة فى السلم الموسيقى

أعلى من التى يغنيها الرجال ؛ وكان هذا النشيد موسيقى سهلة على ذات المدى القليل ، وكانت تسمح من حين إلى حين بإضافة نغمة أو بضع نغمات مركبة غير لفظية تحلى بها الأغنية ، وكانت فى مجموعها فواصل متصلة متحررة من قيود الوزن والقافية غير مقسمة إلى أوتاد أو تقسيم للوقت الذى تلقى فيه .

وكانت العلامات الموسيقية الوحيدة المستعملة فى النشيد الجريجورى قبل القرن الحادى عشر تتألف من إشارات صغيرة مأخوذة من علامات التنبير اليونانية توضع فوق الكلمات المراد غناؤها . وكانت هذه « الأنفاس » تدل على ارتفاع النغمة أو انخفاضها ، ولكنها لا تدل على درجة الارتفاع أو الانخفاض ، ولا على طول مدة النغمة ؛ فقد كانت هذه تُعرف بالتواتر الشفوى وبحفظ طائفة جد كبيرة من أغانى الطقوس الكنسية . ولم يكن يسمح بأن تصحب الغناء آلة موسيقية ؛ ولكن النشيد الجريجورى أصبح على الرغم من هذه القيود — أو لعله أصبح بسبب هذه القيود — أعظم مظاهر الطقوس الكنسية المسيحية وقعاً فى النفس . وإن الأذن الحديثة التى اعتادت التوافق الموسيقى المعقد لتجد هذه الأغانى مملة رقيقة ، وترى فيها استمراراً للتقاليد اليونانية ، والسورية ، والعبرية ، والعربية ذات الصوت الواحد التى لا تقدرها فى هذه الأيام إلا الأذن الشرقية . لكن الأناشيد التى تغنى فى كتدرائية رومانية كاثوليكية فى أسبوع الآلام ، تنفذ بالرغم من هذا النقص إلى قلوب المستمعين بقوة سريعة عجيبة لانجدها فى الموسيقى التى تلهى تعقيداتها الأذن بدل أن تحرك الروح .

وانتشر النشيد الجريجورى فى أوربا الغربية كأنه انتشار آخر للدين المسيحى ، ورفضته ميلان ، كما رفضت السلطة البابوية ، وظلت أسبانيا زمناً طويلا محتفظة بنشيد « مستعرب Mozarabic » ألفه المسيحيون الخاضعون لحكم المسلمين ، وهو نشيد لايزال يتلى حتى اليوم فى جزء من كتدرائية طليطلة . واستبدل شارلمان ، وهو الحاكم المحب للوحدة ، النشيد الجريجورى بالنشيد الغالى

فى غالة . وأنشأ مدارس لموسيقى الكنيسة الرومانية فى متز وسواسون .
ووجد الألمان ، الذين تكونت حناجرهم بتأثير مناخهم وحاجاتهم ، صعوبة
فى هذه الأغانى ذات الألحان الرقيقة . وفى ذلك يقول الشماس يوحنا : « إن
أصواتهم الخشنة التى تشبه هزيم الرعد ، لا يمكن أن تنطق بالنغمات الرقيقة .
لأن هذه الأصوات مبحوحة من كثرة الشراب »(٥) .

وربما كان الألمان قد كرهوا الأسلوب الذى أخذ منذ القرن الثامن
وما بعده يزين النشيد الجريجورى بـ « المحط المقصورة » وبسلسلة النغمات
التى تتعاقب بانتظام . وقد بدأ « المحط » بوصفه طائفة من الكلمات يسهل بها
تذكر اللحن ، ثم صار بعدئذ إدماجا للألفاظ والموسيقى فى النشيد
الجريجورى ، كما كان يحدث حين لا ينشد القس Kyrie eleison **ارحمنا يارب**
بل ينشد Kyrie eleison (fon Pillatis, a quo bona cuncta Priocedant)
ارحمنا يامن تمن علينا بجميع الخيرات يارب . وأجازت الكنيسة هذه التحليات
ولكنها لم تقبلها قط ضمن الترانيم الرسمية . وكان الرهبان المتضايقون من
حياة الأديرة يسلون أنفسهم بتأليف هذه العبارات وإدخالها ضمن
الأناشيد ، حتى كثرت فيها كثرة أدت إلى وضع كتب خاصة بها لتعلم
الناس العبارات المحببة منها أو تحفظها من النسيان . ونشأت موسيقى
التمثيل الكنسى من هذه العبارات . وقد وضعت سلاسل النغمات المتعاقبة
على نسق تسابيح القداس . ونشأت هذه السنة من إطالة الحرف المتحرك
الذى فى آخر الكلمة إطالة سموها اليوبيلوس iubilus أى نشيد الابتهاج :
وكتبت فى القرن الثامن عدة نصوص لهذه التوقيعات التى أدخلت فى الألحان .
وأصبحت هذه السنة فنا راقيا حوّل النشيد الجريجورى تدريجا إلى طراز
مزخرف لا يتفق مع روحه الأولى أو مع قصده « البسيط »(*) . وقضى هذا

(*) ولم تقبل الكنيسة فى أورادها إلا خمسة من هذه الأناشيد .

التطور على نقاء النشيد الجريجورى وسلطانه فى القرن الثانى عشر الذى شهد الانتقال من الطراز الرومنسى إلى الطراز القوطى فى العمارة فى بلاد الغرب .

وتطلب نقل هذه الكثرة من التواليف المعقدة علامات موسيقى أحسن من العلامات التى استعملت فى تلك الأغنية السهلة . ولهذا قام أدو Odo رئيس دير كلونى ونوركر بلبولس Norker Balbulus أحد رهبان دير القديس جول Gall فى القرن العاشر بإحياء الطريقة اليونانية القديمة طريقة تسمية النغمات بحروف . وفى القرن الحادى عشر اقترح كاتب لم يفصح عن اسمه استخدام السبعة الحرف الكبيرة الأولى من السلم الموسيقى ، واستخدام ما يقابلها من الحروف الصغيرة اللاتينية فى الطبقة الثانية من السلم ، والحروف اليونانية للطبقة الثالثة منه(٦) . وقام حوالى عام ١٠٤٠ راهب من بمبوزا Pomposa القريبة من فرارا Ferrara يدعى جيدو الأرزوى Guido of Arezzo فسمى الست النغمات الأولى من السلم الموسيقى بأسمائها الحالية الغربية بأن أخذ المقاطع الأولى من كل نصف شطر من ترنيمة ليوحنا المعمدان :

أنقذ الدنيا من دنس الشفاه
حتى يستطيع عبيدك
الذين يقومون بخدمتك
أن يرددوا أعذب
الألحان فى الفضاء
الواسع المزهر

Ut queant laxis *re* sonare floris
Mira gestorum *famuli* tusrum
Solve Polluti *labii* reatum

وأصبحت تسمية النغمات الموسيقية بالمقاطع : أت أو دو ، رى ، مى ، فا ، صل ، جزءاً لا يتجزأ من شباب الغرب .

وأهم من هذا تطور « الموسيقى » على يد جيدو . فقد نشأت حوالى عام ١٠٠٠ عادة استخدام خط أحمر للتعبير عن النغمة التى يمثلها حرف F ، ثم أضيف بعدئذ خط آخر أصفر أو أخضر ليمثل حرف C ، ثم وسع جيدو أو شخص آخر قبله هذه الخطوط ليجعل منها مدرجا ذا أربعة خطوط ، أضاف إليه معلمو

الموسيقى فيما بعد خطا خامسا . وكتب جيدو يقول إن غلمانه المرنمين قد استطاعوا بهذا المدرج الجديد وبالنغمات أت ، رى ، مى ، أن يتعلموا فى أيام قليلة ما كان يتطلب منهم قبلئذ عدة أسابيع » وكان هذا تقدما يسيراً ولكنه تقدم عظيم الشأن بدأ به عهد جديد فى تطور الموسيقى ؛ وبفضله لقب جيدو بلقب **مخترع الموسيقى** وأقيم له تمثال فخم لا يزال يُرى فى ميدان أرزو العام إلى هذا اليوم . وأحدث هذا التطور انقلاباً عظيما فى الموسيقى ؛ فبفضله تحرر المغنون من حفظ الترانيم الموسيقية الدينية كلها عن ظهر قلب ، وأصبح من الميسور أكثر من ذى قبل تأليف الموسيقى ، ونقلها ، وحفظها ، كما أصبح فى مقدور العازف أن يقرأ النغمات الموسيقية بمجرد النظر إليها ، ويستمع إليها بعينه ؛ ولم يعد المؤلف مضطراً إلى أن يكون قريباً من الألحان التقليدية خشية أن يرفض المغنون حفظ الأدوار التى يؤلفها ، بل أصبح فى مقدوره أن يغامر بألف من التجارب . وأهم من هذا كله أنه قد أصبح فى وسعه أن يكتب موسيقى متعددة الأنغام ، يمكن أن يغنيها صوتان أو أكثر من صوتين فى وقت واحد ، أو أن يعزف اثنان أو أكثر من اثنين ألحاناً مختلفة ولكنها متوافقة :

ونحن مدينون لآبائنا فى العصور الوسطى باختراع آخر أمكن بفضله وجود الموسيقى الحاضرة . ذلك أنه قد أصبح من المستطاع تلحين الغناء بنقط توضع على سطور المدرج الموسيقى أو بينها ، ولكن هذه العلامات لم تكن تدل أية دلالة على المدى الذى يجب أن تمتد إليه النغمة ، وأصبح لا بد لتطور الموسيقى ذات اللحنين المستقلين (أو الأكثر من لحنين) تعزفان متناسقين فى وقت واحد ، أصبح لا بد لهذا التطور من وجود طريقة يُقاس بها زمن كل نغمة وتدل على هذا الزمن ، وربما كانت معلومات منقولة عن رسائل الكندى ، والفارابى ، وابن سينا وغيرهم من علماء المسلمين وفلاسفتهم الذين عالجوا موضوع أطوال النغمات الموسيقية أو علامات القياس(٧) . وكتب قس عالم فى الرياضة من كولونى

يدعى فرانكو فى وقت ما فى القرن الحادى عشر[٨] رسالة فى **قياس الغناء** جمع فيها كل ما وجد قديما من المقترحات النظرية والعملية . ووضع أساس طريقتنا الحاضرة للدلالة على أطوال النغمات الموسيقية ، واختبر عود ذو رأس مربع كان فى بادئ الأمر يستخدم للدلالة على النغم . استخدم هذا العود يمثل النغمة الطويلة ، وكبرت علامة أخرى هى النقطة حتى أضحت شبه منحرف ومثلت بها النغمة القصيرة . ثم بدلت هذه العلامات على مدى الأيام . وأضيفت إليها ذيول حتى تطورت منها بمثات من السخافات طريقتنا السهلة التى نستخدمها الآن لقياس النغمات .

وقد مهدت هذه التطورات الخطيرة السبيل إلى الموسيقى المتعددة النغمات . وكانت هذه الموسيقى قد كتبت قبل فرانكو ، ولكنها كانت موسيقى خشنة تعوزها الرقة ، فلما أشرف القرن التاسع على الانتهاء وجدنا طريقة فى الموسيقى تدعى « التنظيم » — أى غناء النغمات المتطابقة بأصوات متوافقة . ثم انقطعت أخبار هذه الطريقة فلم نعد نسمع منها إلا القليل النادر قبل نهاية القرن العاشر إذ نجد لفظى organum وسمفونيا symphonia (الأغنية المنتظمة والإيقاع) يستعملان لهذه النغمات المركبة من صوتين . وكانت الأرغنة (الأغنية المنتظمة) قطعة من القداس يواصل فيها الصادح لحناً قديما موحد النغمة ، فى الوقت الذى يضيف فيه صوت آخر لحناً يتفق معه . ثم نشأت صورة أخرى من هذا النوع نفسه كان للصادح فيها نغمة جديدة عجيبة ، واجتذبت صوتاً آخر فى اللحن المشترك . وخطا المؤلفون فى القرن الحادى عشر خطوة لا تقل فى نوعها جرأة عن توازن قوة الدفع فى العمارة القوطية . فقد كتبوا قطعاً متعددة الأصوات بوحدة ملائمة لم ينقد فيها الصوتُ « المنجذب » إلى الصادح انقياداً أعمى فى علو اللحن وانخفاضه ، بل اندفع إلى ألحان أخرى ذات نغمات لا يحتم عليها أن تتحرك فى خط متواز مع أصوات الصادح . وكاد هذا الإعلان للاستقلال يصبح ثورة حين

سحب الصوت الثانى نغمة الصادح الآخذة فى الارتفاع بحركة انخفاض مقابلة لها : وأصبح هذا التوافق عن طريق التباين وحل التنافر المؤقت فى يسر ، أصبح هذا وذاك هياما عند المؤلفين يكاد يجرى مجرى القانون ؛ وهذا دعا چون كتن John Cotton أن يكتب حوالى ١١٠٠ يقول : « إذا كان الصوت الرئيسى يرتفع ، وجب أن ينخفض الجزء المصاحب له »(٩) وانتهى الأمر بأن جعلت ثلاثة أصوات مختلفة ، أو أربعة ، أوخمسة بل ستة فى بعض الأحيان تغنّى فى مجموعة متشابكة من الإيقاع الانفرادى ، تتقابل فيه الألحان المتباينة المتطابقة وتمتزج فى انسجام رأسى أفقى دقيق ، رشيق ، شبيه بالعقود المتقابلة فى قبة قوطية . ولم يحل القرن الثالث عشر حتى كان هذا الفن القديم فن تعدد الأصوات قد وضع أساس التأليف الموسيقى الحديث .

وكان التحمس للموسيقى فى هذا القرن ذى العواطف الثائرة والمهتاجة يضارع الولع بالعمارة والفلسفة . وكانت الكنيسة تنظر شزراً إلى تعدد الأصوات فى الموسيقى ، لأنها لم تكن تثق بقوة التأثير الدينى للموسيقى إذا ما أصبحت فى نفسها إغراء وغاية . ولهذا دعا چون أسقف سلزبرى وفيلسوفها إلى وجوب وقف حركة التعقيد فى التأليف الموسيقى . ووسم الأسقف جويوم دوراند Guillaume Durand الصادح بأنه « موسيقى مختلة النظام » ؛ وأسف روچر بيكن ، الثائر فى ميدان العلم ، لزوال النشيد الجريجورى الضخم . وندد مجلس ليون Lyons (١٢٧٤) بالموسيقى الجديدة ، وأصدر البابا يوحنا الثانى عشر (١٣٢٤) اعتراضا على الموسيقى المتعددة الأصوات لأن المؤلفين أصحاب هذه البدعة : « يفتتون الألحان . . . فتندفع بعضها فى إثر بعض بلا توقف ، حتى تسكر الأذن من غير أن تهدئها ، وتقلق بال المتعبد الخاشع دون أن تثير فيه خشوعه »(١٠) . لكن الثورة ظلت تجرى فى مجراها ، ففى أحد حصون الكنيسة الحصينة — كنيسة نتردام فى باريس — ألّف ليونينس Leoninus رئيس جماعة

المرنمين حوالى عام ١١٨٠ أجمل أغنية فى أيامه ، وارتكب خليفته پترونيوس Petronius إثما كبيراً إذا ألف مقطوعات من ثلاثة أصوات أو أربعة . وانتشرت الموسيقى المتعددة الأصوات ، كما انتشر الطراز القوطى ، من فرنسا إلى إنجلتر وأسپانيا . وقال چوالدس كمبرنسس Giraldus Cambarensis (١١٤٦ — ١٢٢٠) بوجود أغانى مكونة من جزأين فى أيرلندة ، كما قال عن بلدة ويلز قولا لا نخطئ إذا قلناه عنها اليوم :

وهم فى أغانيهم لا ينطقون بالنغمات متحدة . . . بل ينطقون بنغمات كثيرة — بطرق كثيرة وأصوات كثيرة ؛ ومن ثم فإن وجود المغنين الكثيرين الذين جرت عادة هــذا الشعب على جمعهم ، يؤدى إلى سماع أصوات يبلغ عددها عدد من تقع عليهم العين من المغنين ، كما يؤدى إلى سماع أجزاء مختلفة متباينة تجتمع آخر الأمر فى لحن متوافق متحد(١١) .

وخضعت الكنيسة آخر الأمر لروح العصر ونزعته اللتين لا تخطئان أبداً ، وارتضت الموسيقى المتعددة الأصوات ، واتخذتها خادما قوية للإيمان ، وأعدتها لمــا نالته من انتصار فى عهد النهضة .

الفصل الثاني

موسيقى الشعب

وظهرت الرغبة فى الوزن فى مائة صورة من الموسيقى والرقص غير الدينيين . وكان لدى الكنيسة من الأسباب ما يجعلها تخشى هذه الغريزة إذا لم تفرض عليها رقابة . وكان من الطبيعي أن تتحالف هذه الرغبة مع الحب مصدر الأغانى والمنافس القوى للدين من هذه الناحية . وكانت النزعة الأرضية القوية التى تغلب على عقول العصور الوسطى فى غيبة القسيس مما يميل بتلك العقول إلى التحرر فى النصوص وإلى البذاءة فيها فى بعض الأحيان ، تحرراً وبذاءة ارتاع لهما رجال الدين وأثارا المجامع الدينية إلى إصدار قرارات لم يكن لها أثر . وكان المتعلمون الجوّالون يلقون فى تجوالهم أو يؤلفون فى أثنائها أهازيج فى النساء والخمر ، ويقلدون الطقوس المقدسة تقليداً ساخراً معيبا . ونشرت مخطوطات تحتوى مقطوعات موسيقية جدية تلحن الألفاظ المرحة لقداس السكيرين ، كما نشر كتاب صلوات الصخابين(١٣) . وكانت أغانى الحب كثيرة كما هى فى هذه الأيام ، وكان منها ما هو فى رقة ابتهالات الحور وحنانها ، ومنها ما هو حوار للإغواء تصحبه نغمات رقيقة ؛ ولا حاجة إلى القول بأنه كانت فى ذلك الوقت أغان حربية ، يقصد بها الوصول إلى الوحدة عن طريق اتحاد الأصوات ؛ أو تحث على طلب المجد بالألفاظ الموزونة التى تسلب الحس . وكانت بعض الموسيقى أغانى شعبية وضعها عباقرة غير معروفين ، وادّعاها عامة الشعب — أو لعلهم نقلوها عن مؤلفيها ، كما كان البعض الآخر من الموسيقى الشعبية ثمرة قرائح محترفين ماهرين يستخدمون كل ما تعلّموه فى أوراد الكنيسة من فنون الموسيقى المتعددة الأصوات . ووُحد

فى إنجلترا ضرب من الموسيقى المتعددة الألحان المحبوبة وهو الموسيقى الدّوْرية؛ فيها يبدأ أحد الأصوات لحناً ، ثم يبدأ صوت ثان هذا اللحن عينه أو لحناً آخر مؤتلفا معه حين يصل الأول إلى نقطة متفق عليها فيه ، ثم يبدأ ثالث والثانى مستمر فى غنائه ، وهكذا دواليك حتّى يجتمع عدد من الأصوات قد تبلغ الستة فى دورة مرحة نشطة من النغمات المجتمعة .

وتكاد أغنية « الصيف مقبل » الذائعة الصيت تكون أقدم أغنية دورية ؛ وأكبر الظن أن مؤلفها راهب من رهبان بلدة ردنج Reading وأن ذلك كان فى عام ١٢٤٠ . وتدل هذه الأغنية المعقدة ذات الستة الأجزاء على أن الموسيقى المتعددة الألحان قد استقرت بين الشعب . ولا تزال ألفاظ هذه الأغنية شاملة لروح ذلك القرن الذى كانت فيه حضارة العصور الوسطى كلها فى طريق الازدهار :

الصيف مقبل
فغنّ يا وقوق بصوت عال !
فالبذور تنبت والكلأ يتمايل
والزهر يتفتح الآن فى الغاب
غنّ يا وقوق !
النعجة تثغى وراء الحمَل
والبقرة تخور وراء وليدها
والثور يقفز والوعل يفرّ
غن مرحاً يا وقوق !
يا وقوق يا وقوق ما أعذب شدوك ؛
فلا تقف عن الغناء ، لا تقف الآن أبداً ،
غن يا وقوق الآن ، غن يا وقوق ،
غن يا وقوق ، غن يا وقوق الآن .

وما من شك فى أن هذه الأغنية وأمثالها توائم المغنين الجوالين الذين كانوا ينتقلون من بلدة إلى بلدة ، ومن بلاط إلى بلاط ، بل من قطر إلى قطر. فنحن نسمع عن مغنين من هذا النوع يأتون من القسطنطينية ليغنوا فى فرنسا ، وعن آخرين من إنجلترا يغنون فى أسپانيا . وكان وجود هؤلاء المغنين وقيامهم بعملهم جزءاً معتاداً فى كل وليمة رسمية . فقد استخدم إدورد الأول ملك إنجلترا (٤٢٦) مغنيا فى الاحتفال بزواج ابنته مرجويت[١٣] . وكثيراً ما كانت هذه الجماعات من المغنين تنشد أغانى مجزأة كما كانت فى بعض الأحيان معقدة تعقيداً غير مألوف . وكانت هذه الأغانى يؤلفها عادة — ألفاظها وموسيقاها — شعراء غزلون فى فرنسا وآخرون مثلهم فى إيطاليا وألمانيا[*] . وكان معظم الشعر فى العصور الوسطى يُكتب لكى يُغنّى ، وفى ذلك يقول فلكيه Folquet الشاعر الغزلى الفرنسى : « إن القصيدة بغير الموسيقى كطاحون بلا ماء »[١٤] . ولدينا فى هذه الأيام موسيقى لمائتين وأربع وستين أغنية من الأغانى الباقية للشعراء الغزلين البالغ عددها ٢٦٠٠ ، وتتألف هذه الموسيقى فى العادة من نغمة متتابعة ذات مقطع واحد ووصلات على مدرج من أربعة خطوط أو خمسة . وأكبر الظن أن شعراء أيرلندة وويلز كانوا يغنون ويعزفون على آلات .

وإن كثرة الآلات الموسيقية واختلافها فى العصور الوسطى لما يثير الدهشة : فآلات القرع — كالأجراس ، والصنوج ، والدفوف ، والمثلث الموسيقى ، والطبلة — والآلات الوترية — كالقيثارة على اختلاف أنواعها ، والربابة ، والعود ، والكمان الأصغر ، وذات الوتر الواحد وغيرها ؛ وآلات النفخ ، كالصفارة ، والناى ، والمزمار ، والآلة ذات القربة ، والنفير ، والبوق والقرن ، والأرغن ، هذه أمثلة اخترناها من مئات . لقد كان لدى أهل تلك الأيام

(*) وكانوا يسمون **Trobadors** فى فرنسا ، و**Troubadors** فى إنجلترا و **Trovatore** فى إيطاليا و**Mennisingers** فى ألمانيا . (المترجم)

كل ما تتطلبه اليد أو الإصبع ، أو القدم ، وكل ما يحتاجونه لضبط الأوتار . وكانت بعض هذه الآلات قد بقيت من أيام اليونان وجاء بعضها الآخر ، بصورته واسمه ، من بلاد الإسلام كالرق والناى والقيثارة ، ومنها ما كان نماذج قيمة لتحف فنية من المعدن أو العاج أو الخشب . وكانت الآلة العادية للمغنى الجائل هى الكمان الصغيرة ، وهى آلة كالكمان قصيرة يعزف عليها بقوس كقوس الرامى منحنية الظهر . وكان أكثر أنواع الأرغن انتشاراً قبل القرن الثامن هو الأرغن المائى ؛ ولكن چيروم وصف فى القرن الرابع أرغناً هوائياً(١٧) ، وكتب بيدى يصف أرغناً ذا « أنابيب من الشبه تملأ بالهواء من منفاخ ويصدر منه نغمات فخمة حلوة إلى أقصى حد »(١٨) . وقد اتهم القديس دنستان St. Dunstan (٩٢٥ ؟ — ٩٨٨ ؟) بالسحر حين صنع قيثاراً يعزف إذا وضع أمام ثقب فى جدار(١٩) ؛ ووضع فى كتدرائية وستمنستر حوالى عام ٩٥٠ أرغن ذو ستة وعشرين منفاخا ، واثنين وأربعين نافخا لهذه المنافيخ ، وأربعمائة أنبوبة ، وكانت منافيخه ضخمة ضخامة تضطر العازف إلى أن يضربها بقبضات تحميها قفازات ذات بطانات سميكة(٢٠) . وكان فى ميلان أرغن أنابيبه من الفضة ، وفى البندقية أرغن ذو أنابيب من الذهب(٢١) .

وبعد فإن كل ما يبعثه وصف العصور الوسطى للجحيم من رهبة فى النفس ليفنى إذا ما نظر الإنسان إلى مجموعة الآلات الموسيقية فى تلك العصور . وإن الصورة التى تبقى لدينا من ذلك الوقت لهى صورة قوم لا يقلون عنا سعادة إن لم يزيدوا علينا ، يستمتعون بمرح الحياة ومطامعها ، لا ينوء بهم الخوف من نهاية العالم أكثر مما تنوء بنا شكوكنا هل تدمر الحضارة وتفنى قبل أن تتم كتابة تاريخها ؟

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة فى الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHPTER XXVII

1. In Coulton, *Social Life*, 15.
2. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, lxiv, 4.
3. In Coultron, *Five Centuries of Religion*, I, 60.
4. Ibid., 31.
5. Gregory I. *Dialogues*, iv, 30, 35, in Lecky, *Morals*, II, 220.
6. Ibid., 221.
7. Westermark, *Moral, Ideas*,I, 723, Coaltion, *Five Centurics*, I, 71.
8. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, Supplement, xcyii, 5,7.
9. Les, *Inquisition in Middle Ages*, III, 384.
10. Ibid.,385
11. Coulton, *Conturies*, I, 40.
12. Gregory I, *Dialogues*, i, 4, in Duduen, II, 367.
13. Coulton, *Five Conturies*, I, 445-9, II, 665.
14. Coultron, *Panorama*, 416.
15. Id., *Social Life*, 337.
16. Westermark, *Moral Ideas*,I, 722.
17. Coultron. *Panorama*, 416.
18. *Cambridge Medieval History*,VII, 635.
19. Coultron, *Inquisition and Liberty* 19.
20. Id., *Panorama*, 417.
21. Id., *Medieval Village*, 241.
22. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, xxiii, 7.
23. Coulton, *Life*, I, 54.
24. Lecky. *Morals*. II, 220.
25. In Coultron, *Inquisition and Liberty* 18.
26. Lea, *Auricular Confession*, III, 322.
27. Dudden, II, 427.
28. Renan, E., *Poctry of the Celtic Races* 177.
29. Coultron, *Five Conturies*, I, 75.
30. Id., *Inquisition and Liberty*, 2.
31. John of Salisbury, *Metalohicus*, vii, 2.
32. in Munro and Sellery, 489.
33. Giraldus Cambrensis, *Gemma Ecclesiastica*, ii, 24, in Robertson, J. M., *Short History of Free Thought*, II, 311.
34. Ibid., i, 51, in Robertson, II,311.
35. Lea, *Inquisiton in Middlle Ages*, III, 558.
36. Coulton, *Social Life*, 218; *Five Centuries*, I, 71.
37. Vencent of Beauvais, *Speculum Morale*, ii, 3-6, ii, 1.11.
38. Coulton, *Five Centuries*, I, 31.
39. Coulton *The Inquisition*, 62.
40. Quoted by Berthold of Regensburg in Coulton, *Five Centuries*, I, 72.
41. *Aucassen et Nicolette*, line 22.
42. Coulton, *Panorama*, 17.
43. Id., *Five Centuries*, I, 306.
44. Reese, G., *Music in the Middle Ages*, 110.

45. Wright, Th., *The Book of the Knight of La Tour - Landry*, prologue, aud ch. 35, 174.
46. Coulton, *Village*, 524.
47. Raby, *Christian Latin Poetry*,358
48. Durand, *Ratjonale divinorum officiorum*, in Raby, 357.
49. Raby, 356.
50. Giraldus Cambrensis, *Itinerary*, i, 1.
51. Vencent of Beanvais, *Speculum Historiale*, vi, 99, in Coulton, *Life*, I, 1,
52. Caesar of Heisterbach, ii, 170.
53. Ibid.
54. Milmsn, III, 242.
55. Coulton, *Five Centuries*, i, 300.
56. Moore, *Judaism*, II, 4.
57. Catholic Enclopedia, I, 634.
58. Voltaire, *Works*, XIII, 136.
59. In Spengler, O , *Decline of the West*, II, 295.
60. Voltaire, III, 137.
61. Lea, *Auricular Confession*, II, 443
62. Ibid , III, 285.
63. Catholic Encyclopedia. VII, 787.
64. *Cambridge Medieval History*, VI, 678, Funk, I, 379.
65. Adams, B., *Law of Civilization and Decay*, 64.
66. Lanfranc. *Decocorpore et sanguin Dominal*, in *Cambridge Medieval History*, VI, 678.
66a. Lacroix. *Military*, 454,
67. Matt. vi. 7.
68. EncyclopaediaBritannica, VI. 795
69. Montalembert. i, 57,
70. Male, E.. *L'art religieux du XIIIe siècle en France*, 309-11.
71. Coulton, *Panorama*, 107.
72. Coulton, *Life*, I, 168.
73. Addison, *Arts*, 65.
74. Coulton, *Five Centuries*, IV, 94.
75. Haskins, *Renaissance of Twelfth Century*, 235.
76. Jussernad. 327.
77. Ibid.,
78. Coulton. *Five Centuries*, IV, 106
79. Calvijo, G. de, *Embassy to Tamerlane*, 7, 63, 81.
80. Coulton, *Five Ceeturies*, V, 105
81. Ibid., IV, 120.
82. V, 99.
83. Coulton, *Five*, IV, 98.
84. Ibid., 116.
85. III.
86. Haskins, *Renaissance*, 235.
87. Coulton, *Five Centuries*, IV, 121
88. Funk, I, 297.
89. Howard, C., *Sex Worship*, 78-93; Coulton, *Life* IV, 209-10.
90. Davis. *Medieval England*. 202, Frazer, Sir J., *Magic Art* II, 370.
91. Weigall, A., *The Paganism in Our Christiany* 131.
92. Adams, H., *Most St. Michel*, 91
93. Coultou, *From St., Francis*, 119,
94. In Adams, H., 262.
95. Ibid., 98, 254.
96. 259.
97. 258.
98. Funk, I, 296.
99. Catholic Enclopedia, IX, 991d
100. Julian Ribera in Thorndike, *ShortHistory.of Civilization*.350
101. For tr. of *Dies irae* cf. Van Doren, M., *Anthology*, 460.
102. Gibbon, VI, 494f.
103. Reaard, 42; Brentano in Smith, T., *English Guids* ixxxv.
104. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 674 Barnes. *Economic History*, 164.
105. Catholic Encyclopedia, V, 679.
106. Viliari, 161.
107. Coulton, *Five Centuries*, VI, 333; *Medieval Village*, 294.

108. Ibid.,
109. Maine, *Ancient low*, 132.
110. Coulton, *Panorama*, 172, 293, *From St. Francis*, 293, Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 238, Matthew Paris, I, 83.
111. Davis, *Medieval England*, 28.
112. Coulton, *Panorama*, 137, 154.
113, Id., *Medieval Village*, 205.
114. Ibid., 303, Id., *Panorama*, 197, 204, *Social Life*, 213,*Life*, III 30
115. Lecky, *Morals*, II, 335.
116. Coulton, *Panorama*, 120.
117. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, I, 3.
118. Thatcher, 165-6.
119. *Cambridge Medieval History*, VI, 543
119a. Jewish Encyclopedia, I, 560.
120. Lea, op. cit., I, 13.
121. *Cambridge Medieval History*, VI, 8.
122. Ibid 3; Taylor, *Medieval Mind*, II, 303.
1 23. Carlyle, R.W., *Political Theory*, V, 157, 182.
124. Ibid, 162,
125. Encyclopaedia Britannica, II, 370 a,
126, Clayton, J,, *Pope Innocent III*, 181,
127, Walsh, J, *Thirteenth Century* 370,
128. *Cambridge Medieval History*, VI, 2,
129. In Lea, *Inquisition in Middle Ages*, I, 129
130. *Cambridge Medieval History*, VI, 694
131. Encyclopaedia Britannica, XII, 370b.
132, Coulton, *From St. Francis* 275
133, Funk, I, 358
134, Coulton, *From St Francis* 277,
135, *Cambridge Medieval History* VI, 120
136. Luke Wadding in Coulton, *From St. Francis* 277,
137. Ibid, 225,
138. Coulton, *Panorama*, 165
139. Thompson, *Economic History of the Middle Ages* 688
140. Voltaire, XIII, 130,
141. Clapham and Power, 189
142. Lea, *Auricular Confession*, III, 17
143. Taylor *Medieval Mind*, II. 303; Thompson, *Economic Middle Ages*, 689
144. Id., *Feudal Germany*, 19
145. boissonnade, 82, 243
146. Ibid,, Lacroix, *Manners* 12
147. Fisher H,L. *Medieval Empire*, II, 64.
148. Thompson, *Economic History of the middle Ages*. 692
149. Ibid., 691
150. Id., *Later Middle Ages*, 12
151, Funk, I, 355,
152. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, III, 624
153. Lavisse, E., *Histoire de France* III, 318,
154. Matthew Paris, I, 50
155. Coulton, *Five Contnries* IV, 522
156. Coulton, *Life*, I, 36
157. Milman, V, 139
158. Porter, *Medieval Architecture* II, 164; Coulton, *Social Life*, 215
159, Cf, Lea, *Inquisition in Middle Ages*, I, 21-38, for many instances of ecclessiastical self-reform

CHAPTER XXVIII

1. Coulton, *From St, Francis*, 12
2. Beer, M, *Social Straggies in the Middle Ages*, 135, 177

3. Luchaire in Munro and Sellery, 438.
4. Ibid., Beer, 133.
5. Encyclopaedia Britannica, XXIII, 288b.
6. Coulton, *Panorama*, 463
7. Vacandard, *Inquisition*, 70
8. Thompson, *Economic History of Middle Ages*, 622
9. *Cambridge Medivale History*, VI, 21.
10. Sabatier, *Life of St. Francis*, 43
11. Matthew Paris, I, 66
12. Vacaudard, 83
13. Ibid., 74.
14. 91.
15. Luchaire, 444.
16. Vacandard, 77; Beer, 129-31.
17. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 79, Vacandard, 97; Luchaire, 441
18. Coulton, *Inqnisition and Liberty* 70, Vacandard, 73, Morey. *Medieval Art* 255.
19. Vacandard, 77.
20. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, I, 103.
21. Rowbotham, 293.
22. Luchaire. 434.
23. Ibid., 436.
24. Lea, I, 120, 133.
25. Thatcher, 209.
26. Lea I, 139.
27. Ibid., 141.
28. Ibid.
29. 146.
30. 153.
31. 154.
32. Guizot, *France*, I, 507 Coulton. *Life*, I, 68.
33. Lea, I, 162.
34. Thompsou, *Economic History of the Middle Ages*, 490.
35. Lea, 554.
36. Maim5nides, *Gnide to the Perplexed*, III, intord., xli.
37. Vacandard, 48.
38. Ibid.
39. 63.
40. 63.
41. Sumner, *Folkways*, 238.
42. Catholic Encyclopedia, VIII, 28c.
43. Lea, 237.
44. Vacandard, 63.
45. Coulton, *Inquisition aud Liberty*, 49.
46. Vacaudard, 37.
47. Lea, 69.
48. Mickerson. H., *Inquisition*, 61.
49. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 680.
50. Lea, 318.
51. Ibid, 321,
52. Coultou, *Inquisiton aud Liberty*, 49,
53. Catholic Encyelopedia, VIII, 29a; Vacandard, 52,
54. Ibid, 119,
55. Coulton, *Inquistion* 59; *Inqnisition and Liberty*, 66,
56. Vacandard, 61,
57. Sarton, II(2), 546,
58. Vacandard, 183,
59. Ibld, 163,
60. Davis, *Medieval England*, 406,
61. Thatcher, 309,
62. Lea, 371; Vandard, 190.
63. Lea, 381,
64. Ibid, 436,
65. 317,
66. Catholic Encyclopedia, VIII, 31d
67. Lea, 441.
68. Catholic Encylodedia, VIII, 31c
69. Lea, 441,
70. Catholic Encyclobedia, VIII, 32b
71. Ibid, 32d,
72. Ibid

73. Caulton, *Inquisition*, 86.
74. Vacandard, 183.
75. Lea, II, 97.
76. Catholic Encyclopedia, VIII, 33d.
77. *Cambridge Medieval History* VI, 723; *V*acandard, 203.
78. Thompson, *Economic History, of the Middle Ages*, 689.
79. *V*acandard, 144, 178.
80. Lea, I, 549.
81. Ibid., 550.
82. *Cambridge Medieval History*, VI, 723; *V*acandard, 196, Lea, I, 551.
83., Ibid., 393.
84. 113.

CHAPTER XXIX

1. Thompson, *Economic History, of the Midd e Ages*, 603.
2. Coulton, *Five Centuries*, IV, 15.
3. Gilson, E., *Philosophy of St. Bonaventure*, 31.
4. Coulton, *Life*, IV, 98.
5. In Coulton, *From Francais*, 70.
6. Coulton, *Life*, IV, 238.
7. Lea, I, 35.
8. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 604.
9. Milman, IV, 259.
10. Coulton *Life*, IV, 155.
11. Coulton, *five Centuries*, I V, 96, 367-77.
12. In Coulton, *Life*, VI, 199.
13. Caesar of Heisterbach, i, 249, In Coulton; *Five Centuries*, i, 377; Jocelyn's *Chronicle*, in Carlyle, Th., *Past and Present*, p. 72.
14. Waddell, H., *Wandering Scholars* 210.
15. Taylor, *Medieval Mind*, I, 268.
16. Ibid., 430.
17. Coulton, *Five Centuries*, I, 183.
18. Lacroix, Paul, *History of Prostitution*, 692.
19. Cf. Longfellow's "Golden Legend."
20. *Cambringe Medieval History*, V, 675.
21. Thompson, *Economic History, of the Middle Ages*, 612.
22. Étienne de Bourbon, *Anecdotes*, in Coulton. *Five Centuries*, i, 79
23. Ogg. 258.
24. Coulton, *Five Centuries*, I, 308.
25. Ibid., IV, 165.
26. I, 304.
27. Munro and Sellery, 410.
28. In Gilson, E., *La philosophie au moyen âge* I, 92.
29. W. B. Yeats, introd. to Tagore, R., *Gitanjali*, xviii.
30. Munro and Sellery, 412.
31. Ibid.
32. Coulton, *Five Centuries*, I, 305.
33. Ibid., 391.
34. 336.
35. 387.
36. Jörgensen, *Francis*, 12.
37. in Sabatier, 149
38. Jörgensen, 21
39. Stabatier. 26, Bonaventure, *Life of St. Francis*, ch. 1.
40. Sabatier, 59f
41. *Mirror of Perfection*, ch. 14
42. *Tres Socii*, 35, in Sabatier, 74
43. *Mirror*, ch. 69
44. Ibid , ch. 11
45. Ibid.
46. Coulton, *Panorama*, 529
47. *Tres Socii*, 38-41
48. *Little Flowers of St. Francis*, *ch.* 8.
49. Ibid., ch. 9
50. *Mirror*, ch. 16
51. Ibid., chs, 29-35
52. Ibid., ch. 114
53. *Little Flowers*, ch. 22

54. Ch. 16.
55. Sabatier. 97.
56. Arnold, M., *Essays in Criiicism* First Series, 155.
57. *Little Filowers*, ch. 11.
58. Ch. 24.
59. Sabatier, 229.
60. Ibid., 227.
61. Dr. E. F. Hartung in *Time*, Mar 11, 1935.
62. *Mirror*, ch. 110.
63. Ch. 120.
64. Faure, E., *Mediel Art*, 398.
65. Text of the will in Sabatier, 837
66. Milman, V, 242.
67. *Cambridge Medieval History* VI, 737f.
68. Matt. Paris, ii, 443, in Coulton, *Five Centuries* IV, 170.
69. Ibid., 388.
70. Coulton, *From Francis*, 101-2.
71. Ibid.
72. Funk, I, 370.
73. Cromp, 413.
74. Lea, *Sacerdotal Cslibacy*, 105.
75. Power E. *Medieval People*, 64.
76, *Liti e Flowers*, ch. 83.
77. E g., *Nan's Rule*(Ancren Riwel) 105, 185.
78. Cf, pp 294-6.
79. Montalembert, II, 703.
80. Ibid.
81. Lea. *Celibacy* 264.
82. Taylor, *Medieval Mind*, I, 492.
83. Coulton. *Panorama*, 622.
84. Power, *Medieval people* 80.
85. Ibid.
86. Lea, *Inquisition diddle Ages*, III, 10-17.
87, Lea. I, 272,
88. *Cambridge Medeival History*, VII, 789.
89, Sabatier, 52.
90. Lea, II, 326,
91. Coulton, *Life*, III,64 ; Kantorowicz., 419,
92. Sabatier, 52 ; Taylor, *Medieval Mind*, I, 460.
93, Milman. V I, 123.
94. Coulton, *Life*, I, 205.
95. Catholic Encyclopedia, II, 662d.
96. Ibid., 663,
97. Thatcher, 311.
98. *Canbridge Medieval History* VII, 7-8.
99. Milman, VI, 282; Coulton, *Panorama*, 212,
100. Guizot, *France*, I, 591,
101. Catholic Encyclopedia, II, 666c
102. Ibid., 667c, Ogg, 383-8,
103. Adams, B., *Law of Civilization and Decay*. 173, Draper, *Intellectual Development*, II, 83
104. Guizot, *France*, 596.
105. *Cambridge Medieval History*, VII, 18
106. Onizot, 601 ; Draper, II, 86.
107. Milmau VI, 494f.
108. Lea. II, 58.
109. Hume. *England*, I. 511,
110, Coulton, *Five Centures*, IV, 118
111. Coulton, *From Francis*, 150.

CHAPTER XXX

1. In Coulton, *Five Centuries*, I, 176
2. Id., *Medieval Village*. 103.
3. Bede, i, 27,
4. Coulton, *Life*, IV, 160n.
5. In Coulton *From Francis*, 18.
6. Benvenuta da Imola in Coulton, *From Francis*, 416, Lecroix, *Prostitution*, I, 694,
7. Ibid, 695,
8. 700
9. 697,
10. II, 908.

11, Wright, ed., *Book of the Knight, of La Tour-Landry* Prologne, and ch. 35.
12, In Briffaulte, *Mothers*, III, 417.
13. Lecky, *Morals*, II, 152.
14. Lacroix, *Prostitution*, II, 904
15. Ibid., 904
16. 905
17. I, 721.
18. II, 869. Snmner, *Folkways*, 529, Bebel, 61, Garrison, *History of Medicine*. 19.., ..nger, Wm., *History of Prostitution*, 98.
19. St. Augustine, *De ordine*, ii, 4.
20. Thomas Aquinas, *Summa Theologicu*, II, IIea, x, 11.
21. Encyclopaedia Britannic, VXIII, 598a
22. Ibid.
23. Lacroix, *Prostitution*, I, 733-42.
24. Ibid., II, 751, Tanger, 95
25. Coulton, *Panorama*, 172.
26. Lecky, *Morals* II, 218.
27. Power, E. *Medieval People*, 118.
28. Pollock and Maitland, II, 387.
29. Coulton, *Panoruma*, 634
30. Bevan, E., and Singar, C. *Legacy of Israel*, 102
31, Cremp, 846
32. Ihomas Aquinas, *Summa Contra Gentiles*, iii, 122
33. Himes, *Contraception*, 160f
34. Lacroix, *Prostitution* I, 699
35. Coulton *Medieval Village*, 404,
36. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 122
37. Freeman, *Norman Conquest*, II, 166,
38, Wright, Th, *History of Domestic Manners and Sentiments*, 275,
39, Pollock and Maitland, II, 390; Crump, 297; Butler, P, *Women of Medieval France*, 30,
40, St. John Chrysostom in James, B., *Women of England*, 108
41. Thomas Aqninas, *Summa Theologica*, Supplement, lxxxi, 3.
42. Ibid. I, xciii, 4
43. Supplement, xxxix, 3
44. II, IIae, xxvi, 10
45. In Coulton, *Panorama*, 614, quoting Gratian, *Decretum*, II, xxxiii, 5
46. Coulton, *Life*, III, 114, *Five Centuries*, I, 174
47. Id., *Chaucer's England*, 212
48. Id., *Panorama* 618.
49. Schoenfeld, 41.
50. Davis, *Life on a Medieval Barony* 102.
51. James, *Women of England* 182.
52. Renard, 20,
53. Cf. James, 116
54. Wright, T. *Domestic Manners*, 273-4
55. Bultler *Women of France*, 104
56. Adams, H. *Mont st., Michel*, 211
57. Butle, 123
58. Tout. T.F., *Medieval Forgers*, in Coulton *Five Centuries* IV, 310
59. Haskins, *Renaissance* 89
60. Exs. in Coulton, *Chaucer's England*. 200, *Five Centuries*, I,251
61. Locroix, *Manners*, 41
62. Coulton, *Medieval Village* 72,344
63. Id., *Panorama* 14, 309
64. Encyclopaedia Britannica VIII. 8d
65. Coulton *Inquistion*, 47
66. Hume I. 185
67. Sslzman 303
68. Ashley, I, 7.
69. Coulton *Chaucer*. 131
70 Coulton. *Life* III. 5if
71. Id , *Medieval Village* : 0
72. Thompson, *Economic History of the Middle Ages* 611, Potter *Medieval Architecture*. II. 159.

73. Coulton, *Panorama*, 377.
74. Ibid.
75. Lea. *Inquisition in Middle Ages* I, 234-5.
76. Coulton. *From Francis*. 218
77. Sumner. 472, Jusseraud. 212. Boissonnade. 262-
78. Coulton. *Social Life*. 395.
79. Joinvile, 309
80. Cf. Coulton. *From Francis*, app C.
81. Jusserand. 132f.
82. Davis. *Medieval England*. 425
83. Zimmern. *Hansa* 111
84. Ibid.
85. Coulton. *Social Life*, 371, 425
86. Ashley, II. 328
87. Bacon. R. *Opus maius*. ed. Bridges, II. 251
88. Ashley. II. 307,
89. Ibid., 323
90. Davis. *Life on a MedievalBarony* 95.
91. Traill. I. 484
92. James. *Women*, 208
93. *Speculum*. Apr. 1940. 148. Encyclopaedia Britannica. IV. 470.
94. In Adams. H. 202
95. Frienländer *Roman Manners*. II. 183.
96. Butler *Women*, 147.
97. Dante, *Purgatorio*. xxiii. 102
68. Coulton. *From Fra"cis*. 271
99. Davis. *Life on a Medieval Barony*, 96
100, In Coulton. *Life*. III. 64
101, Crump. 431
102. Beard. 69
103. Coulton. *Life*. IV. 173
104. *Speculum*. Apr. 1928
105, Sarton, II (1), 69
106. *Speculum*. Jan. 1934 306
107. Ibid.
108. Lowie. *Are We Civilized?* 75
109. Lacroix. *Manners*, 176
110. Butler. *Women*, 150
111. Giraldus Camprensis, *Description of Wales* i. 10
112. Salzman. 171.
113. Lacroix P. *Arts of the Middle Ages*. 13
114. Rogers. *Sex Centuries* 46
115. Sedgwick, *Italy*. II. 197
116. Power. *Medieval People*. 103.
117. Thompson *Economic History of the Middle Ages* 595
118, Müller. Lyer. *Marriage* 56.
119. Coalton *Panorama* 313. Addison *Arts*. 272
120. Coulton *Medieval Village*. 27
121. Schevill. *Siena*. 349
122 Haskins. *Studies in Medieval Culture*. 122
123. Sedgwick. II. 206
124. Coulton. *Panorma* 96
125. Power E. *Medieval People*. 76
126. Laroix. *Manners*. 239. Coulton. *Medieval Village*. 559
127. Coulton. *Panorama* 96
128. Kirstein L. *Danee*. 88
129. Wright, Th. *Domestic Manners* 257.
130. Walsh J. *Thirteenth Centnry*. 452.
131. Davis *Medieval England*. 372.
132. Davis, *Life on a Medieval Barony*. 64
133. Encyclopaedia Bretannica. XIII. 791c
134. Lacroix. *Manners*. 233
135. Gardiner. E, N, *Athleties of the Ancient World*. 237
136. Coulton *Panorama* 83
137. Gardiner. 238
138. Coulton. *Panorama* 95
139. Conlton. *Social Life* 292
140. Id., *Chaucer*, 278.

141. Chambers. E. K. *The Medieval Stage.* I. 287. Maitland. *Dark Ages.* 174. Lacroix *Science and Literature in the Middle Agas* 240.

142. Ibid., Chambers. I. 23. Coulton *Panorama,* 616.

143. Chambers I. 343.

144. *Time* Dec. 31. 1945.

154. Waddell. *Wandering Scholars.* 200.

146. Couiton, *From Francis.* 56.

147. Ibid. 55.

148. 57.

149. 13.

CHAPTER XXXI

1. Jackson. Sir T. *Bezantine and Romanesque Architecture.* 94.
2. Id. *Gothic Architecture.* I. 59.
3. Spencer. H. *Principles of Sociology* III. 291. Coulton *Life* IV. 169.
4. Theophilus *Schedula diversarum artium.* Introd. in Dillon. *Glass* 126.

. Addison *Arts* 86. 59.

6. Ibid. 186.
7. Walsh *Thirteenth Century.* 515.
8. Saunders. *English Art in the Middle Ages.* 65
9. Ackerman. Phyllis. *Tapesty.* 42f
10. Ruskin. *Stones of Venice* I. ch. 2.
11. Morey. 195.
12. Short E. H. *The Painter in History* 75.
13. Mâle. *L'art religieux du XIIIe siècle.* 80
14. Taine. H. *Italy : Florence and Veince,* 49.
15. Encyclopaedia Birtannica.V.706d
16 Vasari, *Lives.* I. 66
17. Morey. 267
18. Lacroix. *Art* 251 i
19. Adams H. *Mont St. Michel.* 137
20. Saunders. 105
21. Mâle 78
22. Bond. F. *Wood Carvings inEnglish Churches.* 167

3, Ibid

24. Mâle 74
25. S Reinach in Walsh. *Thirteenth Century.* 106.
26 Kantorowicz. 535. Morey. 314. Sedgwick, II 225.

CHAPTER XXXIII

1. Pope A.U. *Iranian and Armenian Contributions to the Beginnings of Gothic Architecture.* 127
2. Porter II. 170
3. *Speculum* Jan 1927. 23
4. Mâle 66. Morey 214
5. William of Malmerbury, v,3
6. Encyclopaedia Britannica,VII 763
7. Cram, *Substance of Gothic* 119.
8. Pope *Contributions* 137
9. Bond. F. *Gothic Architecture in England* 263. Pirenne. *J Grands Courants.* II. 135. Porter II. 63.
10. Addison. *Arts* 201
11. Panofsky. I. *Abbot Suger*
12. Cram 144
13. Coulton, *Life* II, 18 Porter I. 151f.
14. Headlam. C, *Story of Chartres* 140
15, Jackson *Gothic Architecture,* I. 96
16. Ferguson. J *History of Architecture* 1, 540
17. Adams H, 66
18. Headlam. *Chartres.* 229
19. Ibid, 208

20. Ibid
21. Adams H. 76
22. Connick C. J., *Adventures in Light and Color.* 10
23. Robillard. M. *Chartres.* 54.
24. Faure. *Medieval* Art. 348. Bood. *Gothic Architecture in England* 33. Moore. C. H., *Development of Gothic Architecture.* 124
25. Jackson, *Gotbic Architecqure*, I, 189
26. Ibid
27. Walsh *Thirteenth Century*, 108
28. Armstrong, Sir W., *Art in Great Britain*, 46
29. Morcy, 293. Germany was closed to more scholars during the composition of these pages, which must therefore speak of German architecture and sculpture at secoud had, or from vague memories of visits in 1912 and 1932
30. De Wulf, *Medieval Philosophy* I, 3.
31. Morey, 297
32. In Taine, *Italy : Florence*, 89
33. Beard, 143
34, Streat G. *Gothic Architecture in Spain*, 106
35. Arnold, *Legacy of Islam*, 168, Dieniafoy. *Art in Spain*, 147.

CHAPTER XXXIII

1. Lang, P. H., *Music in Western Civilization*, 61.
2. Ibid., 43
3. Recse, *Music in the Midle Ages*, 63
4. Ibid., 2of, *Oxford History of Music*, introductory volume, 137
5 Lang, 71
6. Grove, *Dictionary of Music*, s.v. Notation.
7. Arnold, *Legacy of Islam*, 17. Sarton, II (1), 25, 406
8. The date and identity of Franco are disputed, cf. Grove, s.v. Franco of Cologne
9. Lang, 130
10. Ibid, 139
11. GiraldusCambrensis, *Description of Wales* I, 8.
12. Lang. 97.
13 Jusserand. 196
14. Reese 206
15. Ibid , 246.
16. So argues,with considrable scholership. Julian Ribera in *La musica de las cantigas*; cf.McKinney H. D.; end Anderson. W. R., *Musics in History.* 181. Beck Gennrich, and Reese prefer to derive the name and songs of the troubadours from the trope, cf. Reese. 218.
17. Lacroix, *Arts*, 203.
18. Addison, *Arts*, 110.
19. Reesse, 123.
20. Rowbotham, 6. Lacroix, *Arts*, 205.
21. Ibid.,, 204.

